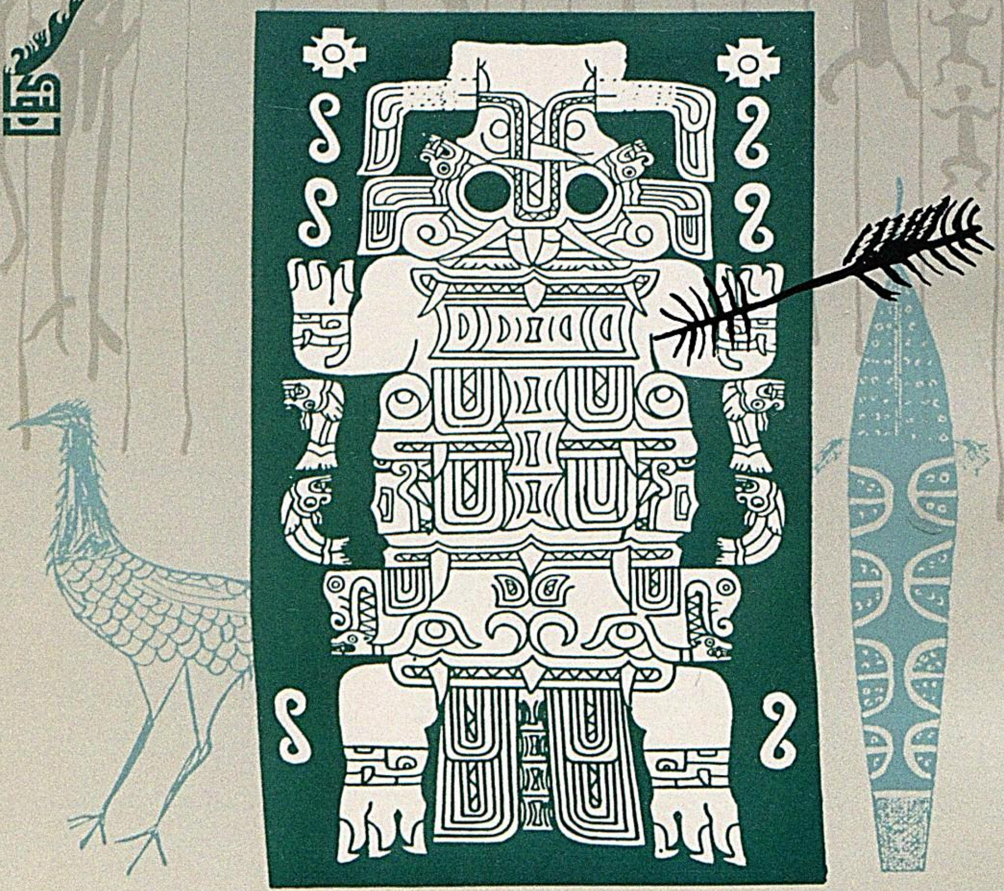


كلود ليفي شتراوس

مَدارَاتٌ حَزِينَة

ترجمة: محمد صبح

قدّم له: د. فيصل درّاج

مداريات حزينة

العنوان الأصلي للكتاب

TRISTES TROPIQUES

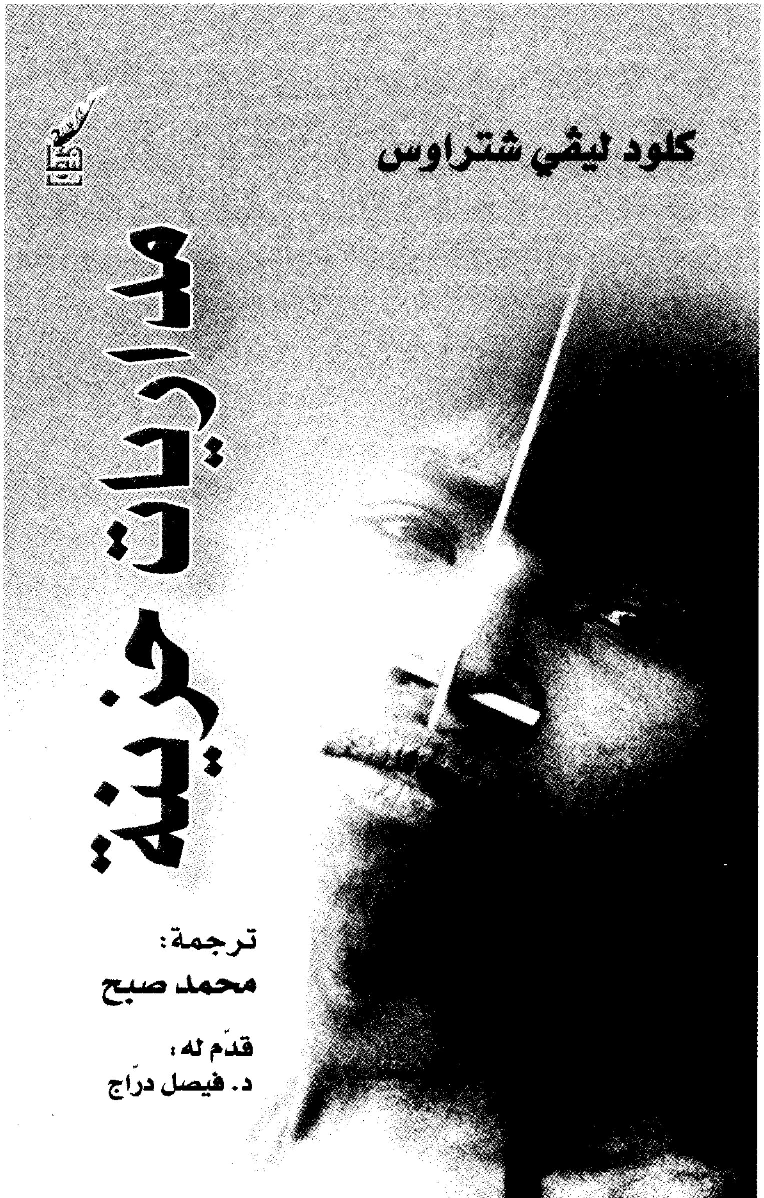
PAR

C. LÉVI-STRAUSS
De l' Académie française

PLON

نشر هذا الكتاب
بدعم من المركز الثقافي الفرنسي بدمشق
ومساعدة وزارة الخارجية الفرنسية

Cet ouvrage est publié
avec le soutien du Centre Culturel français de Damas
et le concours du Ministère français des Affaires Etrangères


كلود ليفي شتراوس
مدارات حزينة
ترجمة:
محمد صبح
قدّم له:
د. فيصل درّاج

مداريات حزينة

تأليف: كلود ليڤي شتراوس

الناشر: دار كنعان
للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق – ص. ب: 443
هاتف: 2134433 (11- 963+)
فاكس: 3314455 - 2134433 (11- 963+)
E-mail: said.b@scs-net.org

الطبعة الأولى: 2000/2003

تصميم الغلاف والإخراج: م. جمال الأبطح
jamala@scs-net.org

الاستشارة الأدبية والثقافية:
د. فيصل دراج – أ. ممدوح عدوان

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها
على صفحة الشبكة التالية:
http://www.furat.com

شتراوس وشعرية المعرفة

د. فيصل درّاج

يقول كلود ليفي شتراوس عن إنجازه العلمي الكبير «أسطوريات»: «إنه لا يساوي العناء الكبير الذي بذل فيه». ليس في القول، الذي يمس عملاً من أربعة مجلدات في آلاف الصفحات، ما يدلل على غرور أو تواضع كاذب، بل أن فيه ما يصرّح بزهد شديد وبصدق مأخوذ بحقيقة غائمة الاتجاهات. فالإنتربولوجي الشهير، الذي ولد في باريس عام ١٩٠٨، يستأنس بغموض الحقيقة ولا يركن إلى وضوح العلم إلا قليلاً. ولهذا يبدو كتابه الغريب «مداريات حزينة» صورة مطابقة له، يعلن عن شعرية المعرفة، وعن محدودية العلم، الذي يفتح باباً ويغلق آخر، ويرى في الكون سؤالاً شاسعا لا يُستنفد أبداً.

«مداريات حزينة» كتاب مختص وبعيد عن الاختصاص في آن، يلمس فيه «الإثنولوجي» مادة غزيرة، ويقع فيه القارئ على ما يشير إلى الفنون والطبائع البشرية، ويلمح فيه من أراد كلاماً مشرقاً ينوس بين الشعر والتصوّف. ولعل طبيعة الكتاب، التي تضعه في حقل الاختصاص وفي حقول أخرى، هو ما دفع بغير المختصين أن يحتفوا به حين ظهر عام ١٩٥٥، حال جورج باتاي وموريس بلانشو وريمون آرون، وهو ما جعل أكاديمية غونكور تتمنى أن يكون الكتاب رواية، كي تتوجّه له بجائزتها الشهيرة. ولأن في الكتاب اختصاصاً وما يفيض على الاختصاص، نظرت إليه الأوساط العلمية بتحفظ

محسوب، مدافعة عن «العلم الخالص»، المبرّأ من روح الشعر وأطياف التأمل. ولم تكن تلك المواقف المختلفة إلا صورة عن كتاب لم يشأ أن يكون كغيره، انطوى على يوميات «إنسانية» قلقة متسائلة، وعلى معارف «إثنولوجية» جديدة، واستعاد عنواناً هجس به الانتربولوجي الشهير ذات مرة، ذلك أن شتراوس شرع في شبابه بكتابة رواية عنوانها «المدارات الحزينة»، تخلّى عنها بعد ثلاثين صفحة.

بنى شتراوس شخصية مسكونة بالمفارقة، تعيش زمنها وزمناً آخر، وتتحرّر من زمنها متوسّلة أقاليم مهجورة وبعيدة، فهو دارس «الشعوب البدائية»، الذي يكره «الأسفار والاكتشافات»، ويرى في السفر الضروري بهجة قوامها الأسى، فتكرار البهجة تكرار للسفر الذي لا يطاق، وهو العالم الذي يقرأ الزمن الحديث بوثائق من أزمنة غابرة، فلا جسور مهدومة تماماً بين رواسب القبائل السائرة إلى الانقراض ومجتمعات باريس ونيويورك، ذلك أن غياب الجسور الإنسانية يمنع المعرفة. وهو العالم الموسوعي المدقق، المنفتح على ألوان المعرفة المختلفة، الذي يتطيّر من اليقين والأحكام النهائية، ويضع الحدس الذي لا جدران له إلى جانب المعطيات العلمية. وهو الباحث المعمّر الذي يكثر من الحديث عن الغابر والمنقضي والمتلاشي، ويسأل «الإنسان العابر» أن يكون رحيماً في رحلته العارضة، وأن لا يتصرف بـ«أرضه» بسفاهة وغلظة. وضعت هذه الصفات، التي تقترب من الفرادة، في شخصية شتراوس تصورات إنسانية رحبة، تقول بالتسامح والتعامل الحواري ونبذ التعصب، قبل أن تستقر في صيغة أخلاقية – نظرية عنوانها: الدفاع عن التعددية الثقافية.

يتحرر شتراوس من دعاوى العرق والجنس و«سلطة القوة»،

ويدافع عن التنوع الثقافي الإنساني وضرورة الحفاظ عليه، واستنباط الوسائل التي تمدّه بالتجدّد والديمومة، وتصوّر كهذا ينكر، بداهة، معتقدات «المراتب البشرية» ويقول بثقافات إنسانية متساوية، تختلف ولا تتنافى، وتتباين ولا تتناكر، وتتحاور ولا يمحو بعضها بعضاً. وهذا التنوع، الذي يحتقب تجارب مختلفة الشروط والأزمنة، هو ما يجعل الحوار الثقافي بين الشعوب المختلفة ضرورياً، وما يغني الثقافات المتحاورة، التي يقودها الحوار المتكافئ إلى أسئلة جديدة، ويضيف إلى عناصرها الموروثة عناصر وافدة. وحال الثقافة الإنسانية الشاملة كحال الثقافات المندرجة فيها، تزدهر بالتعدد والتنوع، وتفتقر بالأحادي الذي يخاصم غيره وبـ«المركزي» الذي يجتث ما عداه. ولهذا يعبّر «التجانس الثقافي الإنساني» عن إفقار للثقافة الإنسانية، لأنه يمحو أزمنة ثقافية بأخرى، ويدفع بـ«الثقافات البدائية» إلى الانقراض. ولعل هاجس التنوع الثقافي هو ما جعل شتراوس يكتب في عام ١٩٥٢ كتابه الصغير «العرق والتاريخ»، الذي أصبح من النصوص الكلاسيكية التي تندّد بالعنصريات المختلفة، وأضاف إليه، بعد عشرين عاماً تقريباً، «العرق والثقافة»، الذي يستأنف أسئلة النص الأول ويزيدها وضوحاً.

يقول شتراوس «يجب أن تسهر الثقافات التي ترتبط بأسلوب حياة وبنظام قيم على خصوصيتها، وهذا إجراء سليم وغير مقبول في آن ..، ذلك أن كل ثقافة تتطور بفضل تبادلاتها مع ثقافات أخرى، لكن ينبغي أن تخلق كل منها مقاومة خاصة بها، وإلا فسرعان ما ستفقد كل شيء يمكن مبادلته. إن لكل من غياب الاتصال والإفراط فيه خطره ..». يدعو شتراوس إلى «حوار الثقافات»، كشرط لتطورها، ويدعو إلى تخليق المقاومات الثقافية، فالثقافة التي تستسلم لغيرها

تتطفئ ثم تندثر. ولعل فكرة التنوع الثقافي هي التي أملت عليه، منذ زمن مبكّر، أن يتحرّر من «المركزية الثقافية الأوربية»، وان يذهب إلى ثقافات مغايرة في طريق الانقراض، تعامل معها الاستعمار الأوروبي بأدوات القتل والإبادة والاجتثاث، بعد أن رأى، ولا يزال، في غير الأوروبي خطيئة ونظيراً للشيطان. في رحلته إلى قبائل «بدائية» في أطراف البرازيل كان شتراوس يعترف، أخلاقياً، بثقافة غريبة عنه، ويعترف، علمياً، أن لـ«الآخر» وجوده العياني الذي لا يُشتق من كليات إيديولوجية جاهزة، وهو، في الحالين، وكما جاء في «مداريات حزينة»، يؤكد الأخلاق عنصراً داخلياً في الإنتاج المعرفي ويصيّر المعرفة قضية أخلاقية، بعيداً عن اجتهادات «أكاديمية» متتاجة حتى اليوم، تشتق الحقيقة من القوة. بل أن ممّسك شتراوس بفكرة الاختلاف الثقافي، التي تستدعي فكرة الاعتراف وتكتمل بها، قادته إلى الابتعاد عن كل فكر فلسفي يعبث بالعياني ويحتفي بالكليّات، وعن كل منظور يبدأ بالتاريخ الأوروبي وينتهي به. وهذا ما يفسّر موقفه من ميشيل فوكو، كما يقول، الذي حصر اهتمامه بالثقافة الأوروبية وتعامل مع تاريخ أوروبي خالص.

اتكاءً على ما سبق، فإن مصطلح «الشعوب البدائية»، الذي يأخذ به شتراوس، لا يحيل على قيمة أو تقييم، فهو مصطلح أملاه الاستعمال المتواتر لا أكثر، فهذه الشعوب بقيت على ما أرادت أن تبقى عليه، لأنها ترى في أزمنتها القديمة مثالاً أعلى ينبغي الحفاظ عليه، وترى في المثال المرغوب تتويجاً لمشيئة الآلهة وإرادة الأجداد. بهذا المعنى، فإن «البدائي» يُفسّر بإشكال خاص به دون إسقاط خارجي عليه، فهو وجود مستقل يقاس بذاته لا بغيره، كما لو كان ضد «البدائي» هو «الآخر»، لا «المتمدن» الذي يعالج بمعايير خاصة به أيضاً.

وكذلك هو حال «الفكر المتوحش»، وهو عنوان كتاب لشتراوس، الذي يحيل على شكل محدد من الفكر له قوانينه ومعاييره، ولا يستدعي قط فكراً مغايراً يتفوق عليه، غربياً كان أو صينياً. وبداهة، فإن هذه النسبية الثقافية، التي تنكر ثنائية الأعلى والأدنى، هي في أساس فكرة التنوع الثقافي، الذي يدعو إليه الانتربولوجي الأخلاقي، وإن كان في دعوته حنين رومانسي إلى أزمنة منقضية، وأبعاد أخلاقية تتوسل تاريخاً إنسانياً شارداً يتقدم إلى حيث يشاء.

لا يختلف الأمر حين يتحدث شتراوس بلغة مربكة عن «المجتمعات الباردة»، التي يدرسها الاثنولوجي ولا يدرسها المؤرخ، الذي يخطئ فيها مادته، و«المجتمعات الحارة» التي تزوّد المؤرخ بما شاء من الأسئلة والإجابات. فالمجتمعات الأولى، التي لا تاريخ لها، دون أن تمنع التاريخ عن المساس بها، بقيت على ما بقيت عليه لأسباب خاصة بها، كأن ترى مستقبلها في ماضيها وأن ترى في التحوّل عبثاً لا طهر فيه، على خلاف المجتمعات الثانية، التي تعيش في التاريخ وتفسّر به وترى في المعرفة التاريخية أداة للتطور والاستقراء. يقرأ الاثنولوجي في «المجتمعات الباردة» وثائق بشرية أقرب إلى الصمت تتناتج ميكانيكياً في زمن متجانس، أو تتوالد متجانسة في زمن لا فروق فيه ولا تناقضات، وبسبب ذلك، تتمتع هذه المجتمعات بكثير من «الانتظام»، بقدر ما تقوم ثقافتها على نظام قليل. كأن في ثقافتها فوضى تستعصي على النظام، وكأن فيها، أي هذه المجتمعات، ما يحتفي بالسكون ويحافظ عليه. وعلى خلاف ذلك، فإن «المجتمعات الحارة»، أو «المجتمعات التاريخية»، بلغة أخرى، تتميّز بثقافة شديدة النظام، آيتها الآلة والآثار الصناعية واختصاص منضبط في تقسيم العمل، وبهيئة اجتماعية تميل إلى الفوضى وعدم

الانتظام، مجلاها الصراعات الاجتماعية والنزاعات السياسية، أي حراك اجتماعي مفتوح يمنع الركود والتواتر المتجانس. تتعيّن الحضارة، بهذا المعنى، بعنصرين، أحدهما الثقافة التي تحكم علاقة البشر بالعالم، وثانيهما المجتمع الذي يحدّد علاقات البشر ببعضهم. وعلى الرغم من التاريخ الذي يُستظهر متدفقاً في «المجتمعات المتدنة»، ويستولد من الحاضر مستقبلاً أكثر تطوراً، اعتماداً على تراكم لا يكف عن التجدّد، فإن شتراوس بعيد عن الاحتفاء بالتاريخ وبعيد أكثر عن «التفاؤل التاريخي»، الذي يضع في المستقبل أزمنة فاضلة. ولهذا يشير في أحاديثه إلى أمرين لا يمجدان كثيراً فكرة التقدم: أولهما نزعة المساواة لدى «الشعوب البدائية»، التي تأمر «الزعيم» أن يتساوى بغيره، وتمنع عن غيره رغبة الفروق، وثانيهما العلاقة المتلازمة بين التقدم والاستغلال، التي تضع مجموعة من المجتمع في خدمة مجموعة أخرى، كما لو كان التقدم يستدعي، لزوماً علاقات السيطرة والإخضاع. ولعل مفهوم التقدم، في أسئلته الملتبسة، هو الذي يجعل شتراوس يربط بين ظهور الكتابة والمجتمعات المرتبية، التي تتألف من فئات غير متساوية، حيث على الخاضعين أن يمتثلوا إلى مراجع مسيطرة. ومع أن في الكتابة ما يحيل إلى تعويض الذاكرة الإنسانية الواهنة بذاكرة ثابتة من حبر وورق، فإن فيها أولاً ما يشير إلى سلطة سياسية تحتاج إلى الإحصاء والتدقيق والتثبيت، وإلى ذلك «الأرشيف» الثقيل، الذي يحتفظ بأسرار الأموات والأحياء.

تأمل شتراوس معنى التقدم دون ثقة ولا طمأنينة، متكئاً على تصورات خاصة، على مبعدة من دعاة «ما بعد – الحداثة»، الذين يتوزّعون على «حالمين مخذولين»، وعلى فلاسفة صغار، يرتكنون إلى «مطالب السوق» ويطلقون جملاً متحذلقة تقول

أشياء كثيرة ولا تقول شيئاً. فتشاؤم صاحب «النيء والمطبوخ» يصدر عن مراجع مختلفة، تتضمن تصوراً رومانسياً يرى إلى حضارات متنوعة رحلت إلى الأبد، وآخر، لا رومانسية فيه، يشهد اليوم على حضارات تلتهم أخرى، ساخرة من التنوع والحوار والاعتراف المتبادل بين «المجتمعات الباردة» و«المجتمعات الحارة». وهذا الوعي الأسيان هو الذي يضع على قلمه في «مداريات حزينة» جملاً متأسية عن الزائل والمتلاشي والمنقرض وعن «اثنولوجي» قادم، لن يلتقي بالشعوب التي عرفها شتراوس، وتعامل معها باحترام كبير.

الدفاع عن المتعدد تعبير عن اللايقين، كما لو كان في الأحادي المتجانس المكتفي بذاته ما يقمع الوعي ويصادر الأسئلة. فالمفرد مغلق يستولد السكون والمتعدد مفتوح ومسكون بالحركة. ولهذا تأتي الثقافة الإنسانية الخصبة من ثقافات، وتصدر الحقيقة عن حقائق جزئية تنهى عن الحقيقة النهائية. واللايقين سيد المعارف تحض عليه معرفة استُنزفت وتشجع عليه معرفة جديدة قابلة للاستنزاف. وشتراوس، الذي لا يطمئن إلى الوضوح الخالص، يؤمن بحقائق مؤجلة، تأخذ بوسائل العلم وتقف على تخوم الاحتمال. وهذا ما يجعله يتبنّى تعبير ماركس عن «الوعي الذي يخادع صاحبه»، حيث الوعي يقترح طريقاً ويفضي إلى طريق آخر. وبسبب ذلك، يظل «النموذج النظري» مجزوء التحقق، ذلك أن اللاّمتوقع يمكر بالمتوقع والمتنبأ به لا يتخفف من المفاجأة. كأن في التطبيق، الذي يحتضن اللاّمتوقع ويأويه، ما يُقْلق «النموذج النظري» ويستنزفه، مبيّناً أن الواقع يتمرد على الفكر، وأن الفكر لا يستنفد الواقع ولا يروّضه. نقطة معتمة، تحتجب أبداً لحظة النظر وتتراءى لحظة التطبيق. يقول شتراوس: «إن للفكر قيوداً يفرضها على واقع لا يمكن الدخول

إليه أبداً، كما لا يمكن إدراكه إلا عبرها». تصرّح الجملة باجتهاد معرفي دؤوب، وبشك مستمر لا ينطفئ. وواقع الأمر أن صاحب «مداريات حزينة» يبني العملية المعرفية على جملة من العناصر المتعددة، لا يمكن ضبطها كلّياً ولا السيطرة عليها تماماً، بل أن تعددية العناصر المعرفية، التي تندرج في «النموذج النظري»، هي في أساس الشك الضروري. وهذه التعددية التي تفصل بين العلوم الاجتماعية والعلوم الحقيقية، فالعلوم الأولى تتنافى ولا تتكامل، على خلاف العلوم الحقيقية التي تقبل بالتكامل، كما يقول شتراوس.

«تبقى الأحداث غير قابلة للتوقع ما دامت لم تحدث بعد. لكن حالما يتم ذلك، يمكننا أن نحاول فهمها وتأويلها»، يقول شتراوس. ينفي الانتربولوجي إمكانية التنبؤ، وهي خاصة العلوم الطبيعية، وينفي إمكانية فهم الظواهر فهماً منجزاً، ذلك أن في الفهم مكاناً واسعاً للتأويل. ولهذا يؤكد «أن من المستحيل الوصول إلى معنى أخير»، طالما أن الشروط متغيّرة والمتعاملين لا ينقصهم التغيّر. تدور الظواهر في فضاء ملتبس، يحتقب المحتجب والمتغيّر والعارض، وعلى الإنسان أن يبصر ما التقى به، وأن يلوذ بالبصيرة كي يلتقي بما تبقى، إن استطاع. وهذه «اللاّأدرية» ترصّع كتاب «مداريات حزينة» بسطور مثقلة بالبوح المتأسي، تعلن عن غموض الكون وعجز الفكر الإنساني «الذي لن يستطيع معرفة الأوراق والأزهار في تعدديتها اللامتناهية». والعجز، الذي لا خلاص منه، يقيم بين «الأنا والكون علاقة جديدة»، كأن يستبطن العارف العاجز الكون، أو يذوب فيه. والعجز، الذي لا خلاص منه، يحوّل «رحلة المكتشف إلى خديعة»، لأن الرحّالة اكتشف جهله قبل أن يقع على معرفة جديدة. بيد أن البوح الحزين لا يتأتى فقط عن معرفة هاربة، تواجه الإجابة الأخيرة المطمئنة

بفيض من الأسئلة المستعصية، بل يصدر أيضاً عن مَعْرض الفناء الرهيب، فرحلة المعرفة ترمي في عين العارف أطلال شعوب مندثرة و«عشباً محترقاً وعيوناً ساطتها الرمال». يعيش المكتشف رحلة مسكونة بالسلب، يبني معرفة من مواد إنسانية في طريقها إلى الانحلال، دون أن ينسى رحّالة سبقه رأى أكثر ممّا رأى، ورحالة آخر لن يرى، ربما، شيئاً. بهذا المعنى، تكون «الشعوب الباردة» مادة علمية وشاهداً مفزعاً على الفناء وبرهاناً عن «غطرسة الإنسان»، الذي يساوي بين رحلته العابرة والأبدية.

«بعد بضع مئات من السنين، وفي هذا المكان بالذات، سيأتي مسافر آخر، لا يقلّ عني يأساً، يتأسى على اختفاء ما رأيته وما فاتني. ضحية عجز مزدوج أنا، كل ما ألمحه يجرحني وألوم نفسي على الدوام لأني لا أطيل النظر..». تكشف هذه السطور، كما غيرها، عن شخصية فريدة، تقف على تخوم المعارف وتتطلّع إلى أقاليم أخرى، عناصرها الشعور والحدس والبصيرة. لا غرابة أن يتأمل شتراوس الفنون بإسهاب حكيم، ويرى فيها إنجازاً إنسانياً لا يضارعه غيره، كأن يقول: «أن يُحذف صدفة عشرة أو عشرون قرناً من التاريخ، لا يؤثر فعلياً على معرفتنا بالطبيعة الإنسانية. فالخسارة الوحيدة التي لا يمكن تعويضها هي الأعمال الفنية التي شهدت هذه القرون ولادتها». ولعل اهتمامه بالفنون هو الذي أقام علاقة بينه وبين الشاعر فاليري وغوته وكانت، حيث يلتقي الشعر بالمعرفة والمتخيل بالعلم، وحيث «الغامض» يستقر في المعارف جميعاً.

ينتمي شتراوس إلى البنيوية ولا ينتمي إليها، لأنه ينتمي إلى اجتهاد خاص به، يحدّد معنى البنية والبناء والتحوّل.. فقد استلهم، إن كانت الكلمة دقيقة، «النموذج النظري» من

فرويد وماركس، وتأثر بكانت وهوسرل ولايبنتس وآخرين، وأعطى لمعارفه صياغة تردّ إليه قبل أن تستدعي آخرين. ولهذا كان بنيوياً، دون أن يدري، كما صرّح لياكبسون، الذي تعاون معه، ذات مرة. لم يكن غريباً، والحالة هذه، ألاّ يرى قرابة بينه وبين «بنيويين» آخرين معاصرين له، وهو ما يصرّح به في كتاب «من قريب من بعيد». فهو لا يقاسم فوكو منظوره للمعرفة، ولا يقتنع بفرضيات لا كان، ولا ينظر إلى أعمال بارت بإعجاب كبير. فإن نسب ذاته إلى أحد، جاء باسم الفيلسوف الألماني كانت، معترفاً إنه «كانتي مبتذل». بل أنه لا يمنع نفسه، وهو يرى إلى النقد الأدبي البنيوي، عن استعمال كلمات غاضبة يخالطها الاحتقار، كأن يتحدث عن «الاحتيال الفكري» و«الاستخدام التعسفي» لكلمة «بنية»، وعن «بنيوية مزعومة ليست في الواقع سوى حجة للرداءة». وواقع الأمر أن شتراوس، الذي يفصل بين العلوم الاجتماعية والعلوم الحقيقية، أبعد ما يكون عن بنيوية سعيدة، تحدثت عن «علم الأدب»، وأعطت الكلمات المتقاطعة صفة علمية.

حين يتحدث شتراوس في «مداريات حزينة» عن «المتوحشين» الغرباء الذين التقى بهم يقول: «قريبون مني كصورة في مرآة، أستطيع لمسهم، لا فهمهم». جدار لا مرئي يفصل بين «الاثنولوجي» الغريب و«البدائي» الأكثر غربة، ويدفع بالطرفين إلى دائرة قاسية لا يمكن اجتيازها، فوراء المرآة يقف الصمت والخواء لا أكثر.

«مداريات حزينة» كتاب نبيل، يحاور فيه المعروف المجهول، ويسائل المتوقع اللامتوقع، ويواسي الشعر العلم، وتؤانس البصيرة المعارف جميعاً. كتاب عن «الشعوب البائدة» حيث للاختصاص مكانه، وعن الحزن الإنساني الطليق، الذي يفيض على العلوم المختصة جميعها.

القسم الأول

نهاية الأسفار

رحيل

1 أنا أكره الأسفار والمستكشفين، وهأنذا أتهيأ لرواية رحلاتي(*). ولكن كم من وقت مضى حتى أحزم أمري! خمسة عشر عاماً انقضت مذ غادرت البرازيل لآخر مرة، وكثيراً ما راودتني، خلال هذه السنوات، فكرة الشروع بهذا الكتاب، لكن نوعاً من الخجل والتقزز منعني في كل مرة. ماذا؟ أينبغي علي أن أقص بكل دقة تلك التفاصيل التافهة، والحوادث التي لا معنى لها؟ إذ لا مكان للمغامرة في حرفة الأثنوغرافي، بل هي عبء عليه لأنها تثقل العمل الناجع بوطأة أسابيع أو أشهر تضيع في الطريق، وساعات من التبطل، بينما يتوارى المخبر عن الأنظار، وجوع وتعب ومرض أحياناً، بالإضافة إلى ما لا يحصى من المشقات التي تقرض الأيام من دون طائل، وتجعل الحياة الخطرة في قلب الغابة البكر أشبه بالخدمة العسكرية. فأن يتوجب بذل هذا القدر من الجهود والمصروفات التي لا جدوى منها، لبلوغ الغاية من دراستنا، لا يضفي أية قيمة على ما ينبغي اعتباره الوجه السلبي لحرفتنا. لأنه لا قيمة للحقائق التي نذهب إلى هذا البعد للبحث عنها، إلا إذا جردت من هذه الشوائب. فبوسع المرء، بالتأكيد، أن يمضي ستة أشهر من السفر والحرمان والإعياء، للحصول على أسطورة مجهولة، (الذي يستغرق عدة أيام، وأحياناً ساعات) أو عادة في الزواج جديدة، أو قائمة بالأسماء القبلية، لكن هل تستحق حثالة الذاكرة من قبيل: «في الخامسة والنصف صباحاً، كنا ندخل مرسى ريسيف بينما كانت النوارس تتصايح،

(*) يجدر التنبيه إلى أن جل ما في الكتاب يتحدث عن رحلات المؤلف الاستكشافية فيما بين ١٩٣٤ و ١٩٣٩، وشيء عن رحلته إلى الهند في أوائل الخمسينيات؛ وقد صدر الكتاب لأول مرة في العام ١٩٥٥. (المترجم).

وتشكيلة من قوارب بائعي الفاكهة الغريبة تتزاحم على طول جسم السفينة» أن أرفع القلم لتدوينها؟

ومع ذلك يلقى هذا النوع من الحكايات حظوة، لا أجد لها تفسيراً. فالأمازون والتيبت وإفريقيا تجتاح المكتبات على شكل كتب الأسفار، وتقارير عن رحلات علمية ومجموعات للصور، يسيطر فيها هدف التأثير إلى درجة، لا تمكّن القارئ من الحكم على ما يقدّم من شهادات. وعوضاً عن تنبّه فكرِه النقدي، نجده يطلب المزيد من هذا العلف، ليبتلع منه كميات ضخمة. إنها حرفة أن يكون المرء الآن مستكشفاً؛ حرفة لا تقوم، كما قد يظن، على اكتشاف وقائع بقيت مجهولة، بعد سنوات من الجهد، بل على قطع الكثير من الكيلومترات، وجمْع صور تُعرض ثابتة أو متحركة، والأفضل أن تكون بالألوان، يتم بفضلها ملء قاعة لأيام متوالية بجمهور من المستمعين؛ استحالت لديهم السطحية والابتذال بأعجوبة إلى كشوف، لمجرد أن من قاموا بها، أضفوا عليها القداسة بقطعهم مسافة عشرين ألف كيلو متر، عوضاً عن انتحالها وهم في بلادهم.

ماذا نسمع في هذه المحاضرات؟ وماذا نقرأ في هذه الكتب؟ تفصيلات الصناديق التي نقلت، ومضايقات كلب السفينة الصغير. بالإضافة إلى نتف من معلومات باهتة متناثرة منذ نصف قرن في كل الكتب المدرسية، ممزوجة ببعض الطرائف؛ لا تتورع وقاحة فريدة من نوعها، لكنها تتناسب مع سذاجة وجهل المستهلكين، في تقديمها كشهادة، لا بل اكتشاف أصيل. لا شك أن ثمة استثناءات، وقد شهد كل عصر رحالة نزيهين؛ وربما أذكر بطيب خاطر واحداً أو اثنين ممن يتقاسمون الحظوة لدى الناس اليوم. إلا أن هدفي ليس فضح الخداع ولا منح شهادات، بل فهم ظاهرة أخلاقية واجتماعية تختص بها فرنسا، ويرجع ظهورها إلى فترة قريبة وحتى في بلادنا.

لم يكن الناس يسافرون، منذ عشرين سنة، إلا قليلاً. ولم تكن قاعات بلاييل، المكتظة خمس أو ست مرات، هي التي تستقبل رواة المغامرات، بل مكان وحيد لمثل هذه التظاهرات، هو ذلك المدرج الصغير المعتم البارد

الخرب، الذي يشغل جناحاً قديماً في طرف حديقة النباتات. إذ كانت جمعية أصدقاء متحف الآثار تنظّم هناك كل أسبوع -ربما ما زالت تفعل- محاضرات عن العلوم الطبيعية. وكانت آلة العرض ترسل، على شاشة أكبر من اللازم وبمصابيح جد خافتة، أخيلة غير واضحة، لا يتوصل المحاضر، إلى إدراك حدودها إلا بصعوبة مع قربه الشديد من الشاشة. ولا يميزها جمهور الحضور إلا قليلاً عن بقع الرطوبة التي تلطخ الجدران. وكان المرء، بعد ربع ساعة من الوقت المعلن، يتساءل بقلق عن احتمال حضور مستمعين، زيادة عن الحاضرين النادرين من الوجوه المألوفة، المتناثرين في المدرج. وفي اللحظة التي كان يتسرب اليأس إلى النفوس، كنت ترى القاعة تمتلئ إلى نصفها بأطفال تصطحبهم أمهاتهم أو مربياتهم، يحدو الأوليات رغبة في تغيير مجاني، والأخريات سأم من ضجيج الشارع وغباره. وكان المحاضر، في مواجهة هذا الخليط من الأشباح القديمة والصبيان المتلهفين -كمكافأة كبرى لجهوده وأعماله-، يستعمل حقه في نثر كنز من ذكريات تجمدت للأبد بمحفل كهذا. وبينما يتحدث عنها في الضوء الخافت، كان يشعر بأنها تنفصل عنه، ساقطة واحدة بعد الأخرى، سقوط حصيات في قعر بئر.

كذلك كانت العودة، لا تكاد تزيد في كآبتها إلا قليلاً عن احتفالات الانطلاق، التي تمثلت في مأدبة أقامتها لجنة فرنسا - أمريكا في نزل بالشارع المسمى الآن «فرانكلين روزفلت» وكان مهجوراً؛ حيث قدم متعهد مآدب، ساعتين من قبل، بمواقده وأوانيه، دون أن تنجح تهوية سريعة، في تطهير المكان من رائحة الخراب.

كنا جالسين حول طاولة جد صغيرة بالقياس إلى القاعة الفسيحة، التي تمّ كنْس الجزء المركزي المشغول منها فقط؛ أساتذة مستجدون لم نعتد على وقار مثل هذا المكان، ولا على السأم المغبر الذي يفوح منه. لم نكد نبدأ العمل في ثانوياتنا بالأقاليم، وسننتقل فجأة، بناء على رغبة جورج دوما(*)

(*) جورج دوما: طبيب وعالم نفس فرنسي (١٨٦٦ - ١٩٤٦) أشرف على (المبسوط في علم النفس) الذي أسهم في نشر هذا العلم على نطاق واسع. (المترجم).

المنحرفة شيئاً ما، من رطوبة الشتاء في الغرف المفروشة بعواصم الأقاليم، التي ترين عليها روائح الشراب والقبو وأغصان الكرمة المبردة، إلى البحار الاستوائية والسفن الفخمة، وهي خبرات قدر لها أن تكون على علاقة بعيدة مع الصورة التي كنا نكوّنها عن تلك البحار والسفن وأظهرت الأسفار خطأها البين.

كنت تلميذاً لجورج دوما زمن (المبسوط في علم النفس). إذ كان يجمع طلاب الفلسفة مرة في الأسبوع بقاعة سانت - آن، التي كان جدارها المقابل للنوافذ مكسواً تماماً برسوم بهيجة من عمل المجانين. كنا نشعر منذئذ بأننا معرّضون لنوع من الغرابة الفريدة، حين ينتصب «دوما» على المنصة؛ بجسمه القوي الخشن، الذي يعلوه رأس يشبه جذراً ضخماً ابيضَّ وتعرّى إثر بقائه في قاع البحر. ذلك أن لون وجهه الشمعي، كان يوحِّد الوجه بالشعر القصير الأبيض، والعثنون الأبيض المشعّث. كان هذا الحطام النباتي، بجذيراته المنفوشة، يتحوّل إلى إنساني من خلال نظرة فاحمة تبرز بياض الرأس، ويستمر التضاد عبر القميص الأبيض ذي الياقة المثنية المنشاة، وسواد القبعة العريضة الحافة، والبذلة وربطة العنق العريضة الدائم.

لم تكن دروسه تعلّم الكثير، ولم يكن يحضّر لها قط، واعياً بجاذبيته الجسمانية التي يمارسها على مستمعيه بحركات شفتيه المعبّرة، وصوته الأجش الشجي بخاصة، (صوت حورية بحر حقيقي) الذي لا تعود نبرته إلى مسقط رأسه في اللانغدوك وحسب، بل إلى أنماط عتيقة من اللغة الفرنسية المنطوقة، حيث يذكِّر الصوت والوجه، عبر حاستين، بأسلوب إنسانيي القرن السادس عشر من الأطباء والفلاسفة، الذين يبدو أنه يجسدهم جسماً وروحاً.

كانت الساعتان الثانية والثالثة أحياناً مخصصتين لعرض بعض المرضى. إذ نشهد عندئذ منظراً خارجاً عن المألوف، بين الطبيب الداهية والمرضى، الذين دربتهم سنوات في المشفى على كل التمارين من هذا النمط؛ وبما أنهم يعرفون جيداً ما يُنتظر منهم، فإنهم يُبدون الاضطرابات

عند الإشارة، أو يقاومون المرض بما يكفي لإظهاره بعض الشجاعة. ومع أن الحاضرين لم يكونوا من المغفلين، إلا أنهم كانوا ينبهرون بهذه الدلائل على البراعة. وإذا ما استرعى أحدنا انتباه الأستاذ، يكافأ بثقة يضعها فيه لحديث خاص، يجريه مع أحد المرضى. ولم يريكني أي لقاء مع هنود متوحشين، أكثر من ذلك الصباح الذي قضيته مع سيدة مسنة متلفعة بكنزات صوفية، تشبه نفسها بسمكة رنكة متعفنة في كتلة من الجليد: فهي سليمة في الظاهر، لكنها مهددة بالتفكك ما إن يذوب الغلاف الذي يحميها.

كان هذا العالِم المخادع نوعاً ما، مشجعاً على مؤلفات تركيبية، ظل هدفها خدمة وضعية نقدية مخيّبة للآمال؛ ورجلاً على درجة عالية من النبل. وقد أبدى لي ذلك لاحقاً بُعيد الهدنة، وقبل وفاته بقليل، وقد كان قاب قوسين من العمى، منزوياً في مسقط رأسه بليدينيان، إذ حرص على كتابة رسالة لي، رصينة ومليئة بالاهتمام، لم تكن غايتها إلا تأكيد تضامنه مع أولى ضحايا الأحداث.

داخلني الأسف دائماً لأنني لم أعرفه في شبابه، أسمر، في صورة غزاة أمريكا من الإسبان، يجيش صدره بالتطلعات العلمية التي فتحها علم النفس في القرن التاسع عشر، ذاهباً إلى العالم الجديد غازياً، ولكنه غزو روحي. إن في هذا الحب من أول نظرة، الذي وقع بينه وبين المجتمع البرازيلي ظاهرة محيرة: حين التقت قطعتان من أوربا ترجعان إلى أربعمائة سنة، حُفظت بعض عناصرهما الأساسية في أسرة بروتستانتية من جنوب فرنسا من جهة، ومن الجهة الأخرى، في طبقة بورجوازية مرهفة الذوق تسير إلى الانحطاط، وتعيش حياة متباطئة في المناطق المدارية، فتعارفتا واستعادتا لحمتهما الأولى تقريباً. إن خطأ جورج دوما، هو أنه لم يعِ الطابع العتيق لهذا التلاقي. فالبرازيل الوحيدة التي استطاع أن يفتنها -وأفضى وصولها إلى السلطة إلى التوهم بأنها الحقيقية-، كانت برازيل الملاّك العقاريين الذين شرعوا في نقل استثماراتهم تدريجياً إلى المجال الصناعي الذي يسهم فيه رأس المال

الأجنبي، ويبحثون عن غطاء إيديولوجي من خلال نظام برلماني مُدجَّن. أولئك الذين يدعوهم طلابنا المتحدرون من مهاجرين حديثي العهد، أو من كبار المزارعين المرتبطين بالأرض، الذين أفلسوا نتيجة لتقلبات التجارة العالمية (الناعم العظيم) أي وجه السلة الأفضل. والشيء الغريب أن تأسيس جامعة ساو باولو، إنجاز جورج دوما العظيم، سيسمح لهذه الطبقات المتواضعة بأن تبدأ ارتقاءها، بالحصول على شهادات تفتح أمامها فرصة تسلُّم المناصب الإدارية. وبذلك تكون بعثتنا الجامعية أسهمت بتكوين نخبة جديدة، ستنفصل عنا، بقدر ما كان دوما، ووزارة الخارجية على أثره يرفضان فهم أن هذه النخبة أثمن إبداعاتنا، حتى عندما أخذت تفكك الطبقة الإقطاعية، التي من الحق أنها جلبتنا للبرازيل، لكن حتى تستعملنا كضمان لها في جزء، وتتسلى بنا في جزء آخر.

لكننا في مأدبة نخبة فرنسا - أمريكا، لم نكن أنا وزملائي، وزوجاتنا اللواتي كن يصاحبننا، بصدد تقدير الدور الذي سنقوم به، عن غير إرادة منا، في تطور المجتمع البرازيلي. ذلك أننا كنا مشغولين بمراقبة بعضنا بعضاً، وما قد يصدر عنا من هفوات. لأن جورج دوما نبهنا إلى وجوب أن يكون نظام حياتنا متطابقاً مع حياة أسيادنا الجدد: أي التردد على نادي السيارات ومنتديات الترفيه وحلبات السباق. وكان كل ذلك خارقاً للعادة بالنسبة لأساتذة مستجدين، لا يتجاوز راتب الواحد منهم ستة وعشرين ألف فرنك سنوياً، وحتى بعدما ضوعفت رواتبنا ثلاث مرات، لندرة المرشحين للاغتراب.

«ينبغي عليكم، قبل كل شيء، أن تلبسوا جيداً» نصحنا دوما، ولكي يزيل الخشية من نفوسنا، أضاف ببراءة مؤثرة، أن ذلك ممكن بصفة اقتصادية من حانوت قرب سوق الهال، كان يُسر بالتعامل معه، عندما كان طالباً في كلية الطب يدعى ألاكروادوجانيت.

في الباخرة

2 لم نكن نظن، على كل حال، بأن مجموعتنا الصغيرة ستشكل، خلال الأربع أو الخمس سنوات التي تلت، ما خلا استثناءات نادرة، قوام الدرجة الأولى في البواخر المختلطة لشركة النقليات البحرية، التي كانت تضطلع بمهمة النقل إلى أمريكا الجنوبية. إذ اقترحوا علينا الدرجة الثانية على الباخرة الفخمة الوحيدة التي تسلك هذه الطريق، أو الدرجة الأولى على سفن أكثر تواضعاً. فاختار الماكرون الصيغة الأولى، دافعين الفرق من جيوبهم، وكانوا يأملون بهذا، الاحتكاك بالسلك الدبلوماسي للحصول على امتيازات مشكوك فيها. أما نحن فكنا نركب السفن المختلطة التي يستغرق وصولها ستة أيام إضافية، وكثيراً ما تتوقف، لكننا فيها الأسياد.

أود اليوم لو مُنحت ما أُعطيتُه منذ عشرين سنة خلت، تقدير الفخامة التي لا مثيل لها حق قدرها، وكذا الامتياز الملكي الذي تمثل في تفرد ثمانية أو عشرة ركاب، باحتلال السطح والمقصورات وقاعات الاستراحة والطعام المخصصة للدرجة الأولى، على سفينة صممت لرفاهية مائة أو مائة وخمسين شخصاً. وأضحى هذا المجال المحدود، طوال تسعة عشر يوماً في البحر، مجالاً خاصاً بنا تنتقل إليه ممتلكاتنا معنا. فبعد رحلتين أو ثلاث، كنا نستعيد مراكبنا وعاداتنا، وصِرنا نعرف من قبْل الصعود إلى السفينة أسماء كل المضيفين الممتازين من مرسيليا، ذوي الشوارب، والنعال السميكة، الذين تفوح رائحة الثوم منهم في لحظة وضعهم الأطعمة الشهية أمامنا. أما الوجبات الفاخرة، فحدث عنها ولا حرج، لأنها صارت أكثر فخامة لقلة الركاب.

إنها، نهاية حضارة، وبداية أخرى، اكتشافنا المفاجئ بأن عالمنا ربما

بدأ يضيق بسكانه. وليست الأرقام ولا الإحصاءات أو الثورات هي التي تجعل لي هذه الحقيقة ملموسة، بقدر ما هو الجواب الذي وصلني منذ أسابيع هاتفياً، بينما كانت تراودني -خمس عشرة سنة من بعد- فكرة استعادة ذكريات شبابي بزيارة للبرازيل، وفحواه أن علي حجز مكاني قبل موعد السفر بأربعة أشهر. وأنا الذي كنت أتخيل، أنه لم يعد سوى القليل من غريبي الأطوار الذين يركبون البواخر، بعد إقامة الخدمات الجوية بين أوروبا وأمريكا الجنوبية! ياللأسف، فهو وَهْم أيضاً، ظنُّ المرء بأن تغلب عنصر يحرر عنصراً آخر. إذ لم يستعد البحر هدوءه، نتيجة لاستعمال الطائرات الحديثة، مثلما لم تُعِد المباني النمطية في الكوت دازور، الطابع الريفي لضواحي باريس.

ولكن بين رحلاتي الرائعة في حقبة ١٩٣٥، وبين هذه الرحلة التي أسارع بالعدول عنها، كانت في ١٩٤١ رحلة، لم أدرك يومها، كم كان لها من مغزى لمستقبل الأيام: فبُعيد وقف القتال، وصلتني دعوة من المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية بنيويورك، نظراً للاهتمام الودي الذي أبداه روبرت هـ. لويس وأ. ميترو بأعمالي الإثنوغرافية، ويقظة أقرباء لي مقيمين هناك، وفي إطار مخطط إنقاذ العلماء الأوروبيين المهددين من قبل الاحتلال الألماني، الذي هيئته مؤسسة روكفلر. علي الذهاب إذاً، ولكن كيف؟ كانت فكرتي الأولى هي الإدعاء بأنني سأعود إلى البرازيل لمتابعة بحوثي التي كنت أقوم بها قبل الحرب. وحدث في سفارة البرازيل بفيشي مشهد قصير ومأساوي بالنسبة لي، عندما ذهبت إليها لتجديد تأشيرتي، إذ رفع السفير الذي كنت على علاقة طيبة به -وكان فعل الشيء نفسه لو لم أكن عرفته- خاتمه متهيئاً لختم جواز السفر، حين قاطعه مستشار باحترام وبرود، لافتاً انتباهه إلى أن هذه الصلاحية سُحبت منه لترتيبات تشريعية جديدة، وبقيت الذراع في الهواء لثوان؛ حاول السفير خلالها بنظرة قلقة تكاد تكون مُستعطِفة أن يُقنع معاونه بغض النظر، ليتيح لي مغادرة فرنسا، إن لم يكن الدخول إلى البرازيل. ولكن عبثاً، لأن عين المستشار بقيت مثبتة على اليد، التي نزلت تلقائياً

إلى جانب جواز السفر. وأعيد لي الجواز مع إيماءة أسف.

عدت إلى منزلي في منطقة «السيفين»، ليس بعيداً عن مونبلييه، حيث شاءت صدف الانسحاب أن أسرح، ثم ذهبت لأتسكع في مرسيليا، فنما إلى علمي أن باخرة ستنطلق إلى المارتينيك في القريب العاجل. ومن رصيف إلى رصيف، ومن مكتب إلى آخر، علمت أخيراً أن الباخرة المعنية تنتمي إلى شركة النقليات البحرية نفسها، التي شكلت البعثة الجامعية الفرنسية في البرازيل، خلال السنوات السابقة، زبونها الحصري. وعثرت في يوم شتوي بارد في شباط/فبراير ١٩٤١، في مكاتب بدون تدفئة، ثلاثة أرباعها مغلق، على موظف كان يأتي سابقاً لتحيتنا باسم الشركة. نعم، الباخرة موجودة، وستغادر، لكن ركوبي مستحيل. لماذا؟ إنه لا يستطيع تفسيراً، فالأمور لم تعد كما كانت في الماضي. ولكن كيف؟ إن السفر طويل جداً، وشاق جداً، ولا يستطيع حتى أن يتخيلني في عداد المسافرين.

كان الرجل المسكين، لا يزال يرى فيَّ باختصار سفيراً للثقافة الفرنسية، بينما كنت أرى نفسي صيداً لمعسكرات الاعتقال. وعلاوة على ذلك، قد أمضيت السنتين الماضيتين، في غابة عذراء أولاً، ثم انتقلت من معسكر إلى آخر حتى الانسحاب الجنوني الذي قادني من خط ماجينو إلى بيزييه، مروراً بسارت والكوريز والأفيرون؛ نركب قطارات المواشي وننام في الزرائب. وهكذا بدا لي تحرّج محدثي في غير محله. وشرعت في تخيّل نفسي متجولاً في المحيطات، أقاسم حفنة من البحارة، انطلقوا للمغامرة على مركب في الخفاء، أعمالهم ووجباتهم البسيطة، أنام على السطح، منصرفاً أياماً طويلة إلى حوار مريح مع البحر.

أخيراً، حصلت على بطاقة السفر في الباخرة (الكابتن بول - لوميرل). لكنني لم أبدأ باستيعاب الموقف إلا يوم الركوب، وأنا أجتاز حواجز الحراس بخوذاتهم وبنادقهم الرشاشة، وهم يحيطون بالرصيف، قاطعين كل اتصال بين المسافرين والأقارب أو الأصدقاء الذين اصطحبوهم، ومختصرين لحظات الوداع بالدفع والشتائم: لقد كانت فعلاً مغامرة

فريدة، بل بالأحرى نفياً لمحكومين بالأشغال الشاقة. وما أدهشني أكثر من المعاملة التي عوملنا بها، عدد المسافرين، إذ كانوا نحو ثلاثمائة وخمسين شخصاً مكدسين على باخرة، ليس فيها سوى مقصورتين تحتويان على سبعة أسرة. خُصصتْ إحداهما لثلاث سيدات، وتقاسم الأخرى أربعة رجال، كنت واحداً منهم. وتلك منة عظيمة منَّ بها علي السيد م. ب، لشعوره بعدم إمكان نقل أحد مسافريه القدامى المحترمين كالمواشي. (وعلي شكره هنا) ذلك لأن بقية رفاقي، من الرجال والنساء والأطفال كانوا متكدسين في عنابر من دون تهوية ولا ضوء، حيث قام نجارو البحرية، على عجل، بوضع أسرة متراكبة، عليها فرش من القش. أما الأربعة المحظيون، فكان منهم تاجر معادن نمساوي، يعلم ولا شك بما كلّفته تلك الحظوة؛ والآخر شاب من أغنياء الكريول(*)، قطعت الحرب السبل بينه وبين مسقط رأسه في المارتينيك، كان يستحق معاملة خاصة لأنه الوحيد الذي يُفترض أنه ليس يهودياً ولا أجنبياً ولا فوضوياً، على المركب. أما الأخير فهو شخصية غريبة من شمالي إفريقيا، كان يزعم بأنه ذاهب إلى نيويورك لعدة أيام فقط (وهو مشروع طائش، إذا فكرنا بأن وصولنا إليها سيستغرق ثلاثة أشهر) ويحمل في حقيبته لوحة للرسام ديجا؛ وعلى الرغم من كونه يهودياً مثلي، إلا أنه كان يبدو شخصاً مرغوباً فيه، من قبل كل رجال الشرطة والأمن والدرك، ومصالح أمن المستعمرات والمحميات؛ لغز مدهش في هذه الظروف، لم أتوصل قط إلى كشفه.

(*) الكريول: شخص من العرق الأبيض، ولد في المستعمرات الفرنسية السابقة، الأنتيل وغويانا بخاصة.

وكان من بين الرَعَاع، كما وصفهم رجال الدرك، أندريه بروتون وفيكتور سرج. كان أندريه بروتون في شدة من الضيق، يذرع المساحات الفارغة على السطح، جيئة وذهاباً، مرتدياً فروة، وكأنه دب أزرق. وبدأتْ عندئذ بيني وبينه صداقة دائمة، بتبادل الرسائل خلال هذا السفر الطويل، حيث كنا نتناقش في العلاقات بين الجمال والإبداع المطلق.

أما فيكتور سرج، فكانت تعتريني الرهبة من ماضيه رفيقاً للينين،

وأشعر في الوقت نفسه بصعوبة بالغة في إدماج فكرتي عنه بشخصه، الذي كان يذكّر بعانس عجوز متزمته. إذ من خلال وجهه الأملس، وملامحه الدقيقة، وصوته الرائق، علاوة على حركاته المتكلفة الحذرة، يعطي ذلك الطابع اللاجنسي تقريباً، الذي تعرفت عليه من بعد لدى الرهبان البوذيين على الحدود البورمية، البعيد عن المزاج الذكري والتدفق الحيوي الذي تقرنه التقاليد الفرنسية بالنشاطات المسماة فسقاً. ذلك أن نماذج ثقافية تتوالد متشابهة في كل مجتمع، تُستعمل في كل جماعة للقيام بوظائف اجتماعية مختلفة، لأنها تبنى حول تعارضات جد بسيطة. وإذا تمكن نموذج سرج من التجسد في العمل الثوري بروسيا، فماذا عن المجتمعات الأخرى؟ لا شك أن العلاقات بين مجتمعين ستسهّل إذا أمكن، بوساطة نوع من الجدول، وضْع نظام تَعادُل بين السلوكيات، التي يستعمل كل منها نماذج إنسانية متماثلة للقيام بوظائف اجتماعية مختلفة. وعوضاً عن الاقتصار، كما يحدث اليوم، على مقابلة أطباء بأطباء، وصناعيين بصناعيين، وأساتذة بأساتذة، سيتم التفطن ربما إلى وجود مطابقات أكثر خفاءً، فيما بين الأفراد والأدوار.

كانت الباخرة تنقل، زيادة عن حمولتها البشرية، ما لا أدري من معدات سرية. ولذا قضينا وقتاً طويلاً في البحر المتوسط، والساحل الغربي لإفريقيا؛ نلجأ من مرفأ إلى مرفأ، للإفلات، كما يبدو، من رقابة الأسطول الإنجليزي. وكان يُسمح لحاملي جوازات السفر الفرنسية بالنزول إلى اليابسة أحياناً، أما الآخرون فيحجزون في بضع العشرات من السنتميترات المربعة، الموضوعة بتصرف كل منهم، على سطح حولته الحرارة -التي تتزايد كلما اقتربنا من المناطق المدارية، جاعلة الإقامة في العنابر لا تطاق- بالتدريج إلى قاعة طعام وغرفة نوم وحضانة أطفال ومغسل للثياب ومجال للتشمس. لكن أكثر المزعجات، كان ما يسمى في الجيش «شؤون النظافة»، فقد بنى الملاحون زوجين متناظرين من الأكواخ الخشبية، بمحاذاة حاجز السفينة؛ على يسارها للرجال، وعلى يمينها للنساء، دون تهوية أو إضاءة. في أحدها بضعة مرشات تزود بالماء صباحاً،

ويحتوي الثاني ميزاباً من الخشب المبطن بالزنك، يصب في المحيط، ويستخدم مراحيض مشتركة. فلم يكن أمام خصوم المخالطة الشديدة، الذين يأبون القرفصاء الجماعية -بعدم ثباتها لتأرجحات المركب-، إلا الاستيقاظ باكراً؛ وكان يجري سباق طوال الرحلة بين مرهفي الشعور، بحيث لم يعد بالإمكان، في النهاية، التمتع بوحدة نسبية إلا نحو الثالثة صباحاً. وكان يحصل الشيء ذاته عند الاستحمام، حيث إن لم تطغ شواغل الحياء، فَرضت مشكلة أخرى نفسها، وهي التمكن من إيجاد مكان في الزحام، مع عدم كفاية الماء الذي كان يتبخر ما إِن يلامس كل هذه الأجسام الرطبة، فلا يسقط حتى على الجلد. وفي الحالتين، كان على المرء التعجل والخروج، لأن تلك الأكواخ صنعت من خشب الصنوبر الطري، الذي بتشرّبه بالمياه القذرة والبول وهواء البحر، يأخذ بالتخمر تحت أشعة الشمس، مصدراً رائحة لا تطاق، عند هياج البحر بخاصة.

عندما لمحنا في عتمة الليل منارة فور دو فرانس، بعد شهر من السفر، لم يكن الأمل بوجبة مقبولة أو سرير بأغطية أو ليلة هادئة، هو ما داعب قلوب المسافرين. فكل هؤلاء الناس، الذين تمتعوا بكل ميزات الحضارة حتى ركوبهم الباخرة، لم يعانوا أكثر ما عانوا من الجوع والعياء، والأرق والمخالطة والمذلة، بل من القذارة الإجبارية، التي زادت الحرارة من حدتها، وعاشوا فيها طوال هذه الأسابيع الأربعة. كان ثمة نساء شابات وجميلات على الباخرة، وقد لاحت بعض المغازلات، وانعقدت بعض العلاقات، فإبداء جمالهن في أفضل حالاته، قبل الفراق، لم يكن بدافع الأنوثة بقدر ما كان دَيْناً ينبغي الوفاء به، وبرهاناً واجباً تقديمه على جدارتهن بالاهتمام، الذي يشعرن بأنه أقرض لهن لأجل. ولم يكن من المضحك وحسب، بل المحزن أيضاً سماع ما كان يصدر من الحناجر. فعوضاً عن «الأرض! الأرض!» كما في حكايات الرحلات البحرية، كنت تسمع «حمّام! أخيراً حمّام! غداً حمّام» من كلِّ جهة؛ بينما يجري بقلق تفقّد آخر قطعة من الصابون، والمنشفة النظيفة، والقميص الضيق لهذه المناسبة العظيمة.

لكن هذا الحلم بالعلاج المائي، بالإضافة إلى تضمّنه نظرة بالغة التفاؤل للعمل الحضاري، الذي يمكن توقعه من أربعة قرون من الاستعمار (لأن قاعات الاستحمام نادرة في فور دوفرانس) سيجعل المسافرين يكتشفون أن سفينتهم القذرة المكتظة، كانت فردوساً، بالمقارنة مع الاستقبال الذي هيأه لهم، ما إن دخلنا المرسى، عساكر وقعوا فريسة لشكل جماعي من الخلل الدماغي، كان يستحق لفت انتباه الأثنولوجي، لو لم يكن هذا الأخير منشغلاً باستعمال كل قواه العقلية لهدف وحيد، هو الإفلات من هذه الظروف المزعجة.

عاشت أكثرية الفرنسيين حرباً «غريبة»، أما حرب ضباط الحامية في المارتينيك، فلا تقتضي أي اسم تفضيل ليتم وصفها بدقة. إذ كانت مهمتهم الوحيدة هي حراسة ذهب بنك فرنسا، وانحلت هذه المهمة في نوع من الكابوس، الذي لم يكن الإفراط في تعاطي الكحول مسؤولاً عنه إلا جزئياً، باعتبار أن دور المارتينيك كجزيرة، أكثر مكراً ولكنه ليس أقل أهمية؛ بالإضافة إلى البعد عن الوطن، والتقاليد التاريخية الثرية بذكريات القراصنة؛ حيث تحل المراقبة الأمريكية الشمالية، والمهمات السرية لأسطول الغواصات الألماني، محل القراصنة من ذوي الأقراط الذهبية والأعين المفقوءة والأرجل الخشبية. وهكذا استولت عليهم حمى الحصار، دون أن يحدث بالطبع أي اشتباك، أو يُلمح أي عدو، وولّدت، مع ذلك، لدى الأكثرية شعوراً بالرعب. أما سكان الجزيرة فتشي أقاويلهم بطرق عقلية من النموذج ذاته: إذ يُسمع باستمرار «لم يبق سمك، لقد هوت الجزيرة إلى الحضيض»، بينما يشرح البعض أن هتلر ليس سوى يسوع المسيح، نزل إلى الأرض ليقتص من العرق الأبيض، الذي لم يتبع جيداً تعاليمه، خلال الألفي سنة الماضية.

عند وقف القتال، نأى ذوو الرتب بأنفسهم عن الانضمام إلى فرنسا الحرة، شاعرين بتوافق تام مع النظام في الوطن؛ إذ سيستمرون في البقاء «خارج اللعبة»؛ ذلك أن مقاومتهم البدنية والمعنوية المتآكلة منذ أشهر، جعلتهم غير قادرين على القتال، فيما لو اضطروا إليه؛ وتستعيد

عقولهم المريضة نوعاً من الشعور بالأمان، وهم يستبدلون عدواً حقيقياً لكنه شديد البعد -الألمان- بعدو خيالي، لكنه يمتاز بأنه قريب وملموس: هو الأمريكيون. وعلى كل، فهناك سفينتان حربيتان أمريكيتان تجولان باستمرار أمام المرسى. وبينما كان مساعد أريب لقائد القوات الفرنسية يتناول الغداء مع ضباطهما يومياً، كان رئيسه يقوم بإلهاب مشاعر جنوده كرهاً وحقداً على الأنجلو-ساكسون.

وإذاً، فإن أردت أعداء تمارس عليهم عدوانية تراكمت لشهور، مسؤولين عن هزيمة يشعر الجنود الفرنسيون أن لا يد لهم فيها، لأنهم بقوا بعيدين عن ميدان القتال؛ لكنهم يشعرون أيضاً بمسؤوليتهم فيها بصورة غامضة (ألم يقدموا أبلغ مثال، ويحققوا أقصى درجات الغفلة، والتوهم وفتور العزيمة التي وقع جزء من البلاد ضحية لها على الأقل)؛ فها هو مركبنا يقدم عينة خاصة. وكأن سلطات فيشي، بسماحها لنا بالسفر إلى المارتينيك، أرسلت لهؤلاء السادة حمولة من كباش الفداء، ليصبوا جام غضبهم عليها. فالجنود الذين جلسوا بسراويلهم القصيرة وخوذاتهم وأسلحتهم في مكتب القائد، لم يكونوا -فيما يبدو- يقومون بالاستجواب المعتاد، عند النزول من السفينة، إذ مَثُلنا أمامهم كلٌ على حدة، بل بتمرين على الشتائم، وما كان علينا سوى الإنصات. الأجانب يُنعتون بالأعداء؛ وتُنكر على الفرنسيين وطنيتهم بجلافة، ويتهمون بالتخلي عن بلادهم جبناً؛ وليست هذه التهمة متناقضة وحسب، بل غريبة من أفواه رجال، عاشوا منذ إعلان الحرب في حِمى مبدأ مونرو بالفعل.

وداعاً للحمّام! فقد تقرر احتجاز الجميع في معسكر يدعى لازاريه، في الجانب المقابل من الخليج. وسمح لثلاثة أشخاص فقط بالنزول إلى البر: الكريول لأنه خارج دائرة الاتهام، والتونسي الغامض، نتيجة لتقديمه وثيقة ما، وأنا، برخصة خاصة قدمها المراقب البحري للقائد، لأنني كنت أعرفه منذ كان نائباً لقبطان إحدى السفن التي سافرت عليها قبل الحرب.

الأنتيل

3 ما إن تدق الساعة الثانية بعد الظهر، حتى تتحول فور دوفرانس إلى مدينة ميتة، يخال المرء أن مبانيها مهجورة. تحيط هذه المباني بساحة طويلة تنتصب فيها أشجار النخيل، وتغطيها الأعشاب البرية، تبدو أرضاً فضاء، نُسي في وسطها تمثال جوزفين بوهارنيه المُخْضَر.

حالما حللت والتونسي في فندق فارغ، وكنا ما زلنا مضطربَين من أحداث الصبيحة، استأجرنا سيارة، واتجهنا إلى لازاريه لمواساة رفاقنا، وبخاصة شابتين ألمانيتين، استطاعتا أثناء السفر، إعطاءنا الانطباع بأنهما تتعجلان خيانة زوجيهما، ما إن تتمكنا من الاستحمام. فمن وجهة النظر هذه، كانت لازاريه تزيد من خيبة أملنا.

وبينما كانت الفورد القديمة تتسلق بأول سرعة الدروب الوعرة، وأشاهد ثانية بافتتان أنواعاً نباتية شتى، ألفْتها في الأمازون، لكنني سأتعلم هنا أسماءً جديدة لها، كنت أستعيد الحوادث المؤلمة التي جرت، وأحاول إيجاد صلة بينها وبين تجارب من النمط ذاته. ذلك أن هذا الخليط من الخبث والحماقة، بالنسبة لرفاقي الذين انطلقوا للمغامرة، بعد حياة هادئة، والذي بدا لهم ظاهرة لا تصدق؛ كان انعكاساً على أشخاصهم وعلى أشخاص سجّانيهم، لكارثة عالمية لا مثيل لها في التاريخ.

لكن هذا النوع من التجارب، لم يكن غريباً عني تماماً، وقد رأيت العالم، ووجدت نفسي خلال السنوات السابقة في أوضاع غير مألوفة. إذ كنت أعلم أن الأوضاع آخذة، شيئاً فشيئاً، بالتفجر كمياه غادرة لإنسانية ضاقت بعددها، وتعقُّد مشكلاتها المتزايد كل يوم؛ وكأن بشرتها تهيجت بالاحتكاك الناتج عن المبادلات المادية والفكرية المتسارعة نتيجة تكثّف المواصلات. ولم تفعل الحرب والهزيمة، على هذه الأرض الفرنسية،

شيئاً آخر سوى تسريع عمليات كونية، وتسهيل استقرار خمج دائم لن يختفي من هذا العالم تماماً أبداً؛ إذ سينبعث من جديد في نقطة ما، عندما يضعف في نقطة أخرى. فكل مظاهر الحقد والسذاجة الغبية هذه، التي تفرزها التجمعات البشرية «كالصديد» عندما يبدأ المدى يعوزها، لم أواجهها اليوم لأول مرة.

بالأمس فقط، قبل إعلان الحرب ببضعة أشهر، وفي طريق عودتي إلى فرنسا، مررت بباهية، حيث كنت أتجول في مرتفعاتها، متنقلاً من كنيسة إلى أخرى، من كنائسها التي يقال إنها تَعدُّ ثلاثمائة وخمساً وستين واحدة لكل يوم من أيام السنة، متنوعة في الطراز والتزيين الداخلي تنوّع الأيام والفصول، منشغلاً تماماً بتصوير تفاصيل معمارية؛ وكانت تلاحقني من مكان إلى آخر، عصبة من الصبيان السود، أنصاف عراة، يتوسلون إلي قائلين «التقط لنا صورة!»، فتأثرت بهذا التسول الطريف – صورة لن يروها أبداً، عوضاً عن بضعة قروش- وقبلت التقاط صورة، لأدخل السرور إلى قلوبهم. وما إن ابتعدت مائة متر، حتى أمسكتْ يد بكتفي؛ وإذا بمُفَتشيّ شرطة، بثياب مدنية، كانا يتبعانني خطوة بخطوة، منذ بداية تجوالي، يخبرانني بأني ارتكبت فعلاً معادياً للبرازيل: فإذا استُعملت هذه الصورة في أوروبا، فإنها ستؤكد الأسطورة القائلة بأن ثمة برازيليين سوداً، وأن أطفال باهية يمشون حفاة. وتم توقيفي، ولكن لوقت قصير، لحسن حظي، لأن الباخرة على وشك الإبحار.

كانت هذه الباخرة شؤماً علي حقاً؛ إذ لقيت قبل أيام قليلة، مغامرة مشابهة. لكن لحظة الركوب هذه المرة، على رصيف مرفأ سانتوس: فما إن صعدت إلى السفينة، حتى تقدم قائد من البحرية البرازيلية، بملابسه الرسمية، يرافقه اثنان من رماة البحرية بسلاحهما، والحربة بالسبطانة، وسجنني في مقصورتي، واستغرق جلاء الغموض أربع أو خمس ساعات: فالبعثة الفرنسية - البرازيلية التي قمت بترؤسها خلال سنة، خضعت لقاعدة تقاسم المجموعات بين البلدين. وكان المفروض أن يتم التقاسم تحت رقابة متحف ريو دوجانيرو الوطني، الذي أخطر كل مرافئ البلاد،

بأنه في حالة ما إذا كانت لدي نوايا خفية، وحاولت الإفلات، مع حمولة من القسي والسهام، وأغطية الرأس الريشية، تتجاوز الحصة المخصصة لفرنسا، ينبغي توقيفي بأي ثمن. إلا أنه عند عودتي من البعثة، غيّر المتحف الوطني رأيه، وقرر التخلي عن الحصة البرازيلية إلى معهد علمي في ساوباولو. وأخبروني بأنه نتيجة لذلك، يجب تصدير الحصة الفرنسية من سانتوس، وليس من ريودو جانيرو. ولكنهم لنسيانهم أن المسألة سويت بطريقة مختلفة منذ عام، فقد تم اعتباري مجرماً، بموجب التعليمات القديمة، التي نسي واضعوها وجودها، ولم ينسها المكلفون بتنفيذها.

من حسن الحظ في ذلك الزمان، أن في قلب كل موظف برازيلي، فوضوياً نائماً، تبقيه على قيد الحياة تلك المقتطفات من فولتير وأناتول فرانس، التي بقيت عالقة في الثقافة الوطنية حتى في أعماق الأدغال («آه، يا سيدي، أنت فرنسي! آه، فرنسا! أناتول! أناتول!» صاح مضطرباً وهو يضمني بين ذراعيه، عجوز من قرية في الداخل، لم يلتق قط أحداً من مواطنيّ). لهذا، وباعتباري خبيراً كفاية بالوقت اللازم، للبرهنة على احترامي للدولة البرازيلية بعامة، والسلطة البحرية بخاصة، أخذت بالضرب على بعض الأوتار الحساسة بنجاح، وهو ما أدى بي، بعد ساعات قضيتها في عرقي البارد (كانت المجموعات الأثنوغرافية مختلطة في الصناديق بأمتعتي ومكتبتي، لأنني مغادر البرازيل نهائياً، وكنت أخشى أن يفرغوها على الرصيف، بينما ترفع السفينة المرساة)، إلى أن أُملي بنفسي على القائد تقريراً لاذعاً، يُرجع فيه الفضل لنفسه، لأنه سمح لي بالمغادرة مع أمتعتي، وبالتالي جنّب بلاده نزاعاً دولياً مع ما يتلوه من مذلة.

ما كان لي أن أتصرف بكل هذه الجرأة ربما، لو لم أكن تحت تأثير ذكرى، تنزع عن الشرطة الأمريكية الجنوبية كل جديتها. فقبل شهرين، وكان علي ركوب الطائرة في قرية كبيرة ببوليفيا المنخفضة، وجدت نفسي عالقاً هناك، لعدة أيام مع زميل لي هو الدكتور ج. أ. فيلار، ننتظر

طائرة لم تصل. لأن الطيران في ١٩٣٨ لا يشبه ما هو عليه الآن إلا قليلاً. فبقفزه في بعض مناطق أمريكا الجنوبية النائية، على بعض مراحل التقدم، استتبت له مهمة السيارة الرديئة في نقل قرويين كانوا يضيعون، لغياب الطرق، عدة أيام في الانتقال للسوق المجاورة، مشياً أو على ظهور الجياد. أما الآن، فطيران عدة دقائق (ولكن، بعد تأخر أيام أكثر بكثير، والحق يقال) يسمح لهم بنقل دجاجهم وبطهم معهم، وهم جالسون القرفصاء غالباً. إذ كانت الطائرات تغص بخليط متنافر من فلاحين حفاة، وطيور داجنة، وصناديق أكبر من أن تمر في دروب الغابة.

كنا نتسكع إذاً في شوارع سانتا كروز دولاسييرا، التي تحولت بفعل الأمطار إلى سيول موحلة، تُقطع قفزاً على حجارة كبيرة، صُفّت على مسافات منتظمة كممرات المشاة المسمّرة، ولا يمكن لسيارة أن تعبرها، عندما لاحظتْ دورية وجوهنا غير المألوفة، وكان ذلك سبباً كافياً لتوقيفنا. وحُبسْنا، انتظاراً للتفسيرات، في غرفة ذات فخامة عتيقة، ضمن قصر قديم للحاكم الإقليمي، كسيت جدرانه بنقوش خشبية، تؤطر خزائن كتب مزججة، تحتوي مجلدات ضخمة وجميلة التجليد، لكن ما جذب نظرنا، لوحة مؤطرة هي الأخرى، كتب عليها بخط جميل: «يمنع منعاً باتاً، تحت طائلة العقاب الشديد، نزع صفحات الأرشيف، لاستعمالها لغايات خاصة أو صحية. وكل من يخالف هذا المنع يعاقب».

يجب علي، للحقيقة، الاعتراف بأن وضعي تحسّن في المارتينيك، بفضل تدخّل موظف كبير في مصلحة الطرق والجسور، كان يخفي وراء تحفّظ بارد نوعاً ما، عواطف بعيدة عن عواطف الأوساط الرسمية. وأيضاً بسبب زياراتي المتكررة لجريدة دينية ربما، جَمَعَ رهبان، لا أدري من أية طائفة، في مكاتبها صناديق مملوءة بقطع أثرية، ترجع لفترة وجود الهنود، كنت أشغل أوقات فراغي بجردها.

دخلت يوماً، قاعة محكمة الجنايات، التي كانت منعقدة للنظر في قضية فلاح، -وكانت تلك زيارتي الأولى والأخيرة لمحكمة - اقتطع بأسنانه، أثناء شجار، قطعة من أذن خصمه. كان المتهم والشاكي والشهود

يتحدثون بلهجة الكريول، وتترجم أقوالهم للقضاة الثلاثة، الذين كانوا، مع شدة الحر، يتحملون المعاطف الحمراء وما عليها من فراء بصعوبة؛ تلك المعاطف التي نزعت الرطوبة السائدة عنها جدتها وبريقها، فكانت تتدلى حول أجسامهم كأنها ضمادات مدماة. وفي ظرف خمس دقائق بالضبط كان الأسود الغضوب يستمع للحكم عليه بثماني سنوات سجناً. لقد كانت العدالة في ذهني، وما زالت مقترنة بالشك والضمير والاحترام، لكن التصرف مع كائن إنساني بهذه الوقاحة، أصابني بالذهول؛ ولم أستطع التسليم بأنني شاهدت حدثاً حقيقياً. وما من حلم، بالغاً ما بلغ من الخيال والغرابة، يصيبني، حتى اليوم، بمثل ذلك الشعور بعدم التصديق.

أما رفاقي على الباخرة، فيدينون بتحريرهم إلى نزاع نشب بين السلطة البحرية والتجار. فإذا كانت السلطة تعتبرهم جواسيس وخونة، فإن التجار كانوا يرون فيهم مورد ربح، لا يسمح الاعتقال في لازاريه باستغلاله. وأخيراً، تغلبت هذه الاعتبارات على الأخرى، وفي غضون خمسة عشر يوماً، كان كل واحد حراً في إنفاق آخر أوراقه النقدية الفرنسية، تحت مراقبة نشطة من الشرطة، التي كانت تنسج من حوله، والنساء بخاصة، شبكة من الإغراءات والاستفزازات والانتقام. وفي الوقت ذاته، كان الجميع يتوسلون للحصول على تأشيرات من قنصلية الدومينيكان، ويتناقلون الإشاعات عن وصول محتمل لباخرة، ستخلصنا مما نحن فيه. تغير الوضع من جديد، عندما طالب التجار في القرى، غيرةً من مركز المحافظة، بنصيبهم من اللاجئين. فتم بين يوم وليلة، وضع الجميع في إقامة جبرية بقرى الداخل، وقد أفلتُّ أيضاً؛ لكنني لتحرقي إلى اتباع صديقاتي الجميلات في إقامتهن الجديدة، على سفح جبل بيليه، كنت مديناً لهذه المؤامرة، بنزهات لا تنسى في هذه الجزيرة التي تتمتع بغرابة أكثر كلاسيكية من أمريكا الجنوبية: كعقيقة داكنة معشوشبة، محاطة بهالة من شواطئ رملية سوداء يشوبها بريق فضي، فيما كانت الأودية الغارقة في ضباب لبني اللون تفسح القليل من المجال للمرء كي يحزر -

عبر تنقيط مستمر، يدركه السمع أكثر مما يدركه البصر- الطحالب العملاقة لنباتات السرخس المرتفعة فوق أحافير جذوعها.

وأنا، إذا ما كنت محظياً حتّى ذلك الوقت بالقياس إلى رفاقي، إلا أنني بقيت منشغلاً بمشكلة، علي ذكرها هنا، لأن تدوين هذا الكتاب نفسه، كان معتمداً على حلها؛ وهذا الحل لن يتم، كما سنرى، دون صعوبة. كانت كل ثروتي، التي أنقلها معي، حقيبة مملوءة بوثائق بعثاتي، أي: بطاقات لغوية وتقنية، ومذكرات الطريق، وملاحظات أُخذتْ في الميدان، وخرائط ومخططات، وصور شمسية سالبة؛ آلاف من الوريقات والبطاقات والصور. هذه المجموعة المثيرة للشبهات، اجتازت الخط الفاصل بين فرنسا المحتلة وفيشي، بقدر من المخاطرة للمُهرّب الذي تكفل بها. ونظراً للاستقبال الذي أعد لنا في المارتينيك، استنتجت بأنه ليس في إمكاني ترك الجمارك والشرطة أو المكتب الثاني في الأميرالية، يلقون ولو نظرة، على ما سيبدو لهم تعليمات مشفرة (فيما يتصل بالألفاظ المحلية) وبيانات لترتيبات استراتيجية، ومخططات غزو بالنسبة للخرائط، والرسوم التخطيطية والصور. وقررت إذاً التصريح بأن حقيبتي برسم العبور (ترانزيت)، فأُرسلتْ مختومة إلى مستودعات الجمارك. وتبعاً لذلك، كما أخطروني من بعد، علي مغادرة المارتينيك على باخرة أجنبية، حيث تنقل الحقيبة مباشرة. فإذا ما ادعيت بأنني سأتوجه إلى نيويورك على الباخرة الفرنسية دومال (سفينة - شبح حقيقية، كان رفاقي ينتظرونها خلال شهر، قبل أن تتجسد ذات صباح، كدمية كبيرة من قرن مضى، طليت حديثاً) فينبغي أن تدخل الحقيبة المارتينيك عندئذ ثم تخرج منها، وهذا مستحيل. ولذا ركبت، متوجهاً إلى بورتوريكو، باخرة سويدية، لنقل المواد، بيضاء ناصعة، حيث تذوقت كذكرى للأيام المنصرمة، لأربعة أيام سفراً هادئاً وانفرادياً تقريباً، لأننا كنا ثمانية مسافرين على الباخرة. وقد أحسنت صنعاً، بتمتعي بهذا السفر.

فها هي الشرطة الأمريكية، بعد الفرنسية. ذلك أنني اكتشفت شيئين عندما وطئت قدماي بورتوريكو: أولهما، أن قوانين الهجرة إلى الولايات

المتحدة تغيرت، منذ مغادرتي مرسيليا، قبل شهرين؛ وبالتالي لم تعد الوثائق، التي حصلت عليها من المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية، متوافقة مع القواعد الجديدة. وثانيهما، على وجه الخصوص، الشبهات المتعلقة بوثائقي الاثنوغرافية، واقتضت أن أحمي هذه الوثائق بمهارة؛ هذه الشبهات كانت أقوى ما تكون لدى الشرطة الأمريكية. لأنني بعدما نُعت بأنني يهودي - ماسوني عميل للأمريكيين في فوردو فرانس، كان لدي شعور بأنني سأكون، من وجهة النظر الأمريكية، مرسلاً من فيشي، إن لم أكن من الألمان. وفي انتظار استجابة المدرسة لمطالب القانون، وبخاصة وصول خبير من مكتب التحقيقات الفدرالية يقرأ الفرنسية إلى بورتوريكو (بما أن بطاقاتي تحتوي في جلها ألفاظاً، ليست فرنسية، بل من لهجات برازيلية مجهولة تقريباً، كنت أرتجف عند تفكيري في الوقت اللازم لاكتشاف خبير)، قررت إدارة الهجرة حبسي، على نفقة شركة الملاحة، في فندق متواضع على النمط الإسباني، حيث كان الغداء من لحم العجل المطبوخ مع الحمص، بينما يتناوب على حراستي شرطيان محليان قذران، ليل نهار.

في بهو هذا الفندق، على ما أذكر، شرح لي بيرتران جولد سميث، الذي وصل معي على الباخرة ذاتها، وصار فيما بعد مديراً لمفوضية الطاقة الذرية، في إحدى الأمسيات، مبدأ القنبلة الذرية، وكشف لي (وكنا في أيار/مايو ١٩٤١) أن الدول الكبرى شرعت في سباق علمي، سيضمن الانتصار لمن يصل أولاً.

في خلال عدة أيام، سوّى آخر رفاق السفر مشكلاتهم الشخصية، ومضوا إلى نيويورك. بينما بقيت وحيداً في سان جوان، بصحبة الشرطيين اللذين كانا يرافقاني كلما شئت، إلى أماكن ثلاثة سمح لي بزيارتها، هي القنصلية الفرنسية والبنك وإدارة الهجرة. وكان علي الحصول على إذن خاص، لأي تحرك آخر. فحصلت على إذن بالذهاب إلى الجامعة، وكان حارسي من اللباقة، بحيث لم يدخل معي حرصاً على كرامتي، وبقي أمام الباب. وبما أنه وزميله، كانا يشعران بالملل، فقد كانا ينتهكان الأنظمة،

ويسمحان لي، بمبادرة شخصية منهما، باصطحابهما إلى السينما. ولم أستطع زيارة الجزيرة إلا في الثماني والأربعين ساعة، التي مضت بين إطلاق سراحي وركوبي الباخرة. كان دليلي فيها كريستيان بيل، القنصل العام عندئذ، الذي وجدت فيه، بشيء من الدهشة، في هذه الظروف الغريبة، زميلاً متخصصاً بالشؤون الأمريكية، في جعبته الكثير من الحكايات عن الإبحار في مركب شراعي، على طول السواحل الأمريكية الجنوبية. وقبل ذلك بقليل، علمتُ من الصحافة الصباحية بوصول جاك سوستيل الذي كان يقوم بجولة في الأنتيل، لضم السكان الفرنسيين للجنرال دوغول: فكان علي الحصول على تصريح آخر لمقابلته.

في بورتوريكو إذاً، كان اتصالي الأول بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث استنشقت رائحة الطلاء الدافئ، والونترغرين (المسمى أيضاً شاي كندا)، وهما قطبا حاسة الشم، اللذان تتدرج بينهما، كل مظاهر الرفاهية الأمريكية: من السيارة إلى دورات المياه، مروراً بالمذياع والحلويات ومعجون الأسنان. وحاولت قراءة أفكار البائعات في الدروج ستور، ذوات الفساتين البنفسجية والشعور المصبوغة، خلف قناع مساحيق التجميل. وهنا أيضاً، أدركت من خلال المنظور الخاص بجزر الأنتيل تلك الجوانب النموذجية للمدينة الأمريكية: المتشابهة أبداً في خفة بنائها، وهاجس التأثير على المارة وجلبهم، كمعرض عالمي ما، أصبح دائماً؛ إلا أننا هنا نخال أنفسنا في الجناح الإسباني.

من مصادفات الأسفار، أنها تُعرّض المرء غالباً لمثل هذه المُلتَبِسات. فكوني أمضيت في بورتوريكو، أسابيعي الأولى على الأرض الأمريكية، سيجعلني، من الآن وصاعداً، أستعيد صورة أمريكا في إسبانيا. كما حصل معي بعد سنوات؛ فزيارتي الأولى للجامعة الإنكليزية في دكا بالبنغال الشرقية، تدفع بي الآن، إلى اعتبار أكسفورد، كأنها الهند وقد نجحت في السيطرة على الوحل والعفونة والطغيان النباتي.

وصل مفتش مكتب التحقيقات الفدرالية، بعد ثلاثة أسابيع من نزولي في سان جوان. فأسرعت إلى الجمارك وفتحت الحقيبة؛ وكانت اللحظة

مهيبة، إذ تقدم شاب مهذب، وسحب بطاقة، كيفما اتفق له، وإذا به يستدير نحوي بنظرة قاسية قائلاً: «إنها بالألمانية!» وبالفعل، كان المقصود، مرجع العمل الكلاسيكي لفون دن ستينين، سلفي الشهير البعيد، في ماتوغروسو الأوسط، حول قبائل البرازيل الوسطى، الصادر في برلين، العام ١٨٩٤.

وما إن هدأت مخاوفه بعد هذا التفسير، حتى فقد الخبير المنتظر اهتمامه بالمسألة كلها. حسناً، K.O، أنا حر، وقد قبلت على الأرض الأمريكية .. على التوقف الآن. لأن كل واحدة من هذه المغامرات الصغيرة، تستدعي أخرى كالتي ذكرتها. بعضها مرتبط بالحرب كالتي سبقت، لكن الأخرى التي رويتها آنفاً، سابقة عليها. وأستطيع أن أضيف إليها ذكريات أقرب، إذا ما اقتبست من تجارب الأسفار الآسيوية التي ترجع إلى هذه السنوات الأخيرة. أما مفتش مكتب التحقيقات الفدرالية اللطيف، فلن يرضى اليوم بمثل تلك السهولة. إذ أصبح الهواء ثقيلاً في كل مكان.

البحث عن السلطة

4 هذه الروائح المبهمة، والرياح المتحولة التي تشي باضطراب أكثر عمقاً؛ حادث تافه قدم لي أول علاماته، وبقي في ذاكرتي كنذير. فعندما استنكفت عن تجديد عقدي مع جامعة ساوباولو، لأنقطع لبعثة طويلة داخل البلاد، سبقت زملائي، وركبت الباخرة، التي كان عليها إعادتي إلى البرازيل، قبلهم بأسابيع. وهكذا، كنت لأول مرة، منذ أربع سنوات، الأستاذ الجامعي الوحيد على ظهر الباخرة. ولأول مرة أيضاً، كان ثمة كثير من المسافرين: رجال أعمال أجانب، وعلى وجه الخصوص، أفراد بعثة عسكرية فرنسية، متوجهون إلى الباراغواي. وضاعت معالم السفر الذي ألفته، وكذا الجو العام على الباخرة، الذي كان في غاية الصفاء سابقاً. إذ كان هؤلاء الضباط مع زوجاتهم، يخلطون بين سفر عبر الأطلنطي، وبين حملة استعمارية. وبين العمل في تدريب جيش متواضع إجمالاً، واحتلال بلد يتهيأون له، أخلاقياً على الأقل، على السطح الذي تحول إلى موقع عسكري. بينما يقوم المسافرون المدنيون بدور الأهالي. هؤلاء المسافرون، الذين لم يعودوا يعرفون كيف يفلتون من وقاحة، بلغ من شدتها أنها أثارت السخط حتى في قمرة القيادة. لكن موقف رئيس البعثة، كان مخالفاً لموقف مرؤوسيه؛ إذ كان وزوجته آية في الرزانة والحفاوة؛ فقد اقتربا مني يوماً، في ركن خال، حيث حاولت الابتعاد عن الضجيج، واستفهما عن أعمالي السابقة، وعن الغاية من بعثتي، وأفهماني، تلميحاً، دورهما كشاهدين عاجزين وبعيدي النظر. كان التباين من الجلاء بحيث بدا منطوياً على سر. وقد عادت هذه الحادثة إلى ذاكرتي، بعد ثلاث أو أربع سنوات، عندما وجدت اسم هذا الضابط في الصحافة، وكان وضعه الشخصي، في الواقع، متناقضاً.

ترى، هل أدركت عندئذ، لأول مرة، ما تعلمته، بصفة نهائية، في مناطق أخرى من العالم، من ظروف مشابهة في تثبيطها للهمم؟ إيه لك أيتها الأسفار! أيتها الصناديق السحرية بوعودها الحالمة؛ فلم يعد لك أن تبوحي بأسرارك سليمة. لأن حضارة متكاثرة وبالغة الاهتياج تعكر إلى الأبد سكون البحار. ذلك لأن عبير المناطق المدارية، ونضارة الكائنات، يفسدها تخمر ذو رائحة مشبوهة، تقتل فينا الرغبات، وتتركنا نجني ذكريات أتى عليها الفساد.

اليوم، وقد تحولت الجزر البولينيزية، الغارقة في الإسمنت، إلى حاملة طائرات راسية بكل ثقلها في البحار الجنوبية؛ وتتخذ آسيا برمتها شكل منطقة معتلة؛ وتنخر مدن الصفيح إفريقيا، وينتهك الطيران التجاري والعسكري طهارة الغابة الأمريكية أو الميلانيزية، قبل هتك عذريتها. كيف ينجح الفرار المزعوم بالسفر، في شيء آخر سوى مواجهتنا بصور وجودنا التاريخي الأكثر تعاسة؟ لأن هذه الحضارة الغربية العظيمة، التي أبدعت روائع نتمتع بها، لم تبدعها دون مقابل، بالتأكيد. فالغرب بنظامه وانسجامه، وإنجازه الأكثر شهرة، ذلك الركام من المباني التي لا مثيل لتعقدها، يتطلب إزالة ما لا حصر له من المنتجات الثانوية الضارة التي تنتن الأرض. إن ما تبدينه أيتها الأسفار لنا، من الوهلة الأولى، هو قذارتنا التي تصفع وجه الإنسانية. ومن هنا، أفهم الولع والجنون والخداع، التي تصطبغ بها حكايات الأسفار. فهي تحمل وهماً خادعاً بما لم يعد له وجود، ولا بد أن يبقى موجوداً، حتى نتهرب من الحقيقة الصارخة، بأننا قامرنا بعشرين ألف سنة من التاريخ. لم يعد ثمة ما يمكن عمله: فلم تعد الحضارة هذه الزهرة الهشة التي نعنى بها، وننميها بشق الأنفس، في بعض الجهات المحمية، في أرض غنية بأنواعها الغريبة، التي مع حيويتها الطاغية، كانت تسمح أيضاً بتنويع البذار وتنشيطه. لأن البشرية تستقر على الزراعة الواحدة، وتتهيأ لإنتاج الحضارة بالجملة، كالشوندر. ولن يبقى لها من طعام مشترك إلا هذا الطبق.

كان الرحالون في الماضي يخاطرون بحياتهم لجلب أشياء غنية بأنواعها

الغريبة، من الهند أو أمريكا، تبدو لنا اليوم تافهة من مثل: الصباغ الأحمر أو الفلفل، الذي بلغ الولع الجنوني به، زمن هنري الرابع، حداً جعل البلاط يضع حبات منه، في علب الملبس، لتقرقش. هذه الصدمات البصرية أو الشمية، وهذه الحرارة المفرحة للأعين، وهذا الوخز اللطيف في اللسان، كانت تضيف علامات جديدة على السلم الموسيقي الحسي، لحضارة لم تكن تدرك غثاثتها. أفلا يجوز لنا القول الآن، إنه بانقلاب مزدوج، يجلب أضراب ماركوبولو المعاصرون من هذه الأراضي ذاتها، في شكل صور فوتوغرافية، وكتب وحكايات، التوابل الأخلاقية، التي يعاني مجتمعنا من حاجة ملحة لها، وهو يشعر بأنه يغرق في السأم؟

وهناك أمر موازٍ يبدو أنه أكثر دلالة. فهذه التوابل مزيفة، إن أردنا أو لم نرد. وليس ذلك لأن طبيعتها نفسية بالتأكيد، بل لأن الراوي، مهما كانت نزاهته، لن يستطيع ولم يعد يستطيع تقديمها لنا في صورتها الصحيحة. وحتى نوافق على قبولها، ينبغي بتلاعب هو لا واعٍ فقط لدى الأكثر إخلاصاً، فرز ونخل الذكريات، واستبدال الأصل المَعيش بالمنسوخ. أفتح روايات المستكشفين هذه: وإذا بالقبيلة الفلانة، التي يصفونها بأنها متوحشة محافظة حتى الوقت الحاضر، على عادات ما لا أدري أية إنسانية بدائية، يرسمونها كاريكاتورياً ببضعة فصول خفيفة. بينما كنت أمضيت أسابيع من حياتي كطالب، في التعليق على مؤلفات خصصها رجال علم، منذ خمسين عاماً، وأحياناً منذ عهد قريب، لدراسة أولئك المتوحشين قبل اتصالهم بالبيض، وما نتج عنه من أوبئة، وأدى إلى اجتثاثهم من جذورهم، وأسلمهم إلى البؤس. وهذه الجماعة الأخرى التي اكتُشف وجودها، كما يقال، وجرت دراستها، في ثمان وأربعين ساعة، من قبل رحالة مراهق، لُمحت (وهذا جدير بالاهتمام) خلال انتقالها خارج أراضيها، في مخيم مؤقت، اعتُبر بسذاجة قرية دائمة. وقد حُجبت بعناية طرق الدخول، التي كانت ستكشف عن وجود مركز تبشيري، منذ عشرين عاماً، في اتصال دائم مع الأهالي، كما ستكشف عن الخط الملاحي الصغير بالمحرك، الذي يتوغل عميقاً في المنطقة، وتستطيع العين المدربة

الاستدلال على وجوده بتفاصيل فوتوغرافية ضئيلة، بالإضافة إلى أن تصويب آلة التصوير، لم يحسن دائماً تجنب الصفائح الصدئة، التي تطبخ هذه الإنسانية فيها طعامها.

إن بطلان هذه الادعاءات، والتصديق الساذج الذي يتقبلها، بل ويحرض عليها، والتقدير الذي، في النهاية، تكافأ به كل هذه الجهود التي لا جدوى منها (اللهم إلا توسيع التلف الذي تدأب، من جهة أخرى، على إخفائه)، كل ذلك يصدر عن بواعث نفسية قوية، سواء لدى المعنيين، أم لدى جمهورهم؛ يمكن لدراسة المؤسسات لدى الشعوب البدائية الإسهام في الكشف عنها، لأن على الإثنوغرافيا، المساعدة في فهم الموضة التي تجذب إليها كل هذه المؤازرات، التي تسيء إليها.

إن المنزلة الاجتماعية لكل فرد، لدى الكثير من قبائل أمريكا الشمالية، تتحدد من خلال الظروف، التي تحيط بالاختبارات الواجب على المراهقين الخضوع لها في سن البلوغ. فبعضهم يترك نفسه، دون قوت على طوف منفرد، وآخرون ينشدون العزلة في الجبال، متعرضين للوحوش المفترسة، والبرد والمطر. وخلال أيام وأسابيع وأشهر بحسب الحالة، يحرمون أنفسهم من الطعام: لا يزدردون إلا أكلاً خشناً، أو يصومون فترات طويلة، حتى أنهم يستعملون محرضات التقيؤ، فيزيدون حالتهم الجسمية سوءاً. ويعمدون إلى أي شيء لاستفزاز العالم الآخر: كالحمامات المثلجة المطولة أو البتر المتعمد لسلامية أو عدة سلاميات، أو تمزيق الأغشية العضلية، بإدخال مسامير مدببة تحت العضلات الظهرية، وربطها بحبال مشدودة إلى أحمال ثقيلة يحاولون جرها. وحتى عندما لا يبلغون هذه الحدود القصوى، فإنهم على الأقل ينهكون أنفسهم بأعمال مجانية، كنتف شعر البدن، شعرة فشعرة، أو نزع إبر شجرة صنوبر، حتى تتعرى من كل إبرها، وتجويف كتل الحجارة.

في حال البلادة والوهن أو الهذيان، التي يغرقون فيها بفعل هذه الامتحانات، يأملون الدخول في اتصال مع عالم ما فوق الطبيعة؛ حيث يشفق حيوان سحري عليهم، لشدة أوجاعهم ولصلواتهم، فيضطر إلى

الظهور لهم، وتكشف لهم الرؤيا، عمن سيكون روحهم الحارس من الآن فصاعداً، وعن الاسم الذي سيعرفون به، والقدرة الخاصة الممنوحة لهم من قبل حاميهم، الذي سيعطيهم امتيازاتهم ومكانتهم ضمن المجتمع.

هل يمكن القول، إن هؤلاء الأهالي، لا ينتظرون أي شيء من المجتمع؟ إن المؤسسات والأعراف، تبدو لهم شبيهة بآلية ليس في عملها الرتيب دور للمصادفة والحظ أو الموهبة، فالوسيلة الوحيدة لتغيير المصير إذاً، تكون بركوب تلك المخاطر، حين لا يعود للمعايير الاجتماعية معنى، وتتلاشى ضمانات ومتطلبات الجماعة؛ وبالذهاب إلى حدود الأرض المأمونة، وإلى أقصى درجات التحمل الجسماني، أو الآلام البدنية والمعنوية. لأنه على هذه الحافة المزعزعة، يتعرض الفرد، إما للسقوط في الجانب الآخر دون رجعة، وإما على العكس من ذلك للاستحواذ على رصيد شخصي من السطوة، يستمده من محيط مترام من القوى غير المستغلة، التي تحيط بإنسانية جيدة التنظيم، يتم بفضل هذه السطوة إبطال نظام اجتماعي جامد، لمصلحة المقتحم الجريء. وعلى كل، فقد يكون هذا التفسير سطحياً. لأن الأمر لا يتعلق، في قبائل السهوب أو هضاب أمريكا الشمالية، بمعتقدات فردية تتعارض مع مذهب جماعي، بل الجدلية كلية ومنوطة بأعراف وفلسفة الجماعة. فمن الجماعة يتعلم الأفراد دروسهم؛ والاعتقاد بالأرواح الحارسة، من فعل الجماعة، كما أن المجتمع بأسره، هو الذي يعلّم أعضاءه، بأن لا فرصة لهم ضمن النظام الاجتماعي، إلا في مقابل محاولة عبثية ويائسة للخروج منه.

من منا لا يرى، إلى أية درجة يعود هذا «البحث عن السلطة» إلى الصدارة، في المجتمع الفرنسي المعاصر، تحت الشكل الساذج للعلاقة بين الجمهور، ومستكشفيه؟ فمنذ سن البلوغ أيضاً، يجد مراهقونا الحرية لإطاعة المثيرات التي يُخضعهم الكل لها منذ الطفولة الأولى، ولتجاوز سلطان حضارتهم الوقتي بأية وسيلة كانت. وقد يكون ذلك ارتفاعاً، بتسلق بعض الجبال، أو في العمق، بالنزول إلى الهاويات، أو أفقياً أيضاً، بالتوغل في قلب مناطق نائية. أخيراً، قد يكون الشطط المبتغى من طبيعة

أخلاقية، كما هو لدى أولئك الذين يرمون بأنفسهم عمداً في أوضاع بالغة الصعوبة، بحيث يبدو أن المعارف الحالية تنافي أي إمكان للبقاء.

ويظهر المجتمع عدم اكتراث تام، إزاء النتائج التي يراد تسميتها عقلانية لهذه المغامرات. إذ لا يتعلق الأمر باكتشافات علمية، ولا بإثراء شعري وأدبي، لأن الشهادات فقيرة فقراً صارخاً في الأعم الأغلب؛ بل المهم هو المحاولة وليس غايتها. والشاب الذي انعزل عن الجماعة، كما في مثالنا لدى الأهالي، بضعة أسابيع أو أشهر، ليعرض نفسه (أحياناً باقتناع وأمانة، وأحياناً بحيطة ومراوغة؛ فالمجتمعات البدائية تعرف أيضاً هذه التدرجات) لوضع خطير، يعود مزوداً بسلطة، تتمثل لدينا بمقالات الصحافة ذات الانتشار الواسع؛ ومحاضرات في قاعات مليئة، يشهد على طابعها السحري عمليات خداع الجماعة نفسها بنفسها، التي تفسر الظاهرة في كل الحالات. لأن هؤلاء البدائيين الذين يكفي المرء زيارة لهم، للعودة بهالة القداسة؛ وهذه القمم الجليدية؛ وتلك الكهوف، والغابات الملتفّة، باعتبارها منجماً للاكتشافات السامية والمربحة، هم، لاعتبارات شتى، الأعداء لمجتمع يخدع نفسه بنفسه، بإسباغ صفة النبل عليهم، في اللحظة التي يُكمل القضاء عليهم، ولكنه لم يكن يشعر نحوهم إلا بالرعب والتقزز، عندما كانوا خصوماً حقيقيين.

أيتها الطرائد المسكينة! يا من وقعتم في فخ الحضارة الميكانيكية، يا متوحشي الغابة الأمازونية؛ والضحايا الطيعين العاجزين، بوسعي أن أفهم القدر الذي يبيدكم، لكنها لن تخدعني، هذه الشعوذة الأكثر تفاهة مما لديكم، التي تُعرض أمام جمهور متعطش لمجموعات صور كوداك الملونة، التي حلت محل أقنعتكم المحطمة. أيظن هذا الجمهور أنه سيستحوذ بوساطة هذه الصور على مفاتنكم؟ لم يرضه إذاً أن أزالكم، بل عليه أن يُشبع نهمه إلى أكل لحوم البشر الذي يحن إلى تاريخ صرتم ضحاياه.

هل سأبقى، باعتباري السلف الأبيض لمغامري الأحراش هؤلاء، الوحيد الذي لم يحفظ شيئاً بيديه سوى الرماد؟ وهل سيشهد صوتي الوحيد لصالح إخفاق الهروب؟ إنني مثل هندي الأسطورة، ذهبت إلى أبعد ما

سمحت لي به الأرض، وعندما بلغت نهاية العالم ساءلت الكائنات والأشياء لأجد خيبة أمله: «ظل هنا بعينين دامعتين، متوسلاً ونائحاً. ولم يسمع مع ذلك أية ضجة خفية، ولم ينم حتى يُحمل في نومه إلى معبد الحيوانات السحرية. فلم يبق أدنى شك لديه، بأنه لن تأتيه أية سلطة من أي إنسان ..»

الحلم، «إله المتوحشين»، كما كان يقول المبشرون، كزئبق لطيف، انزلق دائماً من بين أصابعي. أين ترك لي بعض الشذرات البراقة؟ في كويابا التي كانت أرضها تورد الذهب في الماضي؟ في أوباتوبا، المرفأ التجاري الخاوي الآن، حيث كانت تُحمّل السفن قبل مائتي سنة؟ وأنا أطير فوق صحاري الجزيرة العربية، وردية وخضراء كصدفة أذن البحر؟ أم في أمريكا، أو آسيا؟ على شطوط الأرض الجديدة أو الهضاب البوليفية أو تلال الحدود البورمية؟ أختار، كيفما اتفق، اسماً ما زالت تكسوه الأسطورة مهابة: لاهور.

مطار في ضاحية غير واضحة المعالم، وشوارع بلا نهاية غُرست بالأشجار، وحُفّت بالفيلات، وفندق مسيّج، يُذكّر بمزرعة نورمندية لتربية الخيل، عبارة عن صف من البنايات المتشابهة تماماً، أبوابها متقاربة وكأنها أبواب اسطبلات صغيرة، تحتوي شققاً متطابقة: قاعة من الأمام، دورة مياه في الخلف، وغرفة النوم في الوسط. على مسافة كيلو متر تقع ساحة المحافظة، حيث تتفرع شوارع أخرى، على جوانبها بعض الحوانيت القليلة: صيدلي، مصور فوتوغرافي، مكتبة، ساعاتي. فبدا لي هدفي بعيد المنال، وأنا حبيس هذه المساحات التي لا معنى لها. أين هي، لاهور القديمة، الحقيقية؟ ينبغي للوصول إليها، في أطراف هذه الضاحية المغروسة خطأ، والهرمة قبل الأوان، قطع كيلو متر في سوق، حيث يشتغل صائغ متواضع ذهباً بثخن الصفيح، مستعملاً منشاراً ميكانيكياً، بجانب حوانيت لمستحضرات التجميل والأدوية والأدوات البلاستيكية المستوردة. هل سأتعرف عليها أخيراً، من أزقتها الظليلة، حيث يجب علي الانتحاء إلى الجدران، تاركاً المجال لقطعان الأغنام ذات الصوف الملون بالأزرق والوردي، والجواميس -التي يعادل وزن الواحد منها ثلاث بقرات- وهي تدفعك بود،

علاوة على الشاحنات الكثيرة؟ أم من هذه النقوش الخشبية المتهالكة التي نخرتها السنون؟ كان بوسعي تبيّن جمال صنعتها، لولا شبكة العنكبوت المعدنية التي تمدها، من جدار إلى جدار، في أرجاء المدينة القديمة، إنشاءات كهربائية أقيمت على عجل. ويطفو، من وقت لآخر، صدى وصورة من أعماق التاريخ، يصدر من زقاق طارقي الذهب والفضة؛ إنه الرنين الوديع الصافي ينبعث من اكسيليفون، يضرب عليه جنّي ذاهل بألف ذراع.

أخرج من هذه الأزقة، لأجد نفسي فجأة في تخطيطات لشوارع واسعة تخترق خرائب، (ناجمة عن الفتن القريبة العهد) لمنازل ترجع إلى خمسمائة عام، لكنّ تهدّمها المتكرر، وإصلاحها، جعل بلاءها الذي لا يمكن وصفه، خارج الزمان. هذا أنا، رحّالة وعالم آثار للمكان، أبحث عبثاً عن إعادة بناء الغرابة، انطلاقاً من القطع الصغيرة والحطام.

ويبدأ الوهم الخادع عندئذ نسج فخاخه، إذ كنت أتمنى لو عشت في زمن الأسفار الحقيقية، عندما كان المشهد بكل بهائه، لم يُشوه بعد، ويُلوث، ويُمقت. ومع أنه قد امتنع علي دخول هذا الميدان، إلا أنني، مثل بيرينييه، وتافيرنييه، ومانوكي .. ما إِن بدأت التساؤل عن الممكنات، حتى استمر هذا التساؤل إلى اللانهاية. فمتى كان ينبغي رؤية الهند، وفي أي زمن كانت دراسة المتوحشين البرازيليين، ستؤدي إلى الرضى الأكمل، والتعريف بهم على الصورة الأقل تحريفاً؟

أكان من الأفضل الوصول إلى ريو في القرن الثامن عشر مع بوغينفيل، أم في القرن السادس عشر مع ليري وتيفييه؟ إن كل لمحة إلى الوراء، تتيح لي إنقاذ عُرف ما، وكسب احتفال، وتقاسم معتقد إضافي. لكنني أعرف النصوص بما يكفي لأعلم أنني بإلغاء قرن، سأتخلى في الحال عن معلومات وطرائف، من شأنها أن تثري عملي الذهني. وها هي الدائرة، التي لا سبيل للخروج منها: فكلما قلّت قدرة الثقافات الإنسانية على الاتصال فيما بينها، وبالتالي إفساد بعضها بعضاً باحتكاكها، قلّت أيضاً قدرة رسلها على رؤية ثراء ومغزى هذا التنوع. وأنا في النهاية واقع بين أمرين: فتارة، رحالة قديم يواجه مشهداً عجيباً، يندّ كله أو جله عن فهمه، إن لم

يوحِ له بالسخرية والتقزز، وهو الأسوأ. وتارة أخرى، رحالة عصري يجري وراء آثار واقع اندثر. فأنا في الحالتين خاسر، وأكثر مما يبدو: لأنني، وأنا أبكي أمام الظلال، ألست عديم التأثر بالمشهد الحقيقي المتجسّد أمامي في هذه اللحظة، لكن من أجل ملاحظته، يعوز إنسانيتي المغزى اللازم؟ بعد بضع مئات من السنين، وفي هذا المكان بالذات، سيبكي رحالة آخر، في مثل قنوطي، ما كان يمكن لي رؤيته، وغفلت عنه. وبينما أنا ضحية لإعاقة من جهتين؛ كل ما أشهده يجرحني، وألوم نفسي من دون انقطاع، لأنني لا أنظر بما فيه الكفاية.

يبدو لي مع ذلك، وقد شللت بهذا المأزق زمناً طويلاً، أن السائل العكر بدأ يروق. فأشكال مبهمة تتوضح. والغموض يتبدد شيئاً فشيئاً. ما الذي جرى فيما عدا مضي السنين؟ إن النسيان، وهو يجرف ذكرياتي، فعل أكثر من إبلائها ودفْنها. ذلك لأن الصرح المتين الذي بناه من هذه الشظايا، يقترح على خطواتي توازناً أكثر ثباتاً، وعلى ناظري صورة أكثر ضياءً. وحل نظام محل آخر. فبين هذين الجرفين، اللذين يبقيان نظرتي متباعدة عن موضوعها، بدأت السنون التي تهدمهما في تكديس الحطام؛ والنتوءات تتضاءل، وجدران تتهاوى، وتتصادم الأمكنة والأزمنة وتتراكب، أو تتقلب كالرسوبيات التي تتشقق بفعل هزات لقشرة شائخة. كما تبرز بعض التفاصيل القديمة التافهة، بينما تنخسف طبقات برمتها من ماضيَّ، دون أن تترك أثراً. وأحداث لا رابط بينها في الظاهر، آتية من فترات ومناطق شتى، تنزلق الواحدة منها فوق الأخرى، لتتوقف فجأة، فيما يشبه قصراً صمّمه مهندس معماري، أكثر حكمة من تاريخ حياتي. «كل إنسان، كما كتب شاتوبريان، يحمل في نفسه عالماً مؤلفاً من كل ما رأى وأحب، يدخل فيه من دون انقطاع في الوقت الذي يترحل، ويبدو أنه يسكن عالماً غريباً عنه»(*). إن العبور ممكن من الآن فصاعداً. والزمن، على غير انتظار، أطال برزخه بين الحياة وبيني؛ إذ كان لا بد من انقضاء عشرين سنة من النسيان، لالتقاء تجربة قديمة، وجهاً لوجه، منعت ملاحقتي الطويلة لها عني مغزاها واختطفت حميميتها.

(*) أسفار في إيطاليا، بتاريخ ١١ كانون الأول

القسم الثاني

جواز سفر

التفاتة إلى الوراء

5 تقرر مصيري المهني، يوم أحد من خريف ١٩٣٤، في الساعة التاسعة صباحاً، على إثر مكالمة هاتفية من سليستان بوجليه، وكان عندئذ مديراً لدار المعلمين العليا، ويقابلني منذ سنوات بجفاوة متحفظة، ومترفعة نوعاً ما: ذلك لأنني لم أكن من قدامى الطلاب في دار المعلمين العليا أولاً، ثم حتى لو كنت كذلك، فلم أكن لأنتمي إلى حاشيته، التي كان يقصر عليها عواطفه. لا شك أنه لم يجد اختياراً أفضل، لأنه بادرني قائلاً «أما زالت لديك الرغبة في الاشتغال بالأثنوغرافيا؟ - بالتأكيد - إذاً، رشّح نفسك أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة ساو باولو. إن ضواحيها تعج بالهنود، وستخصص لهم نهايات الأسبوع، لكن عليك أن تعطي ردك النهائي لجورج دوما، قبل الظهر».

لم تكن البرازيل، ولا أمريكا الجنوبية، تعنيان الكثير لي. ومع ذلك، ما زالت تلوح لي، بأوضح ما يمكن، الصور التي استدعاها هذا الاقتراح المفاجئ. إذ كانت البلاد الغريبة، تبدو لي مباينة لبلادنا؛ وكان للتباين في ذهني معنى أكثر غنىً وسذاجة من مضمونه الحرفي. وكان يتملكني الاندهاش، لو قيل لي إن نوعاً حيوانياً أو نباتياً، له المظهر ذاته، في جهتَي الكرة الأرضية. فمن المفروض أن تكون الحيوانات والأشجار والأعشاب، مختلفة بصفة جذرية، وتبدي طبيعتها المدارية من أول نظرة. أما البرازيل فكانت ترتسم في مخيلتي، كباقات من النخيل الملتف، تخفي أبنية غريبة الطراز، تغمرها رائحة مجمرة البخور. وهي خاصة شمية، نتجت كما يبدو عن الإدراك اللاشعوري للتشابه الصوتي بين «BRESIL»، «GRESILLER» (ومعناها أزَّ)، الذي يفسر كوني حتى الآن، أفكر في البرازيل كطيب يحترق.

إذا ما نظرت إلى الماضي، لا تبدو هذه الصور اعتباطية. لأنني تعلمت أن حقيقة وضع ما، لا تكمن في ملاحظته يومياً، بل في هذا التقطير المجزأ، الذي يدعوني التباس العطر ربما، إلى وضعه قيد التطبيق، ناقلاً إلي درساً رمزياً، بشكل جناس تلقائي، لم أكن قادراً على صياغته بوضوح. فليس الاستكشاف مساراً، بقدر ما هو تنقيب: ذلك لأن مشهداً عابراً، وزاوية من منظر، ولمعة من فكر، تتيح وحدها فهم وتأويل آفاق، كانت ستبقى عقيمة.

طرح علي وعد بوجليه الغريب عندئذ، حول الهنود، مشكلات أخرى. فمن أين أتاه الاعتقاد بأن ساو باولو مملوءة، على الأقل في ضواحيها، بالأهالي؟ لا شك أنه خَلَطَ بمكسيكو أو بتيجوسيجالبا. إن هذا الفيلسوف، الذي كتب في الماضي مؤلفاً، عن نظام الطبقات في الهند، دون أن يتساءل فيما إذا كان من الأفضل أولاً، الذهاب إلى الهند، لرؤية ما هناك (أعلن بتعالٍ في مقدمته للعام ١٩٢٧: «في خضم الأحداث، إنها المؤسسات التي تطفو»)، لم يكن يعتقد أن لظروف الأهالي انعكاساً جدياً على التحقيق الاثنوغرافي. والواقع، أنه لم يكن الوحيد، بين علماء الاجتماع الرسميين، الذي أبدى هذه اللامبالاة، التي ما زالت لها أمثلة باقية تحت ناظرينا.

ومهما يكن من أمر، فقد كنت، أنا نفسي، على قدر من الجهل، لا يسمح لي برفض أوهام بمثل هذا التوافق مع تطلعاتي، ولا سيما أن جورج دوما، كانت له حول المسألة تصورات غير دقيقة أيضاً: إذ كان عرف جنوب البرازيل، في زمن لم تبلغ إبادة السكان الأصليين بعد غايتها، وخاصة أن مجتمع الديكتاتوريين والإقطاعيين، وأنصار الفنون والآداب، الذي كان يأنس به، لم يقدّم له إلا القليل من الضوء عن هذا الموضوع.

ولذا تملكتني الدهشة عندما سمعت، خلال غداء اصطحبني إليه فيكتور مرغريت، من سفير البرازيل في باريس، وجهة النظر الرسمية «هنود، باللأسف، يا سيدي العزيز، فلقد اختفوا منذ زمن طويل. آه، إنها صفحة حزينة جداً، ومخجلة من تاريخ بلادي. إذ كان المستعمرون

البرتغاليون في القرن السادس عشر أناساً جشعين وشرسين، فكيف نأخذ عليهم مشاركتهم في الفظاظة العامة للأخلاق؟ لقد كانوا يقبضون على الهنود، ويشدون وثاقهم إلى فوهات المدافع، ويمزقونهم إرباً وهم أحياء بالقنابل. وهكذا أبيدوا عن آخرهم. ستكتشف في البرازيل، باعتبارك عالم اجتماع، أشياء أخّاذة؛ لكن لا يخطرن الهنود ببالك، فلن تجد منهم أحداً ..».

عندما أستذكر اليوم هذه الأقوال، تبدو غير قابلة للتصديق، حتى من فم واحد من (واجهة السلة) في ١٩٣٤. وأتذكر كم كانت النخبة البرازيلية عندئذ (لقد تغيرتّ لحسن الحظ) تتجنب كل تلميح إلى الأهالي، وظروف الداخل البدائية، إلا للإقرار -وحتى الإيحاء- بأن والدة جدة هندية، هي أصل الملامح الأجنبية الطفيفة، وليست بعض النقاط أو اللترات من الدم الأسود، التي أصبح من اللائق (على عكس أسلاف الحقبة الإمبراطورية) محاولة إغفالها. ومع ذلك فإن أصول لوي دوسوزا - دانتاس الهندية لا ريب فيها، وكان بوسعه الفخر بها بسهولة. لكنه، باعتباره برازيلياً مهاجراً، تبنّى فرنسا منذ المراهقة، فقد أضاع حتى، معرفة الحالة الواقعية لبلاده، واستبدل بها في ذاكرته، نوعاً من الصورة الرسمية المزوّقة. وبقدر ما بقيت لديه بعض الذكريات؛ فقد كان يفضل، كما يخيل إلي، تشويه صورة البرازيليين في القرن السادس عشر، لتحويل الانتباه عن الهواية، التي كانت للناس من جيل آبائه، وحتى في شبابه: أي جمع ملابس ضحايا الجدري الملوثة من المستشفيات، لتعليقها مع غيرها من الهدايا، على طول الدروب التي تتردد عليها القبائل. وبفضل هذا، تم الحصول على هذه النتيجة الباهرة: ولاية ساوباولو وهي بمساحة فرنسا. وكانت تشير خرائط ١٩١٨، إلى أن ثلثي أراضيها «أراض مجهولة، ومأهولة بالهنود فقط»، لم تكن تحتوي، عندما وصلت العام ١٩٣٥، أياً من السكان الأصليين، إلا مجموعة من بضع أسر متوضّعة على الساحل، كانت تأتي أيام الآحاد إلى شواطئ سانتوس، لبيع ما يُزعم أنه طرائف. وإذا لم يكن الهنود في ضواحي ساوباولو، فهم لحسن الحظ، ما زالوا

موجودين على بعد ثلاثة آلاف كيلو متر في الداخل.

يستحيل علي المرور على تلك الحقبة، دون إلقاء نظرة ودّية على عالم آخر، أدين بالتعرف عليه إلى فيكتور مارغريت (الذي قدمني لسفارة البرازيل): إذ حافظ على صداقته لي بعدما عملت سكرتيراً لديه، فترة وجيزة إبان سنواتي الأخيرة كطالب. كانت مهمتي المساعدة في نشر أحد كتبه -(الوطن الإنساني)- عن طريق القيام بزيارات لمائة من الشخصيات الباريسية، لأقدم لهم النسخة التي أهداها لهم الأستاذ -كان يحرص على هذا اللقب- كما كان علي أن أكتب ملاحظات وأصداء مزعومة، توحي للنقاد بالتعليقات المناسبة. ويبقى فيكتور مارغريت في ذاكرتي، ليس بسبب معاملته اللطيفة لي وحسب، بل أيضاً (وهذه حال كل ما يؤثّر فيّ بشكل دائم) للتناقض بين الشخص وعمله. فبقدر ما يظن أن هذا العمل تبسيطي وجاف، على الرغم من أريحيته، تستحق ذكرى هذا الإنسان البقاء. فقد كان لوجهه، اللطف والنعومة الأنثوية نوعاً ما، لملاك غوطي. وتصطبغ تصرفاته بنبل طبيعي، جعل عيوبه، التي لم يكن الغرور أصغرها، محتملة، لأنها كانت تبدو مؤشراً إضافياً على امتياز راجع للدم أو الروح.

كان يسكن بجوار الدائرة السابعة عشرة، شقة بورجوازية فسيحة وعتيقة، حيث تحيطه زوجته، وهو شبه ضرير، بحبها ورعايتها. والتي رد العمر ما كان يعجب فيها سابقاً من فتنة إلى قبح وحيوية (العمر الذي ينفي كل خلط بين الصفات الجسدية وتلك الأخلاقية، إلا في الشباب).

كان يستقبل القليل من الناس، ليس فقط لأنه كان يرى نفسه مجهولاً لدى الجيل الجديد، وأن الأوساط الرسمية نبذته؛ بل بخاصة، لأنه نصّب نفسه في درجة عالية، صعب عليه معها إيجاد من يحادثه. كان أسهم مع البعض، بصفة عفوية أو متعمدة، لا أدري، في تأسيس أخوانية عالمية للرجال الفائقين، انتمى إليها خمسة أو ستة، كان منهم بالإضافة إليه. كيسلرينغ، لاديسلاس ريمون، رومان رولان، وأينشتاين، لفترة، كما أعتقد. وكانت القاعدة المتبعة بينهم، هي أنه كلما نشر أحد الأعضاء

كتاباً، يسارع الآخرون المشتتون عبر العالم، لكيل المديح له، كواحد من أسمى مظاهر العبقرية الإنسانية.

لكن ما كان مؤثراً على الخصوص لدى فيكتور مارغريت، هو البساطة التي كان يريد بها أن يجسد في شخصه كل تاريخ الأدب الفرنسي. وكان ذلك عليه من السهولة بمكان، لتحدره من وسط أدبي: فكانت أمه ابنة عم مالارميه، كما كانت الطُرف والذكريات تسند دعواه. وهكذا كان الحديث يدور بألفة عن زولا والأخوين غونكور وبلزاك وهوغو، كأعمام وجدود أُوكلوا له مهمة الحفاظ على الميراث. وعندما كان يصيح، نافذ الصبر: «يقال بأنني أكتب بدون أسلوب! وبلزاك، هل كان له أسلوب؟» كان المرءيظلتمنفسه أمام حفيد ملوك فرنسا، وهو يفسر بعض أفعاله الطائشة، بالمزاج الفائر لأحد أسلافه. مزاج يذكره العامة، لا كصفة شخصية، بل كتفسير معترف به رسمياً لانقلاب عظيم في التاريخ المعاصر، يرتعش المرء سروراً إذ يشاهده مجسداً. كان هناك كُتّاب آخرون لهم من الموهبة أكثر منه، ولكنهم قليلون، دون شك، أولئك الذين عَرفوا، بمثل هذه الكياسة، صنع تصور بهذا القدر من الأرستقراطية لمهنتهم.

كيف صرت إثنوغرافياً

6 كنت أتهيأ لدرجة الأستاذية في الفلسفة، التي لم يدفعني إليها ميل حقيقي، بقدر ما دفعني النفور الذي شعرت به لدى احتكاكي بالدراسات الأخرى، التي جربتها حتى ذلك الوقت.

عند انتسابي لقسم الفلسفة، كنت متشرباً، بصفة مبهمة بالواحدية العقلانية، التي كنت أستعد لتسويغها وتقويتها. ولذا بذلت كل جهدي للدخول في الفئة، التي كانت شهرة أستاذها الأكثر «تقدماً». ومع أن جوستاف رودريجز، كان مناضلاً في التيار الاشتراكي S.F.I.O، إلا أن مذهبه، على الصعيد الفلسفي، كان خليطاً من البرغسونية والكانتية الجديدة، وخيّب رجائي بشدة. إذ كان يضع في خدمة جفاف وثوقي (دوغماطي) حماساً يتمثل أثناء دروسه، بحركات وإيماءات عصبية. ولم أعرف قط مثيلاً لهذا الاقتناع الساذج، مقروناً بتفكير أكثر هزالاً. وقد انتحر في ١٩٤٠ لدى دخول الألمان باريس.

بدأت أتعلم عندئذ، أن بالإمكان حل أية مشكلة، خطيرة كانت أم تافهة، بتطبيق منهج، هو نفسه دائماً؛ يقوم على تقابل نظرتين تقليديتين للمسألة، بطرح الأولى بناءً على مسوغات الحس المشترك، ثم إبطال هذه المسوغات بوساطة الثانية، وأخيراً رد الاثنتين كلتيهما، بفضل نظرة ثالثة تكشف الطابع الجزئي للاثنتين الأخريين، وإرجاعهما بحيل لفظية لجوانب مكملة للواقع ذاته: كالشكل والمضمون، المحتوي والمحتوى، المخبر والمظهر، المتصل والمنقطع، الجوهر والوجود، إلخ فتصبح هذه الممارسات لفظية بسرعة، تؤسس على فن التلاعب بالألفاظ، الذي يحل محل التفكير؛ إذ يقدم السجع بين الألفاظ، والتجانس الصوتي، مع التعابير الملتبسة، شيئاً فشيئاً، مادة الانقلابات التأملية المفاجئة، التي بحذقها

تعرف الأعمال الفلسفية الجيدة.

خمس سنوات في السوربون، اختزلت في تعليم هذه الرياضة الذهنية، مع أن مخاطرها واضحة. لأن أساس هذه العمليات في البداية، بسيط جداً، بحيث ما من مشكلة لا تقارَب بهذه الطريقة. وحتى نهيء المسابقة والامتحان النهائي، أي الدرس (الذي يتمثل في معالجة سؤال، يُسحب بالقرعة بعد بضع ساعات من التحضير) كنا، أنا وزملائي، نقترح الموضوعات الأكثر شذوذاً. حتى أنني كنت أضطلع، بإنشاء محاضرة مدتها ساعة، في ظرف عشر دقائق، ذات بنية ديالكتيكية متينة حول تفوّق كل من الحافلات، وعربات الترام. ولا يقدّم هذا المنهج ما يناسب كل مقام وحسب، بل يحثّ على عدم رؤية ما في مسائل التفكير من ثراء، إلا بشكل وحيد، متماثل دائماً، بشرط إضافة بعض التصحيحات الأولية إليه: مثل مقطوعة موسيقية، ذات نغم واحد تقريباً، عندما نفهم إمكان قراءتها بمفتاح صول تارة، وبمفتاح فا تارة أخرى. فكان التعليم الفلسفي، من وجهة النظر هذه، يدرّب الذكاء ويجفّف الروح.

وقد رأيت خطراً أكثر جسامة أيضاً، في الخلط بين تقدّم المعرفة والتعقيد المتزايد للبناءات العقلية. إذ كان يطلب منا ممارسة تركيب دينامي، ينطلق من النظريات الأقل مطابقة، للارتفاع إلى الأكثر دقة، في الوقت الذي (وبسبب الهاجس التاريخي الذي كان يتملك أساتذتنا) ينبغي شرح كيفية تولّد هذه من تلك بصفة تدريجية. والمقصود، في حقيقة الأمر، لم يكن اكتشاف الصواب والخطأ، بقدر ما كان معرفة كيف تَغَلَّب الناس، تدريجياً، على تناقضاتهم. لم تكن الفلسفة إذاً في خدمة وعَوْن البحث العلمي، بل نوعاً من التأمل الجمالي للشعور، بنفسه ولنفسه. ولقد رأيناها تنشيء، عبر العصور، بناءات جريئة وخفيفة أكثر فأكثر، وتحل مشكلات التوازن أو الطاقة العقلية، وتبتدع تدقيقات منطقية. وكان الثناء على كل هذا يزداد، بازدياد الاتقان التقني أو التماسك الداخلي، حتى صار التعليم الفلسفي مشابهاً لتعلم تاريخ الفن، الذي يصنف الطراز الغوطي أسمى بالضرورة من طراز الرومان (ROMAN)، والغوطي المبهرج

أكمل من البدئي، لكن دون أن يتساءل أحد عما هو جميل، وما ليس بجميل. ولم يعد يُرجع الدالُّ إلى أي مدلول، فلم يعد ثمة من مرجع. وحلت البراعة محل التوق إلى الحقيقة. بعد سنوات خصّصتها لهذه التمارين، وجدت نفسي مزوداً ببعض القناعات الطريفة، التي لا تختلف كثيراً عن تلك التي كانت لدي، وأنا في الخامسة عشرة من عمري. لكنني، ربما أدرك بصورة أفضل، قصور هذه الأدوات؛ إذ لها على الأقل قيمة ذرائعية تجعلها صالحة لما أطلب منها من خدمة، بعيداً عن خطر الوقوع في خداع تعقّدها الداخلي، وخطر نسيان وجهتها العملية، مع تجنب التوهان في تأمل ترتيبها العجيب.

وعلى كل، فأنا أستشف أسباباً أكثر شخصية، للنفور السريع الذي نأى بي عن الفلسفة، وجعلني أتعلق بالاثنوغرافيا خشبةً للخلاص. إذ بعدما أمضيت في ثانوية مون دو مارسان سنة سعيدة في استيعاب دروسي، مع تعليمي لها، اكتشفت بهلع، منذ الدخول المدرسي التالي، أن علي قضاء ما بقي من حياتي في التكرار. والحال، أن لعقلي خاصية، هي نقيصة من دون شك، تتمثل في صعوبة تثبيته مرتين على الموضوع نفسه. وتعتبر مسابقة شهادة الأستاذية، في العادة، امتحاناً غير إنساني، يحوز من يفوز بها على الراحة نهائياً، إن أراد. أما بالنسبة لي فكان العكس؛ إذ ما إن نجحت، وكنت أصغر دفعتي، من دون تعب، بالفوز في هذا السباق عبْرَ المذاهب والنظريات والفرضيات، حتى بدأ عذابي: فسيكون مستحيلاً علي إلقاء دروسي، إذا لم أؤلّف دروساً جديدة كل عام. وظهر هذا العجز أكثر إرباكاً عندما كنت عضواً في لجنة الامتحان: فلم أكن أعلم، وأنا اسحب الأسئلة بالقرعة، أية إجابة كان على المترشح أن يجيب بها: وكان أكثر المرشحين جهلاً، يبدو لي أعلمهم، وكأن موضوعات الامتحان تذوب أمامي، لمجرد أنني أعملت فيها فكري مرة.

أتساءل اليوم أحياناً، فيما إذا لم تدعُني الاثنوغرافيا، دون وعي مني، بسبب تآلف بُنية الحضارات التي تدرسها، مع بُنية تفكيري الخاص؛ إذ تعوزني القدرة للحفاظ بتعقل على حقل، مزروعاً، لأجني محصوله عاماً

بعد عام: لأن لدي ذكاء العصر الحجري الحديث، فهو مثل النيران التي يشعلها الأهالي في الأحراش، لتحرق أراضي غير مكتشفة أحياناً، وتخصّبها ليجلبوا منها، على عجل، بعض المحصول، ثم تترك وراءها أراضي مدمرة. لكنني، لم أكن أدري، في تلك الفترة، هذه البواعث العميقة. فقد كنت أجهل كل شيء عن الاثنوغرافيا، ولم أحضر أي درس؛ وعندما قام السير جيمس فرازر بزيارته الأخيرة إلى السوربون، وألقى محاضرة لا تنسى – في ١٩٢٨، كما أظن – لم تراودني، حتى فكرة حضورها، مع أنني كنت على علم بالحدث.

وعلى الرغم من دأبي في طفولتي على جمع تحف غريبة، إلا أن ذلك كان شغل تاجر عاديات، أتوجه فيه إلى ميادين لم تكن عصية على محفظة نقودي. أما في المراهقة، فقد بقي توجهي عائماً، حتى أن أول من حاول تشخيصه، أستاذي في الفلسفة، الذي كان أندريه كريسون؛ إذ حدد لي الدراسات القانونية، معتبراً إياها الأقرب إلى مزاجي. وأنا أحفظ لذكراه الكثير من العرفان، بسبب نصف الحقيقة التي كانت تغطي هذا الخطأ.

امتنعت إذاً عن الانتساب إلى دار المعلمين العليا، وتسجلت في كلية الحقوق، في حين كنت أحضّر للإجازة في الفلسفة، لمجرد أن ذلك كان سهلاً. لكن سوء طالع مدهشاً، كان يرين على تعليم الحقوق. فبما أنها كانت بين اللاهوت الذي كانت روحها تقرِّبها منه، والصحافة التي كان الإصلاح القريب العهد يقوم بتوجيهها إليها، بدا من المستحيل عليها اتخاذ موقع على صعيد متين وموضوعي: لأنها ستفقد فضيلة، عندما تحاول الاستيلاء أو الحفاظ على الأخرى. وباعتبار رجل القانون موضوع دراسة للعالِم، فهو يذكرني بحيوان، يدعي أنه يُري المصباح السحري لعالِم الحيوان. كان يتم التحضير لامتحانات كلية الحقوق، في تلك الفترة، خلال خمسة عشر يوماً لحسن الحظ، بفضل ملخّصات تُحفظ عن ظهر قلب. وما كان يعدل نفوري من عقم الكلية إلا النفور من زبائنها. ترى أما زال التمييز قائماً؟ أشك في ذلك. لكن طلاب الجامعة في السنة الأولى،

على مختلف اختصاصاتهم، كانوا في ١٩٢٨ يتوزعون على نوعين، يمكن القول تقريباً، إنهما عرقان مختلفان: الحقوق والطب، من جهة، والآداب والعلوم، من جهة أخرى.

على الرغم من عدم جاذبية تعبيري المنبسط والمنطوي، إلا أنهما الأكثر ملاءمة للتعبير عن التعارض بين الجهتين. فمن جهة «شبيبة» (بالمعنى الذي يتخذه الفولكلور التقليدي للإشارة إلى فئة عمرية) صاخبة، عدوانية، همّها إثبات وجودها، مهما كلّفها الأمر من سوقية، توجهها السياسي نحو اليمين المتطرف (لتلك الحقبة). ومن الجهة الأخرى، مراهقون كبروا قبل الأوان، رصينون، منعزلون، «على اليسار» عادة، يعملون على أن يُقبَلوا في عداد البالغين، جاهدين كي يصيروا أقراناً لهم.

إن تفسير هذا الاختلاف بسيط، فالأولون الذين يتهيأون لمزاولة مهنة، يحتفلون عبر سلوكهم بانعتاقهم من المدرسة، وبوضعٍ تم الاستحواذ عليه في منظومة الوظائف الاجتماعية. وبما أن وضعهم وسيط، بين الحالة غير المتمايزة للطالب الثانوي، والنشاط المختص الذي يتطلعون إليه، فهم يشعرون بأنهم في حالة هامشية، ويطالبون بالامتيازات المتناقضة لكلا الوضعين.

أما بالنسبة للآداب والعلوم، فالمجالات المعتادة: كالتدريس والبحث، وبعض المهن غير الواضحة، هي من طبيعة أخرى. والطالب الذي يختارها، لا يقول وداعاً لعالم الطفولة، بل يحرص بالأحرى على البقاء فيه. أليس التدريس هو الوسيلة الوحيدة للبالغين للمكوث في المدرسة؟ إن الطالب في الآداب أو العلوم يتصف بنوع من الرفض، يواجه به الجماعة، وردّ فعلٍ أشبه بالزهد، يحثه على الانطواء المؤقت أو الدائم، للدرس والحفاظ على تراث مستقل عن الساعة التي تمضي، ونقله. أما عالم المستقبل، فموضوعه محدود بديمومة الكون. فلا شيء إذاً أكثر بطلاناً من إقناعه بالالتزام، وحتى عندما يظن أنه يلتزم، فالتزامه لا يقوم على قبولٍ مُعطىً، والتطابق مع إحدى وظائفه، والاضطلاع بفرصه ومخاطره الشخصية، بل على الحكم عليه من خارج، وكأنه لا يكون جزءاً منه؛ والتزامه هو

أيضاً، طريقة في البقاء طليقاً. ومن هنا، لا يختلط التعليم والبحث بتعلم مهنة ما، إنها عظمتهما وبؤسهما، أن يكونا إما ملاذاً وإما رسالة.

في هذه المناقضة بين المهنة، من جهة، ومشروع ملتبس يترجح بين الرسالة والملاذ، من جهة أخرى، تحتل الاثنوغرافيا، بالتأكيد، موقعاً متميزاً. إذ إنها أقصى ما يمكن تصوره في الحد الثاني. لأن الإثنوغرافي، مع إرادته أن يكون إنسانياً، يهدف إلى معرفة الإنسان والحكم عليه، من وجهة نظر مترفعة، وبعيدة بصفة كافية، حتى يجرده من الأعراض الخاصة بهذا المجتمع أو تلك الحضارة. إن ظروف حياته وعمله، تقطعه مادياً عن جماعته لمدد طويلة؛ ونتيجة للتغيرات المفاجئة التي يتعرض لها، يكتسب نوعاً من الغربة المزمنة: فلن يشعر أبداً بأنه في وطنه، بأي مكان، وسيبقى مشوهاً نفسياً. والاثنوغرافيا، مثلها مثل الرياضيات والموسيقا، إحدى المواهب الأصيلة، التي يمكن للمرء اكتشافها في نفسه، حتى ولو لم يعلّمه إياها أحد.

وبالإضافة إلى الخصوصيات الفردية، والمواقف الاجتماعية، تنبغي إضافة بواعث ذات طبيعة عقلية، بمعنى الكلمة. إذ كانت فترة ١٩٢٠ - ١٩٣٠، زمن انتشار نظرية التحليل النفسي في فرنسا، التي تعلمتُ من خلالها أن المناقضات الساكنة، التي كنا ننصح بكتابة مقالاتنا الفلسفية، وفيما بعد، دروسنا حولها - عقلانية ولا عقلانية، ذهنية ووجدانية، منطقية وسابقة للمنطق - مردها لعب مجاني. ففي ما وراء العقلاني، أولاً، ثمة صنف أكثر أهمية وخصوبة هو الدّال، الذي هو العقلاني في أعلى أشكال وجوده، لكن أساتذتنا (الذين كانوا أكثر انشغالاً بتأمل (المبسوط في المعطيات المباشرة للشعور) منهم بدراسة (دروس في اللسانيات العامة للعالم الألسني ف. دو سوسير)، لم يكونوا يتلفظون حتى باسمه. كشفت لي أعمال فرويد فيما بعد أن هذه التعارضات، لم تكن حقاً كذلك؛ لأن السلوكيات الأكثر وجدانية في الظاهر، والعمليات الأقل عقلانية، والمظاهر المعتبرة سابقة للمنطق، هي في الوقت ذاته الأكثر دلالة. وعوضاً عن أفعال الإيمان، والمصادرات البرغسونية على

المطلوب، التي ترجع الكائنات والأشياء إلى حالة العجينة، لتبرز بصفة أفضل طبيعتها التي لا يمكن التعبير عنها؛ كنت مقتنعاً بأن الكائنات والأشياء تستطيع الحفاظ على قيمتها الخاصة، دون أن تفقد وضوح التقاطيع، التي تحدد كل واحد بالنسبة للآخر، وتعطي كلاً منهم بنية معقولة. فالمعرفة لا تقوم على تنازل أو مقايضة، بل على انتخاب للجوانب الصادقة، أي تلك الجوانب، التي تتماشى مع خواص فكري. وليس كما تزعم الكانتية الجديدة، لأن فكري يمارس على الأشياء قسراً لا بد منه، بل بالأحرى لأن فكري هو نفسه موضوع. وباعتباره «من هذا العالم»، فإسهامه من الطبيعة نفسها لهذا العالم.

هذا التطور الفكري، الذي كابدته، بالاشتراك مع ناس آخرين من جيلي، كان مصطبغاً بلون خاص، نظراً لفضولي الشديد، الذي دفعني منذ الطفولة إلى الجيولوجيا: إذ ما زلت أحتفظ، من بين أعز ذكرياتي، برحلة على سفح هضبة كلسية لانغدوكية، في خط الاتصال بين طبقتين جيولوجيتين، أكثر من احتفاظي بمغامرة في مجاهل البرازيل. وليس المقصود هنا، مجرد جولة أو استكشاف للمكان: فهذا البحث العشوائي، لملاحظ دون دراية، يقدم صورة المعرفة كما هي، والصعوبات التي تعترضها، والابتهاج الذي يمكن أن يؤمل منها.

إن كل منظر يبدو، للوهلة الأولى، كفوضى عارمة، تترك الناظر حراً في إضفاء المعنى الذي يفضله، عليه. ولكن فيما وراء المناشط الزراعية، والتضاريس الجغرافية، ونكبات التاريخ وما قبل التاريخ، أليس الأجلّ من بين المعاني، هو ذلك الذي يسبق ويوجِّه، وإلى حد بعيد، يفسر المعاني الأخرى؟ فهذا الخط الشاحب المضطرب، وهذا الاختلاف، الذي لا يكاد يُدرَك في شكل وقوام الحطام الصخري، يشهدان بأن هناك، حيث أرى أراضي قاحلة، محيطين تتابعا في الماضي. وإذا تتبّع المرء، على إثرهما، البراهين على ركودهما منذ آلاف السنين، واجتاز كل العقبات -جروف هارية، انجرافات، أدغال، زراعات - غير مبال بالدروب والحواجز، فإنه يبدو وكأنه يتصرف بعكس الاتجاه. لكن لهذا العصيان هدفاً وحيداً، هو

العثور على المعنى الرئيس، الغامض ولا شك؛ ولكن من المعاني الأخرى تعويض جزئي له، أو تحريف.

فلتحدث الأعجوبة، كما يحصل أحياناً، ولتنبت جنباً إلى جنب، من جهتَيّ الصدع الخفي، نبتتان خضراوان، من نوعين مختلفين، اختارت كل منهما التربة الأنسب، ولتبدُ في اللحظة نفسها، في الصخر، مستحاثتان لصدفتين تشهدان، بالتفافهما اللولبي، على مضي بضع عشرات الآلاف من السنين: عندئذ، وفجأة يختلط الزمان بالمكان، والتنوع الحي، للحظة، يجاور العصور ويؤبّدها. ويبلغ الفكر والحساسية، بعداً جديداً، حيث تصبح كل قطرة عرق، وكل انقباض عضلي، وكل لهاث، رموزاً لتاريخ، يعيد جسمي حركته الخاصة، في الوقت الذي يقبض فكري على معناه؛ فأشعر بأنني مغمور بمعقولية أكثر كثافة، تتجاوب ضمنها القرون والأماكن، متحدثة أخيراً بلغات المصالحة.

حينما عرفت نظريات فرويد، بدت لي، بصفة طبيعية، بمنزلة تطبيق على الفرد لطريقة، تمثل الجيولوجيا تلقائياً مثالاً لها. إذ يوضع الباحث في الحالتين، للوهلة الأولى، أمام ظواهر تبدو عصية على الفهم. ويجب عليه في الحالتين، لحصر وسبر عناصر وضع معقد، التحلي بخصال مرهفة، هي: الحساسية والفطنة والذوق. ومع ذلك، فإن النظام، الذي يتخلل مجموعة تبدو غير مترابطة لأول وهلة، ليس عارضاً ولا اعتباطياً. وبخلاف تاريخ المؤرخين، يسعى تاريخ الجيولوجي وتاريخ المحلل النفسي، كما في أسلوب اللوحة الحية، إلى إسقاط بعض الخصائص الأساسية للعالم الفيزيائي أو النفسي في الزمان.

تكلمت على اللوحة الحية، وبالفعل، تقدم لعبة «الأمثال المجسدة» الصورة الساذجة، لمسعى يقوم على تأويل كل حركة، كتتابع في الديمومة لبعض الحقائق المطلقة، التي تحاول الأمثال ترجمة جانبها المحسوس على الصعيد الأخلاقي، لكنها في ميادين أخرى؛ تسمى بالضبط قوانين. إن استثارة الفضول الجمالي في كل هذه الحالات، تسمح ببلوغ المعرفة مباشرة.

في نحو السابعة عشرة من عمري، أطلعني على الماركسية شاب اشتراكي بلجيكي، عرفته أثناء العطلة، وهو الآن سفير لبلاده في الخارج. أثرتْ فيَّ قراءة ماركس، لا سيما وأنني كنت أحتك، عبر هذا المفكر العظيم، بالتيار الفلسفي، الذي يمتد من كانت إلى هيغل: إذ كشف لي عالماً برمته. ولم يخبُ هذا الحماس منذئذ، فنادراً ما أعكف على تحليل مشكلة في علم الاجتماع أو الاثنولوجيا، دون أن أنشّط أفكاري، قبل كل شيء، ببضع صفحات من (١٨ بروميير للويس بونابرت)(*) أو من (نقد الاقتصاد السياسي). ليس المقصود معرفة ما إذا توقع ماركس حقاً، هذا التطور أو ذاك للتاريخ؛ فعلى إثر روسو، وبشكل يبدو لي حاسماً، علّم ماركس أن العلوم الاجتماعية لا تُبنى على صعيد الأحداث، أكثر مما تُبنى الفيزياء انطلاقاً من معطيات الحساسية: فالهدف هو بناء أنموذج، ودراسة خواصه وطريقة تفاعله في المخبر، ومن ثم، تطبيق هذه الملاحظات على تفسير ما يحدث بالخبرة، الذي قد يكون بعيداً جداً عن التوقعات.

(*) بروميير: هو الشهر الثاني في تقويم الثورة الفرنسية، ويقع بين ٢٣ تشرين الأول و ٢١ تشرين الثاني (المترجم).

كانت الماركسية، على صعيد مختلف من الواقع، تبدو لي أنها تتبع الأسلوب نفسه للجيولوجيا والتحليل النفسي، بالمعنى الذي أعطاها إياه مؤسسها: إذ تدلل الثلاثة جميعاً على أن الفهم يقوم على إرجاع أنموذج من الواقع إلى أنموذج آخر؛ وأن الواقع الحق ليس هو دائماً الأكثر جلاء، وأن طبيعة الحق تتكشف من خلال عمله على التواري عن الأنظار. فالمشكلة في كل الحالات هي العلاقة بين المحسوس والمعقول؛ والهدف المنشود هو ذاته: أي بلوغ نوع من العقلانية الفوقية، التي تستهدف إدماج الأول في الثاني، دون التضحية بأي من خصائصه.

كنت أظهر إذاً، بمظهر المتمرد على الاتجاهات الجديدة في التفكير الميتافيزيقي، كما بدأت تتضح. فالفلسفة الظواهرية كانت تصدمني، من حيث كونها تسلّم بالاستمرارية بين المعيش والواقع. وأنا أوافق الاعتراف

بأن الواقع يغلف ويفسر المعيش؛ فقد كنت تعلمت من معلماتي الثلاث، أن الانتقال بين النسقين منقطع، وينبغي لبلوغ الواقع، التخلي أولاً عن المعيش، على أن يُدمج، من بعد، في تركيب موضوعي عارٍ من كل عاطفة. أما الحركة الفكرية، التي ستزدهر في الوجودية، فقد بدت لي متعارضة مع التفكير المشروع، نظراً لما تظهره من تساهل حيال أوهام الذاتية. إذ في هذا الارتفاع بالمشاغل الشخصية إلى مصاف المشكلات الفلسفية، مجازفة بالانتهاء إلى ميتافيزيقا لعاملات الخياطة، وهو ما يمكن السماح به، كطريقة تعليمية، لكنه جد خطير إذا ما أدى إلى التهرب من هذه المهمة المنوطة بالفلسفة، حتى يصبح العلم من القوة، بحيث يحل محلها. وهي مهمة فهم الوجود بالعلاقة معه هو نفسه، وليس مطلقاً بالعلاقة معي. فعوضاً عن إلغاء الميتافيزيقا إذاً، أدخلت الظواهرية والوجودية منهجين لإيجاد المسوغات لها.

بين الماركسية والتحليل النفسي، وهما علمان إنسانيان؛ بمنظور اجتماعي للأول، وفردي للثاني؛ والجيولوجيا وهي علم فيزيائي -لكنه أيضاً أم التاريخ ومرضعته، بمنهجه وموضوعه- تتربع الإثنوغرافيا في مملكتها: لأن هذه الإنسانية، التي نواجهها من دون حدود، سوى حدود المكان، تعطي معنى آخر لتحولات الكرة الأرضية، التي أورثها التاريخ الجيولوجي: وهو عمل لا ينقطع، مستمر منذ آلاف السنين، سواء في نشاط الشركات المغفلة، أم في القوى الأرضية، وفي فكر الأفراد الذين يشكلون، كل منهم على حدة، حالات خاصة لعالِم النفس. وتُشبع الاثنوغرافيا لدي حاجة فكرية: فباعتبارها تاريخاً، يصل تاريخ العالم بتاريخي الشخصي، فهي تكشف في الوقت ذاته سببهما المشترك. وهي باقتراحها علي دراسة الإنسان، تحررني من الشك، لأنها تهتم فيه بالاختلافات والتغيرات التي لها معنى لدى كل بني الإنسان؛ باستثناء تلك الخاصة بحضارة وحيدة، التي قد تتفكك إذا ما اختار المرء البقاء خارجاً. وأخيراً، هي تهدئ هذا التوق القلق والمدمر، الذي تحدثت عنه، إذ تضمن توافر مادة لا تنفد عملياً، يقدمها تنوع العادات والأعراف

والمؤسسات. إنها مصالحة بين طبعي وحياتي.

قد يبدو غريباً، بعد ذلك، أن بقيتُ، هذه المدة الطويلة، أصمَّ حيال رسالة، نقلتها إليَّ، منذ الشهادة الثانوية، مؤلفات أعلام المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع. والواقع، أنه لم يحصل لدي الإلهام، إلا نحو ١٩٣٣ أو ١٩٣٤، عند قراءتي لكتاب وجدته مصادفة وكان قديماً وقتها هو: (المجتمع البدائي) لروبرت هـ. لووي. لكنني، عوضاً عن مفهومات استعيرت من كتب، واستحالت في الحال إلى تصورات فلسفية، كنت في مواجهة تجربة مَعيشة لمجتمعات محلية، حافظ التزام الملاحظ على دلالتها. وهكذا أخذ فكري يفلت من هذا التعرق في الإناء المغلق، الذي أخضعتْه له ممارسة التفكير الفلسفي، ويخرج إلى الهواء الطلق، شاعراً بنسمة جديدة تنعشه. وكنت، مثل ساكن مدينة أطلق في الجبال، أنتشي بالمكان، بينما تتبين عيناي المنبهرتان غنى وتنوع الأشياء.

وهكذا بدأت هذه الحميمية مع الاثنولوجيا الأنجلو - أمريكية، التي انعقدت عن بعد، بوساطة القراءة؛ واستمرت، من بَعد، عن طريق الاتصالات الشخصية، متيحة لكثير من سوء الفهم. في البرازيل، بداية، حيث كان القائمون على الجامعة ينتظرون مني، أن أشارك في تدريس علم اجتماع دوركايمي، دفعهم إليه التقليد الوضعي القديم الشديد الحيوية في أمريكا الجنوبية، وهاجس إعطاء قاعدة فلسفية للّيبرالية المعتدلة، التي هي السلاح الإيديولوجي المعتاد للنخبة، ضد السلطة الشخصية. وبما أنني وصلت إلى البرازيل، وأنا في حالة تمرد سافر على دوركايم، وعلى أية محاولة لاستعمال علم الاجتماع لأغراض ميتافيزيقية، فقد أبيت المساعدة على رفع الجدران القديمة، في الوقت الذي كنت أسعى بكل قواي إلى توسيع أفقي. ومن هنا غالباً وُجّه اللوم إلي منذئذ، على ما لا أدريه من ولاء للفكر الأنجلو - سكسوني. يا للحماقة! إذ فضلاً عن كوني، في هذه الآونة، الأكثر وفاء، على الأرجح، من أي كان للاتجاه الدوركايمي- ولا يشك أحد، في الخارج بذلك - فالمؤلفون الذين أدين لهم: كلووي، وكروبر، وبواس، يبدون لي بعيدين، أكثر ما يمكن، عن الفلسفة

الأمريكية على طريقة جيمس أو ديوي (وما يُزعم الآن أنه الوضعية المنطقية) التي عفا عليها الزمان، منذ وقت طويل. وهم باعتبارهم أوروبيي المولد، تكونوا في أوربا على أيدي أساتذة أوربيين، يمثلون شيئاً آخر: أي تركيباً يعكس، على صعيد المعرفة، ذلك التركيب، الذي قدم كولومبوس مناسبته الموضوعية، قبل أربعة قرون؛ ولكن هذه المرة، بين المنهج العلمي الصارم، والأرضية التجريبية الفريدة التي يتيحها العالم الجديد. ففي الوقت الذي ينعم الباحث بأفضل المكتبات، بوسعه مغادرة جامعته للانتقال إلى بيئة محلية، بالسهولة نفسها، التي ننتقل فيها إلى بلاد الباسك أو الكوت دازور. وأنا هنا، لا أشيد باتجاهٍ فكريٍ، بل بوضعٍ تاريخيٍ؛ فلنتخيل فقط، امتياز الوصول إلى شعوب بكرٍ، لم تخضع لأي استقصاء جدي، ومحفوظة بصفة كافية، بفضل الفترة الوجيزة، التي انقضت منذ بداية إبادتها. وثمة نادرة، تدلل على ما أريد قوله: إذ أُفْلت هندي وحده، بأعجوبة، من إبادة القبائل الكاليفورنية، التي كانت ما تزال متوحشة، فعاش لسنوات مجهولاً من الجميع في جوار المدن الكبرى، ناحتاً من الحجر رؤوس سهامه، التي كانت تتيح له الصيد. لكن الطرائد اختفت شيئاً فشيئاً؛ فاكتُشف هذا الهندي عارياً، يتضور جوعاً، في مدخل إحدى الضواحي. وانتهت به الحياة بواباً لجامعة كاليفورنيا.

غروب الشمس

7 تلك كانت خواطر مسهبة، من دون طائل، حتى نصل إلى تلك الصبيحة من شباط/فبراير ١٩٣٥، حين وصلت إلى مرسيليا، جاهزاً للركوب باتجاه سانتوس؛ وقد عرفت من بعد، مغادرات أخرى، تختلط جميعاً في ذاكرتي، لم يتبق منها سوى بعض الصور محفوظة: في البداية، هذه البهجة الخاصة للشتاء في جنوب فرنسا. فتحت سماء صافية، أكثر روحية من المعتاد، كان الهواء القارس يثير في النفس نشوة عارمة، كتلك التي يثيرها شرب العطشان، على عجل، ماءً غازّياً مثلجاً. وفي المقابل كانت تتلكأ روائح ثقيلة في ممرات الباخرة الراسية، والمدفأة أكثر من اللازم. هي مزيج من عبير البحر وروائح المطبخ، والطلاء الزيتي القريب العهد. وأستذكر، أخيراً ذلك الشعور بالرضى والطمأنينة وربما السعادة الوديعة، الذي يحدث وسط الليل، لدى الإحساس المكتوم بارتجاج الآلات، وحفيف الماء بجسم الباخرة؛ وكأن الحركة تؤدي إلى نوع من الثبات، ذي طبيعة أكثر كمالاً من السكون الذي، على العكس، يوقظ النائم فجأة عند أي توقف ليلي، باعثاً شعوراً بعدم الأمان والضيق، خوفاً من أن يغير سير الحوادث الذي صار طبيعياً فجأة مجراه.

كانت بواخرنا تتوقف كثيراً؛ وكان الأسبوع الأول من السفر، يمضي في الحقيقة على الأرض، بينما يتم تحميل وتفريغ الشحنات؛ والإبحار يجري ليلاً، فنجد أنفسنا، عند كل استيقاظ، على رصيف مرفأ آخر: برشلونة، تراخون، فالانس، أليكانت، مالاقا، كاديس، وأحياناً كثيرة، الجزائر، وهران، جبل طارق، قبل أطول مرحلة إلى الدار البيضاء، وأخيراً دكار. وعندئذ فقط، كان يبدأ العبور الكبير، إما مباشرة إلى ريو وسانتوس،

وإما نبطئ قرب النهاية نادراً، بالإبحار على طول الساحل البرازيلي، لنتوقف في ريسيف، باهيا، وفيكتوريا. كان الهواء يزداد دفئاً، بينما تتتابع، بطيئة في الأفق، سلاسل الجبال الإسبانية، وتتكون سرابات بشكل جُرُف توسع المشهد لأيام برمتها، في عرض الساحل الإفريقي، الذي تعسر رؤيته مباشرة لشدة انخفاضه ومستنقعاته. كان الأمر كله مغايراً للسفر؛ إذ كانت الباخرة تبدو لنا بيتاً ومسكناً، بدلاً من كونها وسيلة نقل، توقف خشبة مسرح دوارة أمام بابه، كل يوم، منظراً جديداً للعالم.

ومع ذلك، كانت الروح الاثنوغرافية غريبة عني لدرجة، أنني لم أتخيل معها الانتفاع بهذه الفرص. وقد تعلمت، من بعد، كم تدرِّب هذه اللمحات الخاطفة لمدينة أو لمنطقة أو ثقافة الانتباه، وتسمح أحياناً حتى -نظراً للتركيز الشديد الضروري، للحظة المتاحة- بإدراك بعض خصائص الموضوع، التي كانت ستبقى، في ظروف أخرى، خافية لوقت طويل.

مشاهد أخرى، كانت تجذبني؛ وبسذاجة المبتدئ كنت أرقب بشغف، على السطح الخالي، هذه الأعاجيب الساحرة، التي يمثل شروق الشمس وغروبها، لبضع لحظات في اليوم، ولادتها ونموها ونهايتها، في أرجاء أفق لم يتسن لي تأمل مثل سعته. فإذا ما وُجدت لغة أثبت بها هذه المظاهر المتغيرة، والتي تندّ عن كل جهد لوصفها، وإذا ما تسنى لي نقل فترات ومفردات حدث فريد لن يتكرر أبداً بالصيغة نفسها إلى الغير؛ يبدو لي عندئذ أنني بلغت، دفعة واحدة، أسرار مهنتي: إذ لن تكون ثمة تجربة غريبة، أو خصوصية، يقابلني بها التحقيق الإثنوغرافي، ولا يكون بوسعي إفهام الآخرين معناها وأهميتها.

هل سأبلغ، بعد كل هذه السنين، إلى حالة الوجد هذه ثانية؟ وهل سأتمكن من العيش ثانية هذه اللحظات المحمومة، ودفتري بيدي، حينما كنت أدون ثانية بثانية التعبير، الذي سيسمح لي ربما، بتثبيت هذه الأشكال المتلاشية، والمتجددة أبداً؟ إن اللعبة ما تزال تفتنني، وكثيراً ما أفاجئ نفسي، وأنا منهمك بالمجازفة فيها.

كُتِب على ظهر الباخرة.

يرى العلماء في بزوغ الفجر وظهور الشفق ظاهرة واحدة، وكان الإغريق كذلك، بما أنهم كانوا يشيرون إليهما بكلمة واحدة، يضيفون إليها صفة الصباح أو المساء، بحسب مقتضى الحال. هذا الخلط يعبّر جيداً عن أولوية هاجس التأملات النظرية المسيطر، وعن إهمال مستغرَب للجانب المحسوس من الأشياء. فأن تنتقل نقطة ما من الأرض بحركة مستمرة، بين منطقة سقوط أشعة الشمس، والمنطقة التي يفلت منها الضوء أو يعود إليها، فذلك ممكن. لكنه، لا شيء أكثر اختلافاً، في الواقع، من المساء والصباح. إن طلوع النهار مقدمة، وغروبه افتتاحية، تتم في النهاية عوضاً عن البداية، كما في الأوبرات القديمة. ووجه الشمس يعلن عن الساعات الآتية؛ إذ يكون داكناً وشاحباً، إذا قُدّر أن تكون ساعات الصبيحة الأولى ممطرة، وورديا خفيفاً ورغوياً، حينما يلمع ضوء ساطع. لكن الفجر لا ينبئ بما سيكون عليه اليوم، بل يرتبط بتنبؤات الأرصاد الجوية، قائلاً: ستمطر السماء، أو سيكون الجو جميلاً. أما غروب الشمس، فشيء آخر؛ هو تمثيلية تامة، ببداية ووسط ونهاية. ويقدّم هذا المشهد إيجازاً لصور المعارك والانتصارات والهزائم، التي تتابعت لاثنتي عشرة ساعة، بصفة محسوسة، لكن ببطء أكثر أيضاً. فما الفجر إلا بداية اليوم، والشفق تكرار له.

ولهذا يعير الناس انتباهاً أكبر للشمس الغائبة، منه للشمس المشرقة؛ لأن الفجر لا يقدم لهم سوى إشارة، بالإضافة إلى إشارات مقياسَي الحرارة والضغط الجوي –وللأقل تحضراً – منازل القمر، وطيران الطيور، أو نوسان المد والجزر. بينما يرفعهم غروب الشمس، موحّداً، في أشكال غامضة، نزوات الرياح والبرد والحرارة أو المطر، التي تلاعبت بهم.

ويمكن لمجريات الشعور، أن تُقرأ في هذه التجمعات القطنية للنجوم. إذ عندما يبدأ الغروب (مثل ما يحدث في بعض المسارح، عندما تضاء الخشبة فجأة، للإعلان عن بدء العرض، عوضاً عن الضربات الثلاث

التقليدية). يوقف الفلاح محراثه، ويمسك الصياد بقاربه، ويطرف المتوحش بعينه وهو جالس بجوار نار شاحبة. إن في التذكر نشوة عظيمة للإنسان، بقدر ما لا تكون الذاكرة حرفية، لأن القليل من الناس من يقبل أن يعيش من جديد المتاعب والآلام، التي يحبون مع ذلك تذكرها. فالذاكرة هي الحياة نفسها، ولكن بنوعية أخرى. ولذا، حين تهبط الشمس إلى السطح المصقول لمياه هادئة، تتكشف للإنسان قوى غامضة، وبخار الصواعق، التي لمح في أعماق نفسه وطوال اليوم، صراعاتها المبهمة.

كان لا بد إذاً، من صراعات مشؤومة تحتدم في النفوس، لأن تفاهة الأحداث الخارجية، لم تكن لتبرر أي اضطراب جوي؛ ولا شيء بارز هذا اليوم، سوى أن الـ (ماندوزا) كانت، في نحو الرابعة بعد الظهر، غيرت طريقها. نحو الساعة الرابعة حين تكون الشمس في منتصف مسارها وتفقد جلاءها، دون أن تفقد بعد بريقها، حيث يختلط كل شيء في ضوء ذهبي يبدو أنه يتراكم عمداً لإخفاء تهيئة ما ولا أحد، على كل حال، أعار ذلك انتباهاً، لأن ما من شيء في السفر بأعالي البحار، يشبه تحولاً هندسياً. وما من منظر هناك، ليدلل على الانتقال البطيء عبر خطوط العرض، ومناطق التساوي الحراري، أو المنحنيات المطارية. إذ إن خمسين كيلو متراً على طريق بري، قد تعطي الانطباع بتغيير في الكوكب، لكن خمسة آلاف كيلو متر في المحيط، تعرض وجهاً ثابتاً لعين غير خبيرة على الأقل. فلا تفكير في المسار أو جهته، ولا علم بالأرض الخافية، لكنها موجودة وراء الأفق المتباعد، ولا يشغل شيء من هذا بال المسافرين. إذ كان يبدو لهم أنهم محتجزون بين جدران محدودة، لعدد من الأيام، عُيِّن سلفاً؛ ليس لأن هناك مسافة عليهم قطعها، بل بالأحرى للتكفير عن الامتياز، المتمثل في نقلهم من طرف من الأرض إلى الطرف الآخر، دون أن تبذل أجسامهم أي جهد؛ هذه الأجسام، التي ترهلت بنوم الصبيحة، والوجبات الكسولة، التي ما عادت منذ وقت طويل تجلب متعة، بل كانت تتحول إلى تسلية مقررة (بشرط أن تطول زيادة عن الحد) لملء فراغ الأيام.

أما الجهد، فما من شيء يدل عليه. نعم! كنا نعلم جيداً أنه، في مكان ما بجوف هذه العلبة الكبيرة، هناك آلات، ورجال من حولها يشغلونها. لكنهم لا يهتمون باستقبال زيارات، ولا يهتم المسافرون بزيارتهم، ولا الضباط بتعريف هؤلاء على أولئك أو العكس. فلم يبق إلا التجوال حول الهيكل، حيث يعمل بحار وحيداً في طلاء بعض أنابيب التهوية، أو يدفع مضيف ثياباً رطبة في ممر الدرجة الأولى بحركات مختصرة، مشكليْن الدليل الوحيد على انزلاق الأميال المنتظم، الذي تُسمع ضرباته على أسفل جسم السفينة الصدئ.

في الخامسة وأربعين دقيقة، كانت السماء تبدو، في الجانب الغربي، مزدحمة بصرح معقد، أفقي تماماً من الأسفل، على صورة البحر الذي يخال المرء أنه انفصل عنه، بتعلية غير مفهومة فوق الأفق، أو بتوسط صفيحة سميكة وغير مرئية من البلور بينهما. تعلق في قمته وتشرئب إلى الأعالي، بتأثير جاذبية معكوسة، صقالات مزعزعة وأهرام منتفخة، وفورانات جامدة، كمصبوبات جصية تدعي محاكاة الغيوم؛ لكن الغيوم نفسها تشابهها بقدر ما تذكر بالمنحوتات الخشبية المصقولة المذهبة. تبرز هذه الكومة المختلطة التي تحجب الشمس، بأصباغ داكنة مع لُمَع نادرة، إلا نحو الأعلى حيث كان يتطاير بعض الشرر.

وإلى الأعلى أيضاً في السماء، كانت تنحل برقشات شقراء إلى تعرجات لا مبالية، تبدو وكأنها لا مادية، قوامها ضوئي محض.

وباتباع الأفق نحو الشمال، كان المرء يرى الزخرفة الرئيسية ترق وتتفكك إلى غيوم يظهر وراءها، من بعيد، عمود جياش في قمته؛ بينما كان الضياء يحف من الجانب الأقرب للشمس -التي ما زالت مختفية- هذه التضاريس بحاشية متينة. وإلى الشمال أكثر، كانت الأشكال تختفي، ولم يعد هناك سوى العمود نفسه، باهتاً ومسطحاً، وهو يزول في البحر.

في الجنوب، كان العمود نفسه ينبجس، ولكن تعلوه بلاطات كبيرة غائمة مستقرة، مثل دولمانات(*)

(*) الدولمن: أثر حجري مكون من بلاطة أفقية تستند إلى كتل عمودية.

كونية على قمم مساندها.

عندما يدير المرء ظهره تماماً للشمس، وينظر نحو الشرق، يلمح أخيراً مجموعتين متراكبتين من الغيوم، تتسحبان طولياً؛ يبرزهما، وكأنما بعكس الضوء، سقوط أشعة الشمس على خلفية من سور ناتئ وبطين، لكنه هوائي بكليته ومُصدَّف بانعكاسات وردية وبنفسجية وفضية.

في هذه الأثناء، وخلف الحشاف السماوية التي تسد الغرب، كانت الشمس تجري بطيئة؛ ولدى كل تقدم في سقوطها، تبقر بعض من أشعتها الكتلة الكثيفة، أو تشق لنفسها ممراً بمسالك، تقطع خطوطها، في اللحظة التي كان ينبعث الشعاع، ويقطع العقبة إلى ركام من قطاعات دائرية، مختلفة بالحجم والشدة الضوئية. وكان الضوء يتلاشى أحياناً كَيد تتقبض غير تاركة إلا إصبعاً أو اثنين يظهران متوهجين ومتصلبين. أوّ يتقدم أخطبوط متأجج، خارجاً من المغارات الضبابية، ليسبق انكماشاً جديداً.

ثمة مرحلتان متمايزتان في غروب الشمس. في البداية، يكون النجم مهندساً معمارياً. وبعد ذلك فقط (عندما تصلنا أشعته منعكسة، وليست مباشرة) يتحول إلى رسّام. فما إنِ يختفي خلف الأفق، حتى يضعف الضوء مُظهراً سطوحاً تتعقد تدريجياً، كل لحظة. إذ إن الضوء الساطع عدو المنظور، إلا أنه بين النهار والليل، مساحة لعمارة خيالية بقدر ما هي مؤقتة. وفي الظلمة، يتسطح كل شيء من جديد، مثل دمية يابانية بديعة التلوين.

في الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة مساءً، بدأت المرحلة الأولى، وقد انخفضت الشمس، دون أن تمس الأفق بعد. وبدت حين خروجها من تحت الصرح الغائم، كأنها تفقأ صفار بيضة، وتُلطّخ بالضوء الأشكال، التي كانت ما زالت متعلقة بها. هذا الفيض من الضياء، يترك مكانه سريعاً لانسحاب؛ فيصير كل ما يجاوره كابياً، وفي هذا الفراغ الذي يبقى تباعداً بين الحد الأعلى للمحيط والحد الأسفل للغيوم، أمكن للمرء أن يرى سلسلة جبال بخارية، أمست حادة وداكنة، وكانت قبل هنيهة مبهرة، يتعذر تمييزها. وصارت في الوقت نفسه ضخمة،

وكانت في البداية مستوية. وكانت هذه الأشياء الصغيرة الصلبة والسوداء تجول في هجرة لا طائل تحتها، عبر صفيحة عريضة محمرة تصعد ببطء -وهي تفتتح مرحلة الألوان- من الأفق إلى السماء.

أخذت بناءات المساء العميقة بالانكفاء شيئاً فشيئاً. وبدت الكتلة التي احتلت السماء الغربية، طيلة اليوم، رقيقة كورقة معدنية تضيئها من الوراء نار ذهبية أولاً، ثم قرمزية، فكرزية اللون. هذه النار التي كانت تصهر وتصقل وتزيل، في موران من القطع المجزأة غيوماً تتلوى لتتلاشى تدريجياً.

وتنبثق شبكات ضبابية لا حصر لها في السماء؛ فهي تبدو ممتدة في كل الاتجاهات: أفقية، منحرفة، شاقولية، وحلزونية أيضاً. وأشعة الشمس، بقدر ميلانها (كقوس آلة وترية، ينحني أو ينتصب ليلمس أوتاراً مختلفة) كانت تفجر بالتتابع واحدة بعد الأخرى، في تدرجات لونية؛ يخال المرء أنها الملكية الحصرية والاعتباطية لكل واحدة من تلك الشبكات. وتعرض كل شبكة، لحظة ظهورها، جلاء ودقة خيوط الزجاج وصلابته الهشة. لكنها تذوب، وكأن مادتها لفرط تسخينها في سماء مملوءة باللهيب، وقد دكنت ألوانها وأضاعت تفردها، كانت تنتشر في طبقة، ترق أكثر فأكثر حتى تختفي من المشهد، كاشفة عن شبكة جديدة غُزِلت لتوها. ولم يعد في النهاية إلا أصباغ مبهمة مختلطة بعضها ببعض؛ كما يحدث في كأس، يحتوي سوائل من ألوان وكثافات مختلفة، متراكبة في البداية، ثم تبدأ في التمازج ببطء، على الرغم من ثباتها الظاهر.

بعد هذا، يصير من الصعب، متابعة مشهد كان يبدو متكرراً، مع فارق دقائق، وأحياناً ثوان، في نقاط متباعدة من السماء. ففي الشرق، ما إن يقرب قرص الشمس من الأفق المقابل، حتى نرى، دفعة واحدة، سحباً لم تكن مرئية قبلاً. ويتطور هذا التجلي سريعاً تثريه تفاصيل وتدرجات لونية؛ ومن ثَمَّ يبدأ كل شيء بالإمّحاء جانبياً، من الجهة اليمنى إلى اليسرى، كأنما بفعل خرقة تمسح بحركات ثابتة وبطيئة. ولا يبقى، في ظرف ثوان، سوى زرقة السماء الداكنة، فوق أسوار الغمام، الذي يتحول

إلى الأبيض والرمادي، بينما يصير لون السماء إلى الوردي. من جهة الشمس، أخذ عمود جديد يرتفع وراء السابق الذي أمسى اسمنتاً وحيد الشكل وغامضاً. لأن الآخر هو الذي كان يتألق الآن. وعندما خبت أشعتها الحمراء، اكتسبت البرقشات السمتية، التي لم تكن لعبت دورها بعد، حجماً ببطء، واستحال وجهها الأسفل إلى اللون الذهبي وتفجر، بينما صارت قمتها التي كانت متلألئة إلى الألوان البنية والبنفسجية. وبدا نسيجها، في الوقت نفسه، منظوراً إليه تحت المجهر: إذ يُكتشف مكوناً من ألف سلك دقيق، تدعم أشكالها البدينة، كهيكل عظمي.

الآن، اختفت تماماً أشعة الشمس المباشرة، وليس في السماء سوى ألوان وردية وصفراء: قريدس، سلمون، كتان، قش؛ ويشعر المرء بأن هذا الثراء الرصين، يتلاشى هو أيضاً. ويولد المشهد السماوي من جديد، بتدرجات لونية بيضاء وزرقاء وخضراء. ومع ذلك، كان ثمة زوايا صغيرة من الأفق، لا تزال تتمتع بحياة مستقلة وعابرة. إذ على اليسار، ستار غير ملحوظ، أثبت وجوده فجأة كنزوة مزيج من ألوان خضراء، تكتنفها الأسرار؛ تحولت تدريجياً إلى حمراء شديدة الحمرة أولاً، ثم داكنة، فبنفسجية ثم فحمية، ولم تعد سوى الأثر غير المنتظم لأصبع فحم مس ورقاً مبرغلاً مساً رقيقاً. وكانت السماء في الخلف بلون أصفر مُخضر جبلي؛ بينما بقي العمود كامداً بحدود صارمة. وفي غرب السماء كانت تتلألأ حزوز أفقية من الذهب للحظة؛ لكن الليل كاد يرخي سدوله في الشمال: فلا يظهر من السور الناتئ إلا تقببات مبيضة، تحت سماء من الكلس.

لا شيء أكثر خفاءً من الطرق المتماثلة دائماً، التي يتخذها الليل، ليعقب النهار. إذ تظهر علاماته، فجأة، في السماء، يصاحبها ارتياب وقلق. ولا أحد بوسعه استشعار الشكل الذي ستتخذه، فريداً هذه المرة، من بين الأشكال الأخرى، هذه القبة الليلية. وبكيمياء غير مفهومة، يتوصل كل لون إلى التحول إلى اللون المكمل له، بينما نعرف جيداً أنه ينبغي فتح أنبوب آخر، للحصول على النتيجة نفسها على لوحة الألوان. لكن الخلائط، بالنسبة لليل، لا حد لها، لأنها تفتح مشهداً مزيفاً: إذ

تتحول السماء من الوردي إلى الأخضر، لكن بعض الغيوم تحولت، في غفلة مني، إلى أحمر قان، وأظهرت هكذا نتيجة التباين. فالسماء خضراء، وكانت فعلاً وردية، إلا أنها وردية شاحبة، لم تستطع التغلب على الدرجة الحادة للون الجديد، الذي لم ألاحظه مع ذلك. أما التحول من الذهبي إلى الأحمر، فتصحبه دهشة أقل من تحول الوردي إلى الأخضر. وكأن الليل يتسلل بخدعة.

وهكذا كان الليل يشرع في استبدال مشهد الألوان الذهبية والأرجوانية، بصورته السالبة؛ حيث عوضت الألوان الحارة بالبيضاء والرمادية. وأظهرت الصفيحة الليلية ببطء منظراً بحرياً فوق البحر، شاشة عظيمة من غيوم تستطيل أمام سماء محيطية في أشباه جزر متوازية، كساحل رملي مستو، يُلمح من طائرة على ارتفاع منخفض تميل بجناحها. ويزداد التوهم بفعل آخر ومضات النهار التي بسقوطها منحرفة على هذه الغيوم، تعطيها مظهر تضاريس، تذكر بالصخور الصماء - نحتت من ظلال ونور، هي أيضاً، ولكن في أوقات أخرى - وكأن الشمس لم تعد قادرة على إعمال أزاميلها المتلألئة في الرخام والغرانيت، بل فقط في مواد واهنة وضبابية، مع حفاظها في أفولها على الأسلوب نفسه.

على هذه الخلفية من الغيوم التي كانت تشابه منظراً ساحلياً، بقدر ما كانت السماء تصفو؛ ظهرت شواطئ وأهوار وكثير من الجزر الصغيرة والرمال، يجتاحها محيط السماء الخامل وهو يخرق، بخلجان صغيرة وبحيرات داخلية، الغطاء الذي كان في طريقه للتفكك. ولأن السماء الحافة بهذه الأسهم الغائمة تحاكي محيطاً، ولأن البحر يعكس في العادة لون السماء؛ كانت هذه اللوحة السماوية تعيد تشكيل منظر بعيد، تغيب فيه الشمس من جديد. وما علينا سوى ملاحظة البحر الحقيقي في الأسفل، حتى نفلت من السراب: إذ لم يعد صفحة الظهيرة المتوهجة، ولا السطح اللطيف والمموج لما بعد العشاء. ولم تعد أشعة الشمس الأفقية تقريباً، تضيء إلا وجه المويجات المقابل لها؛ بينما كان الوجه الآخر معتماً تماماً. ويتخذ الماء هكذا تضاريس جلية وراسخة، كأنها نحتت من

معدن. واختفت كل شفافية.

عندئذ، وبانتقال جد عادي، لكنه آني وغير ملحوظ كالعادة، يترك المساء مكان الليل. فيتغير كل شيء. وفي السماء الكامدة في ا لأفق، ثم فوق أصفر شاحب، منتقلة إلى الأزرق نحو السمت، كانت تتبدد آخر الغيوم التي صنعها الغروب. ولم تعد، سريعاً، إلا ظلالاً هزيلة وسقيمة، مثل كل ديكور بعد العرض، وعلى خشبة بدون ضوء، يلمح فجأة فقرها وهشاشتها وطابعها المؤقت، وأن توهم الواقع الذي توصلت إلى خلقه، لا يقوم على طبيعتها، بل على بعض خدع الإضاءة أو المنظور. وبقدر ما كانت قبل قليل، تعيش وتتحول في كل لحظة، تبدو الآن جامدة في شكل ثابت ومحزن، وسط السماء التي ستدمجها ظلمتها المتزايدة بها.

القسم الثالث

العالم الجديد

بو - أو - نوار

8 في داكار، كنا ودعنا العالم القديم، وبلغنا، دون أن نلمح جزر الرأس الأخضر، خط العرض ٧° شمالاً، المصيري، من حيث انطلق كولومبوس في سفره الثالث العام ١٤٩٨، في الاتجاه الصحيح لاكتشاف البرازيل، وحول طريقه نحو الشمال الغربي؛ فلم يخطئ اتجاهه إلا بأعجوبة إلى ترينيداد، وساحل فنزويلا، ووصل بعد خمسة عشر يوماً.

كنا نقترب من بو أو نوار، التي يخشاها الملاحون القدامى، حيث تتوقف الرياح الخاصة بنصفي الكرة من جهتي هذه المنطقة، تاركة الأشرعة مدلاة، دون هبة ريح تحييها. ويسكن الهواء لدرجة، يظن المرء معها أنه في مكان مغلق، وليس في عرض البحر، وكانت تكنس السطح اللامع بأطرافها المتلكئة لو لم تكن على هذا الضعف. ولا يخلُّ أي نسيم بتوازن السحب الداكنة، التي تخضع فقط لقوة الجاذبية، فتنخفض متبدِّدة ببطء إلى البحر. أما المحيط الذي تضيئه أشعة الشمس على استحياء، بشكل غير مباشر، فكان يعرض للأبصار انعكاساً زيتياً رتيباً، يفوق انعكاساً تأباه سماء كالحبر، ويقلب العلاقة المعتادة للقيم الضوئية بين الهواء والماء. فإذا قلب المرء رأسه، سيرى لوحة بحرية أكثر إقناعاً، يحل فيها البحر والسماء، كل منهما مكان الآخر. وعبر هذا الأفق، الذي غدا حميمياً، لهدوء الأنواء، والإنارة الضئيلة، كانت تتسكع بعض الزوابع، كأعمدة قصيرة ومبهمة، تزيد الارتفاع الظاهر الفاصل بين البحر والسقف الغائم انخفاضاً. وكانت الباخرة تنزلق بين هذه السطوح المتقاربة، بنوع من التسرع القلق، كأن الوقت المتاح لها للإفلات من الاختناق محدود، بينما تقترب زوبعة أحياناً، مجتاحة المكان، فتصفع سطح الباخرة بأطرافها الرطبة. ثم تستعيد من الجانب الآخر شكلها المرئي، بينما يتلاشى وجودها

الصوتي.

وهجرت البحرَ كل حياة، فلم يكن يُرى في مقدمة المركب، المتينة المتزنة، إلا اكتساح الزبد لصدر الباخرة؛ وأسراب من الدلافين تتقدم برشاقة تراجع الأمواج المزبد. ولم تعد نفثة بخار الصفارة لتعكّر السكون، فلن يكون البحر، منذ الآن، عامراً بتشكيلات مراكب الصيد، بأشرعتها الخفيفة ذات اللون الوردي أو الخبازي.

ترى، هل ستكون هناك لاستقبالنا، في الجانب الآخر من المحيط، كل تلك الأعاجيب التي رآها ملاحو القرون القديمة؟ لقد كانوا، وهم يقتحمون الفضاءات البكر، أقل اهتماماً باكتشاف عالم جديد، منهم بالتحقق من ماضي العالم القديم. فتأكدوا من آدم وأوليس. إذ حين نزل كولومبوس على شاطئ الأنتيل في أولى رحلاته، كان يظن أنه بلغ اليابان، أو أكثر من ذلك، عثر على الفردوس الأرضي. ولا تستطيع الأربعمائة سنة، التي انقضت منذئذ، إلغاء هذا الفارق، الذي بفضله بقي العالم الجديد بعيداً لعشرة أو عشرين ألف سنة عن اضطرابات التاريخ؛ وسيبقى من هذا الفارق، شيء ما، على صعيد آخر. فسأتعلم سريعاً، أنه إذا لم تعد أمريكا الجنوبية جنّات عدن قبل طرد آدم منها، فإنها ما زالت تدين إلى هذا السر لبقائها عصراً ذهبياً، بالنسبة لمن كان معهم المال، على الأقل. بينما كانت تذوب فرصتها، ذوبان ثلج تحت الشمس. ماذا بقي منها الآن؟ إنها، وقد تردت إلى مستوى بركة ماء نفيسة، في الوقت الذي لا يستطيع بلوغها إلا المحظيون، استحالت في طبيعتها، من حيث هي صيرورة تاريخية أبدية وميتافيزيقية واجتماعية. إن فردوس البشر، كما استشفه كولومبوس، كان يمتد ويتلف معاً، في ترف حياة، هو وقف على الأثرياء فقط.

لم تكن سماء بو أو نوار الدخانية، وجوّها الثقيل، مجرد علامة واضحة على قرب خط الاستواء؛ بل كانا يوجزان المناخ، الذي تصادم في ظله عالَمان. إن هذا المحيط الكئيب الفاصل بينهما، وهدوء البحر هذا، حيث تبدو القوى الشريرة وكأنها تستعيد حيويتها، هما الحاجزان الخفيان الأخيران بين ما كان يؤلف بالأمس فقط كوكبين متعارضين، بظروف بلغ

من اختلافها، أن الشهود الأوائل لم يستطيعوا تصديق كونهما بالإنسانية سواء. قارة لم يكد الإنسان يمسها، كانت تعرض نفسها على رجال، ما كان لجشعهم أن يقنع بما لديهم. وسيعاد البحث في كل شيء: الله والأخلاق والقوانين؛ وسيكون كل شيء، موضع تثبت بالفعل، وموضع إبطال قانوناً، بصفة آنية ومتناقضة معاً. فلقد تم التثبت من جنات عدن التوراتية، وعصر القدماء الذهبي، ونبع الشباب، والأتلانتيد(*)، وجزر الهيبريد(**)، والجزر الرعوية والمحظوظة؛ لكن رؤية إنسانية أكثر نقاءً، وأكثر سعادة (والتي لم تكن حقاً كذلك، لكن تأنيب ضمير لا شعوري، أدت إلى هذا الاعتقاد) أدى إلى تسرب الشك في الوحي والخلاص والقانون. ولم تعرف البشرية محنة أكثر تمزيقاً، ولن تعرف مثلها أبداً، إلا إذا انكشف يوماً، على بعد ملايين الكيلومترات منا، كوكب آخر تسكنه كائنات عاقلة. إلا أننا نعلم إمكان قطع هذه المسافات نظرياً، أما الملاحون، فكانوا يخشون مواجهة العدم.

(*) جزر مفترضة في المحيط الأطلسي، غاصت في الماء، وأوحت منذ أفلاطون بالعديد من الحكايات الأسطورية.

(**) جزر أسطورية في المحيط الأطلسي، يقصد بها أحياناً، جزر الرأس الأخضر، وجزر الكناري أحياناً أخرى (المترجم).

ولتقدير الطابع المطلق، الشامل والمتصلب للمأزق التي كانت البشرية، في القرن السادس عشر، حبيسة له، علينا تذكّر بعض الحوادث. ففي اسبانيولا (هاييتي وسان دومانج، اليوم)، حيث كان الأهالي يعدون نحو مائة ألف في ١٤٩٢، ولم يبق منهم، بعد قرن، سوى مائتين، نتيجة للرعب والاشمئزاز من الحضارة الأوربية، أكثر من الجدري والضرب، كان المستعمرون يرسلون لجنة إثر لجنة، من أجل تحديد طبيعة هؤلاء الأهالي؛ ترى هل يجب اعتبارهم، إن كانوا من بني الإنسان فعلاً، ذرية قبائل ضائعة؟ أو منغولاً وصلوا على أفيال؟ أو اسكوتلانديين أتى بهم الأمير مودوك، منذ بضعة قرون؟ هل هم وثنيون أصلاً، أو كاثوليكيون سابقون، عمّدهم القديس توما ثم ارتدّوا؟ إذ لم يكن المستعمرون متأكدين، حتى من كون الأهالي من بني الإنسان، ولا من كونهم كائنات شيطانية أو

حيوانات. ذلك، كان شعور الملك فرديناد، عندما كان يجلب في ١٥١٢، إماءً بيضاً إلى الهند الغربية (أمريكا)، بهدف وحيد، هو منع الإسبان من الزواج بالأهالي «الذين لم يكونوا كائنات عاقلة». ولم يكن المستعمرون، إزاء جهود لاس كاساس لإلغاء أعمال السخرة، مستنكرين، بقدر ما كانوا غير مصدقين «ما الأمر، كانوا يصيحون، ألم يعد بالإمكان استخدام الدواب حتى؟».

وأشهر تلك اللجان بحق، لجنة من رهبان سانت - جيروم، تثير الإعجاب، لوازع نسيتّه المؤسسة الاستعمارية جيداً، بعد ١٥١٧؛ وللضوء الذي ألقته على المواقف العقلية، لذاك الزمان. فخلال تحقيق نفسي اجتماعي حقيقي، صُمّم وفقاً للمعايير الأكثر عصرية، طُرح على المعمرين استبيان يهدف لمعرفة رأيهم فيما إذا كان الهنود «قادرين على العيش، معتمدين على أنفسهم، مثل فلاحي قشتالة». وكانت الأجوبة كلها بالنفي: «أحفادهم، ربما، عند الضرورة؛ وحتى هذا مشكوك فيه، لأن الأهالي فاسدون جداً، والدليل على ذلك أنهم ينفرون من الإسبان، ويأبون العمل دون أجر؛ ويصل فساد أخلاقهم إلى إهداء أمتعتهم، ولا يقبلون نبذ رفاقهم الذين قطع الإسبان آذانهم»، وكان الإجماع على الاستنتاج التالي: «الأفضل للهنود أن يصيروا عبيداً، من البقاء حيوانات طليقة ..».

وتضيف شهادة لاحقة، بعد بضع سنوات، العنصر النهائي في هذا الحكم «إنهم يأكلون لحوم البشر، وليست لديهم عدالة؛ يعيشون عراة، ويأكلون البراغيث والعناكب والديدان النيئة .. وهم دون لحى، وإذا ما نمت اللحى لديهم، يسارعون إلى نتفها». (أورتيز أمام مجلس الهند، ١٥٢٥).

وفي الوقت نفسه، في جزيرة أخرى (بورتوريكو، وفقاً لشهادة أوفييدو)، كان الهنود ينهمكون في القبض على البيض، وقتلهم غرقاً، ثم مراقبة جثثهم أسابيع، لمعرفة إذا ما كانت ستتفسخ أم لا. فمن الموازنة بين التحقيقين، نتبين نتيجتين: كان البيض يستعينون بالعلوم الاجتماعية، بينما كان الهنود يولون الثقة للعلوم الطبيعية، وحين كان البيض يصرحون

بأن الهنود دواب، كان الآخرون يشتبهون بأن الأولين آلهة. وبالتالي، كانت الطريقة الثانية، عند تساوي الجهل، أكثر جدارة ببني الإنسان.

وتضيف المحن الفكرية شجناً إضافياً للخلل الأخلاقي. إذ كان كل شيء لغزاً لرحّالينا، و(صورة العالم) لبيير إيللي، يتكلم عن إنسانية مكتشفة حديثاً وفائقة السعادة، تتكون من أقزام، وحتى من مخلوقات دون رؤوس. أما بيير مارتير، فيدوّن وصف حيوانات مسيخة: كالأفاعي المماثلة للتماسيح، والحيوانات بجسم ثور ومسلحة بخرطوم كالفيل، والأسماك ذات الأربع قوائم ورأس الثور، والظهر المزيّن بالثآليل ودَرَقة السلحفاة. وهي، ليست في الواقع، إلا أفاعي ضخمة أو من التابير[*] وخرفان البحر وفرس النهر أو سمك القرش. إلا أننا، في المقابل، نجد أن ما كان يبدو لغزاً، قد قُبل كأمر بديهي. ألم يَروِ كولومبوس في تقاريره الرسمية، لتسويغ تغييره الطريق فجأة، الذي جعله يخطئ البرازيل، ظروفاً غريبة، لم تتكرر قط منذئذ، وبخاصة في هذه المنطقة الدائمة الرطوبة: حرارة شديدة استحال معها تفقد العنابر، حتى إن براميل الماء والخمر كانت تنفجر، والحبوب تلتهب، واللحوم والقديد تشوى طيلة أسبوع، وكانت الشمس محرقة لدرجة، ظن طاقم السفينة معها بأنه سيحرَق حياً؟ سعيد ذلك القرن، الذي كان كل شيء فيه ممكناً، كما في هذه الأيام ربما، بفضل الأطباق الطائرة.

(*) التابير: حيوان كبير الجثة. غليظ الرأس والخطم الذي يشبه الخرطوم القصير. أنواعه خمسة، منها واحد آسيوي وأربعة أمريكية. (معجم الكامل الكبير)

أفلم يلتق كولومبوس، هنا بالتقريب، حيث نبحر بين هذه الأمواج، عرائس البحر؟ لقد رآها، في الواقع، عند نهاية رحلته الأولى في البحر الكاريبي، إذ يقول عنها «كانت عرائس البحر الثلاث ترتفع بأجسادها فوق سطح المحيط؛ ومع أنها لم تكن بالجمال الذي تخيلها به الرسامون، فإن وجوهها المستيرة كانت ذات هيئ آدمية». إن لخراف البحر رؤوساً مستديرة، وأثداؤها على صدورها، كما ترضع الإناث صغارها بضمها إليها مستعينة بقوائمها، وبالتالي، فإن التباسها بالآدميين ليس غريباً

جداً، في زمن كانوا يتهيأون لوصف شجرة القطن (ورسمها حتى) تحت اسم شجرة الخراف: وهي شجرة، ثمارها خراف كاملة معلقة من ظهورها، ويكفي جز صوفها.

ونجد الشيء ذاته، عندما يقدم رابليه في (كارليفر دوبانتا غرويل)، معتمداً على تقارير الملاحين، الذين نزلوا في أمريكا، أول كاريكاتير لما يسميه الاثنوغرافيون اليوم نظام القرابة؛ راسماً صورة خيالية له. إذ لا نجد أية منظومة قرابة، يمكن لعجوز أن ينادي فيها بنتاً صغيرة بـ«يا أبي». فما كان يعوز وعي القرن السادس عشر، في جميع هذه الحالات، عنصر أكثر ضرورة من المعارف، وهو مزية لا غنى عنها للتفكير العلمي. ذلك أن ناس ذاك الزمان، لم يكونوا على وعي بنظام الكون، على غرار ما يجري على صعيد الفنون الجميلة؛ فعندما يلمح إنسان ريفي بعض الخصائص الخارجية للرسم الإيطالي أو للنحت الزنجي، وليس تناغمها المعبّر، لن يكون قادراً على التمييز بين لوحة مزيفة للفنان الإيطالي بوتتشلي وأخرى أصلية، أو بين منحوتة سوقية وتمثال باهويني(*). إن عرائس البحر وأشجار الخراف شيء آخر، وأكثر من مجرد أخطاء موضوعية، فهي بالأحرى غلطات في الذوق على الصعيد الفكري، وعيوب في العقول التي على الرغم من نبوغها وما أظهرته من تدقيق في ميادين أخرى، كانت عاجزة فيما يتصل بالملاحظة. ولكن هذا لا يعني الانتقاص منها، بل شعوراً بالإجلال أمام النتائج، التي حققتها على الرغم من هذه النقائص.

(*) الباهوين: قوم من السود يسكنون الغابون (المترجم).

يتيح سطح السفينة، وهي في طريقها لأمريكا، لإنسان هذا العصر معبداً لصَلاته، أفضل من أكروبول أثينا. إلا أننا سنحرمكِ من صلاتنا، منذ الآن أيتها الآلهة الهزيلة، المعلمة لحضارة منغلقة على نفسها! ففوق هؤلاء الأبطال - من ملاحين ومكتشفين وفاتحين للعالم الجديد - الذين سموا، بانتظار السفر إلى القمر، إلى الحضارة الشاملة الوحيدة المتاحة للإنسانية، يرتفع فكري إليكم، أنتم الباقون، من حراس مؤخرة، دفعوا

ثمناً باهظاً لإبقاء الأبواب مفتوحة: الهنود الذين أثرى أمثالهم عبر مونتينية وروسو وفولتير وديدرو، جوهر ما غذتني به المدرسة. أيها الهورون والإيروكوا والكاراييب والتوبي، هأنذا!

أول أضواء لمحها كولومبوس، وظن أنها آتية من الساحل، كانت منبعثة من نوع بحري ليراعات منهمكة بوضع بيضها، فيما بين غروب الشمس وطلوع القمر، لأن الأرض لم تكن مرئية بعد. وها هي ذي الأرض، التي أستشف أضواءها طيلة هذه الليلة، التي قضيتها على السطح ساهراً، أترقب أمريكا.

العالم الجديد، منذ الأمس، حاضر ليس عياناً، لأن الساحل جد بعيد على الرغم من تغيير المركب طريقه، منحرفاً شيئاً فشيئاً نحو الجنوب، ليتجه في محور سيظل اعتباراً من رأس ساو - أغوستينو حتى ريو موازياً للشاطئ. وسنبحر ليومين أو ثلاثة، بصحبة أمريكا. ليست الطيور البحرية الضخمة هي التي ستعلن عن نهاية السفر، لأن هذه الطيور تجازف بالابتعاد عن اليابسة، وقد خُدع كولومبوس، هنا أيضاً، عند رؤيته لها فظن أنه انتصر، في الوقت الذي ما زال وسط المحيط. أما الأسماك الطائرة، التي تدفعها ضربة على الماء من ذيولها، وتحملها بعيداً زعانفها المشرعة كشرارات فضية منبثقة من زرقة البحر في كل اتجاه؛ فقد ندر وجودها منذ بعض الوقت. إذ يفرض العالم الجديد في البداية وجوده عبيراً، شديد الاختلاف عما توحي به من باريس، السجوع اللفظية؛ ويعسر وصفه على من لم يستنشقه.

يبدو أن الروائح البحرية للأسابيع الفائتة، لم تعد تسري بحرية، بل تصطدم بجدار غير مرئي؛ وبجمودها هذا لا تعود مستثيرة للإحساس، الذي يتهيأ لروائح من طبيعة أخرى، لا تسمح أية خبرة سابقة بوصفها؛ فيتناوب نسيم الغابة مع عبق الدفيئة، كخلاصة لمملكة نباتية، تكثفت نضارتها المتميزة، مثيرة النشوة في الأنوف. كنوطة أخيرة. لتوليفة شديدة، كأنما ضبطت لعزل وإذابة الإيقاعات المتتابعة لعبير فواكه متنوعة. والوحيدون الذين يفهمون مقصودي، هم أولئك الذين دسوا أنوفهم في

فلفلة فتحت لتوها، بعدما تنشقوا عبير التبغ المخمر الملفوف بطول عدة امتار؛ والذين يستعيدون من جديد، في اتحاد هذه الروائح المتقاربة، أمريكا التي كانت، لآلاف السنين، تملك وحدها أسرارها.

لكن عندما انتصب العالم الجديد، في الرابعة صباحاً من اليوم التالي، أخيراً في الأفق؛ كانت صورته المرئية، تبدو جديرة بعبيره. وأخذت تتكشف، طوال يومين وليلتين، سلسلة جبال عظيمة؛ وعظمتها لا ترجع بالتأكيد إلى ارتفاعها، بل لأنها كانت تمتد متشابهة، دون أن يكون بالإمكان تمييز بداية أو انقطاع في تتابع قممها غير المنتظم. إذ ترتفع هذه الجبال بجدرانها الصخرية الملساء، إلى بضع مئات من الأمتار فوق الأمواج، متراكبة بأشكال مثيرة ومجنونة، كتلك التي تلاحظ أحياناً على القصور الرملية المتآكلة بفعل الموج؛ ولا يخطر بالبال، أنها قد توجد، في كوكبنا على الأقل، على هذا المدى الواسع.

هذا الشعور بالضخامة، وقْف على أمريكا؛ ويتملك المرء في كل مكان: في المدن كما في الأرياف؛ وقد شعرت به قبالة الساحل، على هضاب البرازيل الوسطى، وفي جبال الأنديز البوليفية، وجبال الروكي في كولورادو، وفي ضواحي ريو وشيكاغو، وفي شوارع نيويورك. وتعتري المرء الصدمة في كل مكان، وتستدعي هذه المشاهد، مشاهد أخرى؛ فهذه الشوارع شوارع، وهذه الجبال جبال، وهذه الأنهار أنهار! فمن أين يأتي الشعور بالغربة؟ إنه يأتي ببساطة من كون النسبة بين قامة الإنسان وحجم الأشياء، قد انمطَّت لدرجة ينتفي معها كل وجه للمقارنة. ومن بعد، حينما يتآلف المرء مع أمريكا، يقوم بتكيّف شبه لا شعوري، يستعيد به علاقة عادية بين الكلمات؛ يتم ذلك خفية، ويشعر به المرء فقط، كجرس إنذار عقلي، ما إن ينزل من الطائرة. لكن هذا الانعدام الراسخ لمقياس مشترك، بين العالمين، يتغلغل في أحكامنا ويشوهها. فأولئك الذين يصرحون بأن نيويورك قبيحة، هم فقط ضحايا لأوهام الإدراك. ولأنهم لم يتعلموا بعد تغيير لهجتهم، يصرون على الحكم على نيويورك كمدينة، وينتقدون الغابات والشوارع والحدائق والنصب. ولا شك في أن

نيويورك، موضوعياً، مدينة، لكن المشهد الذي تعرضه على الحساسية الأوربية، من نسق آخر للضخامة، غير نسق مناظرنا الخاصة؛ بينما تأخذنا المناظر الأمريكية إلى منظومة أكثر شساعة، ليس بحوزتنا ما يعادلها. فمجال نيويورك إذاً، لا يقوم على طبيعتها كمدينة، بل على نقلها، بالنسبة إلى أعيننا إذا تخلينا عن توتّرنا، من مدينة إلى مستوى منظر اصطناعي، حيث لا يعود أي دور لمبادئ التخطيط العمراني: باعتبار أن القيم الوحيدة التي لها دلالة، هي مخملية الضوء، ودقة الخلفيات، والمهاوي الرائعة أسفل ناطحات السحاب، والأودية الظليلة المزروعة بسيارات مختلفة الألوان، كالزهور.

بعد هذا، تتملكني الحيرة في الكلام عن ريودوجانيرو، التي تنفّرني، على الرغم من جمالها الذي تغنى الكثيرون به. كيف أعبّر؟ يبدو لي أن منظر ريو ليس على تناسب مع أبعادها. فمخروط السكر والكوركوفادو، وكل هذه المعالم، التي طالما أشيدَ بها، تظهر للمسافر الذي يدخل الخليج، مثل أرومات أسنان متناثرة في فم خلا من الأسنان. كما أن هذه المعالم الجغرافية الغارقة، دوماً تقريباً، في الضباب المداري الكثيف، لا تتوصل إلى ملء أفق أوسع من أن يكتفي بها. فإذا أراد امرؤ الإحاطة بالمشهد،عليه أخذ الخليج من الخلف، وتأمله من الأعالي. أما من ناحية البحر، وبوهم معاكس لوهم نيويورك، فالطبيعة هنا، هي التي تتخذ هيئة الورشة.

ولذلك، لا تمكن رؤية أبعاد خليج ريو بمعونة معالم بصرية: لأن تقدم السفينة البطيء ومناوراتها لتجنب الجزر، والبرودة، والروائح التي تهبط فجأة من الغابة المتعلقة بالجبيلات، تحدث نوعاً من الاتصال المستبق، مع زهور وصخور ما تزال غير موجودة كأشياء، لكنها ترسم بصفة مسبقة ملامح قارة. وها هو كولومبوس أيضاً يعود للذاكرة: «كانت الأشجار جد عالية حتى بدت وكأنها تلامس السماء؛ وإذا كان فهمي صحيحاً، فهي لا تفقد أوراقها أبداً، لأنني رأيتها في تشرين الثاني مخضرة، خضرة ونضارة الأشجار في أيار/مايو بإسبانيا؛ وحتى كان بعضها مزهراً، وبعضها الآخر مثمراً ... وإلى أية جهة استدرت، أسمع العندليب يغرد،

تصاحبه آلاف العصافير من شتى الأنواع.» هذه أمريكا القارة، تفرض نفسها. إنها مكونة من كل ما يبعث الحياة في الأفق السديمي للخليج عند الغروب. لكن هذه التضاريس والأشكال والأضواء، لا تشير بالنسبة للقادم الجديد إلى أقاليم وقرى ومدن، ولا تعني غابات وسهوباً وأودية ومناظر؛ ولا تفصح عن مساعي وأعمال أفراد، يجهل كل منهم الآخر: منغلقاً في أفقه الضيق لأسرته ومهنته. إن كل ذلك يعيّن وجوداً فريداً وكلياً: وما يحيط بي من كل جانب ويسحقني، ليس التنوع الذي لا ينضب للأشياء وللناس، بل كيان وحيد ورائع: إنه العالم الجديد.

غوانابارا

9 قضَم الخليج ريو حتى القلب؛ إذ ينزل الركاب من الباخرة في وسطها تماماً، وكأن النصف الآخر، قد التهمته الأمواج. وهذا صحيح نوعاً ما، لأن المدينة الأولى، وكانت مجرد قلعة، تقع على جزيرة صخرية صغيرة، كادت الباخرة تمسها قبل قليل، تحمل للآن اسم مؤسسها: فيلليغينيون. أما أنا فكنت أتمشى في ريو برانكو، حيث كانت قديماً قرى التوبينامبا، وفي جيبي كتاب جان دوليري، وهو بمنزلة كتاب الصلوات للاثنولوجي.

منذ ثلاثمائة وثمان وستين سنة تقريباً، قدِم ليري إلى هنا، مع عشرة من أهل جنيف، وهم بروتستانت، أرسلهم كالفين والذي كان زميله في الدراسة، بناء على طلب فيلليغينيون، الذي اعتنق لتوه المذهب الجديد، بعد سنة من استقراره في خليج غوانابارا. وكان شخصية فذة، زاول، بالتتابع، جميع المهن، وتورّط في مشكلات شتى، فقاتل الأتراك والعرب والإيطاليين والاسكتلنديين والإنجليز (خطف ماري استيوارت، ليتيح زواجها من فرانسوا الثاني) وكان في مالطة والجزائر، وفي معركة سيريزول. وفي نهاية حياته المغامرة، في الوقت الذي كان تخصص في الإنشاءات العسكرية، قرر الذهاب إلى البرازيل على إثر خيبة في عمله. لكن مخططاته كانت تتناسب، هنا أيضاً، مع روحه القلقة الوثابة. ما الذي كان يريد فعله في البرازيل؟ تأسيس مستعمرة، ومن دون شك، تكوين إمبراطورية، وإقامة ملاذ، كهدف آني، للبروتستانت المضطهدين، الذين يرغبون في مغادرة الوطن. وباعتباره كاثوليكياً، هو نفسه، ومفكراً حراً على الأرجح، فقد حصل على رعاية من كوليني، والكاردينال دولورين. وبعد حملة تطويع بين أتباع المذهَبين، قام بها في الساحات العامة أيضاً،

بين الفساق والعبيد الآبقين، نجح أخيراً في ١٢ تموز/يوليو ١٥٥٥، بتحميل ستمائة شخص على سفينتين: كانوا خليطاً من رواد يمثلون كل دوائر الدولة، ومجرمين أُخرجوا من السجون. ولم ينس سوى النساء والتموين.

كان الانطلاق شاقاً، إذ عاد مرتين إلى دييب، ورُفعت المرساة أخيراً في ١٤ آب ، أغسطس، لتبدأ الصعوبات: من مشاجرات في جزر الكناري، إلى نقص المياه ومرض الاسقربوط. وفي ١٠ تشرين الثاني، وصل فيلليغينيون إلى خليج غوانابارا، حيث كان الفرنسيون والبرتغاليون يتنازعون الحظوة منذ سنوات لدى السكان الأصليين.

لقد كان موقع فرنسا المتاز على الساحل البرازيلي يطرح، في ذلك الزمان، مشكلات تثير الفضول، ترجع بالتأكيد إلى بداية القرن، حيث ذكرت عدة أسفار فرنسية، وبخاصة سفر جونفيل في ١٥٠٣، الذي عاد من البرازيل بصهرٍ جندي، زمن اكتشاف كابرال لأراضي سانت - كروا تقريباً في العام ١٥٠٠. ترى هل ينبغي الرجوع إلى الوراء أكثر؟ هل يجب استخلاص من منح الفرنسيين لهذه الأرض الجديدة، اسم البرازيل (المثبت منذ القرن الثاني عشر، كاسم للقارة الأسطورية، التي تأتي منها أخشاب الصباغ)، والعدد الكبير من الكلمات المستعارة من اللهجات المحلية، دون وساطة من اللغات الإيبيرية، من مثل: أناناس، جاغوار، مانيوق، تابير، كايمان، أكاجو وغيرها، أن شيئاً من الحقيقة يسند ما يتناقله أهل دييب عن اكتشاف البرازيل من قبل جان كوسان، قبل كولولمبوس بأربع سنوات؟ فقد كان مع كوزان على سفينته، شخص يدعى بانزون. وهو من آل بانزون، الذين أعادوا الأمل إلى كولومبوس عندما بدا مستعداً للتخلي عن مشروعه في بالوس؛ ونجد بانزون آخر أيضاً، يقود السفينة لا بينتا في الرحلة الأولى، ويحرص كولومبوس على التشاور معه، كلما فكر في تغيير الطريق؛ وأخيراً، سيوصل تخلي كولومبوس عن الطريق، بانزون ثالثاً، بعد سنة بالضبط، إلى كابو ساو - أغوستينو، ضامناً له اكتشاف البرازيل رسمياً، ومفوتاً الفرصة على كولومبوس في الحصول على مجد إضافي.

ولن تجد المشكلة حلاً لها، إلا بأعجوبة، لأن أرشيفات دييب، بما فيها تقارير كوزان، اختفت في القرن السابع عشر، خلال الحريق الذي نجم عن قذائف المدفعية الإنجليزية. ولكني، وأنا أطأ لأول مرة أرض البرازيل، لا أستطيع الامتناع عن استذكار هذه الحوادث المضحكة والمأساوية، التي كانت تشهد، منذ أربعمائة سنة، على العلاقة الحميمة السائدة بين الفرنسيين والهنود: كالمترجمين النورمانديين، الذين استمالتهم الحالة الطبيعية، فاتخذوا زوجات من الأهالي، وصاروا من آكلي لحوم البشر؛ وهانز ستادن المنكود، الذي أمضى سنوات من القلق، منتظراً كل يوم، أن يؤكل. وينقذه الحظ كل مرة، بادعائه أنه فرنسي، مستعيناً بلحية صهباء، لا تشبه في شيء اللحى الإيبيرية، جعلت الملك قونيام بيبي، يجيبه: (لقد قبضت سابقاً على خمسة برتغاليين وأكلتُهم، كانوا يدّعون جميعاً بأنهم فرنسيون؛ لكنهم كانوا كاذبين!) فكم كانت العلاقة راسخة إذاً، لتسمح بحمل الفرقاطة لابيرين، في ١٥١٣ إلى فرنسا، ثلاثة آلاف جلد فهد، وثلاثمائة قرد، وستمائة ببغاء (تعرف بعض الكلمات من الفرنسية ...).

أسس فيلليغينيون، على جزيرة وسط الخليج، قلعة كولينيي؛ وكان الهنود يبنونها، ويموّنون المستعمرة الصغيرة، لكنهم ملوا العطاء من دون مقابل، ففروا هاجرين قراهم. وانتشرت المجاعة، وكذا الأمراض في القلعة. وأخذ فيلليغينيون يبدي طبعه التسلطي، وتمرَّد المساجين: فأعمل فيهم السيف. وانتقلت الأوبئة إلى البر. فأصيب الهنود القلائل، الذين بقوا على إخلاصهم للبعثة بالعدوى. وهكذا مات منهم ثمانمائة.

وأخذ فيلليغينيون يستخف بالشؤون الدنيوية، وتملكته أزمة روحية، وباتصاله مع البروتستانت، اعتنق البروتستانتية. واستنجد بكالفين لإيصال بعثات تطلعه على دينه الجديد. وهكذا نظمت الرحلة التي كان ليري ضمنها في ١٥٥٦.

ويتخذ التاريخ هنا منعطفاً، بلغ من غرابته، أنه يثير الدهشة في نفسي من عدم معالجته من قبل أي روائي، أو كاتب سيناريو حتى الآن. فأي فيلم يمكن أن يعمل منه! عن هذه الحفنة من الفرنسيين المعزولين،

على قارة مجهولة ككوكب آخر، بجهلهم التام للطبيعة والإنسان، وعجزهم عن زراعة الأرض ليقوموا بأودهم، واعتمادهم في كل حاجاتهم على سكان لا يفهمونهم، بل وأخذوا يكرهونهم؛ والأمراض التي تفتك بهم، وهم الذين عرّضوا أنفسهم للمهالك، حتى يفلتوا من الصراعات في أرض الوطن، ويؤسسوا ملاذاً، يمكن أن تتعايش فيه كل المعتقدات، تحت نظام من التسامح والحرية؛ وها هم يجدون أنفسهم وقد وقعوا في الفخ الذي صنعوه بأنفسهم، فالبروتستانت يسعون لهداية الكاثوليك، والعكس صحيح. وعوضاً عن العمل للحفاظ على البقاء، كانوا يمضون الأسابيع في مناقشات حمقاء، من مثل: كيف ينبغي تأويل العشاء السري للسيد المسيح؟ وهل يجب مزج الماء بالخمر عند التقديس؟ وشكَّل سر القربان المقدس، والتعميد، موضوع منازلات حقيقية في اللاهوت، اعتنق فيلليغينيون، على إثرها، البروتستانتية.

وبلغ بهم الأمر أن أرسلوا إلى أوربا رسولاً لاستشارة كالفين، حتى يحسم النقاش في النقاط العالقة، بينما كانت الصراعات تتضاعف، وقدرات فيلليغينيون تضعف. إذيروي ليري، بأنه كان في الإمكان التنبؤ بمزاجه وفظاظته، من ألوان ملابسه. وأخيراً، تحول عن البروتستانت، وأخذ بتجويعهم، فتوقفوا عن المشاركة في حياة الجماعة، وانتقلوا إلى البر، وتحالفوا مع الهنود. ونحن مدينون لذاك التحالف بهذه التحفة من الأدب الاثنوغرافي (السفر إلى أرض البرازيل) لجان دوليري. أما النهاية فكانت حزينة! إذ توصل الجنيفيون بصعوبة إلى العودة على سفينة فرنسية، ولم تعد المسألة، نهب السفن التي يصادفونها بابتهاج، كما فعلوا في الذهاب، عندما كانون أقوياء؛ إذ سادت المجاعة السفينة، فاضطروا لأكل القرود، وهذه الببغاوات الثمينة، التي رفضت هندية، صديقة لليري، التخلي عن أحدها إلا نظير قطعة مدفعية: وبلغ ثمن جرذان وفئران العنابر، وهي آخر الأقوات، أربع قطع ذهبية للواحد، كما نفد الماء. ونزل ركاب السفينة في العام ١٥٥٨، على أرض بريتانية، وهم بين الموت والحياة، جوعاً وعطشاً.

وتفككت المستعمرة على الجزيرة، وسط القتل والإرهاب. وتخلى فيلليغينون عن حلمه، بعدما بات مكروهاً من الآخرين، خائناً لدى البعض، ومرتداً لدى البعض الآخر، مرهوب الجانب من الهنود، وخائفاً من البرتغاليين. وبينما كان ابن أخيه، بوالوكومت، قائداً للقلعة، سقطت في أيدي البرتغاليين في ١٥٦٠.

أما وقد أصبحت ريو مجالاً لنشاطي الآن، فأنا أسعى، أولاً، لاستجلاء نكهة هذا التاريخ، التي استشففتها يوماً، بمناسبة جولة على الآثار، نظمها المتحف الوطني على شرف عالم ياباني، في الخليج. إذ تركنا زورق حربي في ساحة مستنقعية، حيث كانت سفينة قديمة صدئة جانحة، لا شك أنها لم تكن من القرن السادس عشر، لكنها كانت تضيف، مع ذلك، بعداً تاريخياً إلى هذه الفضاءات، التي لا شيء فيها يشير إلى مرور الزمان، وتحت الغيوم المنخفضة، ووراء مطر خفيف ظل يتساقط دون توقف منذ الفجر، كانت المدينة البعيدة قد اختفت. وفيما وراء السرطانات التي كان الوحل الأسود يعج بها، وأشجار الشَّوْرى، التي لا يُعرف إن كان شكلها نتيجة نمو أم تعفن، برزت من الغابة بعض أكواخ من القش لا تنتمي إلى أي عصر. وكانت منحدرات جبلية، على البعد، تغرق في ضباب شاحب. وباقترابنا من الأشجار، بلغنا الغاية من زيارتنا، وهي مرحلة اكتشف فلاحون فيها، من مدة قريبة، قطعاً فخارية. ألمس هذا الخزف السميك، الذي لا مراء في أنه من صناعة الهنود التوبي، بطلائه الأبيض وحوافه الحمراء، والخطوط السوداء الدقيقة، التي تمثل متاهة تستهدف، كما يقال، تضليل الأرواح الباحثة عن العظام البشرية، التي كانت تحفظ قديماً في هذه الجرار. وقد ذكروا لي أنه كان بإمكاننا بلوغ المكان بالسيارة، بما أنه لا يكاد يبعد إلا خمسين كيلومتراً عن مركز المدينة؛ لكن الأمطار، بقطعها للطرق، قد تحصرنا فيه لأسبوع. ولو حصل هذا لكنت اقتربت أكثر من ماضٍ عاجز عن تحويل هذا المكان الكئيب، حيث كان ليري يسلي نفسه بالنظر إلى الحركة الرشيقة ليد سمراء، وهي تغمس الفرشاة في الطلاء الأسود، لترسم كل هذه الأشكال

اللطيفة، التي أتساءل عن لغزها الكامن على كسرة مبتلة.

كان أول احتكاك لي بريو مختلفاً. فهأنذا، لأول مرة في حياتي، على الجانب الآخر من خط الاستواء، في المناطق المدارية، في العالم الجديد. فما العلامة الرئيسية، التي ستشير إلى هذا التحول الثلاثي؟ وما هو الصوت الذي سيشهد لي عليه، وما هي العلامة الموسيقية، التي لم أسمعها قط، وسترن أولاً في أذني؟ لكن ملاحظتي الأولى، كانت تافهة: إذ كنت في قاعة استقبال.

كانت ملابسي أخف من المعتاد، وبينما كنت أتمشى على التعرجات المتماوجة لبلاط من الفسيفساء، أبيض وأسود، شعرت في هذه الشوارع الضيقة الظليلة، التي تتقاطع مع الشارع الرئيسي، بجو خاص، وبأن الفارق بين المنازل والطريق، أقل تمايزاً منه في أوربا، فتمد الحوانيت، على الرغم من فخامتها، بسطاتها حتى وسط الشارع، ولا ينتبه المرء إلى كونه في الداخل أو الخارج. والحقيقة إن الشارع، ليس مكاناً للمرور وحسب، بل مكان للإقامة يعج بالحياة، وهادئ في الوقت نفسه، وأكثر حيوية وحماية من شوارعنا، بحيث جعلني أستعيد وجه المقارنة التي يوحي بها. ذلك لأن الانتقال من نصف الكرة إلى الآخر، ومن قارة إلى أخرى، لم يؤديا، إلى هذه اللحظة، إلا إلى جعل الغطاء الزجاجي الرقيق، الذي يقيم في أوربا ظروفاً متطابقة بصفة اصطناعية، زائداً عن الحاجة: لأن ريو، للوهلة الأولى، تعيد البناء في الهواء الطلق، لأروقة ميلانو، وأروقة أمستردام، وممر البانوراما، أو بهو محطة سان – لازار في باريس.

يُنظر إلى السفر بعامة، على أنه انتقال في المكان، وهذا قليل. فالسفر يعني بآن واحد انتقالاً في المكان والزمان، وفي التراتب الاجتماعي. ولا يمكن تعريف أي انطباع، إلا بإرجاعه إلى هذه المحاور الثلاثة مجتمعة؛ وبما أن للمكان ثلاثة أبعاد، ينبغي وجود خمسة أبعاد على الأقل، لتكوين صورة مطابقة للسفر. وهذا ما أشعر به عند وصولي للبرازيل. إذ لا شك في أنني على الطرف المقابل من الأطلسي وخط الاستواء، وشديد القرب من المناطق المدارية. وأشياء كثيرة تشهد على ذلك: كهذه الحرارة الهادئة

الرطبة، التي تحرر جسمي من ثقل الصوف المعتاد، وتلغي التعارض (الذي أكتشفه لدى النظر إلى الماضي، كأحد ثوابت حضارتنا) بين البيت والشارع؛ ثم هناك النخيل، والزهور الجديدة، وفي واجهات القهاوي هذه الكومات من ثمار جوز الهند الخضراء، حيث يمص المرء منها، بعد فتحها، ماءً مسكراً وبارداً، برائحة الأقبية.

لكنني أشعر بتغييرات أخرى: إذ كنت فقيراً، وها أنا الآن غني؛ لأن ظروفي المادية تغيرت أولاً، ثم لأن ثمن المنتجات المحلية شديد الانخفاض: فثمرة الأناناس هذه تكلفني ٢٠ قرشاً، وقرط الموز فرنكين، وتكلف الواحدة من هذه الدجاجات، التي يشويها إيطالي ٤ فرنكات، وكأن المرء في قصر السيدة تارتين. وأخيراً، فإن حالة اليسر التي تنتج عن التوقف في محطة، وهو فرصة تقدَّم مجاناً، لكن يصاحبها شعور بوجوب الاستفادة منها، تخلق موقفاً ملتبساً مواتياً لتعليق القيود المعتادة، وانطلاق السخاء من عقاله. لكن السفر قد يؤثر بصفة متعارضة تماماً، اختبرتها عند وصولي خالي الوفاض إلى نيويورك، بعد وقف القتال؛ وسواء تعلق الأمر بالكثير أو الأقل، بمعنى تحسن الظروف المادية أو تدهورها، فلا بد من أعجوبة حتى لا يمثل السفر بهذا الصدد أي تغيير. وفي الوقت الذي ينقل السفر إلى آلاف الكيلومترات، فإنه يصعد بالمرء أو ينزل به، بعض الدرجات في سلم المكانة. وهو إذ ينقل في المكان، يغير في المكانة أيضاً - للأحسن أو للأسوأ - ولا يمكن فصل ألوان الأشياء ونكهتها، عن المنزلة التي يضعك السفر فيها لتذوقها.

كان ثمة زمان، يواجه السفر فيه المسافر بحضارات مختلفة جذرياً عن حضارته، تفرض نفسها، للوهلة الأولى بغرابتها. لكن هذه الفرص أضحت، منذ بضعة قرون، نادرة أكثر فأكثر. والمسافر العصري، سواء في الهند، أم في أمريكا، أقل اندهاشاً مما يدّعيه. وعندما يختار المسافر أهدافاً وخطوط سير، فهو يعطي لنفسه الحرية، بتفضيل تاريخ تغلغُل الحضارة الآلية، ووتيرة اجتياحها، على تاريخ آخر. ويقتصر التماس الغرابة على جمع حالات مسبقة أو متخلفة عن تطور مألوف. فيصبح

المسافر مجرد تاجر عاديات، يضطر لانعدام التحف إلى التخلي عن جمع الفن الزنجي، والتحول إلى أشياء قديمة، يساوم عليها أثناء جولاته في سوق البراغيث(*) ضمن المناطق العمرانية.

وتلاحظ هذه الاختلافات داخل أية مدينة. فالأحياء، كنباتات تبلغ كل منها الإزهار في فصلها الخاص بها، تحمل علامة القرون التي شهدت نشوءها وازدهارها، ثم أفولها. وثمة تلازم وتتابع في هذا الحقل من النباتات العمرانية. فحي الماريه في باريس، كان مزهراً في القرن السابع عشر، بينما العفن ينخره؛ أما الدائرة التاسعة، وهي نوع أكثر تأخراً، فكانت مزدهرة إبان الإمبراطورية الثانية، لكن منازلها المهترئة اليوم، يشغلها صنف من بسطاء الناس كالحشرات، وجدوا فيها أرضية مواتية لمناشط متواضعة. وظلت الدائرة السابعة عشرة جامدة في فخامتها المأسوف عليها، كأقحوانة ضخمة شامخة، برأسها الذاوي، بعد أوانها بكثير. وكانت الدائرة السادسة عشرة بالأمس براقة؛ أما اليوم فتغرق زهورها اليانعة، في غابة من البنايات، التي تجعلها، شيئاً فشيئاً، أشبه بالضواحي.

(*) اصطلاح يقصد به في اللغة الفرنسية، وبعض اللغات الأوربية، السوق التي تباع بها الأشياء القديمة والمستعملة من أدوات أو ملابس. (المترجم)

عندما نوازن بين مدن، يبعد بعضها عن بعض، جغرافياً وتاريخياً، فإن اختلاف الأطوار يتعقد بالوتائر غير المتساوية. إذ ما إن يبعد المرء عن مركز ريو، بمظهره الذي يرجع إلى أول القرن، حتى يقع على شوارع هادئة، وجادات طويلة غرست جوانبها بأشجار النخيل والمانجو، وأشجار الطيب المشذبة، حيث ترتفع فيلات عتيقة داخل حدائق. فأنتقل بفكري (كما سأفعل، من بعد، في الأحياء السكنية لكلكتا) إلى نيس أو إلى بياريتز زمن نابليون الثالث. وبالتالي فإن المدن المدارية، قديمة الطراز أكثر مما هي غريبة. وليست النباتات، هي التي تشهد بذلك، بل تفاصيل معمارية صغيرة، والإيحاء بأسلوب حياة، يقنعك بأنك تراجعت، لا شعورياً، في الزمان؛ عوضاً عن قطعك لمسافات شاسعة.

ريو، ليست مشيدة كمدينة عادية. فبعدما أقيمت في البداية، على المنطقة المسطحة والمستنقعية التي تحاذي الخليج، أخذت في الامتداد بين الجبال الصغيرة، الشديدة الانحدار، التي تحيط بها من كل جانب، كما تحشر الأصابع في قفازات جد ضيقة؛ وإذا باستطالات عمرانية، طولها عشرون كيلو متراً أو ثلاثون أحياناً، تنزلق أسفل تشكلات غرانيتية، بلغ من شدة انحدارها، أن لا نبات يتمكن من أن يعلق بها؛ وقد تجد أحياناً، على قمة منعزلة، غابة صغيرة عذراء فعلاً، لأن من المستحيل بلوغها على الرغم من قربها: ويخيل للمرء وهو في الطائرة، أنها ستلمس الأغصان، في هذه الممرات الباردة الرهيبة، حيث تسبح الطائرة بين ستر مزركشة، قبل أن تحط أسفلها. إن هذه المدينة الغنية بالتلال، تعامل تلالها بازدراء، يفسره جزئياً نقص المياه في القمم. وريو في هذا الميدان، على عكس شيتاغونغ، في خليج البنغال، التي توجد في سهلها المستنقعي تلال مخروطية صغيرة من الصلصال، يحمل كل منها كوخاً منفرداً كقلعة، للأغنياء الذين يحتمون به من القيظ وقذارة المياه الضحلة. أما في ريو، فعلى العكس: إذ إن هذه القلانس الناتئة، حيث تَصَلب الغرانيت كتلة واحدة كالسبيكة، تشع الحرارة بشدة، إلى حد يستحيل معه على النسيم الذي يسري أسفلها الصعود. وربما حل المهندسون العمرانيون المشكلة الآن، لكن مكانة كل ساكن في التراتب الاجتماعي، العام ١٩٣٥، في ريو، كانت تتناسب عكسياً مع ارتفاع منزله؛ وكلما ازداد ارتفاع المنزل، انخفضت مكانة ساكنيه. فكان البؤساء يعيشون جاثمين على الجبيلات في (فافيلا) حيث يبدع سكان من السود، بأسمالهم البالية، على الغيتار، هذه الألحان الراقصة التي ستنزل من الأعالي وقت الكرنفال، وتجتاح المدينة معهم.

ما إن يدخل المرء أحد هذه الأزقة، التي تتغلغل تعرجاتها بين التلال، حتى يصير المشهد بسرعة ريفياً معدماً. إذ ما نزال حتى نهاية جادة برانكو في المدينة الفخمة، لكن المرء بعد فلامينغو يظن نفسه في نويي. وسان دوني أو لوبورجيه، منذ عشرين عاماً، في جهة نفق كوباكابانا، مع

مسحة ريفية، كما كانت ضواحينا قبل حرب ١٩٤١. فكنت أرى في كوباكابانا، مدينة صغيرة في الأقاليم بتجارتها وحوانيتها، أما اليوم، فهي غابة من ناطحات السحاب.

آخر ذكرياتي عن ريو، ترجع إلى يوم مغادرتي النهائية: في فندق كنت أزور فيه زملاء أمريكيين، على سفح كوركوفادو، ويتم الوصول إليه بوساطة ترام سلكي، أقيم على عجل وسط الركام، مع مواقع تحكّم يديرها مستخدمون يقظون، لبلوغ أعلى التلة. فبعد الصعود بمحاذاة أرض فضاء صخرية وقذرة، اتجاهها شبه عمودي غالباً، نصل إلى منزل صغير من العهد الامبراطوري، ذي طابق واحد، حيث يقدَّم العشاء على ما يشبه الشرفة، تطل على خليط متنافر من البناءات الإسمنتية والأكواخ، والمجمعات السكنية. وعلى خلفية هذا المنظر غير المتناسق، وعوضاً عن مداخن المصانع المنتظرة كحدود له، بحر مداري حريري براق، يعلوه نور قمر رائع.

وأعود إلى السفينة، التي تتحرك بكل أنوارها المتلألئة، سائرة أمام بحر يتلوى ويبدو كأنه يستعرض قطعة متجولة من شارع غير نافذ. وهبت عاصفة في المساء، جعلت عرض البحر يلمع، كبطن حيوان. بينما كانت تحجب القمر قطع من الغيوم، يتلاعب بها الريح، ويشكلها بأشكال غريبة في خطوط منكسرة وصلبان ومثلثات، تبدو كأنها مضاءة من الداخل، على الخلفية السوداء للسماء. وتُلمح عبر هذه التشكلات، بين الفينة والفينة، قطعة محمرة من القمر، تمر ثم تعيد المرور، وتختفي كقنديل ضال قلق.

عبور المدار

10 تشكل الشواطئ بين ريو وسانتوس مناطق مدارية كتلك التي تخطر في الأحلام. إذ تنحدر سلسلة الجبال الساحلية، التي يزيد ارتفاعها عن ٢٠٠٠م في إحدى قممها، إلى البحر، لتقطعه بجزر وخلجان صغيرة؛ وشواطئ من الرمل الناعم، تحيط بها أشجار جوز الهند أو غابات رطبة، تصطدم بالحوائط الحُثية والبازلتية، التي تمنع الوصول إليها إلا من جهة البحر. وثمة مراسي صغيرة، يبعد الواحد منها عن الآخر بمائة من الكيلومترات، تؤوي الصيادين في منازل من القرن الثامن عشر، كان يبنيها من الحجر المنحوت، أصحاب السفن والقباطنة ونواب الحاكم، وهي الآن خربة. مراسي، كان الذهب والماس والزبرجد، وشتى الأحجار الكريمة، المستخرجة من «المناجم العامة» للمملكة، ينتهي إليها، بعد أسابيع من السفر عبر الجبال، محمولاً على ظهور البغال. أما اليوم، فإذا اقتفينا أثر هذه الدروب، على خطوط القمم، لن نجد من حركة النقل الهامة هذه، إلا صناعة خاصة تعيش على الحدوات الساقطة من الدواب في الطريق.

وقد ذكر بوجينفيل، الاحتياطات التي كانت تحيط بالاستغلال والنقل. فما إن يُستخرَج الذهب، حتى يسلَّم إلى (بيوت المؤسسة) المنتشرة في كل النواحي، حيث تجبى عليها حقوق التاج؛ ويسلّم الباقي للمستغلين على شكل سبائك ممهورة بالوزن والرقم وشعار الملك. وتقوم وكالة مركزية، في منتصف الطريق بين المناجم والساحل، برقابة جديدة. ويجبي ملازم ورجاله الخمسون حق الخمس، وحق المرور عن كل رجل ودابة؛ وكان الملك يتقاسم هذا الحق مع المفرزة، فلا عجب إذاً أن «توقف وتفتَّش، بكل صرامة» القوافل الآتية من المناجم، التي لا بد أن تمر بهذه الطريق.

ثم يحمل المتعاملون الخواص، الذهب إلى دار النقود في ريو دوجانيرو، ويبدلونها في مقابل نقود إسبانية، حيث يعادل نصف الدبلون، ثمانية قروش إسبانية، يربح الملك منها قرشاً، نظير السك وحق النقد. ويضيف بوجينيفل «دار النقود .. من أجمل الأبنية، وهي مزودة بكل ما يلزم للعمل بأسرع ما يمكن، فبما أن الذهب يصل من المناجم وقت وصول الأسطول البرتغالي، ينبغي الإسراع بسك النقود، ويسك منها كميات مدهشة».

وكان النظام أكثر صرامة، بالنسبة للماس. فالمتعهدون، كما يروي بوجينفيل «ملزمون بتقديم حساب دقيق لما يعثرون عليه من ماس، وتسليمه للمعتمد الذي يعيّنه الملك لهذه الغاية. ويودع هذا المعتمد الماس في صندوق مطوق بالحديد، يقفل بثلاثة مفاتيح. أحدها معه، والثاني مع نائب الملك، والثالث مع معتمد المالية الملكية. ويُغلق على هذا الصندوق في صندوق ثانٍ، توضع فيه أختام الشخصيات الثلاث المذكورة، ويحتوي على مفاتيح الأول الثلاثة. وليس لنائب الملك أن يرى ما بداخله، بل يؤمّن الصندوقين داخل صندوق حديدي، يرسله إلى لشبونة، بعدما يختمه بخاتمه. وهناك يتم فتح الصناديق، بحضور الملك، الذي يختار ما يعجبه من الماس، ويدفع ثمنه للمتعهدين طبقاً لتعرفة متفق عليها».

من هذا النشاط الكثيف، الذي شمل، سنة ١٧٦٢ فقط، نقل ومراقبة وسَك وإرسال أكثر من طن ونصف طن من الذهب؛ لم يبق شيء على طول هذا الساحل، ما عدا بعض واجهات الأبنية المبهرة المنفردة المطلة على خلجانها؛ جدران تلطمها الأمواج، كانت ترسو إليها السفن الشراعية الضخمة. هذه الغابات العظيمة والخلجان البكر، وتلك الصخور الوعرة، كنت أفضل الاعتقاد بأن بعض الأهالي الحفاة فقط، انحدروا إليها من أعالي الهضاب، لا أن تكون مجالاً لمشاغل، كان يصنع فيها قدر العالم المعاصر، منذ مائتي عام.

بعدما أتخم العالم بالذهب، أصابه الجوع إلى السُكَّرْ؛ لكن السكر يستهلك عبيداً. وأدى استنفاد المناجم - الذي سبقه إتلاف الغابات لاستعمالها وقوداً للبواتق - وإلغاء الرق، بالإضافة إلى طلب عالمي متزايد،

إلى توجه ساوباولو ومرفئها سانتوس إلى زراعة البن. واستحال هكذا لون الذهب من الأصفر إلى الأبيض حتى صار أسود. لكن على الرغم من هذه التحولات، التي جعلت من سانتوس أحد مراكز التجارة العالمية، إلا أن موقعها لا يزال متمتعاً بجمال خفي. فبينما كان يتسلل المركب، بطيئاً بين الجزر، شعرتُ هنا بالصدمة الأولى للمناطق المدارية. كنا نسير في قنال ضيق، بوسع المرء فيه، إن مد يده، الإمساك بهذه النباتات، التي تبقيها ريو بعيدة، في أصص معلقة عالياً. أما هنا، فالاتصال تام، وإن في مشهد أكثر تواضعاً.

تبدو مناطق سانتوس الداخلية، بسهولها الغارقة، وبركها ومستنقعاتها، التي تجتازها أنهار وقنوات يحجب الضباب تفاصيلها بصفة دائمة، وكأنها الأرض نفسها وهي تطفو عند بدء الخليقة. وهناك مزارع الموز، التي تغطيها بخضرة أكثر نضارة، وأكثر شدة من الذهب الأخضر لحقول القنب في دلتا نهر براهما بوترا، التي تحب ذاكرتي الجمع بينهما. تسير بنا السيارة طيلة نصف ساعة، بين أشجار الموز، وهي نبتات ضخمة أكثر مما هي أشجار قزمة، بجذوع ضخمة تنتهي بانتفاش لأوراق مطاطية فوق يد بمائة أصبع، تخرج من زهرة لوتس بنية وندية. ثم يصعد الطريق إلى ارتفاع ثمانمائة متر حتى قمة الجبل؛ وقد حمت منحدرات شديدة، كما في كل مكان على هذا الساحل، غابةٌ بكراً من عبث الإنسان؛ بلغ من غناها أن العثور على مثيلها، يقتضي الذهاب آلاف الكيلومترات شمالاً، بجوار حوض الأمازون. وبينما كانت السيارة تئن في منعطفات لولبية خلال الضباب , شغلت نفسي في تفحص الأشجار والنباتات المتراتبة أمام ناظري, كعينات في متحف.

تختلف هذه الغابة عن غاباتنا , بالتباين بين الأوراق والجذوع. فالأوراق أكثر دكنة, وتذكّر تدرجات خضرتها بالمعدني أكثر من النباتي. أما الجذوع البيضاء أو الضاربة إلى الرمادي , فترتفع كالعظام على الخلفية المعتمة للأوراق. وبما أنني كنت شديد القرب من الجدار الصخري، فقد كنت أتفحص التفصيلات بخاصة. نباتات أكثر وفرة من مثيلتها في أوروبا،

تنتصب سوقها، وكأنها قطعت من معدن، لثبات هيئتها، ولما يبدو على شكلها المفعم بالمعنى من أنه بمنجى من محن الدهر. تبدو هذه الطبيعة، منظوراً لها من الخارج، من نسق آخر غير نسق طبيعتنا، إذ تبدي درجة أعلى من الحضور والدوام. كما في مناظر هنري روسو الطبيعية الغريبة، حيث تبلغ تكويناتها مرحلة التحف.

وقد اتفق لي مرة، في الماضي، أن شعرت بانطباع مماثل. أثناء عطلتي الأولى في منطقة بروفانس، بعد سنوات اقتصرت عطلاتي فيها على النورماندي وبروتانيه. إذ انتقلت من نبات ظلّ مبهماً، ولا أهمية له بالنسبة لي، إلى نبات آخر، حيث كان كل نوع يكتسي معنى خاصاً. وكأنني نُقلت من قرية عادية، إلى موقع أثري، لا يكون الحجر فيه مجرد عنصر من بيت، بل شاهد. كنت أجول متحمساً بين الصخور، مردداً أسماء كل عشبة هنا. من زعتر، وغار ونعناع وخزامى وحصا البان ومصطكى، بمعانيها النبيلة. وكان عبيرها الفواح، بالنسبة لي، برهاناً وسبباً لعالم نباتي أكثر بروزاً. وما قدمته النباتات البروفنسية لي عندئذ، بأريجها، توحي لي به النباتات المدارية بشكلها، فعالمها ليس عالم روائح وعادات، ولا عالم عشّاب الوصفات والخرافات، بل فرقة نباتية شبيهة بمجموعة من الراقصات المجيدات، اللواتي كأنما جَمِدت كل واحدة منهن في الوضع الأكثر تعبيراً، كباليه ساكن، لا يعكّر صفوه إلا خرير المياه من الينابيع.

عند بلوغ القمة، يتغير كل شيء مرة أخرى، إذ تنتهي الحرارة المدارية الرطبة، وتشابك النباتات المتسلقة مع الصخور. وعوضاً عن المنظر العلوي المتلألئ، الذي نشرف عليه لآخر مرة حتى البحر من قمة الجبل، إذا بنا نرى في الجهة المقابلة هضبة غير مستوية جرداء، تتخللها قمم وأودية تحت سماء متقلبة يتساقط منها الرذاذ، فنحن على ارتفاع ١٠٠٠متر، مع أن البحر ما يزال قريباً. عند قمة هذا الجدار الصخري تبدأ الأراضي المرتفعة، وهي تتابعٌ لمدرجات، تشكل السلسلة الساحلية أولى وأقسى درجاتها. وتنخفض هذه الأراضي شيئاً فشيئاً، باتجاه الشمال، حتى

حوض الأمازون، حيث تنهار بصدوع هائلة، على بعد ثلاثة آلاف كم منا، ولن ينقطع ميلانها إلا مرتين، بصفوف من الجُرُف الصخرية: أولهما جبل بوتوكاتو، على بعد خمسمائة كم تقريباً من الساحل، وثانيهما شابادادو ماتوغروسو، على بعد ألف وخمسمائة كم، اللذين سأعبرهما كليهما قبل أن أعثر، حول الأنهار الأمازونية الكبرى، على غابة شبيهة بتلك التي تتشبث بالأسوار الساحلية؛ فللجزء الأكبر من البرازيل، المحصور بين الأطلسي والأمازون والباراغواي، مظهر طاولة مائلة، تنتصب من جهة البحر: كمقفز أحراج مجعد، تطوقه حلقة رطبة من الأدغال والمستنقعات.

فعلت عوامل التحات فعلها، من حولي، في هذه الأراضي ذات التضاريس المتعرية، لكن الإنسان بخاصة، مسؤول عن المظهر الفوضوي للمنظر. إذ استصلحت الأراضي، بداية، للزراعة، لكن التربة بعدما استنفدت وانحلت بالأمطار تملصت من أشجار البن فانتقلت المزارع إلى حيث ما زالت الأرض بكراً وخصبة. ولم تترسخ بين الإنسان والتربة تلك المبادلة اليقظة، التي تؤسس في العالم القديم، الحميمية الأزلية، والتي من خلالها تكيف كل منهما مع الآخر. فالتربة هنا، اغتُصبت وأتلفت، من قبل زراعة تعيش على النهب، استولت على خيرات كامنة، ثم ولّت إلى مكان آخر، بعدما انتزعت بعض المنافع. ولذا توصف مناشط الرواد، بحق، أنها هامشية لأنهم بإتلافهم التربة بالسرعة نفسها، تقريباً، التي يستصلحونها بها، يبدون ملزمين بعدم إشغال إلا شريط متحرك، يقتطعون من الأرض البكر في جهة، ويتركون الأرض بوراً منهكة، من جهة أخرى. وخلال مائة عام، اجتازت ألسنة اللهب الزراعي ولاية ساوباولو كالنار في الهشيم، تهرب إلى الأمام خشية نفاد وقودها. أشعلها في منتصف القرن التاسع عشر عمال المناجم، بعدما استنفدوا عروق الذهب، وانتقلت من الشرق إلى الغرب. وسأدركها قريباً في الجانب الآخر من نهر بارانا، وهي تفتح لها ممراً عبر أكوام من الجذوع المقطوعة، والأسر النازحة.

وبما أن الأراضي التي يعبرها الطريق من سانتوس إلى ساوباولو، هي

الأكثر قدماً في الاستغلال، فإنها تبدو موقعاً أثرياً لزراعة مندثرة. تلال وتلاع كانت مشجرة في الماضي، أضحت جرداء تحت معطف رقيق من العشب الجاف. ويتبين المرء في بعض الأماكن، نقاط الغرس، التي تشير إلى مواضع أشجار البن، بارزة من تحت السطح وشبيهة بأثداء استؤصلت. وقد استحوذت النباتات، من جديد، على التربة في الأودية، لكنها لم تَعُد الغابة الأصلية، بل غابة ثانوية، تنبعث كحرج مستمر من أشجار هزيلة. ويلاحظ المرء، من وقت لآخر، كوخاً لمهاجر ياباني، منهمك في إعادة الحياة، طبقاً لطرق عتيقة، إلى قطعة أرض يزرع فيها الخضراوات.

يشعر المهاجر الأوربي بالارتباك من هذا المنظر، الذي لا يندرج في أي من خبراته التقليدية: إذ لا عهد لنا بالطبيعة البكر، ومشهدنا الريفي مسخر للإنسان بصفة جلية. وحتى لو بدا لنا وحشياً، بعض الأحيان، فليس لأنه كذلك في الواقع، بل لأن المبادلات تمت بوتيرة أكثر بطئاً (كما في الغابة) أو أيضاً كما في الجبال. لأن المشكلات المطروحة كانت من التعقد بحيث جعلت الإنسان، عوضاً عن أن يقدّم لها إجابة شاملة، يتصرف عبر القرون بمساع متعددة، تدور حول التفاصيل؛ وبذا بدت له الحلول الكلية التي تلخصها والتي لم يردها ولم يتصورها بجلاء، من الخارج، ذات طابع بدائي. فنحسبها وحشية حقيقية للمشهد، في حين أنها تنتج من تسلسل المبادرات، ومن قرارات غير واعية.

ولكن، حتى أكثر المشاهد خشونة في أوروبا، يبدي تناسقاً، كان بوسان أفضل من عبر عنه. اذهب إلى الجبال: ولاحظ التباين بين المنحدرات المجدبة والغابات، وتدرج الغابات في أعلى السهوب، وتنوع الدرجات اللونية الراجع إلى هيمنة هذا النبات أو ذاك، إما تبعاً للاتجاه أو لتعرض الجبل- ينبغي للمرء أن يسافر إلى أمريكا، ليعرف أن هذا الانسجام الرائع، ليس تلقائياً من الطبيعة، بل يتأتى من شيء سُعي لتوافقه طويلاً، من خلال الشراكة بين البيئة والإنسان. وهكذا يعجب الإنسان بسذاجة، بآثار أفاعيله الماضية.

في أمريكا المأهولة، سواء في الشمال أم في الجنوب (باستثناء هضاب

الأنديز، والمكسيك وأميركا الوسطى، حيث يقرب السكن الأكثر كثافة ودواماً، من الوضع الأوروبي) لااختيار لدينا، إلا بين طبيعة روضت دون شفقة، حتى غدت مصنعاً في الهواء الطلق اكثر منها ريفاً (أتخيل حقول قصب السكر في الأنتيل، وحقول الذرة في الولايات المتحدة) وأخرى- كهذه التي أتاملها هذه اللحظة-احتلها الإنسان وقتاً كافياً لإتلافها، ولم يكن كافياً للارتفاع بها إلى مرتبة المشهد الريفي عبر تعايش بطيء ودائم. في محيط ساو باولو، وفيما بعد في ولاية نيويورك، وكونيكتيكت، وحتى في جبال الروكي، تعلمت كيف أتآلف مع طبيعة أكثر شراسة من طبيعتنا، لأنها أقل سكاناً وأقل زراعة، ومع ذلك هي محرومة من النضارة الحقيقية، ليس لأنها غير متوحشة، بل لأنها دون غيرها مرتبة.

أراضٍ فضاء في سعة محافظات، استحوذ عليها الإنسان سابقاً لوقت قصير؛ ثم غادرها إلى مكان آخر، تاركاً وراءه بقاعاً معذبة تخالطها الأطلال. وفي ميادين القتال هذه، حيث تُصارع مع أرض مجهولة لبعض العقود؛ ينبعث ببطء غطاء نباتي على وتيرة واحدة، بفوضى يزيد من خداعها، أنها تحافظ، تحت براءة زائفة، على ذكرى المعارك وهيئتها.

ساو باولو

11 عرّف أحد العقول الماكرة أمريكا، بأنها بلاد اجتازت البربرية إلى الانحطاط، دون أن تعرف الحضارة. إلا أننا نستطيع، بقدر أكبر من الصواب، تطبيق هذا القول على مدن العالم الجديد؛ فهي تنتقل من ريعان الصبا إلى الهرم، دون أن تمر بالأقدمية. عادت إلي طالبة برازيلية حزينة، بعد رحلتها الأولى إلى فرنسا: فقد بدت لها باريس وسخة، بمبانيها المسودة. ذلك أن البياض والنظافة كانا المعيارين الوحيدين لديها لتقييم المدينة. أما تلك العطلات التي تدعو إليها الأوابد، وهذه الحياة بدون عمر، التي تطبع أجمل المدن، والتي غدت موضوع تأمل وتفكير، وليست مجرد وسائل لوظيفة عمرانية. كل هذا لن تبلغه المدن الأميركية أبداً.

في مدن العالم الجديد، سواء كانت نيويورك، شيكاغو، أم ساو باولو، التي غالباً ما شبّهت بها، ليس ما يدهشني هو انعدام الآثار، لأن ذلك عنصر من معنى هذه المدن. وعلى عكس هؤلاء السائحين الأوروبيين، الذين يتضايقون من عدم وجود كاتدرائية أخرى من القرن الثالث عشر، أنا مسرور لتكيفي مع منظومة بدون بعد زمني، لتفسير شكل مختلف من الحضارة. ولكنني، أقع بهذا في الخطأ المعاكس: إذ ما دامت هذه المدن الجديدة، تؤسّس على هذه الجدة كيانها ومعناها، فأنا أجد صعوبة في أن أغفر لها عدم بقائها كذلك: لأن مرور القرون على المدن الأوروبية، يشكل ارتقاءً، بينما يعتبر مرور السنين على المدن الأميركية انحطاطاً. ليس لأنها أنشئت من عهد قريب فقط؛ بل لأنها بنيت لتتجدد بالسرعة ذاتها، التي بنيت فيها، أي بصورة سيئة. ولا تكاد الأحياء الجديدة التي تنتصب، تكون عناصر عمرانية: لأن لمعانها وجدتها وبهجتها، أكثر مما

يلزم لذلك. حتى يخيل للمرء أنها معرض دولي، أسس لبضعة شهور. وينتهي العيد بعد مدة، فتأخذ هذه التحف الكبيرة بالانهيار: واجهاتها تتقشر، ويخط المطر والدخان أثلاماً عليها، ويمسي الطراز قديماً، فيختفي التنظيم الأصلي تحت معاول الهدم التي يتطلبها، بالقرب منه، نفاد صبر جديد. وبالتالي، هي ليست مدناً جديدة متعارضة مع مدن قديمة، بل مدن ذات دورة تطور قصيرة جداً، تقارن بمدن ذات دورة بطيئة. إن بعض مدن أوروبا تغط في سبات هادئ، بينما مدن العالم الجديد تعيش باضطراب مرضاً مزمناً؛ فعلى الرغم من شبابها الدائم، لا تنعم بصحة جيدة أبداً.

عند زيارتي لنيويورك أو شيكاغو في ١٩٤١، ووصولي إلى ساو باولو في ١٩٣٥، لم تكن الجدة إذاً هي التي أدهشتني في البداية، بل نوائب الزمان المبكرة. لم اندهش لغياب عشرة قرون عن هذه المدن، بل راعني ذبول الكثير من أحيائها وعمرها لا يزيد عن خمسين عاماً، مع أن الزينة الوحيدة التي تستطيع الفخر بها هي شبابها الزائل بالنسبة لها كما بالنسبة إلى الكائنات الحية. نفايات الحديد، وقطارات الترام الحمراء كسيارات المطافئ، ومخازن من الآجر في أزقة منعزلة، حيث ليس سوى الرياح تكنس القاذورات؛ وأبرشيات طريفة أسفل مكاتب، وبورصات تشبه بطُرُزها الكاتدرائيات، ومتاهات من بنايات مخضوضرة تطل على مهاوٍ متقاطعة من الأخاديد، والجسور الدوارة والمجازات؛ مدينة تنمو إلى الأعلى دون انقطاع، على أكوام من أنقاضها التي تسند الإنشاءات الجديدة: شيكاغو يا صورة أميركا، ليس مدهشاً أن يحب العالم الجديد فيك ذكرى سنين ١٨٨٠؛ لأن القِدَم الوحيد، الذي بوسعه إدعاؤه في تعطشه للجديد، هو هذا الفارق المتواضع المتمثل بنصف قرن، الأقصر مما يجب للحكم على مجتمعاتنا الألفية، لكنه يمنح العالم الجديد، الذي لا يتصور الزمان، فرصة سانحة ولو ضئيلة، للتأسف على شبابه العابر.

كان أهالي ساو باولو في ١٩٣٥ يفتخرون، بأنه يتم بناء منزل في مدينتهم كل ساعة في المتوسط. وكان المقصود آنذاك فيلات؛ أما الآن

فيؤكدون بأن الوتيرة ما تزال كما هي، لكن فيما يتصل بالبنايات. وتتطور المدينة بسرعة يستحيل معها الحصول على مخططها: إذ يتطلب الأمر كل أسبوع نسخة جديدة. ويظهر أنه لو ذهب أمرؤ بسيارة أجرة إلى موعد حدد قبل عدة أسابيع. قد يتعرض للوصول، قبل هدم الحي بيوم واحد. فيشابه استحضار ذكريات عمرها عشرون عاماً، في هذه الظروف، تأمل صورة فوتوغرافية باهتة، قد تكتسي أهمية توثيقية: لذا اتبرع ببقايا ذكرياتي إلى أرشيف البلدية.

كانت تُصور ساو باولو عندئذ كمدينة قبيحة. ولا ريب أن طراز البنايات في المركز، كان مبهرجاً طنانا وقديماً؛ وما زاد تكلف التزيينات الفقيرة سوءاً، هو فقر الأشغال الأساسية: إذ لم تكن التماثيل والزخارف النباتية من الحجر، بل من الجبس المطلي باللون الأصفر، تصنّعاً للقدم. وكانت المدينة، بصورة عامة، تعرض هذه التدرجات اللونية التعسفية، التي تميز الإنشاءات السيئة، والتي اضطر مهندسوها إلى اللجوء للطلاء، سواء من أجل حمايتها، أم لإخفاء الطبقة التحتية.

أما في المنشآت الحجرية، فالمبالغات من طراز ١٨٩٠، يمكن التماس العذر لها جزئياً، بثقل وكثافة المواد: إذ يمكن اعتبارها من الكماليات. بينما تُذكّر هذه الانتفاخات المتقنة فقط بالأعراض الجلدية المرتجلة للجذام. فتحت الألوان الزائفة، تبرز الظلال أكثر قتامة؛ ولا تسمح الشوارع الضيقة لطبقة هواء شديدة الرقة بـ«صنع جو» وهو ما يؤدي إلى شعور بالتوهم، وكأن كل هذا ليس بمدينة، بل حيلة خادعة من المنشآت التي بنيت على عجل، لمشهد سينمائي أو تمثيل مسرحي.

ومع ذلك، لم تبد لي ساو باولو قبيحة: بل وحشية كما تبدو جميع المدن الأميركية، باستثناء واشنطن العاصمة ربما، فهي ليست وحشية ولا مُدَجنة، بل أسيرة، تموت سأماً في القفص المزركش بالشوارع، الذي حبسها فيه لونفان، واضع مخططها. أما ساو باولو، فلم تكن آنذاك مروضة. بنيت في الأصل على مشرف بشكل مهماز متجه إلى الشمال،

عند ملتقى نهرين صغيرين يصبان في نهر تييت، وهو أحد روافد نهر بارانا؛ كانت مجرد «إخضاع للهنود»: أي مركز تبشيري، كان الجيزويت البرتغاليون يجتهدون حوله، منذ القرن السادس عشر، بتجميع المتوحشين وتلقينهم فضائل الحضارة. وعلى القلعةالمنحدرة نحو نهر تاماندا واتيهي، التي تطل على الأحياء الشعبية، مازالت في ١٩٣٥، بعض الأزقة والساحات المربعة المعشبة، والمحاطة بمنازل واطئة ذات سقوف من القرميد، ونوافذ صغيرة مشبكة، مطلية بالكلس على الجزء العلوي المثلث، لا زينة لها سوى الالتصاق المزدوج لقوسين متعاكسين على الجزء العلوي المثلث من الواجهة. وبعيداً جداً إلى الشمال، يمتد نهر تييت بتعرجاته الفضية، في مستنقعات تتحول شيئاً فشيئاً إلى مدن، محاطاً بعقد غير منتظم من الضواحي والمقاسم.وخلفه مباشرة كان مركز الأعمال، المحافظ على طراز وتطلعات معرض ١٨٨٩؛ وساحة الكاتدرائية، في منتصف الطريق بين الورشة والخراب. ثم يأتي المثلث الشهير، الذي تفتخر به ساو باولو، فخر شيكاغو بـ لوب: وهو المنطقة التجارية المتكونة من تقاطع شوارع هامة تكتظ باللافتات، حيث يسرع جمهور من التجار والمستخدمين، معلنين بلباسهم الداكن، ولاءهم للقيم الأوروبية والأميركية الشمالية، مع فخرهم بالثمانمائة متر من الارتفاع، التي تحررهم من خمول المناخ المداري (الذي يمر مع ذلك من وسط المدينة).

الأمطار في ساو باولو، بشهر كانون الثاني/يناير، «لا تأتي» بل تتولد من الرطوبة المحيطة، كأن بخار الماء، الذي يتخلل كل شيء، يتجسد في لآلىء مائية ليسقط مدراراً. لكن تآلفه مع هذا الضباب الذي ينزلق عبره يكبحه، وهو ليس مطراً خطياً كما في أوروبا، بل تلألؤ شاحب، ينتج مما لا حصر له من كريات الماء الصغيرة، التي تتدحرج في جو خضل: كشلالات من مرق رقيق. وليس بمرور السحاب ينقطع المطر، بل حينما يتخلص الهواء بشكل كافٍ، من فائض الرطوبة عن طريق استنزاف المطر لها. عندذاك، تصفو السماء، ويلمح المرء زرقة شاحبة، من بين الغيوم الشقراء، بينما تجري السيول الجبلية في الشوارع.

في الجهة الشمالية من المَشْرَف(*)، كانت وَرْشة هائلة تفتتح: هي ورشة جادة ساو باولو؛ كشريان بطول عدة كيلو مترات، شُرع بتخطيطه، موازياً لنهر تييت، وفقاً لمسرى الطريق القديمة إلى أيتو شمالاً، والمزارع الغنية في كابيناس. تبدأ الجادة في طرف المهماز ثم تنحدر، عبر انقاض الأحياء القديمة، تاركة على اليمين بداية الشارع الذي يقود إلى المحطة، بين سوق السوريين التي تموّن الداخل ببضاعة رديئة، ومشاغل السرّاجين الهادئة، والمنجّدين، حيث تستمر -ولكن إلى متى- صناعة السروج الممتازة من الجلد المشغول، وبطائن الجياد القطنية، وعدتها المطعّمة بالفضة، المخصصة للمزارعين والأجراء في الأحراش القريبة. ثم تمر أسفل ناطحة سحاب-الوحيدة، ولم تنته بعد- لتخترق كامبوس-إليزيوس، التي كانت في الماضي حي الأزياء، حيث تتراءى الفيلات المبنية بالخشب المطلي في حدائق من أشجار الكينا والمانجو؛ والحي الشعبي، المجاور لحي مخصص للبغاء. وأخيراً، كانت تتقدم، في أطراف المدينة، المقاسم البورجوازية الصغيرة، لتذوب، جهة الجنوب الغربي، في تلة باكيمبو المخضوضرة، والأكثر أرستقراطية.

(*) اسم مكان من أشرف. (المترجم).

يستمر المشرَف نحو الجنوب بالارتفاع، تصعده جادات متواضعة، لتلتقي في القمة بجادة أفيندا بوليستا، المحاذية لمنازل كانت قديماً فخمة، لأصحاب ملايين الخمسين سنة الماضية، على طراز الكازينوهات ومدن المياه المعدنية. وفي النهاية، تعلو الجادة السهل فوق حي باكومبو الجديد، حيث تبنى الفيلات المكعبة بدون نظام، على طول جادات تتلوى بين تلاع معشبة وردوم ترابية محمرة. لكن أصحاب الملايين غادروا أفيندا بوليستا، وانحدروا طبقاً لتوسع المدينة إلى جنوب التلة، نحو أحياء هادئة ذات شوارع دائرية. حيث تلمع منازلهم المستوحاة من الطراز الكاليفورني، المبنية بالإسمنت الممزوج بالميكا، بدرابزيناتها المصنوعة من الحديد المشغول، داخل حدائق شذبت في الأدغال، حيث تقوم هذه المقاسم للأثرياء.

وبينما تمتد مراعٍ للابقار أسفل البنايات الإسمنتية، ينبثق حي كالسراب، وجادات على جانبيها منازل فخمة، تقطعها الأودية من طرفيها؛ حيث يجري سيل موحل بين أشجار الموز يستعمل مورداً للمياه ومصرفاً للقاذورات في الوقت نفسه لأكواخ من الطين أقيمت على دعائم من الخيزران، يسكنها السود أنفسهم الذين يعسكرون على قمم التلال في ريو. والماعز يتقافز على المنحدرات.وتتجح بعض المواضع المحظية من المدينة، بجمع كل المظاهر. وهكذا، عند مخرج شارعين متعاكسين يقودان إلى البحر، نبلغ ضفة وادي ريو أنهانغاباهو الذي يعبره جسر، وهو أحد الشرايين الرئيسية في المدينة. تشغل القاع حديقة متوافقة مع الذوق الإنجليزي: عشب مزين بتماثيل وأكشاك، بينما ترتفع في أعلى الضفتين الصروح الرئيسية: كالمسرح البلدي وفندق اسبلانادا ونادي السيارات ومكاتب الشركة الكندية، المكلَّفة بالإضاءة والنقل، حيث تتواجد كتلها المتنافرة، في فوضى جامدة، وكأن هذه البنايات المتعاركة، قطعان كبيرة من حيوانات ثديية، اجتمعت مساءً حول مورد ماء، حكمت عليها حاجة أكبر من الخوف، باختلاطها على الرغم من تباغضها. إن التطور الحيواني يتم وفقاً لمراحل أكثر بطئاً من مراحل الحياة الحضرية، فلو كنت أتأمل الموقع نفسه اليوم، لوجدت القطيع قد اختفى، لأن عرقاً أصلب عوداً، وأكثر تجانساً، مكوناً من ناطحات السحاب داسه وحل محله، على هذه الضفاف، التي استحالها طريق سريع بالأسفلت.

وكانت النخبة في ساوباولو، في حماية هذا المجتمع الحيواني الحجري، على غرار زهرة الأوركيده المفضلة لديها، تشكل مجتمعاً نباتياً مستهتراً، وأكثر غرابة مما يُظن. فعلماء النبات يعلمون أن الأنواع المدارية تحتوي تنوعات أكثر عدداً من تنوعات المناطق المعتدلة، مع أن كلاً منها، لا يعد إلا عدداً صغيراً من الأفراد. وقد دفعت طبقة (وجه السلة) المحلية، هذا التخصص إلى أقصاه.

وقد تقاسم مجتمع مصغّر الأدوار، إذ نجد فيه كل الاهتمامات،

والأذواق، والغرائب التي تسوّغها الحضارة المعاصرة، إلا أن لكل واحد منها ممثلاً واحداً فقط، فأصدقاؤنا لم يكونوا أشخاصاً، بل بالأحرى وظائف لا يبدو أن أهميتها الذاتية حددتها، بقدر ما حددها توافرها. فكان هناك الكاثوليكي إذاً والليبرالي ونصير الشيوعية، والشيوعي؛ أو على صعيد آخر، الذواقة للطعام، وجامع الكتب، وهاوي الكلاب (أو الجياد) الأصيلة، واللوحات القديمة، واللوحات العصرية، والعلاّمة المحلي، والشاعر السوريالي، والعالم في الموسيقا، والمصور، ولم يكن أصل هذه التوجهات أي هاجس حقيقي للتعمق في ميدان من ميادين المعرفة. وإذا ما تصادف وجود اثنين، يحتلان الميدان نفسه، أو ميدانين مختلفين لكنهما متقاربان، فلن يكون لهما من همّ سوى تحطيم أحدهما الآخر بدأب وشراسة ملحوظة؛ ويحدث العكس، عندما يتعلق الأمر بدائرتي نفوذ متجاورتين، إذ تتم الزيارات الفكرية، وتُتبادل آيات الاحترام، باعتبار أن كل واحد مهتم، ليس فقط بالدفاع عن وظيفته، بل أيضاً بإتقان هذه المعزوفة الاجتماعية التي يبدو أن مجتمع ساوباولو يجد في عزفها لذة لا تنضب.

إلا أنه لا بد لي من الاعتراف، بأن بعض الأدوار كانت تؤدى ببراعة استثنائية، ترجع إلى الجمع بين الثروة الموروثة، والجاذبية الخَلقية، والمراوغة المكتسبة، وتجعل التردد على الصالونات مشوقاً ومخيباً للآمال في آن. وكانت الضرورة، التي تقضي أن تُشغَل كل الأدوار، لإكمال العالم المصغر، ولعب لعبة الحضارة الكبرى، تؤدي إلى بعض المفارقات: كذلك الشيوعي الذي كان الوريث الثري للإقطاعية المحلية؛ وهذا المجتمع المتعاظم، الذي سمح، مع ذلك، لأحد أعضائه، لكن لواحد فقط - لأنه لا بد من وجود شاعر طليعي - بالخروج مع عشيقته علناً. ولم يتم ملء بعض الوظائف إلا بأردأ ما يكون: فعالم الإجرام كان طبيب أسنان، أدخل إلى الشرطة الجنائية قالب الفكين، عوضاً عن بصمات الأصابع، كنظام للتعرف على الهوية. ونصير الملَكية كان يعيش لجمع عينات من

أواني كل الأسر الملكية في العالم؛ فجدران صالونه، مغطاة بالصحون، فيما عدا موضع الصندوق الحديدي، الضروري، لحفظ الرسائل التي كانت وصيفات الملكات يعبرن له فيها عن اهتمامهن بطلباته المنزلية.

يقترن هذا التخصص، على صعيد الحياة الاجتماعية، بشهية موسوعية. إذ يلتهم البرازيليون من ذوي الثقافة، الكتب والمؤلفات التبسيطية. وعوضاً عن أن يتباهى وزراؤنا بمكانة فرنسا، التي ما زالت لاتضاهى في الخارج، كان من الأكيس لهم لو سعوا إلى فهمها. إذ لم تكن ترجع، منذ ذلك الوقت، للأسف، إلى ثراء وأصالة إبداع علمي متراخٍ، بقدر ما ترجع إلى الموهبة، التي مازال الكثير من علمائنا يتمتعون بها، والمتمثلة في تبسيط مشكلات عسيرة، لم يشاركوا بحلها إلا بصفة متواضعة. فالمحبة التي تكنها أمريكا الجنوبية، بهذا المعنى، لفرنسا تنجم جزئياً، عن تواطؤ خفي مؤسس على الميول نفسها إلى الاستهلاك، وتسهيل الاستهلاك على الآخرين. والأسماء الكبيرة، التي يجلّونها هناك: كباستور وكوري ودوركايم، تنتمي جميعاً إلى ماضٍ قريب بما فيه الكفاية لتسويغ دين علينا، لكننا لا ندفع فائدة هذا الدين إلا قروشاً قليلة، تتناسب قيمتها مع كون الزبائن المبذرين أنفسهم، يفضلون الإنفاق على الاستثمار. فنوفر عليهم فقط عناء السداد.

من المحزن أنه حتى دور السمسار الثقافي هذا، الذي تُركت فرنسا نفسها تنزلق إليه، أضحى ثقيلاً جداً عليها. فهل نحن إلى هذا الحد سجناء منظور علمي موروث من القرن التاسع عشر، حين كان كل ميدان من ميادين الفكر محدوداً، بحيث يتوصل أي إنسان يتمتع بهذه الخصال الفرنسية التقليدية من ثقافة عامة وحيوية ووضوح وعقل منطقي وموهبة أدبية، إلى الإلمام به برمته، ثم إعادة النظر فيه لحسابه، وتقديم توليفة جديدة لهذا الفكر؟ وسواء رضينا أم لم نرض، فإن العلم الحديث لن يسمح بهذا الاستغلال الحِرَفي التقليدي. فحيث كان يكفي متخصص واحد لإيضاح صورة بلده، يتطلب الأمر اليوم جيشاً من المتخصصين

الذين ينقصوننا. وفيما أصبحت المكتبات الشخصية طرائف متحفية، تثبط مكتباتنا العامة عزيمة الباحثين، عوضاً عن خدمتهم، لأنها دون محلات ولا اعتمادات، ودون موظفين، وحتى دون مقاعد كافية للقراء. أخيراً، إن الإبداع العلمي يمثل اليوم، مشروعاً جماعياً ومغفلاً على نطاق واسع، وهو شيء تهيأنا له بأسوأ ما يمكن، ونحن منشغلون حصراً، بتمديد نجاحات عازفينا البارعين السهلة لما بعد أوانها؛ ترى هل سيستمر هؤلاء طويلاً في اعتقادهم بأن أسلوب لا يجارى في العزف، يمكن أن يُغْني عن تأليف الموسيقى؟

بلاد أكثر فتوة فهمت الدرس، ففي البرازيل هذه، التي عرفتْ بعض النجاحات الفردية اللامعة لكنها نادرة، من مثل: أكليد داكونها، أزوالد كروز، شاغاس، فيللا لابوس، ظلت الثقافة حتى عهد قريب، لعبة للأثرياء. ولأن هذه القلة كانت بحاجة إلى رأي عام ذي اتجاه مدني وعلماني، يواجه النفوذ التقليدي للكنيسة والجيش، كما يواجه السلطة الشخصية، فقد شَرَعتْ من خلال تأسيس جامعة ساوباولو، بإتاحة الثقافة لزبائن أكثر عدداً.

عندما وصلت إلى البرازيل، للإسهام في هذا التأسيس، كنت أنظر إلى الظروف الإنسانية لزملائي المحليين بشفقة متعالية قليلاً؛ فعندما كنت أرى هؤلاء الأساتذة بمرتباتهم البائسة، مضطرين للقيام بأعمال غامضة، طلباً للرزق، كنت أشعر بالفخر لانتمائي لبلد ذي ثقافة عريقة، حيث تحاط مزاولة المهن الحرة بالضمانات والهيبة. ولم أكن أظن أن تلاميذي المجدين عندئذ سيحتلون، بعد عشرين عاماً، كراسي جامعية أكثر عدداً، أحياناً، وأفضل تجهيزاً مما في جامعاتنا، وفي تصرفهم مكتبات كتلك التي نتمنى امتلاكها.

كانوا يأتون، مع ذلك، من بعيد، هؤلاء الرجال وهاتيك النساء من كل الأعمار، ويتزاحمون على دروسنا بحماس يشوبه شيء من الريبة: شباب يترقبون وظائف ستتيحها لهم الشهادات التي سنمنحها، أو محامون

ومهندسون، وسياسيون راسخون، يخشون المنافسة القريبة للشهادات الجامعية، إن لم تكن لديهم، هم أنفسهم، الحصافة للسعي إليها. كانت تسكنهم جميعاً عقلية متسكعي الجادات، المستوحاة جزئياً من تقليد فرنسي، عفا عليه الزمان، من طراز «الحياة الباريسية» للقرن الماضي، أدخله بعض البرازيليين؛ لكنه فوق ذلك، سمة ذات دلالة لتطور اجتماعي، كان في باريس القرن التاسع عشر، وأعادت ساوباولو وريودرجانيرو إنتاجه عندئذ، لحسابهما، يتمثل في وتيرة متسارعة للتفاضل بين المدينة والريف، إذ تنمو المدينة على حساب الريف، بما ينتج عن هذا من هموم لأناس حديثي العهد بالمدينة، من تخلٍّ عن البراءة الريفية، المرموز لها في برازيل القرن العشرين بـ كيبيرا أي فلاح، كما كانت بالنسبة لذوي الأصول الريفية في مسرح البولفار بباريس. وأتذكر هنا مثالاً على هذه الدعابة المريبة.

في وسط أحد هذه الشوارع، التي تكاد تكون ريفية، على الرغم من طولها، الذي يتراوح بين ثلاثة وأربعة كيلومترات، والتي تُمَدد مركز ساوباولو؛ أقامت الجالية الإيطالية تمثالاً للامبراطور أوغست. وكان نسخة بالحجم الطبيعي لتمثال رخامي قديم، رديء في الحقيقة، لكنه جدير ببعض الاحترام في مدينة، لاشيء فيها يستحضر التاريخ، فيما قبل القرن الماضي. إلا أن سكان ساوباولو قرروا أن الذراع المرفوعة، للتحية الرومانية تعني: «هنا يسكن كارليتو» وكارلوس بيريرا دوسوزا، وزير سابق وسياسي ذو نفوذ، كان يملك، في الاتجاه الذي يشير إليه الامبراطور، واحداً من هذه المنازل الفسيحة، ذات الطابق الواحد، مبنياً باللبن والطين، ومطلياً بالكلس الضارب إلى الرمادي المتقشر منذ عشرين عاماً، ولكن شاع الإدعاء بأنه يمثل أبهة العصر الاستعماري.

كما تم الاتفاق على أن أوغست يرتدي السروال القصير، ولم يكن في ذلك إلا نصف هزل، لأن أغلبية المارة يجهلون التنورة الرومانية. أخذت هذه النكات تنتشر في المدينة، بعد ساعة من إزاحة الستار عن التمثال،

وتتردد مدعومة بضربات على الظهر في (السهرة الأنيقة) التي جرت بسينما الأوديون، اليوم ذاته. بهذا الأسلوب، كانت بورجوازية ساوباولو وهي (المسؤولة عن تنظيم عرض سينمائي أسبوعي بثمن مرتفع، يجنبها الاحتكاك بالدهماء) تنتقم. لأنها بتهاونها، سمحت بتكوين أرستقراطية من المهاجرين الإيطاليين، الذين وصلوا منذ نصف قرن، لبيع ربطات العنق في الشارع؛ وهم يملكون الآن أفخم المنازل، ويتبرعون بالبرونز، الذي جرَّ كل هذه التعليقات.

كان طلابنا راغبين في معرفة كل شيء، إلا أن النظريات الحديثة فقط، في أي ميدان كان، هي التي كانت تبدو لهم جديرة بالاهتمام. وبما أنهم كانوا مشمئزين من كل مآدب الماضي الفكرية، التي لم يطلعوا عليها في الواقع إلا عن طريق السماع، لأنهم لم يكونوا يقرؤون المؤلفات الأصلية، فقد احتفظوا بحماسة دائمة للأطباق الجديدة. ولكن ينبغي، فيما يتعلق بهم، الحديث عن الموضة أكثر من الطبخ: إذ لم تكن تكتسي الأفكار والمذاهب، في رأيهم، قيمة ذاتية، بل كانوا يرون فيها وسائل للوصول إلى مكانة ينبغي عليهم ضمان باكورتها. ومشاطرة الآخرين نظرية معروفة، مثل ارتداء ملابس ارتديت سابقاً، قد تؤدي إلى إراقة ماء الوجه. وفي المقابل، كان ثمة منافسة شرسة، تمارَس من خلال مجلات التبسيط ودوريات الإثارة، والكتب المدرسية، للحصول على الطراز الأحدث في ميدان الأفكار. وبما أنني وزملائي نتاج للاصطبلات الأكاديمية، فقد كنا نشعر بالحرج: فلأننا رُوضنا على ألا نحترم إلا الأفكار الناضجة، كنا هدفاً لهجوم الطلبة، الذين كانوا على جهل تام بالماضي، لكن معلوماتهم تسبق معلوماتنا بأشهر. ومع ذلك، كانت تبدو سعة العلم لهم واجبة، على الرغم من افتقادهم لمنهجها والميل إليها، ولذا كانت تقوم مقالاتهم، مهما كان موضوعها، على استحضار تاريخ الإنسانية العام، منذ القردة الشبيهة بالإنسان، لتنتهي باستشهادات من أفلاطون وأرسطو وكومت، بإطناب مُؤلِف متعدد الاهتمامات، زاد من قيمة عمله أن خمول ذكره يمنح فرصة،

لم يفكر أحد غيره بانتهازها، للسطو عليه وانتحاله.

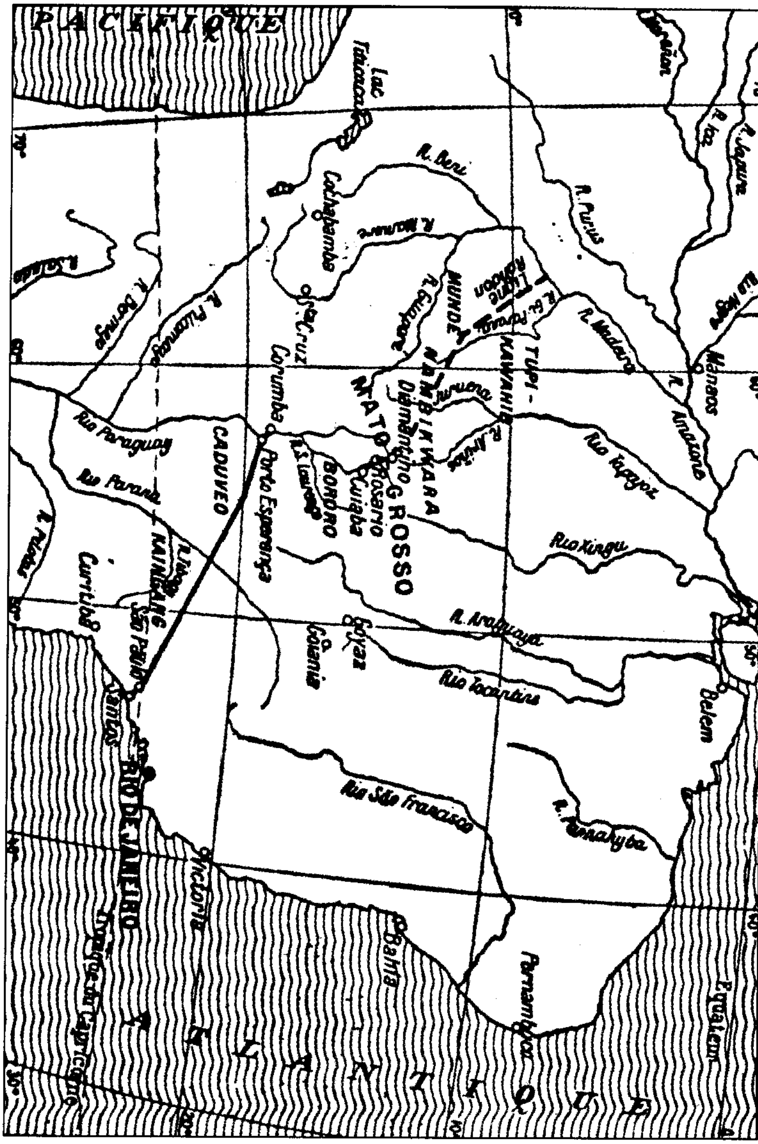
كانت الجامعة تبدو لهم كثمرة مغرية، لكنها مسمومة. فلقد استُقدمنا، بالنسبة لهؤلاء الشباب الذين لم يروا الدنيا، وكانت ظروفهم المتواضعة غالباً، تمنع عليهم الأمل بمعرفة أوربا، كمجوس غرباء، من قِبل أولاد عائلات ممقوتين من جهتين: أولاً، لأنهم كانوا يمثلون الطبقة المسيطرة، ثم بسبب تأثرهم بالأجانب، الذي يمنحهم ميزة على كل أولئك الذين بقوا في القرية، لكنه قطعهم عن الحياة الوطنية وتطلعاتها. وكنا بالطريقة نفسها، مشبوهين، لكننا كنا نحمل إليهم ثمار المعرفة، ولذا كان الطلبة يتباعدون عنا ويتزلفون لنا، بالتناوب؛ مفتونين أحياناً، ومتمردين أخرى. وكان يقيس كل منا نفوذه بأهمية الحاشية الصغيرة التي كانت تنتظم حوله. إذ يتحاربون حرب مكانة، كان الأساتذة رموزها والمستفيدين منها أو ضحاياها. ويُتَرجَم كل ذلك، بتظاهرات التكريم للأستاذ، التي تتمثل بمآدب غداء أو حفلات شاي، تقام بفضل جهود، يزيد من تأثيرها أنها كانت تقتضي حرماناً حقيقياً. وكانت الشخصيات والتخصصات تتقلب من خلال هذه الاحتفالات، تقلُّب أوراق البورصة، تبعاً لشهرة المكان، وعدد المشاركين، ومنزلة الشخصيات الاجتماعية أو الرسمية التي كانت تقبل الحضور. وبما أن لكل دولة كبرى سفارتها من خلال حانوت في ساوباولو، كالشاي الإنجليزي، ومعجنات فيينا أو باريس، ومشارب الجعة الألمانية، فإن اختيار هذا المكان أو ذاك، كان يعبّر أيضاً عن بعض النوايا الملتوية.

أقول لكل أولئك الذين سيقرؤون هذه السطور منكم، أيها التلاميذ الأعزاء، والزملاء المحترمون اليوم، أن لا تضمروا حقداً. إنني وأنا أتذكركم, وفقاً لعرفكم , بأسمائكم المستغرَبة من أذن أوربية: أنيتا , كورينا , زينايدا , ليفينيا , وأنتم يا إيجون, ماريو, واغنر, ليفيو, أزور, لكن تنوعها يعبّر عن الحظو التي كانت لأبائكم أن يقطفوا بحرية أزهار إنسانية عريقة، ليصنعوا منها باقاتكم الاضرة،؛ أستحضر دون تهكم تلك الفترة

المتعثرة. بل على العكس، لأنها علمتني درساً: هو زوال الامتيازات التي يمنحها قدم الزمان. لقد تعلمت، وأنا أتذكر ما كانت عليه أوربا عندئذ، وما هي عليه الآن، وأنا أراكم تجتازون في سنوات قليلة فارقاً فكرياً، كان يُظن أنه يعد بالعقود، كيف تختفي المجتمعات وتولد. وتعلمت أيضاً، أن انقلابات التاريخ، التي تبدو في الكتب ناجمة عن تكاتف قوى مجهولة تعمل في الظلام، يمكن لها أيضاً، في لحظة صفاء، أن تتحقق بعزم ثابت من أطفال موهوبين.

القسم الرابع

الأرض والإنسان



خريطة لشمال البرازيل

مدن وأرياف

12 بوسع المرء في سان باولو الاهتمام باثنوغرافيا نهاية الأسبوع. ولكن ليس لدى هنود الضواحي، الذين وُعدت بهم خطأ؛ لأن الضواحي، كانت سورية أو إيطالية. وأقرب ما يثير الفضول الإثنوغرافي، كان قرية على مسافة خمسة عشر كيلو متراً، يرتدي سكانها الأسمال، شعورهم الشقراء وعيونهم الزرق تشي بأصل جرماني قريب العهد. إذ قدمت جماعات من المستوطنين الألمان في ١٨٢٠، للإقامة في المناطق الأقل مدارية من البلاد. وذابوا هنا، نوعاً ما، وضاعوا وسط الفلاحين المحليين. أما جنوباً، في ولاية سانتا كاتارينا، فنجد مدينتي جوانفيل وبلومينو الصغيرتين، تحافظان على جو القرن الماضي: إذ تحفُّ بالشوارع، التي تحمل أسماء ألمانية، منازل ذات سقوف شديدة الميلان، ولا يتكلم الناس فيها إلا بالألمانية. بينما يجلس بعض المسنين، بسوالفهم وشواربهم، يدخنون بغلايين خزفية طويلة، على شرفات مشارب الجعة.

وكان في نواحي ساو باولو الكثير من اليابانيين أيضاً، ومعاشرتهم أكثر صعوبة. إذ كانت مقاولات للهجرة تنتقيهم وتتكفل بإدخالهم وإسكانهم مؤقتاً، عند وصولهم، ثم توزعهم على مزارع الداخل، التي تشكل كل منها قرية ومخيماً عسكرياً في آن؛ وتحتوي كل الخدمات، كالمدرسة والمشغل والمستوصف والحوانيت وأماكن اللهو. يقضي المهاجرون فيها فترات طويلة، في حبس طوعي، يتم تشجيعهم عليه بانتظام، فيسددون ديونهم للشركة، ويودعون رواتبهم في صندوقها. وبعد سنوات، تقوم الشركة بإعادتهم إلى أرض الأجداد ليموتوا فيها، أو بإعادة رفاتهم، فيما لو قضت عليهم الملاريا قبلاً. وكان كل شيء منظماً حتى تتم هذه المغامرة الكبرى دون أن يشعروا بأنهم غادروا اليابان. لكنه ليس مؤكداً أن اهتمامات المقاولين

كانت مالية واقتصادية أو إنسانية فقط. لأن فحصاً للخرائط، يكشف النوايا الاستراتيجية الخفية، التي أوحت بإقامة المزارع. كما أن الصعوبة البالغة في دخول المرء مكاتب الوكالات المتصلة بالهجرة اليابانية، والصعوبة الأكبر أيضاً في دخول الشبكة، التي تكاد تكون سرية، للفنادق والمستشفيات ومصانع الآجر ومناشر الخشب، التي بفضلها تكفي الهجرة نفسها بنفسها؛ وأخيراً، صعوبة دخول المراكز الزراعية، كل ذلك حمايةً لأهداف مشبوهة، منها عزل المهاجرين في نقاط اختيرت بعناية من جهة، ومن جهة أخرى التنقيب عن الآثار (الذي كان يجري بمنهجية أثناء الأعمال الزراعية، بهدف الإشارة إلى بعض التشابه بين الآثار المحلية، وآثار العصر الحجري الحديث اليابانية). وهما كما يبدو الحلقتان القصويان من السلسلة.

في قلب المدينة، كان السود يمسكون ببعض أسواق الأحياء الشعبية. وبصورة أدق -باعتبار أن تعبير السود ليس له معنى، في بلد يقترن تنوع عرقي كبير بالقليل من الأحكام المسبقة، وهو ما سمح بالاختلاط من كل نوع - كان بالإمكان التمرن على تمييز الميستيكوس، أبناء تزاوج الأبيض مع الأسود، من الكابوكلوس، أبناء الأبيض والهندي، والكافوس، أبناء الهندي والأسود. وتحافظ المنتوجات المعروضة للبيع على أسلوب أكثر نقاءً: كمنخل لدقيق المانيوق، من صناعة هندية نموذجية، مكون من شبك من الخيزران، مطوق بألواح رقيقة من الخشب؛ ومراوح للنار، موروثة عن التقاليد الهندية، ودراستها ممتعة: لأن كل أنموذج منها يمثل حلاً بارعاً لتحويل البنية النفوذة والمشعثة لسعفة النخيل، إلى سطح متماسك ومستمر، بوساطة الضَفْر، لتحريك الهواء عندما تُهز بقوة. وبما أن هناك عدة طرق لحل المشكلة، وعدة أشكال لسعف النخيل، فمن الممكن الجمع بينها لتحديد كل الأشكال الممكنة، ومن ثم جمع العينات، التي توضح هذه النظريات التقنية البسيطة.

هناك نوعان من النخيل: إذ تتوزع الوريقات متناظرة أحياناً على جانبي ساق متوسطة؛ وتتفرق على شكل مروحة أحياناً أخرى. ويوحي

الأول بطريقتين: فإما تثنى جميع الوريقات إلى جانب واحد من الساق، وتجدل معاً؛ وإما تجدل كل مجموعة وحدها، بطي الوريقات على نفسها بزاوية قائمة، وإدخال أطراف البعض عبر الأجزاء السفلى من البعض الآخر، والعكس بالعكس، ويُحصل هكذا على نوعين من المراوح: كالأجنحة وكالفراشات. وأما النموذج الثاني فله عدة أشكال، هي بدرجات متفاوتة توفيق بين الاثنين الآخرين. وتذكر بنية النتيجة سواء كانت كالمغرفة أم المضرب أو النجمة، بعقصة شعر مسطحة.

وثمة أداة أخرى جذابة، بصفة خاصة، في أسواق ساوباولو، كانت الفيجا. وهي طلسم متوسطي قديم بشكل ساعد ينتهي بقبضة مغلقة، يظهر منها طرف الإبهام في الوسط. والمقصود، دون شك، تصوير رمزي للجماع. وكان منها قلادات مصنوعة من الأبنوس أو الفضة، والكبيرة المنحوتة بسذاجة والمزركشة بالألوان الفاقعة. وقد علّقتُ منها تشكيلة بهيجة في سقف بيتي. وكان فيلاّ باللون الأحمر، على الطراز الروماني لسنوات ١٩٠٠، تقع أعلى المدينة. يُدخل إليها من تحت قبة ياسمين، ومن خلفها حديقة عتيقة، طلبت من المالك أن يغرس شجرة موز في طرفها، حتى أقْتِنع بأنني تحت المدار. وبعد بضع سنوات، صارت شجرة الموز غابة صغيرة أجني محصولها.

كان بوسع المرء في أطراف ساوباولو، أن يتفرج أخيراً على فولكلور ريفي: كأعياد أيار، التي تزيَّن فيها القرى بسعف النخيل، والمصارَعات التذكارية المحافظة على التقاليد البرتغالية، بين المور أي المسلمين والمسيحيين؛ والطواف الديني، الذي تُحمل فيه سفينة ذات أشرعة من ورق؛ والحج إلى أبرشيات بعيدة شفيعة للمجذومين، حيث يقوم شعراء خلاسيون سكارى باستفزاز بعضهم البعض على قرع الطبل، بأغان هجائية. بالإضافة إلى المعتقدات والخرافات، كتقسيم الأغذية جميعاً إلى قسمين غير متناسبين: الغذاء الساخن، والغذاء البارد. والارتباطات المشؤومة الأخرى: كما بين السمك واللحم، وبين المانجو والمشروبات الكحولية، وبين الموز والحليب.

ومع ذلك، فقد كان الأكثر إمتاعاً، داخل الولاية، ليس التعلق ببقايا التقاليد المتوسطية، بل بالأشكال الفريدة، التي كان يفضلها مجتمع في حالة تكوّن. والموضوع هو ذاته، أي الماضي والحاضر. لكن على عكس التحقيق الإثنوغرافي، ذي النمط الكلاسيكي، الذي يسعى إلى تفسير هذا بذاك، كان هنا الحاضر الراهن هو، الذي يعيد تكوين مراحل قديمة جداً من التطور الأوربي. إذ كنا نشهد ولادة الحياة الجماعية والحضرية في ريف برازيلي؛ كما في زمن فرنسا الميروفنجية.

فالتجمعات التي كانت تبرز، لم تكن كمدن اليوم - منهكة إلى حد، يصير فيه مستحيلاً اكتشاف سمة تاريخها الخاص - مختلطة في شكل متجانس أكثر فأكثر، حيث لا تتأكد بينها سوى الفوارق الإدارية. بل كان بوسع المرء، على العكس، فحص المدن كفحص عالم النبات نبتة ما، متعرفاً عبر اسمها وشكلها وبنيتها، على انتمائها لهذه أو تلك من عائلات كبرى لمملكة أضافها الإنسان للطبيعة: هي المملكة الحضرية.

خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، انتقل نشاط الرواد ببطء، من الشرق إلى الغرب، ومن الجنوب إلى الشمال. ففي ١٨٣٦، كان الشمال فقط، أي فيما بين ريو وساو باولو، محتلاً بقوة، فيما كانت الحركة تشمل المنطقة الوسطى من الدولة. وأخذ الاستيطان، بعد عشرين سنة، يسري إلى الشمال الشرقي. وفي ١٨٨٦ بدأ في مناطق أراكار، وألتاسوروكابانا، والنورست. وكان إنتاج البن في هذه المناطق الأخيرة، ما يزال متناسباً طرداً مع تزايد السكان في ١٩٣٥، بينما آذن انهيار الأول، في أراضي الشمال القديمة، بانخفاض الثاني، بعد نصف قرن: إذ بدأ أثر الانهيار الديمغرافي، اعتباراً من ١٩٢٠، بينما بدأت الأراضي المستنفدة تهمل منذ ١٨٥٤.

إن طور استعمال المكان هذا، يرتبط بتطور تاريخي، كانت سمته عابرة ايضاً. فليس إلا في المدن الساحلية فقط، يظهر أن للتوسع الحضري قاعدة متينة: فكانت ساوباولو تعد ٢٤٠,٠٠٠ نسمة في ١٩٠٠ و ٥٨٠,٠٠٠ في ١٩٢٠، وزادت عن المليون في ١٩٢٨، وضاعفته الآن. لكن النماذج

الحضرية في الداخل، كانت تولد وتختفي؛ ففي الوقت الذي كانت ساوباولو تتزايد سكاناً، كانت المحافظة تخلو منهم. والسكان بتنقلهم من بقعة إلى أخرى، دون أن يتزايدوا دائماً، يغيرون من النمط الاجتماعي. وكان يسمح تفحص المدن البائدة والمدن الوليدة، جنباً إلى جنب، على الصعيد الإنساني، وفي الحدود الزمنية الشديدة القصر، بدراسة تحولات، بمثل جاذبية تحولات عالِم المستحاثات الذي يوازن، خلال الطبقات الجيولوجية، بين حقب تطور الكائنات المتعضية، لملايين من السنين.

وما كان لي أن أغفَل، وأنا أغادر الساحل، عن أن البرازيل، منذ قرن، تحولت أكثر مما نمت. إذ كان الاحتلال السكاني في العصر الإمبراطوري ضعيفاً، إلا أنه جيد التوزع نسبياً. وإذا ظلت مدن الساحل، أو المجاورة له صغيرة، فإن مدن الداخل كانت أكثر حيوية مما هي عليه الآن. وبمفارقة تاريخية يميل الناس لنسيانها غالباً، كان النقص العام لوسائل المواصلات في مصلحة أسوئها، فعندما لم يكن من وسيلة سوى الحصان، كان المرء أقل نفوراً من تمديد سفر ما لأشهر، عوضاً عن أيام أو أسابيع، والتوغل حيث يستطيع البغل فقط، المجازفة. ولا شك أن داخل البرازيل، كان يعيش متضامناً، حياة بطيئة، لكنها مستمرة؛ فقد كان السفر على الأنهار يتم بمواعيد ثابتة، ومراحل قصيرة، تمتد إلى عدة شهور، وتشمل طرقاً نُسيت تماماً في ١٩٣٥، كطريق كويبا - غوياز، التي كانت تستخدم بكثافة لقوافل تعد كل واحدة منها، من خمسين إلى مائتي بغل، قبل قرن.

وإذا استثنينا المناطق الأكثر نأياً، فإن الإهمال الذي وقعت فيه البرازيل الوسطى في بداية القرن العشرين، لم يكن نتيجة وضع بدائي: بل كان ثمناً لتكثيف الإعمار والمبادلات في المناطق الساحلية، نظراً لظروف الحياة الحديثة التي نشأت فيها؛ بينما كان الداخل يتخلف بسبب صعوبة التقدم فيه، عوضاً عن مواكبة الحركة بوتيرة تتناسب مع ظروفه. وهكذا، قتلت المراكب البخارية، التي قصّرت المسافات عبر العالم، مرافئ للتوقف كانت شهيرة في الماضي؛ ويمكن التساؤل الآن عما إذا لم يؤد الطيران، بدعوته لنا للقفز فوق المراحل السابقة، إلى النتيجة نفسها. وعلى كلٍ،

من المسموح به أن نحلم، بأن ينتزع التقدم الآلي، من نفسه هذه الفدية، التي يستقر أملنا فيها: بإلزامه بإعادة بقية من الوحدة والنسيان، في مقابل الحميمية التي سلبنا إلى حد كبير، التمتع بها.

وكان داخل ولاية ساو باولو والمناطق المجاورة، يوضح هذه التحولات ولكن، على نطاق أضيق. إذ لم يعد هناك من اثر لتلك المدن - القلاع، التي كانوا يضمنون بإنشائها حيازة مساحة محافظة، وكانت اصلاً لكثير من المدن البرازيلية، على الساحل أو الأنهار: كريودوجانيرو، فيكتوريا، فلوريانوبوليس في جزيرتها، وباهيا وفورتاليزا على الرأس، ومانوس وأوبيدوس على ضفة الأمازون، أو فيلا بيلا دوماتو غروسو، التي يكتسح هنود نامبيكوارا خرائبها بانتظام، وظلت باقية قريباً من غابور، التي كانت مقر حامية شهيرة على الحدود البوليفية: أي على الخط نفسه، الذي خطه البابا ألكسندر السادس، رمزياً، العام ١٤٩٣، عبر العالم الجديد، الذي كان ما يزال مجهولاً، للفصل بين جشعي التاجين الإسباني والبرتغالي المتنافسين.

وتلاحظ في الشمال والشرق، بعض المدن المنجمية المهجورة اليوم بصروحها المتداعية -كنائس على طراز الباروك للقرن الثامن عشر- التي تتباين ببهائها مع الخراب المحدق بها. فقد كانت تفور بالحياة ما دامت المناجم مستغلة، وهي الآن في سبات؛ ويبدو أنها تجهد للحفاظ في كل عمود من أعمدتها، وكل واجهة من واجهاتها، على نتف من ذلك الثراء الذي أدى بها إلى الخراب: لأن ثمن استغلال باطن الأرض، كان إتلاف الريف وبخاصة الغابات التي كانت أشجارها وقوداً للمصاهر. وهكذا انطفأت المدن المنجمية، كما الحريق، في أماكنها بعدما استنفدت وقودها.

تستدعي ولاية ساو باولو أيضاً، أحداثاً أخرى: كالصراع الذي كان، منذ القرن السادس عشر، بين الجزويت والغُرّاس، حيث كان كل جانب يدافع عن شكل مختلف من الإعمار. فقد أراد الجزويت، مع إخضاع الهنود، انتزاعهم من حياتهم المتوحشة وتجميعهم تحت إدارتهم، في نوع

من الحياة الجماعية. ويمكن التعرف، في بعض المناطق النائية من البرازيل على هذه القرى الأولى المسماة ألديا أو ميساو، بمخططها الوظيفي الشامل: كنيسة في الوسط، تشرف على ساحة ترابية مستطيلة يغزوها العشب، تحيط بها شوارع تتقاطع بزوايا قائمة؛ تحف بها منازل واطئة، حلت محل أكواخ الأهالي القديمة. أما الغُرّاس، فكانوا يحسدون الإرساليات على سلطتها الدنيوية، التي كانت تكبح تجاوزاتهم وتحرمهم من يد عاملة طيعة؛ ويشنون حملات تأديبية، يتفرق على إثرها رجال الدين والهنود. وهكذا تفسر هذه السمة الفريدة للديمغرافيا البرازيلية، وهي استمرار حياة القرية، وريثة الألديا، في المناطق الأكثر فقراً؛ بينما في الجهات الأخرى، حيث كانت الأرض الخصبة مرغوبة بشدة، لم يكن أمام السكان إلا التجمع حول منزل المالك، في أكواخ متشابهة من القش أو الطين، حيث يمكن له مراقبتهم. وحتى اليوم أيضاً، ونظراً لانعدام تجمعات سكانية، اضطر منشؤو السكك الحديدية، إلى إقامة محطات على مسافات منتظمة، حددت بصورة اعتباطية، على بعض الخطوط، وسموها وفقاً للترتيب الهجائي: بواركينا، فيليسيداد، ليماو، ماريليا (وصلت الشركة في ١٩٣٥ إلى حرف P). ويحدث أن لا يتوقف القطار خلال مئات الكيلومترات إلا في «مفاتيح»، وهي محطات تخدم مزرعة تجمع كل السكان مثل: شاف بانانال، شاف كونسيكاو، شاف إليزا.

لكن الغُرّاس، كانوا في بعض الحالات، يقررون لأسباب دينية، التنازل عن أرض لإرسالية. وهكذا كان ينشأ باتريمونيو (وقف)، وهو تجمّع يوضع تحت حماية قديس. وكان لبعض هذه الأوقاف طابع علماني، عندما يقرر أحد الملاك أن يصير شعبياً. فيسمي مدينته، عندئذ، باسمه: بولوبوليس، أورلانديا؛ أو يضعها، لانتهازية سياسية، تحت رعاية شخصية مشهورة. ذلك أن التجمعات، حتى مع أطوار حياتها القصيرة، كانت تغير من تسمياتها عدة مرات، بحيث تكشف كل مرحلة عن صيرورة هذه التجمعات. إذ تكون في البداية مجرد مكان، يُعرف بلقب ما؛ سواء بسبب زراعة صغيرة وسط الأحراش: كبطاطا، أو نظراً لنقص الوقود اللازم

للطبخ: كفاصولياء نيئة، أم لنقص في المؤن: أرز من دون ملح، وفي يوم ما، يسعى «كولونيل» -وهي رتبة توزع بسخاء على الملاك الكبار، والأعوان السياسيين- لبناء نفوذ له، على بضعة آلاف من الهيكتارات تلقّاها امتيازاً، فيقوم بانتقاء العمال وجلب السكان؛ فتتحول فاصولياء نيئة إلى ليوبولدينا أو فرناندو بوليس؛ وفيما بعد، تأخذ البلدة، التي ولدت من النزوة والطموح، بالهزال وتختفي، ولا يبقى منها إلا اسم بعض الأبنية، حيث يذوي سكان أضنتهم الملاريا، ودود الأنكيلوستومياز. أو تنهض المدينة، وتكتسب وعياً جماعياً، راغبة في نسيان أنها كانت لعبة رجل وأداته: ويشعر سكان حديثو العهد بالهجرة من إيطاليا وألمانيا، وجهات أخرى، بالحاجة إلى جذور؛ فيبحثون في القواميس عن عناصر لاسم محلي من لغة التوبي عموماً، يضفي عليها مهابة الحضارات السابقة لكولومبوس، من مثل: تانابي، فوتو بورانغا، ثوباو، أو إيموري ..

وماتت القرى النهرية؛ قتلتها السكك الحديدية، إلا أن أطلالاً هنا وهناك، تشهد على طور أُجهض: فهنا نُزُل وعنابر على الضفة، تتيح للملاحين قضاء الليل بمنجى من شراك الهنود؛ وهناك، مع الملاحة البخارية، المراسي الصغيرة، حيث تتوقف المراكب النهرية ذات المداخن الدقيقة للتزود بالحطب، كل ثلاثين كيلو متراً تقريباً. وأخيراً، المرافئ النهرية، في طرفي الجزء الصالح للملاحة، ومراكز المناقلة بين مركب وآخر، في مواضع التيارات السريعة والشلالات.

في ١٩٣٥، كان نمطان من المدن يحافظان على مظهر تقليدي، مع بقائهما في الحياة، هما: البوسوس، وهي قرى على مفترق طرق، والبوكادوسيرتاو، أي «ثغور الأحراش» في نهاية الدروب. وقد شرعت الشاحنات، عندئذ، تحل محل وسائل النقل القديمة: كقوافل البغال وعربات الثيران: إذ تستخدم الدروب نفسها، مجبرة على السير بالسرعة الأولى أو الثانية، لمئات من الكيلو مترات، ومضطرة للسير بوتيرة سير الدواب ذاتها، واتّباع المراحل نفسها، حيث يتلاقى سائقوها بملابسهم الملوثة بالزيت، مع المكاريين المحزمين بالجلد.

أما الدروب، فكانت مخيبة للآمال، وهي تختلف في أصولها: فمنها طرق القوافل القديمة، التي استعملت في الماضي لنقل البن، وكحول قصب السكر، والسكر، في اتجاه؛ والملح والبقوليات والدقيق في الاتجاه المعاكس، ويقطع مسيرتها من وقت لآخر، مركز تحصيل وسط الأحراش: عبارة عن حاجز خشبي، تحيط به بعض الأكواخ، حيث تتجسد السلطة في شخص فلاح يرتدي أسمالاً، يطالب برسم المرور. وهناك شبكات سرية: هي الطرق الحرة، وتستهدف تجنب دفع الرسوم؛ وأخيراً طرق البغال، وطرق عربات الثيران. وكثيراً ما يسمع المرء، على هذه الطرق، لساعتين أو ثلاث ساعات متواصلة، أنيناً رتيباً يفتت القلب -إلى حد يفقد فيه أعصابه، إن لم يكن متعوداً عليه- ينجم عن احتكاك محور عربة تقترب ببطء. هذه العربات من طراز قديم، جلبت في القرن السادس عشر من عالم متوسطي، لم تتغير فيه إلا قليلاً منذ العصور القديمة؛ تتألف من صندوق ثقيل ذي أطراف من القصب، مركّب مباشرة على محور يصل بين عجلتين ملآنتين. وتجهد دواب الجر، في التغلب على مقاومة المحور الصارخة للصندوق، أكثر مما تفعل لجر العربة.

وهكذا، كانت الدروب، أثراً عَرَضياً للتمهيد الناجم عن عمل الحيوانات المتكرر، وسير العربات، والشاحنات، التي تتجه تقريباً في الاتجاه ذاته: إلا أن كلاً منها، يسعى إلى شق الطريق الأكثر ملاءمة للظروف، بين الأمطار المفاجئة والانهيارات، أو تنامي النباتات: شبكة معقدة من الأودية والمنحدرات الجرداء، تجتمع أحياناً بعرض مائة متر، كشارع عريض وسط الأحراش، أو تتفرق إلى جميع الجهات، دون أن يدري المرء، أي خيط من خيوط العنكبوت هذه، ينبغي اتباعه، حتى لا يضل وسط الرمال أو المستنقعات، بعدما يقطع، بشق الأنفس، ثلاثين كيلو متراً في عدة ساعات. وقد تتحول الدروب، في فصل الأمطار إلى قنوات موحلة لزجة، غير قابلة للعبور؛ إلا أنه، عندما تنجح أول شاحنة بالمرور، تحفر في الطين أخاديد عميقة، يجعلها الجفاف، في غضون ثلاثة أيام، بقوام الإسمنت وصلابته. وليس أمام الشاحنات الأخرى إلا وضع عجلاتها في

تلك الأخاديد، وترك العنان لها، بشرط أن يكون لها تباعد عجلات وارتفاع جسر الشاحنة التي سبقتها، وإلا ستتعرض في سيرها، لصعوبات قد تؤدي لانقلابها وتحطمها.

وما زلت أذكر رحلة، ضحّى رينيه كورتان من أجلها بسيارته الفورد الجديدة. فقد اتفقنا، أنا وهو وجان موغيه، على الذهاب إلى أبعد ما تستطيع السيارة الوصول إليه. وانتهى بنا هذا، على مسافة ألف وخمسمائة كيلو متر من ساوباولو، إلى كوخ عائلة من هنود كاراجا، على ضفاف الأراغوايا. وأثناء العودة، انكسرت النوابض الأمامية، فسرنا مائة كيلو متر، وجسم المحرك على المحور مباشرة، ثم ستمائة كيلو متر أخرى، وهو مستند على قطعة حديد رقيقة، تلطّف حدّاد إحدى القرى بصنعها. ولكنني أتذكر، إلى وجه الخصوص، ساعات القيادة القلقة، في الليل - لأن القرى نادرة، في أطراف ساوباولو وغوياز - دون أن ندري، في أية لحظة، سيغدر بنا الأخدود الذي اخترناه درباً من بين عشرة غيره. وفجأة، انبثق النُزْل من الظلمة، منقوشاً بنجوم ترتجف، كانت مصابيح كهربائية يغذيها مولد، وكنا نسمع نبضاته أحياناً، منذ ساعات، مختلطة بأصوات الأحراش الليلية. فقدم لنا أسرّته الحديدية أو أراجيح النوم (الهاماك)؛ ومنذ الفجر، أخذنا بالتجوال في البلدة - المحطة، بمنازلها وأسواقها وساحتها المليئة بالتجار، والأطباء، وأطباء الأسنان، وحتى موثقي العقود، المتجولين.

أيام المعرض تمور بالحركة: إذ غادر مئات من الفلاحين المعزولين أكواخهم، للمناسبة، مع عائلاتهم في سفر لعدة أيام سيسمح، مرة في العام، ببيع عجل أو بغل أو جلد تابير أو جلد بوما، وبعض الأكياس من الذرة أو البن، وبشراء قطعة قماش وملح وبترول للمصباح، وخراطيش للبندقية.

وتمتد الهضبة في الخلف، مغطاة بالعواسج، مع بعض الشجيرات المتناثرة. فقد عراها جزئياً، انجراف حديث - يرجع قطع الغابات إلى نصف قرن - كأنما، بضربات حذرة بقدوم(*). وتشير التفاوتات في المستوى، التي تحدق

(*) قدوم: أداة للنجر (المترجم).

ببداية الشرفات، إلى الأودية الوليدة. وغير بعيد عن مجرى مائي عريض، لكنه سطحي، يحف شارعان متوازيان أو ثلاثة بالأسيجة النباتية الزاخرة حول مبان من الطين، مسقوفة بقرميد يبرز بياض الكلس المطلية به، والذي يزداد إشراقاً، بأطر النوافذ البنية، وإشعاع الأرض بلونها الأرجواني.

من المنازل الأولى، التي تشبه أبهاء مسقوفة، نظراً لواجهاتها المخروقة بنوافذ كبيرة، من دون زجاج، تكاد تظل مفتوحة، تبدأ سهوب عشب جاف قضمته المواشي حتى الجذور. وتحسباً للمعرض، قام المنظمون بتهيئةٍ احتياطي من العلف، من سقط قصب السكر وسعف النخيل الطرية المحزومة بالأغصان وأربطة من العشب. ويعسكر الزوار بين هذه الكتل المكعبة مع عرباتهم، وقد ضمنت أطراف القصب الجديدة، والسقف الجلدي المشدود بالحبال لهم أثناء السفر، ملجأ تكمله هنا ظُلّة من سعف النخيل، أو خيمة من القماش الأبيض، تمتد من مؤخرة العربة. فيقومون، في الهواء الطلق، بطبخ الأرز والفاصولياء السوداء واللحم القديد، بينما يتراكض الأطفال العراة بين قوائم الثيران، وهي تجتر القصب، الذي تتدلى سوقه الطرية من أشداقها، كنافورة ماء مخضوضرة.

وبعد أيام، غادر الجميع، وابتلعت الأحراش المسافرين، فعاد النُزّل إلى النوم تحت الشمس؛ وستقتصر الحياة الريفية، لمدة سنة، على اللقاءات الأسبوعية التي تجمع الفرسان المحتجزين طيلة أسبوع، يوم الأحد في أحد المشارب التي أقاموها على مفترق طرق، مع بعض الأكواخ.

منطقة رائدة

13 إن مشاهد من هذا النمط، لا تعد ولا تحصى في البرازيل، ما إن يبتعد المرء عن الساحل نحو الشمال أو الغرب، حيث تمتد الأدغال حتى مستنقعات الباراغواي، أو الغابة الملتفة لروافد الأمازون. إذ تندر القرى، وتتسع المساحات الفاصلة بينها، فهي خالية حيناً، وتسمى كامبوليمبو، أي السهوب «النظيفة»، ومدغّلة، حيناً آخر، وتسمى كامبوسويو، أي سهوب «وسخة» أوكيرادو وكاتينغا، وهما نوعان من الشجيرات.

في اتجاه الجنوب، جهة ولاية بارانا ; نجد أن الابتعاد التدريجي عن المداريات، وارتفاع الأرض، والأصل البركاني لباطن الأرض، مسؤولة لأسباب شتى عن مشاهد أخرى وأشكال أخرى للحياة. ونجد، جنباً إلى جنب، بقايا من السكان الأصليين، مازالوا قريبين من المراكز المتحضرة؛ كما نجد الأشكال الأحدث للاستيطان الداخلي. ولذا، توجهت في أولى رحلاتي، إلى منطقة نورت ـ بارانا هذه.

لم يستغرق السفر سوى أربع وعشرين ساعة، لبلوغ الغابة الصنوبرية العظيمة المعتدلة والرطبة، فيما وراء حدود ولاية ساوباولو التي يدل عليها نهر برانا. هذه الغابة، التي مَنعتْ طويلاً بكتلتها، تغلغل الغُرّاس، إذ بقيت حتى ١٩٣٠، بكراً تقريباً، باستثناء جماعات من الهنود، كانت تتجول فيها، أو بعض الرواد المنعزلين، وهم عموماً فلاحون فقراء، يزرعون الذرة في مستصلحات صغيرة.

عندما وصلت إلى البرازيل، كانت المنطقة في طريقها للانفتاح، بتأثير رئيسي من شركة بريطانية، كانت حصلت من الحكومة على امتياز بمليون ونصف هكتار، في مقابل الالتزام بإنشاء طرق وسكة حديدية. وكان في

نية الإنجليز إعادة بيع الأراضي قطعاً، لمهاجرين قادمين بخاصة من أوروبا الوسطى والشرقية، والاحتفاظ بملكية سكة الحديد، التي سيضمن الانتاج الزراعي نشاطها. وكانت التجربة، في ١٩٣٥، قيد التطبيق: إذ تتقدم السكة الحديدية باضطراد: ٥٠ كيلومتراً في بداية العام ١٩٣٠، و ١٢٥ في نهايته، ٢٠٠ في ١٩٣٢، و ٢٥٠ في ١٩٣٦. وتقام محطة كل ١٥ كيلومتراً، بمحاذاة مستصلحة مساحتها كيلومتر مربع، لإنشاء مدينة عليها. وستعمّر هذه المدينة مع الزمن; فعندما يجتاز المرء خط السكة الحديدية، يبدأ من أوله في لوندرينا، وهي الأقدم وتعد ٣٠٠٠ نسمة، ثم نوفا۔ دانتزيغ بـ ٩٠ شخصاً، ورولانديا بـ ٦٠ شخصاً، والمولودة الأخيرة، أرابونغاس، التي كان فيها العام ١٩٣٥، بيت واحد وساكن واحد: فرنسي الأصل يتأمل في الصحراء، بحذائه العسكري الذي يعود إلى حرب ١٩١٤ - ١٩١٨، وقبعته القش. وباعتبار بيير مونبيغ متخصصاً كبيراً بفئة الرواد هذه، فقد ذكر لي أن أرابونغاس يعمرها ١٠,٠٠٠ ساكن في ١٩٥٠.

عندما يجول المرء في المنطقة على الحصان أو بالشاحنة، على الطرق الحديثة التخطيط، والتي تجاري القمم بأسلوب المسالك الرومانية في بلاد الغول، يستحيل عليه معرفة إذا ما كانت مأهولة. لأن قطع الأرض المستطيلة كانت تستند في جانب إلى الطريق، وفي جانبها الآخر إلى النهير الذي يجري في قاع كل واد. لكن الاستيطان بدأ من الأسفل، قريباً من الماء؛ ويصعد المنحدر بطيئاً، لدرجة أن الطريق ذاته، وهو رمز الحضارة، بقي مطموراً بالغطاء الغابي الكثيف الذي سيستمر لبضعة أشهر أو بضع سنوات، في تغطية قمم التلال. لكن المحصولات، في قيعان الأودية، الشديدة الوفرة في هذه الأرض البنفسجية البكر، تنبت بين جذوع الأشجار الكبيرة المتهاوية وجذورها. بينما تتكفل أمطار الشتاء بتحليلها إلى دبال خصب، لتجرفها في الحال تقريباً على المنحدرات، مع ما كان يغذي الغابة التي اختفت مع جذورها التي كانت تمسك به. ترى هل ننتظر عشر سنين أو عشرين أو ثلاثين، قبل أن تتخذ أرض

كنعان هذه شكل منظر قاحل ومدمر؟

أما في هذه الآونة، فكان المهاجرون في غاية الابتهاج من وفرة المحصول، وكانت عائلات بوميرانية وأوكرانية - لم يكفها الوقت بعد لابتناء بيت، وتتقاسم مع حيواناتها، ملجأ من ألواح الخشب على ضفة الساقية - تتغنى بهذه الخصوبة العجيبة، التي كان عليهم، في البداية أن يحدوا من سورتها، حتى تثمر نبتات الذرة والقطن، عوضاً عن ضياعها في نمو دون ضابط. وكان أحد المزارعين الألمان يبكي فرحاً، وهو يرينا غيضة من أشجار الليمون، نبتت من بعض البذور. لأن رجال الشمال هؤلاء، لم يكونوا مبهوتين من الخصوبة فقط، بل من غرابة الزراعات التي لم يعرفوها إلا عبر حكايات الجنيات وحسب. وبما أن هذه الربوع، على حدود المناطق المدارية والمعتدلة، فإن بضعة أمتار من اختلاف المستوى، تَعْدل اختلافات مناخية ملموسة: إذ كان ممكناً زراعة أي شيء جنباً إلى جنب: كنباتات الموطن الأصلي، وتلك الأمريكية، بحيث كانوا، وهم منبهرون بالتنوع النباتي، يزرعون القمح مع قصب السكر، والكتان مع البن..

وكان سكان البلدات الفتية جميعاً من شمال أوروبا: إذ انضمت الهجرة الجديدة إلى القديمة، من الألمان والبولونيين والروس، وبدرجة أقل، الإيطاليين الذين كانوا، منذ مائة سنة تقريباً، تجمعوا في جنوب الولاية حول كوريتيبا. وتُذكّر البيوت المبنية بالألواح الخشبية، أو بجذوع الأشجار، بأوروبا الوسطى والشرقية. وكانت عربات طويلة بأربع عجلات ذات برمق، مشدودة إلى جياد، تحل محل عربات الثيران الإيبيرية. وهنا أيضاً، كانت الخطوط الكبرى لمستقبل يتجسد بوتيرة متسارعة، تستأثر بالاهتمام، أكثر مما سيتبقى من هذا المستقبل، ولم يكن في الحسبان. وأخذ المكان يكتسب، يوماً بعد يوم، بنية حضرية، ويتمايز كمضغة تتقسم إلى خلايا، تتخصص بدورها، إلى مجموعات تتميز كل منها بوظيفتها. فها هي لوندرينا مدينة منظمة بالشارع العريض ومركز الأعمال وحي الحرفيين، وحيها السكني. ولكن أي مبدعين فعلوا فعلهم، في الأرض

الفضاء، التي ترددت إليها رولانديا، وبخاصة أرابونغاس، حيث دفعوا بعض فئات السكان إلى اتجاه، وبعضهم إلى اتجاه آخر: قاصرين كل منطقة على وظيفة، وفارضين عليها اختصاصاً معيناً؟ ففي هذه المربعات الواقعة في قلب الغابة، والمفرغة بصورة اعتباطية، نجد الشوارع المستقيمة متشابهة في البداية: كخطوط هندسية من دون أية سمة خاصة. ومع ذلك، بعضها في الوسط، والأخرى في الأطراف: وبعضها متوازية مع الخط الحديدي أو مع الطريق، والأخرى متعامدة معهما؛ فالأولى تتوافق مع اتجاه السير أما الثانية فتقطعه وتعلقه. وهكذا تختار التجارة والأعمال الشوارع الأولى لكثرة الزبائن فيها، بينما المساكن الخاصة وبعض المصالح العمومية تفضل، للسبب المعاكس، الشوارع الثانية، أو تُنبَذُ إليها. وهاتان المقابلتان، بين الوسط والأطراف من جهة، والتوازي والتعامد من جهة أخرى، تحدد بتوافيقها أربعة أنماط مختلفة من الحياة الحضرية، ستكيف السكان في المستقبل؛ إذ تُميّز البعض، وتثبط همم البعض الآخر، مولدة النجاح أو الفشل. وليس هذا كل شيء، لأن السكان نمطان: المحبون للجماعة، الذين يرغبون في منطقة بقدر ما تكون متقدمة عمرانياً، ومحبو العزلة، الساعون للحرية: وبهذا يضاف بعد جديد سيعقّد الأول.

وأخيراً، ينبغي أن نذكر عوامل خفية، تفعل فعلها في الكثير من المدن، إذ تطردها نحو الغرب، بينما تحكم على أحيائها الشرقية بالبؤس والتدهور. وهو تعبير بسيط ربما، عن هذا الإيقاع الكوني، الذي ملأ البشرية، منذ أصولها الأولى، بالاعتقاد اللاشعوري بأن الاتجاه بحركة الشمس إيجابي، والاتجاه المعاكس سلبي، وأن الأول ينم عن النظام والآخر عن الفوضى. لم نعد، منذ وقت طويل، نعبد الشمس أو ننسب للجهات الأصلية خصائص سحرية من ألوان وفضائل. لكن عقلنا الإقليدي(*)، مع تمرده على التصور الكيفي للمكان، لا يستطيع تجاهل تخصيص الظواهر الفلكية وحتى المناخية الكبرى للمناطق، بمُعامِلٍ لا مرئي لكنه لا يزول. وأن جهة الشرق - غرب هي جهة الإنجاز: وأن الشمال هو

(*) نسبة إلى إقليدس. (المترجم).

مستقر البرد والليل، والجنوب مستقر الحرارة والضوء، بالنسبة لساكن المناطق المعتدلة في نصف الكرة الشمالي. ولا شيء من هذا يتبدى في السلوك المعقول لكل فرد؛ لكن الحياة الحضرية تقدم تبايناً غريباً. إذ على الرغم من أنها تمثل الشكل الأكثر تعقيداً وكمالاً للحضارة; إلا أنها بالكثافة البشرية الاستثنائية التي تحققها على مساحة صغيرة، وبديمومة دورتها، تلقي في بوتقتها بمواقف لا شعورية، كل منها متناه في الصغر، ولكنها قادرة على توليد آثار كبيرة، نظراً لعدد الأفراد الذين يبدونها، بالطريقة نفسها. كنمو المدن من الشرق إلى الغرب، واستقطاب الفخامة والبؤس طبقاً لهذا المحور، وهو أمر غير مفهوم إذا لم نعترف للمدن بهذا الامتياز - أو العبء - وهو قيامها، مثلما يفعل المجهر، بفضل تكبيرها للأشياء، بإظهار تزاحم خرافاتنا الموروثة والحية دائماً على شريحة الشعور الجمعي.

لكن، هل يتعلق الأمر بخرافات؟ إنني أرى في تلك الاعتقادات سمة لحكمة، مارستها الشعوب المتوحشة بصفة عفوية، وما التمرد العصري عليها إلا جنون مطبق. لقد أحسنت هذه الشعوب اكتساب انسجامها العقلي بأقل كلفة. فكم كنا وفرنا على أنفسنا من متاعب وتهيجات لا طائل من ورائها، لو قبلنا الاعتراف بالشروط الحقيقية لتجربتنا الإنسانية، وأن ليس في طاقتنا الانعتاق التام من أطرها وإيقاعها؟ إن للمكان قيمه الخاصة به، مثلما للأصوات والروائح ألوانها، وللعواطف وزنها. وهذا السعي إلى العلاقات، ليس لعبة شاعر أو لغرض أدبي، بل يعرض على العالِم الميدان الأكثر جدة، والذي سيكسبه تحريه إياه اكتشافات وافرة. فلو ميزت الأسماك في الروائح، كما يفعل محب الجمال، بين فاتحة وداكنة; ولو صنفت النحل شدة الضوء بتعبيرات الوزن - باعتبار أن الظلام ثقيل لديها والضياء خفيف - فإن على أعمال الرسام والشاعر والموسيقي، وعلى أساطير ورموز المتوحشين، إن لم تظهر لنا كشكل عالٍ من المعرفة، فعلى الأقل، هي الأكثر عمقاً والوحيدة المشتركة حقاً، التي لا يشكل الفكر العلمي منها إلا رأس الحربة الأكثر نفاذاً، لأنه شُحذ على

مسن الوقائع، ولكن نظير ضياع جوهره. وتقوم فاعليته على قدرته في الاختراق بعمق، حتى تتبع كتلة الأداة كلها الرأس.

وبوسع عالم الاجتماع أن يقدم العون، لوضع تصميم لإنسانوية شاملة ومحسوسة. فمظاهر الحياة الاجتماعية تشترك مع العمل الفني في أنها تولد على مستوى الحياة اللاشعورية، لأنها جماعية في الحالة الأولى; وعلى الرغم من كونها فردية في الحالة الثانية، إلا أن الاختلاف يظل ثانوياً، بل حتى ظاهرياً فقط، لأن مظاهر الحياة الاجتماعية ينتجها الجمهور، والأعمال الفنية تُنتَج للجمهور، وهذا الجمهور يقدم لهما كليهما قاسمهما المشترك، ويحدد شروط وجودهما.

وإذاً، فليس بصورة مجازية، يحق لنا موازنة مدينة بسمفونية، أو بقصيدة; فهي موضوعات من طبيعة واحدة. بل إن المدينة، وهي أكثر نفاسة أيضاً، تقع عند التقاء الطبيعة بالصنع. وهي تجمع حيوانات يحبسون تاريخهم البيولوجي في حدودها، ويشكلونها في الوقت نفسه، بكل مقاصدهم ككائنات مفكرة; فالمدينة من حيث تكونها وشكلها منوطة، في آن، بالتوالد البيولوجي، والتطور العضوي، والإبداع الجمالي. وهي في الوقت ذاته موضوعٌ طبيعي، وذاتٌ ثقافية; فرد وجماعة، واقع معيش وحلم: إنها الشيء الإنساني بامتياز.

في هذه المدن التركيبية للبرازيل الجنوبية، كانت الإرادة الخفية والعنيدة، التي تتجلى في بناء المنازل، وتخصص الشوارع، وطراز الأحياء الوليد، تظهر ذات مغزى، بقدر ما تتعارض مع النزوة التي أدت إلى إنشاء المدينة. فلوندرينا، نوفا - دانتزيغ، رولانديا وأرابونغاس - التي أنشئت من فريق مهندسين ومتمولين - كانت تدخل بهدوء في التنوع المحسوس لنظام حقيقي. كما فعلت كوريتيبا، منذ قرن، وكما تفعل اليوم ربما غويانيا.

ظهرت كوريتيبا، عاصمة ولاية بارانا، على الخريطة، في اليوم الذي قررت الحكومة إنشاء مدينة: إذ تم تقسيم الأرض، التي حُصل عليها من أحدالملاك، وبيعها قِطَعاً رخيصة بما فيه الكفاية لخلق تدفق للسكان.

وطُبّق النظام نفسه، من بعد، لإحداث عاصمة لولاية ميناس. أما مع غويانيا، فكانت المجازفة أكبر. لأن الهدف في البداية كان صنع عاصمة فيديرالية للبرازيل، انطلاقاً من العدم.

في نحو ثلث المسافة التي تفصل بخط مستقيم، الساحل الجنوبي عن مجرى الأمازون، تمتد هضاب واسعة، نسيها الإنسان منذ قرنين. فقد كان ممكناً اجتيازها، زمن القوافل والملاحة النهرية، ببعضة أسابيع، للصعود من المناجم باتجاه الشمال، لبلوغ ضفاف الآراغوايا، حيث تؤخذ القوارب نزولاً إلى بيليم؛ والشاهد الوحيد الباقي على هذه الحياة الريفية القديمة، هو العاصمة الصغيرة لولاية غوياز، والتي تحمل اسمها، وتنام على بعد ألف كيلومتر من الساحل الذي كانت مقطوعة عنه عملياً في موقع مخضر، تغلب عليه أشجار النخيل، وشوارع بمنازلها الواطئة تنحدر من التلال، بين الحدائق والساحات؛ حيث ترعى جياد أمام الكنائس ذات النوافذ المزخرفة، التي تشبه مخزناً في نصفها، ومنزلاً ببرج جرس في نصفها الآخر؛ وصفوف من الأعمدة، والرخام الزائف، وواجهات الأبنية، مرشوقة بطلاء رغوي كبياض البيض، مصبوغ بلون القشدة أو الأرجواني أو الأزرق أو الوردي، ويذكّر كل ذلك بالطراز الباروكي للمَشاهد الريفية الإيبيرية. ونهر يجري بين رصيفين طحلبيين، ينهاران أحياناً، تحت ثقل المتسلقات وأشجار الموز والنخيل التي اجتاحت المساكن المهجورة؛ لكن، لا يبدو أن هذه النباتات الناضرة تطبع المنازل بعلامات الهرم، بقدر ما تضيف وقاراً صامتاً لواجهاتها المتداعية.

لا أدري إن كان من الواجب الرثاء للعبث أو الابتهاج له: فقد قررت الإدارة نسيان غوياز وريفها وملاعب خيلها وظرفها العتيق. لأن كل هذا جد صغير، وجد قديم. ولا بد من أرض خاوية لتأسيس المشروع الهائل، الذي كان يُحلم به. ووجدت الأرض على مسافة مائة كيلومتر إلى الشرق، في شكل هضبة يغطيها عشب جاف وأدغال شوكية، وكأنها أصيبت بوباء عدو لكل نبات ومبيد له. ولا سكة حديدية أو طريق لبلوغها سوى دروبٍ تصلح للعربات. وخُطّ على الخريطة مربع رمزي، بمائة كيلومتر

لكل ضلع، يتناسب مع هذه الأراضي، يمثل مقر المقاطعة الفيديرالية التي ستنشأ في مركزها العاصمة الجديدة. وبما أنه لم يجر أي حادث طبيعي يعكر صفو المهندسين، فقد استطاعوا العمل في المكان، كأنهم يعملون على طاولات الرسم. وتم وضع مخطط المدينة على الأرض، وحدد نطاقها ؛ كما حددت في داخلها مختلف المناطق: السكنية والإدارية والتجارية والصناعية، وتلك المخصصة للتسلية. وهذه المنطقة واسعة دائماً في مدينة رائدة. أفلم يأت زمن في ١٩٢٥، كانت ماريليا، وقد ولدت من مشروع مماثل، تحتوي من ضمن ستائة منزل بنيت، ما يقرب من مائة للدعارة، مخصصة أغلبها للفرنسيات، اللواتي كن يشكلن مع الراهبات في القرن التاسع عشر، الجناحين الطليعيين لنفوذنا في الخارج. وكانت وزارة الخارجية تعرف ذلك جيداً، إذ كانت تخصص حتى ١٩٣٩، جزءاً من اعتماداتها السرية لنشر المجلات المسماة بالخفيفة. ولن يكذبني بعض زملائي القدامى إذا ذكرت أن تأسيس جامعة ريوغراند دوسول، وهي الولاية الواقعة في أقصى جنوب البرازيل، والهيمنة التي أعطيت فيها للفرنسيين، يرجع الفضل فيهما إلى الولع بأدبنا وبحرّيتنا، الذي رسخته آنسة لعوب بباريس في شاب، سيصبح فيما بعد ديكتاتوراً.

وامتلأت الجرائد، بين يوم وليلة، بإعلانات على صفحات كاملة، تعلن عن تأسيس مدينة غويانيا ؛ وتُعدّد، حول مخطط مفصل للمدينة وكأن عمرها مائة عام، المزايا التي يوعد بها السكان: كالطرق والسكة الحديدية والمياه والمجاري ودور السينما. وإذا لم يجانبني الصواب، فقد مرت فترة في البداية، ١٩٣٥ - ١٩٣٦، كانت الأرض تقدم فيها لمن يقبلون مجرد دفع تكاليف عقد الملكية. لأن موثقي العقود والمضاربين، كانوا من أول السكان.

وقد زرت غويانيا في ١٩٣٧ فإذا بها سهل لا نهاية له، وسط بين أرض فضاء وساحة معركة، تتناثر فيها أعمدة الكهرباء وأوتاد مسح الأراضي، وبينها مائة من المنازل الجديدة المتفرقة في كل جهة. كان أهمها الفندق، وهو متوازي المستطيلات من الإسمنت، يذكّر في هذا الفراغ، بمحطة

ركاب في مطار أو بقلعة صغيرة، فكان من الممكن تطبيق مصطلح «معقل الحضارة» عليه، ليس بالمعنى المجازي، بل الحرفي، إذ يأخذ بهذا الاستعمال قيمة تهكمية فريدة. ذلك أنه لا شيء يمكن أن يكون بمثل هذه الوحشية، والبعد عن الإنسانية كهذا الاستيلاء على الصحراء. فكان هذا المبنى القبيح، على عكس غوياز، لا تاريخ له ولا ديمومة. ولا عادات ملأت الفراغ أو لطّفت من الجمود، حيث يشعر المرء كأنه في محطة أو في مشفى، عابراً دائماً غير مقيم. وما من شيء يمكن أن يسوّغ بناء هذا الحصن، سوى الخشية من كارثة طبيعية. وقد حدثت واحدة بالفعل، يطيل السكون والجمود السائدين من أمد تهديدها. إذ بذر قدموس(*)، ناشر الحضارة، أسنان التنين. ومتوقع، على أرض سُلخت وأحرقت بأنفاس الوحش، رؤية الرجال ينبتون.

(*) قدموس: ملك فينيقي تنسب له الأساطير، تأسيس مدينة طيبة اليونانية، وإليه تنسب منطقة القدموس على الساحل السوري. (المترجم)

البساط السحري

14 تلتقي ذكرى الفندق الكبير في غويانيا، اليوم في ذاكرتي، مع ذكريات أخرى تشهد، بين قطبي الرفاهية والبؤس، على عبثية العلاقات التي يقبل الإنسان إقامتها مع العالم، أو بالأحرى، المفروضة عليه أكثر فأكثر. فقد وجدت فندق غويانيا ثانية، وقد اتسع بما لا يقاس، في مدينة أخرى ليست أقل اعتباطية; لأن الحسابات السياسية، والانتزاع المنظم للسكان، جعل عدد سكان كراتشي الثلاثمائة ألف في ١٩٥٠، يزداد خلال ثلاث سنوات إلى ١,٢٠٠,٠٠٠ نسمة، وفي قلب الصحراء أيضاً: في أقصى شرق هذه السهول الجافة، الممتدة من مصر إلى الهند، التي تُجرد مساحات شاسعة من كرتنا الأرضية من بشرتها الحية.

كانت قرية للصيادين في الأصل، ثم مرفأ صغيراً ومدينة تجارية إبان الاستعمار البريطاني، ووجدت كراتشي نفسها في ١٩٤٧، وقد ارتقت إلى مقام العاصمة. في جادات طويلة، تحف بها ثكنات جماعية أو فردية - هذه الأخيرة، مساكن خاصة للموظفين والضباط - ينعزل كل منها عن الآخر بسياج نباتي مغبر، كانت تنام جماعات من اللاجئين في مهب الريح، وتعيش حياة بائسة على الرصيف; بينما ينهمك أصحاب الملايين في تشييد قصور بابلية لرجال الأعمال الغربيين. فطوال أشهر، من الفجر حتى المساء، تتلاحق صفوف من الرجال والنساء بأسمالهم، يحمل كل منهم قفة من البيتون، يفرغها في القوالب الخشبية، ومن دون توقف، يعود ليملأها من الجبالات للقيام بشوط جديد. وما إن ينتهي جناح، حتى يسلم للزبائن، لأن تكلفة غرفة مع الطعام في الليلة، تعادل أكثر من أجرة عامل في شهر; وهكذا تُسترد تكلفة بناء فندق فخم، خلال تسعة

شهور. فكان من الواجب الإسراع، إذاً ولم يكن رؤساء العمال يهتمون بأن تلتحم كتل البناء تماماً. لم يتغير شيء من دون شك، منذ كان الطغاة يُكرِهون العبيد على صب الطين وتكديس الآجر، لتأسيس قصور متزعزعة، تزينها الأفاريز، وتمر أمامها صفوف حاملات القفف، ويمكن أن تستعمل أنموذجاً يحتذى.

على الرغم من بعد كراتشي عن الحياة المحلية (فهي مخلوق اصطناعي للاستعمار في هذه الصحراء) بعدة كيلومترات، لا يمكن اجتيازها نظراً للرياح الموسمية (الموسون) الرطبة، وأكثر من ذلك للخوف من الزحار، إلا أن زبائن من التجار والصناعيين والدبلوماسيين، كانوا يعانون من السأم في هذه البراميل الإسمنتية العارية، التي كانت غرفاً لهم. وكأن هاجساً آخر، أكثر من هاجس الاقتصاد، هو الذي هيمن على تخطيطها، وهو إمكان تعقيمها، كلما تغيرت العينة الإنسانية التي سكنتها لأسابيع أو أشهر. وتجتاز ذاكرتي ثلاثة آلاف كيلومتر، لتقرّب من هذه الصورة، صورة أخرى، التقطت في معبد الإلهة كالي، أكثر مزارات كلكوتا قدماً وقدسية. فهنا، بجوار بركة ماء آسن، في جو بلاط العجائب والاستغلال التجاري المرير هذا، حيث تجري الحياة الدينية الشعبية للهند؛ وبالقرب من أسواق تعج بالصور الدينية الملونة، وتماثيل الآلهة الجبسية المطلية، ينتصب النزل العصري، الذي بناه المشرفون على العبادة، لإسكان الحجاج: هو الرست هاوس؛ بهو طويل من الإسمنت مقسوم إلى جناحين، واحد للرجال وآخر للنساء، وعلى طولهما مصاطب من الإسمنت العاري تُستخَدم أسرة، وقد عرضوا لي بإعجاب صنابير المياه، ومجاري التصريف: فما إن تستيقظ شحنة بشرية، وترسل للسجود راجية الشفاء من قرحها ونزها وجروحها، حتى يُغسَل كل شيء بماء غزير، وتضحي المصاطب جاهزة لاستقبال دفعات جديدة. لا ريب أنه لم يُخلط قط إلى هذا الحد، بين لحم الجزار والبشر، إلا في المحتشدات.

ومع ذلك، لم يكن هذا النزل إلا مكاناً للعبور. ولكن غير بعيد عنه، في نارايانغانج، يعمل عمال الخيش في شبكة عنكبوت عملاقة من خيوط

مبيضة تتدلى من الجدران، وتخفق في الهواء؛ ويخرجون منها إلى ما يشبه الاصطبلات، مبنية بالآجر دون ضوء ولا أرضية، حيث يعيش ستة أو ثمانية أشخاص، مصفوفة على جوانب أزقة تخترقها مجارٍ مكشوفة، يرسل إليها الماء ثلاث مرات في اليوم لإفراغ القاذورات. ويميل التقدم الاجتماعي إلى أن يستبدل بهذا النظام، نظام حي العمال، وهو سجن يتقاسم فيه كل عاملين أو ثلاثة زنزانة مساحتها ثلاثة أمتار في أربعة، وتحيط به جدران، وحراس مسلحون على الأبواب؛ ومطبخ وقاعة طعام مشتركان: هما عبارة عن غرف من الإسمنت العاري، يمكن غسلها بمياه غزيرة، حيث يشعل كل واحد ناره، ويأكل على الأرض جالساً القرفصاء، في الظلام.

عندما عينت في منصبي الأول أستاذاً، في منطقة اللاند، أروني يوماً فناء الدواجن المهيأ خصيصاً لتزقيم الإوز، حيث كانت كل إِوزَّة وهي محبوسة في قن ضيق، مجرد جهاز هضمي. والشيء نفسه هنا، مع هذا الفرق المزدوج: فعوضاً عن الإوز، كنت أرى رجالاً ونساءً، وعوضاً عن تسمينهم، كان الاهتمام منصباً على تنحيفهم. لكن المربي في الحالتين كان لا يعترف لنزلائه إلا بنشاط مرغوب فيه هناك، ولا يمكن تجنبه هنا: إذ لا تصلح هذه الزنازين المعتمة، لا للراحة أو التسلية أو الحب. وباعتبار هؤلاء العمال مجرد صلة وصل مع المجاري العمومية، فإنهم يخضعون لمفهوم للحياة الإنسانية، يقصرهم على ممارسة الإفراز وحسب.

يا للشرق المسكين! لقد زرت في دكا الغامضة منازل بورجوازية: بعضها فخم، كانت تشبه حانوت عاديات نيويوركي في الشارع الثالث: وبعضها ميسور الحال، مؤثثة بطاولات من الخيزران، وعليها أغطية ذات أهداب، وأوانٍ خزفية، كمنزل للمتقاعدين في بوا - كولومب. كما زرت بعض المنازل من الطَراز القديم، شبيهة بأكواخنا الأكثر فقراً، بموقد من الطين في صدر فناء موحل؛ وبعض الشقق ذات الثلاث غرف، للأسر الصغيرة الميسورة، وفي بنايات لا يمكن تمييزها عما تبنيه، اقتصادياً، مصالح إعادة البناء لدينا؛ إلا أن الغرف في دكا كانت من الإسمنت العاري، وكذا

الحمامات أيضاً، أما الأثاث فأقل مما في غرفة فتاة صغيرة لدينا. كنت جالساً القرفصاء على الأرض الاسمنتية، بينما يضيء مصباح كهربائي ضعيف، معلق بسلكه من السقف، أيتها الألف ليلة وليلة; لقد تناولت الطعام بأصابعي، وكان عشاء حافلاً بالأطايب الموروثة: بداية، الخيشوري وهو أرز مع عدس دقيق، تُرى منه في الأسواق أكياس مملوءة بأنواع مختلفة الألوان. ثم النيمكورما، أي يخنة الدجاج، ثم الشينغري كاري، وهو طبق بالقريدس الكبير، أو بالبيض المسلوق مصحوب بمرق الخيار، وأخيراً، التحلية، وكانت الفيرني، أي الرز بالحليب.

كنت ضيفاً على أستاذ شاب، وكان هناك ابن حميه، الذي يشرف على المأدبة وخادمة وطفل رضيع، وأخيراً زوجته المتحررة من البُردة: الصامتة كغزالة نافرة، بينما كان زوجها، حتى يؤكد تحررها الحديث العهد، يمطرها بالتعليقات الساخرة التي كانت تؤلمني بقدر ما تؤلمها، حتى أنه أجبرها على إخراج ملابسها الداخلية، باعتباري اثنوغرافياً، حتى أستعرضها. ولم يبق عليه إلا تعريتها، لفرط تلهفه على إعطاء ضمانات على تحرره، لهذا الغرب الذي يجهله.

وهكذا، كنت أعاين ما ستكون عليه آسيا الأحياء العمالية والمجمعات السكنية المعتدلة الكراء (M.L.H)، في الغد; وهي تنزع عنها كل أصالة، وتنضم بعد أفول لخمسة آلاف سنة، إلى طراز الحياة العصرية الناجع، الذي ربما اخترعته في الألفية الثالثة، لينتقل على سطح الأرض، متوقفاً بصورة مؤقتة، بالعالم الجديد في العصر الحديث إلى حد أننا طابقناه مع أمريكا، لكنه وقد تابع سيره إلى الغرب منذ ١٨٥٠، بلغ اليابان، ليصل اليوم إلى مكان أصوله، بعد ما أتم دورته حول العالم.

في وادي الهندوس، تسكعت بين هذه الآثار المتجهمة، التي أبقتها القرون والرمال والفيضانات والنترات والغارات الآرية، من أقدم ثقافات الشرق: موهينجو - دارو، هارابا، شظايا متصلبة من الآجر والخزف. وكم هو محير، منظر هذه البيوت العمالية! شوارع خططت بخيط القياس، تتقاطع بزوايا قائمة; وأحياء عمالية بمساكن متماثلة، وورشات صناعية

لطحن الحبوب، وصهر وشغل المعادن، وصناعة هذه الأقداح الفخارية، التي يتناثر حطامها على الأرض، ومخازن بلدية للحبوب تشغل عدة محالّ، وحمامات عمومية، وقنوات للمياه والمجاري، وأحياء سكنية مريحة ولكن من دون ظُرف. لا صروح، ولا منحوتات عظيمة، بل تحف خفيفة، وحلي ثمينة مطروحة على عمق عشرة أمتار أو عشرين، إشارة إلى فن دون أسرار، ولا قانون عميق، يستهدف إرضاء غرور الأثرياء وشهوانيتهم. تذكر هذه المجموعة السكنية الكبرى الزائر، بأبهة وعيوب المدينة العصرية الكبيرة، وتستبق الأشكال الأكثر تطوراً للحضارة الغربية، التي تقدم الولايات المتحدة الأمريكية أنموذجها لأوروبا نفسها هذه الأيام.

في نهاية أربعة آلاف أو خمسة آلاف عام من التاريخ، يحلو للمرء تخيل أن دورة قد اكتملت، وأن الحضارة العمرانية الصناعية البورجوازية، التي افتتحتها مدن الهندوس، لم تكن جد مختلفة في استلهامها العميق، عن تلك التي قدر لها بعد طول ارتباك في الظلمة الأوروبية، أن تبلغ كمالها في الضفة الأخرى من الأطلسي. إذ عندما كان العالم القديم فتياً، كان يرسم الخطوط الكبرى للعالم الجديد.

ولذا يخامرني الشك في التعارضات السطحية والطرافة الظاهرة؛ فهما لا يصمدان أمام التحري طويلاً. وما نسميه غرابة، إنما يعبّر عن تفاوت في الإيقاع، ذي أهمية إبان بضعة قرون، حجب مؤقتاً مصيراً، كان يمكن له أن يظل متضامناً، كما تصوره الاسكندر والملوك الإغريق على ضفاف الجومنا، والحملات البحرية الرومانية على السواحل الفيتنامية، وبلاطات ملوك المغول التي كانت تجمع كل الأجناس. فما إن تعبر الطائرة البحر المتوسط، وتقرب من مصر، حتى تُدهَش العين، بداية، من هذه السمفونية الوقور، المؤلفة من الأخضر الداكن لواحات النخيل، والأخضر المائي، والرمال ذات اللون الترابي، والطمي البنفسجي، وتندهش أكثر من المشهد، حين تحلق الطائرة فوق القرى بمعالمها غير المحدودة، التي تعرض فوضى معقدة من البيوت والأزقة التي تشهد على الشرق. أليس هنا ما يضاد العالم الجديد، سواء كان إسبانياً أم

أنجلوساكسونياً، الذي يؤكد تفضيله للمخططات الهندسية، في القرن السادس عشر أو القرن العشرين؟

أما التحليق فوق الجزيرة العربية بعد مصر، فيعرض سلسلة من التنويعات على نغم واحد، هو الصحراء. في البداية، صخور شبيهة بقصور مهدمة من الآجر الأحمر، ترتفع فوق الرمال اللبنية اللون، وفي جهة أخرى، نقوش متشابكة بشكل أشجار أفقية - أو بالأصح طحالب أو بلورات - خطها جريان أودية متنافرة، لأنها عوضاً عن ضم مياهها، تفرقها في تشعبات دقيقة. وعلى مسافة أبعد، تبدو الأرض وكأن حيواناً خرافياً وطِئها، منهكاً نفسه بضربات غاضبة من عقبه ليستخرج عصارتها.

ما أعذب ألوان هذه الرمال! وكأنها صحراء من لحم: بشرة من الدراق، والصدف، والسمك النيء. ففي العقبة، يعكس الماء على الرغم من نِعمه، لوناً أزرق قاسياً، بينما تذوب الكتل الصخرية القاحلة في ألوان براقة.

تختفي الرمال بعد الظهيرة في الضباب، الذي هو نفسه رمل سماوي، تحالف مع الأرض ضد زرقة السماء المخضرة الشفافة. وتفقد الصحراء انحناءاتها وتضاريسها، وتختلط مع المساء: كتلة وردية عظيمة متماثلة، لا تكاد تكون أكثف من السماء إلا قليلاً. وصارت الصحراء خلاءً بالنسبة للمشاهد. ويكتسح الضباب كل شيء، شيئاً فشيئاً، وليس إلا الليل.

بعد التوقف في كراتشي، طلع النهار على صحراء تار، كمشهد قمري، مبهم. وتظهر مجموعات صغيرة من الحقول، منعزلة وسط صحراء مترامية الأطراف. ومع الضياء تلتحم المزروعات لتعرض سطحاً مستمراً، بألوان وردية وخضراء، كالألوان الرشيقة الباهتة لسجادة قديمة، تطرق إليها البلى من طول الاستعمال، وما فتئت ترتق؛ إنها الهند.

إن الرقع الأرضية غير منتظمة، لكنها غير فوضوية أبداً، لا في الشكل أو اللون. ومهما كانت الطريقة التي نجمعها بها، فإنها تؤلف كلاً متوازناً، وكأنها خططت بتأن منذ إنشائها: وكأنها أحلام جغرافية، نوعاً ما، للرسام كلي. وكل هذا بندرة، وتكلف واعتباطية، على الرغم من تكرار الثلاثية التي تشرك القرية، والحقول الشبكية الشكل، والأشكال التي تحيط

ببركة ماء.

ويعطي التوقف في دلهي، على ارتفاع منخفض، لمحة وجيزة عن هند الحكايات: معابد مهدمة في أدغال شديدة الخضرة. ومن ثم، تبدأ الفيضانات. إذ تبدو المياه شديدة الركود والكثافة، ومشبعة بالطمي إلى حد كبير، تذكّر معه بزيت تطفو آثاره على المياه، أكثر مما تنبئ بوجود ماء، هو التربة نفسها. ونحلق فوق بيهار بتلالها الصخرية وغاباتها؛ وها هي، من بعد، بداية الدلتا: حيث تزرع الأرض حتى آخر بوصة، ويبدو كل حقل كحلية من ذهب أخضر، تلتمع تحت المياه التي تغمرها، محاطاً بسياجه المنتظم الداكن. ليس ثمة زاوية قائمة، وكل الأضلاع تدور، متداخلة الواحد في الآخر، كخلايا نسيج حي. وتتزايد القرى بقربنا من كلكوتا: أكواخاً من الطين والقش، مكدسة كبيض النمل، في خلايا من الخضرة، التي يزيدها بروزاً، وجود القرميد الأحمر لبعض الأسقف. وحينما حطت بنا الطائرة، اكتشفنا أن الأمطار تهطل كأفواه القرب.

نجتاز بعد كلكوتا، دلتا نهر براهما بوترا: وياله من نهر متوحش، يبدو كحيوان مفترس، بكتلته المتلاطمة. والريف من حوله طمسته المياه على مد البصر، فيما عدا حقول القنب، التي تشكل من الطائرة، مربعات من الطحالب، إلى حد إغاظة الخضرة نفسها. بينما كانت القرى المحاطة بالأشجار، تطفو على الماء مثل باقات، وحولها الزوارق تذهب وتجيء.

إن الهند، كأرض للإنسان، ومن خلال وضعها بين هذه الرمال من دون ناس، وهذه الإنسانية من دون أرض، تبدي وجهاً يثير الالتباس. والفكرة التي أستطيع تكوينها عنها، أثناء الساعات الثماني، التي استغرقتها المسافة من كراتشي إلى كلكوتا، تنزعها نهائياً من العالم الجديد. فهي ليست تلك المربعات الصارمة، للغرب الأوسط أو لكندا، التي تتشكل من وحدات متطابقة تحمل كل منها على أحد أطرافها، وفي الموضع نفسه، ما تنتجه من الحبوب بالضبط؛ ولا هي ذلك السقف المخملي للغابة المدارية، الذي لما تكد المناطق الرائدة، تشرع في قضمه بتقويرات جريئة، هنا وهناك. إذ إن مشهد هذه الأرض، المقطعة رقعاً صغيرة، والمزروعة

حتى آخر شبر، يوحي للأوربي بداية، شعوراً بالألفة. غير أن هذه الألوان الممتزجة، وحدود حقول الأرز غير المنتظمة، التي يعاد تحديدها دون انقطاع، وهذه الأطراف غير الواضحة وكأنها مرقعة، وإن كانت من السجاد نفسه، لكنها من سجاد - لو وازناه مع أشكال وألوان الريف الأوروبي الأفضل تحديداً - يعطي الانطباع للمرء، بأنه ينظر بالمقلوب.

صورة بسيطة ; لكنها تعبر كفاية عن موقف الحضارة الأوروبية، وموقف الحضارة الآسيوية، بالنسبة لحضارتهما المشتركة (وموقف الحضارة الأوروبية بالنسبة لفسيلتها الأمريكية) فمن الوجهة المادية على الأقل، تبدو الأولى مقلوب الأخرى، ورابحة دائماً، والأخرى خاسرة دائماً ; وكأنما من خلال ممارسة مشروع مشترك، اجتذبت الأولى كل المنافع، تاركة للثانية البؤس محصولاً. وقد يسمح التوسع السكاني في حالة (ولكن إلى متى؟) بالتقدم الزراعي والصناعي، جاعلاً الموارد تتنامى أسرع من عدد المستهلكين، بينما أدت الثورة نفسها، في الحالة الثانية، منذ القرن الثامن عشر، إلى خفض مستمر لنصيب الأفراد من كتلة إنتاج، ظلت ثابتة نسبياً. أفلا تستنفد أوروبا والهند وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية كل التوافيق الممكنة بين الإطار الجغرافي والإعمار السكاني؟ إذ تتعارض أمريكا الأمازونية، وهي منطقة مدارية فقيرة، لكنها من دون سكان (وهذا يعوض ذاك جزئياً) مع آسيا الجنوبية المدارية والفقيرة أيضاً، لكنها مكتظة بالسكان (وهذا يفاقم ذاك)، كما يحدث في فئة البلاد المعتدلة ; فأمريكا الشمالية ذات الموارد الوفيرة، والكثافة السكانية المحدودة نسبياً، أصبحت نداً لأوربا ذات الموارد المحدودة نسبياً، ولكن بعدد سكان مرتفع. ومهما كانت الطريقة، التي نرتب بها هذه الحقائق، تبقى آسيا الجنوبية الضحية.

جماهير

15 سواء تعلق الأمر بمدن العالم القديم المحنطة، أم بالمدن الجنينية للعالم الجديد، فقد تعودنا أن نقرن بالحياة الحضرية أسمى قيمنا، على الصعيد المادي والروحي. ومدن الهند الكبرى هي بؤرة، لكن ما نخجل منه ونعتبره وصمة عار وجذام، يشكل هنا الواقع الحضري، مختزلاً إلى أبسط حالاته؛ وهي تجمُّع أفراد مبررُ وجودهم تجمعهم بالملايين، مهما كانت ظروف الواقع. نفايات وفوضى ومخالطة واحتكاكات؛ خرائب وأكواخ ووحل وقاذورات؛ أخلاط وروث وبول وقيح وإفرازات ونز: أي كل ما يبدو لنا أن الحياة الحضرية، تؤمّن الدفاع المنظم ضده، وكل ما نمقته، وكل ما نتجنبه بأي ثمن؛ وكل هذه المنتجات الثانوية للتعايش هنا، لن تبلغ حدودها مطلقاً. بل إنها تُكوّن البيئة الطبيعية، التي تحتاجها المدينة لتزدهر. فالطريق، سواء كان شارعاً أم درباً أو زقاقاً، تزود كل فرد بموضع خاص به، حيث يجلس وينام ويلتقط غذاءه، حتى من النفايات الدبقة. وهي بدلاً من نبذه، تكتسب نوعاً من المكانة المنزلية، لمجرد كونها تحملت نز وإفرازات ووطء واستعمال كل هؤلاء الناس.

وما إن أخرج من فندقي، في كلكتا التي تحتلها الأبقار، وتُستعمل نوافذه محطاً للطيور الكاسرة، حتى أصبح مركزاً لمسرحية باليه، يمكن أن تكون هزلية، لولا إثارتها للشفقة. تتضمن عدة شخصيات وأدوار:

ماسح الأحذية الذي يرتمي على قدمي،

والصبي ذو الصوت الأخنّ مسرعاً: أنّه واحدة، بابا، أنّه واحدة،

والأبتر شبه العاري، حتى يمكن تبيّن مواضع قطع أعضائه جيداً،

والقواد، هامساً: فتيات بريطانيات، لطيفات جداً ..،

وبائع المزامير،

وسمسار النيو - ماركت، الذي يتوسل بأن أشتري كل شيء، ليس لأنه معني مباشرة، بل لأن القروش التي سيربحها من متابعتي، ستسمح له بإطعام نفسه. وهو يعرض الكاتالوج بتفصيل وشهية، وكأن هذه البضائع هُيئت له: حقيبة؟ قمصان؟ خرطوم للسقاية؟

وأخيراً، كل الممثلين الصغار: كسماسرة الريكشاو، وسيارات الأجرة، على الرغم من كثرة سيارات الأجرة المصطفة على بعد ثلاثة أمتار. ولكن من يدري؟ فقد أكون شخصية كبيرة، ولا أتكرم برؤيتها .. دون أن أذكر حشد البائعين، وأصحاب الحوانيت وبائعي الصحف; الذين يبشرهم مرورك بالفردوس: فلعلك تشتري منهم شيئاً.

وعلى من تسول له نفسه الضحك أو التضايق، أن يحترس احتراسه من انتهاك المقدسات. فمن العبث لوم هذه الحركات المضحكة، والتكشيرات المعبرة عن الألم; وإجرامٌ السخرية منها، عوضاً عن أن نرى فيها الأعراض السريرية للاحتضار. لأن هاجساً وحيداً يحكم هذه التصرفات اليائسة، هو الجوع الذي طرد جماهير الأرياف، وجعل كلكوتا تنتقل من مليوني نسمة إلى خمسة ملايين خلال سنين، مكدساً الهاربين في محطات القطار، حيث يلمحهم الركاب ليلاً، نائمين على الأرصفة، وهم يلتفون بالقماش الأبيض; لباسهم اليوم، وكفنهم غداً، الذي يضفي مسحة مأساوية على نظرة المتسول التي تلتقي نظرتك عبر القضبان المعدنية لمقصورة الدرجة الأولى، الموضوعة هنا - كهذا الجندي المسلح المقرفص على باب القطار - لحمايتك من هذا التسوُّل الصامت من متسول، قد يتحول إلى تجمهر صارخ، إذا ما بعثت شفقة الراكب، الأقوى من حذره، الأمل بصدقة في نفوس هؤلاء البائسين.

إن الأوروبي الذي يعيش في أمريكا المدارية، يطرح على نفسه مشكلات. إذ يلاحظ علاقات فريدة بين الإنسان والبيئة الجغرافية. وحتى أساليب الحياة الإنسانية ذاتها، تقدم له من دون انقطاع، موضوعات للتأمل. إلا أن العلاقات من شخص إلى شخص، لا تتخذ شكلاً جديداً، فهي من

النسق نفسه الذي أُحاط به دائماً. أما في آسيا الجنوبية، فتجري الأمور على العكس، إذ يبدو له أنه موجود في هذه الجهة أو تلك، مما يحق أن يطلبه من العالم ومن الإنسان.

وتُظهر الحياة اليومية نَبْذاً دائماً لمفهوم العلاقات الإنسانية. حيث يقدمون لك كل شيء، ويلتزمون بكل شيء، ويجاهرون بكل الكفاءات، في الوقت الذي لا يعلمون شيئاً. وهكذا يجبرونك، منذ البداية، على إنكار صفة الإنسانية لدى الآخرين، التي تكمن في النية الحسنة والوفاء بالعهود والأهلية للالتزام. فيعرض عليك أصحاب الريكشاو، أن يأخذوك إلى أي مكان، مع أنهم أكثر جهلاً منك بالطريق. فكيف لا يستشيط المرء غضباً، وينعتهم بالبهائم، لأنهم يضطرونه إلى ذلك، بسلوكهم غير المعقول؟

وتثير ظاهرة التسول المنتشرة، اضطراباً أكثر عمقاً أيضاً. إذ لا يجرؤ المرء على تبادل نظرة صريحة، لمجرد اتصال مع إنسان آخر، لأن أقل وقفة ستؤوّل ضعفاً منه، وفرصة تعطى لاستعطافه من قبل أحد الناس. وتشبه نبرة التسول، الذي ينادي «صا - حب»، النبرة التي نستعملها لتأنيب طفل. إذ يرفع من حدة الصوت، ثم يخفضه في المقطع الثاني، وكأنه يقول: «لكن الأمر واضح، ألست هنا أتسول أمامك، ولدي بهذا دَيْن عليك؟ فيم تفكر إذاً؟ وأين عقلك؟» فالقبول تام للأمر الواقع، حتى إنه يصل إلى طمس عنصر الاسترحام. ولا يعود هناك إلا ملاحظة حالة موضوعية، وعلاقة طبيعية منه إليَّ، ينبغي أن تنتج الصدقة عنها، بالحتمية نفسها التي تربط الأسباب بالنتائج، في العالم الفيزيائي.

هنا أيضاً، يضطر المرء من قبل الطرف الآخر، إلى أن ينكر عليه صفة الإنسانية التي كان يتمنى الاعتراف له بها. لأنه حتى لو أريد معاملة هؤلاء البائسين على قدم المساواة، لاحتجوا ضد الاجحاف: فهم لا يريدون المساواة، ويتوسلون لك كي تسحقهم بغطرستك. لأنهم بتوسعة هذا الفارق، الذي يفصل بينكما، ينتظرون فضلة يتناسب مقدارها مع تباعد العلاقة فيما بينكما؛ وبقدر ما يعلون من منزلتي، يزداد أملهم بأن يصير التافه الذي يطلبونه شيئاً مذكوراً. إنهم لا يطالبون بحق في الحياة، لأن مجرد

بقائهم على قيد الحياة يبدو لهم صدقة غير مستحقة، لا تكاد آيات تبجيل ذوي السلطة تبررها.

فهم لا يحلمون بوضع أنفسهم إذاً، متساوين مع الآخرين. ولكن، حتى من كائنات بشرية، لا يمكن احتمال هذا الإلحاح المستمر، وهذه المهارة اليقظة في خداعك، للحصول منك على شيء ما بالحيلة والكذب والسرقة. ولكن كيف للقلب أن يقسو؟ لأن كل هذه الوسائل - وهنا المأزق - أنماط متنوعة من الدعاء. ولأن الموقف الأساسي تجاهي هو موقف الدعاء، حتى حينما أُسرق، فلا أستطيع، مهما كان الخجل ينتابني، مقاومة الخلط بين اللاجئين - الذين أسمعهم طيلة اليوم من نوافذ فندقي، يئنون ويبكون، على باب رئيس الوزراء، بدلاً من طردنا من غرفنا، التي قد تتسع لعدة عائلات - وهذه الغربان، التي تنعب، دون انقطاع، على أشجار كراتشي.

يبدو هذا الفساد في العلاقات الإنسانية، لعقل أوروبي بداية، غير قابل للفهم، لأننا نفهم التعارض بين الطبقات على شكل صراع أو توتر. كأنما الوضع الأصلي - أو المثالي - يعني حل هذه الخصومات. لكن مصطلح التوتر، لا معنى له هنا. فلا شيء متوتر، وانقطع منذ زمن بعيد كل ما يمكن له أن يتوتر. وهذا الانقطاع وغياب «زمن جميل» يمكن الرجوع إليه، للعثور على أطلاله أو تمني عودته، يترك المرء فريسة لمعتقد وحيد، فحواه أن كل هؤلاء الناس، الذين نصادفهم في الشارع، يسعون إلى حتفهم، فهل يكفي لإبقائهم هنيهة على المنحدر، أن يتخلى المرء عن كل ما معه؟

وإن أردنا التفكير بشأن التوتر، فاللوحة التي نتوصل إلى رسمها، ليست أقل قتامة. لأنه لابد من القول عندئذ، إن كل شيء جد متوتر، إلى حد لم يعد معه التوازن ممكناً: ففي حدود النظام، أضحى الوضع غير قابل للانعكاس، إلا إذا شُرع في تقويضه. إذ يجد المرء نفسه، للوهلة الأولى، في وضع غير متوازن مع المتسولين الذين يجب صدهم، ليس لأنه يحتقرهم، بل لأنهم يحطون من شأنه بتقديسهم، متمنين أن يكون

أكثر جلالاً وسلطة، اعتقاداً غريباً منهم، بأن كل تحسُّن لمصيرهم مهما صغر، لا يتأتى إلا من تحسُّن مصيره مائة مرة. كيف تتوضح مصادر القسوة المسماة آسيوية! فهذه المحارق، والأحكام بالإعدام، وأفانين التعذيب؛ وهذه الأدوات الجراحية المصممة لتسبب جروحاً لا تبرأ، ألا تنتج عن لعبة شنيعة، وتزويق لهذه العلاقات المهينة، حيث يفعل الفقراء لك شيئاً، بينما يريدون شيئاً لأنفسهم، والعكس صحيح؟ والفارق بين الإفراط في البذخ، والإفراط في البؤس يفجر كل بعد إنساني. ولا يبقى إلا مجتمع، يظل فيه على قيد الحياة من لا يستطيعون شيئاً، لكنهم يأملون بكل شيء (يا له من حلم شرقي جداً، عبقرية ألف ليلة وليلة)، وأولئك الذين يطالبون بكل شيء ولا يقدمون شيئاً.

ليس من المدهش، في مثل هذه الظروف،أن صلات إنسانية لا تقاس بالصلات التي يروق لنا أن نتخيلها (غالباً بطريقة وهمية) تميز الحضارة الغربية، تبدو لنا غير إنسانية تارة، ودون الإنسانية تارة أخرى، كالصلات التي نلاحظها لدى الأطفال. وهذا الشعب يبدو لنا طفولياً من بعض الوجوه، على الأقل: بلطافة نظراته وابتساماته. وهناك أيضاً، اللامبالاة المدهشة باللباس والمكان، لدى هؤلاء الناس الجالسين، والمستلقين كيفما اتفق؛ وذوقهم في الحلي الرخيصة البراقة، والتصرفات الساذجة والمتسهلةلرجال يتجولونممسكين بأيدي بعضهم بعضاً، ويبولون مقرفصين علناً، أو يدخنون المعسَّل من نرجيلاتهم، بالإضافة إلى الأبهة السحرية للشهادات، والعقيدة المشتركة بأن كل شيء ممكن، التي يعبّر عنها سائقو العربات (وكل الذين يستخدمهم المرء عموماً) بادعاءات مفرطة، لا ينجز سوى ربعها أو عشرها.«مِمَ يشكون؟ سأل حاكم البنغال الشرقية، يوماً بوساطة مترجم، أهالي تلال شيتاغونغ، الذين تنهكهم الأمراض، وسوء التغذية والفقر، والاضطهاد المذهبي لهم. ففكروا ملياً ثم أجابوا: «من البرد».

يجد كل أوربي نفسه في الهند -إن أراد وإن لم يرد- محاطاً بعدد محترم من الخدم الرجال لعمل أي شيء. أهو نظام الطبقات، أي تفاوت

اجتماعي تقليدي، أم متطلبات المستعمر، التي تفسر تعطشهم للخدمة؟ لا أدري، لكن ما يظهرونه من تملق يسرع بجعل الجو خانقاً. فقد يتمددون على الأرض لتجنيبك السير عليها. ويقترحون عليك الاستحمام عشر مرات في اليوم: حين تتمخط، أو تأكل فاكهة، أو تلوث أصابعك. يدورون حولك، في كل لحظة، يرجون أمراً، وإذا لم يكن سلوكك كما ينتظرون، وإذا لم تتصرف بأسلوب أسيادهم البريطانيين القدامى في كل الظروف، ينهار عالمهم: ألا تحب البودينغ؟ تُفضِّل الحمام بعد العشاء، بدلاً من قبله؟ لم يعد إله في الكون .. وتظهر الحيرة على وجوههم؛ فأتراجع بسرعة، وأتخلّى عن عاداتي أو أستبقيها للمناسبات النادرة جداً. وآكل إجاصة صلبة كالحجر، أو مهلبية دبقة، لأن علي التضحية بثمرة أناناس، ثمناً للإنقاذ المعنوي لكائن إنساني.

أقمت عدة أيام في سيركت هاوس لشيتاغونغ: وهو قصر من طراز الشاليهات السويسرية، حيث كنت أشغل غرفة مساحتها تسعة أمتار بخمسة، ويرتفع سقفها ستة أمتار. وفيها ما لا يقل عن اثني عشر مفتاحاً للإضاءة: للسقف، والمصابيح الجدارية، والإضاءة غير المباشرة، والحمام، وخزانة الملابس، والمرآة، والمروحة، إلخ. أليست هذه بلاد نار البنغال؟ فبهذا البذخ الكهربائي، يكون أحد المهراجات قد احتفظ لنفسه بالتمتع بألعاب نارية حميمية في حياته اليومية.

في أحد الأيام، أوقفت السيارة التي وضعها رئيس المقاطعة بتصرفي أمام حانوت ذي مظهر أنيق، في المدينة المنخفضة: الحلاق الملكي، حلاقة فاخرة .. إلخ. وإذا بالسائق ينظر إلي مرتاعاً: كيف يمكن لك الجلوس هنا! فماذا سيكون من أمر هيبته، بالفعل، إزاء زملائه، إذا حط السيد من قدره، بالحط من قدره هو نفسه، والجلوس قريباً من أبناء جلدته؟ وبعدما أثناني عن عزمي، تركت له مهمة تنظيم قص شعر من طينة راقية، وكانت النتيجة ساعة انتظار في السيارة، حتى انتهى الحلاق من زبائنه، وجمع أدواته، ثم عودتنا جميعاً إلى سيركت هاوس. وما إن وصلنا، حتى بادر خادم بتهيئة الحمام، لأغسل شعري الذي لامسته يدا الحلاق.

إن أمثال هذه المواقف متجذرة، في بلاد توحي فيها الثقافة التقليدية لكل فرد بأن يصنع من نفسه ملكاً على فرد آخر، ما دام قادراً على اكتشاف من هو دونه، أو استحداثه. والخادم، كما يتمنى أن أعامله، فإنه سيعامل العامل الكادح، المنتمي إلى الطبقة السفلى «المنبوذة»، كما تقول الإدارة الإنجليزية، باعتبار أن لها الحق في الحماية، لأن الأعراف تكاد تنكر عليها صفة الإنسانية. وهم من بني الإنسان بالفعل، هؤلاء الكناسون ومزيلو الفضلات، الذين تجبرهم وظيفتهم المزدوجة هذه، على البقاء مقرفصين طيلة النهار، إما على عتبات الغرف، لكنس الغبار بمكنسة دون عصا، وإما في خلفيتها، حيث يحثون، بالضرب على أسفل الأبواب، من في داخل المراحيض على الانتهاء بسرعة من هذا الإناء القبيح، الذي يدعوه الإنجليز «كومود»، وكأنهم بانهماكهم وجريهم الدائمَين داخل الفناء، يجدون هم أيضاً، باهتمامهم بفضلات السيد، الوسيلة لتوكيد سلطانهم، واكتساب المكانة.

فلا بد إذاً من حصول شيء آخر، غير الاستقلال والزمن، لإزالة هذا الاستعباد. وقد تحققت من ذلك، لدى خروجي ذات ليلة من ستارت تياتر في كلكوتا، حيث ذهبت لحضور عرض مسرحية بنغالية، مستلهمة من موضوع أسطوري، تسمى أوربوشي، ووجدت نفسي تائهاً نوعاً ما، في أطراف مدينة وصلت إليها بالأمس فقط، وناديت سيارة الأجرة الوحيدة المارة. لكن أسرة بورجوازية محلية سبقتني إليها، إلا أن السائق لم يناسبه الوضع هكذا، فجرت مناقشة حامية بينه وبين الأسرة، بدا لي منها، أنه يؤكد أن منافستهم لأبيض عمل غير لائق. ومضت العائلة مشياً، باستياء وقور، بينما ركبت السيارة ظاناً بأن السائق كان يرجو «بقشيشاً» معتبراً؛ لكنني فهمت، بقدر ما تسمح لغتي البنغالية البسيطة، أن هناك شيئاً آخر في تلك المناقشة، هو نظام تقليدي ينبغي احترامه.

لقد كان ذهولي كبيراً، لا سيما وأن تلك الأمسية أوهمتني بأنني تخطيت بعض الحواجز. ففي تلك القاعة البالية، التي كانت بين العنبر والمسرح، كنت الأجنبي الوحيد، إلا أنني مختلط بالمجتمع المحلي. إذ كان

هؤلاء التجار والموظفون، والمستخدمون، مع زوجاتهم بجاذبيتهن الرصينة، يُبدون تجاهي لا مبالاة مريحة نوعاً ما، بعد تجربة النهار؛ ومهما كان موقفهم سلبياً، وربما لهذا السبب، فقد كان يخلق بيننا أخوة صامتة.

كانت المسرحية، التي لم أفهم منها سوى نتف، خليطاً من برودواي وشاتليه ومسرحية هيلين الجميلة. فيها مشاهد هزلية، ومشاهد حب شجية، والهيملايا، وعاشق خائب يعيش متنسكاً، وإله برُمح ونظرة نارية، يحميه من قائد عسكري ذي شاربين ضخمين، وأخيراً فرقة غنائية من الفتيات، نصفهن شبيه ببائعات الهوى، والنصف الآخر بتماثيل تيبيتيه. وقُدمتْ أثناء الاستراحة، المشروبات الغازية والشاي في أقداح فخارية، ترمى بعد الاستعمال -كما كان يحدث منذ أربعة آلاف عام، في هرابا، حيث يمكن التقاط الحطام إلى الآن- بينما كانت مكبرات الصوت تبث موسيقى خفيفة، بين الصينية والباسودوبل.

وبينما كنت أتأمل تمثيل الفتى الأول، الذي كان ثوبه الخفيف يشي بتجاعيده وبدانته، تذكرت جملة قرأتها، قبل عدة أيام، في الصفحة الأدبية لصحيفة محلية تقول: .. فيم تفكر الفتيات اللائي يرمقن زرقة السماء الواسعة؟ في فتى الأحلام، الثري، السمين .. وقد أدهشني ذكر «فتى الأحلام السمين»، لكن رؤيتي البطل البدين، الذي كان يتبختر بطيات كرشه، وتذكري للمتسولين الجياع الذين سأجدهم ثانية أمام الباب، جعلني أدرك بشكل أفضل القيمة الشعرية للسمنة، في مجتمع يعيش في حميمية مؤلمة مع الفاقة. وقد فهم الإنجليز، أن أضمن وسيلة للتظاهر بأنهم أناس خارقون، هي إقناع الأهالي، بأنهم -أي الإنجليز- يحتاجون كمية من الغذاء، أكبر بكثير مما يكفي لإنسان عادي.

وأثناء ترحلي في تلال شيتاغونغ، المتاخمة للحدود البورمية، مع شقيق لراجا محلي أصبح موظفاً، اندهشت سريعاً للعناية التي كان يبديها في حض خدامه على إطعامي: ففي الفجر «شاي بالحليب»، ثم فطور كامل بعد ساعتين، ووجبة الغداء، وشاي الساعة الخامسة، والعشاء أخيراً، وكل ذلك، في ضِياع كان يتغذى سكانها مرتين في اليوم فقط، بالأرز

والخضار المسلوقة، يتبله الميسورون بقليل من مرق السمك المخمر. ففقدت، سريعاً، القدرة على الاحتمال، سواء لأسباب عضوية أم أخلاقية. وبدا على رفيقي؛ وهو أرستقراطي بوذي، نشأ في كلية أنجلو - هندية، ويفتخر بنسب يرجع إلى ستة وأربعين جيلاً، الذهول من اعتدالي فصاح: ألا تأكل خمس مرات في اليوم؟ كلا. لا آكل خمس مرات في اليوم، ولا سيما بين أناس يموتون جوعاً. وأخذت تتهاطل الأسئلة من فم هذا الرجل، الذي لم ير رجلاً أبيض غير الإنجليز: ماذا يأكل الناس في فرنسا؟ وممَ تتكون الوجبات؟ وكم من وقت يفصل بينها؟ فاجتهدت في إعلامه، كواحد من الأهالي المخلصين، يجيب على تحقيق عالم أثنوغرافي؛ وكنت ألاحظ عند كل إجابة، الاضطراب الذي كان يحصل في فكره. إذ كان كل مفهومه عن العالم يتغير: فالأبيض، في النهاية، يمكن أن يكون مجرد إنسان.

ومع ذلك يكفي القليل هنا لخلق الإنسانية: فهذا صانع قاعد وحيداً، على رصيف رتب عليه أدواته، مع بعض القطع المعدنية، يشتغل بعمل بسيط يقيم به أوده وأود عائلته، بأي طعام؟ في مطابخ الهواء الطلق، تشوى أسياخ اللحم على الجمر، وتغلى الألبان في قدور مخروطية؛ وهناك أوراق دائرية، مرتبة بشكل حلزوني، يغلف بها تنبول(*) المضغ. وطفل يتجول بإناء فيه بعض الحمص، يشتري منه رجل مقدار ملعقة كبيرة، بينما يمضي المتبطلون ساعات في مقاهٍ من الألواح الخشبية، وهم يشربون الشاي بالحليب.

(*) نبات يُمضغ. (المترجم)

يحتاج المرء إلى القليل للبقاء: قليل من المكان، وقليل من الغذاء، وقليل من البهجة، وقليل من الأواني أو الأدوات؛ إذ هي الحياة في منديل جيب. لكنها تبدو، في المقابل، مليئة بالروح. نشعر بذلك في حيوية الشارع وحدة النظرات، والحماسة التي تسود أتفه المناقشات، وفي لطف الابتسامات التي تصاحب مرور الأجنبي، مقرونة غالباً في بلد مسلم، بـ«سلام» مع رفع اليد إلى الجبهة. كيف يمكن تفسير هذا اليسر، الذي

به يتخذ هؤلاء الناس مكانهم في الكون، تفسيراً آخر؟ تلك هي حضارة سجادة الصلاة، التي تمثل العالم، أو المربع المخطوط على الأرض، الذي يحدد مكاناً للعبادة. هم هنا، في الشارع، كل منهم في عالم بَسْطَته الصغيرة، منكب بهدوء على صناعته، وسط الذباب، والمارة والضجيج: حلاقون، كتبة، حرفيون.

ولا بد، للقدرة على المقاومة، من صلة جد قوية، وجد شخصية مع ما فوق الطبيعي، وهنا يكمن ربما أحد أسرار الإسلام والعبادات الأخرى لهذه المنطقة من العالم، حيث يشعر كل فرد بأنه حاضر مع إلهه باستمرار.

أذكر نزهة في كليفتون بيتش، قريباً من كراتشي، على شاطئ المحيط الهندي. فبعد كيلو متر من الكثبان والمستنقعات، وصلنا إلى شاطئ طويل من الرمال الداكنة، كان خالياً عندئذ، لكن الجماهير في الأعياد، تذهب إليه بعربات تجرها جمال أكثر زينة من أصحابها. كانت الشمس تميل إلى المغيب، وكأن الضياء يأتي من الرمال والبحر. وإذا بشيخ معمم يرتجل مسجداً فردياً، بوساطة كرسيين من الحديد، استعارهما من مقهى مجاور، حيث كان الكباب يشوى. ووحيداً على الشاطئ، كان يصلي.

أسواق

16 من دون قصد مني، قادني ما يشبه الكاميرا المتحركة، من البرازيل الوسطى إلى آسيا الجنوبية؛ من الأراضي الأقرب عهداً بالاكتشاف، إلى الأرض التي شهدت بزوغ الحضارة؛ من الأرض الأكثر خواءً، إلى الأكثر امتلاءً؛ إذا كان صحيحاً، أن سكان البنغال يعادلون ثلاثة آلاف ضعف سكان ماتوغروسو أو غوياز. وحين أعيد قراءة ما كتبت، أشعر بأن الفارق أكثر عمقاً. فما كنت أهتم به في أمريكا، هو مواقع طبيعية أو حضرية أولاً، وهما في الحالتين أشياء تحددها أشكالها وألوانها وبنياتها الخاصة، التي تمنحها وجوداً مستقلاً عن الكائنات الحية التي تعيش فيها. أما في الهند، فهذه الأشياء العظيمة اختفت، دمرها التاريخ، واستحالت إلى غبار مادي أو إنساني، أصبح الواقع الوحيد. وهناك، حيث كنت أرى الأشياء، بداية، لم أعد أرى هنا سوى كائنات. إن علم اجتماع متآكل، ينهار بفعل آلاف السنين، تاركاً مكانه لتعدد العلاقات بين الأشخاص، لفرط ما تتدخل الكثافة البشرية بين الملاحظ وموضوعه، بصدد التلاشي. والمصطلح الشائع هناك، للدلالة على هذا الجزء من العالم: شبه القارة، يكتسي عندئذ معنى جديداً. إذ لم يعد يعني مجرد جزء من القارة الآسيوية، بل يبدو أنه ينطبق على عالم لا يكاد يستحق اسم قارة، لأن تفككاً بلغ حده الأقصى، حطم البنية التي كانت تمسك ببضع مئات من الملايين من الجزيئات، في أطر منتظمة: هم الناس، الذين أفلتوا اليوم، في عدمٍ صنعه التاريخ، تحركهم الدوافع الأولية، من خوف وألم وجوع، في كل اتجاه.

إن ما يخفي الإنسان في أمريكا المدارية، هي ندرته؛ إلا أنه، حتى في الأماكن التي تجمع فيها بشكل أكثر كثافة، يظل الأفراد محصورين -إن

صح القول- في التضاريس، التي لا تزال بارزة، لتجمّعهم القريب العهد. ومهما كان مستوى المعيشة في الداخل، أو حتى في المدن، فإنه لا يتدنى، إلا بصورة استثنائية، إلى الحد الذي يجعل الناس يصرخون، ما دام البقاء ممكناً بالشيء القليل، على أرض لم يُشرع في إتلافها إلا منذ أربعمائة وخمسين سنة. أما في الهند، الزراعية والصناعية، منذ خمسة أو عشرة آلاف سنة، فهي القواعد التي تميد: إذ اختفت الغابات؛ ولعدم وجود الأخشاب، ينبغي لطهو الطعام حرق السماد، وحرمان الحقول منه؛ وبهذا تنحل التربة بالأمطار، متسربة إلى البحر، وتتزايد المواشي الجائعة بسرعة أقل من تزايد الإنسان، وتدين ببقائها لتحريم التغذي بها.

ولا شيء يوضح هذا التباين بين المداريات الخاوية، والمداريات المكتظة، أفضل من موازنة بين معارضهما وأسواقهما. ففي البرازيل، كما في بوليفيا أو الباراغواي، تعرض هذه المناسبات الكبرى للحياة الجماعية نظام إنتاج ما زال فردياً. وكل بسطة تعبّر عن تفرد صاحبها: كما في إفريقيا، حيث يعرض البائع على الزبون، القليل الذي يفيض عن حاجته. بيضتان، حفنة من الفلفل، بعض الخضار والزهور، صفان من الخرز أو ثلاثة تصنع في وقت الفراغ، سلة أو إناء فخاري من عمل البائعة، وبعض التمائم القديمة التي تتابع دورة معقدة من الصفقات. وهذه الواجهات من الدمى، التي تشكل كل واحدة منها عملاً فنياً متواضعاً، يعبر عن تنوع في الأذواق والمناشط، وتوازن خاص بكل واحد منها، يشهد على الحرية التي يحافظ الجميع عليها. وإذا ما نودي عابر السبيل، فليس لإثارة شفقته بمشهد جسد هزيل أو مشوه، أو لاسترحامه لينقذ أحداً من الموت، بل ليُعرض عليه التقاط الفراشة - أو أي حيوان آخر - في هذا اليانصيب المسمى بيشو، حيث تتوافق الأرقام مع صور حيوانات لطيفة في كتاب.

أما السوق الشرقي، فيُعرف كل ما فيه قبل زيارته، فيما عدا شيئين: تزاحم الناس، والقذارة، اللذين لا يمكن تخيلهما، ولا بد من التجربة،

لمعرفتهما على حقيقتهما. لأن هذه التجربة، تعيد دفعة واحدة، بعداً أساسياً. فهذا الهواء المنقط بالسواد بفعل الذباب، وهذا الازدحام، يتبين المرء فيهما إطاراً طبيعياً للإنسان. في هذا الإطار نشأ ببطء، منذ أور في كلدة، حتى باريس فيليب لوبيل، مروراً بروما الأمبراطورية، ما نسميه بالحضارة.

لقد جلت في كل أسواق كلكوتا، الجديد منها والقديم، وأسواق دلهي وأغرا، وأسواق دكا، التي هي تتالي أسواق تعيش فيها أسر تأوي إلى فجوات في الحوانيت والمشاغل، وأسواق شيتاغونغ، وكل أسواق لاهور، وأسواق بشاور. وفي المعارض الريفية لمر خيبر على الحدود الأفغانية، كما في معارض رانغماتي، على أبواب بورما، وزرت أسواق الخضار والفاكهة: أكواماً من الباذنجان والبصل الوردي، والرمان المتفتح برائحة الجوافة النفاذة. وأسواق بائعي الزهور، وبسطات الفواكه المجففة. ورأيت وتنشقت رائحة التوابل والكري: أهرامات من المساحيق الحمراء والبرتقالية والصفراء، وجبالاً من الفلفل برائحتها الحادة. كما رأيت شي اللحم، وغليان اللبن، وصنع القطايف؛ وبائعي الشاي والشراب، وبائعي التمر المكبوس بلبه ونواه، الذي يذكر بغائط بعض الدينوصورات؛ وبائعي الحلوى الذين يحسبهم المرء بائعي ذباب يقدم على قطع من الحلوى؛ والنحاسين الذين تسمع مطارقهم من مائة متر؛ وصانعي السلال والحبال بقشهم الأصفر والأخضر؛ وصانعي القبعات وقد صفوا المخاريط المذهبة، الشبيهة بقلانس الملوك الساسانيين؛ وحوانيت النساجين، التي ترفرف فيها قطع النسيج المصبوغة حديثاً بالأزرق أو الأصفر، والوشاحات بلون الزعفران، المنسوجة من الحرير الصناعي على طراز بخارى؛ وصانعي الأثاث، وحفاري الخشب، وملمعي خشب الأسِرَّة، ومجلخي السكاكين؛ ومعرض حديد الخردة المنعزل الكئيب؛ وبائعي التبغ بأوراقه المكدسة الشقراء والمعسلة، بجانب خراطيم النراجيل، التي رتبت حزماً؛ وبائعي الصنادل، وقد صفت بالمئات، كزجاجات خمر في قبو؛ وبائعي الأساور الزجاجية الملونة بالأزرق والوردي؛ ودكاكين الخزافين، حيث تصطف

مستلزمات النراجيل، والجرار الفخارية المطلية بالميكا، وتلك الملونة بالبني والأبيض والأحمر، على أرضية صهباء مزوقة بخطوط دقيقة؛ ورأيت باعة الدقيق، وهم ينخلون طيلة اليوم؛ والصاغة وهم يزنون شذرات ثمينة من الذهب، وواجهات محالهم أقل بريقاً من دكاكين الأواني الصفيحية المجاورة؛ وطباعي النسيج، وهم يضربون القماش بحركات رشيقة ورتيبة، تترك طبعة ملونة؛ والحدادين في الهواء الطلق: كان كل ذلك عالماً مزدحماً ومنظماً، ترفرف فوقه، كأشجار تهتز أوراقها مع النسيم، دواليب الهواء، على عصي طويلة، المخصصة للأطفال.

وقد يكون المشهد أخاذاً، حتى في المناطق الريفية؛ فقد كنت أرتحل في مركب بمحرك على نهر البنغال. وفي بوليغانيا المحفوفة بأشجار الموز والنخيل، المحيطة بمساجد من القاشاني الأبيض، وتبدو كأنها عائمة على سطح الماء، نزلنا في جزيرة صغيرة، للتفرج على سوق ريفي، نبهتنا إليه مئات من الزوارق والمراكب السامبان الراسية ذات الطراز الصيني. وعلى الرغم من عدم وجود أية علامة على مسكن، فقد كانت هناك مدينة حقيقية ليوم واحد، تزدحم بجمهور استقر على الطين، في أحياء متمايزة يختص كل منها بتجارة: كالأرز غير المقشور، والمواشي، والمراكب، وعصي الخيزران، وألواح الخشب، والفخاريات، والمنسوجات، والفواكه، وجوز التنبول، وشباك الصيد. وكان المرور في تفرعات النهر من الكثافة، بحيث يحسبها المرء شوارع مائعة. وكانت الأبقار التي اشتُريتْ لتوها، تُنقل كل منها واقفة في مركبها، تَستعرض منظراً، يستعرضها بدوره.

إن وداعة هذه البقاع لا مثيل لها. ففي هذه الخضرة المزرقة بالياقوتيات، وفي مياه المستنقعات والأنهار، حيث تعبر مراكب السامبان، كان هناك ما يبعث السكينة والهجوع في النفس، إذ يخطر للمرء أن يترك نفسه طواعية، ليتفسخ كجدار قديم من الآجر، لتفككه الأيام.

لكن هذه الوداعة، تظل مقلقة في الوقت نفسه، فالمنظر ليس عادياً، والماء فيه أكثر مما ينبغي، والفيضان السنوي يؤدي إلى ظروف معيشة استثنائية، إذ يسبب انهيار إنتاج الخضار ومصائد الأسماك: فالفيضان

يعني الفاقة. وحتى المواشي تهزل وتنفق، لأنها لا تجد ما تقتات به. غريبة هذه الإنسانية، التي تعيش متشربة بالماء، أكثر منها بالهواء، ويتعلم أبناؤها استعمال زوارقهم الصغيرة، وهم يتعلمون المشي تقريباً، حيث يباع القنب، بعد إزالة الألياف عنه، لانعدام أي وقود آخر وقت الفيضان، بمائتين وخمسين فرنكاً للحزمة من مائتي قضيب، لأناس يكسبون أقل من ثلاثة آلاف فرنك في الشهر.

ومع ذلك، كان من الضروري الدخول إلى القرى، لفهم الوضع المأساوي لهؤلاء السكان، الذين تقربهم الأعراف والمساكن وأسلوب المعيشة، من البدائيين أكثر؛ لكنهم يقيمون أسواقاً بتعقد المجمعات التجارية ذاته. فمنذ قرن تقريباً، كانت عظامهم تغطي الأرياف، أولئك النساجون في أكثريتهم، الذين عانوا من المجاعة والموت، نتيجة منع المستعمر لهم من ممارسة حرفتهم حتى يفتح سوقاً لمنسوجات مانشستر القطنية. وهكذا، كل الأرض الصالحة للزراعة اليوم، على الرغم من أنها تظل مغمورة بالمياه نصف السنة، مخصصة لزراعة القنب، الذي يذهب، بعد تهيئة أليافه، إلى المصانع في نارايانغانج وكلكوتا، أو مباشرة إلى أوربا وأمريكا، بحيث إن هؤلاء الفلاحين الأميين أنصاف العراة يعتمدون بطريقة أخرى، ليست أقل تعسفاً، في قوتهم اليومي على تقلبات السوق العالمية. وهم وإن اصطادوا الأسماك، إلا أن الأرز الذي يتغذون به، مستورد كله تقريباً؛ ولكي يزيدوا دخلهم الضئيل من الزراعة -باعتبار ملاك الأرض قلة- يقضون أيامهم بأشغال مضنية.

ديمرا ضيعة بحيرية تقريباً، ما دامت شبكة التلاع الطافية، التي تتجمع فيها الأكواخ بين الخمائل، غير مستقرة. رأيت فيها السكان، بمن فيهم الأطفال الصغار، ينهمكون منذ الفجر في نسج هذه الخُمُر، التي اشتهرت بها دكا، باليد. وفي لانغالبوند، أبعد قليلاً، منطقة برمتها تتخصص بصنع الأزرار الصدفية، من النوع المستعمل في ملابسنا الرجالية الداخلية. إذ تلتقط طائفة من المراكبيين، الذين يعيشون باستمرار في مقاصير القش على مراكبهم، المحار النهري المخصص للتزويد

بالصدف ويبيعونه. وبعدما تجلى الأصداف في محلول حمضي، يتم تكسيرها بالمطرقة، إلى قطع تُدوَّر بعد ذلك بوساطة حجر جلخ يدوي. ثم يوضع كل قرص على مسند، ليشكل بمبرد في طرف بريمة خشبية، يتم تدويرها بوساطة قوس. وتستخدم أداة مشابهة، لكنها مدببة لعمل أربعة ثقوب. ويخيط الأطفال الأزرار المنتهية، كل دزينة على بطاقة مغطاة بورق براق، كما تعرضها دكاكين العقادة في بلادنا.

كانت هذه الصناعة المتواضعة، تمون السوق الهندية وجزر المحيط الهادي، قبل التحولات السياسية الكبرى، التي نجمت عن استقلال البلاد الآسيوية؛ كما تُقوت العمال أيضاً، على الرغم من أنهم كانوا، ولا يزالون ضحية لاستغلال طبقة المرابين والوسطاء من المهراجات الذين يقدمون المادة الأولية ومواد التحويل الأخرى. وقد ارتفع سعر هذه المواد خمسة أو ستة اضعاف، بينما انخفض الإنتاج من ستين ألف رزمة أسبوعياً، إلى أقل من خمسين ألفاً في الشهر. وانخفض، في الوقت نفسه، السعر الذي يدفع للصناع بـ٧٥٪. إلا أنه، على الرغم من أشكال الحياة البدائية، وعدد السكان، فإن حجم الإنتاج ومظهر المنتج النهائي، لا يسمحان بالحديث عن صناعة حرفية حقيقية. إذ يظل هذا المصطلح في أمريكا المدارية - البرازيل وبوليفيا والمكسيك - مقتصراً على شغل المعادن والزجاج والصوف والقطن أو القش. لأن المادة الأولية محلية أصلاً، والتقنيات تقليدية، وظروف الإنتاج عائلية، كما أن استعمال المنتجات وأشكالها، تخضع أولاً لأذواق وعادات المنتج وحاجاته.

أما هنا، فقد دفع بأناس من العصور الوسطى إلى العصر الصناعي، وجُعلوا نهباً للسوق العالمية. وهكذا يعيشون من نقطة الانطلاق إلى النهاية تحت نظام استلاب. فالمادة الأولية غريبة كلياً عن نساجي ديمرا، الذين يستعملون غزلاً مستورداً من انجلترا أو إيطاليا، وغريبة جزئياً عن صناع لانغالبوند، الذين يستعملون الأصداف المحلية، لكن المواد الكيماوية والورق المقوى والورق البراق الضرورية لصناعتهم مستوردة. كما يصمَّم الإنتاج في كل مكان، طبقاً للمعايير الأجنبية، لأن هؤلاء المساكين لا يكادون

يجدون ما يلبسونه، فضلاً عن استعمال الأزرار. إذ من خلال الأشجار المخضوضرة، والقنوات الوادعة المحفوفة بالأكواخ، يظهر وجه المشغل القبيح، وكأن التطور التاريخي والاقتصادي، ثبت وراكم المراحل الأكثر مأساوية، على حساب هؤلاء الضحايا المنكودين. ففاقة وأوبئة من العصور الوسطى، واستغلال شرس كما في بداية العصر الصناعي، مع بطالة ومضاربة الرأسمالية الحديثة. وهكذا تواعدت القرون الرابع عشر والثامن عشر والعشرون على اللقاء هنا، لتسخر من الجمال العذري للطبيعة المدارية.

لقد قدّرتُ وفي هذه البقاع، حيث تتجاوز كثافة السكان الألف نسمة في الكيلو متر المربع، حق قدرها، تلك الحظوة التاريخية التي ما زالت تتمتع بها أمريكا المدارية (وإلى حد ما، أمريكا برمتها)، المتمثلة في بقائها خالية، تماماً أو نسبياً، من بني الإنسان. فالحرية ليست إبداعاً قانونياً، ولا كنزاً فلسفياً، بل خاصة عزيزة لحضارات أكثر جدارة من غيرها، لأنها وحدها القادرة على إنتاجها أو الحفاظ عليها. وهي نتاج علاقة موضوعية بين الفرد والمكان الذي يشغله، وبين المستهلك والموارد المتوافرة له. ومع ذلك، فليس من المؤكد أن هذا يعوض ذاك، وأن مجتمعاً غنياً، لكنه جد كثيف، لا تسممه هذه الكثافة، مثل طفيليات الدقيق، التي تتوصل إلى إبادة بعضها بعضاً عن بعد، بذيفانها، حتى قبل أن تنفد المادة الغذائية.

ينبغي الكثير من السذاجة أو سوء النية للظن بأن الناس يختارون عقائدهم، بصرف النظر عن ظروفهم. فليست المنظومات السياسية هي التي تحدد شكل الحياة الاجتماعية، بل أشكال الحياة هي التي تمنح معنى للإيديولوجيات التي تعبر عنها: فلا تكوِّن هذه الرموز لغة، إلا بوجود الموضوعات التي تدل عليها. ومن هنا، فإن سوء الفهم بين الغرب والشرق، في هذه الآونة، مدلولي أولاً: لأن الصيغ التي ننقلها إليه تتضمن مدلولات لا وجود لها، أو مختلفة. وإذا كان من الممكن للأشياء أن تتغير، فلا يهتم ضحاياها بأن يتم هذا التغير في أطر قد تكون غير محتملة

بالنسبة إلينا. إذ لن يشعروا بالعبودية، بل بالتحرر، لمجرد حصولهم على العمل الشاق، والأغذية المقننة، والفكر الموجه؛ باعتبار ذلك الوسيلة التاريخية للحصول على عمل وقوت، وتذوق للحياة الفكرية. وتتلاشى اشتراطات تبدو لنا منافية، أمام بداهة واقع رفضناه حتى ذلك الوقت، باسم مظهره.

وفيما وراء الحلول السياسية المناسبة، تظل المشكلة التي تطرحها المواجهة بين الشرق والغرب، هي تضاعف السكان في رقعة محدودة. فكيف ننسى، بهذا الصدد، أن أوربا تحتل موقعاً وسيطاً بين العالمين؟ لقد تصدت الهند لمشكلة العدد هذه، منذ بضعة آلاف من السنين، بسعيها عبر نظام الطبقات، إلى وسيلة لتحويل الكمية إلى نوعية، أي التمييز بين الجماعات البشرية، للسماح لهم بالعيش جنباً إلى جنب. حتى أنها نظرت إلى المشكلة نظرة أكثر شمولاً، فوسعتها لتشمل كل اشكال الحياة، زيادة على الإنسان. ويستلهم نظام التغذية النباتي، هاجس نظام الطبقات نفسه، أي منع التجمعات البشرية والأنواع الحيوانية من تعدي أحدهما على الآخر، والاحتفاظ لكل منهما بحرية خاصة به، بفضل تخلي الآخرين عن ممارسة حرية مناوئة. وكان فشل هذه التجربة مأساوياً للإنسان، وأعني بذلك أن الطبقات لم تنجح خلال التاريخ، في بلوغ حالة تكون فيها متساوية لأنها مختلفة - متساوية بمعنى أنه لا يمكن قياسها لعدم تجانسها - بل دخل بينها هذا المقدار الخادع من التجانس الذي سمح بالموازنة، وخلق بالتالي تراتبية. لأن الناس، إذا استطاعوا العيش المشترك، بشرط اعتراف كل منهم بالآخرين كبني إنسان على قدم المساواة معه، ولكن بطريقة مختلفة، فإنهم يستطيعون العيش أيضاً، بإنكار كل منهم على الآخر درجة متساوية من الإنسانية، وإذاً خضوع الواحد للآخر.

ينطوي إخفاق الهند هذا، على درس: فعندما يكبر المجتمع جداً، وعلى الرغم من عبقرية مفكريه، لا ينجح في البقاء إلا بإفراز العبودية. وحينما يبدأ الناس الشعور بالضيق ضمن مجالهم الجغرافي والاجتماعي والعقلي؛ هناك حل بسيط قد يغريهم: يقوم على إنكار صفة الإنسانية

على جزء من البشر. فتطلَق أيدي الآخرين، لبضع عشرات من السنين، ثم لا بد من إجراء عملية طرد جديدة. في ضوء هذا، تُلَخِّص الأحداث التي كانت أوربا مسرحاً لها منذ عشرين سنة، قرناً تضاعف فيه عدد سكانها، ولا يمكن أن تبدو نتيجة انحراف شعب أو مذهب أو مجموعة من الناس. بل إنني أرى فيها علامات تنذر بتطور نحو العالم المحدود الذي جربته آسيا الجنوبية قبلنا بألف أو ألفي عام، والذي لن يتسنى الانعتاق منه ربما، إلا إذا اتخذنا قرارات هامة. ذلك أن هذا الانتقاص المنظم من قيمة الإنسان من قبل الإنسان ينتشر؛ وسيكون من قبيل النفاق والغفلة، استبعاد المشكلة بحجة العدوى الوقتية.

إن ما يفزعني في آسيا، صورة مستقبلنا الذي تستبقه؛ وما أحبه في أمريكا الهندية، هو بريق - عابر هناك حتى - حقبة، كان فيها الإنسان بمستوى الكون، حيث استقرت علاقة ملائمة بين ممارسة الحرية وعلاماتها.

القسم الخامس

كادوفيو

بارانا

17 انصبوا يا هواة التخييم، خيامكم في بارانا. أو بالأحرى لا، لا تفعلوا: امتنعوا عن ذلك، واحفظوا للمواقع الأخيرة في أوربا، ورقكم الملوث بالدهن، وقنانيكم غير القابلة للتلف، وعلب الأطعمة المحفوظة المبقورة. ولكن، احترموا السيول يهيجها زبد فتي، وهي تتدحرج قافزة على الأدراج المنحوتة على سطوح البازلت البنفسجية. لا تطؤوا الطحالب البركانية النضرة؛ ولتتردد خطواتكم على عتبة البراري الخاوية وغابة الصنوبريات الكبرى، التي تشق تشابك المتسلقات والسرخسيات، لترفع إلى السماء مخاريط مقلوبة لأشكال أشجار التنوب لدينا؛ ليست مخاريط مدببة في القمة، بل على العكس، إذ تتكاثف أغصانها في القمة كمظلة عملاقة. منظر عذري وديع، يبدو أنه، لملايين السنين، حافظ على وجه العصر الكربوني، كما هو لم يمس؛ وأن الارتفاع مقروناً بالبعد عن المدار، يعتقه من الفوضى الأمازونية، ليمنحه جلالاً وتناسقاً غير مفهوم، إلا إذا رأينا فيه أثر استعمال عريق في القدم، من قبل عرق أكثر حكمة وقوة من عرقنا؛ ندين لاندثاره بقدرتنا على الولوج إلى هذه الجنة العظيمة، التي تنتهي اليوم إلى السكون والإهمال.

في هذه الأرجاء، التي تشرف على ضفتي نهر تيباغاي، على ارتفاع ألف متر تقريباً عن سطح البحر، كان اتصالي الأول مع المتوحشين، لدى مرافقتي لرئيس مقاطعة بمصلحة حماية الهنود، أثناء قيامه بجولته.

في زمن الاكتشاف، كانت منطقة جنوبي البرازيل برمتها سكناً لمجموعات متقاربة باللغة والثقافة، عرفت تحت اسم جي، كانوا طردوا من فترة قريبة، كما يبدو، من قبل غزاة من لغة التوبي، احتلوا في الماضي كل الشريط الساحلي. وبانسحاب الجي إلى مناطق يصعب النفاذ إليها،

حموا في جنوب البرازيل أنفسهم، لعدة قرون بعد التوبي، الذين أبادهم المستعمرون سريعاً، وبقيت منهم عصابات صغيرة حتى القرن العشرين، في غابات الولايتين الجنوبيتين، بارانا وسانتا كاتارينا. ولعل بعضهم بقي حياً في ١٩٣٥، على الرغم من الاضطهاد الشرس، خلال المائة سنة الأخيرة؛ لكن أغلبيتهم أخضعت وثبتت من قبل الحكومة البرازيلية في عدة مراكز، نحو العام ١٩١٤، إذ اجتهدت في البداية بإدماجهم في الحياة العصرية. فكان في قرية ساو جيرينيمو، التي اتخذتها قاعدة لي، مشغل للأقفال، ومنشرة خشب، ومدرسة وصيدلية، وكان المركز يستقبل بانتظام، فؤوساً وسكاكين ومسامير، كما توزع الملابس والأغطية. وبعد عشرين سنة، تخلت الحكومة عن هذه المحاولات. وبترك مصلحة الحماية، الهنود وشأنهم، كانت شاهداً على لا مبالاة الحكومة (لكنها استعادت بعض سلطتها بعد ذلك)، فوجدت نفسها مجبرة هكذا، دون رغبة منها، على تجربة طريقة أخرى، تحث الأهالي على استعادة بعض المبادرات، وتجبرهم على أخذ زمام أمورهم بأيديهم.

ولم يتمسك الأهالي من تجربتهم العابرة مع الحضارة إلا بالملابس البرازيلية والفأس والسكين وإبرة الخياطة. وكان الإخفاق نصيب الباقي. إذ بنيت لهم المنازل، وكانوا يفضلون العيش في العراء. وبذلت الجهود لتثبيتهم في القرى، وظلوا رحّلاً. وحطموا الأسرة لاستعمالها وقوداً للنار، وناموا على الأرض. وضلت قطعان الأبقار، على غير هدى، لأن الأهالي نفروا من لحمها ولبنها. وكانت المدقات الخشبية التي تحرك آلياً، بتناوب ملء وتفريغ وعاء مثبت على عتلة (وهي ترتيبة منتشرة في البرازيل، تعرف باسم مونجولو، ربما جلبها البرتغاليون من الشرق) تتلف بعدم الاستعمال، بينما ظل الهرس اليدوي عاماً.

ولخيبة أملي، لم يكن هنود تيباغاي إذاً «هنوداً حقيقيين» تماماً، ولا «متوحشين» بخاصة. إلا أننا إذا نزعنا الطابع الشعري عن الصورة الساذجة، التي يكوّنها الإثنوغرافي المبتدئ عن تجاربه المقبلة، فقد كانوا يقدمون لي درساً في الحيطة والموضوعية.

فباكتشافي، أنهم أقل أصالة مما كنت آمل، سأجدهم أكثر إبهاماً مما يمكن أن يوحي به مظهرهم الخارجي. إذ كانوا يوضحون تماماً هذا الوضع الاجتماعي، الذي سيصير حصرياً للملاحظ، في النصف الثاني من القرن العشرين؛ «بدائيون» فُرضت عليهم الحضارة بخشونة، وما إن زال الخطر الذي افترض أنهم يمثلونه، حتى تُركوا، لا يكترث بهم أحد. إن ثقافتهم المؤلفة في جزء منها من تقاليد قديمة، قاومت تأثير البيض (مثل برد وتلبيس الأسنان، الذي ما زال منتشراً فيما بينهم)؛ ومن استعارات تَمَّت من الحضارة الحديثة، كانت تشكل توليفة فريدة؛ ودراستها، مع انعدام غرابتها، لم تكن تضعني في مدرسة أقل تعليماً من مدرسة الهنود الخُلَّص، الذي قاربتهم من بعد.

لكننا نلحظ، مذ تُرك هؤلاء الهنود وشأنهم، انقلاباً غريباً للتوازن السطحي بين ثقافة حديثة وثقافة بدائية. إذ انبعثت أنماط عيش قديمة، وتقنيات تقليدية ترجع إلى ماض، كان من الخطأ إغفال قربه النشط. فمن أين أتت هذه المدقات الحجرية، الجيدة الصقل، التي عثرت عليها في البيوت الهندية، مختلطة بالصحون المعدنية المطلية بالمينا، وملاعق السوق، وحتى - أحياناً - بقايا هيكل آلة خياطة؟ أهي مبادلات تجارية تتم في سكون الغابة، مع سكان من العرق نفسه، إلا أنهم ظلوا متوحشين، ولا يزال نشاطهم العدائي يمنع المستصلحين من بعض مناطق بارانا؟ للإجابة، لا بد من معرفة ملحمة هذا الهندي المدعو برافو، الذي كان يمضي فترة تقاعده في مستوطنة للحكومة.

إن هذه الأشياء، التي تترك المرء حالماً، تظل في القبائل شاهداً على حقبة، لم يكن يعرف الهندي فيها بيتاً ولا ملابس أو أواني معدنية؛ فذكريات الناس النصف واعية تحفظ التقنيات القديمة أيضاً. وعوضاً عن أعواد الثقاب، المعروفة لكنها غالية الثمن وصعبة المنال، يفضل الهندي دائماً التدوير أو حك قطعتين طريتين من خشب النخيل، واحدة بالأخرى. كما نجد البنادق العتيقة والمسدسات، التي وزعتها الحكومة سابقاً، معلقة غالباً في البيوت المهجورة، بينما يتصيد الرجل في الغابة،

بقوس ونبال مضمونة ضمان تقنية الأقوام التي ما رأت سلاحاً نارياً قط. وهكذا أخذت أنماط المعيشة القديمة، التي غلفتها الجهود الرسمية على عجل، ترسم طريقها من جديد، ببطء ويقين الهنود الذين التقيتهم وهم يجوبون في دروب الغابة الضيقة، بينما كانت السقوف تنهار في القرى المهجورة.

وترحلنا خلال خمسة عشر يوماً، على ظهور الخيل، في دروب خفية عبر امتداد غابة، بلغ من اتساعها، أن توجب علينا غالباً، حث المطايا في الليل لبلوغ الكوخ الذي سنجعل منه محطتنا. أما كيف كانت الخيل تتوصل إلى تبيّن موضع حوافرها، على الرغم من ظلام، تجعله النباتات المعقودة فوق رؤوسنا على ارتفاع ثلاثين متراً، أكثر حلكة، فهذا ما لا أدريه. وكل ما أذكره ساعات من الركوب برَهوَنة المطايا غير المنتظمة، التي تدفع بنا إلى الأمام، أثناء انحدار شديد أحياناً؛ ولتجنب السقوط، كان على أيدينا أن تظل جاهزة للتمسك بمقدم السرج؛ ثم بقلبه الآية، يتسلق الحصان الضفة المقابلة، وكأنه بحركاته المشوشة وغير المفهومة في الليل، يريد التخلص من سرجه وراكبه. ولا يبقى أمامك بعد استعادة التوازن إلا البقاء متيقظاً حتى لا تفقد هذه البصيرة الغريبة التي تسمح لك، مرة من كل اثنتين، بإدخال رأسك بين كتفيك في الوقت المناسب، لاتقاء لطمة من غصن منخفض، دون أن تتمكن من رؤيته.

ويتضح، قريباً، صوت آت من بعيد؛ إنه ليس زمجرة الفهد، التي سمعناها قبل الشفق، بل عواء كلب هذه المرة، فالاستراحة قريبة. ويغير دليلنا، بعد دقائق، الاتجاه، وندخل على إثره في أرض بور صغيرة، حيث تحيط حواجز من جذوع الأشجار بحظيرة مواش، وأمام كوخ من سعف النخيل وسقف من القش، يتحرك طيفان يرتديان لباساً أبيض: إنهما مضيفانا. الزوج برتغالي الأصل غالباً والمرأة هندية، وعلى ضوء فتيل مغموس بالبترول، نكتشف كل ما في البيت: أرضية ترابية، وطاولة، وسرير من ألواح خشبية، وبعض الصناديق تستخدم مقاعد، وموقداً من الصلصال، وأدوات مطبخ مؤلفة من صفائح وعلب أطعمة محفوظة مستعملة. ونسارع

في نصب أراجيح النوم في الداخل، أو نمضي للنوم في الخارج تحت سقيفة جعلت لحماية الذرة من المطر. والمدهش أن كومة عرانيس الذرة المحاطة بأوراقها، تؤمن فراشاً مريحاً. إذ ينزلق الواحد منها على الآخر ويأخذ المجموع شكل جسم النائم. وتبعث رائحة الذرة الجافة اللطيفة الهدوء في النفس. لكن البرد والرطوبة يوقظان النائم في الصباح الباكر، بينما يتصاعد ضباب لبني من الرحبة، فنسرع إلى الكوخ، حيث تتقد النار في الموقد بهذا المسكن المعتم، من دون نوافذ. وتُحضّر المضيفة القهوة والبيبوكا، وهي حبوب الذرة المتفجرة مع دهن الخنزير. ثم نجمع الخيول ونسرجها، ونمضي في طريقنا، بينما تطبق الغابة الندية، في لحظات، على الكوخ المنسي.

يمتد معزل ساوجيرينيمو على نحو مائة هكتار، يسكنه أربعمائة وخمسون من الأهالي، يتجمعون في خمس أو ست ضياع. وقبل الانطلاق إليه، سمحت لي إحصاءات المركز بتقدير الخراب الذي سببته الملاريا والسل والإدمان على الكحول. إذ لم يتجاوز عدد الولادات، منذ عشر سنين، مائة وسبعين، وبلغت الوفيات من الأطفال فقط، مائة وأربعين فرداً.

زرنا المنازل الخشبية، التي تبنيها الحكومة الفدرالية، المجمعة في قرى من خمس أو ست نيران، على ضفاف مجاري المياه، كما رأينا البيوت الأكثر انعزالاً، التي يبنيها الأفراد أحياناً: سياج مربع من جذوع النخيل، محبوكة بمتسلقات، يعلوها سقف من الأوراق يشد إلى الجدران في الزوايا الأربع فقط. ودخلنا، أخيراً، تحت هذه السقيفات المصنوعة من الأغصان، حيث تعيش الأسرة أحياناً بجوار البيت غير المستعمل.

يتجمع السكان حول النار المشتعلة ليل نهار. يرتدي الرجال، عموماً، قميصاً متهدلاً وسروالاً قديماً. والنساء يرتدين فستاناً قطنياً لا شيء تحته، أو إزاراً بسيطاً يلففنه تحت الإبطين. أما الأطفال، فعراة تماماً. والجميع يعتمرون أثناء السفر، مثلنا، قبعات من القش، وهي صناعتهم وموردهم الوحيدين. والنمط المنغولي واضح لدى الجنسين من كل

الأعمار: قامة قصيرة، وجه عريض وأمسح، وجنتان بارزتان، عينان ضيقتان، بشرة صفراء، شعر أسود سبط طويل لدى النساء أو قصير مع انعدام شعر الجسم أو ندرته. يسكنون غرفة واحدة، ويأكلون، في أي وقت، البطاطا الحلوة، التي تشوى تحت الرماد؛ يلتقطونها بملقط طويل من الخيزران، وينامون على فراش رقيق من نبات السرخس أو حصير من قش الذرة، متمددين وأرجلهم إلى النار؛ لكن الجمرات المتبقية، والجدران السيئة الضم، لا تقوى، وسط الليل، على دفع البرد القارس على ارتفاع ألف متر.

على هذه الغرفة الوحيدة، تقتصر البيوت التي يبنيها الأهالي؛ لكن غرفة وحيدة تستعمل في المنازل التي تبنيها الحكومة. حيث تعرض على الأرض كل ثروة الهندي، في فوضى كانت تثير استنكار أدلائنا، وهم من الكابوكلوس المجاورين، إذ لا يمكن تمييز الأشياء البرازيلية، إلا بصعوبة، من الأشياء المصنوعة محلياً. فتتكون الأولى عموماً، من الفؤوس والسكاكين والصحون المطلية بالمينا والأوعية المعدنية، والأقمشة وإبر الخياطة، وبعض القناني، أحياناً، وحتى مظلة. والأثاث بسيط أيضاً كبعض المقاعد الخشبية الواطئة، من دون ظهر، ذات أصل غواراني، يستعملها الكابولكوس أيضاً، وسلال من كل الأحجام ولشتى الاستعمالات، ومناخل للدقيق، وهاون من الخشب، ومدقة من الخشب أو الحجر، وبعض الفخاريات، وأخيراً، كمية كبيرة من الأوعية المختلفة الأشكال والاستعمالات، صنعت من يقطين فُرغ وجفف. ولكن، ما أصعب حصولنا على أي من هذه الأشياء البسيطة، فقد كان توزيعنا المسبق للخواتم والأساور والدبابيس الزجاجية غير كاف، أحياناً، لإقامة الاتصال الودي اللازم. وحتى المبلغ الكبير الذي أُعطي لصاحب البيت، لم يرضه. «هو لا يستطيع» «لو الشيء من صنعه، لقدمه طواعية، لكنه حصل عليه من امرأة عجوز، منذ وقت طويل، وهي الوحيدة التي تستطيع صنع هذه الأشياء. وإذا أعطانا إياه، فكيف يعوضه؟» والمرأة العجوز ليست، بالطبع، في بيتها أبداً، أين؟ «إنه لا يعرف» -حركة مبهمة - «في الغابة». ومن

جهة أخرى، ماذا تساوي هذه الأموال لدى هذا الهندي العجوز، الذي يرتجف من الحمى، على بعد مائة كيلو متر من أقرب دكان للبيض؟ ويشعر المرء هنا بالخجل من انتزاعه أداة صغيرة من هؤلاء الناس المملقين، يشكل فقدها نقصاً، لا يمكن تعويضه.

لكن الأمر يجري بطريقة أخرى غالباً. أتريد هذه الهندية بيع هذه القدر؟ «بالتأكيد، إنها ترغب بذلك، لكنها ليست لها للأسف. لمن إذاً؟ صمت - هل هي لزوجها؟ لا. - لأخيها؟ لا. لابنها؟ لا.» إن القدر لابنتها التي تمتلك، بالطبع، كل ما نريد شراءه. وننظر إليها -عمرها ثلاثة أعوام أو أربعة- وهي مقرفصة بجوار النار، تتفحص الخاتم، الذي أدخلته قبل قليل في إصبعها. وهنا تبدأ مع الآنسة، مفاوضات، لا يتدخل الوالدان فيها. إنها لا تكترث بخاتم وخمسمائة رَيّس(*)، لكن دبّوساً وأربعمائة ريس تقنعها.

قليلاً ما يزرع الكينانغ الأرض، لكن الصيد النهري والبري بالإضافة إلى التلقيط، تشكل شغلهم الأساسي. وطرق الصيد النهري، تقليد سيء لطرق البيض، وفاعليتها محدودة: إذ يتم بغصن مرن، وشص في طرف خيط، وأحياناً قطعة قماش بدلاً من الشبكة. لكن الصيد البري والتلقيط ينظمان هذه الحياة المترحلة، إذ تختفي العائلات لأسابيع، حيث لا يتبعها أحد في منتجعاتها السرية، ومساراتها المعقدة. وقد التقينا، أحياناً، زمرهم الصغيرة، في منعطف درب، خارجين من الغابة للاختفاء فيها حالاً؛ الرجال في المقدمة، مسلحون بأقواس مخصصة لرمي الكريات لصيد الطيور، وقد علقوا على أكتافهم كنانات من القصب، تحتوي قذائف الصلصال المجفف؛ ثم النساء، يحملن كل ممتلكات العائلة في سل معلق بواسطة وشاح من القماش أو عصابة عريضة من لحاء الشجر، مرتكز على الجبهة. وهكذا يتنقل الأطفال والأشياء المنزلية. فنتبادل بعض الكلمات، ونحن ممسكون بأعنة جيادنا، وهم لا يكادون يبطئون في سيرهم. ثم تعود الغابة إلى صمتها. وكل ما نعرفه هو أن المنزل القادم، سيكون

(*) رَيس: ومفردها رَي: العملة المتداولة في البرازيل. (المترجم)

شاغراً كالكثير غيره. ولكن إلى متى؟

حياة الترحل هذه، قد تدوم أياماً وأسابيع. ويدفع موسم القنص، وموسم الفاكهة إلى تنقلات كثيفة للسكان. ففي أي مأوى يعيشون بأعماق الغابة؟ وفي أي مخبأ يخفون قِسيَّهم(*) وسهامهم، التي لا يرى منها، مصادفة، إلا بعض القطع المنسية في زاوية البيت؟ ومع أية تقاليد وشعائر ومعتقدات يعيدون عقد الصلات؟

(*) جمع قوس. (المترجم).

وللبستنة مكانها أيضاً في هذه الحياة البدائية. إذ يصادف المرء أحياناً، في قلب الغابة، مستصلحات للأهالي. فبين الأسوار العالية من الأشجار، تحتل بعض الخضرة الهزيلة بضع عشرات من الأمتار المربعة: أشجار الموز، البطاطا الحلوة، المانيوق، الذرة. ويجفَّف الحَب أولاً على النار، ثم تهرسه بالهاون امرأة أو اثنتان. ويؤكل الدقيق كما هو، أو يخلط بالدهن ليشكل عجينة متماسكة؛ وتضاف الفاصولياء السوداء إلى هذا الطعام؛ ويأتي الغذاء الحيواني من الطرائد والخنازير شبه المدجنة؛ ويشوى اللحم دائماً، فيشك في غصن فوق النار.

ولابد أن نذكر الكورو، وهي يرقات شاحبة تتكاثر في بعض جذوع الأشجار النخرة. وقد أدت سخرية البيض من الهنود لأكلهم هذه الحشرات إلى جرح شعورهم، فلم يعودوا يعترفون بميلهم إليها، وينكرون بشدة أكلهم لها. ولكن ما على المرء إلا أن يجول في الغابة، ليرى على طول عشرين متراً،أثر شجرة كبيرة اقتلعتها العاصفة، وهشمت وأضحت شبح شجرة، فقد مر الباحثون عن اليرقات من هنا. وإذا ما دخلت بيتاً هندياً فستلمح كأساً مملوءة بهذه اليرقات، قبل أن تمتد يد سريعة لإخفائه.

ولهذا، ليس من السهل مشاهدة استخراج اليرقات. وقد اقتضى المشروع منا، وقتاً طويلاً، كالمتآمرين، عندما بدا لنا أحد الهنود المحمومين وكان وحيداً في قرية مهجورة، فريسة سهلة. فوضعنا الفأس في يده، وأخذنا بحثه ودفعه، لكن دون جدوى، وكأنه يتجاهل ما نريده منه. هل سيكون هذا، إخفاقاً آخر؟ فليكن! وأخرجنا ورقتنا الأخيرة:

نحن نرغب بأكل الكورو. وتوصلنا إلى جر الضحية أمام جذع شجرة. وما هي إلا ضربة فأس حتى ظهرت آلاف القنوات الفارغة، في أعماق الجذع؛ وفي كل منها حشرة كبيرة بلون القشدة، شبيهة بدودة القز، فما علي الآن إلا التنفيذ. وتحت نظرات الهندي الهادئة، قطعت رأس طريدتي، فخرج من جسمها دهن يميل إلى البياض، تذوقته بشيء من التردد: كان له قوام ونعومة الزبدة، ونكهة حليب جوز الهند.

بانتانال

18 كنت بعد هذا التعميد، جاهزاً للمغامرات الحقيقية، وقد سنحت الفرصة إبان فترة العطلات الجامعية، التي تقع في البرازيل، من تشرين الثاني/نوفمبر إلى آذار/مارس، أي في فصل الأمطار. وعلى الرغم من هذا العائق، فقد عزمت على الاتصال بمجموعتين من الأهالي؛ لم تدرس الأولى جيداً، وربما باد ثلاثة أرباعها، هي: الكادوفيو، على حدود الباراغويه، والأخرى معروفة بشكل أفضل، لكنها تبشر بالكثير، وهم: البورور، في ماتوغروسو الأوسط. وعلاوة على ذلك، اقترح المتحف الوطني لريودو جانيرو علي الذهاب، للتعرف على موقع أثري، يوجد في طريقي، مذكور اسمه في المحفوظات، لكن دون أن يتمكن أي شخص من الاهتمام به.

لقد جلت كثيراً، منذ ذلك الوقت، بين ساوباولو والماتوغروسو، بالطائرة حيناً، والشاحنة والمركب والقطار أحياناً أخرى. وهاتان الوسيلتان هما اللتان استعملتهما في ١٩٣٥ -٣٦؛ إذ كان الموقع، الذي ذكرته آنفاً، بجوار الخط الحديدي، ليس بعيداً عن نقطة وصوله في بورتو اسبرانسا، على الضفة الشرقية لريو بارغواي.

ليس ثمة الكثير مما يمكن قوله عن هذا السفر الممل؛ إذ تأخذك شركة سكة حديد نورويست أولاً، إلى بورو، وسط المنطقة الرائدة؛حيث نركب «قطار الليل» لماتوغروسو، الذي يعبر الولاية. سفر لثلاثة أيام في قطار وقوده الأخشاب، بسرعة مخفضة، يتوقف مراراً مدداً طويلة للتمون بالوقود. وكانت العربات من الخشب أيضاً، وغير محكمة: وهذا ما يجعل الراكب يستيقظ، وعلى وجهه طبقة من الصلصال المتصلب، الذي يتشكل من الغبار الأحمر الناعم، وينفذ في كل ثنايا الجلد ومسامه. أما مطعم

القطار فكان أميناً على النظام الغذائي للداخل: لحم طازج أو مقدد، أرز وفاصولياء سوداء مع شراب الفارينها، وهو مستخرج من الذرة أو المانيوق، وأخيراً التحلية البرازيلية الدائمة، وهي قطعة من معجون السفرجل أو الجوافة مع الجبن. وكان الصبيان، عند كل محطة، يبيعون للمسافرين ثمار الأناناس الريانة المنعشة.

ندخل ولاية ماتوغروسو قبل محطة تريس- لاغوس بقليل، عند عبور ريو بارانا، الذي على الرغم من بدء الأمطار، مازال قاعه ظاهراً في عدة مواضع، لاتساعه. ومن ثم يبدأ المنظر الذي سيصبح مألوفاً، ولا يحتمل، ولا غنى عنه، إبان سنوات سفري إلى الداخل، لأنه يميز برازيل الوسطى، من البارانا حتى الأمازون: هضاب مسطحة، أو قليلة التماوج؛ وآفاق بعيدة، ونباتات عوسجية، وقطعان السنمة (وهي أبقار ذات سنام، منشؤها الهند) التي تتعبثر لدى مرور القطار. ويرتكب كثير من الرحالين خطأ بترجمة ماتوغروسو «الغابة الكبرى». والواقع أن ماتو مذكر، وإذاً فترجمته هي «الحرج الكبير»، وما من لفظ يناسب هذه الأرجاء المتوحشة الحزينة، لكن رتابتها تقدم للنفس شيئاً عظيماً ومثيراً.

صحيح أنني أترجم سيراتاو أيضاً بأحراش. ولا للكلمة معنى ضمني مختلف. إذ إن ماتو تدل على طابع موضوعي للمنظر: أي الأحراش في تباينها مع الغابة؛ بينما السيراتاو تشير إلى جانب ذاتي يتمثل في علاقة الإنسان بالمنظر. فيدل السيراتاو إذاً على الأحراش في تعارضها مع الأرض المأهولة والمزروعة؛ أي المناطق التي ليس للإنسان فيها منشآت دائمة.

وقد تنشق الهضبة أحياناً عن واد مشجر ومعشوشب، يوشك أن يضحك تحت السماء الصافية. وهناك صدع أكثر عمقاً، بين كامبوغراند وأكيداوانا، يسمح بظهور الجُرُف المتألقة لجبال ماراكاجو، التي تُؤوي خوانقها مركزاً للبحث عن الماس في كورينتس. وها هو كل شيء يتغير، فما إن نترك أكيداونا حتى ندخل في البانتانال، وهو أكبر مستنقع في العالم، ويحتل حوض الباراغواي الأوسط.

عندما ينظر المرء إليها من الطائرة، هذه المنطقة بأنهارها المتلوية عبر الأراضي المنبسطة، تعرض مشهد أقواس وزخارف متشابكة، يركد فيها الماء. وحتى مجرى النهر، يظهر محاطاً بمنحنيات شاحبة، كأن الطبيعة، كانت ترددت قبل أن تعطيه مساره الحالي المؤقت. أما من الأرض، فيصبح البانتانال منظراً حالماً: حيت تلتجىء قطعان السنمة إلى قمم التلال الصغيرة، لتبدو كمراكب طافية، بينما تشكل جماعات من الطيور الكبيرة، في المستنقعات الفائضة، كالنحام وأبو قردان ومالك الحزين، جزراً متماسكة، بيضاء ووردية، أقل ريشاً من أشجار نخيل الكاراند المروحية، التي تفرز من أوراقها شمعاً ثميناً، وتتناثر غياضها، لتقطع وحدها المشهد الضاحك زوراً لهذه الصحراء المائية.

ويظل بورتو إسبيرانسا - المخيف على العكس من اسمه-في ذاكرتي، كأكثر المواقع غرابة على سطح الأرض، باستثناء ربما فايرأيلاند، في ولاية نيويورك، التي يعجبني أن أضيف إليها الآن، المكانين اللذين يقدمان هذا التشابه، في أنهما يجمعان الخصائص الأكثر تناقضاً، كلاً في مجال مختلف؛ إذ يتبدى فيها العبث الجغرافي والإنساني ذاته، مضحك هنا، ومشؤوم هناك.

أيكون سويفت هو الذي اخترع فايرأيلاند؟ فهي سهم من الرمال، قفر من النبات، يمتد في عرض لونغ أيلاند، طويلاً من دون عرض: ثمانين كيلو متراً في اتجاه، ومائتين أو ثلاثمائة متر في الاتجاه الآخر. والبحر من جهة المحيط عنيف، إلى حد لا يجرؤ معه المرء على السباحة، أما من جهة القارة، فهادىء ضحل لا يتمكن الإنسان فيه من أن يبلل نفسه. ويمضي الوقت إذاً في اصطياد أسماك لا تصلح للأكل؛ وإتقاءً لتفسخها، تأمر لافتات وضعت على مسافات منتظمة الصيادين بدفنها في الرمال، حال اصطيادها. كما تمنع لافتات أخرى المشي على الكثبان، حتى لا تغوص في البحر من تحتها، لشدة قلقلتها. إنها مدينة البندقية مقلوبة. لأن الأرض هي العائمة هنا، والقنوات صلبة: فحتى يستطيع سكان شيري غروف، وهي قرية تحتل الجزء الأوسط من الجزيرة، التجوال، عليهم

استعمال شبكة من الممرات الخشبية المرتكزة على دعائم.

وحتى تكتمل الصورة، فإن أغلبية سكان شيري غروف من الرجال؛ جذبهم، بلا شك، الانقلاب الشامل في كل شيء. وبما أن لا شيء ينمو في الرمال، سوى اللبلاب السام، يتمون السكان، مرة كل يوم، لدى التاجر الوحيد الموجود أسفل الرصيف. ويشاهد، في الشوارع الأكثر ارتفاعاً من الكثبان، أزواج عقيمون، وهم عائدون إلى أكواخهم، يدفعون أمامهم عربات أطفال، (العربات الوحيدة المتناسبة مع ضيق المسالك) لا يشغلهم سوى زجاجات حليب نهاية الأسبوع، التي لن يشربها أي رضيع.

تعطي فاير أيلاند الانطباع بملهاة بهيجة، بينما تشكل بورتو إسبرانسا نسخة منها لأناس أكثر شقاءً. فلا شيء يسوغ وجودها، إلا نهاية خط حديدي، عند النهر، طوله ألف وخمسمائة كيلو متر، عبر بقاع غير مأهولة في ثلاثة أرباعها؛ ولا تتم الصلات مع الداخل بعد ذلك، إلا بالمراكب؛ بينما تتوقف السكة الحديدية على ضفة موحلة، تدعمها ألواح خشبية تستخدم رصيفاً للمراكب البخارية النهرية.

لا سكان إلا موظفو الخط الحديدي، ولا منازل إلا منازلهم. وهي أكواخ خشبية أقيمت وسط المستنقع. يصلون إليها على ألواح مقلقلة من الخشب تشمل البقعة المأهولة. وقد حططنا الرحال في شاليه، وضعته الشركة بتصرفنا، وهو صندوق مكعب يشكل غرفة صغيرة، ترتفع على دعائم عالية، يسمح سلم بالصعود إليها. وينفتح بابها على الفراغ فوق سكة تخزين؛ توقظنا في الفجر صفارة القاطرة البديلة التي سنستخدمها بمثابة سيارة خاصة. الليالي شاقة؛ فالحرارة الندية، وبعوض المستنقعات الضخم، الذي ما انفك يهاجم مأوانا، والناموسيات نفسها، التي ظهر أن فيها خلل، على الرغم من تصميمها الذي درسناه بعناية قبل الانطلاق، كل أولئك جعل النوم مستحيلاً. وعندما تنفث القاطرة بخارها، الساعة الخامسة، عبر أرضيتنا الخشبية الرقيقة، تكون حرارة اليوم السابق ما تزال سائدة. ولا ضباب في الصباح، على الرغم من الرطوبة، بل سماء داكنة، وكأن عنصراً إضافياً زاد الجو ثقلاً، واختلط بالهواء فجعله غير

صالح للتنفس. غير أن القاطرة تسير بسرعة لحسن الحظ، وبإمكاني، وأنا جالس في مهب النسيم، ورجلاي متدليتان في مقدمتها، أن أنفض عني خمول الليل.

وُضعت السكة الوحيدة (لا يمر سوى قطارين أسبوعياً) على عجل، عبر المستنقع، على مجازة هشة، تبدو وكأن القاطرة تجنح للخروج عنها في كل لحظة. وتفوح في جهتي الخط رائحة نتنة من الماء الموحل والمنفر. ومع ذلك فقد كان هذا الماء، هو ما سنشربه لأسابيع.

وتنتصب شجيرات يميناً ويساراً، متباعدة كما في بستان، لكنها على البعد تختلط في كتلة داكنة، بينما تصنع السماء المنعكسة تحت أغصانها بقعاً براقة. ويظهر أن كل شيء يتخمر في حرارة مواتية لنضج بطيء. ولو كان من الممكن المكوث آلاف السنين، فسنرى دون شك، تحول المواد العضوية إلى خُث، وفحم حجري أو بترول. حتى أنني ظننت رؤيته طافياً على السطح، بألوان قوس قزح لطيفة؛ ولذا كان عمالنا يأبون التسليم بأننا نتحمل ونحملهم كل هذه المشقات من أجل بعض كِسر من الفخار!

وأحياناً كانت تعكر الصمت حيوانات، لا تخاف الإنسان كثيراً، من مثل: الفيادو، وهو يحمور ذو ذيل أبيض، وجماعات من الأيما، وهي من النعام الصغير، أو سرب من طيور أبو قردان، تطير على سطح الماء.

وفي الطريق، ينضم العمال إلينا، متسلقين القاطرة. وفجأة نتوقف: إنه الكيلومتر ١٢؛ وهنا ينقطع الخط الفرعي، ويجب بلوغ الورشة مشياً.

إن ماء البانتانال، على عكس الظاهر، بطيء الجريان؛ إذ يجرف قواقع وطمياً تتجمع في نقاط معينة يمد النبات جذوره فيها. وهكذا تتناثر في البانتانال، كتل متشابكة من الخضرة تسمى كابويس، كان الهنود القدامى ينصبون مخيماتهم عليها، ويمكن اكتشاف آثار لإقامتهم فيها.

نذهب إذاً كل يوم إلى الكابويس، حيث توجد ورشتنا، بدرب مشجر رصفناه بعوارض خشبية، كانت مكدسة قرب السكة الحديدية؛ وكنا هناك نمضي أياماً شاقة؛ نتنفس بصعوبة، ونشرب ماء المستنقع الذي تسخنه

الشمس. وتأتي القاطرة لأخذنا عند غياب الشمس، أو إحدى هذه العربات المسماة بالعفريت، يدفعها أربعة عمال، كل منهم في زاوية، على طريقة دفع الجندول. كنا نعود إلى مأوانا، متعبين عطاشاً، كي نأرق في صحراء بورتو إسبيرانسا.

وكانت هناك، على مسافة مائة كيلو متر في الجهة الأخرى، مستغلة زراعية، اتخذناها قاعدة انطلاق لبلوغ الكادوفيو، تحتل شريطاً مساحته ٥٠ ألف هكتار، يسير فيه القطار ١٢٠كم. وعلى هذا الامتداد من العواسج والأعشاب الجافة، يرعى قطيع من ٧٠٠٠ رأس (ينبغي، في المنطقة المدارية، من ٥ إلى ١٠ هكتارات لكل رأس). تُصدَّر بشكل دوري إلى ساوباولو، بفضل السكة الحديدية، التي تتوقف مرتين أو ثلاث، ضمن حدود المستغلة. أما المحطة المخصصة للسكان فتدعى غوايكوروس، مذكِّرة باسم القبائل الكبيرة المحاربة، التي كانت تسيطر على المنطقة في الماضي، ولم يبق منها على الأراضي البرازيلية إلا الكادوفيو.

وكان فرنسيان يُسيّران المستغلة، مع بعض البقارين، لا أذكر اسم الأصغر منهما، أما الأكبر فكان يقارب الأربعين ويدعى فيليكس، وقد مات مقتولاً منذ بضع سنوات على يد أحد الهنود.

كان مضيفانا كَبُرا أو خدما، أثناء الحرب العالمية الأولى؛ ويؤهلهما مزاجهما وقدرتهما، ليصيرا معمرين في المغرب. ولا أدري أية مضاربة دفعت بهما إلى مغامرة غير محمودة العواقب، في منطقة محرومة من البرازيل. ومهما كان من أمر، فالمستغلة أخذت، بعد عشر سنوات من تأسيسها، تذوي بسبب عدم كفاية رأس المال الأولي الذي امتصه شراء الأراضي، دون إبقاء احتياطي لتحسين القطيع والمعدات. وفي بيت خشبي واسع على الطراز الإنجليزي، كان يعيش مضيفانا حياة تقشف؛ مربيين للمواشي في نصفها، وبقالين في نصفها الآخر. والواقع أن المستغلة كانت مركز التموين الوحيد، في دائرة قطرها مائة كيلو متر، أو ما يقرب من ذلك. ويأتي العمال والمياومون، لينفقوا فيها بيد ماربحوه بالأخرى؛ وكانت تسمح حسابات كتابية بتحويلهم من دائنين إلى مدينين، وبذا كانت

المستغلة تعمل بدون نقود تقريباً. وبما أن أسعار السلع كانت، كالمعتاد، ضعف أو ضعفي الأسعار الحقيقية، فمن المفترض في المشروع الربح، لو لم يظل الجانب التجاري ثانوياً. وقد كان مؤلماً رؤية العمال، وهم يدخلون حزمة من قصب السكر، لعصرها في معصرة المستغلة، وصب العصير بعد غليه في قوالب، وخزن المنتج في المخزن الملاصق، حيث يتحولون إلى مشترين، في اليوم نفسه؛ عندما يأتون في المساء، للحصول عليه بثمن غال، ليقدموا لأطفالهم الحلوى الوحيدة المتوافرة في هذه البقاع.

كان مضيفانا ينظران بفلسفة إلى مهنة المستغل الزراعي هذه، من دون أي احتكاك بمستخدميهما خارج العمل، ودون جيران من طبقتهما (نظراً لأن المعزل الهندي، يمتد بينهما وبين مزارع الحدود البارغوية، الأكثر قرباً)؛ إذ يلزمان نفسيهما بحياة صارمة جداً؛ كانت مراعاتها، دون شك، أفضل حماية لهما من تثبيط الهمة. ولم يتنازلا لموطنهما الجديد إلا في شيئين، اللباس والشراب: ففي هذه المنطقة الحدودية، حيث تختلط التقاليد البرازيلية والبارغوية والبوليفية والأرجنتينية، تَبنيازِيَّ البامبا (سهول أمريكا الجنوبية) المؤلف من قبعة بوليفية من القش، والشيريبا وهي نوع من القماط للبالغين، من قماش ملون بألوان هادئة، يترك الساقين عاريتين، خارج حذاء أبيض من كتان خشن، تعلو رقبته حتى بطة الساق. ويستبدلان بالشيريبا، في الأيام الباردة، البومباشا، وهو سروال منتفخ مطرز على الجانبين.

كانا يقضيان أيامهما بطولها تقريباً في الحظائر، يفحصان الحيوانات، ويفرزانها للبيع، عند التجمعات الدورية. وفي عاصفة من الغبار، تمر الحيوانات، تقودها صرخات الرعاة، تحت ناظري المعلمين، لفصلها إلى عدة حظائر. أبقار بقرون طويلة، وأخرى سمينة، وعجول فزعة تتدافع في الممرات الخشبية، حيث يتمنع ثور في الدخول أحيانا، فيدور سوط طوله أربعين متراً عندئذ، فوق رأس الثور الذي يخر حالاً، بينما يشب الحصان على قائمتيه الخلفيتين منتصراً.

لكن الجميع يجتمعون مرتين في اليوم -١١،٣٠ صباحاً و٧ مساءً - تحت الظلة، التي تحيط بالمسكن، لطقس شرب المتة بواسطة أنبوب. والمتة شجيرة من عائلة البلوط الأخضر، تحمص أغصانها قليلاً بدخان موقد تحت الأرض، ثم تطحن طحناً خشناً، وتحفظ طويلاً في براميل خشبية. وأعني هنا، المتة الحقيقية، لأن ما يباع في أوروبا بهذا الاسم، يكون خضع إلى تحولات مؤذية إلى حد يفقده كل تشابه مع الأصل.

هناك عدة طرق لشرب المتة. فأثناء ترحلنا، وعندما نكون منهكين ومتلهفين إلى ما تجلبه من سلوى، كنا نكتفي بوضع حفنة منها في الماء البارد، ثم رفعها عن النار ما إن يبدأ الغليان -وهذا مهم- وإلا فقدت المتة كل نكهتها. وتدعى عندئذ شا المتة أي نقيع عكسي، بلونها الأخضر الداكن الشبه زيتي، كفنجان قهوة قوية. وحسبنا، عند ضيق الوقت، التيريريه التي تقوم على مص الماء البارد بمصاصة، بعد وضع المسحوق فيه، ويمكن أيضاً إذا خشي المرء المرارة، تفضيل المتة الحلوة، على طريقة الباراغويات الجميلات. فيجب عندئذ حرق المسحوق الممزوج بالسكر على نار متأججة، وصب الماء الغالي على هذا المزيج ثم نخله. لكنني لا أعرف هاوي متة لا يضع الشيماراو فوق كل هذه الوصفات. والشيماراو هي طقس اجتماعي وعادة شخصية معاً، كما تمارس في المزرعة.

يجلس الجميع حلقة حول فتاة صغيرة هي الشينا، تحمل مغلاة ومجمرة والكويا، من قرعة محاطة فوهتها بالفضة أحياناً؛ وأحياناً أخرى -كما في غوايكوروس- من قرن سُنَّمة، نحته أحد الأجراء. يملأ الإناء إلى ثلثيه بالمسحوق الذي تصب الفتاة الماء الغالي عليه تدريجياً؛ وعندما يشكل المزيج عجينة، تحفر بالمصاصة الفضية المنتهية في أسفلها بانتفاخ مثقب، فراغاً بحيث تصل المصاصة إلى أعمق ما يمكن، حيث يتجمع السائل. وبعدما يتم تهيئة الشماراو هكذا، تشبع بالسائل، قبل أن تقدم إلى رب المنزل، فيمص مرتين أو ثلاثاً، ويقلب الوعاء، وتُكرر العملية لكل المشاركين، الرجال أولاً ثم النساء إذا وجدن. وتعاد الأدوار حتى نفاد

الماء من المغلاة.

تعطي الرشفات الأولى إحساساً لذيذاً -للمعتاد على الأقل، لأن الغر يحترق- ينتج من ملمس الفضة الدهني، والماء الفوار برغوة وفيرة: مراً وشذياً في آن، كغابة بأسرها، ركزت في بضع قطرات. تحتوي المتة مادة عفصية شبيهة بما يوجد في القهوة والشاي والشوكولاته، لكن مقدارها (ونصف نضج الأوراق) يفسر ربما ميزاتها المهدئة والمنشطة في الوقت نفسه. تفقد المتة، بعد عدة دورات، طعمها، لكن استكشافات متأنية تسمح بوصول المصاصة إلى تجاويف ما تزال بكراً، تمدد المتعة بقدر ما تقدم من لذعات مرار صغيرة.

فالمتة في المقدمة إذن، تأتي بعدها بكثير الغارانا الأمازونية، التي سأتحدث عنها لاحقاً، ثم الكوكا المحزنة، في الهضبة البوليفية: مضغ دون طعم لأوراق مجففة، تتحول سريعاً إلى كريات متليفة، بطعم مغلي الزهورات، تفقد الأغشية المخاطية حساسيتها، وتحول لسان الماضغ إلى جسم غريب. ولا أرى مشابهاً لها سوى مضغ أوراق التنبول المحشوة بالتوابل، مع أنها تحرق الفم بوخزة من النكهة والطيب.

كان هنود الكادوفيو، يعيشون في الأراضي الواطئة لضفة ريو باراغواي اليسرى، تفصلهم عن المستغلة تلال سلسلة بودوكينا. وكان مضيفانا يريان أنهم كسالى ومنحلون ولصوص وسكيرون؛ ولذا كانوا يُطردون بخشونة إذا ما حاولوا الدخول إلى المراعي. وكانت تبدو لهما بعثتنا آيلة للفشل سلفاً. وعلى الرغم من مساعدتهما السخية، التي لولاها ما كان لنا أن نحقق مسعانا، فقد كانا ينظران إليها باستهجان. وكم كانت دهشتهما، عندما رأيانا نعود، بعد عدة أسابيع، بثيران محملة بجرار خزفية كبيرة مطلية ومنقوشة؛ وجلود بزخرفة كالأرابيسك، ومنحوتات خشبية تصور معبداً اندثر .. وكان ذلك كشفاً، أدى بهما إلى تبدل غريب: فلدى زيارة قام بها دون فيليكس إلي، في ساو باولو، بعد عامين أو ثلاثة، فهمت أنه ورفيقه، على الرغم من تعاليهما السابق على السكان المحليين، قد انحازا إلى الأهالي؛ والصالة البورجوازية الصغيرة في المستغلة،

مفروشة الآن بجلود ملونة، وفخاريات محلية في كل ركن؛ ويلعب صديقانا لعبة الأسواق السودانية أو المغربية، كإداريي المستعمرات الطيبين، الذين كانا أحسنا صنعاً، لو اختارا وظيفتهم.وبما أن الهنود أضحوا موردين دائمين لهما، فقد كانوا يُستقبلون في المستغلة، حيث يتم إيواؤهم، عائلات بأسرها، في مقابل تحفهم. إلى أين وصلت هذه الحميمية؟ من الصعب التسليم بأن عازبين، استطاعا مقاومة جاذبية الفتيات الهنديات أنصاف العرايا، أيام الأعياد. وعلى كلٍ، فنحو العام ١٩٤٤ أو ١٩٤٥، قُتل الدون فيليكس من أحد المقربين الجدد، ضحية للاضطراب الذي سببته في نفسه، زيارة اثنوغرافي مبتدئ، أكثر مما كان ضحية للهنود.

زودنا مخزن المستغلة بالمؤونة، من لحم قديد وأرز وفاصولياء سوداء، ودقيق المانيوق والمتة والقهوة. كما أعارونا المطايا، خيولاً للرجال وثيران للأمتعة، لأننا كنا نحمل معنا أشياء للمبادلة، بقصد جمع التحف، من مثل: لعب الأطفال، وعقود الخرز، والمرايا، والأساور، الخواتم والعطور، وأخيراً: قطع من النسيج وأغطية وملابس وأدوات. وكان عمال المستغلة معنا كأدلاء، رغماً عنهم في الواقع، لأننا انتزعناهم من أسرهم، إبان أعياد الميلاد.

كان الأهالي في القرى، يترقبون وصولنا، لأننا ما إن وصلنا إلى المستغلة، حتى ذهب مياومون هنود، يعلنون زيارة أجانب يحملون هدايا. وكانت هذه البشرى، توحي للأهالي بهواجس مختلفة، كان الهاجس المسيطر فيها، هو أننا نأتي للاستيلاء على أرضهم.

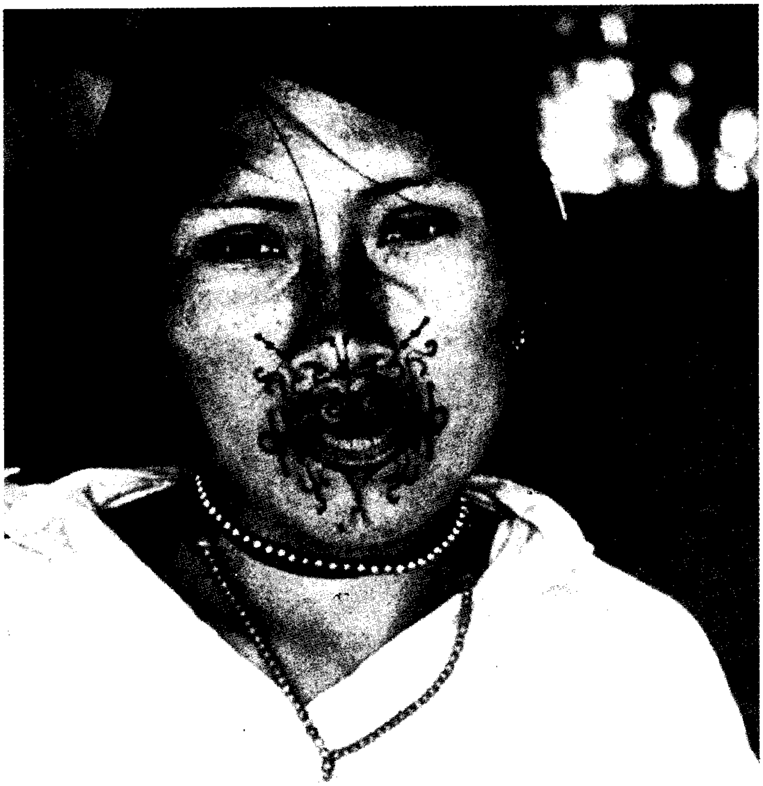
كادوفيـــو




2

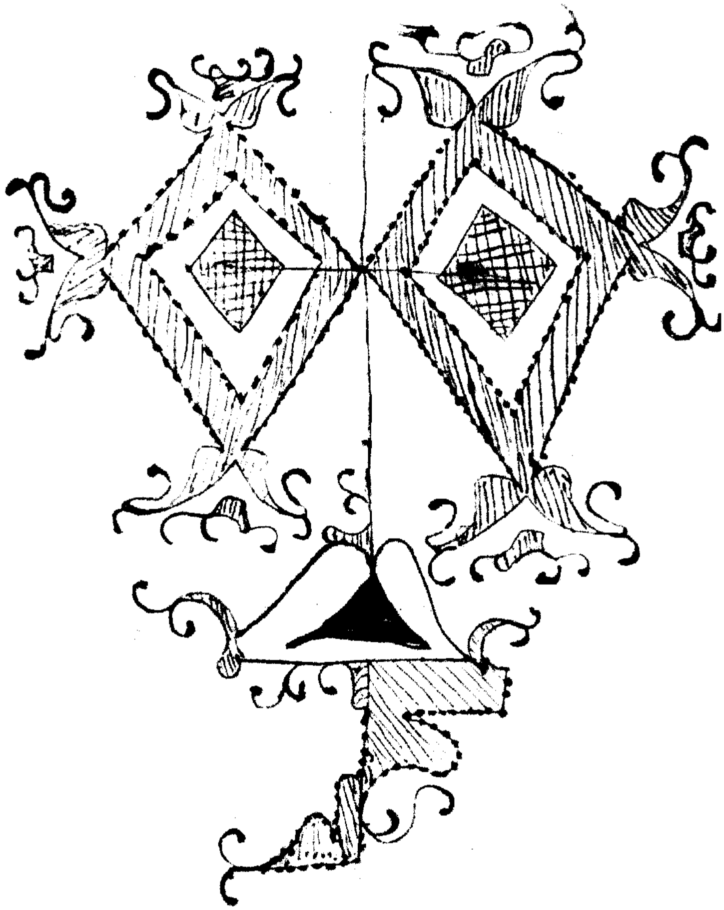

3

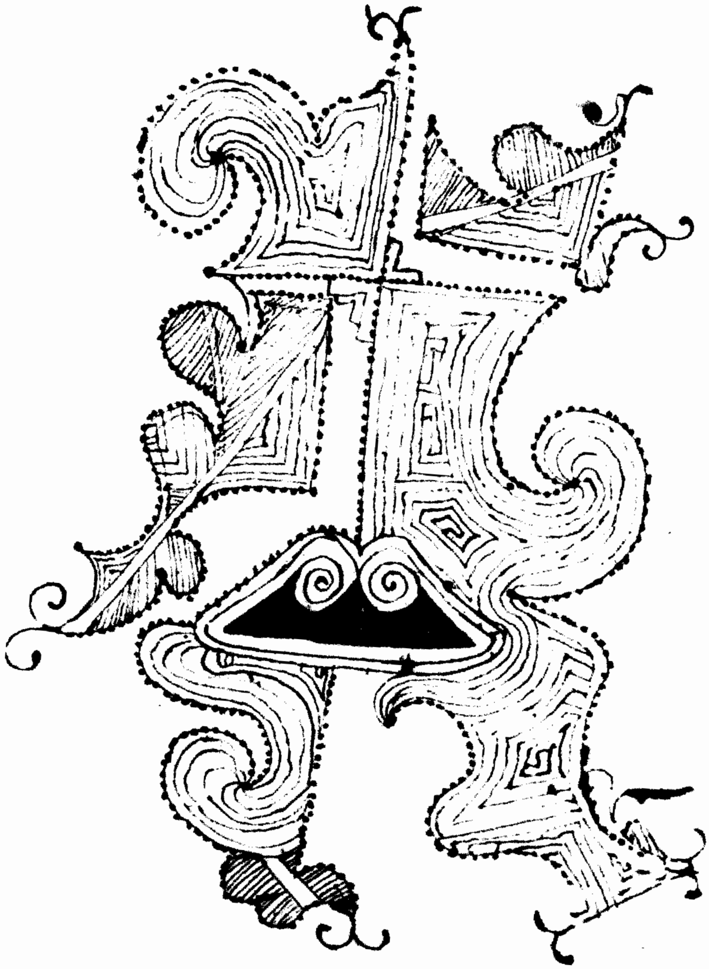

4

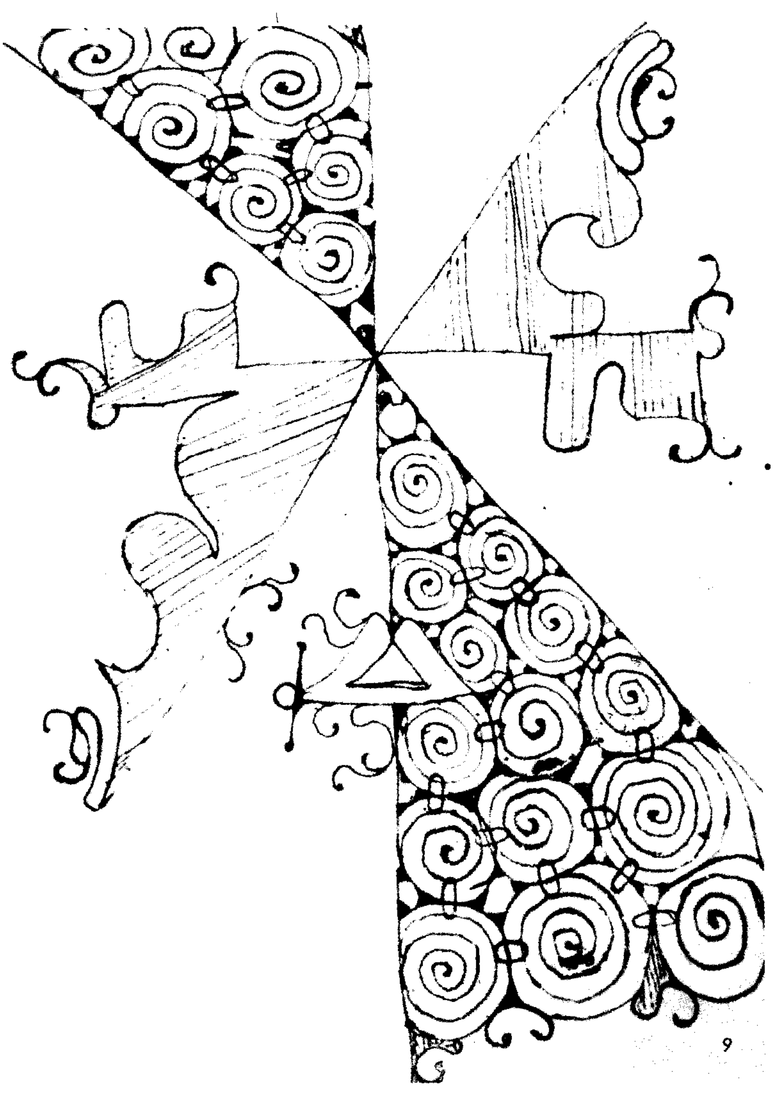


5

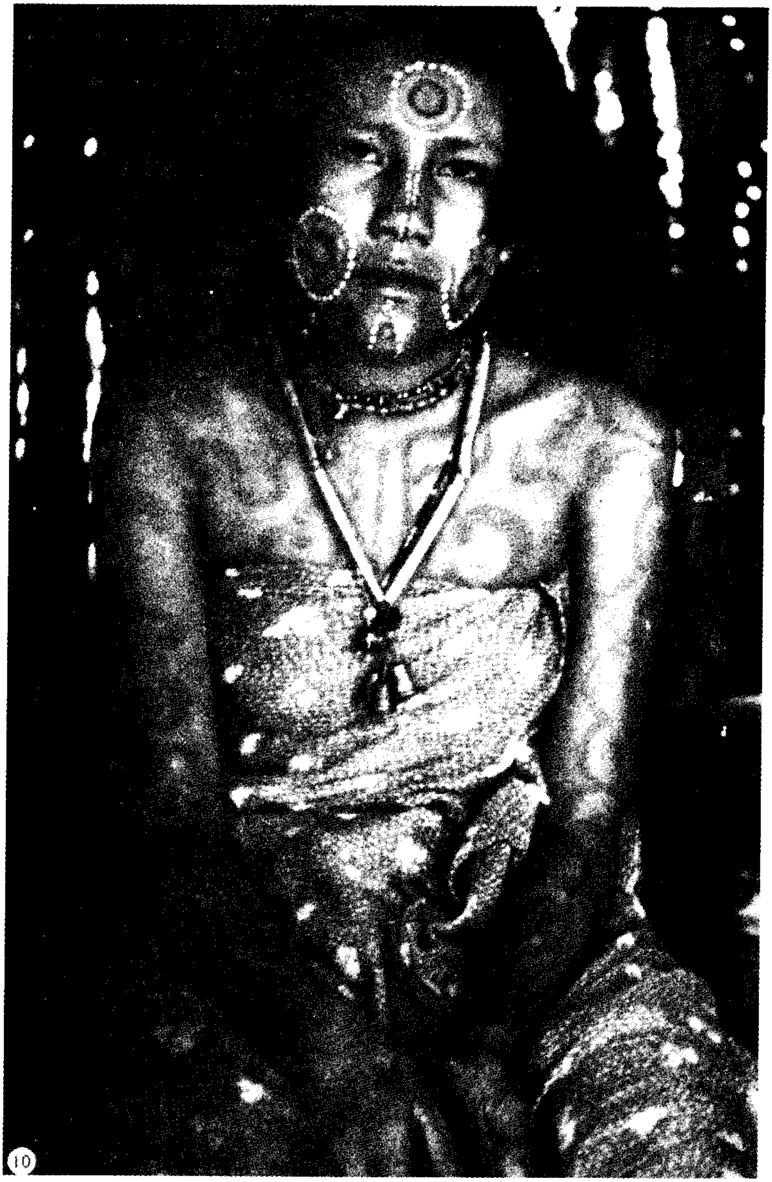








9


10





12



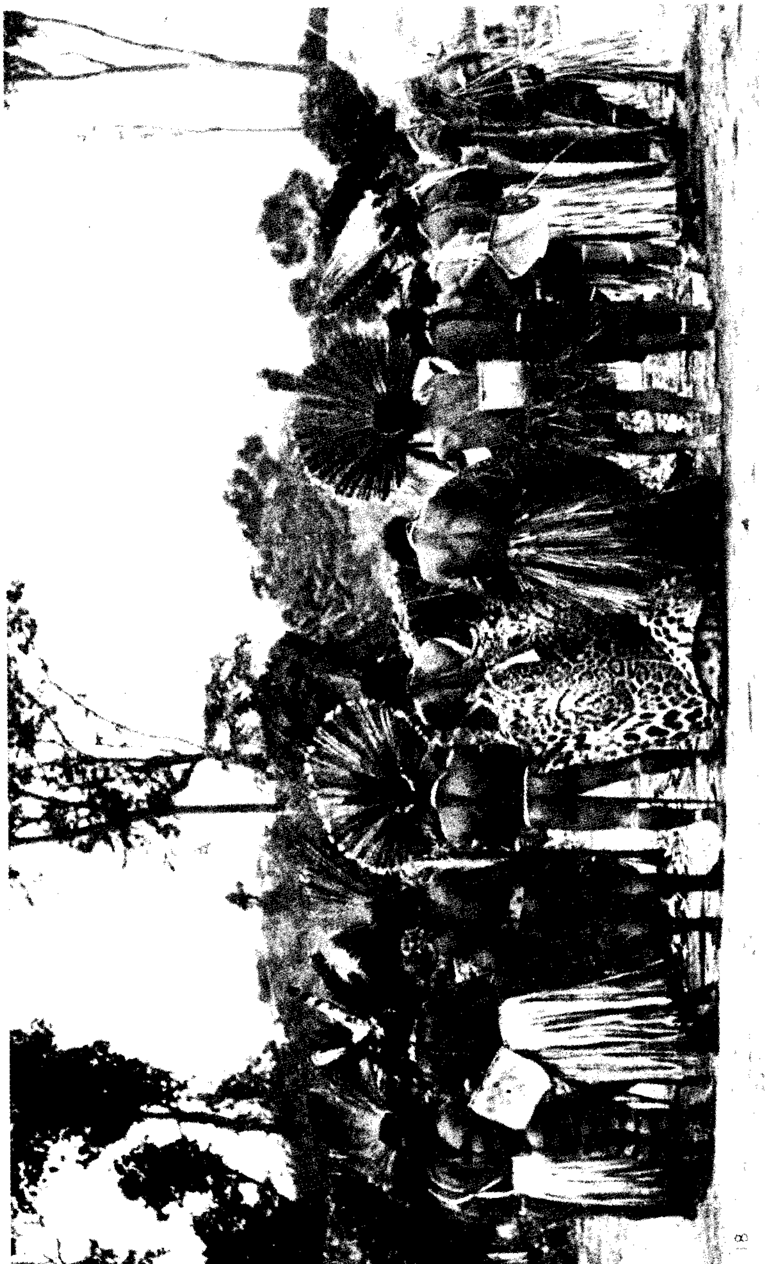
3


14


15


16


17




19


20

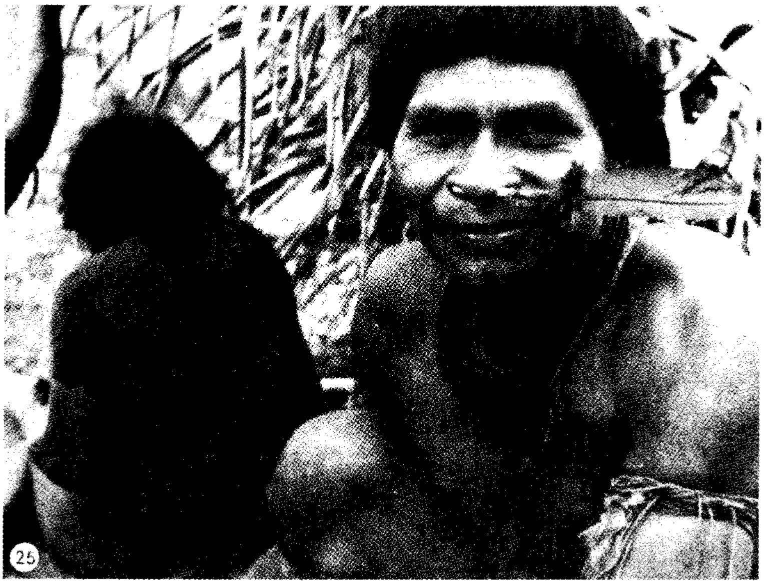

21


22





24



25






28


29

30

31











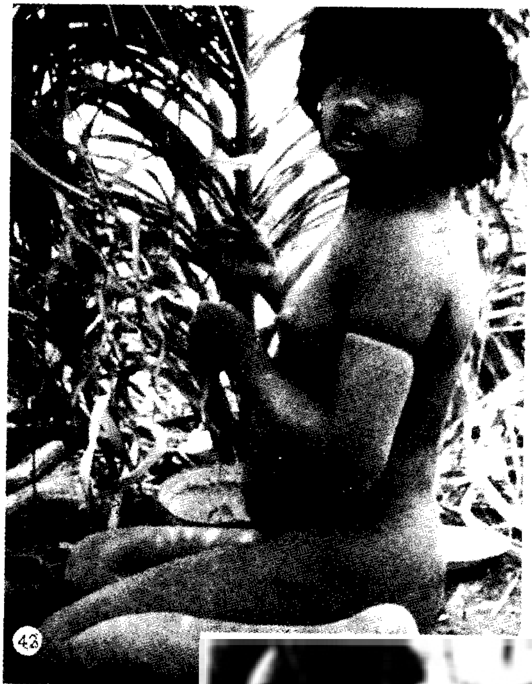

37




39

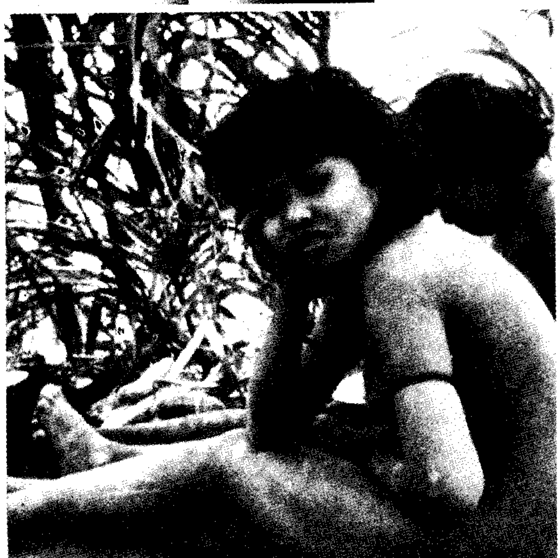




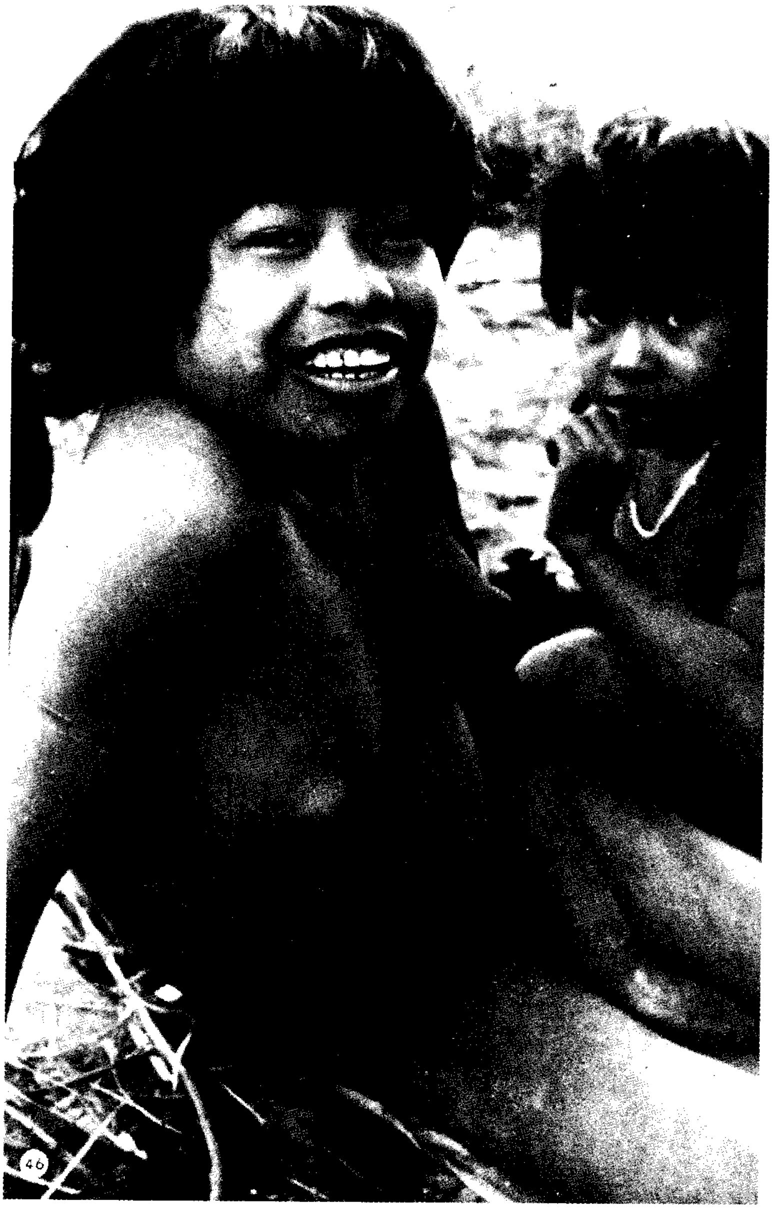

42





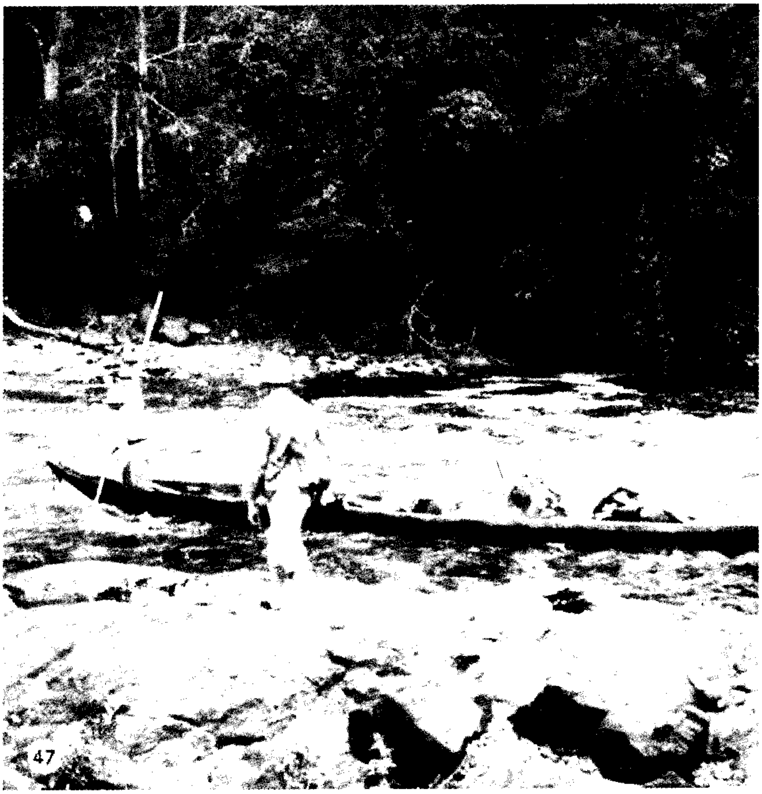


45


46

توبي - كاوابي

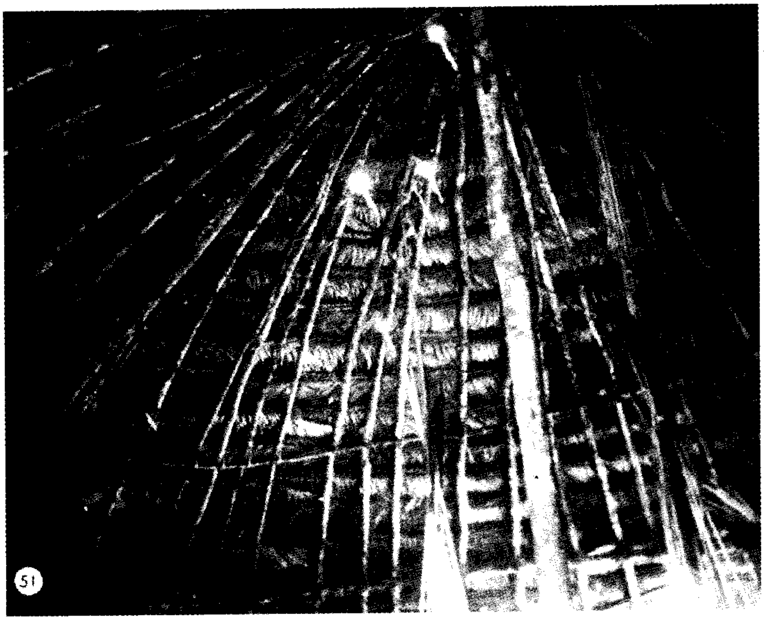



47


48




50

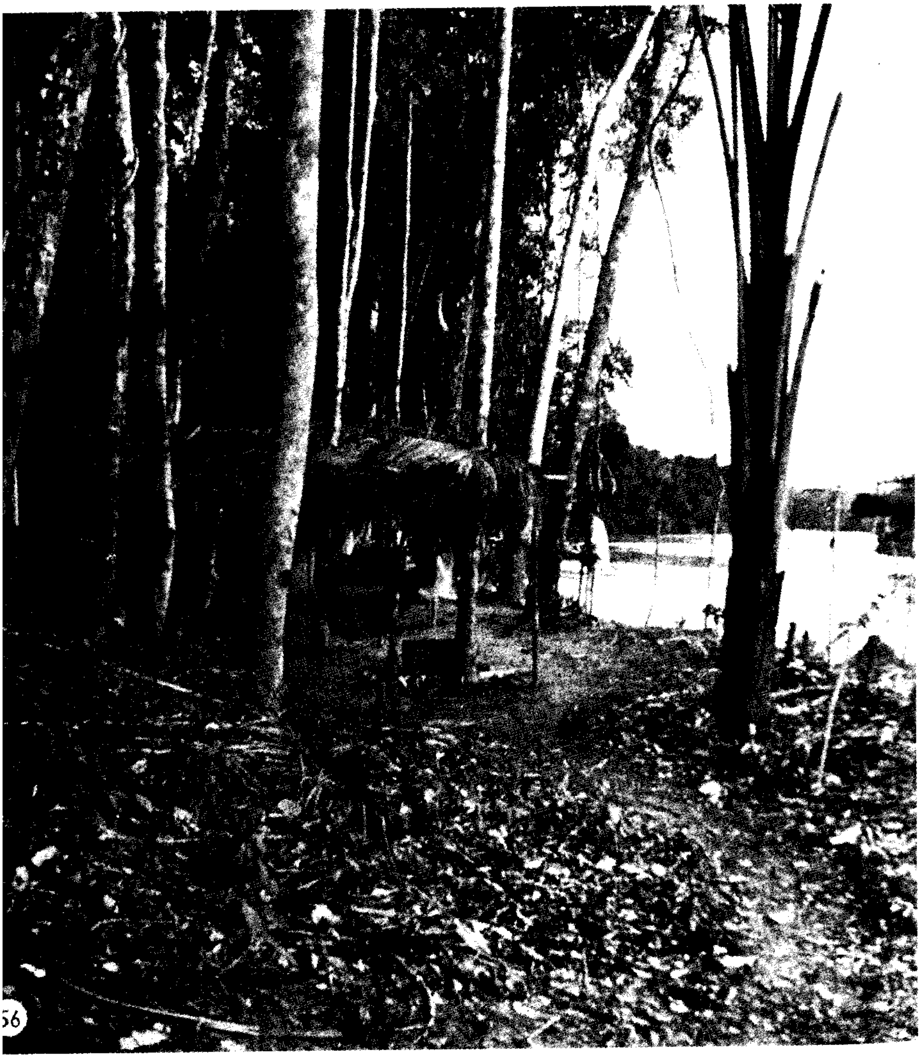

51




53




55


56




58


59






62


63

نـاليكـــه

19 تبعد ناليكه، عاصمة بلاد الكادوفيو، بنحو مائة وخمسين كيلو متراً عن غوايكوروس، أي ثلاثة أيام على ظهور الجياد. أما ثيران الحمولة، فأرسلناها سلفاً، نظراً لبطئها. كانت نونيا، المرحلة الأولى، بعد تسلق منحدرات سلسلة البودوكوينا، وقضاء الليلة على الهضبة، في آخر مراكز المستغلة. وسرعان ما توغلنا في أودية ضيقة مليئة بأعشاب عالية، وجدت الجياد صعوبة في اختراقها، وزاد وحل المستنقعات من صعوبة السير. فالحصان يفقد موطىء قدميه، ويكافح ثم يرجع إلى الأرض الصلبة، على قدر طاقته، فيجد المرء نفسه مطوقاً بالنباتات، وحذار عندئذ أن تفرغ ورقة بريئة في الظاهر، تلك البيضة التي تتشكل من تزاحم كمية من البراغيث وتحتمي بالورقة. إذ تتسرب الحشرات تحت الملابس، وتغطي الجسم كطبقة مائعة، تنغرس في الجلد. وليس أمام الضحية من دواء، إلا الإسراع بالقفز عن الحصان، ونزع كل ثيابه لنفضها بعنف، بينما يقوم أحد رفاقه بتفحص جلده. وهناك الطفيليات الوحيدة الكبيرة، الأقل ترويعاً، ذات اللون الرمادي، التي تعلق من دون ألم بالبَشَرَة، وتكتشف باللمس بعد ساعات أو أيام، وقد أمست تورماً مندمجاً بالجسم، لابد من استئصاله بالسكين.

وأخيراً تنفرج الأدغال، ليظهر طريق كثير الحجارة، يوصل بانحدار خفيف، إلى غابة جافة، تختلط الأشجار فيها بالصبار. لكن العاصفة، التي بدت نذرها منذ الصباح هبت عندما كنا نتفادى قمة مدببة؛ فترجلنا بحثاً عن ملجأ في شق، ظهر أنه كهف رطب لكنه واق، وما إن ولجناه حتى امتلأ بأزيز الوطاويط التي كانت تأوي إليه، وعكَّرنا صفو نومها.

بعدما توقفت الأمطار، واصلنا السير في غابة ملتفة ومظلمة، يفوح

منها عبير ندي، وتمتلىء بالفاكهة البرية، من مثل: الجينيبابو بلبها الثقيل ونكهتها اللاذعة، والغوافيرا الشهيرة بإطفاء عطش المسافر، للبّها البارد دائماً، أو الكاجو، وهو من بقايا أغراس الأهالي القديمة.

تستعيد الهضبة طابع الماتو غروسو: من أعشاب طويلة تتناثر فيها الأشجار. ونقترب من نهاية المرحلة، عبر بقعة مستنقعية ووحل شقّقه النسيم، حيث تتراقص طويلات الساق، ونصل إلى حظيرة وكوخ، يمثلان مركز لاغون، وجدنا فيه أُسَرة منهمكة بذبح عجل وتقطيعه. وكان اثنان أو ثلاثة أطفال عراة، يستعملون هيكله العظمي كأرجوحة، منحشرين فيه يتأرجحون صارخين فرحاً. وفوق النار، في الهواء الطلق، التي تلمح عند الغروب، كان اللحم يشوى، ويقطر دهناً، بينما كانت النسور، التي هبطت المكان بالمئات، تنازع الكلاب الدم والفضلات.

سنتبع، انطلاقاً من لارغون، «طريق الهنود» وقد بدا الجبل شديد الانحدار عند النزول، فاضطررنا للترجل والسير بالجياد التي هَيجتها وعورة التضاريس؛ ويشرف الدرب على سيل، كنا نسمع خرير مياهه، دون أن نراها وهي تتقافز على الصخور، مشكلة شلالات؛ بينما كنا ننزلق على الحجارة الندية، أو في برك صغيرة موحلة، شكلتها الأمطار الأخيرة. وأخيراً، نبلغ، أسفل الجبل، فرجة خالية، نستريح فيها هنيهة مع مطايانا، قبل استئناف المسير عبر المستنقع.

وعلينا إعداد العدة لنهاية المرحلة، منذ الرابعة مساءً. ولذا نعاين بعض الأشجار، التي يمكن تعليق أراجيح النوم والناموسيات عليها، بينما يشعل الأدلاء النار، ويحضّرون وجبة الأرز مع اللحم القديد. وبلغ العطش منا مبلغاً، جعلنا نبتلع لترات من هذا الخليط المكون من التراب والماء والبرمنغنات، الذي يكوّن شرابنا. الشمس تميل للمغيب، ونتأمل، من وراء غشاوة الناموسيات المتسخة، للحظة، السماء المشتعلة. وما يكاد النوم يداعب جفوننا، حتى نستأنف المسير: فالأدلاء الذين يكونون أسرجوا الجياد يوقظوننا، لأن علينا مراعاة الدواب في هذا الفصل الحار، والاستفادة من برودة الليل. نستأنف سيرنا إذاً تحت ضوء القمر، والنعاس

يداعب جفوننا، ونحن نرتعش؛ وتمضي الساعات، ونحن نترقب طلوع الفجر، بينما الجياد تتعثر. وفي نحو الرابعة صباحاً، وصلنا إلى بيتوكو، حيث كان لمصلحة حماية الهنود مركز هام، لم يبق منه إلا ثلاثة منازل خربة، لا تكاد تصلح إلا لتعليق أراجيح النوم فيما بينها. ويجري نهر بيتوكو صامتاً، بعدما ينبثق من البانتانال، ليتلاشى بعد بضعة كيلومترات. يحتوي هذا الوادي المستنقعي، الذي ليس له منبع ولا مصب، أعداداً من أسماك البيرانا التي تشكل خطراً على المتهور، لكنها لا تمنع الهندي الحذر، من السباحة فيه، واستمداد الماء منه. إذ لا تزال بعض الأسر الهندية متفرقة في المستنقع.

نحن منذ الآن في قلب البانتانال: منخفضات غارقة بالمياه، بين قمم مشجرة أحياناً، وسهول واسعة موحلة دون أشجار، أحياناً أخرى. وقد يكون ثور الركوب أفضل من الحصان، لأنه لثقل وزنه، ولكونه يقاد بحبل مربوط بحلقة تمر من خيشومه، وإن كان بطيئاً، يتحمل بشكل أفضل السير المضني في المستنقعات، وهو غارق في المياه إلى صدره.

كنا في سهل يمتد ربما إلى ريو بارغواي، منبسط إلى حد لا يتمكن الماء معه من الجريان، عندما هبت عاصفة، كانت من أكثر ما رأيته في حياتي عنفاً؛ ولا ملجأ أو شجرة على مد البصر، ولم يكن أمامنا سوى السير قدماً، والماء يتصبب منا ومن مطايانا؛ بينما كانت الصواعق تضرب يميناً وشمالاً، مثل قذائف حاجز مدفعية. وبعد ساعتين من المحنة، توقفت الأمطار، وبدأنا نلحظ الغيوم وهي تسري عبر الأفق، كما يحدث في أعالي البحار. ولكن بدت على طرف السهل شرفة طينية، ترتفع بعدة أمتار، عليها عشرة أكواخ، تتقاطع ظلالها مع السماء. كنا في انفينهو، قريباً من ناليكه، حيث قررنا الإقامة، عوضاً عن العاصمة القديمة، التي كانت تتألف في ١٩٣٥ من خمسة أكواخ فقط.

لا تختلف هذه الضيعة، بالنسبة للعين غير المدربة، عن ضياع الفلاحين البرازيليين الأكثر قرباً، الذين يتماهى الأهالي بهم في اللباس، وغالباً بالملامح، لكثرة الخلاسيين بينهم. أما اللغة فشيء آخر: ذلك أن صوتيات

لغة الغوايكورو، تحدث في الأذن إحساساً مريحاً: فنُطْق متسارع وكلمات طويلة، تغلب عليها أحرف صوتية جلية، وتَناوُب بين الأحرف النطعية والحلقية، والكثير من الأصوات الصامتة الحلقية أو السلسة تعطي الانطباع بأن غديراً يقفز ماؤه على الحصى. وكادوفيو، الاسم الحالي، محرف من الاسم، الذي كان الأهالي يدعون أنفسهم به: كاديغو يغودي. إلا أننا لم نكن ننوي تعلم اللغة في فترة بهذا القصر، على الرغم من أن برتغالية مضيفينا الجدد، كانت بدائية جداً.

كانت هياكل المنازل مكونة من جذوع أشجار مقشورة،غرزت في الأرض وتحمل الركائز. وغطاء من سعف النخيل المضفورة، تشكل السقف ذا الانحدار المزدوج؛ ولكن، على خلاف الأكواخ البرازيلية، لم يكن ثمة جدران، وبهذا يمثل البناء نوعاً من الحل الوسط بين مساكن البيض (التي استعير منها شكل السقف) وسقيفات الأهالي القديمة ذات السقف المستوي المغطى بالحُصُر.

وتبدو أبعاد هذه المساكن أكثر دلالة: فالقليل منها يؤوي أسرة واحدة، وبعضها شبيه بعنابر مستطيلة، يؤوي حتى ست أسر، تتصرف كل منها بقسم، تحدده أعمدة الهيكل، ومزود بفاصل من ألواح خشبية -واحد لكل أسرة- حيث يقضي أفراد الأسرة الوقت، جالسين أو متمددين أو مقرفصين، بين جلود الأيائل والمنسوجات والقراع المفرغة المجففة، والشباك وأوعية الخوص، الموضوعة والمكومة والمعلقة في كل مكان. وتشاهد في الأركان جرار الماء الكبيرة المزخرفة، الموضوعة على مسند مكون من مشعب ذي ثلاثة أغصان مغروز من طرفه الأسفل ومنحوت أحياناً.

كانت هذه المساكن في الماضي «مساكن طويلة» على الطريقة الإيروكية، وبعضها لا يزال يستحق هذا الاسم، ولكن أسباب تجمّع أسر في جماعة عمل واحدة أضحت غير ملزمة، إذ لم يعد الأمر متعلقاً كما في السابق، بالسكن مع الحمي، حيث كان الأصهار يتجمعون مع زوجاتهم في بيت حميهم.

ومن جهة أخرى، يشعر المرء بأنه بعيد عن الماضي، في هذه الضيعة البائسة، حيث اختفت حتى ذكرى الازدهار، الذي شاهده الرسام والمستكشف غويدو بوجياني، منذ أربعين عاماً، حين أقام في المنطقة على فترتين، في ١٨٩٢ و ١٨٩٧، وترك عن هذه الرحلة وثائق اثنوغرافية هامة، ومجموعة موجودة في روما، علاوة على مذكرات سفر لطيفة. ولم يكن يتجاوز سكان المراكز الثلاثة المائتي شخص، يعيشون من الصيد و«تلقيط» الفاكهة البرية، وتربية بعض الثيران والطيور الداجنة، وزراعة المانيوق في بعض الحقول التي ترى فيما وراء النبع الوحيد الذي يجري أسفل الشرفة، وكنا نذهب إليه للاغتسال وسط البعوض، ولنتح ماء عكر فيه شيء من الحلاوة.



الشكل (١): جرة ماء مزخرفة باللون الأحمر الفاتح وملمعة بالراتنج الأسود

وفيما عدا جدْل القش، ونسج الأحزمة القطنية التي يلبسها الرجال، وطرق قطع نقدية -من النيكل، أكثر من الفضة- يصنعون منها دوائر وأنابيب تُشك في العقود، فإن الخزف هو النشاط الرئيسي. إذ تمزج النساء صلصال نهر بيتوكو بكسَر فخارية تسحق، ويصنعن من العجينة حبالاً، تركب بشكل حلزوني، ويُربّت عليها لتتلاصق حتى تتشكل القطعة، ويتم النقش عليها وهي طرية بوساطة خيط، ثم تطلى بأكسيد الحديد الذي يوجد في الجبال، وتشوى في الهواء الطلق. ولا يبقى بعد ذلك إلا إتمام الزخرفة باستعمال نوعين من البرنيق الراتنجي المذاب، باللونين الأسود والأصفر الشفاف. وبعدما تبرد القطعة، يذر عليها مسحوق أبيض -طباشير أو رماد- لإبراز النقوش.

أما للأطفال، فكانت النساء يصنعن دمىً تمثل شخوصاً أو حيوانات،

من كل ما يقع في أيديهن: كالصلصال والشمع أو قرون البقول المجففة، كن يكتفين بتعديل شكلها.

وكنا نجد بين أيدي الأطفال تماثيل صغيرة من الخشب المنحوت بملابس براقة يلعبون بها، بينما تحفظ تماثيل صغيرة بعناية، مع أنها شبيهة بالأولى، من قبل بعض العجائز. فهل هي لعب؟ أم تماثيل آلهة؟ أم صور للأسلاف؟ لا يستطيع المرء الإجابة، لا سيما وأن التمثال نفسه كان ينتقل أحياناً، من وظيفة إلى أخرى. إن المغزى الديني، لبعض التماثيل الموجودة في متحف الإنسان، لا ريب فيه، إذ يمكن التعرف في أحدها على أم التوائم، وفي آخر على العجوز الصغير، وهو إله هبط إلى الأرض، وأسيئت معاملته من قبل ناس يقاصصهم، فيما عدا الأسرة التي وجد عندها الحماية. ومن جهة أخرى، من التبسيط الشديد اعتبار التخلي عن المقدسات للأطفال مؤشراً إلى انهيار عبادة. لأن هذا الوضع، مع حرجه في نظرنا، وصفه بوجياني بدقة، منذ أربعين عاماً، وفريتش بعده بعشر سنوات؛ وأدت ملاحظات لاحقة لملاحظاتي بعشر سنوات إلى النتيجة نفسها؛ فاستمرار ظرف دون تغيير لخمسين عاماً، يعني أنه عادي بمعنى ما، ولا بد من البحث عن تأويله في طريقة أكثر انتشاراً مما نظن؛ في معالجة العلاقات بين المقدس والدنيوي، عوضاً عن



الشكل (٢): ثلاث عينات من خزف الكادوفيو

التدهور -الحاصل بالفعل- للقيم الدينية. لأن التعارض بين هذين المفهومين، ليس بالإطلاق ولا بالدوام، اللذين يعجب البعض تأكيدهما.

كان في الكوخ المجاور ساحر - مطبب، تحتوي معداته كرسياً مستديراً، من دون ظهر، وإكليلاً من القش، وخشخاشة من قرعة مفرغة، مغطاة بشبكة مرصعة باللآلئ، وريشة نعام تستعمل للقبض على «الحيوانات» - أي الأرواح الشريرة- التي تسبب الأمراض، ويؤمن العلاج طردها، بفضل القدرة المضادة لروح الساحر الحارسة والمُحافظة علاوة على ذلك، لأنها هي التي تمنع الساحر من إعطائي هذه الأواني الثمينة «التي اعتادت عليها، كما تقول، على لسان الساحر».

أقيم احتفال أثناء وجودنا، تكريماً لسن البلوغ لدى فتاة، تسكن كوخاً آخر؛ بُدِئ بإلباسها على الطريقة القديمة، إذ استبدلت بفستانها القطني، قطعة نسيج مربعة تلف حول الجسم، من تحت الإبطين، ورُسمت على كتفيها وذراعيها ووجهها رسوم كثيرة. كما طُوّق عنقها بكل العقود المتوافرة، ولم يكن كل هذا مراعاة للأعراف ربما، بقدر ما كان محاولة لإبهارنا. يدَرَّب الاثنوغرافيون الشباب على أن الأهالي يخشون التقاط صورهم بآلة التصوير، فمن اللائق إذاً التخفيف من مخاوفهم، والتعويض عما يعتبرونه مخاطرة، بتقديم هدية أو مال. لكن الكادوفيو حسّنوا هذا النظام، لأنهم لم يكتفوا بطلب أجرة، عند تصويرهم، بل كانوا يلزمونني بتصويرهم لأدفع لهم. ولم يكن يمر يوم دون أن تتقدم إلي فيه امرأة بعدتها وعتادها، وتفرض علي، طوعاً أو كرهاً، تكريمها بالتقاط صورة، يتبعه بعض المال. وللاقتصاد في بكراتي،



الشكل (٣): تمثالان صغيران من الخشب العجوز الصغير على اليسار، وأم التوائم على اليمين

كنت أكتفي مراراً بالتظاهر، والدفع.

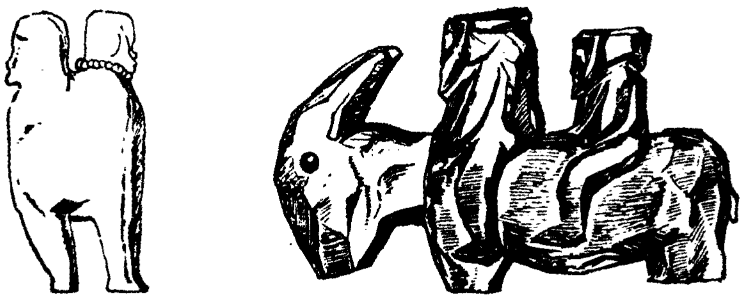
ومع ذلك، فقد كان من الخطأ لو أنني قاومت هذه الخدعة، أو حتى اعتبرتها دليلاً على الانحطاط أو المتاجرة. لأنه، من خلال أساليب ملتوية، تظهر من جديد السمات، التي تميز مجتمع الأهالي، وتتمثل في استقلال وسلطة النساء الكريمات المولد، والتفاخر أمام الأجنبي، وانتظار التكريم من العامة.

ومع أن المظهر قد يكون غريباً ومرتجلاً؛ إلا أن السلوك الذي أوحى به يحتفظ بكل مغزاه، ومنوط بي وضعه في سياق المؤسسات التقليدية. وحدث الأمر نفسه، عند الاحتفالات بفرض المئزر على الآنسة: إذ بدؤوا منذ ما بعد الزوال في شرب البينغا، أي كحول قصب السكر، والرجال جالسون في حلقة، يتفاخرون صارخين بالرتب المستعارة من المراتب العسكرية (الوحيدة التي يعرفونها) من مثل: عريف، مساعد، ملازم أو نقيب، وكانت تلك حقاً «سكرة احتفالية» وصفها سابقاً مؤلفو القرن الثامن عشر؛ حيث كان الرؤساء يجلسون وفقاً لمراتبهم، يخدمهم سُيّاسهم(*)، بينما يعدد المنادون ألقاب الشارب، ويذكرون فعاله. وتثير ردود أفعال الكادوفيو على الشراب الاستغراب: فبعد فترة من الهياج، يخيم عليهم صمت كئيب، ثم ينهمكون بالنحيب، ويأخذ رجلان أقل سكراً بيد المنتحب ويتجولان به جيئة وذهاباً، وهما يتمتمان له بكلمات المواساة والحنان، حتى يقرر التقيؤ، ومن ثم يعود الثلاثة إلى أماكنهم حيث يستمر السكر.

(*) جمع سائس.

وكانت النساء في هذه الأثناء، يغنين أنشودة رتيبة مختصرة، يكررنها دون كلل، وتنطلق بعض العجائز أحياناً، وقد شربن، إلى الغناء بحركات لا ضابط لها، وهن يتكلمن كلاماً أقرب إلى الهذيان، وسط الضحكات والصخب. وهنا أيضاً، من الخطأ اعتبار سلوكهن مجرد مظهر للامبالاة ولانعدام الحياء لدى سكيرات عجائز؛ لأن المؤلفين القدامى يشهدون بأن الاحتفالات، ولا سيما تلك التي تجري في أهم أطوار النمو لطفل نبيل، كانت تمتاز بعروض نسائية في أدوار تنكرية: كالاستعراضات الحربية،

والرقصات والمباريات. إن هؤلاء الفلاحين الضائعين في أعماق مستنقعهم، بثيابهم الرثة، يقدمون مشهداً بائساً حقاً، لكن انحطاطهم نفسه، يجعل عنادهم أكثر تأثيراً؛ هذا العناد الذي حافظوا به على بعض ملامح الماضي.



الشكل (٤): تمثالان صغيران
الأيسر من الحجر، والآخر من الخشب يمثلان شخصيات أسطورية

مجتمع الأهالي وأسلوبه

20 تتميز مجموع أعراف شعب ما دائماً، بأسلوب معين وتشكل منظومات. وأنا على قناعة بأن عدد هذه المنظومات محدود، وأن المجتمعات البشرية، كالأفراد -في لعبهم وأحلامهم وهذياناتهم- لا تبدع أبداً بصفة مطلقة، بل تكتفي باختيار بعض التوافيق من فهرس مثالي، يكون من الممكن إعادة تكوينه. فمن خلال جرد لكل الأعراف الملاحظة، والأعراف المتخيلة في الأساطير، وتلك التي تستحضر في ألعاب الأطفال والبالغين، وفي أحلام الأصحاء أو المرضى، وفي السلوكيات النفسية - المرضية، نتوصل إلى وضع جدول دوري، كجدول العناصر الكيميائية، تظهر فيها كل الأعراف الواقعية أو الممكنة، مجمعة في عائلات، حيث لن يبقى أمامنا، سوى التعرف على تلك التي تبناها المجتمع بالفعل.

تتواءم هذه الأفكار بخاصة، مع المبايا غويكورو، التي يشكل التوبا والبيلاغا، في الباراغواي، والكادوفيو في البرازيل، آخر ممثليها اليوم. ولا بد أن تُذكّر حضارتهم، بالحضارة التي تسلّى مجتمعنا بالحلم بها، في واحدة من ألعابه التقليدية، ونجح خيال لويس كارول باستخلاص نمطها: وهو أن هؤلاء الهنود، كانوا يشبهون صور أوراق اللعب. وكانت تنجم هذه الصفة عن زيهم: جلابيب ومعاطف تُضخّم الصدر، وتتدلى بطيات متصلبة، مزركشة برسوم سوداء وحمراء؛ كان المؤلفون القدامى يشبّهونها بالسجاجيد التركية، حيث تتكرر أشكال البستوني والكبة والديناري والسباتي.

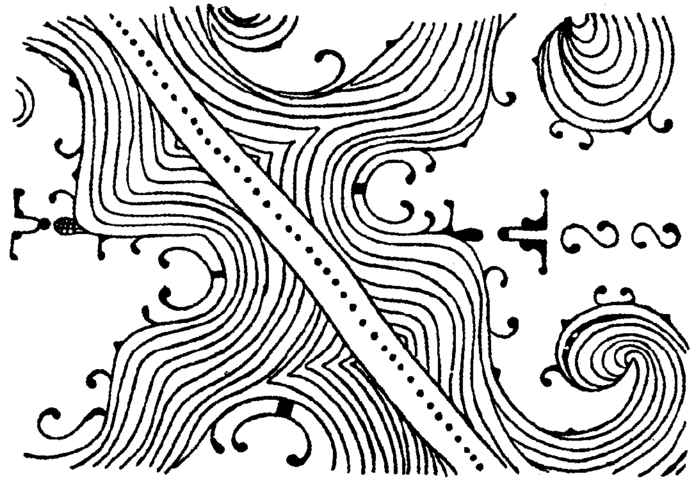
وكان لهم ملوك وملكات، وكملكة أليس، لا تحب هاتيك الملكات شيئاً، مثل اللعب بالرؤوس المقطوعة التي يجلبها لهن المحاربون. ويروّح النبلاء

والنبيلات عن أنفسهن بالمباريات، لأنهم يعتمدون في الأشغال الثانوية، على أناس أقاموا في المنطقة قبلهم، مختلفين عنهم باللغة والثقافة، هم الغوانا. ويعيش التيرينو، الذين هم آخر ممثليهم، في معزل حكومي، ليس بعيداً عن مدينة ميراندا الصغيرة، حيث ذهبت لزيارتهم. كان أولئك الغوانا يفلحون الأرض، ويقدمون الجزية عن المحاصيل الزراعية للأسياد المبايا، في مقابل حمايتهم لهم، أي اتقاءً للنهب والسلب، اللذين كانت العصابات المسلحة تمارسهما. وقد شبّه ألماني، غامر في القرن السادس عشر بدخول هذه المناطق تلك العلاقات، بتلك الموجودة في زمنه بأوربا الوسطى، بين الإقطاعيين وأقنانهم.

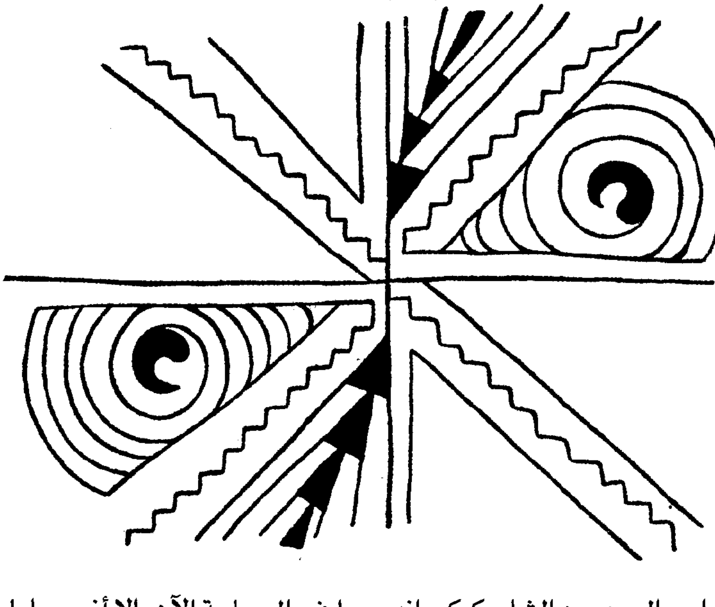
كان المبايا منظمين طبقات: ففي قمة السلم الاجتماعي النبلاء، وينقسمون إلى فئتين، النبلاء الكبار بالوراثة، والنبلاء الأفراد، الذين يكتسبون هذه الصفة، لتصادف يوم ولادتهم، مع ولادة طفل من مرتبة عليا. ويتمايز النبلاء الكبار فيما بينهم، وفقاً لترتيب ولادتهم لآبائهم. ومن ثَمَّ يأتي المحاربون، الذين يُقبل أفضلهم في طائفة تعطيهم الحق في حمل أسماء خاصة، واستعمال لغة اصطناعية، تتكون بإضافة لاحقة إلى آخر كل كلمة، كما في بعض اللهجات الشعبية. أما العبيد من الشاماكوكو، أو من أصل آخر، والأقنان من الغوانا، فكانوا العوام، مع أن هؤلاء الآخرين تبنوا، لحاجاتهم الخاصة، تقسيماً إلى ثلاث طبقات، محاكاةً لأسيادهم.

وكان النبلاء يتباهون بمراتبهم، من خلال رسوم يطبعونها على أجسامهم، أو وشم بمنزلة شعار. وينتفون شعور وجوههم كلها، بما فيها الحواجب والأهداب، وينعتون الأوربيين بـ«أخوة النعام»، في تقزز، لأنهم لا ينتفون أهدابهم. ويخرج الرجال والنساء على الملأ، مرفوقين بحاشية من العبيد والأزلام، يعتنون بهم ويجنبونهم أي جهد.

وحتى العام ١٩٣٥، كان المسوخ المسنون، بوجوههم المصبوغة والمثقلة بالأقراط، يعتذرون عن اضطرارهم لترك الفنون الترفيهية، لحرمانهم من العبيد الذين كانوا يخدمونهم في الماضي. ولا يزال في نيلكه بعض



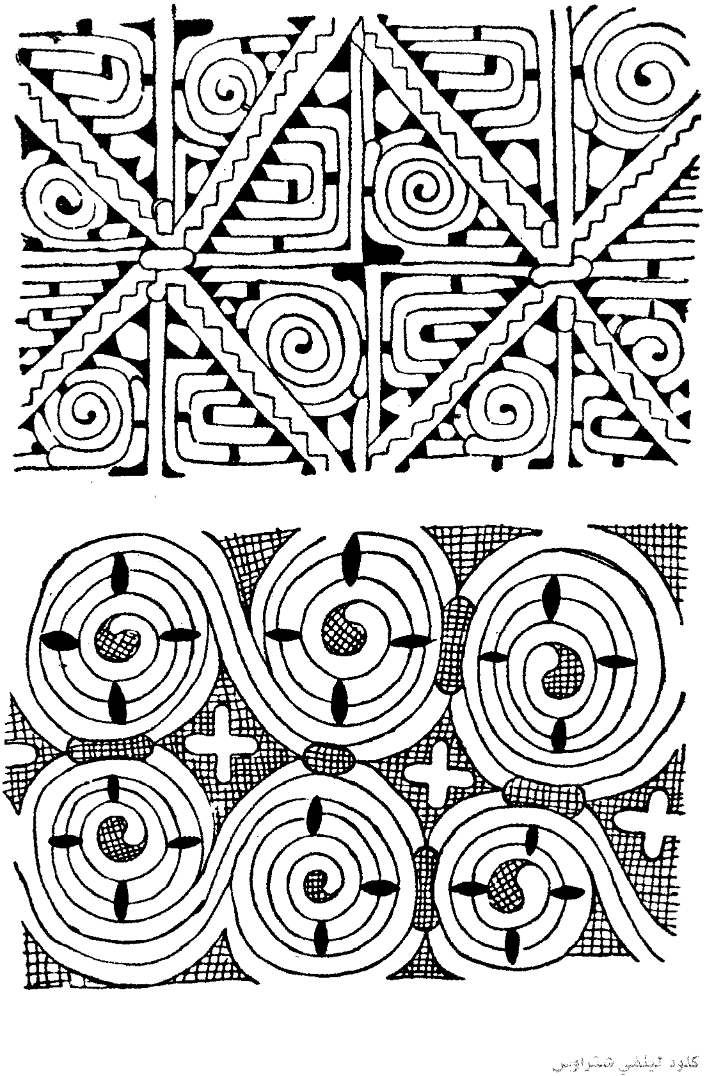
الشكلان (٥ و ٦): زخارف من الكادوفيو



قدامى العبيد من الشاموكوكو، اندمجوا في الجماعة الآن، إلا أنهم يعاملون بتعالٍ.

وقد أرهبت غطرسة هؤلاء الأسياد الغزاة الإسبان أنفسهم، فمنحوهم لقبي دون ودونا. ويحكى أنه ما من امرأة بيضاء، كانت تخاف من أسر

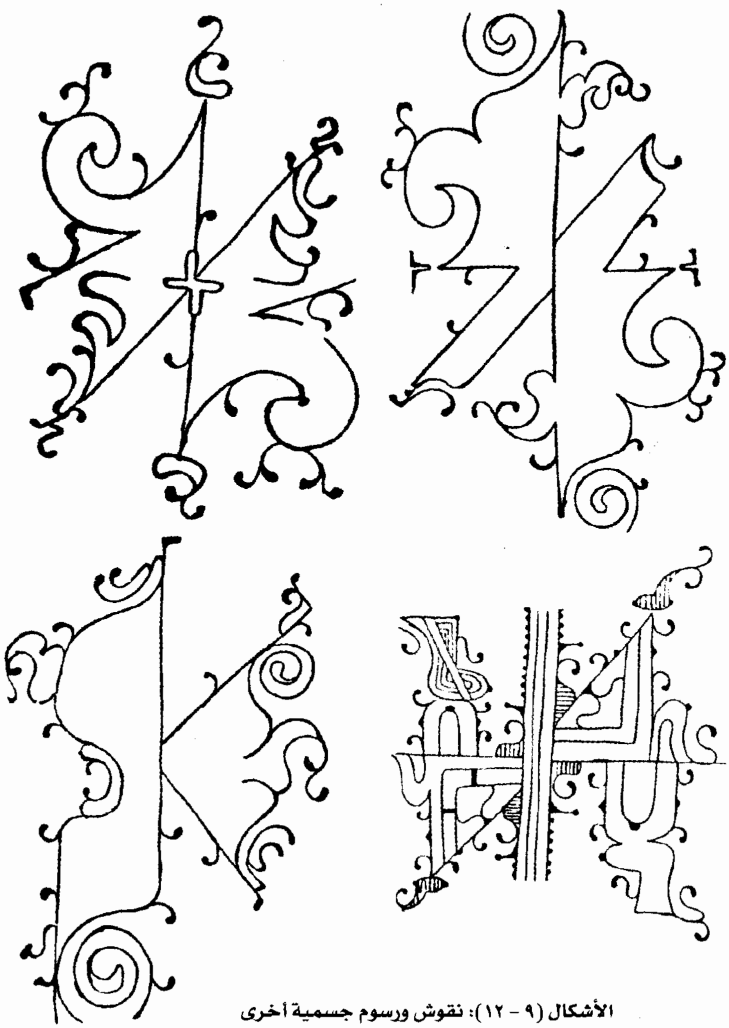
المبايا لها، لأنه لم يكن أي محارب مستعداً لإفساد دمه بالاقتران بها. وكانت بعض سيدات المبايا، يأبين لقاء زوجة نائب الملك، لأن ملكة البرتغال وحدها، كانت الجديرة بلقائهن. كما اعتذرت أخرى، وكانت صبية، تعرف باسم دونا كاترينا، عن قبول دعوة حاكم ماتوغروسو، لأنها ظنت، وهي في سن الزواج، أن هذا السيد سيطلب الاقتران بها؛ وهي لا



الشكلان (٧ و ٨): نقوش ورسوم جسمية

تريد زواجاً غير متكافئ، كما لا ترغب في إهانته برفضها.

كان أصحابنا أحاديي الزوجات، إلا أن المراهقات كن يفضلن تتبع المحاربين في مغامراتهم كخادمات وعشيقات. وكان للنبيلات فرسان يخدمونهن، وهم عشاقهن غالباً؛ دون أن يتنازل الأزواج بإبداء غيرة، تريق ماء وجوههم. ويبدي هذا المجتمع نفوراً شديداً من مشاعر نعتبرها



الأشكال (٩ - ١٢): نقوش ورسوم جسمية أخرى

طبيعية، ويشعر بتقزز شديد من الولادة. إذ كانت ممارسة الإجهاض، ووأد الأطفال شبه عاديين، إلى حدٍ كان بقاء الجماعة فيه مرهوناً بالتبني، أكثر من الإنجاب، وكان الهدف الرئيسي من الحملات الحربية خطف الأطفال. وهكذا، لم يكد ١٠٪ من أفراد مجموعة غوايكورو، يمتون إليها بصلة الدم، في أول القرن التاسع عشر.

وإذا ما قدر للأطفال أن يولدوا، فلم يكونوا يربّوْن من قبل والديهم، بل يُسلّمون إليأسرة أخرى، حيث لا يزورهم والدوهم إلا لماماً، ويُحتفظ بهم مَطليين باللون الأسود من الرأس إلى القدم حتى سن الرابعة عشرة، حيث يُدخلون في الجماعة، ويُغسلون، ويُحلق أحد إكليلي الشعر الدائريين، اللذين كانا على رؤوسهم إلى هذا الوقت. وكان يُشار إليهم بلفظ طبقوه على الزنوج، عندما عرفوهم.

ومع ذلك، كانت ولادة طفل من المرتبة العليا مناسبة لاحتفالات، تتكرر في كل أطوار نموه: كالفطام، والخطوات الأولى، والاشتراك في اللعب، إلخ. إذ يقوم المنادون، بإعلان ألقاب الأسرة، متنبئين للوليد بمستقبل مجيد؛ ويُعيّن مولود آخر، ولد في اللحظة نفسها، ليصير أخاً له في السلاح؛ وتقام جلسات الشراب، الذي يدار بأوعية، صنعت من قرون أو جماجم؛ بينما تستعير النساء معدات المحاربين، ويتواجهن في معارك صورية. ويقوم على خدمة النبلاء الجالسين وفقاً لمراتبهم عبيد لا يحق لهم الشرب، حتى يظلوا قادرين على مساعدة أسيادهم بالتقيؤ عند اللزوم، والعناية بهم حتى يستغرقوا في النوم انتظاراً للرؤى اللذيذة، التي يجلبها السكر.

كل هؤلاء من داود إلى الإسكندر وقيصر وشارلمان، ومن راشيل وجوديت وبالاس وأرجين، إلى هيكتور وأوجييه ولانسلو ولاهير، كانوا يؤسسون غطرستهم على التيقن من أن القدر، اختارهم للتحكم في مصير البشرية: وضمنت لهم ذلك أسطورة، لم نعد نعرف إلا نتفاً منها، لكنها وقد نُقحت عبر العصور، تسطع ببساطتها العجيبة. والصيغة الأكثر إيجازاً لهذه البديهية، التي كان سفري إلى الشرق تبعني بها فيما بعد، فحواها إن

درجة الاستعباد تابعة للطابع المتناهي للمجتمع. وهذه هي الأسطورة: عندما قرر الكائن الأعظم خلْق بني الإنسان، أخرج الغوانا من الأرض أولاً، ثم القبائل الأخرى، وأعطى الأرض للأولين مقاسمة، والصيد للآخرين؛ لكن الخادع، وهو الآلهة الأخرى لدى الأهالي، انتبه إلى أن الكائن الأعظم نسي المبايا في قاع الحفرة، فأخرجهم منها، وبما أنه لم يبق لهم شيء، حصلوا على الحق في الوظيفة الوحيدة الباقية، وهي اضطهاد واستغلال الآخرين. فهل من عقد اجتماعي، أكثر عمقاً من هذا؟







الشكل (١٣): رسوم صبي من الكادوفيو

إن شخصيات روايات الفروسية هذه، المنهمكين في لعبتهم القاسية، للحصول على الأبهة والسيطرة، ضمن مجتمع يستحق وصفه بالقاسي عن جدارة، أبدعوا فناً تخطيطياً، لا يضاهيه تقريباً، أي شيء تركته أمريكا ما قبل كولومبوس لنا، ولا يشبه شيئاً، فيما عدا زخرفة ورق لعبنا ربما.

لقد أشرت إلى هذه الميزة آنفاً، لكنني أريد الآن وصف هذه الموهبة الاستثنائية، لثقافة الكادوفيو. فالرجال في هذه القبيلة نحاتون، والنساء رسامات. الرجال يشكلون التماثيل التي تحدثت عنها، من خشب عود الأنبياء المزرق، وينقشون أيضاً قرون الأبقار التي

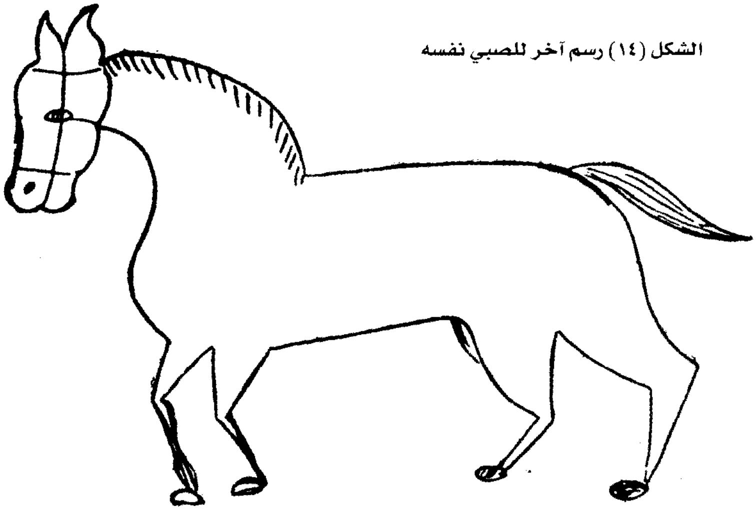
يستعملونها فناجين، بصور إنسان ونعام وجياد. وعلى النساء تقع مهمة زخرفة الخزف والجلود والرسوم الجسمية، التي يبرع بعضهم فيها.

فوجوههن، وأجسامهن أحياناً، تغطى بخطوط من الأرابيسك غير متناظرة، تتناوب مع رسوم ذات هندسة دقيقة. وكان سانشيز لابرادور، المبشّر الذي عاش بينهم من ١٧٦٠ إلى ١٧٧٠، هو أول من وصفها؛ إلا أنه وجب انتظار قرن، لرؤية نُسخ مطابقة لها، مع بوجياني. وقد قمت في ١٩٣٥ بجمع عدة مئات من الرسوم، باتباعي الطريقة الآتية: نويت في البداية تصوير الوجوه، لكن المطالب المالية لجميلات القبيلة، كانت ستصيبني بالإفلاس. فحاولت رسم وجوه على الورق، مقترحاً على النساء أن يرسمن عليها بالألوان كما يفعلن على وجوههن. وبلغتُ من النجاح مبلغاً جعلني أتخلى عن رسومي الفاشلة، فلم ترتبك الرسامات مطلقاً من الورقة البيضاء؛ وهو ما يدل على عدم اكتراث فنهن بالتقاسيم الطبيعية للوجه الإنساني.

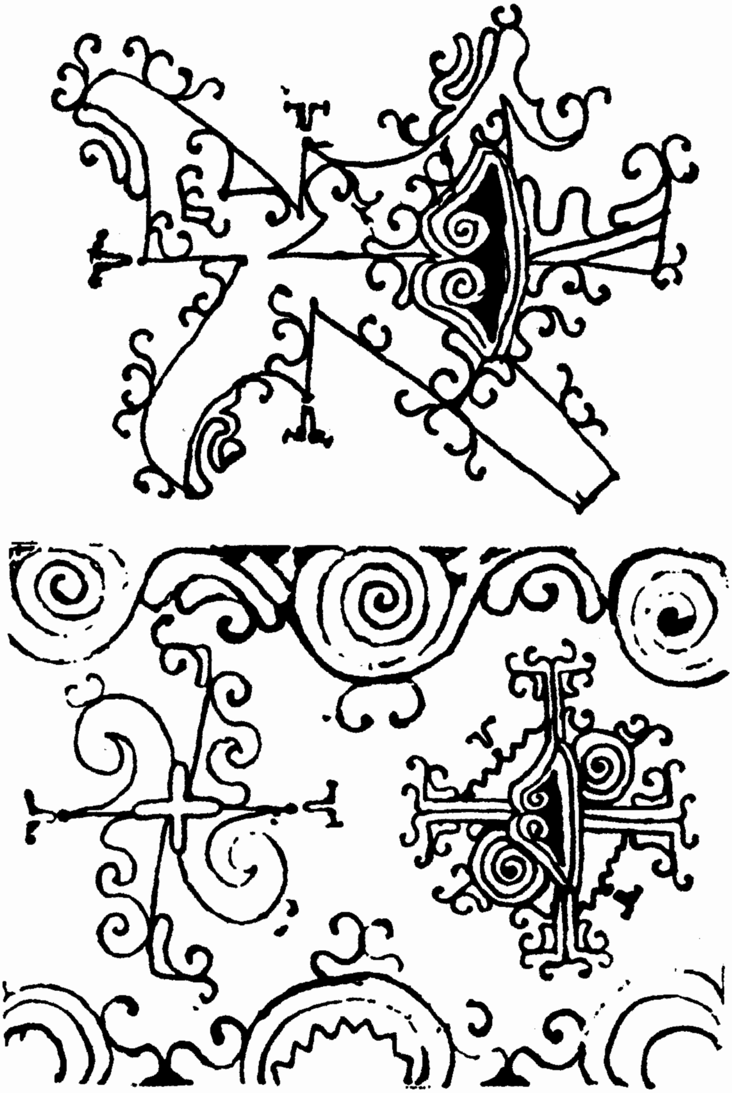
كان يبدو لي أن بعض العجائز فقط حافظن على المهارة القديمة، وظللت لوقت طويل مقتنعاً بأن مجموعتي التقطت في آخر لحظة. وكم كانت دهشتي، عندما تلقيت، منذ عامين، نشرية موضحة بمجموعة رسوم صنعها، بعدي بخمسة عشر عاماً، زميل برازيلي. إذ لا تبدو هذه الوثائق بمثل دقة تنفيذ وثائقي وحسب، بل غالباً ما كانت الزخارف متطابقة. فظل الأسلوب والتقنية والإلهام، طوال هذا الوقت، دون تغيير، كما كانت الحال إبان الأربعين سنة، التي انقضت بين زيارة بوجياني وزيارتي. وهذه النزعة المحافظة لافتة للنظر، لا سيما أنها لا تشمل الفخاريات التي تسير إلى الانحطاط التام، وفقاً لآخر ما جُمع ونُشر من عينات. وفي ذلك دليل على الأهمية الاستثنائية، التي تكتسبها الرسوم الجسمية ورسومات الوجه بخاصة، في ثقافة الأهالي.

كانت العناصر التزيينية في الماضي توشم أو ترسم، ولم تبق سوى الطريقة الثانية. إذ تشتغل الرسامة على وجه رفيقة، وأحياناً، على وجه صبي. فقد تخلى الرجال عن هذه العادة بصفة أسرع. فترتجل الرسامة

الشكل (١٤) رسم آخر للصبي نفسه



بمسواط دقيق من الخيزران، تغمسه في عصارة فاكهة الجينيبابو – غير ملون في البداية، لكنه يستحيل إلى الأزرق الداكن بفعل الأكسدة – لساعتها، ودون أنموذج ولا تجارب، أو نقاط مرجعية. تزين الشفة العليا بشكل قوس ينتهي في الطرفين حلزونياً، ثم تقّسم الوجه بخط عمودي، يُقطع أفقياً، أحياناً. ثم يزين الوجه بأرابيسك، تتشابك بحرية كما في حقل مفتوح، دون اعتبار لموضع العينين والأنف والوجنتين والذقن. هذه التآليف المعقدة، غير المتناظرة على الرغم من توازنها، تبدأ من أية زاوية، وتصير إلى النهاية، دون تردُّد أو شطب. وتتكون من عناصر بسيطة كالحلزوني والمعقوف والمتصالب والمتلاصف والإغريقي والمستدير، إلا أن هذه العناصر تتوافق بشكل، يكون فيه لكل عمل طابعه الفريد؛ فمن بين أربعمائة رسم جمعتُها في ١٩٣٥، لم أجد اثنين متشابهين؛ وبما أنني قمت بملاحظة عكسية، بموازنة مجموعتي، مع تلك التي جُمعت فيما بعد، أستنتج أن الرصيد الاستثنائي الواسع للفنانين، تثبته التقاليد. لكنني لم أستطع للأسف، ولا استطاع الذين خلفوني، أن ننّفذ إلى النظرية الخفية الكامنة وراء أسلوب الأهالي ذاك: إذ كان يقدم مخبرونا بعض الأوصاف المتصلة



الشكل (١٥) رسمان وجهيان، حيث يلاحظ العنصر المكون من حلزونين يتواجهان، يمثلان الشفة العليا وينطبقان عليها

بالعناصر الأولية، لكنهم يعتذرون بالجهل أو النسيان في كل ما يتعلق بالزخرفة الأكثر تعقيداً. فهم، في الواقع، إما يعملون على أساس مهارة تعتمد على الخبرة، وتنتقل من جيل إلى جيل، وإما يحرصون على كتمان أسرار فنهم.

إن الكادوفيو يَرتسمون، اليوم، للمتعة فقط؛ أما في الماضي، فكانت الأعراف تضفي على الرسم معنى أكثر عمقاً. إذ ذكر سانشيز لابرادور أن طبقة النبلاء، لم تكن ترتسم إلا على الجبهة، والعوام فقط هم الذين كانوا يزينون الوجه كله؛ وكانت الشابات فقط، عندئذ، يتبعن الموضة «من النادر، كما يكتب، أن يضيّع العجائز الوقت في هذه الرسوم: فهن يكتفين بالرسوم، التي خطها الزمان على وجوههن». ويبدي المبشر استهجانه من هذا الاحتقار لعمل الخالق؛ فلِمَ يفسد الأهالي مظهر الوجه الإنساني؟ ويبحث عن تفسيرات: أمن أجل خداع الجوع، يمضون الساعات في رسم الأرابيسك؟ أم حتى لا يعرفهم أعداؤهم؟ ومهما كان التفسير، فهو للخداع بالنسبة إليه. فلماذا؟ على الرغم من نفوره من هذه الرسوم، إلا أنه واعٍ بأنها تكتسي أهمية أساسية بالنسبة للأهالي، وأنها، بمعنى ما، غاية في ذاتها. ولذا يندد بهؤلاء الرجال، الذين يضيعون أياماً برمتها ليَرتسموا، ناسين الصيد وأسرهم. «لِمَ أنتم بهذا الغباء؟» كان الأهالي يسألون المبشرين. «ولِمَ نحن أغبياء» كان هؤلاء يردون. «لأنكم لا تَرتسمون مثل الإيبغوا بيغيز» إذ كان ينبغي على المرء الارتسام حتى يكون إنساناً؛ والذي يبقى في الحالة الطبيعية، لا يتميز عن الوحوش.

ولا شك أن بقاء هذه العادة لدى النساء هذه الأيام، يفسَّر باعتبارات جنسية. فشهرة نساء الكادوفيو راسخة بقوة، على ضفتي ريو باراغواي. وكثير من الخلاسيين والهنود من قبائل أخرى، قدموا للإقامة والزواج في ناليكه. وتفسر الرسوم الوجهية والجسمية هذه الجاذبية ربما؛ وإلا فهي تقويها وترمز إليها. ذلك أن هذه الاستدارات اللطيفة الدقيقة، الواضحة وضوح خطوط الوجه، والتي تبرزها أحياناً، وتشوهها أحياناً أخرى، تمنح المرأة شيئاً من الإثارة اللذيذة. وتُطعّم هذه الجراحة

التصويرية الجسم الإنساني بالفن. إلا أن سانشير لابرادور، عندما يحتج بقلق، قائلاً إن هذا «يعني معارضة لطف الطبيعة، بالقبح الاصطناعي» يتناقض مع نفسه لأنه يؤكد بعد عدة سطور، بأن أجمل نقوش للسجاجيد، لا يمكن أن تضاهي هذه الرسوم. ولا شك أنه لم يَجْرِ قط، مثل هذا الاستغلال الجنسي للتجميل، بمثل هذه الصورة المنظمة والواعية.

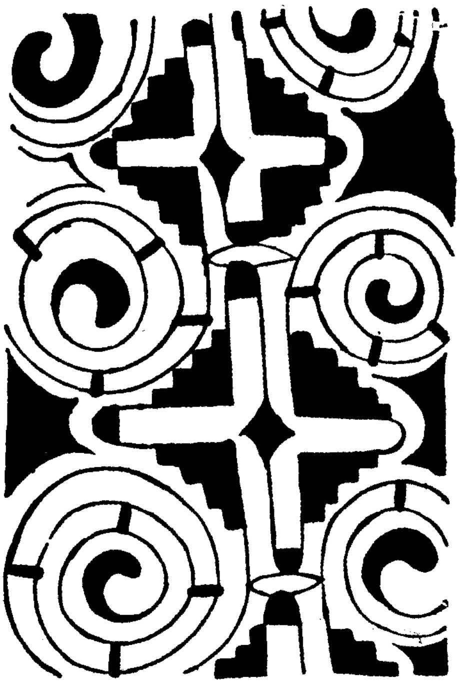
والمبايا، برسوماتهم الوجهية، واستعمالهم الإجهاض ووأد الأطفال، يعبّرون عن المقت ذاته للطبيعة. إذ إن فن الأهالي يجهر باحتقاره للصلصال الذي خُلقنا منه، وبهذا المعنى فهو يتاخم الخطيئة. وسانشيز لابرادور، باعتباره يسوعياً ومبشراً، يبدو ثاقب النظر، حين يدرك الشيطان الكامن في هذا الفن، مشيراً إلى جانب أسطورة بروميثيه في هذا الفن الوحشي، وواصفاً التقنية التي يتبعها الأهالي في تغطية أجسامهم بعناصر تزيينية، على شكل نجوم: «وهكذا يرى كل إيبغوا يبغي في نفسه أطلس آخر؛ ليس فقط بكتفيه ويديه، بل بكل سطح جسمه، يغدو مُستَنَداً لكونٍ صُوِّر بيدٍ خرقاء» أيكون هذا تفسيراً، للطابع الاستثنائي لفن الكادوفيو، الذي يرفض الإنسان بوساطته أن يكون انعكاساً للصورة الإلهية؟

نظراً للعناصر التزيينية، التي على شكل قضبان وحلزونيات ودوامات، ويبدو أن هذا الفن يفضلها، يتذكر المرء فن الباروك الإسباني، بحديده المشغول ورخامه المزيف. ترى ألا نكون هنا، أمام أسلوب ساذج استعير من الغزاة؟ من المؤكد أن الأهالي استحوذوا على بعض الموضوعات، ونعرف أمثلة على ذلك. فعندما زاروا أول سفينة حربية غربية، كانت تمخر نهر الباراغواي في ١٨٥٧، رآهم بحارة ماراكانها في الغد، وأجسامهم مغطاة برسوم على شكل مرساة، حتى إن هندياً رسم على كامل جذعه زي ضابط، بأزراره وأشرطته وحزامه. وما يبرهن هذا عليه، هو أن المبايا، اعتادوا الرسم على أجسادهم، واكتسبوا في هذا الفن مهارة كبيرة.

أضف إلى ذلك، أن أسلوبهم المنحني الخطوط، على ندرته في أمريكا ما قبل كولومبوس، يبدي بعض التشابه مع وثائق أثرية، استخرجت من نقاط في القارة،ويرجع بعضها إلى عدة قرون قبل الاكتشاف: في هوبوايل

بوادي الأوهيو، والفخاريات الحديثة العهد بوادي الميسيسيبي، ومصب الأمازون، وفي البيرو. ويدل هذا التشتت في حد ذاته، على القدم.

إن المشكلة الحقيقية، تكمن في جهة أخرى. إذ ثمة ملاحظة، تفرض نفسها عند دراستنا رسوم الكادوفيو: وهي أن أصالة هذه الرسوم، ليست في عناصرها الأولية لأنها من البساطة، بحيث إنها كانت إبداعاً ذاتياً، اكثر من كونها استعارة (ومن المرجح تواجد الطريقتين جنباً إلى جنب): إن المشكلة تنجم عن الطريقة التي تتآلف بها هذه العناصر، أي في النتيجة؛ بيد أن طرق المؤالفة، هي من الرقي والتنظيم، بحيث تتجاوز بكثير الإيحاءات المناسبة، التي كان من الممكن للفن الأوروبي في عصر النهضة، أن يقدمها للهنود. ومهما كانت نقطة البداية، فلا يمكن تفسير هذا التطور إلا بأسباب خاصة به.



الشكل (١٦) زخرفة لجلد مصبوغ

وقد حاولت في الماضي، أن أستقرئ بعضاً من هذه الأسباب، مقارناً فن الكادوفيو مع فنون أخرى لها معه أوجه شبه: في الصين القديمة والساحل الغربي لكندا وألاسكا، ونيوزيلاندا(*). والفرضية التي

(*) - «ازدواجية التمثيل في فنون آسيا وأمريكا»، نيويورك ١٩٤٥، ٢٠ شكلاً. أعيد نشره في الأنتروبولوجيا البنيوية، بلون، ١٩٥ الفصل ١٣.

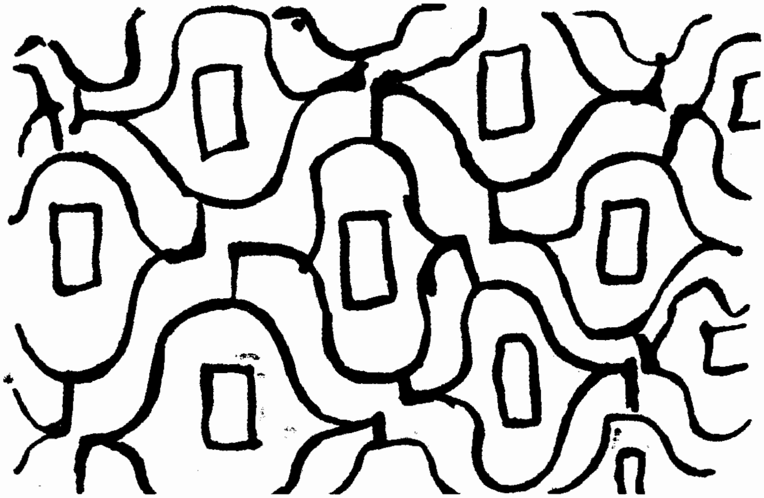
أتقدم بها هنا مختلفة، لكنها لا تناقض التأويل السابق، بل تكمله.

إن فن الكادفيو، كما ذكرت آنفاً، يتميز بثنائية: فن الرجال وفن النساء؛ الأولون نحاتون والأخريات رسامات؛ الرجال مرتبطون بأسلوب تصويري وطبيعي، على الرغم من تصرفهم، بينما تتخصص النساء بفن غير تصويري. وباقتصاري الآن على النظر في هذا الفن النسوي، أود الإشارة إلى أن الثنائية تمتد إليه، على عدة صعد.

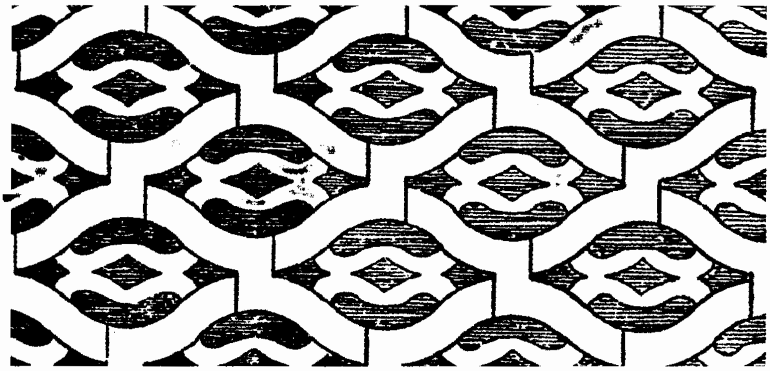
إن النساء يتبعن أسلوبين، مستلهمين كليهما من روح الزخرفة والتجريد. الأول زاوي وهندسي، والثاني ذو خطوط منحنية وحر. وتؤسس التآليف، في الأعم الأغلب، على توفيق متناسق بين الأسلوبين. إذ يُستعمل الأول مثلاً للحافة أو الإطار، بينما يُستعمل الثاني للزخرفة الرئيسية؛ والأكثر إدهاشاً هو ما نراه على الفخاريات، حيث نجد، عموماً، زخرفة هندسية على عنق الإناء، وزخرفة بخطوط منحنية على بطنه أو العكس. ويُرغب أسلوب المنحنيات، أكثر، في رسوم الوجه، ويُفضَّل الأسلوب الهندسي على الجسم؛ إلا إذا حملت كل منطقة، بتقسيم إضافي، زخرفة توفق بين الأسلوبين.

ويعبّر العمل النهائي، في كل الأحوال، عن هاجس التوازن بين مبادىء تتماشى أزواجاً هي أيضاً: إذ تستعاد زخرفة خطية في الأصل، بنهاية التنفيذ، لتحوّل جزئياً إلى سطح (بملء بعض القطع، كما نفعل عندما نرسم بصورة آلية)؛ وتقوم أغلب الأعمال على التناوب بين موضوعين، دائماً تقريباً؛ ويشغل الشكل والأرضية مساحتين متساويتين، بحيث يمكن إدراك التأليف بطريقتين: باعتبار أن كل عنصر، يمكن إدراكه موجباً أو سالباً. وأخيراً، تلتزم الزخرفة، غالباً، مبدأ مزدوجاً للتناظر وعدم التناظر يطبقان معاً، وهو ما يترجَم على شكل اتجاهين متعارضين فيما بينهما، نادراً ما ينقسمان أو يتقاطعان.

لنتابع التحليل، بوساطة مثال: فهذا رسم جسمي، يظهر بسيطاً (الشكل ١٧-١٨)، مؤلف من شرائط متماوجة ومتلاصقة، تحدد حقولاً مغزلية ومنتظمة، تشغلها عناصر تزيينية: واحد في كل حقل. لكن هذا الوصف



الشكلان (١٧ و ١٨): رسومات جسمية: الأسفل التقطه بوجياني (١٨٩٥)
الأعلى التقطه المؤلف (١٩٣٥)

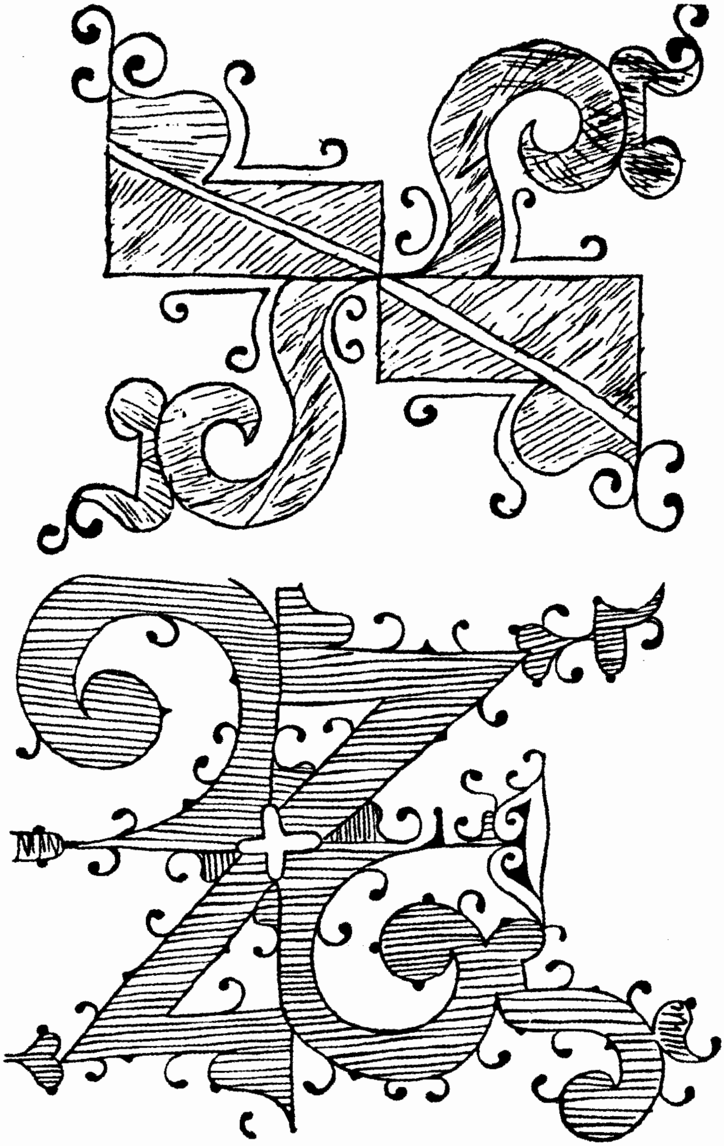


خادع: فلننظر عن قرب. إن الوصف يفي ربما بالمظهر العام، بعد إنجاز الرسم. لكن الرسامة لم تبدأ بتخطيط هذه الشرائط المتماوجة، لتزين فيما بعد كل فجوة، بل كان منهجها مختلفاً وأكثر تعقيداً. إذ اشتغلت كالمبلّط، الذي يبلّط صفوفاً متتالية، بعناصر متطابقة. وتألَّفَ كل عنصر بالشكل التالي: قطعة من الشريط، تتشكل هي ذاتها، من الجزء المقعر من الحزام والجزء المحدب من الحزام الملاصق؛ وحقل مغزلي الشكل، في داخل عنصر تزييني؛ وتتداخل هذه العناصر جميعاً، بانفكاك كل منها

من الآخر؛ وفي النهاية فقط، يجد الشكل استقراراً، يؤكد ويكذب في آن، الطريقة الدينامية التي نفذ طبقاً لها.

فأسلوب الكادوفيو يواجهنا إذاً بمجموعة من التعقيدات. هناك أولاً، ثنائية تنعكس على مستويات متتالية، كما في قاعة مرايا: رجال ونساء، رسم ونحت، تصوير وتجريد، زاوية وانحناء، هندسة وأرابيسك، عنق وبطن، تناظر ولا تناظر، خط وسطح، قطعة وحقل، شكل وأرضية .لكن هذه التعارضات تدرك فيما بعد، ولها طابع سكوني؛ أمادينامية الفن، أي طريقة تخيل النقوش وتنفيذها، فتتقاطع مع هذه الثنائية في كل المستويات: لأن الموضوعات الأولية، تفكك أولاً، ثم يعاد تأليفها في موضوعات ثانوية، تُدخِل في وحدة مؤقتة أجزاء مستعارة من الموضوعات السابقة، وتتجاور هذه الأجزاء بطريقة، تعود معها الوحدة الأصلية للظهور، وكأن الأمر جرى بعصا ساحر. وأخيراً، تعود الزخارف المعقدة الحاصلة بهذه الطريقة، لتُقطع وتتواجه إلى أربعة أقسام، كأقسام الشعارات، حيث يتوزع عنصران زخرفيان على أربعة مواقع، متقابلة مثنى مثنى، ويتكرران ببساطة أو يلونان واحداً في الآخر.

وبذا يصبح ممكناً تفسيرُ تذكيرِ هذا الأسلوب، بأسلوب أوراق اللعب. إذ يخضع كل شكل في ورقة إلى ضرورتين. فعليه، بداية، القيام بوظيفتين هما: أن يكون شيئاً، ويستعمل في الحوار -أو التباري- بين شريكين متواجهين؛ وأن يؤدي دوراً منوطاً بكل ورقة، باعتبارها شيئاً من مجموعة، هو اللعب. وتقتضي هذه المهمة المعقدة عدة مطالب: مطلب التناظر المتعلق بالوظيفة، ومطلب اللاتناظر، الذي يستجيب للدور. فتحل المشكلة بتبني تأليف تناظري، ولكن وفقاً لمحور منحرف، يسمح هكذا بالإفلات من صيغة اللاتناظر التام، التي كانت ستستجيب للدور، ولكنها تناقض الوظيفة؛ ومن الصيغة المعاكسة التناظرية تماماً، والمؤدية إلى نتيجة مضادة. وهنا أيضاً، يتعلق الأمر بوضع معقد، يتصل بشكلين متناقضين من الثنائية، وينتهي إلى تسوية، يحققها تعارض ثانوي بين المحور المثالي للشيء، ومحور الشكل الذي يمثله. بيد أنه للتوصل إلى هذه النتيجة، كان



الشكلان (١٩ و ٢٠): عنصران من رسومات وجهية وجسمية

علينا تجاوز مستوى التحليل الأسلوبي. إذ لايكفي لفهم أسلوب أوراق اللعب، مجرد النظر في رسومها، بل ينبغي التساؤل أيضاً عن فائدتها. فما فائدة فن الكادوفيو إذاً؟

لقد أجبنا، جزئياً، عن السؤال، أو بالأحرى، قام الأهالي بذلك عنا. فرسومات الوجه تمنح الفرد أولاً كرامته الإنسانية؛ وتتيح الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة، أي من الحيوان «الأعجم» إلى الإنسان المتحضر. ومن ثم، من خلال اختلافها في الأسلوب والتأليف وفقاً للطبقات الاجتماعية، تعبر في مجتمع معقد عن تراتبية المكانات. فلها بهذا وظيفة اجتماعية.



الشكل (٢١): رسوم وجهية

ومهما كانت أهمية هذه الملاحظة، فهي لا توفي خصائص فن الأهالي حقها، بل تفسر وجوده على الأكثر. ولنتابع إذاً تحليل البنية الاجتماعية. كان المبايا، ينقسمون إلى ثلاث طبقات، يتملكها جميعاً هاجس آداب السلوك. إذ كانت المشكلة الجوهرية بالنسبة للنبلاء، وللمحاربين إلى حد ما، هي الأبهة. وتظهرهم الكتابات القديمة، وقد سيطر عليهم الشعور بالأنفة، وعدم التنازل، ورفض الاقتران بمن هم دونهم بخاصة. فمثل هذا المجتمع، كان يجد نفسه مهدداً، بالتمييز بين طبقاته؛ لأن كل طبقة تنزع، إرادياً أو للضرورة، إلى الانطواء على نفسها، على حساب التماسك الاجتماعي برمته. وقد أدى التزاوج بين الأقارب، وكثرة درجات التراتب بخاصة، إلى الإساءة لإمكانات التوحد الضروري لمقتضيات الحياة الجماعية الملموسة. وبهذا فقط، تفسر مفارقة مجتمع ينفر من الإنسال؛ وليحمي نفسه من الاقتران بمن هم دونه، يصل إلى ممارسة هذه العنصرية

المقلوبة، المتمثلة في التبني المنظم للأعداء أو الأغراب.

في هذه الظروف، يعتبر ذا مغزى، لقاء أشكال من التنظيم الاجتماعي المتطابقة تقريباً، على تخوم الأراضي الشاسعة، التي يسيطر المبايا عليها، في الشمال الشرقي والجنوب الغربي؛ على الرغم من التباعد الجغرافي الكبير. إذ إن الغوانا في الباراغواي، والبورورو في ماتوغروسو الأوسط، كانوا يمتلكون (وما يزالون، في الحالة الأخيرة) بنية متراتبة، متقاربة مع بنية المبايا: فقد كانوا، أو ما يزالون منقسمين إلى ثلاث طبقات، يبدو أنه كان لها، في الماضي على الأقل، مكانات مختلفة. وهي وراثية، ولا يتزاوج أعضاؤها إلا من طبقتهم نفسها. ومع ذلك، فإن التهديدات الأكثر خطراً، المشار إليه لدى المبايا، كانت الغوانا والبورورو، تلافتاه جزئياً، بانقسام كل منهما إلى شطرين، نعلم أنه يشمل الطبقات بالنسبة للبورورو. فإذا كان ممنوعاً، على أعضاء طبقات مختلفة، التزاوج فيما بينهم، فإن إلزاماً معاكساً، يقضي بأن يتزوج رجل من أحد الشطرين، امرأة من الشطر الآخر، والعكس صحيح. فمن الصواب القول إذاً، إنّ لا تناظر الطبقات، يجد توازنه، بمعنى ما، في تناظر الشطرين.

أيجب علينا النظر إلى هذه البنية المعقدة، المتكونة من ثلاث طبقات متراتبة، ومن شطرين متوازنين، كمنظومة متضامنة؟ ذلك ممكن. ومن المشوق أيضاً التمييز بين الوجهين، والتعامل مع الأول، على أنه أقدم من الثاني. ولن تعوزنا، في هذه الحالة الحجج لمصلحة أولوية الطبقات، أو أولوية الشطرين.

أن المسألة التي تهمنا هنا، من طبيعة أخرى. فوصفي لمنظومة الغوانا والبورورو، على الرغم من إيجازه، (سأعود إليه فيما بعد، عندما أتحدث عن إقامتي، بين هؤلاء) يقدم على صعيد علم الاجتماع، بنية مماثلة لتلك التي استخلصتها على صعيد الأسلوب، فيما يتصل بفن الكادوفيو. فما زلنا أمام تعارض مزدوج. يقوم في الحالة الأولى، على التعارض بين تنظيم ثلاثي، وآخر ثنائي، الأول لا تناظري، والآخر تناظري. ويقوم في المقام الثاني، على التعارض بين آليات اجتماعية، تعتمد الأولى منها على

التعامل بالمثل، والثانية على التراتب. ويقتضي الالتزام بهذه المبادىء المتناقضة تقسيمات، وتقسيمات فرعية للجماعة، إلى جماعات ثانوية، متحالفة ومتعارضة. وهكذا يجد المجتمع نفسه مشذباً، مقطعاً، مشطوراً ومتمايزاً. وما علينا إلا أن نتأمل مخطط قرية بورور (سأفعله فيما بعد)، حتى ندرك بأنها منظمة على غرار رسم كادوفيوي.

كل شيء يجري إذاً، كأن الغوانا والبورورو، وقد وُجدوا في مواجهة تناقض بنيتهم الاجتماعية، توصلوا إلى حلهِ (أو إلى إخفائه) بواسطة طرق علم - اجتماعية بمعنى الكلمة. فربما كانوا يمتلكون نظام الشطرين، قبل وقوعهم في دائرة نفوذ المبايا، وهكذا كانت الوسيلة بتصرفهم. وربما ابتدعوا- أو اقتبسوا من آخرين- نظام الشطرين فيما بعد، لأن الغطرسة الأرستقراطية، كانت أقل تأكيداً لدى سكان الأقاليم؛ كما يمكن وضع فرضيات أخرى. أما المبايا، فقد أعوزهم هذا الحل، إما لأنهم جهلوه (وهذا غير محتمل)، وإما لأنه كان غير متناسب مع تعصبهم. ففاتتهم الفرصة إذاً، لحل تناقضاتهم أو إخفائها على الأقل، بفضل مؤسسات مخادعة. لكن هذا العلاج، الذي أعوزهم على الصعيد الاجتماعي، أو أبوا على أنفسهم استعماله، ما كان له مع ذلك، أن يخفى عليهم. إذ استمر في إزعاجهم بصفة ملتوية؛ وبما أنهم لم يكونوا قادرين على وعيه وعيشه، فقد أخذوا يحلمون به. ليس بشكل مباشر، قد يصدم أحكامهم المسبقة، بل بشكل مغاير، لا ضرر منه في الظاهر: أي في فنهم. لأنه إذا كان هذا التحليل دقيقاً، ينبغي تفسير فن نساء الكادوفيو، وتفسير جاذبيته المبهمة وتعقده المجاني لأول وهلة، كأحلام يقظة لمجتمع، يبحث بتعطش لا يرتوي، عن الوسيلة التي يعبّر بها رمزياً عن المؤسسات التي كان من الممكن له إقامتها، لو لم تمنعه مصالحه ومعتقداته الباطلة منها. يالها من حضارة محببة، تطوّق الملكات منها الحلم بخضابهن: كهيروغليفيات تصف عصراً ذهبياً مستحيل المنال، يحتفلن به في زينتهن، ويكشفن عن ألغازه، وهن يكشفن عن عريهن.

القسم السادس

بـــورورو

الذهب والماس

21 في قبالة بورتوإسبيرانسا، على ضفة ريو بارغواي، تبدو كورومبا، المرفأ البوليفي، كأنها صممت خصيصاً لجول فيرن. إذ تجثم المدينة على قمة جرف كلسي، يطل على النهر، حيث ترسو بعض الزوارق، وواحدة أو اثنتان من السفن البخارية الصغيرة، من ذوات الدولاب، بطابقين من المقاصير، على جسم منخفض، تعلوهما مدخنة دقيقة، على الرصيف الذي ينطلق منه طريق صاعد. ترتفع في البداية بعض البنايات، التي لا يتناسب كبرها مع باقي المدينة: كالجمارك ودار الصناعة، اللتين تُذكّران بالزمن الذي كان فيه ريو بارغواي، يشكل حدوداً حرجة بين دول حديثة الاستقلال، تفور بطموحات فتية، حينما كان الخط النهري، يستعمل لحركة كثيفة بين ريودولابلاتا والداخل.

ما إن يبلغ الطريق أعلى الجرف، حتى يتابعه ككورنيش لنحو مائتي متر؛ ثم ينعطف بزاوية قائمة، مخترقاً المدينة: شارع طويل بمنازل منخفضة ذات سُقُوف مسطحة، طليت باللون الأبيض أو البني الفاتح، ينتهي إلى ساحة مربعة ينبت فيها العشب بين أبنية الطراز الباروكي بألوانها الصارخة، البرتقالية والخضراء؛ ووراء ذلك الريف المُحصِب(*)، حتى التلال التي تشكل الأفق.

(*) المليء بالحصباء.

ليس هناك إلا فندق وحيد ممتلئ دائماً، وبعض الغرف لدى السكان، في طوابق أرضية تتراكم فيها رطوبة المستنقعات، حيث تُحول كوابيسٌ، نسخة من الواقع، النائم إلى شهيد مسيحي من نمط جديد، مرمياً في خندق نهباً للبق. أما الطعام، فمنفر مادام الريف الفقير أو غير المستغل، لا يستجيب لحاجات ألفين إلى ثلاثة آلاف نسمة، من المقيمين أو العابرين، الذين يشكلون سكان كورومبا. وكل شيء باهظ

الثمن؛ والضجيج الظاهر، مع التعارض بين المدينة وبين المنظر المنبسط والخاوي - بسمرة الإسفنج، الممتدة إلى ما وراء النهر - يعطيان انطباعاً بالحياة والبهجة، كما كانت تعطيهما، منذ قرون، مدن الرواد في كاليفورنيا، والغرب البعيد. ففي المساء يجتمع السكان عند الكورنيش. وأمام الفتيان الصامتين، الجالسين وأرجلهم مدلاة عبر الحاجز الحديدي، تتجول الفتيات، جماعات من ثلاث أو أربع، وهن يتهامسن. حتى يحسب المرء أنه يشهد طقساً ما؛ إذ لا شيء أكثر غرابة من هذا الاستعراض الغزلي في ضوء كهرباء مرتجف، على ضفاف خمسمائة كيلو متر من المستنقعات، تخرج منها النعام وأفاعي البواء، حتى أبواب المدينة.

لاتكاد كورومبا تبعد عن كويابا، بأربعمائة كيلو متر في خط مستقيم؛ وقد شهدتُ تطور الطيران فيما بين المدينتين، منذ الطائرات الصغيرة بأربعة مقاعد، التي كانت تقطع المسافة في ساعتين أو ثلاث، بأشد اضطراب، حتى طائرات اليونكر ذات الاثني عشر مقعداً، في عامي ١٩٣٨- ١٩٣٩. ومع ذلك، لم يكن بوسع المرء بلوغ كويابا في ١٩٣٥، إلا عن طريق النهر، حين كانت الأربعمائة كيلو متر، تتضاعف جراء تعرجات النهر. وكان لابد للوصول إلى عاصمة الولاية، في فصل الأمطار، من ثمانية أيام، وثلاثة أسابيع أحياناً في فصل الجفاف، عندما يجنح المركب إلى الشاطىء، على الرغم من ضعف غاطسه، حيث تضيع أيام لإعادته للطفو، بواسطة كبل مشدود إلى جذع متين على الضفة، يأخذ المحرك في سحبه بحنق. وفي مكتب الشركة، يُعرض إعلان مفعم بالإغراء، أترجمه في الصفحة المقابلة، محترماً الأسلوب والترتيب الطباعي. ولا حاجة بي إلى القول إن الواقع لا يتطابق إلا قليلاً مع الوصف.

ومع ذلك، فما ألطفه من سفر! قليل من المسافرين: أسر مربي مواشٍ ذاهبين إلى قطعانهم؛ وتجار لبنانيون متجولون؛ وعسكريون في حاميات أو موظفون في الأقاليم. فما إن يصعد كل هؤلاء إلى المركب، حتى يُشهروا زي الشاطىء البيتي، أي بيجاما مخططة من الحرير، بالنسبة للأنيقين، لا تكاد تستر أجسامهم الأشاعر، وخفّين؛ ويجلسون جميعاً،

مرتين في اليوم، حول طعام لا يتغير، مكون من عجينة الأرز، وعجينة الفاصولياء، وعجينة دقيق المانيوق الجاف، يرافق كل ذلك لحم عجل طازج أو محفوظ. ولم يكن يعدل شراهة رفاق سفري، إلا قدرتهم على التمييز، فيما يتصل بالطعام؛ فالوجبة إما أن تكون «ممتازة» أو «سيئة»، وكذا الأمر بالنسبة لوصف التحلية، المؤلفة من جبن دسم ومعجون الفاكهة، يؤكلان معاً بالسكين؛ فالمعجون إما «جيد - أو غير محلى جيداً».

كان المركب يتوقف كل ثلاثين كيلو متراً تقريباً، للتزود بالأخشاب من مخزن، كما كنا ننتظر ساعتين أو ثلاث ساعات عند اللزوم، القبضَ على بقرة وذبحها وسلخها من قبل المكلف بذلك، يساعده طاقم المركب، ثم رفع الذبيحة إلى المركب، لتموينناً باللحم الطازج عدة أيام.

وكان المركب ينساب بقية الوقت، بهدوء، على طول الفروع الضيقة، وهو ما يسمى «التعامل» مع أقسام النهر، التي تقع بين منعطفين محددين إلى درجة لايمكن فيها رؤية ما وراءهما. هذه المنعطفات قد تتقارب، بفضل أحد التعرجات إلى حد، يجد المرء نفسه فيه مساءً على بعد أمتار، من الوضع الذي كان فيه صباحاً. وغالباً ما كان المركب، يلامس الغابة المغمورة بالمياه التي تطغى على الضفة؛ فتوقظ ضجة المحرك عالماً لا يحصى من الطيور بشتى ألوانها وأصواتها وأشكالها. ويستأثر المشهد، لقربه ورتابته بالانتباه، ويبعث في النفس نوعاً من الخدر. ومن وقت لآخر، يحدث ما هو أكثر ندرة، ويحرك مشاعر المسافرين: زوجان من الأيائل أو التابير يعبران النهر سباحة، أو أفعى من ذوات الأجراس، أو أصلة تتلويان على سطح الماء، بخفة قشة؛ أو زمرة مشاغبة من الجاكاريس، وهي تماسيح غير مؤذية، يمل المسافرون سريعاً من تقتيلها برصاصة بين عينيها. أما صيد البيرانا، فأكثر إثارة. إذ يوجد على النهر مجَفٌ للّحم(*) على هيئة مشنقة: وبين العظام المتناثرة على الأرض، حواجز متوازية، علقت عليها أشلاء لحم بنفسجية، تطوف فوقها الطيور الكاسرة. والنهر أحمر من أثر الدم، على طول مئات من الأمتار. فيكفي إذاً إلقاء الشص، حتى

(*) اسم مكان لفعل جفف.

تسرع إليه عدة من أسماك البيرانا الثملة بالدم، وتعلق إحداها به. وعلى الصياد أن يكون حذراً عند نزع فريسته: إذ تكفي ضربة من أسنانها، لقطع إصبع.

بعدما تجاوزنا الرافد ساولورانسو ـ حيث سنذهب براً، للقاء البورورو، في مجراه الأعلى ـ اختفى البانتانال، وأخذ منظر السبسب المعشب يسود، وتتكاثر المساكن، حيث ترعى القطعان.

هل ستسافرون سعادتكم؟

اطلبوا الركوب إذاً في الرائعة

ن/م مدينة كورومبا

التابعة لمؤسسة الملاحة النهرية للسيد .. وشركاه

هذه السفينة البخارية، التي تملك تجهيزات رفيعة

وقاعات حمام فاخرة، والضوء الكهربائي، والماء الجاري

في كل المقاصير، ومصلحة خدمة كاملة

إنها السفينة الأكثر سرعة وراحة، على خط كويابا ـ كورومبا

بورتواسبيرانسا

إن سعادتكم بركوبكم من كورومبا او من بورتواسبيرانسا

السفينة ن/م مدينة كورومبا، ستبلغون غايتكم، ثلاثة أيام أو أكثر،

قبل أية سفينة أخرى، وبما أن الوقت عامل مهم في ميدان الأنشطة،

من المفضل إذاً، ركوب الأسرع، الذي يقدم راحة أكبر

المركب البخاري غابور

حتى نقوم بخدمة المسافرين بصورة أفضل، قامت المؤسسة

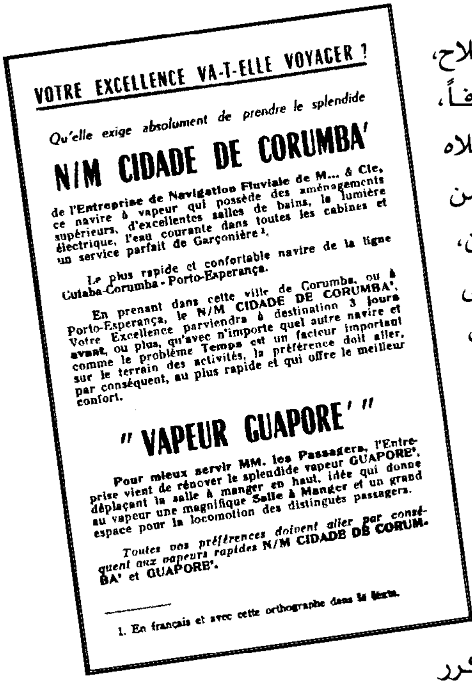
بتجديد المركب البخاري الرائع غابور، ناقلة قاعة الطعام إلى

الأعلى، وهي فكرة تقدم للمركب قاعة طعام باهرة، ومساحة

واسعة، للمسافرين المحترمين.

ليكن تفضيلكم إذن للمركبين البخاريين السريعين

ن/م مدينة كورومبا وغابور



VOTRE EXCELLENCE VA-T-ELLE VOYAGER ?

Qu'elle exige absolument de prendre le splendide

N/M CIDADE DE CORUMBA'

de l'Entreprise de Navigation Fluviale de M... & Cie, ce navire à vapeur qui possède des aménagements supérieurs, d'excellentes salles de bains, la lumière électrique, l'eau courante dans toutes les cabines et un service parfait de Garçonière[1].

Le plus rapide et confortable navire de la ligne Cuiaba-Corumba - Porto-Esperança.

En prenant dans cette ville de Corumba, ou à Porto-Esperança, le N/M CIDADE DE CORUMBA', Votre Excellence parviendra à destination 3 jours **avant**, ou plus, qu'avec n'importe quel autre navire et comme le problème **Temps** est un facteur important sur le terrain des activités, la préférence doit aller, par conséquent, au plus rapide et qui offre le meilleur confort.

"VAPEUR GUAPORE' "

Pour mieux servir MM. les Passagers, l'Entreprise vient de rénover le splendide vapeur GUAPORE', déplaçant la salle à manger en haut, idée qui donne au vapeur une magnifique Salle à Manger et un grand espace pour la locomotion des distingués passagers.

Toutes vos préférences doivent aller par conséquent aux vapeurs rapides **N/M CIDADE DE CORUMBA' et GUAPORE'.**

1. En français et avec cette orthographe dans le texte.

لا شيء يشير إلى كويابا للملاح، فيما عدا منحدراً مرصوفاً، يفيض النهر عليه، تُلمح في أعلاه دار الصناعة القديمة. ويمتد من هناك، شارع طوله كيلومتران، تحف به منازل ريفية، ينتهي إلى ساحة الكاتدرائية التي تنتصب بين صفين من النخيل. الأسقفية على اليسار، وقصر الحاكم على اليمين، وفي زاوية الشارع الرئيسي، النزل الوحيد، ويملكه لبناني بدين.

لقد وصفت غوياز، وسأكرر نفسي إذا ما توقفت كثيراً عند كويابا. فموقعها أقل جمالاً إلا أن لها الجاذبية نفسها، بمنازلها البسيطة المصممة بين القصر والكوخ المسقوف بالقش. وبما أن الوهاد تقطع موقع المدينة، يمكن من الطابق العلوي اكتشاف جزء منها: منازل بيضاء بسقوف من القرميد البرتقالي، وهو لون الأرض التي تحتضن نبات الحدائق. وتذكر شبكة من الأزقة، حول الساحة المركزية، بالمدينة الاستعمارية للقرن الثامن عشر، حيث تنتهي إلى أراض فضاء، تستعمل محطات للقوافل، وممرات غامضة، تحف بها أشجار مانجه وموز تؤوي أكواخاً طينية; وفجأة الريف حيث ترعى قطعان من الأبقار آتية لتوها من المروج، أو ماضية إليها.

يرجع تأسيس كويابا إلى منتصف القرن الثامن عشر. إذ وصل مستكشفون من ساوباولو إلى المنطقة، نحو العام ١٧٢٠، على بضعة كيلومترات من الموقع الحالي، وأقاموا مركزاً صغيراً مع بعض المعمرين. كانت البلاد مسكونة بالهنود الكوكسيبو الذين قبل بعضهم العمل في

استصلاح الأراضي. وفي يوم من الأيام، أرسل معمر -ميغيل سوتيل، الطيب الذكر- بعض الأهالي، للبحث عن العسل البري، فعادوا مساءً وأيديهم مملوءة بشذرات من الذهب، التقطوها من الأرض. وسارع سوتيل مع رفيق له يسمى الملتحي إلى تتبع الأهالي إلى موضع الذهب: وكان الذهب هناك في كل مكان. فجمعا في شهر، خمسة أطنان من الذهب.

فلا ينبغي الاندهاش إذاً، إذا وجد المرء الريف المحدق بكويابا، شبيهاً بساحة معركة في بعض الأماكن. وتشهد الأكوام الترابية المغطاة بالعشب والأشواك، على الحمّى القديمة. ويحدث، حتى اليوم أيضاً، أن يعثر فلاح على شذرة، وهو يزرع خضاره. إذ لا يزال الذهب موجوداً بشكل تبر; والمتسولون في كويابا، هم باحثون عن الذهب: حيث ينهمكون بالعمل في مجرى النهر، الذي يجتاز المدينة السفلى. ويقدم نهار من الكد ما يكفي للقوت، وما يزال بعض التجار يستعملون الميزان الصغير، الذي يسمح بمقايضة نُتفة من المسحوق باللحم والأرز. كما يهرع الأطفال بعد الأمطار الشديدة إلى الأودية، يحمل كل منهم قطعة من شمع النحل يغطسها في السيل، منتظراً التصاق بعض الذرات اللامعة بها. ويزعم أهل المدينة بأن عرقاً يمر تحت مدينتهم، على عمق عدة أمتار، راقداً كما يقال، تحت المكتب المتواضع لبنك البرازيل، الأكثر ثراء بهذا الكنز، منه بما في صندوقه العتيق من مبالغ احتياطية.

تحتفظ كويابا من مجدها القديم، بأسلوب حياة بطيء متمسك بالرسميات. إذ يقضي الغريب يومه الأول جيئة وذهاباً، في الساحة التي تفصل النزل عن قصر الحاكم: لإيداع بطاقة الزيارة عند الوصول، وبعد ساعة، يرد الحاجب وهو دركي ذو شاربين، على المجاملة; وبعد قليل، تجمد المدينة بكاملها في موت يومي، من الظهر حتى الرابعة، وأقدّم واجب التحية للحاكم الذي يخصِّص للاثنوغرافي استقبالاً مهذباً ومملاً: فهو يفضل في الحق، أن لا يكون ثمة هنود، فليسوا بالنسبة إليه أكثر من تذكير مزعج بفقدانه للحظوة السياسية، وشهادة على إبعاده إلى منطقة متخلفة.

والشيء ذاته لدى الأسقف: إذ أخذ يشرح لي، بأن الهنود ليسوا شرسين أو أغبياء، كما قد يظن؛ فهل بوسعي أن أتخيل هندية من البورورو قد دخلت الدين؟ وأن أخوة ديامانتينو، نجحوا - ولكن بعد جهد جهيد - في جعل ثلاثة من الهنود نجارين مقبولين؟ وأن المبشرين، جمعوا كل ما يستحق الحفظ، على الصعيد العلمي. وهل يخامرني الشك بأن مصلحة الحماية الجاهلة، تكتب بورورو، واضعة النبر الصوتي على الحرف الصوتي الأخير، مع أن الأب فلاناً، أثبت منذ عشرين سنة، أنه موجود على المتوسط؟ أما عن الأساطير، فهم يعرفون أسطورة الطوفان، برهاناً على أن المولى لم يرد لهم أن يظلوا ملعونين. إذاً سأذهب إليهم، فليكن. ولكن علي الامتناع بخاصة، عن الإساءة إلى عمل الآباء: فلا حاجة إلى هدايا تافهة، من عقود أو مرايا. بل فؤوس فقط؛ إذ يجب على هؤلاء الكسالى العودة إلى قدسية العمل.

بعدما انتهيت من هذه الشكليات، أستطيع الاهتمام بالأمور الجدية. فأيام تمضي في مؤخرة حانوت تاجر لبناني يدعى توركوس: نصفه تاجر جملة، ونصفه الآخر مراب، يموّن بأدوات المطبخ والأقمشة والأدوية، عشرات من الأقارب والزبائن، الذين يذهب كل منهم بحمولة يشتريها اقتراضاً، مع بعض الثيران أو زورق، ليبتز آخر قرش ضائع في أعماق الغابة أو على طول النهر (بعد عشرين أو ثلاثين سنة، من حياة بمثل هذه القسوة له ولأولئك الذين يستغلهم، سيتقاعد متمتعاً بملايينه)؛ ولدى الخباز، الذي سيحضّر أكياس البولاش، وهو خبز مستدير بدون خميرة، يعجن بالدهن: صلب كالحجر، لكنه بعدما يصير طرياً بالنار ويتفتت بالاهتزازات، ويتشرب بعرق الثيران، يتحول إلى غذاء مجهول الهوية، بمثل تعفن اللحم القديد، الموصى عليه من عند الجزار. وكان جزار كويابا شخصية حنينية؛ طموحه الوحيد، على قلة حظه في تحقيقه، هو أن يأتي سرك يوماً إلى كويابا، ليتأمل بالفعل «كل هذا اللحم ..».

وكان هناك، أخيراً، الأخوان ب ..، وهما فرنسيان من كورسيكا، يقيمان منذ زمن طويل في كويابا. كانا يتحدثان لغتهما الأم بصوت يأتي من

بعيد، مغنى بشيء من التردد. فقبل أن يملكا مرآباً للسيارات، كانا يصطادان طائر أبو قردان، وطريقتهما تقوم على وضع أقماع من الورق الأبيض على الأرض، حيث تأتي الطيور مأخوذة بهذا البياض الناصع الذي هو لونها أيضاً، لتنقره بمنقارها، فيطبق القمع على رأسها، ويُقبض عليها بدون مقاومة. لأن الريش الجميل، يُجمع في موسم الغرام، والطير حي. لكن الموضة تبدلت، وهناك في كويابا، خزائن مملوءة بالريش الكاسد. ومن ثَمَّ، تحول الأخوان ب.. إلى البحث عن الماس. أما الآن فيتخصصان بتجهيز الشاحنات، التي يرسلانها كالسفن في الماضي، إلى دروب تتعرض فيها الشاحنة وحمولتها لخطر السقوط في قاع وادٍ أو نهر. لكنها، إن وصلت سالمة، يعوض ربح ٤٠٠٪ الخسائر السابقة.

وقد تجولت مراراً بالشاحنة في أرجاء كويابا. ففي عشية الإنطلاق، تُحمل صفائح البنزين، بكمية تكفي للذهاب والإياب، لاسيما وأن الشاحنة تسير كل الوقت تقريباً، بالسرعة الأولى والثانية. وترتَّب المؤن ومعدات التخييم بشكل يسمح بالجلوس عليها أو الاحتماء بها في حال هطل المطر. وينبغي تعليق أدوات الاصلاح على الجوانب، علاوة على احتياطي من الحبال والألواح الخشبية، المخصصة للجسور المنهارة. وفي فجر اليوم التالي، نعتلي قمة الحمولة، كما يُعتلى الجمل، وتبدأ الشاحنة سيرها المتذبذب. وتبدأ الصعوبات منذ الظهيرة: عند أرض مغمورة بالمياه أو مستنقعية، ينبغي فرشها بالألواح الخشبية؛ ولقد أضعت ثلاثة أيام، في تحريك بساط من القضبان الخشبية، بضعف طول الشاحنة، من الوراء إلى الأمام، حتى تم عبور الممر الصعب أو الرملي الذي كنا نعالجه بالحفر تحت العجلات وطمر الفراغ بأوراق الشجر. وحينما تكون الجسور سليمة، كان علينا مع ذلك، للتخفيف عنها، أن نفرغ الحمولة كلها، وإعادة التحميل بعد اجتيازها. أما إذا وجدناها محروقة، نخيّم لإعادة إنشائها ثم تفكيكها بعد ذلك، لأن الألواح ضرورية لمرة قادمة. وأخيراً، كانت هناك الأنهار الكبرى، التي لا يمكن عبورها إلا على مُعدية مركبة من ثلاثة زوارق، تجمع بعوارض خشبية، وتغوص إلى الحافة تحت ثقل

الشاحنة، حتى وهي فارغة، لتصل بها إلى ضفة جد موحلة أو شديدة الانحدار، تؤدي بنا إلى ارتجال دروب لبضع مئات من الأمتار حتى نبلغ مقاربة أفضل، أو مجازاً.

وكان سائقو هذه الشاحنات معتادين على السفر أسابيع أو شهوراً أحياناً، اثنان لكل شاحنة: السائق ومعاونه: الأول على المقود، والثاني متعلق على المرقاة، يترقب العقبات، ويراقب المسير، كالبحّار في مقدم السفينة، لمساعدة الربان في اجتياز ممر ضيق. وكانت البندقية، في متناوله دائماً: إذ لم يكن نادراً أن يتوقف غزال أو تابير، معترضاً الشاحنة، بدافع الفضول أكثر من الفزع. فتطلق النار حالاً، وتعتمد المحطة على جودة التصويب: إذ ينبغي سلخ وإفراغ الحيوان، وتقطيع اللحم شرائح رقيقة، وفركها بمزيج من الملح والفلفل والثوم المسحوق. ثم تنشر في الشمس عدة ساعات. وهو ما يسمح بانتظار الغد لتكرار العملية، التي ينبغي تكرارها في الأيام التالية. ونحصل هكذا على لحم الشمس، وهو أقل لذة من لحم الريح، الذي يجفف على عصي طويلة في الهواء بدلاً من الشمس، لكنه يحفظ لوقت أقصر.

غريبة حياة هؤلاء السائقين المهرة، المستعدين دائماً للإصلاحات المعقدة، وهم يرتجلون الدروب أو يطمسونها بمرورهم؛ معرضين للبقاء أسابيع وسط الأحراش، حيث تعطلت الشاحنة، انتظاراً لمرور شاحنة منافسة لإخطار كويابا التي ستطلب من ساو باولو إرسال القطعة اللازمة. وهم في هذا الوقت، يصطادون ويغسلون الأواني، ويصبرون. كان سائق شاحنتي فارّاً من وجه العدالة بعد جريمة، لم يكن يشير إليها قط: ويعرف الناس ذلك في كويابا، ولا يقول أحد شيئاً: إذ لا أحد يمكن له أن يحل محله في هذه المسيرة الشاقة. وهو يكفّر عن جريمته في نظر الجميع، بالخطر الذي يعرّض له حياته كل يوم بما فيه الكفاية.

عندما كنا نغادر كويابا نحو الرابعة صباحاً، كان الليل مايزال مرخياً سدوله، وتلمح العين بعض الكنائس المزينة بالرخام الزائف من أساسها حتى برج الجرس، بينما تجعل آخر الشوارع المحفوفة بأشجار المانجة

والمرصوفة بحجارة النهر، الشاحنة تنتفض وتهتز. ويعطي مشهد البستان، الذي يميز السبسب - نظراً لتباعد الأشجار الطبيعي فيما بينها - الشعور بمنظر منظم، والحال أننا في الأحراش: ويقنعنا بذلك الدرب، الذي صار بسرعة وعراً: مرتفعاً فوق النهر بمنعطفات محصبة، تقطعها سيول ومجازات موحلة. وما إن نصل إلى بعض الارتفاع حتى نكتشف خطاً وردياً واهياً، أثبت من أن نخلط بينه وبين أنوار الفجر. ومع ذلك شككنا لوقت طويل في طبيعته وواقعيته. لكن العين بعد ثلاث أو أربع ساعات من السير، تحيط من أعلى منحدر صخري، بأفق أوسع يجبر المرء على قبول الحقيقة: إنه جدار صخري أحمر، يمتد من الشمال إلى الجنوب، يرتفع إلى مائتين أو ثلاثمائة متر فوق التلال المخضرة، وينحني ببطء نحو الشمال حتى يختلط بالهضبة. لكننا بدأنا بتمييز بعض التفاصيل في جهة الجنوب التي نقترب منها. فهذا الجدار الذي كان يظهر أملس قبل قليل، ينطوي على صواعد وقمم منفصلة في المقدمة، وشرفات ومسطحات. وستستغرق الشاحنة عدة ساعات لصعود منحدر، لم تكد يد الإنسان تمتد إليه بالتغيير، سيقودنا إلى الحافة العليا للشابادا من ماتوغروسو، ويتيح لنا النفاذ إلى ألف كيلومتر من الهضبة؛ منحدراً انحداراً خفيفاً باتجاه الشمال حتى حوض الأمازون هو الشاباداو.

إنه عالم آخر ينفتح أمامنا. فلا يخفي العشب ذو الخضرة الباهتة، إلا قليلاً، الرمل الأبيض والوردي أو المحمر، الناتج عن التحات السطحي للصخور الكلسية. وتقتصر النباتات على أشجار متباعدة، بشكل عقدي، تحميها من الجفاف الذي يسود سبعة اشهر في السنة، قشرة سميكة وأوراق لماعة وأشواك. إلا أن أمطاراً تهطل خلال عدة أيام، تكفي لتحويل هذا السبسب إلى بستان: فيخضر العشب وتزدهر الأشجار بأزهار بيضاء وبنفسجية اللون. ويسيطر على المرء شعور بالاتساع اللامحدود. إذ إن الأرض من التجانس، والمنحدرات من الضعف، بحيث يمتد الأفق بدون عوائق حتى عشرات الكيلومترات: ويقضي المرء نصف نهار، في قطع أراضٍ كان يتأملها منذ الصباح، مكرراً بالضبط ما كان قطعه بالأمس،

حتى يختلط الإدراك بالذكرى في انطباع وَسْواسي بانعدام الحركة. ومهما كانت الأرض بعيدة، فهي بالتجانس نفسه، ومن دون تضاريس، بحيث تجعل المرء يحسب الأفق البعيد غيوماً. وتجتاز الشاحنة، من وقت لآخر مجازات، على مجاري ماء بدون ضفاف، لا تعبر الهضبة، بل تفيض عليها؛ وكأنما ظلت هذه البقاع جد حديثة، إلى درجة، لم يكن للأنهار فيها وقت لحفر مجرى لها. والحال أن هذه البقاع هي الأكثر قدماً على الأرض، قطعة مازالت سليمة من قارة غوندوانا، التي كانت تصل بين البرازيل وإفريقيا، في العصر الثاني.

إن أوربا تقدم أشكالاً جلية، تحت ضوء مبهم. أما هنا، فالدور التقليدي بالنسبة لنا، للسماء وللأرض، ينعكس. إذ فوق السحابة اللبنية للمنظر الريفي، تبني الغيوم أشد البناءات غرابة. فالسماء هي مجال الأشكال والحجوم، بينما تحتفظ الأرض بميوعة العصور الأولى.

توقفنا في إحدى الأمسيات بقرب مستعمرة للباحثين عن الماس. فظهرت في الحال أشباح حول نارنا: كانوا بعض المنقبين، يخرجون من جعبهم أو من جيوب ملابسهم البالية، أنابيب خيزرانية صغيرة، وأفرغوا محتوياتها من الماس الخام في أيدينا، آملين بيعها لنا، لكنني كنت على علم من قبل الأخوين ب .. بأخلاق المنقبين، وأن لا شيء مما يعرضونه علينا، بذي قيمة حقاً. لأن للمنقبين قوانينهم غير المكتوبة، التي يتبعونها، مع ذلك، بحذافيرها.

فهؤلاء الرجال صنفان: مغامرون وفارون، وهؤلاء الأكثر عدداً. وهو ما يفسر صعوبة الخروج من التنقيب بعد الدخول إليه. ويسيطر على مجاري الأنهار الصغيرة، التي يعثر على الماس في رمالها، أول محتليها. وبما أن مواردهم من الشح، بحيث لا تسمح لهم بانتظار الفرصة الكبرى التي لا تسنح كثيراً، فإنهم ينتظمون في عصابات؛ على رأس كل منها رئيس يتباهى بلقب «كابتن» أو «مهندس»، عليه أن يملك الأموال اللازمة لتسليح رجاله، وتجهيزهم بالمعدات اللازمة، وتموينهم بانتظام خاصة. ويلتزم المنقب، في المقابل، بأن لا يبيع ما يعثر عليه، إلا للمشترين المعتمدين

(وهم على اتصال مع مؤسسات صقل الماس الكبرى، الهولندية أو الإنكليزية) واقتسام الربح مع رئيسه.

ولا يُفسَّر التسليح فقط بالمنافسة المستشرية بين العصابات، بل كان يسمح بمنع الشرطة من الدخول إلى المستعمرة، إلى وقت قريب، وحتى اليوم أيضاً. وهكذا شكلت منطقة التنقيب عن الماس، دولة داخل دولة في ١٩٣٥. إذ كان الناس مايزالون يتحدثون عن الحرب الصغيرة، التي نشبت لسنوات عدة بين «المهندس» موربيك وشجعانه من جهة، وشرطة ولاية ماتو غروسو من جهة أخرى، وانتهت إلى تسوية. إلا أنه ينبغي القول، إعفاء للعصاة من المسؤولية، إن السيء الحظ منهم الذي يقبض عليه في أطراف المستعمرة، نادراً ما يصل حياً إلى كويابا. فعندما قبض على رئيس عصابة شهير، هو الكابتن أرنالدو مع أحد مساعديه، رُبطا من العنق، ورجلاهما على لوح خشبي، حتى أدى بهما التعب إلى فقدانهما التوازن، وسقطا مشنوقين من أعلى الشجرة التي نُسيا مشدودين إليها.

وتبلغ المحافظة على قانون العصابة حداً، قد نجد معه في مراكز التنقيب طاولة نزل، تناثر عليها ماس، تركه النزلاء مؤقتاً. وما إن يُعثر على حجر حتى يُعرف بشكله وحجمه ولونه. وتظل هذه التفصيلات دقيقة ومحملة بقيمة عاطفية، حتى إن المنقب لا يزال يذكر هيئة كل حجر: «كنت أتأمله، يروي لي أحد زواري، وكأنما السيدة العذراء تركت دمعة تسقط في راحة يدي». لكن الأحجار ليست دائماً بهذا النقاء: إذ تلتقط غالباً مع شوائبها، وتستحيل معرفة قيمتها للوهلة الأولى. يعلن المشتري سعره (ويسمى هذا «وزن الماس»)، وبما أن المنقب ملتزم بالبيع له، فهو مرغم على قبول عرضه. فيقوم المساعد بضربة المطرقة، التي تعلن نهاية الصفقة.

وقد سألت عما إذا كان الغش ممكناً: بالطبع ممكن، لكن من دون فائدة. فلو عُرضت ماسة على مشتر آخر أو بدون علم رئيس العصابة «احترقت» في الحال: أي أن المشتري سيعرض لها ثمناً تافهاً، سيخفض بانتظام لدى كل محاولة تالية. وهكذا يموت منقبون سيئو النية جوعاً،

ويدهم ملأى.

وهناك علاوة على ذلك مسألة أخرى. إذ أثرى أحد السوريين ويدعى فوزي لدى شرائه ماساً غير نقي بسعر مخفض، ثم تمّ تسخينه على موقد بريموس، قبل غمره بملون؛ وتمنح هذه الطريقة الماس الأصفر لوناًسطحياً أكثر جمالاً، ويسمى الماس المطلي.

ويمارَس غش من نوع آخر، لكن في مستوى أعلى: فلتجنب دفع رسوم التصدير للدولة البرازيلية، هناك مهربون محترفون، وهم أيضاً لديهم قصصهم: كعلب السجائر المزيفة المليئة بالماس، يلقونها بلا مبالاة بين الأعشاب، فيما لو قبضت الشرطة عليهم، كأنها فارغة، ليعودوا بعد إطلاق سراحهم للبحث عنها، بقلق يسهل تخيله.

لكن الحديث حول النار في تلك الأمسية، كان يدور حول الحوادث اليومية، التي يتعرض لها زوارنا. فقد علمت أن العثور على ذهب من قبل باحث عن الماس، نذير شؤم وليس أمامه سوى رمي الذهب حالاً في الماء؛ ومن يحتفظ بالذهب يجازف بأسابيع من البحث من دون جدوى. وأن منقباً تلقى، وهو يغترف الحصباء بكلتي يديه، ضربة ذيل ذي خطاف من وَرَنك سام. وتلك جروح عصية على الشفاء. إذ لابد من إيجاد امرأة تقبل التعري والبول على الجرح. وبما أنه ليس في المستعمرة إلا مومسات ريفيات، فإن مثل هذا العلاج الساذج، يفضي غالباً إلى زهري حاد.

وما يجذب هؤلاء الرجال، حكايات ضربات الحظ الأسطورية. فإذا صار المنقب غنياً بين يوم وليلة، يبقى أسير سجله العدلي، ويضطر لإنفاق كل ما لديه حيث هو. وهذا ما يفسر حركة الشاحنات المحملة بأمتعة كمالية. فما إن تصل إلى المستعمرة مع حمولتها، حتى تباع هذه الحمولة بأي ثمن للتباهي، أكثر من الحاجة. وقد ذهبت، في الصباح، قبل الانطلاق إلى كوخ أحد الرفاق، على ضفة النهر الموبوءة بالبعوض. كانت خوذته العتيقة على رأسه، بينما كان يحفر في القاع، وكان داخل الكوخ ببؤس الموقع ذاته، لكن رفيقته أرتني بفخر في إحدى الزوايا، الاثنتي عشرة بذلة التي يملكها رجلها، والفساتين الحريرية التي تقرضها الأرضة.

وكنا قضينا الليلة بالغناء والسمر. فدعي كل ضيف «للعب دور» مقتبس من بعض أمسيات المقاهي الغنائية، ذكرى لزمن مضى. وعدت بذاكرتي إلى الهند، بمناسبة مأدبة بين موظفين صغار. فهنا وهناك، كانت تقدم مونولوجات، أو أيضاً، ما يسمونه في الهند «كاريكاتور»، أي تقليد: تكتكة الآلة الكاتبة، أو قرقعة دراجة نارية، متبوعة بصوت «رقصة الجنيات» التي تسبق الصورة الصوتية لحصان يعدو، والتكشيرات في الختام.

وقد احتفظت من الأمسية مع المنقبين في دفاتري بأغنية حزينة، على النمط التقليدي. تروي حكاية جندي متضايق من الطعام المقرر، يكتب شكوى إلى العريف، ينقلها العريف للرقيب، وتتكرر العملية في كل رتبة: ملازم، فنقيب ورائد وعقيد، ثم الجنرال والإمبراطور. ولم يكن أمام هذا، إلا التوجه إلى يسوع المسيح، الذي عوضاً عن نقل الشكوى إلى المولى القدير، «يمسك القلم، ويرسل الجميع إلى جنهم».

ومع ذلك، لم تكن ثمة بهجة حقيقية. إذ شرعت الرمال الماسية بالنضوب منذ زمن طويل؛ والمنطقة موبوءة بالملاريا وغيرها من الأمراض؛ كما ظهرت الحمى الصفراء منذ سنوات. ولا تكاد تتوجه شاحنتان أو ثلاث إلى المستعمرة شهرياً، مقابل أربع أسبوعياً، في الماضي.

كان الدرب الذي ننوي سلوكه مهجوراً منذ دمرت حرائق الغابات الجسور. فلم تمر فيه شاحنة منذ ثلاث سنوات. ولم يكن بالإمكان معرفة حالته: لكننا إن بلغنا ساولورنسو، فسنتخلص من الورطة، إذ كان ثمة مستعمرة كبيرة للمنقبين على ضفة النهر سنجد فيها كل ما يلزم من مؤونة ورجال وزوارق، للذهاب إلى قرى البورورو على نهر فيرميلهو، وهو أحد روافد ساولورنسو.

كيف استطعنا الوصول، لا أدري، فسيظل هذا السفر في ذاكرتي، مثل كابوس غامض: محطات لا نهاية لها للتغلب على بضعة أمتار من العوائق، تفريغ وتحميل، مراحل أنهكنا فيها تنقيل البساط الخشبي أمام الشاحنة، حتى تنجح في كل مرة بالتقدم بضع خطوات؛ فنمنا على الأرض، ليوقظنا صوت دبيب آت من أعماق الأرض: إنها الأرضة تصعد

مهاجمة ثيابنا، بعدما غطت المعاطف المطاطية التي كنا نستعملها للوقاية من المطر، ونتخذها بسطاً على الأرض. وبشعور من حقق إنجازاً باهراً، أعلنا عن وصولنا بوصلة طويلة من منبه الشاحنة. ومع ذلك، لم يتقدم للقائنا أي طفل عندما بلغنا الضفة، بين أربعة أو خمسة أكواخ صامتة. لا أحد، والأكواخ خاوية، أقنعنا تفقد سريع بأنها مهجورة.

وشعرنا بعد كل ما عانيناه بالقنوط. أيجب التخلي عن الهدف؟ ألا ينبغي قبل اتخاذ طريق العودة أن نقوم بمحاولة أخيرة؟ فيذهب كل منا باتجاه، ويكتشف الناحية. وعدنا في المساء بخف حنين، ما عدا السائق، الذي اكتشف أسرة من الصيادين، اصطحب معه رجلها وكان ملتحياً، وبياض جلده مَرَضي، كأنه مكث في النهر طويلاً. فشرح لنا بأن الحمى الصفراء تفشت قبل ستة شهور، وتفرق من بقي على قيد الحياة. لكننا قد نجد بعض الأشخاص، وزورقاً إضافياً من جهة أعلى النهر. هل سيأتي؟ بالتأكيد: فهو وعائلته، يعيشون منذ أشهر على السمك فقط. وسيحصل من الهنود على المانيوق وشتلات التبغ، كما سندفع له بعض المال. وعلى هذه الأسس، ضُمن قبول صاحب الزورق الآخر، الذي سنأخذه في طريقنا.

ستسنح لي الفرصة لوصف رحلات أخرى بالزورق، ظلت أكثر رسوخاً في ذاكرتي من هذه الرحلة. ولذا، أمر سريعاً على الثمانية أيام، التي صعدنا فيها بعكس التيار نهراً ضخمته الأمطار اليومية. كنا نتناول الغداء يوماً على الضفة الرملية، وإذا بنا نسمع حفيفاً: وكانت أفعى بواء، طولها سبعة أمتار، أيقظها حديثنا. وكان لابد من عدة طلقات للقضاء عليها، لأن هذه الحيوانات لا تكترث بالجروح في أجسامها، فيجب ضرب الرأس. وعندما سلخناها - وهو ما استغرق نصف نهار - وجدنا في أحشائها اثني عشرية من الصغار حية، على وشك أن تولد، ماتت في الشمس. وبعدما أطلقنا النار يوماً، على أرارا وهو نوع من الغرير، لمحنا شكلين عاريين يتحركان على الضفة: كانا أول من نراه من البورورو. فدنونا محاولين التكلم معهما، لكنهما لا يعرفان من البرتغالية سوى

فومو – تبغ – يلفظانها سومو. ومع أنهم يزرعون التبغ بأنفسهم، إلا أن ما ينتجونه ليس بتركيز التبغ المخمر الملفوف حبالاً، الذي نقدمه لهم مجاناً. وشرحنا لهما بالحركات، أننا ذاهبون إلى قريتهما؛ فأفهمانا بأننا سنصل إليها في المساء نفسه، وسيسبقاننا إليها للإعلان عن وصولنا، واختفيا في الغابة.

ونزلنا بعد ساعات على ضفة طينية، لمحنا في أعلاها أكواخاً. وإذا بستة رجال، طليت أجسامهم باللون الأحمر من أخمص القدم حتى منبت الشعر، يستقبلوننا بالضحكات وهم يساعدوننا في إفراغ الزوارق ونقل الأمتعة. وها نحن في كوخ كبير يؤوي عدة أسر: وقد أفسح رئيس القرية ركناً مخصصاً لنا، أما هو فسيقيم أثناء وجودنا على الضفة الأخرى من النهر.

متوحشون طيبون

22 من أين ابدأ بوصف هذه الانطباعات العميقة والغامضة، التي تحدق بالواصل الجديد إلى قرية للسكان الأصليين، ظلت حضارتهم سليمة نسبياً؟ فما يلفت الانتباه لدى الكينغانغ أو الكادوفيو، الذين تشبه ضياعهم ضياع الفلاحين المجاورة، هو فرط البؤس; ورد الفعل الأولي هو السأم وتثبيط العزيمة. لكن الصدمة إزاء مجتمع، مايزال حياً ومخلصاً لتقاليده هي من القوة بحيث تبعث على الارتباك: فأي خيط نتتبع، بدايةً، من هذه الشلة ذات الألف لون، لمحاولة حلها؟ إنني إذ أذكر البورورو، الذين كانوا أول تجربة لي من هذا النمط; أستعيد المشاعر التي غمرتني لحظة شروعي بتجربتي الأقرب عهداً، عندما بلغت أعلى تلة في إحدى قرى الكوكي، على الحدود البورمية، بعد ساعات قضيتها على أربع متسلقاً منحدرات حولتها الأمطار الموسمية، التي كانت تهطل دون توقف إلى طين زلق: إنهاك جسدي، جوع وعطش واضطراب عقلي بالتأكيد، لكن أيضاً، هذا الدوار العضوي الأصل، الذي تثيره إدراكات لأشكال وألوان: مساكن مهيبة بحجمها، على الرغم من هشاشتها، أنشئت بمواد وتقنيات، نعرِّفها بتعبيرات مهينة: لأن هذه المساكن، لم تبن بل عقدت بالأحرى، وجدلت، وطرزت، وعلاها أثر الاستعمال; وعوضاً عن سحق الساكن تحت كتلة الحجارة الباردة، تتعامل بليونة مع وجوده وحركاته; وتظل على عكس ما يحدث عندنا، مُسخرة للإنسان. وتنتصب القرية حول سكانها كدرع خفيفة ومطاطة، أقرب إلى قبعات نسائنا، منها إلى مدننا: هي حلية عظيمة، تحافظ على شيء من حياة الحنايا والأوراق، التي استطاعت مهارة البنائين التوفيق بين سهولتها الطبيعية، وبين مخططهم الصارم.

أما السكان فيبدون، كأنهم يسترون عريهم بقطيفة الجدران المعشبة، وأهداب سعف النخيل: إذ ينسلون خارج مساكنهم، كما يخلعون عباءة نعام كبيرة. والأجساد فرحة بهذه الحلي الزغباء، عليها مجسمات مرهفة وألوان تبرق بريق الأصباغ والرسوم، يحسب المرء أنها هيئت لإبراز تزيينات أكثر فخامة: لمسات أسنان دهنية ولامعة، وأنياب حيوانات متوحشة، ترافق الريش والزهور. وكأن حضارة برمتها كانت تتآمر باللطف الشغوف نفسه من أجل أشكال وجواهر وألوان الحياة، وللإمساك حول الجسم الإنساني بكنهه الأكثر ثراء، كانت تتجه – من بين كل هذه المنتجات – إلى تلك الأكثر دواماً أو الأسرع زوالاً؛ لكنها، بالتقاء غريب، المؤتمنة المتميزة عليه.

بينما كنا منهمكين في ترتيب إقامتنا في زاوية الكوخ الواسع، كنت أترك لنفسي العنان تتشرب بهذه الصور، عوضاً عن إدراكها من الخارج، وأخذت بعض التفصيلات مكانها. فإذا كانت المساكن محافظة دائماً، على الأوضاع والأبعاد التقليدية؛ إلا أن عمارتها، تأثرت بالطراز البرازيلي الجديد. فمخططها كان مستطيلاً، ولم يعد بيضوياً، ومع أن مواد السقوف والجدران كانت متماثلة، من أغصان تحمل غطاء من سعف النخيل، إلا أن القسمين متمايزان، والسقف مزودج الانحدار، بدلاً من المستدير، ويهبط حتى الأرض تقريباً. على الرغم من أن قرية كيجارا التي وصلنا إليها لتونا، تظل مع الاثنتين الأخريين، اللتين تكونان مجموعة ريوفيرميلهو: بوبوري وجارودوري، واحدة من القرى القليلة، التي لم يؤثر المبشرون فيها كثيراً. لأن هؤلاء المبشرين الذين توصلوا، بمساعدة مصلحة الحماية، إلى وضع حد للصراعات بين هنود ومعمرين، قاموا في الوقت نفسه، بتحقيقات إثنوغرافية ممتازة، (أفضل مصادرنا عن البورورو، بعد دراسة كارل فون ستينين، الأكثر قدماً) وبمشروع منظم لإبادة الثقافة المحلية. وواقعتان تشهدان على ذلك، في كيجارا، وهي واحدة من أواخر معاقل الاستقلال، وكانت مقر إقامة رئيس قرى فيرميلهو المزعوم: وهو شخصية مترفعة وغامضة، يجهل البرتغالية أو يتظاهر بذلك؛ مهتم بحاجاتنا

ويتساءل عن وجودنا ; لكنه نظراً للمكانة، واللغة أيضاً، يتجنب مخاطبتي إلا بوساطة أعضاء مجلسه، الذين يتخذ بصحبتهم جميع قراراته.

والواقعة الثانية،تتصل بواحد من الأهالي، يسكن كيجارا، كان المقدر أن يكون مترجمي ومخبري الرئيسي. يبلغ الخامسة والثلاثين، ويتكلم البرتغالية بصورة مقبولة. ووفقاً لأقواله فقد تعلم قراءتها وكتابتها (مع أنه كان عاجزاً عن ذلك) في البعثة التبشيرية. فأرسله الآباء الفخورون بنجاحهم إلى روما، حيث استقبله البابا. وأرادوا، لدى عودته، كما يبدو، تزويجه على الطريقة المسيحية، دون اعتبار للأعراف والتقاليد. فانتهت هذه المحاولة به، إلى أزمة روحية، خرج منها إلى القيم المثالية القديمة للبورورو: ومضى للإقامة في كيجارا، حيث يعيش منذ عشر سنين أو خمسَ عشرة سنة، حياة متوحشة مثالية; عارياً تماماً، مطلياً باللون الأحمر، يخترق أنفه، وشفته العليا شفتورة، متزيناً بالريش. وبدا هندي البابا هذا، أستاذاً رائعاً في علم اجتماع البورورو.

أما الآن، فنحن محاطون ببضع عشرات من الأهالي، يتحدثون فيما بينهم ويتضاحكون ويتدافعون. والبورورو، هم الأطول قامة والأمتن بنياناً بين هنود البرازيل. فرؤوسهم المستديرة، ووجوهم المتطاولة ذات الملامح المنتظمة القوية، وبنياتهم المتينة، تذكّر ببعض النماذج البنتاغونية، التي ينبغي ضمهم إليها ربما، من وجهة النظر العرقية. إلا أن هذه الصفات المنسجمة نادرة لدى النساء، فهن أقصر قامة عموماً، هزيلات، وملامحهن غير منتظمة. وتشكل بشاشة الرجال، للوهلة الأولى، تعارضاً صارخاً مع الموقف المتجهم للجنس الآخر. وعلى الرغم من الأوبئة التي تفشت في المنطقة، فإن السكان يبعثون على الدهشة بصحتهم الجيدة. ومع ذلك، كان فيهم مريض بالجذام.

كان الرجال عراة تماماً، إلا من قمع من القش يغطي طرف القضيب. وأغلبهم مطلي من رأسه إلى قدميه باللون الأحمر الذي يستخرجونه من حبوب الأوروكو المسحوقة مع الدهن. وحتى الشعر، سواء كان متدلياً على الأكتاف أو مقصوصاً بشكل دائري على مستوى الأذنين، كان مغطى

بهذه العجينة. ويتوافق هذا اللون الأساسي مع طلاءات أخرى: كحذوة الحصان من الراتنج الأسود اللامع، تغطي الجبهة وتنتهي إلى الوجنتين على مستوى الفم، وشرائط من الزغب الأبيض، تلصق على الكتفين والذراعين؛ أو نثر مسحوق الصدف على الكتفين والجذع. أما النساء فيرتدين مئزراً قطنياً مصبوغاً بالأوروكو، حول حزام قاسٍ من اللحاء، يمسك بشريط لحائي أبيض، أكثر طراوة يمر من بين الفخذين. وتجتاز الصدر شلة مزدوجة من قطن جدل بدقة. ويكتمل هذا الزي بعصابات من القطن، تُشد حول الكاحلين والعضدين والرسغين.

وشيئاً فشيئاً مضى الجميع؛ وكنا نتقاسم الكوخ، الذي يبلغ اثني عشر متراً طولاً، وخمسة أمتار عرضاً، مع أسرة ساحر صامتة وعدائية، وأرملة عجوز تعيش على صدقة بعض الأقارب الذين يسكنون أكواخاً مجاورة؛ لكنها لإهمالهَم إياها غالباً، كانت تقضي الساعات في رثاء أزواجها المتتالين الخمسة، والزمان السعيد الذي لم يكن المانيوق ولا الذرة ولا الطرائد أو السمك تعوزها فيه قط.

كان الغناء في الخارج، بدأ بلغة خافتة، رنانة وحلقية، ولفظ محكم. ووحدهم الرجال يغنون، وهم بتوافقهم، والألحان البسيطة التي تتكرر وتتكرر، والتقابل بين الغناء الفردي والجماعي، والأسلوب الذكري المأساوي، يُذكّرون ببعض الغناء الجرماني الجماعي الحربي. لِمَ هذا الغناء؟ وأجابوا: بسبب الأرارا. فقد جلبنا طريدتنا، وكان لابد قبل أكلها، أن تقام بعض الطقوس المعقدة لراحة نفسها، ومباركة الصيد. ولشدة تعبي، نسيت مهمتي كأثنوغرافي، ونمت منذ غابت الشمس نوماً مضطرباً، نتيجة الإرهاق والغناء الذي استمر حتى الفجر. وسيظل الأمر على هذه الحال، حتى نهاية زيارتنا: إذ تخصص الليالي للحياة الدينية؛ بينما كان الأهالي ينامون من شروق الشمس حتى الظهيرة.

وفيما عدا بعض آلات النفخ، التي ظهرت في لحظات معينة من الطقوس، اقتصرت المصاحبة الوحيدة للأصوات، على خشخاشات من القرع مملوءة بالحصى، يهزها قائد الجوق. وكان الاستماع إليهم ممتعاً:

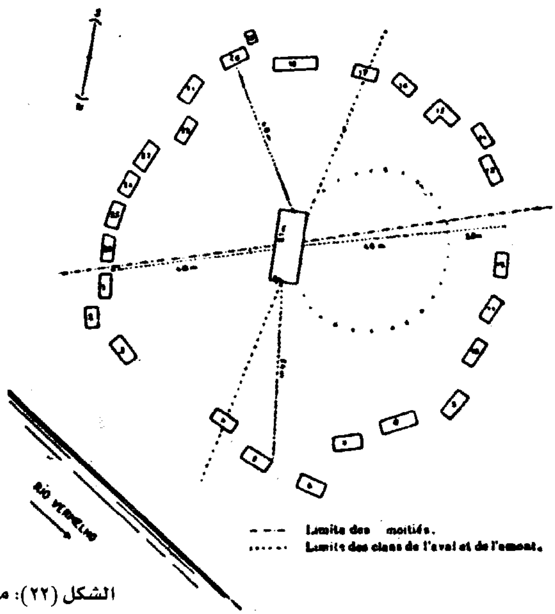
فتارة يهيج، وتارة يوقف الأصوات بضربة ; أحياناً يملؤون الصمت بآلاتهم، وأخرى يملؤونه بألحان ممتدة ومتماوجة صعوداً وهبوطاً ; ويقودون أخيراً، الراقصين من خلال تناوب الصمت مع الأصوات التي تتنوع بطولها وشدتها، إلى حد أنه ما كان لأي قائد لإحدى فرقنا الموسيقية الكبرى، أن يعبر عن إرادته بصورة أفضل. فليس مدهشاً إذاً اعتقاد الأهالي، وحتى المبشرين أنفسهم، قديماً، بسماع الشياطين تتكلم بوساطة الخشخاشات! ومن المعلوم، من جهة أخرى، أنه إذا تبددت أوهام قديمة بشأن ما يزعم أنه «لغات الطبول»، فمن المرجح أنها، تقوم لدى بعض الشعوب، على الأقل، على تشفير حقيقي للغة التي تختصر إلى بعض التعابير ذات المغزى، يعبر عنها بصفة رمزية.

نهضت مع الصباح لزيارة القرية ; وإذا بي أتعثر عند الباب بدواجن تثير الشفقة ; وهي من الأرارا البيتية، التي يشجعها الهنود على العيش في القرية، لنزع ريشها وهي حية؛ وبهذا يحصلون على المادة الأولية لتزيين رؤوسهم. كانت الطيور شبيهة، وهي معراة وعاجزة عن الطيران بدجاجات جاهزة للشي؛ وزاد من ضخامة منقارها تناقص حجمها إلى النصف. بينما كانت طيور أخرى من الأرارا، استعادت ريشها، تجثم بوقار على الأسقف كرموز شعارية مطلية بمينا المناقير واللازورد.

وجدت نفسي وسط فُرجة، يحف بها النهر من جانب، ومن الجوانب الأخرى أشلاء غابة تخفي البساتين، وتسمح برؤية خلفية من التلال بين الأشجار. ويشغل محيطها أكواخ - خمسة وعشرون بالضبط - مماثلة لكوخي، ومتوضعة بشكل دائري، على صف واحد. وفي الوسط كوخ أكبر بكثير من باقي الأكواخ، بطول عشرين متراً تقريباً، وعرض ثمانية أمتار. هو البيتماناجيو، أي بيت الرجال، حيث ينام العزاب، ويقضي الذكور يومهم حينما لا ينشغلون بالصيد أو القنص، أو ببعض الاحتفالات العامة على حلبة الرقص:وهي موضع محدد بأوتاد، يقع في الجانب الغربي من بيت الرجال. والدخول إلى هذا الأخير ممنوع بتاتاً على النساء ; فهن يملكن منازل على المحيط، ويقوم الأزواج، عدة مرات في اليوم، بالذهاب

والإياب بين النادي والمنزل الأسري، مستعملين الدرب الذي يصل أحدهما بالآخر عبر عواسج الفَرجة. وتشبه قرية البورورو، لو نظر إليها من أعلى شجرة أو من سقف، عجلة عربة، ترسم المنازل الأسرية دائرتها، والدروب أشعتها، وبيت الرجال مركزها.

كان هذا المخطط قديماً، مخططاً لكل القرى، إلا أن سكانها، كانوا يتجاوزون بكثير المعدل الحالي (نحو مائة وخمسين شخصاً في كيجارا): وكانت المنازل الأسرية، على عدة دوائر، عوضاً عن واحدة. وليس البورورو الوحيدين، الذين لهم هذه القرى الدائرية.



الشكل (٢٢): مخطط قرية كيجارا

إذ إنها تبدو، مع بعض التنوع في التفاصيل، نموذجية لكل قبائل جماعة الجي اللغوية التي تحتل الهضبة البرازيلية الوسطى، بين نهري آراغويا وساوفرانسيسكو؛ ويشكل البورورو، على الأرجح، ممثليها الجنوبيين. لكننا على علم بأن جيرانهم الأقرب من ناحية الشمال، الكايابو،

الذين يقطنون في الشاطئ الأيمن لريو داس مورتيس، وتم الوصول إليهم منذ خمس عشرة سنة فقط، يبنون قراهم بطريقة مشابهة، كما يفعل الآبينايه والشيرينته والكانيلا.

يكتسي التوزيع الدائري للأكواخ، حول بيت الرجال، أهمية فيما يتصل بالحياة الاجتماعية وممارسة العبادة، جعلت مبشري منطقة ريوداس غارساس يدركون سريعاً، أن أضمن وسيلة لتنصير البورورو، هي إقناعهم بترك قراهم إلى قرى تتوضع المنازل فيها بشكل صفوف متوازية. فضلّ الأهالي السبيل بالنسبة للجهات الأصلية، وحُرموا من المخطط الذي يستندون إليه في معارفهم، وبالتالي أخذوا يفقدون معنى التقاليد، وكأن منظومتيهم الاجتماعية والدينية (سنرى أنهما لا تنفصلان)، كانتا من التعقيد، بحيث لا تستغنيان عن البنية الفكرية، التي تتجسد في مخطط القرية، والتي تجدد حركاتهم اليومية الدائمة خطوطها.

لكن المبشرين، والحق يقال، لاقوا كثيراً من العنت في فهم هذه البنية العصية، وفي الحفاظ على ذكراها. ولابد لمن يذهب إلى البورورو من أن يتزود سلفاً بما قام به المبشرون من أعمال. ولكن المهمة العاجلة، في الوقت ذاته، مقارنة النتائج التي توصلوا إليها، مع نتائج أخرى، حُصل عليها في منطقة، لم يكونوا بعد دخلوها، حيث لما تزل المنظومة تحتفظ بحيويتها. وهكذا كنت أقوم، على هدي من الوثائق المنشورة سابقاً، بالحصول من مخبريَّ على تحليل لبنية قريتهم. فكنا نقضي يومنا في التجوال من منزل إلى منزل، ونحن نحصي السكان، ونضبط حالتهم المدنية، كما نخط على أرضية الفرجة، الخطوط الوهمية التي تحدد القطاعات التي ترتبط بها شبكات معقدة من الامتيازات والتقاليد والمراتب والحقوق والواجبات. ولتبسيط العرض، سأُقوِّم - إذا صح القول - الإتجاهات، لأن جهات المكان، كما يدركها الأهالي، لا تتوافق بالضبط مع ما تشير إليه البوصلة.

فقرية كيجارا الدائرية، تشكل مماساً لضفة ريوفيرميلهو الشرقية، الذي يجري في اتجاه شرق - غرب تقريبي؛ وقطر القرية، الموازي نظرياً

للنهر، يشطر السكان إلى فئتين: التشيرا في الشمال والتوغاريه في الجنوب. ويبدو - لكن المسألة ليست مؤكدة تماماً أن معنى الاسم الأول: ضعيف، والمعنى الثاني قوي. ومهما يكن من أمر فالتقسيم جوهري لسببين: لأن الفرد ينتمي، بداية، إلى شطر أمه دائماً، ثم إنه لا يستطيع الزواج إلا من أحد أعضاء الشطر الآخر. فإذا كانت أمي تشيرا، فسأكون كذلك أيضاً، وزوجتي ستكون توغاريه.

والنساء يسكنّ ويرثن البيوت التي ولدن فيها. وعلى من يتزوج من الأهالي، اجتياز الفرجة إذاً، وعبور القطر الوهمي الذي يفصل بين الشطرين، للإقامة في الجانب الآخر. ويخفف بيت الرجال من هذا الاغتراب، من حيث إن وضعه المركزي، يتعدى إلى أرض هذا الشطر وذاك. لكن قواعد الإقامة، تقتضي أن يسمى الباب، الذي ينفتح على أرض التشيرا، باب التوغاريه، وذلك الذي ينفتح على أرض التوغاريه، باب التشيرا. ذلك لأن استعمالهما مقتصر على الرجال، وكل من يقيمون في قطاع، يرجعون بأصلهم إلى القطاع الآخر والعكس صحيح.

والرجل المتزوج في أسرته لا يشعر أبداً بأنه في بيته: فبيته، الذي ولد فيه، ويقترن بذكريات الطفولة، واقع في الجانب الآخر، وهو منزل أمه وأخواته، ويسكنه أزواجهم الآن. ومع ذلك، يمكنه أن يعود إليه أنَّى شاء، وهو متيقن من أنه سيكون موضع ترحيب. وإذا ما بدا له جو البيت الأسري جد ثقيل (عندما يكون أخوة زوجته في زيارة له)، يستطيع الذهاب للنوم في بيت الرجال، حيث يستعيد ذكريات مراهقته، وصحبة الذكور، ويستعيد جواً دينياً، لا يقصيه من نصب الحبائل للفتيات العازبات.

والانقسام لا يضبط الزيجات فقط، بل جوانب أخرى من الحياة الاجتماعية أيضاً. فكلما يكتشف عضو من شطر، حقاً له أو واجباً عليه، يكون ذلك لمصلحة الشطر الآخر، أو بمعونته. وهكذا، يشرف التوغاريه على مراسيم دفن عضو من التشيرا، والعكس صحيح. فشطرا القرية شريكان إذاً، وكل عمل اجتماعي أو ديني يتضمن مساعدة الآخر، الذي يقوم بدور مكمل للدور، الذي يقع على عاتقك. لكن هذه المشاركة لا

تستبعد الخصومة: إذ ثَمَّة تعالٍ من شطر على آخر، وألوان من الغيرة المتبادلة. لنتخيل إذاً حياة اجتماعية، على مثال فريقين لكرة القدم، اللذين عوضاً عن سعي كل منهما لإفشال استراتيجية الآخر، يدأبان على خدمة أحدهما للآخر، ويقدران الفوز، بدرجة الكمال والكرم اللتين يبلغهما كل منهما.

لنمر الآن إلى جانب آخر: إذ ثمة محور آخر، متعامد مع السابق، ويقطع الشطرين وفقاً لمحور شمال – جنوب. يُنسب جميع السكان الذين ولدوا شرقي هذا المحور إلى المنبع، بينما يُنسب الذين ولدوا غربه إلى المصب. فلدينا إذاً أربعة قطاعات عوضاً عن الشطرين؛ وللتشيرا، كما للتوغاريه، المقام نفسه في جزء من جانب، وفي جزء من جانب آخر. إلا أنه لم يتمكن أي باحث بعد، للأسف، من أن يفهم بالضبط دور هذا التقسيم الثاني، الذي تُناقش حتى حقيقة وجوده.

والسكان، علاوة على ذلك، يتوزعون إلى عشائر. وهي جماعات من الأسر، تعتبر نفسها أقارب من جهة النساء، انطلاقاً من جد مشترك ذي طبيعة أسطورية، قد تكون منسية حتى. لنقل إذاً، إن أعضاء العشيرة يتعارفون فيما بينهم بالاسم الواحد الذي يحملونه. ومن المرجح أن عدد العشائر في الماضي ثمان: أربع للتشيرا، وأربع للتوغاريه. لكن بعضها اندثر بمرور الزمان، وأخرى انقسمت من جديد. ومهما يكن من أمر، من المؤكد أن أعضاء عشيرة ما – باستثناء المتزوجين منهم – يسكنون جميعاً الكوخ نفسه، أو أكواخاً متلاصقة. فلكل عشيرة موقعها إذاً، في دائرة المنازل: وهي قد تكون تشيرا أو توغاريه، من المنبع أو المصب، أو موزعة إلى جماعتين فرعيتين من خلال هذا التقسيم الأخير، الذي يمر، سواء من جانب، أم من جانب آخر، عبر مساكن عشيرة معينة.

أضف إلى كل هذا التعقد أن كل عشيرة، تتضمن جماعات فرعية وراثية، تتحدر من سلالة نسائية أيضاً. فهناك في كل عشيرة أسر «حمراء» وأخرى «سوداء». ويبدو، زيادة على ذلك، أن كل عشيرة، كانت في الماضي منقسمة إلى ثلاث درجات: الأعلون والأواسط والأسافل، وربما كان في

هذا الانقسام انعكاس أو نقل لنظام الطبقات المتراتبة للمبايا - كادوفيو، التي سأعود إليها. وما يجعل هذه الفرضية مرجحة، هو أن هذه الدرجات، كانت لا تتزاوج فيما بينها: فليس بوسع الأعلى الزواج إلا من أعلى (من الشطر الآخر)، وأوسط من أوسط، وأسفل من أسفل. أما الآن، فلم يعد لنا سوى التخمين، نظراً للانهيار الديمغرافي لقرى البورورو: بعدما أضحت القرية، تعد الآن من مائة إلى مائتي ساكن، عوضاً عن ألف وأكثر، ولم يعد فيها ما يكفي من الأسر لملء كل الفئات. ولم تعد تحترم سوى قاعدة الشطرين (مع أن بعض العشائر النبيلة مستثناة منها ربما)؛ ويرتجل الأهالي لما تبقى حلولاً متعثرة تبعاً للإمكانات.

يشكل توزع السكان إلى عشائر «المعطيات» الأكثر أهمية، التي تروق لمجتمع البورورو، كما يبدو. ففي إطار المنظومة العامة للزواج، كانت العشائر تتوحد سابقاً، من خلال تآلفات خاصة: إذ تفضل عشيرة من التشيرا المصاهرة مع عشيرتين أو ثلاث من التوغاريه، والعكس صحيح. فضلاً عن أن العشائر، لا تتمتع جميعها بالمكانة نفسها. ويتم اختيار رئيس القرية إلزامياً من عشيرة معينة، تنتمي لشطر التشيرا؛ وينتقل اللقب وراثياً، وفقاً للسلالة النسائية، من الخال إلى ابن أخته. وهناك عشائر «ثرية» وأخرى «فقيرة»، فعلى أي أساس، تقوم هذه الفوارق في الثراء؟ لنتوقف هنيهة عند هذه النقطة.

إن تصورنا للثراء، اقتصادي بصفة رئيسية: ومهما كان مستوى حياة البورورو متواضعاً، فهو ليس واحداً لدى الجميع. فالبعض أمهر من بعض في القنص أو الصيد، وأكثر حظاً أو أمهر صناعة من الآخرين. إذ تلاحظ في كيجارا علامات على وجود تخصص مهني، كهذا المتخصص في صناعة المصاقل الحجرية، يقايض بها المواد الغذائية، ويعيش بيسر، كما يبدو. ومع ذلك تظل هذه الاختلافات فردية، وعابرة إذن. والاستثناء الوحيد هو الرئيس؛ حيث يتلقى خدمات جميع العشائر، بشكل مؤن أو أشياء مصنوعة. لكنه بالتزامه، في مقابل ما يتلقاه، يجد نفسه دائماً في وضع القائم على مصرف: فثروات كثيرة، تمر بين يديه، دون أن يملك

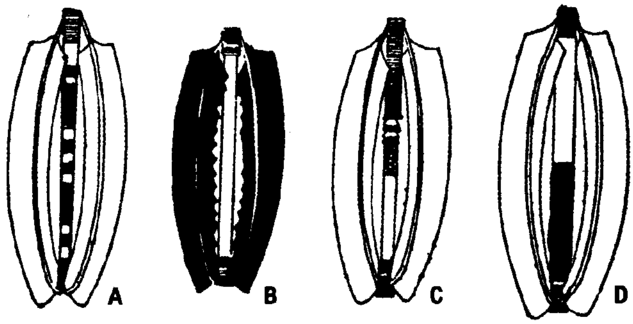
منها شيئاً. ومقتنياتي من الأشياء الدينية، حصلت عليها مقابل هدايا، وزعها الرئيس في الحال على العشائر، وأسهمَتْ بذلك في تعديل ميزانه التجاري.

أما غنى العشائر من حيث المنزلة، فهو من طبيعة أخرى. إذ يمتلك كل منها رأس مالٍ من الأساطير، والتقاليد والرقصات، والوظائف الاجتماعية والدينية. وتؤسس الأساطير بدورها لامتيازات تقنية، هي السمات الأكثر إثارة للعجب في ثقافة البورورو. فكل الأشياء موسومة تقريباً، بطريقة تتيح التعرف على عشيرة المالك، وعشيرته الفرعية. وتقوم هذه الامتيازات، في استعمال بعض الريش، أو ألوان الريش، وفي طريقة تقليمها وتقويرها، وفي ترتيب أنواع الريش وألوانه المختلفة، وفي تنفيذ بعض الأعمال الزخرفية: كجدْل الألياف، أو المؤالفة بين ألوان الريش، وفي التعبير عن موضوعات خاصة .. الخ. وهكذا تزين قسي الاحتفالات بريش أو حلقات من اللحاء، وفقاً للقواعد المتبعة لدى كل عشيرة؛ فساق السهم تحمل في أسفلها، بين ريشات مؤخرتها، زينة مميزة، وتقطع عناصر المؤخرة الصدفية، بأشكال بيضوية أو سَمَكية أو مستطيلة، تختلف باختلاف العشائر؛ وتتنوع ألوان الأهداب؛ وتزود أكاليل الريش التي تلبس أثناء الرقص، بشعار (قطعة خشبية مسطحة عموماً، مكسوة بفسيفساء من نُتف الريش الملصقة) يرمز إلى عشيرة المالك. وحتى الأغماد الذكرية، يعلوها



الشكل (٢٣):
قسي مزينة بحلقات من اللحاء، مرتبة بطريقة تميز عشيرة المالك

في أيام الأعياد، شريط صلب من القش، مزين أو منقوش بألوان العشيرة وأشكالها، كراية طريفة.



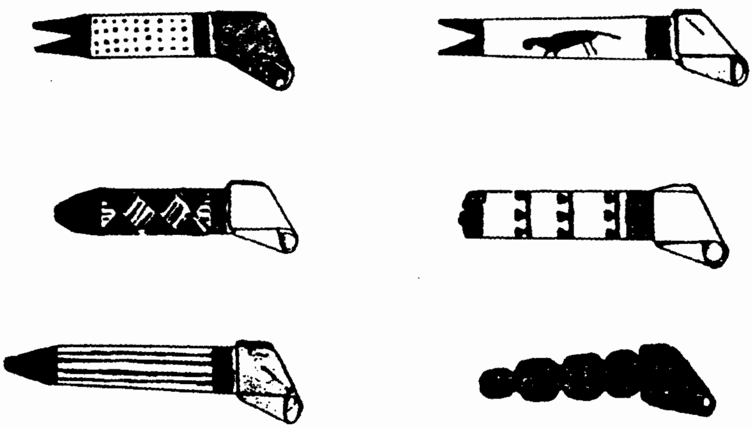
الشكل (٢٤): ريش مؤخرات سهام، بشعارات تشير إلى نسب أصحابها

تشكل هذه الامتيازات (القابلة للتحويل، في الواقع) موضوع مراقبة مشددة وشرسة. فلا يعقل، كما يقال، أن تستولي عشيرة على امتيازات عشيرة أخرى، وإلا سيفتح الباب لصراع دموي. والحال أن الفوارق، من وجهة النظر هذه، بين العشائر ضخمة: فبعضها مترفة، والأخرى بائسة، وتكفي رؤية أثاث الأكواخ للوقوف على ذلك؛ وعوضاً عن التمييز بين أثرياء وفقراء، سنقسمهم إلى أجلاف، ومرهفي الذوق.

تتصف عدة البورورو المادية ببساطة، مقرونة بمهارة نادرة في صنعها. وقد ظلت الأدوات قديمة، على الرغم من الفؤوس والسكاكين التي وزعتها عليهم مصلحة الحماية في الماضي. وإذا كان الأهالي يلجؤون إلى الآلات المعدنية للأشغال الكبيرة، فإنهم مستمرون في صنع الهراوات، يصرعون بها الأسماك، وشغل القسي والسهام من الخشب القاسي، بأداة هي وسط بين القدوم والإزميل، يستعملونها في كل مناسبة، كما نفعل نحن بسكين الجيب: وتتألف من إحدى القواطع المقوسة لحيوان المكابيفارا، وهو من قوارض الضفاف النهرية، تثبت جانبياً برباط على طرف مقبض. ولا تحتوي الأكواخ، فيما عدا حصر وسلال القصب، وأسلحة وأدوات الرجال -من العظام أو الخشب- وعصي الحفر للنساء المسؤولات عن

الأعمال الزراعية، إلا الشيء القليل: أوعية من قرع قُرع وجُفف، وأخرى من الفخار الأسود، وأحواض نصف كروية، وقصاع تستطيل في أحد جوانبها بمقبض، كمغرفة. وأشكال هذه الأشياء بالغة النقاء الذي يبرزه تقشف المادة المستعملة فيها. والمثير للاستغراب هو أن البورورو كانوا يزخرفون الفخاريات قديماً، كما يبدو، إلا أن تحريماً دينياً قريب العهد نسبياً، قضى على هذه التقنية. وربما لهذا السبب أيضاً، لم يعد الأهالي، يعملون رسوماً على الصخور، كالتي لا يزال يعثر عليها في الملاجئ، تحت صخور الشابادا: حيث نتعرف فيها على موضوعات عديدة من ثقافتهم. ويعكف أحد الأهالي على الرسم، مستخدماً عجينة الأوروكو والراتنج؛ ومع أن البورورو أضاعوا ذكرى ذلك الزمان الذي كانوا يرسمون فيه على الجدران الصخرية، ولم يعودوا يترددون إلى المنحدرات الشديدة التي توجد فيها، إلا أن اللوحة النهائية التي وجدتها بين يدي، كانت تبدو رسماً صخرياً مصغراً.

وعلى خلاف تقشف الأشياء المخصصة للاستعمال، يحصر البورورو



الشكل (٢٥): أغماد ذكرية موسومة

كل بذخهم وخيالهم في الملابس أو على الأقل - باعتبار هذه الأخيرة شديدة الاختصار - في لواحقها. فالنساء يملكن علب حلي حقيقية،

تنتقل من الأم لابنتها: وهي حلي من أسنان القرد أو أنياب الفهد، مركبة على خشب ومثبتة برباط دقيق. وإذا كانت غنائم القنص من حقهن هكذا، فإنهن يسمحن لرجالهم بنتف شعر الصدغ لديهن، ليصنعوا منه جدائل دقيقة، يلفونها على رؤوسهم. كما يضع الرجال على رؤوسهم أيام الاحتفالات، حلية على شكل هلال متكونة من مخلبين من مخالب التاتو الكبير - وهو حيوان من آكلات النمل، تتجاوز قامته المتر، ولم يكد يتحول منذ العصر الثالث - مطعمة بالصدف، وأهداب من الريش أو القطن. وتبرز مناقير طير الطوقان الضخمة المثبتة على قضبان مُريَّشة، وباقات من قنزعات أبو قردان، وريش ذيل الأرارا الطويل، مع حزم الخيزران المفرغ التي يلصق عليها زغب أبيض، وتحيط بشعورهم المعقوصة - الطبيعية أوالاصطناعية - مثل ملاقط الشعر، التي تتوازن من الخلف مع إكليل الريش المحيط بالجبهة. وقد تتراكب هذه الزينات، في غطاء رأس خليط، يتطلب وضعه على رأس الراقص عدة ساعات أحياناً. وقد حصلت على أحدها لمتحف الإنسان في مقابل بندقية، بعد مفاوضات امتدت لثمانية أيام. فقد كان ضرورياً للطقوس، ولا يستطيع الأهالي التخلي عنه إلا بعد أن يجمعوا من القنص تشكيلة الريش اللازمة، لصنع واحد آخر. ويتألف من إكليل على شكل مروحة وواقية من الريش، تغطي الجزء الأعلى من الوجه؛ وتاج أسطواني عالٍ، يحيط بالرأس من أعواد يعلوها ريش عقاب، وقرص من القش، يستعمل لتثبيت قضبان، ألصق بها ريش وزغب. ويصل ارتفاع المجموع إلى مترين تقريباً.

وحتى عندما لا يكون الرجال في زي المراسم، فإن تعلقهم بالزينة من القوة، بحيث يجعلهم يرتجلون البهرجة باستمرار. فكثير منهم يضعون على رؤوسهم تيجاناًمن فراء مزين بالريش، أو حلقات من القصب، مريشة أيضاً، أو عقد من مخالب الفهد، تركب على حلقة من الخشب. لكن أشياء أقل من ذلك بكثير، تكفي لتخلب ألبابهم من مثل شريط من القش المجفف، يلتقطونه من الأرض ويسارعون إلى لفه وتلوينه، عاملين منه غطاء للرأس، يتبختر حامله حتى يعثر على شيء آخر يثير خياله؛ فقد

تُعرّى شجرة من زهورها، أحياناً، للغرض نفسه؛ وتُزوّد قطعة من اللحاء وبعض الريش، مصممي الأزياء هؤلاء، بفرصة إبداعٍ فتّان لأقراط الأذنين. وعلى المرء أن يدخل إلى بيت الرجال، ليقف على مقدار النشاط، الذي يبذله هؤلاء الرجال في تجميل أنفسهم. إذ نجدهم في كل ركن منه منهمكين في التشكيل والنقش واللصق، حيث تقطع أصداف النهر، وتصقل بقوة على مسنات، لتصنع منها العقود والشفاتير التي يشكونها في شفاههم، وتُفتعل تركيبات خيالية من الخيزران والريش. وإذا بهؤلاء الرجال الأشداء، يحوّل بعضهم بعضاً، باجتهاد جدير بخيّاطة ماهرة، إلى كتاكيت بوساطة الزغب الذي يلصقونه على جلودهم.

وإذا كان بيت الرجال مَشْغلاً، فهو شيء آخر أيضاً: إذ ينام المراهقون فيه، ويقضي المتزوجون وقت القيلولة عند فراغهم، يتحدثون ويدخنون سيجاراتهم الملفوفة بأوراق الذرة الجافة. كما يتناولون فيه بعض الوجبات أيضاً، لأن نظاماً دقيقاً للسخرة يُلزم العشائر بالتناوب على خدمة بيت الرجال. فيمضي رجل منهم، كل ساعتين تقريباً إلى منزله، ليأتي بقدر مملوء بعصيدة الذرة التي تهيئها النساء. ويتلقاه الحضور بصرخات الفرح، أو، أو، التي تقطع الصمت. وبمراسم معينة، يقوم الرجل بدعوة ستة أو ثمانية رجال إلى الطعام، حيث يغترفون منه بإناء من فخار أو أصداف. وكنت أشرت إلى منع النساء من دخول البيت; وهذا صحيح بالنسبة للمتزوجات؛ والفتيات يتجنبن الاقتراب منه طوعاً، لأنهن على معرفة جيدة بما سيكون عليه مصيرهن. فإذا ما اقترين سهواً أو عن عمد، فربما يقبض عليهن ويغتصبن. لكنهن مجبرات على الدخول إليه، من جهة أخرى، بإرادتهن، مرة واحدة في حياتهن، لطلب زوج المستقبل.

الأحياء والأموات

23 من مشغل ومنتدى، إلى مهجع ودار بغاء أحياناً: إن بيت الرجال معبد في النهاية. إذ يتهيأ الراقصون فيه، كما تجري بعض الاحتفالات في غياب النساء، وتصنع فيه آلات الرومب الموسيقية، وهي آلات خشبية، غنية بالرسوم، يذكّر شكلها بسمكةٍ مسطحة، يتراوح حجمها بين ثلاثين سنتيمتراً ومتر ونصف. وبتدويرها في نهاية حبل دقيق، تُصدر دمدمة مكتومة، يرجعها الأهالي إلى الأرواح التي تزور القرية والتي يخشاها النساء. والويل لمن ترى منهن رومباً، لأنها تخاطر بأن تصرع، حتى في هذه الأيام. عندما حضرت لأول مرة، عملية صنع هذه الآلات، حاولوا إقناعي بأنها أدوات للطبخ. ولا يفسر نفورهم الشديد من إعطائي مجموعة منها، بالعمل الذي سيقومون به من جديد، بقدر خشيتهم من إفشائي للسر. فكان علي الذهاب إلى بيت الرجال في ظلام الليل، وبيدي حقيبة، وُضعت آلات الرومب المحزومة فيها قبل أن تُقفل بإحكام، وانتزعوا مني وعداً بأن لا أفتح شيئاً منها قبل كويابا.

إن ما يجري من أعمال في بيت الرجال، وتبدو للملاحظ الأوروبي متنافرة، هي منسجمة بشكل جلي تقريباً. فقليل من الشعوب متدينة بعمق تدين البورورو، وقليل منها من لديه منظومة ميتافيزيقية بهذا التعقيد. إلا أن المعتقدات الروحية، والعادة اليومية شديدة الاختلاط، ولا يبدو أن لدى الأهالي شعوراً بالانتقال من منظومة إلى أخرى. وقد وجدت هذا التدين الدمث ثانية، في المعابد البوذية على الحدود البورمية، حيث ينام الرهبان ويعيشون في القاعات المخصصة للعبادة، وقد رتبوا حُقق مراهمهم، وصيدليتهم الشخصية أسفل المذبح، ولا يتأففون من ملاطفة تلاميذهم خلال دروس القراءة.

كان هذا الموقف اللامبالي بما فوق الطبيعة يدهشني، لا سيما وأن صلتي الوحيدة بالتدين ترجع إلى طفولة غير مؤمنة، عندما كنت أسكن، أثناء الحرب العالمية الأولى، عند جدي، وكان حاخاماً في فرساي. كان المنزل الملاصق للكنيس، موصولاً به بممر داخلي طويل، كنت أمر منه بشيء من القلق، ويشكل بحد ذاته حدوداً لا يمكن تخطيها بين العالم الدنيوي، والعالم الذي كانت تعوزه هذه الحرارة الإنسانية التي كانت أول شرط للشعور بقدسيته. كان يظل الكنيس خاوياً، فيما عدا ساعات العبادة، ولم يكن حضور الناس فيه من الامتداد والخشوع، بحيث يخفف من حالة الأسى، التي يبدو أنها ترين عليه بصفة طبيعية، وتزعجها الشعائر بصورة غير لائقة. وكانت العبادة في الأسرة، تعاني من الجفاف نفسه؛ ففيما عدا صلاة جدي الصامتة، بداية كل وجبة، لم يكن أي شيء يشير للأطفال بأنهم يعيشون في ظل عناية سامية، إلا لوحة ورَقيّة مطبوعة، مثبتة على حائط غرفة المائدة، تقول: «امضغوا طعامكم جيداً، فالهضم مرتبط بذلك».


الشكل (٢٦)
رومب

وهذا لا يعني أن الدين أكثر هيبة لدى البوروو، بل على العكس، لأنه من المسلمات. فهم يقومون بالشعائر في بيت الرجال، بعدم الاكتراث ذاته، الذي يرافق سائر أعمالهم، وكأنها أفعال نافعة، تنفذ ابتغاء لنتائجها، دون أن تقتضي موقف الإجلال الذي يفرض نفسه حتى على غير المؤمن حينما يدخل معبداً. وقد أخذوا بعد ظهر اليوم، ينشدون في بيت الرجال، توطئة لطقوس المساء الجماعية. بينما يشخر بعض الفتيان

في إحدى الزوايا، أو يثرثرون؛ ويدندن رجلان أو ثلاثة، وهم يهزون الخشخاشات؛ إلا أنه لو رغب أحدهم في إشعال سيجارة، أو الاغتراف من عصيدة الذرة، يترك الآلة لأحد جيرانه لكي يتابع، أو يستمر بيد ويحك جسمه باليد الأخرى. وإذا ما شرع راقص بالتبختر ليثير الإعجاب بآخر إبداعاته، يتوقف الجميع ويعلقون؛ أما الطقوس، فكأنما نسيت، حتى ينطلق الترنيم من جديد في ركن آخر، من النقطة التي توقف فيها.

ومع ذلك، تتجاوز دلالة بيت الرجال المعنى المتصل بالحياة الاجتماعية والدينية الذي حاولتُ وصفه. فبنية القرية، لا تسمح فقط بالعمل السلس للمؤسسات، بل توجز وتؤمن الصلات بين الإنسان والكون، وبين المجتمع وعالم ما فوق الطبيعة، وبين الأحياء والأموات.

وقبل التطرق إلى هذا الجانب من ثقافة البورورو، عليَّ فتح قوسين فيما يتعلق بالصلات بين الأحياء والأموات. إذ سيكون صعباً، من دون ذلك، فهم الحل الخاص، الذي يعطيه فكر البورورو لمعضلة كونية، ويماثل الحل الذي نجده في الجانب الآخر من نصف الكرة الغربي، لدى سكان غابات وسهوب الشمال الشرقي لأمريكا الشمالية، من مثل: الأوجيبوا، المينوميني، الوينّيباغو.

فلا وجود، على الأرجح، لمجتمع لا يعامل موتاه باحترام. وحتى إنسان نياندرتال الأول، كان يدفن موتاه في قبور مهيأة، على بساطتها. ولاشك أن المراسم الجنائزية تختلف وفقاً للمجتمعات. أفيعني هذا أن هذه الاختلافات لا قيمة لها، بالنظر إلى الشعور الاجتماعي الذي تعبر عنه؟ الواقع أنه، حتى عندما نجتهد في تبسيط المواقف الملحوظة في المجتمعات البشرية إزاء الموت إلى أقصى حد، فسنكون مضطرين إلى التقيد بتقسيم كبير، يتم الانتقال بين قطبيه، من خلال سلسلة من التقسيمات الوَسَطية.

تترك بعض المجتمعات موتاها وشأنهم؛ ففي مقابل تكريم دوري، يمتنع هؤلاء عن إزعاج الأحياء؛ وإذا ما عادوا لرؤيتهم، فسيكون ذلك على فترات، وفي مناسبات مقررة. وستكون زيارتهم نعمة، إذ يضمن الأموات بحمايتهم عودة الفصول بانتظام، ويضمنون خصوبة الحقول

والنساء. وتتم الأمور، كأن عقداً تم بين الأموات والأحياء: ففي مقابل العبادة المكرسة لهم، يبقى الأموات حيث هم، وستكون اللقاءات الوقتية بين الجماعتين خاضعة دائماً لمصلحة الأحياء. وثمة أسطورة فولكلورية عالمية، تعبر جيداً عن هذه الصيغة: هي أسطورة الميت المعترف بالجميل. إذ يشتري أحد الأبطال الأثرياء من دائنين جثة، يعارضون في دفنها. ويقدم للميت قبراً وكفناً. فيظهر الميت في المنام لولي نعمته، ويعده بالنجاح، شرط أن تقسم مكاسب هذا النجاح بينهما بالعدل. وبالفعل، يفوز البطل سريعاً بقلب أميرة، استطاع إنقاذها من عدة مخاطر بمساعدة حارسه الخارق للطبيعة. فهل عليه التمتع بها بالاشتراك مع الميت؟ إلا أن الأميرة سُحرت: نصفاً امرأة، ونصفاً تنيناً أو أفعى. وطالب الميت بحقه، فاستجاب البطل، فما كان من الميت، وقد أعجب بوفاء البطل، إلا الاكتفاء بالنصف الخبيث، تاركاً للبطل زوجة آدمية.

ويتعارض مع هذا المفهوم، مفهوم آخر، توضحه أحياناً أسطورة فولكلورية سأدعوها: الفارس المقدام. فالبطل فقير، عوضاً عن أن يكون غنياً. وكل ما يملكه حبة قمح، يتوصل بالحيلة إلى مقايضتها بديك، ثم خنزير، فثور، وجثة، يقايضها أخيراً بأميرة حية. فالميت شيء هنا، كما نرى، ولم يعد ذاتاً. وبدلاً من شريك يُتعامل معه، فإنه أداة تستعمل للمضاربة، حيث يسود الكذب والخداع. وتتخذ بعض المجتمعات حيال أمواتها موقفاً من هذا النمط. إذ تأبى عليهم الراحة، وتستغلهم: بمعنى الكلمة أحياناً، كما في حالة أكل لحوم البشر وأكل الموتى، عندما تؤسسان على الطمع في الاستحواذ على فضائل المتوفى وقدراته؛ ورمزياً أيضاً، في المجتمعات التي تخوض نزاعات على الجاه، حيث ما يفتأ المتنازعون، يستنجدون بالموتى ليهبوا لنجدتهم، ساعين إلى تسويغ سلطانهم بالعودة إلى الأسلاف وحيل الأنساب. وتشعر هذه المجتمعات أكثر من غيرها بالحرج من موتاها، الذين تسيء إليهم. إذ ترى بأنهم يردون بالمثل على اضطهادها لهم، رداً مشاكساً ومتشدداً إزاء الأحياء، يجعل هؤلاء يسعون لاستغلالهم. وسواء كان الأمر قسمة عادلة، كما في الحالة الأولى، أم

مضاربة شرسة كما في الحالة الثانية، فالفكرة المسيطرة هي أنه لا يمكن اتقاء القسمة على اثنين، فيما يتصل بالعلاقات بين الأموات والأحياء.

وهناك سلوكات انتقالية، بين هذين الموقفين المتطرفين: فهنود الساحل الغربي والميلانيزيون يستدعون كل أسلافهم لحضور الطقوس، ويرغمونهم على الشهادة لمصلحة أحفادهم. وفي بعض عبادات الأسلاف، في الصين وإفريقيا، يحتفظ الأموات بهويتهم الشخصية، ولكن لعدة أجيال فقط: إذ لدى البويبلو، في الجنوب الغربي للولايات المتحدة الأمريكية، يتوقف الأموات حالاً عن كونهم مشخصين كمتوفين ولكنهم يتقاسمون عدداً من الوظائف. وحتى في أوروبا، حيث أضحى الأموات خاملين وغُفلاً، يحتفظ الفولكلور ببقايا الاحتمال الثاني; مع الاعتقاد بأن ثمة نمطين من الأموات: أولئك الذين قضوا لأسباب طبيعية، ويشكلون لفيفاً من الأسلاف الحامين، بينما يتحول المنتحرون والمقتولون، أو المسحورون إلى أرواح شريرة وحسودة.

وإذا اكتفينا بالنظر في تطور الحضارة الغربية، نجد أن الموقف المضارب قد امحى شيئاً فشيئاً لمصلحة المفهوم التعاقدي للعلاقات بين الأموات والأحياء، لتحل محله لامبالاة تعلن عنها صيغة الإنجيل: اتركوا الموتى يدفنون الموتى. بيد أنه ما من سبب يستدعي الافتراض بأن هذا التطور، يتبع نموذجاً كونياً. بل إنه كان لكل الثقافات كما يبدو، وعي جلي بالصيغتين، إذ تؤكّد الأولى منهما، بينما تسعى بطرق سحرية، لحماية نفسها من الجانب الآخر (كما نفعل نحن في الواقع، على الرغم مما ندعيه من اعتقاد أو عدم اعتقاد). وتتبدى أصالة البورورو، والشعوب التي ذكرتها مثلاً، في أنهم صاغوا لأنفسهم الإمكانين بوضوح، وأنشؤوا منظومة عقائد وطقوس لكل منهما; كما أنشؤوا آليات تسمح بالمرور من الواحدة إلى الأخرى، مع الأمل في التوفيق بينهما كليهما.

سأعبر عن نفسي بشكل منقوص، لو قلت إنه لا يوجد لدى البورورو موت طبيعي: فالإنسان لديهم، ليس فرداً بل شخص. ينتمي إلى كيان

اجتماعي: هو القرية الموجودة منذ الأزل، جنباً إلى جنب مع الكون الفيزيائي، المركب بدوره من كائنات حية هي: الأجرام السماوية، والظواهر الجوية. وهذا، على الرغم من الطابع الوقتي للقرى الواقعية، التي (نظراً لاستنزاف التربة الزراعية) لا تبقى أكثر من ثلاثين سنة في الموضع ذاته. فما يكوّن القرية إذاً، ليست أراضيها ولا أكواخها، بل بنية ما، وصفناها آنفاً، تتبدى في كل قرية. وبهذا نفهم، كيف دمر المبشرون كلّ شيء، بمناوءتهم للتنظيم التقليدي للقرى.

أما البهائم، فتنتمي في جزء منها إلى عالم الإنسان، وبخاصة الأسماك والطيور؛ بينما تتبع بعض الحيوانات البرية الكون الفيزيائي. وهكذا يعتبر البورورو شكلهم الإنساني انتقالياً، بين خلقة سمكة (التي يدعون أنفسهم باسمها) وخلقة الأرارا (الذي سينهون إليه تناسخ أرواحهم).

وإذا كان يسيطر تعارض عميق بين الطبيعة والثقافة على فكر البورورو (على غرار فكر الإثنوغرافيين)، فهم بالتالي علماء اجتماع أكثر من دوركايم وكومت: إذ يعتقدون بأن الحياة الإنسانية، تتعلق بالثقافة. ومن هنا، لم يعد معنى لقولنا إن الموت طبيعي أو مضاد للطبيعة. فالموت، واقعاً وقانوناً، طبيعي ومضاد للثقافة في آن. أي، لا يلحق الضرر عند موت أحد الأهالي بأقاربه وحسب، بل بالمجتمع كله. والخسارة التي تسببت بها الطبيعة للمجتمع، تستتبع دية منها، وهناك تعبير يترجم كفاية، مفهوماً جوهرياً لدى البورورو وهو موري: إذ عندما يموت أحد الأهالي، تنظم القرية حملة قنص جماعية، توكل إلى الشطر الذي لا ينتمي إليه المتوفى، وهي حملة ضد الطبيعة، غايتها اصطياد طريدة كبيرة، يفضل أن تكون فهداً، يشكل جلده ومخالبه وأنيابه موري الميت، أو ديته.

حدثت، قبيل وصولي إلى كاجارا وفاة، لكن المتوفى، مات للأسف بعيداً، في قرية أخرى. ولن أرى إذاً الدفن المزدوج، الذي يقوم أولاً على وضع الجثة في حفرة، تغطى بالأغصان وسط القرية حتى تتفسخ، ثم غسل العظام في النهر، وتلوينها وتزيينها بفسيفساء من الريش الملصق،

قبل إلقائها وهي في سلة، إلى قاع بحيرة أو مجرى مائي. وجرت بقية المراسم الطقوسية الأخرى التي حضرتها، وفقاً للتقاليد، بما فيها تقديم الوالدين للقربان، في الموضع الذي حفر فيه القبر المؤقت. وشاء سوء الحظ أيضاً، أن تتم حملة القنص عشية وصولنا، أو بعد ظهر يوم وصولنا، لا أدري، لكن المؤكد أنه لم يصطد شيء. فاستعمل جلد فهد قديم للرقص الجنائزي. وأظن أن الأرارا الذي جلبناه معنا، استعمل لتعويض الطريدة الناقصة. لكنهم لم يقروا بذلك للأسف: فلو حدث ذلك فعلاً، لكان في استطاعتي المطالبة بصفة ويادو، أي رئيس الصيد، الذي يمثل روح المتوفى، ولكنت استلمت من عائلته، واقية الساعد المصنوعة من الشعور الإنسانية، والبواري، وهو مزمار رمزي مؤلف من قرعة مفرغة صغيرة مريشة، تستعمل صواناً لفم من الخيزران، يعزف بها قبل أن تربط بجثة الميت. ولكنت قسمت، كما هو واجب، اللحم والجلد والأسنان والمخالب، بين أقارب الميت الذين كانوا سيعطونني في المقابل، قوساً للاحتفالات وسهاماً، ومزماراً تذكارياً آخر، وعقداً من القواقع. ولكان وجب علي بلا شك، أن أصطبغ بالسواد، حتى لا تتعرف علي الروح الشريرة المسؤولة عن الوفاة، والتي عليها، طبقاً لقاعدة الموري التقمص في الطريدة، مقدمة نفسها هكذا تعويضاً عن الخسارة، مع امتلائها حقداً نحو قاتلها. ذلك لأن هذه الطبيعة القاتلة إنسانية بمعنى ما، وتقوم بأفعالها بوساطة صنف خاص من الأرواح، التي تتبعها مباشرة ولا تتبع المجتمع.

ذكرت آنفاً أنني كنت أتقاسم الكوخ مع ساحر (باري). وهؤلاء السحرة، يشكلون صنفاً خاصاً من الكائنات البشرية، التي لا تنتمي تماماً، لا إلى الكون الفيزيائي ولا للعالم الاجتماعي، بل دورهم إقامة وساطة بين المملكتين. ومحتمل، لكن ليس مؤكداً، أن يكونوا ولدوا جميعاً في شطر التوجاريه، وتلك حالة شريكي في الكوخ، لأن كوخنا كان تشيرا، ويسكن كما هو مفروض، بيت زوجته. ويصير الرجل باري بتوجه شخصي، وغالباً، نتيجة كشف يكون دافعه الأساسي حلف، يعقد مع بعض أعضاء مجموعة شديدة التعقيد، تتكون من أرواح شريرة أو مخيفة فقط، بعضها سماوي

(وتسيطر عندئذ على الظواهر الفلكية والجوية) وبعضها حيوانية، وبعضها تحت أرضية. هذه الأرواح، التي تتزايد باضطراد عن طريق أرواح السحرة المتوفين، مسؤولة عن مجريات الكواكب، والريح والمطر، والمرض والموت. ويصفونها بمظاهر مختلفة ومرعبة: ذوات شعر كثيف ورؤوس مثقبة يخرج منها الدخان عندما تدخن: أو مسوخ هوائية تنفث المطر من خياشيمها وأعينها، بشعور ومخالب مفرطة الطول: أو بساق واحدة وبطن ضخم وجسم يكسوه زغب كالوطاويط.

والساحر شخصية غير اجتماعية. وتمنحه صلته الشخصية بروح أو عدة أرواح امتيازات: كمساعدة خارقة للطبيعة، حينما ينطلق وحيداً في رحلة قنص، وقدرة على التحول إلى حيوان، ومعرفة الأمراض، ومواهب في التنبؤ. ولا تصلح الطريدة أو محصولات الحقل الأولى للاستهلاك، إذا لم يتسلم حصته منها. وتمثل هذه الحصة الموري (الدية) التي تتوجب على الأحياء نحو أرواح الموتى: وبذلك تؤدي دوراً موازياً، ومعاكساً إذاً، لدورها في الصيد الجنائزي، الذي تحدثت عنه.

لكن الساحر خاضع أيضاً لروحه أو أرواحه الحارسة التي تتقمصه، فيصبح وهو مطية للروح، نهباً للغشيات والتشنجات. والروح في مقابل حمايتها له، تمارس على الساحر مراقبة دائمة، وهي المالكة الحقيقية، ليست لأمتعة الساحر فقط، بل لجسمه أيضاً. والساحر مسؤول أمامها عن سهامه المكسورة وأوانيه المحطمة، وقلامات أظفاره، وقصاصات شعره: إذ لا شيء من كل هذا، يمكن إتلافه أو رميه: وهكذا يجرجر الساحر خلفه كل نفايات حياته الماضية. وهنا تجد الحكمة المأثورة القائلة: الميت يقبض على الحي، معناها الرهيب وغير المنتظر. وتبلغ الصلة بين الساحر والروح من الحذر حداً، لا يعرف معه أيهما، في نهاية الأمر، السيد أو الخادم.

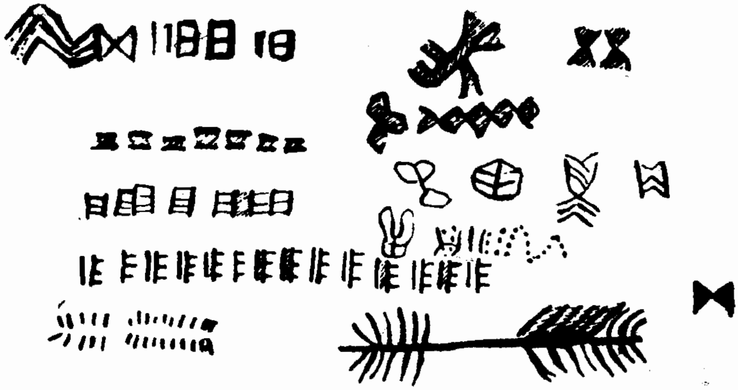
نرى إذاً أن الكون الفيزيائي لدى البورورو، يقوم على تراتبية معقدة من القوى المتفردة. وإذا كانت الطبيعة الشخصية لهذه القوى مؤكدة بجلاء، فليس الأمر كذلك بالنسبة لخواصها الأخرى: لأن هذه القوى

أشياء وكائنات في آن، أحياء وأموات. ويشكل السحرة في المجتمع المِفصل الذي يصل الناس بهذا الكون الملتبس للأرواح الشريرة، بطبيعتها المزدوجة كأشخاص وأشياء.

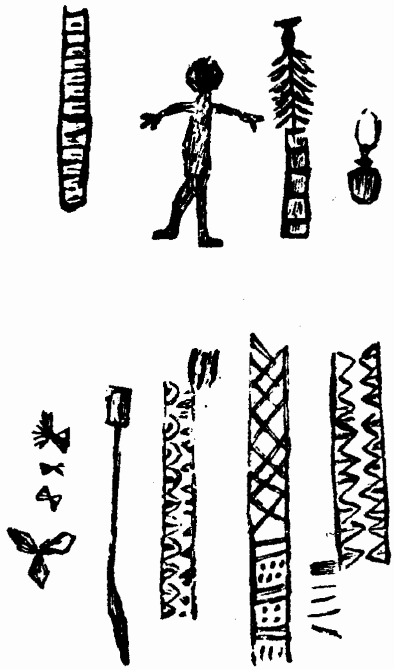
ويتصف الكون الاجتماعي، إلى جانب الكون الفيزيائي، بمميزات مختلفة تماماً. فأرواح الناس العاديين (أعني من ليسوا بسحرة) عوضاً عن التماهي بالقوى الطبيعية، تبقى كمجتمع: لكنها تفقد هويتها الشخصية لتمتزج بهذا الكائن الجماعي، الأروية، الذي تجدر ترجمته، على غرار الأناون لدى قدماء البروتون، بمجتمع الأرواح. والواقع أن هذا المجتمع مزدوج: لأن الأرواح تتوزع بعد الدفن إلى قريتين: إحداهما في الشرق، والأخرى في الغرب، يحافظ عليهما البطلان المؤلهان العظيمان لمعبد البورورو: البكر باكورورو في الغرب، والأصغر إيتوبوري في الشرق. وبما أن المحور شرق - غرب يتوافق مع مجرى ريو فيرميلهو؛ فمن المحتمل وجود علاقة، لا تزال غامضة، بين ازدواجية قرى الموتى والتقسيم الثانوي للقرية إلى شطر لأعلى النهر، وآخر لأسفله.

ونظراً لكون الساحر هو الوسيط بين المجتمع الإنساني والأرواح الشريرة، الفردية منها والكونية (رأينا أن أرواح السحرة هي كل هذا في آن)، فثمة وسيط آخر، يشرف على العلاقات بين مجتمع الأحياء ومجتمع

الشكل (٢٧): رسوم تمثل أدوات تعبدية لدى البورورو



الأموات، وهو مجتمع خيّر، وجماعي ذو صفات إلهية بمظهر إنساني. هذا الوسيط هو «سيد طريق الأرواح»، ويمتاز عن الساحر بصفات مضادة؛ فهما متكارهان، ويخشى أحدهما الآخر. إذ ليس لسيد طريق الأرواح الحق في القرابين، وعليه التمسك الشديد بالقواعد: كتحريم بعض الأطعمة، والتقشف في هيئته. وتمنع عنه الحلي والألوان الفاقعة. وليس من حلف بينه وبين الأرواح باعتبارها موجودة إزاءه دائماً، وملازمة له نوعاً ما. وعوضاً عن أن تستحوذ عليه في غشيات، تظهر له في أحلامه؛ وإذا ما استدعاها أحياناً، يكون ذلك لمنفعة الآخرين فقط.



الشكل (٢٨): رسوم تمثل قائماً بالمراسم، ومزامير، وخشخاشة، وتزيينات مختلفة

وإذا تنبأ الساحر بالمرض والموت، فسيد طريق الأرواح يداوي ويشفي. ويُزعم بأن الساحر، باعتباره تعبيراً عن الحتمية الفيزيائية، يقوم عمداً بتأكيد تكهناته، بالإجهاز على المرضى الذين يتلكؤون في تحقيق نبوءاته المشؤومة. إلا أن ما تنبغي ملاحظته هو أنه ليس للبورورو تصورنا نفسه للعلاقات بين الموت والحياة. إذ قيل لي يوماً عن امرأة تغلي بالحمى في زاوية كوخها، إنها ميتة، والمقصود من ذلك، دون ريب، أنها كانت تعتبر فقيدة. وهذه النظرة تماثل، على كل حال، عسكريينا، حينما يجملون تحت عنوان «الخسائر» القتلى والجرحى معاً. وهو الشيء ذاته من وجهة

نظر الفاعلية الآنية، على الرغم من أنه ميزة، من وجهة نظر الجريح، بأن لا يكون في عداد الموتى.

وأخيراً، إذا كان في مكنة السيد أن يتحول إلى حيوان، على غرار الساحر: فإن ذلك لا يتم أبداً، بشكل فهد آكل للبشر، يبتز - قبل أن يُقتل - موري الأموات من الأحياء. بل يختص في الحيوانات المغذية: كالأرارا، آكل الفاكهة، والعقاب، صائد الأسماك، أو التابير، الذي يمتع القبيلة بلحمه. الساحر تسكنه الأرواح، أما سيد طريق الأرواح فيضحي بنفسه لخلاص بني الإنسان. وحتى الوحي، الذي يدعوه للقيام بمهمته، مؤلم: إذ يعرف المختار نفسه بوساطة الرائحة الكريهة التي تتبعه، مذكرة، دون شك، بالرائحة التي تجتاح القرية أثناء أسابيع الدفن المؤقت للجثة على وجه الأرض، وسط باحة الرقص، إلا أنها تقترن عندئذ بكائن أسطوري هو الإيج. هذا الكائن هو وحش الأعماق المائية، منفر، منتن الرائحة، وعطوف، يظهر للمطلع على الأسرار، ويسر بمداعباته. ويُمثَّل المشهد، أثناء تشييع الجنازة، من قبل فتيان ملطخين بالوحل، يعانقون الشخص المتنكر الذي يمثل روح المتوفى. ويتصور الأهالي الإيج بشكل بلغ من وضوحه، أنهم يمثلونه في رسومهم، ويشيرون باسمه لآلات الرومب، التي يؤذن هديرها بطفو الحيوان، ويحاكي صرخته.

ليس مدهشاً، بعد هذا، أن تمتد المراسم الجنائزية لعدة أسابيع: لأن وظائفها كثيرة التنوع. وتقع، بداية، على الصعيدين اللذين ميزنا بينهما للتو. فكل ميت، من وجهة النظر الفردية، هو مناسبة لتحكيم بين الكون الفيزيائي والمجتمع. إذ تسببت القوى المعادية، التي تكون الأول، في خسارة للثاني، وهذه الخسارة ينبغي أن تعوض: وهذا هو دور الصيد الجنائزي. وبعدما تنتقم الجماعة للميت، عليه أن ينضم إلى مجتمع الأرواح. وتلك هي وظيفة الإنشاد الجنائزي الكبير، الذي سيكون لي الحظ في مشاهدته.

هناك، في قرية البورورو، ساعة في اليوم، تكتسي أهمية خاصة: عند نداء المساء. فما أن يرخي الليل سدوله، حتى تشعل نار كبيرة في باحة

الرقص، حيث يأتي رؤساء العشائر للاجتماع: ويقوم مناد بصوت جهوري، فيدعو كل مجموعة: باديدجيبا «الرؤساء» أو سيرا «أصحاب أبو منجل»، كِي «أصحاب التابير»، بوكودوري «أصحاب التاتو»، بورو «أصحاب الدلدل»، أبيبور «معنى مشكوك فيه»(*) ... ووفقاً لمثول المعنيين، تُبلغ لهم أوامر الغد، بالصوت الجهوري نفسه، الذي يُبلغ الأقوال حتى الأكواخ الأكثر بعداً، التي تكون خاوية أو شبه خاوية في هذه الساعة. فبحلول الظلام، الذي يبعد البعوض، يكون جميع الرجال خرجوا من منازلهم الأسرية، التي كانوا دخلوها نحو الساعة السادسة. ويحمل كل منهم تحت إبطه الحصير، التي سيفترشها على أرض الساحة الكبرى المستديرة، الواقعة على الجانب الغربي من بيت الرجال. وينام أحدهم ملتفاً بغطاء، تلون باللون البرتقالي نتيجة الاحتكاك الدائم بالأجسام المطلية بالأوروكو، حيث لن تتعرف مصلحة الحماية إلا بصعوبة على إحدى هداياها. ويتمدد على حُصُرٍ أكبر، خمسة أو ستة، نادراً ما يتبادلون الحديث. وطالما يستمر النداء، ينهض أرباب العائلات المذكورون، واحداً بعد الآخر، ليتلقوا تعليماتهم، ويعودوا للاستلقاء ووجوههم إلى النجوم. ويترك النساء الأكواخ أيضاً، ليشكلن حلقات على عتبات بيوتهن. وتخفت الأحاديث، بينما يبدأ سماع إنشاد اثنين أو ثلاثة من القائمين بالمراسم في بيت الذكور، ليقوى شيئاً فشيئاً مع تقاطر الرجال إليه، ثم يمتد إلى الساحة، ويستمر طوال الليل.

(*) قد ينكر المتخصصون في لغة البورورو، أو يدققون بعض هذه الترجمات، لكنني اعتمدت هنا على معلومات الأهالي. (المؤلف)

كان الميت من التشيرا، ولذا كان التوغاريه يقومون بالمراسم. ففي وسط الساحة، كانت كومة من الأغصان المورقة تصور قبر الغائب، تحف بها من اليمين واليسار حزم من السهام، وضعت أمامها أوعية مليئة بالطعام. وكان الكهنة والمنشدون اثني عشر، اعتمر أغلبهم بأكاليل من الريش ذات ألوان زاهية، تتدلى عند بعضهم إلى أسفل الظهر، فوق مروحة مستطيلة، صنعت من القصب، تغطي الكتفين، معلقة إلى العنق

بحبل دقيق. وكان بعضهم عارياً تماماً، طلي جسمه إما باللون الأحمر الموحد أو الحلقي، وإما باللون الأسود، أو غطي بأشرطة من الزغب الأبيض؛ والبعض الآخر يرتدي تنورة طويلة من القش. وكانت الشخصية الرئيسية، التي تجسد روح المتوفى، تظهر بزيين مختلفين، وفقاً للظروف: مرتدية أوراق أشجار خضراء حيناً، يعلو رأسها الغطاء الضخم الذي وصفته، وتلبس جلد الفهد، على طريقة لباس البلاط، يقوم وصيف بإسناده من الخلف. وحيناً آخر عارية، مطلية باللون الأسود، زينتها الوحيدة شيء من القش يشابه نظارات ضخمة وفارغة، تحيط بالعينين. وهذه الجزئية جديرة بالاهتمام، نظراً للزينة المماثلة، التي يُعرف بها تلالوك، إله المطر في المكسيك القديمة. وربما يمسك البويبلو في أريزونا ونيومكسيكو بمفتاح اللغز؛ إذ تتحول أرواح الموتى لديهم إلى آلهة للمطر؛ وعندهم، من جهة أخرى، عقائد شتى حول أشياء سحرية، تحمي الأعين وتتيح لمن يمتلكها أن يصير لا مرئياً. وكثيراً ما لاحظت أن للنظارات جاذبية شديدة لدى هنود أمريكا الجنوبية، إلى حد جعلني وأنا أشرع في رحلتي الأخيرة، آخذ معي كمية من الإطارات بدون عدسات، لاقت نجاحاً كبيراً لدى النامبيكوارا؛ وكأن عقائد تقليدية، كانت تهيء الأهالي لتلقي شيء كمالي غير معروف كهذا. ولم يشر أحد إلى نظارات القش لدى البورورو، لكن بما أن الطلاء الأسود، يستعمل لجعل الذي يطلي جسمه به غير مرئي، فمن المحتمل أن النظارات تؤدي الوظيفة نفسها، التي هي وظيفتها في أساطير البويبلو(*). وأخيراً، تُصوَّر البوتاريكو، وهي أرواح مسؤولة عن المطر لدى البورورو، بالمظهر المخيف - أنياب وأيدي معقوفة - الذي يميز آلهة الماء عند المايا.

(*) بعد نشر هذا الكتاب، أنكر المبشرون الساليزيون هذا التفسير، إذ تذكر دوائر القش، وفقاً لمخبريهم، بعيني طائر ليلي جارح. (المؤلف).

وقد شهدنا، أثناء الليالي الأولى، رقصات عشائر التوغاريه المختلفة: رقصة أصحاب النخلة، ورقصة أصحاب الدلدل. وكان الراقصون في الحالتين، تغطيهم أوراق الأشجار من رؤوسهم إلى أقدامهم؛ وبما أننا لم

نكن نرى وجوههم، فقد تخيلناها أكثر ارتفاعاً، في مستوى اكليل الريش، الذي يغطي على اللباس إلى حد، ننسب فيه إلى الشخصيات، رغماً عنا، قامة مفرطة في الطول. كما كانوا يحملون بأيديهم سواري من سعف النخيل أو عصياً مزينة بالأوراق. كان ثمة نوعان من الرقص؛ فكان الراقصون يتقدمون منفردين في البداية، منقسمين إلى رباعيَّيْن يتواجهان على طرفي الساحة، ويركض كل منهما نحو الآخر صائحاً «هو! هو!» ويدورون حول أنفسهم، حتى يغيّروا مواقعهم الأصلية. ثم تنحشر النسوة بين الراقصين من الرجال، ويأخذ الجميع بالرقص، متماسكين بالأيدي، يتقدمون أو يراوحون في أماكنهم، تقودهم جوقة من العراة، تسير القهقرى، وهم يهزون خشخاشاتهم، بينما يقوم رجال آخرون بالغناء مقرفصين.

بعد ثلاثة أيام، توقفت الاحتفالات للسماح بتهيئة الفصل الثاني. أي رقصة الماريدّو. ومضت جماعات من الرجال إلى الغابة، لجلب حزم من سعف النخيل، أزيلت أوراقها أولاً، ثم قطعت قطعاً، بطول ثلاثين سنتيمتراً تقريباً. وبوساطة أربطة من النباتات جمع الأهالي تلك القطع، كل اثنتين أو ثلاث، على شكل قضبان سلم مرن، بطول عدة أمتار. وهكذا، صنعوا سلمين غير متساويين، ولفوهما حول نفسيهما، ليشكلا قرصين مليئين، وُضعا على حرفيهما. بلغ ارتفاع الأول ١,٥٠ م تقريباً، والثاني ١,٣٠م. وزينت الجوانب بأوراق، تمسك بها شبكة من الحبال الدقيقة من الشعر المجدول. ثم نقل هذان القرصان باحتفال إلى وسط الساحة، ووضعا الواحد بجانب الآخر. إنهما الماريدّو، الذكر والأنثى، اللذان تقع مهمة صنعهما على عشيرة إيواغودو.

في المساء، مضت جماعتان، تعد كل منهما خمسة أو ستة رجال، الأولى نحو الغرب، والأخرى نحو الشرق. وقد تتبعت الأولى، وشاهدت على بعد خمسين متراً من القرية تحضيراتهم التي يخفيها عن الملأ ستار من الأشجار. إذ كانوا يغطون أجسامهم بالأوراق، على غرار الراقصين، ويثبتون الأكاليل. لكن هذه التحضيرات السرية تفسر، هذه المرة، بالدور الذي سيؤدونه: فهم يمثلون، كالجماعة الأخرى، أرواح الموتى

الذين جاؤوا من قراهم في الشرق والغرب لاستقبال المتوفى الجديد. وعندما أمسى كل شيء جاهزاً، توجهوا، وهم يصفرون، إلى الساحة التي سبقتهم جماعة الشرق إليها (والواقع، أن الجماعة الأولى تصعد رمزياً النهر، بينما الأخرى تنزله، فتصل الساحة أسرع).

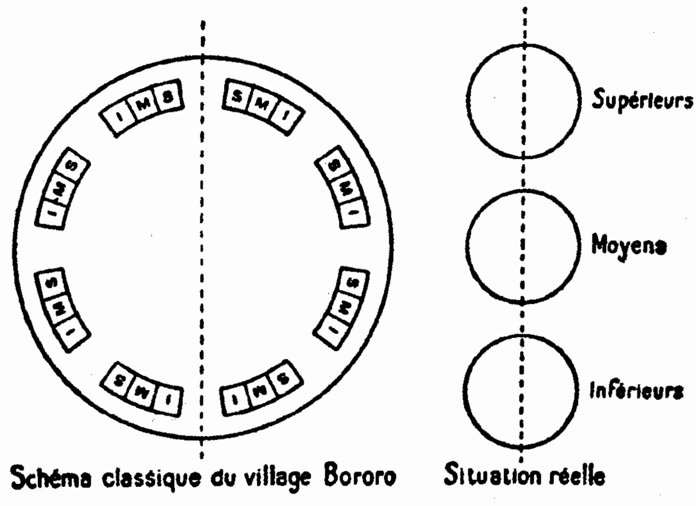
وبمشية خائفة ومترددة، يعبرون بشكل يثير الإعجاب عن طبيعتهم كأشباح؛ فتذكرت هوميروس، وأوليس وهو يمسك، بعناء، الأشباح التي استحضرتها الدماء. لكن الحياة دبت في الاحتفال فجأة: وأخذ الرجال يقبضون على أحد القرصين (ما زاد من ثقلهما أنهما مصنوعان من الأوراق الخضراء) ويرفعه أحدهم في طرف ذراعه، راقصاً بهذا الحمل، حتى الإنهاك، فيترك عندئذ أحد المتنافسين ينتزعه منه. ولم يعد للمشهد طابع الخشوع، كما كان في البداية، بل صار ملعباً، يعرض فيه الشباب عضلاته، في جو من العرق والتدافع، والمزاح المبتذل. ومع ذلك، فإن هذا اللعب، الذي نعرف له تنوعات دنيوية لدى شعوب قريبة - كالتسابق إلى الحطب عند الجي في الهضبة البرازيلية - يكتسي معناه الديني على أكمل وجه: ففي فوضى بهيجة، يشعر الأهالي بأنهم يلعبون مع الأموات، ويكسبون منهم حق البقاء على قيد الحياة.

يتجلى هذا التعارض الكبير بين الأحياء والأموات، بداية، من خلال توزع القرويين أثناء المراسم إلى ممثلين ومتفرجين. لكن الممثلين بامتياز، هم الرجال الذين يحميهم سر بيتهم المشترك. ومن هنا، ينبغي الاعتراف لمخطط القرية بمغزى أكثر عمقاً من ذلك الذي تطرقنا إليه، على الصعيد الاجتماعي؛ إذ لدى كل وفاة، يؤدي كل شطر بالتناوب دور الأحياء أو الأموات، الواحد تجاه الآخر. لكن لعبة التراجح هذه، تعكس لعبة أخرى، تُعين أدوارها بصفة نهائية: ذلك لأن الرجال المنظمين في بيت الذكور بشكل أخوانيات هم رمز لمجتمع الأرواح، بينما تشكل أكواخ المحيط، وهي ممتلكات النساء اللواتي يقصين من الطقوس الأكثر قدسية، جمهور الأحياء والإقامة المخصصة لهم.

رأينا أن عالم مافوق الطبيعة ذاته مزدوج، لأنه يتضمن ميدان الكاهن،

وميدان الساحر. والساحر سيد القوى السماوية والأرضية، من السماء العاشرة (يعتقد البورورو بسماوات متعددة ومتراكبة) حتى أعماق الأرض، والقوى التي يسيطر عليها -ويرتبط بها- مرتبة إذاً، طبقاً لمحور عمودي؛ بينما يشرف الكاهن، وهو سيد طريق الأرواح، على المحور الأفقي، الذي يوحد الشرق بالغرب، حيث تقع قريتا الأموات. والحال، أن المؤشرات العديدة على انتماء الساحر الدائم للتوغاريه، وانتماء سيد طريق الأرواح للتشيرا، توحي بأن التقسيم إلى شطرين، يعبّر أيضاً عن هذه الثنائية. ومن المدهش أن أساطير البورورو تقدم أبطال التوغاريه على أنهم مبدعون وخالقون للكون، وأبطال التشيرا كمهدئين ومنظمين. فالأولون مسؤولون عن وجود المخلوقات من ماء وأنهار وأسماك ونبات، وأشياء مصنوعة، أما الآخرون فنظموا الخلق، وخلصوا البشرية من الغيلان، وحددوا لكل حيوان غذائه الخاص. وهناك أسطورة تروي أن القدرة العلية، كانت سابقاً في يد التوغاريه، وتخلوا عنها لمصلحة التشيرا. وكأن فكر الأهالي من خلال التعارض بين الشطرين، كان يريد أيضاً الإعراب عن الانتقال من الطبيعة الهائجة إلى المجتمع المتمدن.

الشكل (٢٩): مخطط يوضح ظاهر البنية الاجتماعية وواقعها في قرية البورورو



ومن هنا نفهم ما يبدو أنه مفارقة في تسمية التشيرا «ضعفاء» وبيدهم السلطة السياسية والدينية، والتوغاريه «أقوياء». فهؤلاء أكثر قرباً من الكون الفيزيائي، وأولئك من العالم الإنساني، الذي ليس هو الأقوى بالطبع. إذ لا يستطيع النظام الاجتماعي التحايل على التراتبية الكونية بصفة كلية. لأنه حتى لدى البورورو، لايتم التغلب على الطبيعة، إلا بالاعتراف بسلطانها، ومراعاة أقدارها. وفي منظومة اجتماعية كمنظومتهم، ما من اختيار أمامهم: فليس بوسع رجل الانتماء لشطر أبيه أو ابنه (الذي ينتمي لشطر أمه)، بل يجد نفسه في نصف قرابة مع جده وحفيده فقط. وإذا شاء التشيرا تبرير سلطتهم بقرابتهم الحصرية من الأبطال المؤسسين، فإنهم يقبلون في الوقت ذاته الابتعاد عنهم بفارق إضافي مقداره جيل، ويصبحون هكذا «أحفاداً» للأسلاف العظام، أما التوغارية فـ«أبناء».

أليس الأهالي، وهم مخدوعون بمنطق منظومتهم، فريسة الخديعة بشكل آخر؟ ليس بوسعي، على كل حال، إبعاد الشعور بأن الحفلة الميتافيزيقية الراقصة والمبهرة، التي شهدتها لتوي، مردها إلى مهزلة كئيبة. فجماعة الرجال تدعي تمثيل الأموات لإيهام الأحياء بزيارة الأرواح؛ بينما النساء مستبعدات من الطقوس، ومخدوعات فيما يتصل بطبيعتهن الحقيقية؛ وذلك، دون شك، للتعويض عن التقسيم، الذي يمنحهن الأولوية في الحالة المدنية والإقامة، ويقصر أسرار الديانة على الرجال. لكن لسذاجتهم الواقعية أو المفترضة وظيفة نفسية أيضاً: هي إعطاء محتوى وجداني وعقلي، لمصلحة الجنسين، إلى هذه الدمى، التي ربما يحرك الرجال خيوطها بالقليل من الاجتهاد. إذ ليس فقط لخداع أطفالنا، ننشئهم على الاعتقاد ببابا نويل: فإن تقواهم تبعث الحرارة في قلوبنا، وتعيننا على خداع أنفسنا، والاعتقاد، بما أنهم يعتقدون، بأن عالماً من السماحة بدون مقابل ليس متعارضاً مع الواقع. ومع ذلك، فالناس يموتون ولا يرجعون أبداً، وكل نظام اجتماعي يشابه الموت، بمعنى أنه يقتطع شيئاً ولا يعطي ما يعادله.

يلقن مجتمع البورورو رجل الأخلاق درساً: فليستمع إلى مخبرين من الأهالي، الذين سيصفون له، كما فعلوا معي، هذا الباليه، الذي يلتزم فيه شطرا القرية بالعيش والتنفس، كل منهما بالآخر؛ يتبادلان النساء والممتلكات والخدمات، وهمهما الوحيد التعامل بالمثل، يزوجان أبناءهما فيما بينهم، ويدفن كل منهما أموات الآخر، مؤكداً كل منهما للآخر بأن الحياة أبدية، وأن العالم رحيم، والمجتمع عادل. ولتأكيد هذه الحقائق، وصون هذه المعتقدات، صنع حكماؤهم تصوراً رائعاً للكون، يتبدى في مخطط قراهم، وتوزّع مساكنهم. أما التناقضات التي اصطدموا بها، فقد تعاملوا معها، أخذاً ورداً؛ لا يقبلون تعارضاً، إلا لينكروه مؤثرين تعارضاً آخر. يقطعون الجماعات ويقسمونها ليجمعوا بينها، ويواجهوا بعضها ببعض، جاعلين من حياتهم الاجتماعية والروحية شعاراً، يتوازن فيه التناظر واللاتناظر، كالرسوم المعقدة التي تشطب إحدى جميلات الكادوفيو بها وجهها، وقد حيرها الهاجس الغامض نفسه؛ ولكن، ماذا تبقّى من كل هذا؟ من الأشطار، والأشطار المضادة، والعشائر، والعشائر الفرعية، أمام هذا التثبت الذي يبدو أن الملاحظات القريبة العهد، تفرضه علينا؟ إذ في مجتمع بالغ التعقيد، نجد كل عشيرة موزعة إلى ثلاث جماعات: عليا ووسطى وسفلى، ويسيطر على كل التنظيمات، ذلك التنظيم الذي يقضي بزواج الأعلى بمثله من الشطر الآخر، والأوسط من أوسط، والأسفل من أسفل. وهذا يعني، أنه تحت ستار المؤسسات الأخوية، ترتد قرية البورورو في آخر الأمر إلى ثلاث جماعات، تتزاوج فيما بينها دائماً. ثلاثة مجتمعات، ستبقى -دون علم منها- متمايزة ومنعزلة أبداً، حبيسة لعجرفة، تخفيها عن أعينها مؤسسات كاذبة، بحيث يكون كل واحد الضحية اللاواعية لخدع، لم يعد بوسعه اكتشاف شيء فيها .. وعلى الرغم مما قام به البورورو، لتجميل منظومتهم في تشخيص مضلل، إلا أنهم لم يتوصلوا أكثر من غيرهم إلى تفنيد هذه الحقيقة، وهي أن تمثل مجتمع ما للعلاقة بين الأحياء والأموات، ما هو إلا جهد لإخفاء وتزيين العلاقات التي تسود بين الأحياء، أو تبريرها على الصعيد الديني.

القسم السابع

تامبيكوارا

العالم المفقود

24 عندما تريد القيام ببعثة إثنوغرافية إلى البرازيل الوسطى، عليك البدء بتجهيزها، من مفترق شارعي ريومور - سيباستبول: حيث تجد جميع تجار الجملة المتخصصين في أدوات الخياطة والموضة، وتحظى هنا باكتشاف المنتجات، التي من شأنها إرضاء ما يتطلب ذوق الهنود الصعب.

بعد عام من زيارتي للبورورو، تحققت كل الشروط اللازمة كي أكون إثنوغرافياً: من المباركة ذات المفعول الرجعي لليفي برول وموس وريفيه، إلى عرض مجموعاتي في أحد أروقة فوبور سانت -هونوريه، والمحاضرات والمقالات. وحصلت بفضل هنري لوجييه، الذي كان يرأس مصلحة البحث العلمي الحديثة العهد، على اعتمادات كافية لمشروع واسع. وكان من الضروري في البداية أن أجهز نفسي؛ إذ أطلعتني ثلاثة شهور من معايشة الأهالي، على مطالبهم التي تتماثل بشكل مدهش، في طول وعرض قارة أمريكا الجنوبية.

في أحد أحياء باريس، التي ظلت مجهولة لي، جهلي بالأمازون، انهمكت إذاً في ممارسات غريبة، تحت نظر المستوردين التشيكوسوفاكيين. وبما أن جهلي كان تاماً بتجارتهم، فقد كانت تعوزني المصطلحات التقنية للتعبير عن حاجاتي. وكل ماكنت أستطيع فعله هو تطبيق معايير الأهالي. فأخذت بانتقاء أصغر حبات اللؤلؤ المخصصة للطرز وهو «الخرز» الذي كانت شلله الثقيلة تملأ العلب، فأحاول قضمها لاختبار مقاومتها، ومصها للتحقق من تلوين كتلتها وليس سطحها فقط، وأن ألوانها لن تحول عند أول حمام في النهر؛ وكنت أنوع في الكميات، وفقاً لما يفضله الهنود من ألوان: فالأبيض والأسود أولاً بالتساوي، ثم الأحمر، وأخيراً الأصفر

الذي يأتي بعدها بكثير، وشيء من الأزرق والأخضر، رفعاً للعتب، لأنهما سيقابلان بازدراء على الأرجح.

وسبب هذا الاختيار سهل على الفهم، فبما أن الهنود يصنعون خرزهم يدوياً، فهم يرفعون من قيمته بقدر ما يكون صغيراً، أي يتطلب عملاً أكبر ومهارة أكثر. وكمادة أولية، يستعملون القشرة السوداء لجوز الهند، والصدف اللبني لقواقع النهر، ويسعون لجمال المظهر بالمناوبة بين اللونين؛ وهم ككل بني الإنسان، يرغبون بما يعرفون، لذا سيكون النجاح حليفي مع الأبيض والأسود. ويشكل الأصفر والأحمر لديهم اشتقاقاً لغوياً واحداً، نظراً لتنوع صبغة الأوروكو، التي تتراوح بين القرمزي والأصفر البرتقالي، على حسب نوعية الحبوب ودرجة نضوجها، إلا أن الأحمر يحتفظ بتميزه لتألقه الشديد، الذي جعلته بعض الحبوب والريش مألوفاً، أما الأزرق والأخضر فهما اللونان الباردان اللذان يوجدان بحالتهما الطبيعية في النباتات القابلة للفساد؛ وفي ذلك سببان يفسران عدم اكتراث الأهالي، وعدم دقة تعبيراتهم المتصلة بهذين اللونين: إذ يخلطون بين الأزرق والأسود أو الأخضر، بحسب اللغات.

وينبغي أن تكون الإبر من الكبر، بحيث تسمح بإدخال خيط متين، وليست أكبر من اللازم نظراً لصغرالخرز، الذي ستستعمل لشكه. أما الخيوط فأردت صباغها ثابتاً، ولونها أحمر (إذ يصنع الهنود خيوطهم بالأوروكو) وفتلها متيناً، لإعطائها مظهراً حِرَفياً، وقد تعلمت، وبصورة عامة، أن أحذر من البضاعة الرخيصة: فمثال البورورو، بعث في نفسي احتراماً لتقنية الأهالي. وذلك لأن الحياة المتوحشة، تُخضع الأشياء لاختبارات قاسية؛ فكان علي، كي لاأفقد صدقيتي لدى البدائيين -مع مايبدو في ذلك من مفارقة- الحصول على الصلب الأفضل تسقية، والخرز الملون الكتلة، والخيوط التي ما كان لينكرها بلاط انجلترا.

كنت أقع أحياناً على تجار، تبعث هذه الغرابة المتناسبة مع معارفهم، الحماسة في نفوسهم؛ إذ باعني صانع صنانير للصيد، بجوار قناة سانت مارتان، كل ما تبقى لديه منها بثمن بخس. وحملت طوال العام، عبر

الأحراش، عدة كيلو غرامات من الصنانير، التي لم يردها أحد، لأنها كانت أصغر من أن تكون جديرة بالصياد الأمازوني. وقد صفيتها في النهاية، عليالحدود البوليفية. كان لهذه البضاعة أن تستخدم لوظيفة مزدوجة: كهدايا ومواد مقايضة مع الهنود، ووسيلة لتأمين المؤن والخدمات في مناطق نائية، لا يصلها التجار إلا نادراً. فبعدما استنزفت كل مواردي في نهاية البعثة، توصلت إلى ربح عدة أسابيع من الإقامة، بالبيع في إحدى مستعمرات الباحثين عن المطاط. وقد اشترت مومسات المستعمرة مني عقداً، نظير بيضتين، بعد مساومة.

كنت أنوي قضاء سنة في الأحراش، فترددت طويلاً حول الهدف من البعثة، دون أن أشك في أن النتيجة قد تتعارض مع مقصودي؛ إذ كنت أكثر اهتماماً بفهم أمريكا، مني بالتعمق في الطبيعة البشرية معتمداً على حالة بعينها؛ فقد قررت عمل نوع من المقطع عبر الأثنوغرافيا - والجغرافيا- البرازيلية، باجتياز الجزء الغربي من الهضبة، من كويابا إلى ريو ماديرا. ذلك لأن هذه المنطقة ظلت إلى عهد قريب أقل مناطق البرازيل معرفة، إذ لم يتجاوز المستكشفون الساوبوليون في القرن الثامن عشر كويابا، نفوراً من كآبة المنظر ووحشية الهنود. وكانت الألف والخمسمائة كيلو متر التي تفصل كويابا عن الأمازون، في بداية القرن العشرين، ماتزال أرضاً محرمة إلى درجة أن الأسهل على من كان يريد الذهاب من كويابا إلى مانوس أو بيليم على الأمازون، أن يمر بريودوجانيرو، ويتابع الطريق إليالشمال بحراً ليأخذ النهر من مصبه، وقد شرع الجنرال كانديدو ماريانو داسيلفاروندون في ١٩٠٧ فقط، بالتوغل الذي استغرق منه ثماني سنوات، انهمك فيها بالاستكشاف، مع تركيب خط برقي ذي أهمية استراتيجية، يصل لأول مرة بين العاصمة الفدرالية والمراكز الحدودية للشمال الغربي، عبر كويابا. وتقدم تقارير لجنة روندون (التي لم تنشر بكاملها بعد)، وبعض محاضرات الجنرال، وذكريات الرحلة، التي كتبها ثيودور روزفلت، الذي رافقه في إحدى رحلاته، وأخيراً كتاب لطيف للمأسوف عليه روكيت بينتو (مدير المتحف الوطني عندئذ) المعنْوَن

بـ (روندونيا،١٩١٢) معلومات موجزة عن السكان البدائيين، الذين اكتُشفوا في هذه المنطقة. لكن اللعنة القديمة، يبدو أنها عادت إلى المنطقة منذئذ، إذ لم يلجها أي أثنوغرافي متخصص. وبتتبع الخط البرقي أو ما تبقى منه، كان مغرياً السعي إلى معرفة النامبيكورا بالضبط، بالاضافة إلى هؤلاء السكان الغامضين، الأكثر بعداً إلى الشمال، الذين لم يرهم أحد منذ أن اكتفى روندون بالإشارة إليهم.

في ١٩٣٩، بدأ الاهتمام الذي كان مقتصراً إلى ذلك الوقت، على قبائل الساحل والمدن النهرية الكبرى، التي تشكل الطريق التقليدي للولوج إلى داخل البرازيل، في الانتقال إلى هنود الهضبة. وقد اقتنعت، وأنا لدى البورورو، بدرجة التهذيب الاستثنائية، على الصعيد الاجتماعي والديني، عند قبائل كانت تعتبر في الماضي ذات ثقافة جلفة. وكنا نعلم أولى نتائج بحوث قام بها ألماني توفي يدعى: كورت أُنكل، كان اتخذ اسماً من أسماء الأهالي هو نيموينداجو، وأكد بعد سنوات قضاها في قرى الجي بالبرازيل الوسطى، أن البورورو لا يمثلون ظاهرة معزولة، بل تنوع لأصل عميق، يشتركون فيه مع سكان آخرين. وهكذا يسكن سباسب البرازيل، بعمق ٢٠٠٠ كم تقريباً، مَن تبقى من ثقافة لافتة للنظر بتجانسها، تمتاز بلغة تتنوع إلى لهجات من العائلة نفسها، ومستوى معيشة منخفض نسبياً، يتعارض مع تنظيم اجتماعي وفكر ديني بالغي التطور؛ أفلا ينبغي أن نرى فيهم السكان الأولين للبرازيل، الذين إما نُسيوا في أعماق غاباتهم، وإما طردوا قُبيل الاكتشاف إلى الأراضي الأكثر فقراً من قبل سكان عدوانيين، انطلقوا لاندري من أين، للاستيلاء على الساحل ووديان الأنهار؟

كان المسافرون في القرن السادس عشر التقوا على الساحل، في كل مكان تقريباً، مع ممثلين لثقافة التوبي -غاراني الكبرى، الذين كانوا يحتلون أيضاً كامل الباراغواي ومجاري الأمازون تقريباً، في حلقة مقطوعة، قطرها ٣٠٠٠كم، لا تكاد تنقطع إلا في الحدود الباراغوية البوليفية؛ هؤلاء التوبي، وهم على صلة قرابة غامضة مع الآزتك، أي من الشعوب التي استقرت بشكل متأخر في وادي مكسيكو، كانوا أنفسهم

قادمين جداً، إذ استمر توضعهم في أودية البرازيل الداخلية حتى القرن التاسع عشر. وربما كانوا قد تحركوا قبل مئات السنين من الكشف، يدفعهم الاعتقاد بوجود مكان ما، لا موت فيه ولا شرور؛ فذلك كان معتقدهم في نهاية هجرتهم، عندما وصلت جماعات صغيرة في نهاية القرن التاسع عشر إلى شاطئ ساوباولو، وهم يتقدمون بقيادة سحرتهم، يرقصون ويغنون، حمداً وشكراً للأرض التي لاموت فيها، صائمين مدداً طويلة حتى يكونوا جديرين بها. وعلى كل حال، فقد كانوا يتنازعون، في القرن التاسع عشر، الساحل بضراوة مع سكان سابقين عليهم، ليس لدينا إلا القليل من المعلومات عنهم، وربما يكونون الجي السالف ذكرهم.

كان التوبي، في الشمال الغربي للبرازيل، يتجاورون مع الكاراييب أو الكاريب، الذين كانوا شديدي الشبه بهم في الثقافة، على اختلافهم معهم في اللغة، ومنشغلين في اجتياح الأنتيل. وكان هناك الأراواك أيضاً، وهم جماعة غامضة أكثر قدماً وتهذيباً من الجماعتين الأخريين، شكلوا أكثرية السكان الأنتيليين، وتقدموا حتى فلوريدا؛ يمتازون عن الجي بثقافة مادية راقية جداً، وبخاصة في الخزف ونحت الخشب، إلا أنهم يقتربون منهما بالتنظيم الاجتماعي، الذي يبدو من النمط ذاته. ويظهر أن الكاريب والأراواك، سبقتا التوبي إلى التوغل في القارة: إذ كانتا متجمعتين، في القرن السادس عشر، ضمن غويانا ومصب الأمازون والأنتيل. بيد أن جماعات صغيرة، مازالت باقية في الداخل، على بعض روافد الضفة اليمنى للأمازون مثل كسينغو وغوابوره. حتى أن للأراواك خَلَفاً في بوليفيا العليا، هم الذين جلبوا فن الخزف للمبايا -كادوفيو- على الأرجح، بما أن الغوانا، الذين أُخضعوا من قبل هؤلاء، يتكلمون بلهجة أراواكية.

وكنت آمل من اجتياز الجزء المجهول من الهضبة، أن أعثر في السباسب على الممثلين الغربيين لمجموعة الجي، والتمكن، عند بلوغي حوض الماديرا، من دراسة الآثار التي لم يسبق لأحد دراستها، لثلاث عائلات لغوية على أطراف المجرى العظيم الذي ولجوا منه: الأمازون.

ولم يتحقق أملي إلا في جزء منه، نظراً للتبسيط المفرط، الذي كنا

نتصدى به لتاريخ أمريكا ما قبل كولومبس؛ فأنا اليوم، بعد اكتشافات حديثة، ودراسات خصصتها من جانبي لإثنوغرافيا أمريكا الشمالية، أدرك بصورة أفضل أن علينا النظر إلى نصف الكرة الغربي ككل. ذلك لأن التنظيم الاجتماعي والمعتقدات الدينية للجي، تكرر ما لدى قبائل الغابات والسهوب في أمريكا الشمالية، وقد لوحظت منذ وقت طويل - دون استخلاص نتائج من ذلك -مشابهات بين قبائل الشاكو (كالغواريكورو) وقبائل سهول الولايات المتحدة وكندا. إذ بوساطة الإبحار على طول سواحل المحيط الهادي، تم الاتصال بكل تأكيد بين حضارتي المكسيك والبيرو، في عدة فترات من تاريخهما. وقد تم إهمال كل ذلك نوعاً ما، لأن الدراسات الأمريكية، ظلت خاضعة زمناً طويلاً لقناعة فحواها أن اختراق القارة كان حديث العهد، لا يكاد يربو على خمسة أو ستة آلاف عام قبل الميلاد، وينسب إلى شعوب أسيوية، وصلت عبر مضيق بيرينغ.

فلم يكن إذاً سوى بضعة آلاف من السنين لتفسير كيفية توضّع هؤلاء المترحلين في طول البلاد وعرضها من نصف الكرة الغربي، وتكيفهم مع مناخات مختلفة؛ وكيف اكتشفوا ودجنوا ثم نشروا في أرجاء واسعة، الأنواع البرية التي صارت بين أيديهم، كالتبغ والفاصولياء والمانيوق والبطاطا الحلوة والبطاطا والفول السوداني والقطن، وبخاصة الذرة؛ وكيف ولدت ونمت حضارات متتالية في المكسيك وأمريكا الوسطى والأنديز، التي يشكل الآزتيك والأنكا ورثتها البعيدين؛ وكان الواجب لبلوغ ذلك، تصغير كل تطور، بحيث يستغرق بعضاً من القرون: وأصبح تاريخ أمريكا ما قبل كولومبوس، مجرد تتابع لصور مشكال(*)، تظهر فيه نزوات المنظرين في كل آونة مشهداً جديداً؛ وكانت الأمور تجري، وكأن المتخصصين فيما وراء الأطلنطي، يسعون إلى فرض الضحالة التي تميز تاريخ العالم الجديد المعاصر، على أمريكا الأصلية.

(*) KALEIDOSCOPE

وقد قلبت هذه النظرات، رأساً على عقب، اكتشافاتٌ أدت إلى تراجع كبير في تاريخ دخول الإنسان القارة. إذ إننا نعلم بأنه عرف واصطاد

حيوانات انقرضت: كالكسول الأرضي والماموت والجمل والحصان والجاموس القديم والظبي، التي عثر على أسلحته وأدواته المصنوعة من عظامها. كما أن وجود بعض هذه الحيوانات في أماكن مثل وادي مكسيكو، يعني سيادة شروط مناخية جد مختلفة عن الشروط الراهنة، التي تطلّب تحولها عدة آلاف من السنين. وأدى استخدام النشاط الاشعاعي في تحديد عمر الآثار القديمة، إلى دلائل في هذا المعنى. ومن هنا ينبغي التسليم بأن وجود الإنسان في أمريكا، يرجع إلى ٢٠,٠٠٠ عام على الأقل، فقد كان يزرع الذرة في بعض البقاع، منذ ٣٠٠٠ عام. ويُعثر في أماكن شتى من أمريكا الشمالية على بقايا، ترجع من ١٠,٠٠٠ إلى ١٢,٠٠٠ سنة، في الوقت الذي حُددت تواريخ المواقع الأثرية الرئيسية للقارة، باستخدام الكربون المشع، قبل ٥٠٠ إلى ١٥٠٠ عام من التاريخ المفترض سابقاً. وهكذا أخذ تاريخ أمريكا ما قبل كولومبوس، في استرجاع الحجم الذي كان يفتقده، كالزهور اليابانية المصنوعة من الورق المضغوط، وتتفتح عند وضعها في الماء.

غير أننا بهذا، نجد أنفسنا أمام صعوبة معاكسة لتلك التي واجهت أسلافنا: فكيف نملأ هذه الفترات الواسعة؟ من المفهوم أن تحركات السكان، التي حاولت رسم خطوطها، تجري على السطح، وأن حضارات المكسيك أو الأنديز العظيمتين، سبقتا بشيء آخر. إذ تم في البيرو وفي مناطق شتى من أمريكا الشمالية، الكشف عن السكان الأوائل: وهم قبائل دون زراعة، ثلثها مجتمعات قروية تشتغل بالبستنة، لكنها لم تكن تعرف الذرة أو الفخار بعد؛ ثم ظهرت مجموعات تشتغل بنحت الحجارة، وبالمعادن الثمينة بأسلوب أكثر حرية وإلهاماً من كل مَن خَلَفها. ويبعد أنكا البيرو، وآزتيك المكسيك، الذين نعتقد بأن التاريخ الأمريكي ازدهر وأوجز بهم، عن هذه المنابع الحية، بُعد طراز الإمبراطورية لدينا عن طراز مصر القديمة وروما اللتين طالما اقتبس منهما: وهي فنون شمولية نهمة للضخامة، تصل إليها بالجلافة والفاقة، كتعبير عن دولة همها توكيد سلطتها بتركيز مواردها على شيء آخر (الحرب أو الإدارة) غير

تقدمها ورقيها. وحتى صروح المايا تبدو انحطاطاً براقاً لفن، بلغ ذروته قبلها بألف عام.

من أين أتى المؤسسون؟ نحن مضطرون، بعد التأكيدات القديمة، إلى الاعتراف بأننا لا نعرف عنهم شيئاً. فتحركات السكان في منطقة مضيق



الشكلان (٣٠ - ٣١): مكسيكيون قدماء
على اليسار: مكسيك الجنوب الشرقي، إلى اليمين: ساحل الخليج

بيرينغ، كانت بالغة التعقيد: إذ شارك فيها الأسكيمو في تاريخ قريب، وسبقهم خلال ألف عام تقريباً، إسكيمو العصر الحجري، الذين تُذكّر ثقافتهم بالصين القديمة والصيتيين(*).

وكان ثمة شعوب مختلفة، منذ الألف الثامن وحتى قبيل بداية التاريخ الميلادي ربما. ونعرف من منحوتات ترجع إلى الألف الأول قبل الميلاد، أن أشكال المكسيكيين القدماء، جد بعيدة عن أشكال الهنود الحمر الحاليين: فهم شرقيون، سمان ذوو وجوه ملساء، غير واضحة الملامح، وملتحون، بأنوف معقوفة تذكر بالصور الجانبية لعصر النهضة. ويثبت علماء الوراثة الذين يعملون بوسائل أخرى، أن أربعين نوعاً نباتياً على الأقل، كان سكان أمريكا ما قبل كولومبوس، يجنونها برية أو يدجنونها، تحتوي على التركيب

(*) قبائل نصف مترحلة من اصل ايراني. استقروا بين الدانوب والدون (القرن الثامن قبل الميلاد) واندثروا في القرن الثاني قبل الميلاد. (المترجم).

الصبغي ذاته للأنواع المشابهة لها في آسيا، أو تركيب مشتق منه؛ فهل ينبغي أن نستخلص من هذا أن الذرة التي توجد في هذه القائمة، أتت من جنوب شرقي آسيا؟ ولكن، كيف يكون ذلك ممكناً، إذا ما كان الأمريكيون يزرعونها منذ أربعة آلاف عام، في عصر كان فن الملاحة بدائياً بالتأكيد؟

ومن دون أن نتبع هيردال في فرضياته الجريئة حول إعمار الأهالي الأمريكيين لبولينيزيا؛ علينا التسليم، بعد رحلة كون - تيكي، بإمكان حدوث اتصالات مراراً، عبر المحيط الهادي. بيد أنه في العصر الذي كانت حضارات راقية تزدهر في أمريكا، بداية الألف الأول قبل الميلاد، كانت جزر المحيط الهادي خاوية، أولم يعثر فيها على ما يرجع إلى ذلك العصر على الأقل. كأن علينا، بصرف النظر عن بولينيزيا، النظر جهة ميلانيزيا التي كانت مسكونة ربما، وجهة الساحل الآسيوي برمته. ونحن متأكدون اليوم من أن الاتصالات بين ألاسكا والجزر الأليوسية من جهة، وسيبريا من الجهة الأخرى، لم تنقطع قط. فمن دون دراية بالتعدين كانت تستعمل أدوات حديدية في ألاسكا، بداية التاريخ الميلادي تقريباً، ونجد الخزف ذاته اعتباراً من منطقة البحيرات الأمريكية الكبرى حتى سيبيريا الوسطى، كما نجد أيضاً الأساطير والطقوس والخرافات نفسها. وبينما كان الغرب، يعيش منطوياً على نفسه، يبدو أن كل الشعوب الشمالية من اسكيندينافيا وحتى اللابرادور، مروراً بسيبيريا، كانت تحافظ على علاقات وثيقة. ويجعلنا اقتباس السلت بعضاً من أساطيرهم من هذه الحضارة التحت قطبية، التي لا نعرف عنها شيئاً، نفهم ما لدورة الغرال(*)، مع أساطير هنود غابات أمريكا الشمالية، من قرابة أكبر من أية قرابة مع أية منظومة أساطيرية أخرى. وليس من قبيل المصادفة غالباً، أن ينصب اللابون خياماً مخروطية دائماً، كخيام هؤلاء

(*) الغرال: أو الغرال المقدس: إناء يزعم أن السيد المسيح استعمله في العشاء السري. وقد ألفت في البحث عنه روايات فروسية عديدة، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كان أبطالها فرسان الملك آرثر. (المترجم).

الآخرين.

وتثير الحضارات الأمريكية، في جنوب القارة الآسيوية، أصداء أخرى. إذ تنطوي شعوب الحدود الجنوبية للصين، التي يصفها الصينيون بالبربرية، وكذا القبائل البدائية في أندونيسيا، على قرابات غير مألوفة مع الأمريكيين. وقد جُمعت في بورنيو أساطير، لا يمكن تمييزها عن تلك الأكثر انتشاراً في أمريكا الشمالية. والحال أن المتخصصين لفتوا الأنظار منذ وقت طويل، إلى المشابهات بين الوثائق القديمة الواردة من جنوب شرقي آسيا، وتلك التي تنتمي إلى تاريخ نشوء البشرية في اسكندنافيا.



الشكلان (٣٢ و٣٣) إلى اليسار: شافان، شمالي البيرو
إلى اليمين: جبل ألبان، جنوبي المكسيك (لوح محفور يدعى «الراقصين»)

وإذاً، هناك مناطق ثلاث هي أندونيسيا وشمال شرقي أمريكا والبلاد الاسكندنافية، تشكل النقاط المثلثية لتاريخ ما قبل كولومبوس في العالم الجديد.

أليس في الإمكان تصور أن هذا الحدث العظيم في حياة البشرية، أعني ظهور حضارة العصر الحجري المصقول -مع انتشار الفخاريات والنسيج، وبداية الزراعة وتربية الحيوانات، ومحاولات التعدين الأولى- المحصورة في العالم القديم، بين الدانوب والهندوس، قد أطلق نوعاً من التنبيه لدى شعوب آسيا وأمريكا الأقل تطوراً؟ لأن من الصعب فهم أصل الحضارات الأمريكية، دون قبول فرضية وجود نشاط كثيف، على طول سواحل المحيط الهادي - الآسيوية والأمريكية - ينتشر من مكان لآخر بفضل الملاحة الساحلية، إبان بضعة

آلاف من السنين. لقد كنا نرفض في السابق البعد التاريخي لأمريكا ما قبل كولومبس، لأن أمريكا ما بعد كولومبس حرمتها منه. ويبقى علينا ربما تصحيح خطأ ثانٍ مؤسس على التفكير بأن أمريكا، ظلت عشرين ألف عام مقطوعة عن العالم بأسره، بحجة أنها كانت مقطوعة عن العالم الغربي؛ لأن كل شيء بالأحرى، يوحي بأنه على صمت الأطلسي العميق، كان يَرد في كل نطاق المحيط الهادي، طنين حشد من النحل.

ومهما كان من أمر، يبدو أن هجيناً كان خلال الألف الأول قبل الميلاد، وَلّد ثلاثة أطْعُم(*)، تبرعمت على أصناف مشكوك فيها، ناتجة عن تطور أكثر قدماً: فثقافة الهوبويل بطابعها الريفي، التي احتلت كل الجزء الواقع شرقي السهول من الولايات المتحدة، أو أثّرت فيه، هي الجواب على ثقافة الشافان في شمال البيرو (التي تشكل باراكاس، صدى لها في الجنوب)، بينما تشبه الشافان من جانبها، البوادر الأولى للحضارة المسماة أولميك، وتقدم صورة مسبقة لما سيكون عليه نمو المايا. ونحن في الحالات الثلاث أمام فن سلس، لم تكد ليونته وحريته، وتذوقه الذهني للمعنى المزدوج (في هوبويل، كما في شافان، يمكن إدراك بعض الرسوم بشكل مختلف، على حسب رؤيتها من الخلف أو من الامام) في الميل إلى التصلب المزوّى والجمود، اللذين اعتدنا على وصف فن ما قبل كولومبس بهما. وأنا أحاول أحياناً، إقناع نفسي بأن رسوم الكادوفيو، تحافظ بطريقتها على بقاء هذا التقليد القديم. أفي هذا العصر بدأت الحضارات الأمريكية بالتمايز، بحيث احتفظت المكسيك والبيرو بالمبادرة، سائرتين بخطى عملاقة، بينما ظل الباقي في

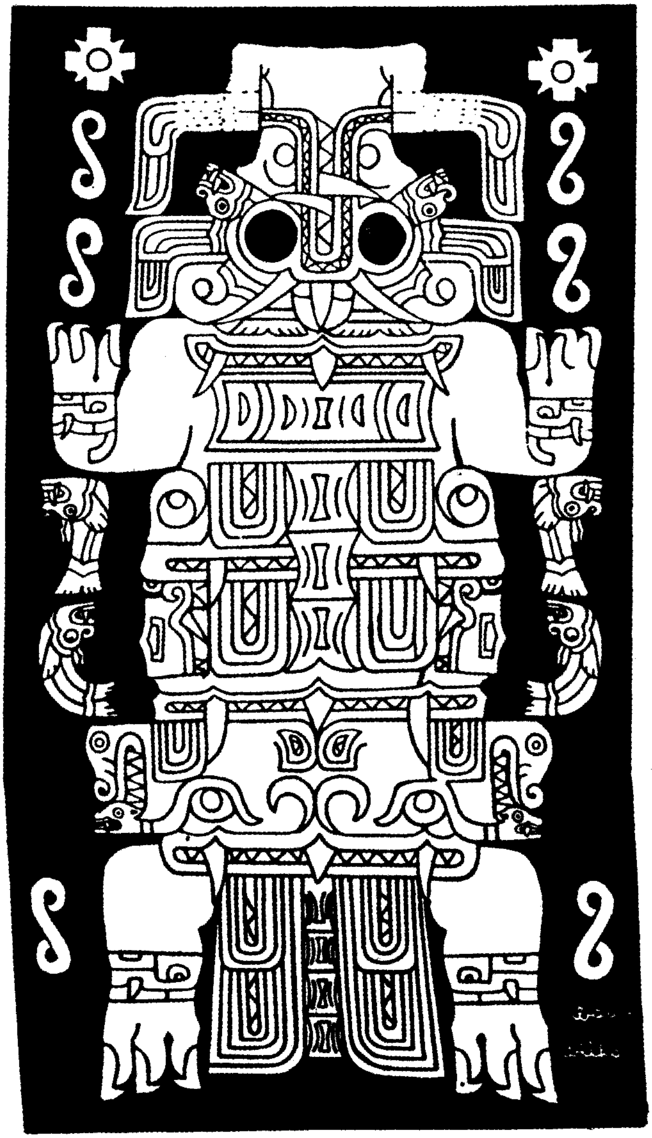
(*) جمع طُعم. (المترجم)



الشكل (٣٤)
هوبويل، شرقي الولايات المتحدة

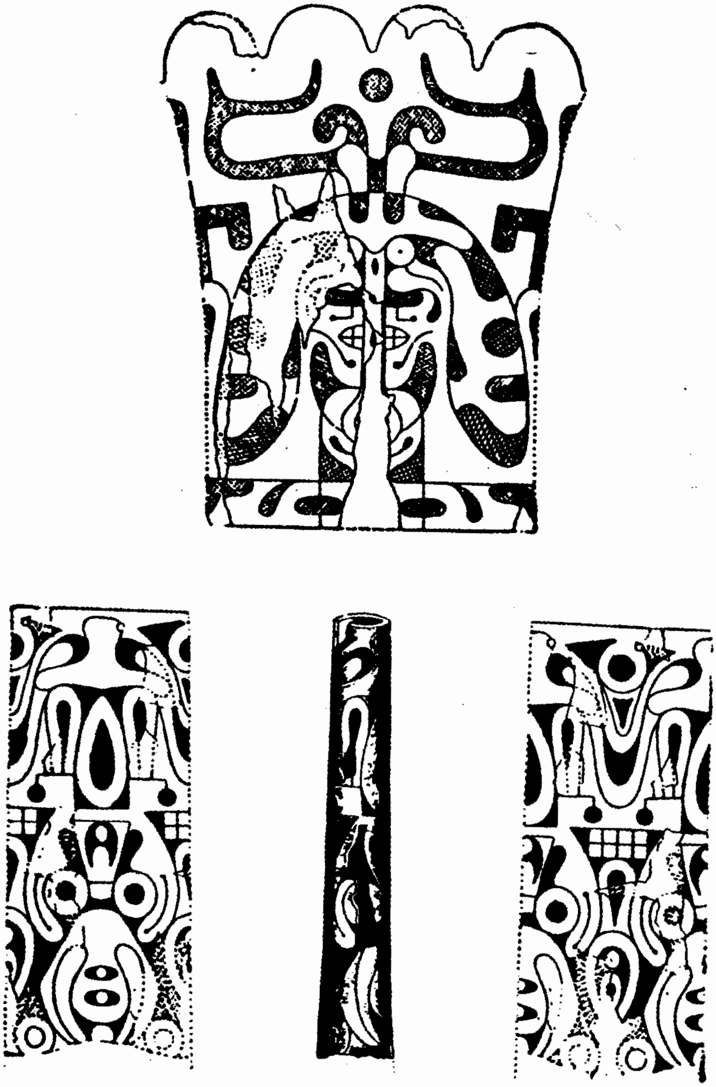
وضع وسيط، أو تلكأ في الطريق حتى، ليعود إلى شبه توحش؟ لن يكون بوسعنا معرفة ما جرى في أمريكا المدارية بالضبط، نظراً للظروف المناخية التي لا تلائم بقاء الآثار القديمة؛ لكن ما يثير الحيرة، هو أن التنظيم الاجتماعي للجي، وحتى مخطط قرى البورورو، يشبهان ما تسمح دراسة بعض المواقع الأثرية، لما قبل الأنكا، بإعادة تكوينه من هذه الحضارات المندثرة، كموقع تياهواناكو في بوليفيا العليا.

أبعدني ما سبق كثيراً عن وصف التحضيرات للبعثة إلى الماتوغروسو الغربي، ومع ذلك، كان ضرورياً؛ إذ أردت أن يعيش القارئ الجو الحماسي الذي يطبع كل بحث أمريكوي، سواء على صعيد الآثار القديمة أم الصعيد الإثنوغرافي. فعمق المشكلات، والمسالك الهشة الواهية المتاحة لنا، والماضي الذي اندثر أكثره نهائياً، والأساس الضعيف لنظرياتنا، كل ذلك يجعل من أقل استطلاع على الأرض مناسبة تضع الباحث في حالة مزعزعة، بين الاستسلام القانط والطموحات المجنونة: إذ يعلم بأن الأشياء الهامة ضاعت، ولن تتعدى جهوده مجرد خدش السطح؛ ومع ذلك، أليس بالإمكان أن يعثر على علامة حفظت بأعجوبة، ومنها سينبثق النور؟ لا شيء مؤكد، وكل شيء ممكن إذاً. فالليل الذي نسبر غوره من الظلمة بحيث لا نستطيع توكيد أي شيء يتصل به، ولا حتى إذا ما كان مقدراً له أن يدوم.



الشكل (٣٥)

شافان، شمالي البيرو



الشكل (٣٦)
هوبويل، شرقي الولايات المتحدة

في السيراتاو

25 أحاول، في كويابا هذه، التي عدت إليها بعد عامين، معرفة الوضع على الخط البرقي بالضبط، على بعد خمسمائة أو ستمائة كيلومتر نحو الشمال.

إن الناس في كويابا يكرهون الخط، لعدة أسباب. فمنذ تأسيس المدينة، في القرن الثامن عشر، كانت الاتصالات النادرة مع الشمال، تتم في اتجاه المجرى الأوسط للأمازون بالطريق النهري. وكان أهالي كويابا، للحصول على مُنبههم المفضل، الغوارانيا، يرسلون على نهر تاباجوز حملات بالنقيرة(*) تدوم أكثر من ستة أشهر. والغوارانيا عجينة صلبة بنية اللون، تَخصّص في تحضيرها الهنود الموي، من الثمار المسحوقة لإحدى المتسلقات هي: البولينيا سوربيليس. إذ يتم بشر الأصبع المتماسك من هذه العجينة، بعد إخراجه من غلاف من جلد الغزال، باستعمال اللسان العظمي لسمكة البيراروكو. ولهذه التفصيلات أهميتها، لأن استعمال مبشرة معدنية، أو جلد من نوع آخر، قد يفقد المادة الثمينة خواصها. ويذكر سكان كويابا، في السياق نفسه، أنه ينبغي تمزيق التبغ الذي على شكل حبال، وتفتيته باليد، وليس تقطيعه بالسكين حتى لا يفسد. يسكب مسحوق الغوارانيا في الماء المحلى بالسكر، حيث يبقى عالقاً ولاينحل، ثم يشرب هذا الخليط ذو الطعم الشوكولاتي الخفيف. غير أنني لم أشعر بأي تأثير له على الرغم من ان الغوارانيا، تحتل لدى سكان الماتوغروسو الأوسط والشمالي مكانة شبيهة بمكانة المتة في الجنوب.

(*) أصل معنى النقيرة: السفينة الصغيرة. والمقصود بها في هذا الكتاب على الغالب زورق من جذع مجوف لشجرة ضخمة غالباً، تستعمل بخاصة في الملاحة النهرية. (المترجم).

ومع ذلك، كانت خواص الغوارانيا، تبرر الكثير من العناء والجهود. فقبل التصدي للتيارات السريعة، يُترك بعض الرجال على الضفة، حيث يستصلحون أرضاً من الغابة، ليزرعوا فيها الذرة والمانيوق. وهكذا تجد الحملة أطعمة طازجة عند عودتها. إلا أن الغوارانيا، بعد تزايد الملاحة البخارية، أخذت تصل إلى كويابا بصورة أسرع وكميات أكبر، من ريودوجانيرو،حيث يجلبها إليها ملاحو السواحل بحراً من مانوس وبيليم، إلى درجة أصبحت معها الحملات على طول نهر تاباجوز، من ماضٍ بطولي شبه منسي.

إلا أنه عندما أعلن روندون نيته في فتح منطقة الشمال الشرقي للحضارة، انتعشت هذه الذكريات. إذ كانت أطراف الهضبة غير معروفة إلا قليلاً، حيث تغفو قريتان قديمتان هما روزاريو وديامانتينو، اللتان تقعان على مسافة مائة ومائة وسبعين كيلو متراً إلى الشمال من كويابا، بعدما استنفدت عروقهما وحصباؤهما. وكان من الواجب، بعدهما، قطع موارد روافد الأمازون واحداً بعد الآخر، عوضاً عن الانحدار معها بالنقيرة: وتلك مهمة مخيفة لمسافة بهذا الطول. إذ ظلت الهضبة الشمالية منطقة أسطورية، نحو العام ١٩٠٠، حيث كان يُجزم حتى، بوجود سلسلة جبال هي لاسيرادو نورت، تستمر أغلب الخرائط بذكرها.

هذا الجهل، مقروناً بحكايات التوغل القريبة للغرب الأمريكي، والاندفاع نحو الذهب، بعث آمالاً مجنونة في نفوس سكان ماتوغروسو، وحتى أهل الساحل، الذين ظنوا ان سيلاً من المهاجرين، سيتبعون رجال روندون، وهم يضعون الخط البرقي، ويجتاحون أصقاعاً ذات موارد لا تخطر ببال، لينشئوا فيها شيكاغو برازيلية. لكنها خيبة الأمل: إذ تبين أن لاسيرادونورت، على غرار الشمال الشرقي، حيث تقع الأراضي اللعينة التي صورها إقليدس دا كونها في أوسيرتويس، سبسب شبه صحراوي، وواحدة من أكثر المناطق جدباً في القارة. زد على ذلك، أن ظهور الراديو اللاسلكي، الذي تصادف في ١٩٢٢، مع الانتهاء من الخط البرقي، أدى إلى افقاد هذا أهميته، وجعله أثراً تاريخياً لعصر علمي انقضى، اللحظة

نفسها التي تم اتمامه فيها. إلا أنه عرف ساعة مجيدة في ١٩٢٤، عندما عمد متمردو ساوباولو ضد الحكومة إلى قطعه عن الداخل. وظلت ريو على اتصال مع كويابا، بوساطة البرق، عبر بيليم ومانوس. ثم كان الانحطاط: وأخذ الحفنة من المتحمسين، الذين التمسوا بعض الوظائف، ينسحبون أو يستسلمون للنسيان. إذ لم يكونوا تسلموا، عند وصولي إلى هناك، أي تموين منذ سنوات؛ فلم تكن ثمة جرأة لإغلاق الخط، مع ان لا أحد كان مهتماً به. الأعمدة تتهاوى، والأسلاك تصدأ، أما آخر الباقين في المراكز، الذين يفتقرون إلى العزيمة والوسائل للمغادرة، فيتلاشون ببطء، نهباً للأمراض والجوع والوحدة.

كان هذا الوضع يثقل ضمير أهل كويابا، لا سيما أن الآمال الخائبة، أدت مع ذلك إلى نتيجة متواضعة، لكنها ملموسة؛ فقبل الذهاب إلى مراكزهم، كان على موظفي الخط تعيين وكيل لهم في كويابا، أي ممثل يستلم المرتبات بشرط أن يستعملها وفقاً لتعليمات المستفيد. وكانت هذه التعليمات، تقتصر عموماً على شراء ذخيرة للبنادق، وبترول وملح وإبر للخياطة ومنسوجات، وتباع لهم بأثمان باهظة، نتيجة لاتفاقات بين الوكلاء والتجار اللبنانيين ومنظمي القوافل، بحيث يصبح التعساء والضائعون في الغابة عاجزين عن التفكير في العودة؛ إذ يجدون أنفسهم في ظرف سنوات، مدينين بما يزيد عن مواردهم. والحق أنه كان من الأفضل لي نسيان الخط، فلم يلق مشروعي في استعماله كقاعدة كثيراً من التشجيع. كنت أسعى للعثور على ضباط صف متقاعدين، عملوا مع روندون، فلم أسمع منهم سوى الأغنية الكئيبة نفسها «إنها بلاد عفنة، شديدة العفونة، أكثر عفونة من أية بلاد أخرى» فإياك، إياك، أن تزج بنفسك فيها.

ثم كانت هناك مسألة الهنود، ففي ١٩٣١، هوجم مركز باريسي البرقي، الواقع في منطقة مطروقة نسبياً، على مسافة ثلاثمائة كيلو متر شمالي كويابا، وثمانين كيلو متراً فقط عن ديامانتينو، وخُرب من قبل هنود خرجوا من وادي ريودوسانغ، الذي كان يُظن انه غير مأهول. ولقّب هؤلاء المتوحشون بالأخطام الخشبية، بسبب الأقراص التي يحشرونها

في الشفة السفلى وفي شحمة الأذن. وتكررت هجماتهم، منذئذ، في فترات منتظمة، بحيث توجب تحويل الدرب نحو ثمانين كيلومتراً إلى الجنوب. أما النامبيكوارا، وهم مترحلون يترددون أحياناً على المراكز منذ ١٩٠٩، فقد مرت علاقاتهم مع البيض بتقلبات شتى. إذ كانت طيبة في البداية ثم ساءت تدريجياً حتى العام ١٩٢٥، حين دعا الأهالي سبعة عمال إلى زيارة قريتهم، حيث اختفوا. ومنذ ذلك التاريخ أخذ عمال الخط والأهالي، يتجنبون بعضهم بعضاً. وقدمت في ١٩٣٣ إرسالية بروستانتية للإقامة قريباً من مركز جوروينا؛ ويبدو أن العلاقات توترت، لأن الأهالي استاؤوا من الأعطيات -غير الكافية كما يقال- التي أبدى المبشرون من خلالها عرفانهم بمعونة الأهالي في بناء المنزل، وغراس الحديقة. وبعد أشهر تقدم هندي محموم إلى الإرسالية فتلقى علناً قرصين من الأسبرين، ابتلعهما ومضى إلى النهر واغتسل، فأصابه احتقان ومات، وبما أن النامبيكوارا خبراء في السموم، استنتجوا ان رفيقهم اغتيل: وقاموا بهجوم انتقامي، قُتل خلاله أعضاء الإرسالية الستة، بمن فيهم رضيع عمره سنتان. ووحدها امرأة، عُثر عليها حية من قبل حملة نجدة انطلقت من كويابا. وكانت روايتها، كما نقلت لي، متطابقة تماماً مع رواية مرتكبي الهجوم، الذين قاموا لدي طوال عدة أسابيع بمهمة المرافقين والمخبرين.

بعد هذا الحادث، وغيره من الحوادث التي تلته، ظل الجو السائد في طول الخط متوتراً. فكلما أمكنني، في مديرية البريد بكويابا، الاتصال بالمحطات الرئيسية (وهو ماكان يتطلب عدة أيام في كل مرة) كنا نتلقى الأخبار الأكثر تثبيطاً للهمة: فهنا خرج الهنود مهددين، وهناك لم يُروا منذ ثلاثة شهور، وتلك علامة سيئة أيضاً؛ وفي المكان الفلاني، حيث كانوا يعملون سابقاً، عادوا إلى حالة التوحش، إلخ. والإشارة المشجعة الوحيدة، أو التي قدمت لي على أنها كذلك، هي أن ثلاثة آباء يسوعيين يسعون منذ أسابيع لإقامة مركز لهم في جوروينا، على تخوم بلاد النامبيكوارا، على مسافة ٦٠٠كم شمالي كويابا. فبوسعي إذاً الذهاب

إلى هناك لأستعلم منهم، وعمل مخططاتي النهائية من بعد.

وهكذا أمضيت شهراً في كويابا لتنظيم أمور البعثة. وقد قررت، بما أنه سمح لي بالذهاب، المضي إلى النهاية: ستة أشهر من السفر في فصل الجفاف، عبر هضبة وصفت لي بأنها جدباء دون مراع أو طرائد؛ فكان لابد من التزود بكل المؤن، ليس للرجال وحسب، بل للبغال التي سنستخدمها مطايا أيضاً، حتى نبلغ حوض الماديرا، حيث سنتمكن من متابعة الرحلة بالنقيرة: ذلك لأن بغلاً لا يعلف بالذرة، لا يقوى على السفر. وكان يجب لنقل المؤن الحصول على ثيران أكثر مقاومة، وتقنع بما تجده من عشب جاف وأوراق. وعلى كل، فقد كان علي توقع موت بعض الثيران جوعاً وتعباً، والحصول بالتالي على عدد كاف منها. وبما أنه لا بد من بقارين لقيادتها وتحميلها وإنزال الحمولة عند كل مرحلة، فعدد الرجال سيزداد بهم، وكذا عدد البغال وكمية المؤن التي تتطلب بدورها ثيراناً إضافية. وكانت حلقة مفرغة. وأخيراً، وبعد مشاورات مع الخبراء: وهم من المستخدمين القدامى للخط ورجال القوافل، استقر رأيي على خمسة عشر رجلاً، ومثل عددهم من البغال، وثلاثين ثوراً. ولم يكن لدي، بالنسبة للبغال خيار، فلم يكن معروضاً للبيع منها، في دائرة قطرها ٥٠ كم حول كويابا، أكثر من خمسة عشر بغلاً، اشتريتها جميعاً بأثمان تتراوح بين ١٥٠ و١٠٠٠ فرنك للواحد، بأسعار ١٩٣٨، على حسب جودتها. واحتفظت لنفسي، باعتباري رئيساً للبعثة، ببغل أبيض ضخم حصلت عليه من الجزار الحنيني، هاوي الأفيال، الذي تكلمت عنه آنفاً.

وبدأت المشكلة الحقيقية مع اختيار الرجال: إذ تضم البعثة في البداية، أربعة أشخاص يشكلون الطاقم العلمي؛ وكنا نعلم أن نجاحنا وسلامتنا، وحتى حياتنا، مرهونة بإخلاص وكفاءة الفريق الذي سأنتقيه. فكان علي، لأيام بطولها، أن أصرف حثالة كويابا من الأوغاد والمغامرين. وأخيراً، أرشدني «كولونيل» مسن إلى أحد قدامى بقّاريه، متقاعد في قرية ضائعة، واصفاً إياه بأنه فقير وحصيف وفاضل، ذهبت للقائه فأسرني بنبله الطبيعي، المنتشر لدى فلاحي الداخل؛ إذ عوضاً عن التوسل إلي لأمنحه

ميزة راتب السنة المنقطع النظير، اشترط علي أن يكون المتصرف الوحيد في اختيار الرجال والثيران، وأن أسمح له باصطحاب بعض الجياد التي يرغب في بيعها بثمن مجز في الشمال. كنت اشتريت قطيعاً من عشرة ثيران من أحد قواد القوافل في كويابا، فتنتني بقاماتها العالية، وأكثر من ذلك ببرادعها وعدتها المصنوعة من جلد التابير على الطراز القديم. وفرض علي مطران كويابا، علاوة على ذلك، أحد من هم في حمايته كطباخ؛ اكتشفنا بعد بضعة مراحل أنه ظبي أبيض، أي لوطي، ومبتلى بالبواسير إلى درجة لا يتمكن معها من ركوب الحصان، وكان سعيداً جداً بتركنا. لكن الثيران الرائعة (التي سافرت، دون أعلم، لمسافة ٥٠٠ كم) لم يعد على جسمها مثقال ذرة من شحم. وأخذت تتوجع، الواحد بعد الآخر، من احتكاك البرادع الذي كان يتلف جلودها التي أخذت، على الرغم من مهارة البقارين، بالتسلخ في موضع العمود الفقري، وتفتحت فيها ثقوب دامية تعج بالدود، كاشفة عن العظم؛ فكانت هذه الهياكل المتقيحة أول الحيوانات النافقة.

لحسن الحظ، تمكن رئيس الفريق فولجانسيو -ويلفظ فروجانسيو- من إكمال النقص في القطيع بحيوانات لا مظهر لها، ولكن أغلبيتها وصلت إلى النهاية. أما الرجال فقد انتقاهم من قريته أو من حواليها، وكانوا فتياناً رآهم يولدون، يحترمون خبرته. ويتحدر أغلبهم من عائلات برتغالية قديمة، استقرت في ماتوغروسو منذ قرن أو قرنين، تأصلت لديها تقاليد صارمة.

كان كل منهم، على شدة فقره، يملك منشفة مطرزة ومزينة بالدانتيل، هدية من أم أو أخت أو خطيبة، ما كان ليقبل أن ينشف وجهه بشيء آخر غيرها، حتى نهاية الرحلة. إلا أنني عندما عرضت عليهم للمرة الأولى نصيباً من السكر يحلون به قهوتهم، أجابوني بأنفة، بأنهم ليسوا فاسدي الأخلاق. وكنت ألاقي بعض المتاعب في التعامل معهم، إذ كانت لديهم حول كل مشكلة أفكار ثابتة، كثبات أفكاري أنا نفسي. وهكذا تجنبت تمرداً في آخر لحظة بصدد مؤن السفر، لأن الرجال كانوا مقتنعين

بأنهم سيموتون جوعاً، إذا لم أخصص كامل الحمولة للأرز والفاصولياء. وقد تسامحوا بشق النفس مع اللحم القديد، على الرغم من اقتناعهم بأننا لن نعدم الطرائد أبداً. لكن السكر والفاكهة المجففة والأطعمة كانت تثير استهجانهم. وكان يمكن لهم أن يضحوا بأنفسهم في سبيلنا، لكنهم كانوا يخاطبوننا بجلافة مستعملين صيغة المفرد المخاطب؛ وما كانوا ليقبلوا غسل منديل ليس لهم، لأن غسل الملابس مهمة النساء. أما أسس التعاقد فيما بيننا، فكانت كالتالي: يتلقى كل منهم طوال مدة البعثة مطية وبندقية على سبيل الإعارة، وسيدفع له علاوة على الطعام ما يعادل خمسة فرنكات يومياً، بأسعار ١٩٣٨. وهكذا تمثل الـ١٥٠٠ أو الـ٢٠٠٠ فرنك، التي سيوفرها كل منهم، في نهاية الرحلة (لأنهم كانوا يرفضون تسلم أي شيء أثناءها) رأس مالٍ، سيسمح لهذا بالزواج، ولذاك ببدء مشروع لتربية المواشي .. وكان من المتفق عليه أن يستخدم فولجانسيو أيضاً بعض الفتيان من هنود الباريسي شبه المتحضّرين، وقت اجتيازنا الأراضي القديمة لهذه القبيلة التي تزود الخط البرقي اليوم بأكبر عدد من عمال الصيانة، على تخوم بلاد النامبيكوارا.

وهكذا، ببطء أخذت البعثة تتنظم، بمجموعات من اثنين أو ثلاثة رجال وبعض الحيوانات، المبعثرين في نواحي كويابا. وتقرر التجمع في أحد أيام حزيران ١٩٣٨، على أبواب المدينة التي سينطلق منها الثيران والفرسان بقيادة فولجانسيو، مع جزء من الأمتعة. ويحمل الثور من ٦٠ إلى ١٢٠ كيلو غراماً، على حسب قوته، تتوزع إلى اليمين واليسار، في حملين يتساويان في الوزن، بوساطة بردعة من الخشب مبطنة بالقش، تغلف بالجلد المجفف. وتقطع مسافة ٢٥ كيلو متراً تقريباً في اليوم، إلا أنها تحتاج، بعد كل اسبوع من السير، إلى بضعة أيام من الراحة. فقررنا إذاً ترك الحيوانات تمضي قبلنا، محملة بأقل ما يمكن، بينما أستقل شاحنة ضخمة طالما سمح الدرب بذلك، أي حتى أوتياريتي، على بعد ٥٠٠ كيلو متر شمالي كويابا: وهي مركز للخط البرقي يقع في أراضي النامبيكوارا، على ضفة ريو باباغايو، حيث ستمنع مُعدية جد هشة مرور

الشاحنة. ومن ثم تبدأ المغامرة.

بعد انطلاق الفرقة بثمانية أيام، تحركت شاحنتنا بحمولتها. وما أن قطعنا نحو ٥٠ كيلو متراً، حتى التقينا مع رجالنا وحيواناتنا، معسكرين في السبسب بهدوء، بينما كنا نحسبهم في أوتياريتي، أو بقربها. فتملكتني عندئذ سورة غضب، لن تكون الوحيدة، بيد أنه كان علي أن أصاب بخيبات أمل أخرى حتى أفهم أنه لم يعد لمفهوم الوقت مكان في العالم الذي أدخل إليه. إذ لست أنا قائد البعثة ولا فولجسانيو بل الثيران. لأن هذه الحيوانات الثقيلة كانت تتحول إلى ما يشبه النساء المتغطرسات اللائي ينبغي مراعاة أمزجتهن ونزواتهن، والتعابير عن السأم لديهن. فالثور لا ينبه إذا تعب، أو كانت حمولته أثقل من اللازم، بل يتابع المسير ثم ينهار فجأة ميتاً أو منهكاً إلى درجة لا بد له فيها من ستة أشهر من الراحة لاسترداد قواه؛ والحل الوحيد في هذه الحالة هو التخلي عنه. وهكذا يخضع البقارون لأوامر حيواناتهم، التي لكل منها اسمه الذي يشير إما إلى لونه أو هيئته أو مزاجه. فمنها (البيانو)، (ساحق الوحل)، (طعم الملح) شوكولاته، (يسمي الرجال الذين ما ذاقوا الشوكولاته قط بهذا الاسم، خليطاً من الحليب الساخن المحلى وصفار البيض)، (نخلة)، (الديك الكبير)، (الأحمر القرمزي) موتور (موتور، لأنه «يسير جيداً» كما يشرح قائده)، (الشاحب) إلخ.

وما إن يحكم البقارون بأن من الضروري التوقف، حتى يتوقف الفريق، وتنزل الحمولة عن الحيوانات، وتنصب الخيام. وإذا كان المكان مأموناً، تترك الثيران وشأنها لترعى، وإلا تقاد إلى المرعى تحت الحراسة. ويقطع بعض الرجال عدة كيلو مترات، كل صباح حول المكان، حتى يحددوا موضع كل حيوان. وينسب البقارون إلى حيواناتهم نوايا خبيثة: إذ تفر نتيجة لخبثها أحياناً، وتختبئ وتظل مختفية لأيام. أفلم نتوقف أسبوعاً، لأن بغلاً، كما أُكد لي، مضى إلى الريف وهو يسير مجانباً في البداية، ثم القهقرى، بشكل لم يعد يسمح لملاحقيه بتقصي أثره.

وعندما تجمع الحيوانات، يجب تفحص جروحها ودهنها بالمراهم،

وتعديل البرادع حتى لا تؤثر الحمولة على الأجزاء المصابة. وأخيراً إسراج الحيوانات وتحميلها. فتبدأ حينئذ مأساة جديدة، لأن أربعة أيام أو خمسة من الراحة، تكفي لإفقادها عادة الخدمة. فما إن تحس بالبردعة حتى تأخذ بالرفس، وتشب ملقية بالحمولة، ولا بد من البدء من جديد، حتى إننا كنا نعدُّ أنفسنا محظوظين، إذا تحرر أحد الثيران، ولم يمض مسرعاً عبر القفار، لأنه كان علينا في هذه الحالة نصب المخيم من جديد، وإنزال الأحمال .. إلخ قبل أن يتم جمع القطيع بغية التحميل، الذي قد يُكرر خمس أو ست مرات حتى نحصل على إطاعة جماعية.

وباعتباري أقل صبراً من الثيران، فقد استغرَق مني الإذعان لهذه المسيرة المتقلبة أسابيع. فتركنا القطيع خلفنا ووصلنا إلى روساريو ويست، وهي قرية تعد ألف نسمة، أغلبهم من السود الأقزام والسُلْع (المصابون بتضخم الغدة الدرقية)، يسكنون أكواخاً من طين لونها أحمر فاقع، تحت سقوف من سعف النخيل، تحف بشوارع مستقيمة، تنبت فيها الأعشاب البرية.

وأتذكر جنينة مضيفي، التي قد يحسبها المرء غرفة للسكن لحسن ترتيبها، إذ مهدت الأرض وكنست، ورتبت النباتات بالعناية التي يرتب فيها اثاث قاعة استقبال: شجرتا برتقال، شجرة ليمون، نبتة فلفل، عشر نباتات من المانيوق، ومثلها من الحرير النباتي، شجرتا ورد، غيضة من أشجار الموز، وأخرى من قصب السكر. وأخيراً، ثمة ببغاء في قفص، وثلاث دجاجات ربطت قوائمها إلى شجرة.

يتكون طعام الاحتفالات في روساريو ويست من «وليمة الأنصاف»، إذ قدموا لنا نصف دجاجة مشوياً، والنصف الآخر بارداً بالمرق الحريف؛ ونصف سمكة مقلياً والنصف الآخر مغلياً. وأخيراً، الكاشاسا، أي كحول قصب السكر، الذي يُقبل مع عبارة المجاملة المعتادة «لم تعمل المقبرة والسجن والكحول، للشخص نفسه». توجد روساريو في قلب الأدغال، ويتألف سكانها من قدامى الباحثين عن المطاط والذهب والماس، وبإمكانهم تزويدي بمعلومات مفيدة عن خط سيري. فأملاً في التقاط بعض

المعلومات من هنا وهناك، كنت أستمع لزواري، وهم يستذكرون مغامراتهم، التي تختلط فيها الأسطورة بالخبرة، اختلاطاً لا مفر منه.

كأن يوجد في الشمال قطط شجاعة، نتجت عن تزاوج القطط المنزلية بالفهود، وهو ما لم أستطع الاقتناع به. إلا أن في هذه القصة الأخرى، التي يرويها أحد محدثيَّ، شيء ربما يمكن التوقف عنده، وحتى لو لم يكن في نهاية الأمر، سوى أسلوب وروح السيرتاو.

كان يعيش في بارّا دوس بورجس، وهي قرية في ماتوغروسو الغربي، على أعالي البارغواي، مجبّر عظام، يشفي من لدغ الثعابين، فيبدأ بوخز ساعد المريض بأنياب أفعى البواء. ثم يخط على الأرض صليباً بالبارود، ويشعله كي يمد المريض ذراعه في الدخان، ويأخذ أخيراً بعض القطن المتفحم من ولاعة ذات فتيل، ويغمسها في كحول قصب السكر ليشربه المريض. وبذا ينتهي كل شيء.

وقد حضر هذا اللقاح يوماً، رئيس فرقة من قاطفي النباتات الطبية هي الإيبيكاكوانها، وطلب من المجبر أن ينتظر إلى يوم الأحد القادم، وصول رجاله الذين سيودون بالتأكيد أن يتلقحوا جميعاً، (بخمسة فرنكات للواحد في ١٩٣٨) فقبل المجبر. وفي صباح السبت، أخذ الكلب يعوي خارج الكوخ الجماعي، فأرسل رئيس الفرقة رجلاً لاستطلاع الأمر، وإذا بها أفعى هائجة من ذوات الأجراس، ويُؤمَر المجبر بالقبض عليها، لكن المجبر يأبى، فغضب الرئيس مصرحاً بأنه إذا لم يقبض على الأفعى، فلن يكون لقاح. وانصاع المجبر ماداً يده نحو الأفعى، فلدغته ومات.

شرح لي الرجل الذي روى هذه القصة، أنه كان لُقح من قبل المجبر، ثم جعل حية تلدغه، ليتحقق من فاعلية العلاج، فكان النجاح تاماً. صحيح، أضاف، أن الحية التي اخترتها لم تكن سامة.

أذكر هذه الحكاية، لأنها توضح جيداً هذا الخليط من الخبث والسذاجة - بصدد حوادث مأساوية، تُعامَل كأحداث صغيرة في الحياة اليومية - الذي يطبع التفكير الشعبي داخل البرازيل. ولا يجب أن يلتبس علينا الأمر فيما يتصل بالنتيجة، التي ليست عبثية إلا في الظاهر. فالراوي

يفكر بالطريقة التي سأجدها فيما بعد لدى رئيس طائفة الأحمدية، خلال عشاء دعاني إليه في لاهور. وينأى الأحمديون عن أهل السنة، في أنهم يؤكدون بخاصة أن كل الذين أعلنوا أنهم رسل (يعدون منهم سقراط وبوذا) هم كذلك بالفعل: وإلا يكون الله قاصصهم على وقاحتهم. وبالطريقة نفسها، دون شك، كان يفكر محدثي من روساريو، بأن القوى المافوق طبيعية التي استثارها المجبر، فيما لو لم يكن سحره حقيقياً، تكون حرصت على تكذيبه بجعل حية غير سامة، سامةً، وبما أن العلاج يعتبر سحرياً، فعلى صعيد سحري أيضاً تحقق منه، ولكن بطريقة تجريبية.

طمأنوني بأن الدرب المؤدي إلى أوتياريتي، لا يهيئ لنا أية مفاجأة: أي لا شيء يشابه، على كلّ حال، ما لاقيناه قبل عامين على درب ساولورينسو. ومع ذلك، ما إن بلغنا قمة سيرادو تومبادور، في المكان المسمى الصندوق المثقوب، حتى انكسر مسنن ذراع نقل الحركة، وكنا على نحو ثلاثين كيلو متراً من ديامانتينو. فذهب سائقونا إليها مشياً، ليبرقوا إلى كويابا، التي ستوصي بإرسال القطعة بالطائرة، وتحملها إلينا شاحنة حالما تصل. وإذا تم كل شيء على ما يرام، ستستغرق العملية ثمانية أيام، ويتاح الوقت للثيران لتجاوزنا.

ها نحن إذاً معسكرون في أعلى التومبادور، هذا المهماز الصخري الذي يُتم الشابادا فوق حوض الباراغواي، ويشرف عليه من علو ثلاثمائة متر، بينما تغذي السواقي، في الجانب الآخر، روافد الأمازون. فماذا نعمل في هذا السبسب الشوكي، بعدما عثرنا على بعض الأشجار، وعلقنا فيما بينها أراجيح النوم والناموسيات، سوى النوم والأحلام والقنص؟ فقد بدأ فصل الجفاف منذ شهر، وكنا في حزيران، وفيما عدا بعض الهطولات الضعيفة في آب، لن تسقط قطرة مطر واحدة قبل أيلول. واتخذ السبسب وجهه الشتوي: نباتات ذابلة وجافة، ومحترقة أحياناً بنيران الغابات، بينما يظهر الرمل بقعاً واسعة تحت العساليج المتفحمة. إنها الفترة التي تتجمع فيها الطرائد القليلة التي تجول عبر الهضبة في

غياض مستديرة منيعة، تشير قبابها إلى بعض الينابيع، التي تجد فيها مراعي صغيرة ما تزال خضراء.

أما إبان فصل الأمطار، من تشرين الأول/أكتوبر إلى آذار/مارس، حين تكون الهطولات شبه يومية، فترتفع درجة الحرارة من ٤٢ درجة مئوية إلى ٤٤ درجة نهاراً، وتمسي أكثر برودة ليلاً مع هبوط مفاجئ وجيز عند الفجر. إلا أن الفروق الشديدة تميز فصل الجفاف؛ إذ ليس نادراً الانتقال، في هذه الآونة، من ٤٠ درجة كحد أقصى نهاراً، إلى ٨ درجات أو عشر كحد أدنى ليلاً.

كنا نصغي، ونحن نتذوق المتة حول نار المخيم، إلى الأخوين المكلفين بخدمتنا، وإلى السائقين، وهم يستذكرون مغامرات السيرتاو. كانوا يشرحون لِمَ يكون التامندوا، آكل النمل الكبير، غير مؤذ في السهول، حيث لا يستطيع وهو منتصب المحافظة على توازنه. أما في الغابة فيعتمد بذيله على شجرة، ويخنُق بقوائمه، قبل أن يتمكن أحد من الاقتراب منه. ولا يخشى آكل النمل الهجمات الليلية أيضاً «لأنه ينام طاوياً رأسه على طول جسمه، ولا يعرف الفهد نفسه أين رأسه». وينبغي إصاخة السمع دائماً، في فصل الأمطار للخنازير البرية، التي تجول بقطعان من خمسين أو أكثر، ويسمع صرير أسنانها على بعد كيلو مترات. وليس أمام الصياد، لدى سماعه هذا الصوت، إلا الهرب لأنه إذا قُتل حيوان منها أو جرح، يقوم الآخرون بالهجوم جميعاً، فعليه عندئذ تسلق شجرة أو مأرضة.

وقد روى رجل، أنه بينما كان مسافراً ليلاً مع أخيه، سمع نداءات استغاثة، فتردد بالنجدة خوفاً من الهنود. وانتظر الاثنان الصباح إذاً، بينما كانت النداءات مستمرة. فوجدا عند الفجر صياداً جاثماً طيلة الليل على شجرة، بندقيته على الأرض، وتحاصره الخنازير. ومآل هذا الصياد أقل مأساوية من مصير صياد آخر، سمع الصرير من بعيد، فتسلق مأرضة. لكن الخنازير طوقته، فأخذ يطلق الرصاص حتى نفدت ذخيرته، واستمر في الدفاع عن نفسه بالسيف. ولما ذهب الناس في الغد يبحثون عنه، اهتدوا إليه بالطيور الجارحة التي كانت تحوم فوقه. ولم

يجدوا على الأرض إلا جمجمته والخنازير المقتولة.

ثم انتقلنا إلى القصص الطريفة: كقصة الباحث عن المطاط الذي التقى فهداً جائعاً، فأخذ كل منهما يدور وراء الآخر حول دغل في الغابة، حتى وُجدا، نتيجة مناورة خاطئة من الرجل، وجهاً لوجه. ولم يجرؤ أي منهما أن يأتي بحركة، ولم يخاطر الرجل حتى بصرخة استغاثة: «وبعد نصف ساعة من الجمود، ونتيجة إصابته بتشنج عضلي، قام بحركة لا إرادية، صدم بها اخمص بندقيته، ليكتشف أنه مسلح».

وكان المكان موبوءاً للأسف بالحشرات المعتادة: كالزنابير، والبعوض مصاص الدماء الذي يطير في أسراب، وهناك النحل أيضاً. والأنواع الأمريكية الجنوبية ليست سامة، لكنها تزعج بطريقة أخرى: إذ نظراً لنهمها للعرق، فهي تتنازع المواضع الأكثر ملاءمة كمقرن الشفتين، والعينين والمنخرين، حيث تلتصق وكأنها سكرى بمفرزات ضحيتها، مفضلة الموت على الفرار؛ بحيث تجذب جثثها المسحوقة على الجلد باستمرار مستهلكين جدداً. ومن ذلك اسمها: لامب - أو لهوس، أي لاعقة الأعين. وهذا هو العذاب الحقيقي في الأدغال المدارية، الأسوأ من الالتهاب الناجم عن البعوض والذباب، الذي تتمكن العضوية، خلال أسابيع، من التكيف معه.

والنحل يعني العسل الذي يتاح جنيه من دون مخاطرة، ببقر مخابئ الأنواع الأرضية، أو باكتشاف أقراص العسل، ذات الخلايا الكروية بحجم بيض الدجاج، في شجرة جوفاء؛ وينتج كل نوع عسلاً بنكهة مختلفة - أحصيت منها ثلاث عشرة نكهة - لكنها من القوة بحيث تعلّمنا أن نمددها بالماء على غرار النامبيكوارا. يتم تحلل هذا الطعوم القوية على فترات، مثل خمر بورغونيه، وغرابتها تثير الحيرة. وقد وجدت شبيهاً لها في أحد توابل جنوب شرقي آسيا، يستخلص من غدد الصرصور، ويساوي قيمة وزنه ذهباً. يكفي أثر منه لتطييب الطعام. وتشبهها جداً أيضاً الرائحة التي تفوح من إحدى مغمدات الأجنحة في فرنسا، ذات اللون الداكن.

وأخيراً، وصلت شاحنة النجدة بالقطعة الجديدة ومعها ميكانيكي

لتركيبها. وننطلق من جديد، مجتازين ديامانتينو الشبه خربة، في واديها المفتوح باتجاه ريو باراغواي، ونصعد الهضبة ثانية -دون حادث هذه المرة- مارين بجوار ريو أرينيوس الذي يرسل مياهه إلى التاباجوز، ومن ثم إلى الأمازون، ثم ننعطف إلى الغرب نحو وادي ساكو ووادي باباجايو الوعرين، اللذين يشكلان رافدين لتاباجوز، حيث يسقطان بشلالين من علو ٦٠ متراً. وتوقفنا في باريسي، لتفحص الأسلحة التي تخلى عنها الأخطام الخشبية الذين يشار إلى وجودهم في الناحية من جديد. ونمضي، بعد مسافة قليلة، ليلة أرق في أرض مرزغية، قلقين من نيران مخيم الأهالي، التي نلمح على بضعة كيلو مترات، دخانها العمودي في سماء فصل الجفاف الصافية. ونقضي يوماً أيضاً في مشاهدة الشلالات وجمع بعض المعلومات في قرية للهنود الباريسي. ها هو ريو باباجايو، بعرض مائة متر، يجري بمياه بلغ من صفائها أن قاع النهر الصخري يرى على الرغم من عمقه. وفي الضفة المقابلة دزينة من أكواخ القش والطين: إنه مركز أوتياريتي البرقي. فنفرغ الشاحنة، وننقل المؤن والأمتعة إلى المعدية. وبينما كنا نودع السائقين، لمحنا على الضفة المقابلة جسمين عاريين: هما من النامبيكوارا.

على الخط

26 إنّ من يعيش على خط روندون، يحسب نفسه بسهولة، على سطح القمر. تخيلوا أرضاً بمساحة فرنسا: غير أنها غير مكتشفة في ثلاثة أرباعها، تذرعها فقط زمر من الأهالي، هم الأكثر بدائية في العالم. يجتازها من أولها إلى آخرها خط برقي. ويشكل الدرب الذي يصاحبه، والذي مُهد على عجل - البيكادا - المَعْلم الوحيد خلال سبعمائة كيلو متر، لأننا إذا استثنينا بعض الاستطلاعات التي قامت بها لجنة روندون، فالمجاهل تبدأ على جانبيه؛ هذا إذا افترضنا أن تخطيطه ذاته قابل للتمايز عن الأدغال التي تحف به. صحيح أن هناك السلك، لكنه أضحى بلا جدوى حال الانتهاء من وضعه، متدلياً من أعمدة لا تستبدل إذا اهترأت، فريسة للأرضة أو للهنود الذين يحسبون الطنين المميز لخط البرق، طنين خلية نحل ناشطة. وقد تجد الخط ممدداً على الأرض أحياناً، أو معلقاً بعدم اكتراث على شجيرات قريبة. لكن ما يثير الدهشة هو أن الخط يزيد من الوحشة التي ترين على المكان، أكثر مما يخفف منها.

وتضفي المشاهد العذراء، رتابة تحرم وحشيتها من قيمة ذات مغزى. إذ تمتنع على الإنسان، وتتلاشى تحت ناظريه بدلاً من تحديه؛ بينما يبدو، في هذه الأحراش اللانهائية، أخدود البيكادا، وأطياف الأعمدة المعوجة، والأقواس المقلوبة للسلك الذي يصل بينها، كأشياء في غير محلها، تعوم في العزلة التي نراها في لوحات إيف تانغي. وبشهادتها على مرور الإنسان وبطلان جهوده، تشير بوضوح أكبر مما لو لم تكن موجودة، إلى الحدود القصوى التي حاول تجاوزها.

يعد مستخدمو الخط مائة من الأشخاص: منهم الهنود الباريسي،

الذين عينتهم اللجنة البرقية، ودربهم الجيش على صيانة الخط وتشغيل الأجهزة (دون أن يتوقفوا مع ذلك، عن القنص بالقوس والسهام)؛ بالإضافة إلى البرازيليين، الذين جذبهم في السابق إلى هذه المناطق البكر، الأمل بأن يجدوا فيها إما أرض الذهب، وإما غرباً(*) بعيداً جديداً. لكن الأمل خاب. وبقدر ما نتقدم في الهضبة، تزداد «مظاهر» الماس ندرة.

و«المظاهر» حجارة صغيرة بلون خاص أو بنية غريبة، تنبئ بوجود الماس، مثلما الحيوان يدل عليه أثره: «عندما نجدها، يعني هذا أن الماس مر من هنا». وهي «الحصى الغليظة» و«الزنجيات الصغيرات» و«الذهبيات» و«أكباد الدجاج» و«دماء الثور» و«الفاصولياء اللامعة» و«أسنان الكلب» و«الأدوات» وغيرها .. وزيادة على انعدام الماس، في هذه الأراضي الرملية، التي تكتسحها الأمطار نصف السنة، وتحرم من أية قطرة مطر في النصف الآخر، لا شيء ينبت سوى شجيرات شوكية واهنة، والطرائد نادرة. أما اليوم، وقد هجرتها إحدى موجات الإعمار التي حفل بها تاريخ البرازيل الوسطى، التي تطلق نحو الداخل، بحركة حماسية قوية، حفنة من الباحثين عن المغامرات والقلقين والفقراء، لتتساهم في الحال مقطوعين عن كل اتصال مع مراكز الحضارة، فيتكيف هؤلاء المنكودون بحماقات تلائم انعزالهم في مراكز صغيرة، يتكون كل منها من بعض أكواخ القش، ويبعد كل منها عن الآخر بثمانين أو مائة كيلو متر، لا يستطيعون قطعها إلا مشياً على الأقدام.

وتدب، كل صباح، بعض الحياة في الخط البرقي: إذ يتم تبادل الأخبار؛ فلَمَح المركز الفلاني نيران مخيم زمرة من الهنود العدائيين، يتهيأون لإبادته؛ واختفى، في المركز الآخر، اثنان من الهنود الباريسي منذ أيام، هما أيضاً ضحية للنامبيكوارا، الذين طبقت شهرتهم الخط، وأرسلوهما دون شك إلى «العطل الشتوية السماوية ..». ويُستَذكر بفكاهة مريعة، المبشرون الذين اغتيلوا في ١٩٣٣، أو عامل البرق الذي وجد مدفوناً إلى

(*) إشارة إلى الغرب البعيد في أمريكا الشمالية.
THE FAR WEST
(المترجم)

جذعه، وقد اخترقت صدره السهام، والمبرقة على رأسه. فالهنود يمارسون على عمال الخط نوعاً من الفتنة المَرَضيّة: ذلك لأنهم يمثلون خطراً يومياً، يضخمه الخيال المحلي؛ وتشكل زيارات زمرهم المترحلة الصغيرة، في الوقت نفسه، التسلية الوحيدة، بل الفرصة الوحيدة لعلاقة إنسانية. وعندما تحدث، مرة أو اثنتين في العام، يأخذ القتلة المزعومون والمرشحون للقتل بالتمازح، مستعملين لهجة الخط البرقي المؤلفة بكاملها من أربعين كلمة، نصفها نامبيكوارا، والنصف الآخر برتغالي.

وفيما عدا هذه المتع التي تبعث الرعشة في هذا الطرف أو ذاك، يتصرف كل رئيس مركز بأسلوبه الخاص. إذ هناك المتهيج، الذي يترك امرأته وأولاده يموتون جوعاً، لأنه لا يستطيع منع نفسه، كلما خلع ملابسه ليستحم في النهر، من إطلاق خمس رصاصات من بندقيته الونشستر، مستهدفاً إرهاب الأهالي الذين يحسبهم كامنين له على الضفتين، جاهزين لذبحه، ويستنفد هكذا ذخيرة لا تعوض: ويدعى هذا الفعل بـ«تكسير الرصاص»؛ والمتسكع في الشوارع الذي ترك ريو طالباً في الصيدلة، وهو مستمر في التهكم على لارغودو أوفيدو؛ وبما أنه لم يعد لديه ما يقوله، يقتصر في حديثه على الإيماءات، وفرقعات اللسان والأصابع، والنظرات المليئة بالمعاني المضمرة: ولو كان في السينما الصامتة، ما زال يحسب من ريودو جانيرو. أضف إلى ذلك الحكيم، الذي استطاع الإبقاء على توازن أسرته البيولوجي مع قطيع من الأيائل يتردد على ينبوع قريب، فيذهب كل أسبوع لاصطياد حيوان لا أكثر؛ وهكذا تبقى الطرائد، وكذا المركز أيضاً. إلا أنهم منذ ثماني سنوات (أي منذ توقف تموين المراكز السنوي تدريجياً بوساطة قوافل الثيران) لم يأكلوا سوى لحم الأيل.

وقد أضاف الآباء اليسوعيون الذين سبقونا بعدة أسابيع، وأنهوا ترتيب إقامتهم بجوار مركز جوروينا، على مسافة ٥٠ كيلو متراً من أوتياريتي، إلى الصورة طرافة من نوع آخر. كانوا ثلاثة: هولندي يصلي لله، وبرازيلي يستعد لتحضير الهنود، وهنغاري صياد ماهر من قدامى النبلاء، كانت مهمته تزويد البعثة بالطرائد. وقد استقبلوا، بعد وصولهم بقليل، الرئيس

الإقليمي للرهبانية، وهو فرنسي يلثغ في كلامه بالراء، وكأنه خارج من عصر لويس الرابع عشر. يحسبه المرء، بالجدية التي يتكلم فيها عن «المتوحشين» - لم يكن يشير إلى الهنود بلفظ آخر - نزل في كندا، وقت اكتشافها، برفقة كارتييه أو شامبلان.

فما أن وجد الهنغاري نفسه في المكان - وكان اتجه إلى التبشير، كما يبدو، تكفيراً عن ضلالات شباب صاخب - حتى انتابته أزمة من النوع الذي يدعوه مستعمرونا بـ«ضربة الخيزران»، إذ أخذ بالصياح عبر جدران الإرسالية، شاتماً رئيسه الذي بقي أميناً لدوره، وهو يرقيه بتكرار إشارة الصليب قائلاً: تراجع أيها الشيطان! وبعدما تخلص الهنغاري أخيراً من الشيطان، وُضع خمسة عشر يوماً على الخبز والماء، بصورة رمزية على الأقل، لأنه ليس من خبز في جوروينا.

إذا كان الكادوفيو والبورورو يشكلون، باعتبارات مختلفة، ما يُرغب بتسميته مجتمعات عالمة بالمعنى الحرفي للكلمة؛ فإن النامبيكوارا يعودون بالملاحظ إلى ما قد يحسبه -خطأً- طفولة البشرية. إذ تم استقرارنا على أطراف الضيعة، في مخزن مقوض جزئياً من القش، كان استعمل لحماية المعدات، زمن إنشاء الخط. وكنا بهذا على أمتار من مخيم الأهالي، الذي كان يجمع عشرين شخصاً موزعين على ست عائلات، وصلوا إلى هناك قبلنا بعدة أيام، في واحدة من جولات فترة الترحل.

تتقسم السنة لدى النامبيكورارا إلى فترتين متمايزتين. فتقيم كل جماعة، في الفصل الممطر من تشرين الأول / أكتوبر إلى آذار / مارس، على مرتفع صغير يشرف على مجرى ساقية، حيث يبني الأهالي أكواخاً مؤقتة من الأغصان أو سعف النخيل. ويحرقون النباتات على جزء من الغابة التي تحتل قيعان الأودية الرطبة، ويزرعون فيه المانيوق بخاصة (المر والحلو)، وأنواعاً مختلفة من الذرة والتبغ، وأحياناً الفاصولياء والقطن والفول السوداني والقرع. وتبشر النساء المانيوق على ألواح خشبية مغطاة بالأشواك من بعض أنواع النخيل، ويعصرن اللب الطري في قطعة ملتوية من اللحاء. وتزودهم البستنة بمواد غذائية خلال جزء من فترة

استقرارهم. والنامبيكوارا يحفظون حتى كسبة المانيوق بطمرها في التربة، ليخرجوها شبه متعفنة بعد أسابيع أو أشهر.

وتُهجر القرية في بداية فصل الجفاف، وتتفرق كل جماعة إلى عدة زمر مترحلة، تتنقل لسبعة أشهر خلال السبسب، بحثاً عن الطرائد الصغيرة بالخصوص، كاليرقات، والعناكب والجراد والقوارض والأفاعي والسحالي؛ والفاكهة والحبوب والجذور أو العسل البري. ويتكون مخيمهم الذي ينصبونه ليوم أو لعدة أيام أو لأسابيع أحياناً، من ملاجئ بسيطة بعدد الأسر، تصنع من سعف النخيل، أو أغصان تغرز في الرمل بشكل نصف دائرة وتربط عند قمتها. وبحسب اتجاه الشمس، تنزع السعف من جانب لتغرز في الجانب الآخر، حتى يبقى الستار الواقي في مواجهة الشمس أو الريح أو المطر عند الضرورة. وهي الفترة التي يستنفد البحث فيها عن القوت كل الجهود. إذ تتسلح النساء بعصي يستخدمنها في اقتلاع الجذور، وقتل الحيوانات الصغيرة؛ ويصطاد الرجال بقسي كبيرة من خشب النخيل، وسهام مختلفة الأشكال: كالسهم المخصص للطيور ورأسه مثلم حتى لا ينشب في الأغصان، وسهام الصيد النهري وهي أكثر طولاً ودون ريش، تنتهي بثلاثة أو خمسة رؤوس، والسهام المسمومة التي تطلى رؤوسها بالكورار، وتزود بغمد واق من الخيزران، وهي مخصصة للطرائد المتوسطة، أما سهام الطرائد الكبيرة - كالفهد والتابير - فرؤوسها مدببة وتصنع من فلقة خيزران كبيرة حتى تسبب النزيف، لأن مقدار السم الذي يحمله سهم لا يكون كافياً.

بعد فخامة قصور البورورو، تبدو الفاقة التي يعيش فيها النامبيكوارا صعبة التصديق. فلا يرتدي أي من الجنسين أية ملابس، وتميزهم سحنتهم، كما يميزهم فقر ثقافتهم عن القبائل المجاورة. إذ يتصفون بقصر القامة: ١,٦٠ م للرجال، و١,٥٠ م للنساء، وعلى الرغم من أن هؤلاء النساء، مثل الكثير من الأمريكيات الجنوبيات، ليست لهن خصور ظاهرة، إلا أن أطرافهن أكثر دقة، وأصابعهن أصغر، ومفاصلهن أكثر نحولاً مما هي الحال عموماً لدى الهنود. وبشرتهن أكثر سمرة أيضاً،

وكثيرات منهن مصابات بأمراض جلدية، تغطي أجسامهن بهالات بنفسجية اللون، لكن الرمل الذي تحب السليمات منهن التمرغ فيه، يضفي على الجلد لوناً فاتحاً فتاناً جداً لدى الشابات خاصة. أما الرأس فمستطيل، والقسمات دقيقة ومتناسقة غالباً؛ والنظرة متوقدة، والشعر أغزر منه لدى السكان من ذوي الأصل المنغولي، متموج شيئاً ما، ونادراً ما يكون حالك السواد. وقد بهرت هذه السحنة الزوار الأوائل إلى درجة جعلتهم يفترضون تزاوجاً مع سود فروا من المزارع للالتجاء إلى مستوطنات العبيد الآبقين. لكن النامبيكوارا، لو تلقوا دماً أسود من زمن قريب، لكان من غير المفهوم، كما تحققنا منه، انتماؤهم جميعاً إلى زمرة الدم (O)، وإذا لم يعن هذا أصلاً هندياً محضاً، فهو يعني انعزالاً ديموغرافياً امتد إلى قرون. غير أن سحنة النامبيكوارا تظهر لنا اليوم أقل غموضاً، فهي ترجع إلى عرق قديم، عثر على عظام له في البرازيل، ضمن مغاور لاغواسانتا وهي موقع في ولاية ميناس جيريس. أما أنا فوجدت الوجوه الشبه قوقازية من جديد باندهاش. تلك الوجوه التي تُرى على بعض التماثيل والنقوش البارزة في منطقة فيراكروز، وتنسب الآن إلى أكثر حضارات المكسيك قدماً.

وما جعل هذا التقارب أكثر إرباكاً، هو فقر الثقافة المادية التي لا تحمل على إلحاق النامبيكوارا بأرقى ثقافات أمريكا الوسطى، بل على معاملتهم كمتبقين من العصر الحجري. إذ يقتصر لباس المرأة على صف رقيق من القواقع يلف حول الخصر، وبعض الصفوف الأخرى تستعمل عقوداً أو حمالة؛ وأقراط للأذنين من الصدف أو الريش، وأساور نحتت من ذَبْل التاتو الكبير، وأحياناً شرائط من القطن (ينسجها الرجال) أو القش، تلف حول العضد أو الكاحل. أما لباس الرجْل فأكثر اختصاراً، إلا من طرة من القش تعلق أحياناً بالحزام فوق الأعضاء الجنسية.

وتتضمن الأسلحة، إضافة للقوس والسهام، نوعاً من الحراب المسطحة، يبدو ان لها استعمالاً سحرياً وقتالياً أيضاً: فلم أرها تستعمل إلا بحركات تستهدف هزيمة الإعصار، أو قتل الأتاسو التي هي الأرواح الشريرة

للأدغال، بقذف تلك الحراب في الاتجاه المناسب. ويدعو الأهالي بالاسم نفسه النجوم، والثيران التي يخافونها كثيراً، (بينما يقتلون البغال ويأكلون لحومها عن طيب خاطر، مع أنهم تعرفوا عليها حينما تعرفوا على الثيران). وكانت ساعة يدي أتاسو أيضاً.

ويمكن لِسَل تحمله النساء أثناء الترحل، أن يتسع بسهولة لأمتعة النامبيكوارا. هذه السلال من الخيزران المفلوق والمجدول، قد تبلغ ٥٠ , ١م، أي أن ارتفاعها يساوي أحياناً قامة التي تحملها. توضع في قاعها بعض كسبة(*) المانيوق وتغطى بالأوراق، ومن فوقها الأمتعة والأدوات المؤلفة من أوان من القرع المجفف، وسكاكين صنعت من فلقة خيزران قاطعة أو من حجارة منحوتة أو من قطعة حديد - حُصل عليها بالمقايضة - تُثبت بالشمع والخيوط بين قطعتين من الخشب تشكلان المقبض؛ ومثقب يتكون من مخرز حجري أو حديدي، مركب في طرف قضيب يتم تدويره بين راحتي اليد. كما يملك الأهالي بلطات وفؤوساً من المعدن، تلقوها من لجنة روندون؛ ولم تعد بلطاتهم الحجرية تستخدم إلا كسندانات، لتشكيل أشياء من القواقع أو العظام، إلا أنهم لا يزالون يستعملون المشاحذ والمصاقل الحجرية. أما الفخاريات فمجهولة لدى الجماعات الشرقية (التي كنت أبدأ تحقيقي لديها)، وتظل غير متقنة في الأماكن الأخرى. ولا يعرف النامبيكوارا النقيرة، بل يعبرون مجاري المياه سباحة، مستعينين أحياناً بحزمة من الحطب كعوامة.

(*) ما يبقى من العصر. (المترجم)

ولا تكاد تستحق هذه الأواني اسم الأشياء المصنوعة. إذ يحتوي سل النامبيكوارا بخاصة، المواد الأولية المستعملة لصنع الأشياء، وفقاً للاحتياجات: من أخشاب متنوعة، لا سيما تلك التي تستخدم لإشعال النار بالدوران، وكتل من الشمع أو الراتنج، وشلل من الألياف النباتية، وعظام، وأسنان حيوانات ومخالبها، ومِزق من الفرو، وريش، وأنياب الخنزير، وجوز الهند، والقواقع النهرية، وحجارة، وقطن وحبوب. وتبدو كل هذه الأشياء خليطاً يثبط همة هاوي التحف أمام هذه المعروضات

التي تظهر نتيجة نشاط، يلاحظ بالعدسة المكبرة لعرق عملاق من النمل، أكثر مما هي نتيجة لمهارة بشرية. والحقيقة أن النامبيكوارا يُذكرون، وهم يمشون رتلاً خلال العشب المرتفع، برتل من النمل، وكل امرأة مثقلة بسلها القصبي الفاتح، كالنمل تُثقل أحياناً ببيوضها.

ويتبين الفقر، بين هنود أمريكا المدارية الذين ندين لهم باختراع أرجوحة النوم، من خلال جهل هذه الأداة وكل أداة تستخدم للراحة أو النوم. فالنامبيكوارا ينامون عراة على الأرض. وبما أن الليالي باردة في فصل الجفاف، فهم يتدفؤون بتلاصقهم الواحد مع الآخر، أو بالاقتراب من نار المخيم التي تخبو، بحيث يستيقظ الأهالي في الفجر متمرغين برماد الموقد الدافئ. ولهذا السبب يلقبهم الهنود الباريسي بما ترجمته «أولئك الذين ينامون على الأرض».

كانت الزمرة التي جاورناها في أوتياريتي، ثم في جوروينا مؤلفة، كما ذكرت آنفاً، من ست أسر هي: أسرة الرئيس التي تتضمن زوجاته الثلاث وابنته المراهقة، وخمس أخرى تتكون كل منها من زوجين وطفل أو طفلين. وتربط بينهم جميعاً صلة القرابة، إذ يفضل النامبيكوارا الزواج من ابنة الأخ أو ابنة الأخت، أو من قريبة من النوع الذي يسميه الاثنولوجيون متصالباً: أي ابنة العمة أو ابنة الخال. فالأقارب الذين يتمتعون بهذه الصفة يسمون منذ ولادتهم بكلمة تعني زوجاً أو زوجة، أما الأقارب الآخرون (المتحدرون من أخين أو أختين، الذين يسميهم الإثنولوجيون، لهذا السبب بالمتوازين) فيعامل بعضهم بعضاً كأخ وأخت، ولا يستطيعون التزاوج فيما بينهم. وكان الأهالي جميعاً يبدون، على علاقات طيبة فيما بينهم؛ إلا أن جماعة جد صغيرة - ثلاثة وعشرين شخصاً بمن فيهم الأطفال - كانوا يعانون من صعوبات: إذ تزوج أرمل شاب لتوه من فتاة مغرورة، كانت تأبى الاهتمام بطفلتيه من الزواج الأول، عمر الأولى ست سنوات، والثانية سنتان أو ثلاثة. وعلى الرغم من لطافة البكر التي كانت كالأم لأختها الصغرى، إلا أن الطفلة كانت مهمَلة جداً، تُنَقّل بتأفف من أسرة لأخرى. وقد ود الكبار لو تبنيتها، لكن الأطفال كانوا يفضلون حلاً

آخر، يبدو لهم مثيراً للضحك: إذ أتوني بالطفلة التي لما تكد تتعلم المشي، وبإيماءات لا لبس فيها، كانوا يدعونني لاتخاذها زوجة.

وكانت هناك أسرة مؤلفة من أبوين مسنين، انضمت إليهما ابنتهما الحامل، بعد ما تخلى عنها زوجها (الغائب في هذه الآونة). وأخيراً، رب أسرة شاب، ترضع زوجته ابنهما، وجدا نفسيهما تحت وطأة الممنوعات المعتادة في مثل هذه الظروف؛ فهما شديدا القذارة لمنعهما من الاغتسال في النهر، وهزيلان نظراً لتحريم أكثر الأطعمة عليهما؛ باقيان فريسة للفراغ، لأن أبوي رضيع لم يفطم بعد، لا يستطيعان المشاركة في الحياة الجماعية. فكان الزوج يذهب للقنص أحياناً، أو لتلقيط المنتجات البرية وحيداً؛ وتتلقى المرأة قُوتَها من زوجها أو أبويها.

ومع أن عملي مع النامبيكوارا سهل جداً - إذ لم يكترثوا بالاثنوغرافي ولا بدفتر ملاحظاته، أو بآلة التصوير - إلا أنه كان معقداً لأسباب لغوية. فاستعمال أسماء العلم، بداية، ممنوع لديهم؛ ولتعيين الأشخاص ينبغي اتباع عادة عمال الخط، أي الاتفاق مع الأهالي على أسماء مستعارة يشار إليهم بها، قد تكون برتغالية كجوليو، جوزيه - ماريا، لويزا، أو ألقاباً من مثل (أرنب بري)، (سكر). حتى إنني عرفت واحداً لقبه روندون أو أحد رفاقه بـ(كافينياك) نظراً للحيته الصغيرة النادرة بين الهنود عموماً.

عندما كنت ألاعب يوماً بعض الأطفال، ضُربت إحدى البنات من إحدى أترابها، فجاءت تلتجئ إلي، وأخذت تهمس في أذني بشيء لم أفهمه، واضطررت إلى أن أطلب منها إعادته عدة مرات، حتى اكتشفت خصمتها المكيدة، فجاءت غاضبة لتبوح بما بدا سراً عظيماً؛ وبعد تردد وتساؤلات، لم يعد يترك تفسير الحادث أي شك. إذ جاءت الأولى لتخبرني باسم عدوتها انتقاماً. وعندما اكتشفت هذه الأمر، باحت باسم الأخرى أخذاً بالثأر. واعتباراً من هذه اللحظة، كان سهلاً تأليب الأطفال بعضهم على بعض، والحصول على أسمائهم. وحدث بيننا بعد هذا شيء من التواطؤ، جعلهم يعطونني دون صعوبة أسماء الكبار. لكن هؤلاء عندما

علموا بمؤامرتنا، عنفوا الأطفال، فنضب معين المعلومات.

وتضم لغة النامبيكوارا، من جهة ثانية، عدة لهجات مجهولة جميعها، تتمايز بتغير أواخر الأسماء بحسب مواقعها، وببعض أشكال الأفعال. كما يستعملون على الخط لغة مختصرة، يمكن أن تكون مفيدة في البداية فقط. لكنني بمساعدة إرادة الأهالي الطيبة وتوقدهم الذهني، كنت أتعلم نتفاً من لغتهم. وتتضمن اللغة لحسن الحظ كلمات سحرية - كيتيتو في اللهجة الشرقية، ديج، داج، تشوره، في أماكن أخرى - يكفي أن تضاف إلى الأسماء لتحويلها إلى أفعال، تكمل عند اللزوم بأداة النفي. فيستطيع المرء، بهذه الطريقة، قول كل شيء، حتى وإن كانت لغة النامبيكوارا «الأساسية» هذه، لا تسمح بالتعبير عن الأفكار الأكثر دقة. والأهالي يعرفون ذلك جيداً، لأنهم يقلبون هذا النهج عندما يحاولون التكلم بالبرتغالية. وهكذا فـ«أذن» و«عين» تعنيان السماع - أو الفهم - والرؤية، ويترجمون المفهومات المضادة قائلين «أذن أو عين انتهيت ..».

والصوتيات لدى النامبيكوارا مكتومة شيئاً ما، كأن اللغة مهموسة أو مُوَشوشة، ويستهوي النساء تأكيد هذه الميزة، فيشوهن بعض الكلمات (وهكذا كيتيتو تصير في أفواههن كيديتسو)؛ وبلفظهن من طرف الشفاه، يتصنعن نوعاً من الهمهمة التي تذكّر بنطق الأطفال. ويشهد نطقهن على تكلف وتصنع، هن على وعي تام به: فعندما كنت لا أفهم ما يقلن وأرجوهن الإعادة، كن يبالغن بخبث في أسلوبهن، فتفتر همتي وأصرف النظر، وإذا بهن ينفجرن بالضحك وتنطلق المداعبات، فقد نجحن.

كان علي أن أنتبه سريعاً إلى أنه زيادة على اللاحقة الفعلية، يستعمل النامبيكوارا عشر لاحقات أخرى، تقسم الكائنات والأشياء إلى العدد نفسه من الأصناف، هي: شعر ووبر وريش؛ أشياء مدببة وفوهات؛ أجسام ممددة: إما صلبة وإما طرية؛ فاكهة وحبوب وأشياء مستديرة؛ أشياء تتدلى أو تهتز؛ أجسام منتفخة، أو مليئة بالسائل؛ لحاء، جلود، وكسوات أخرى، إلخ. وقد أوحت لي هذه الملاحظة بمقارنة مع عائلة لغوية في أمريكا الوسطى وشمالي غرب أمريكا الجنوبية هي: الشيبشا، التي

كانت لغة حضارة عظيمة لكولومبيا الحالية، وواسطة بين حضارتي المكسيك والبيرو، والتي قد يكون النامبيكوارا آخر سليل لها في الجنوب(*). وهذا سبب إضافي لكي لا نخدع بالمظاهر. إذ إن الأهالي، على الرغم من فاقتهم، تذكّر سحنتهم بأقدم المكسيكيين، وبنية لغتهم بمملكة الشيشا، ليس لديهم كبير حظ في أن يكونوا بدائيين حقيقيين. فماض لا نعرف بعد شيئاً عنه، وقسوة بيئتهم الجغرافية الحالية، قد يفسران يوماً ما مصير هؤلاء الأبناء الضالين، الذين بخل عليهم التاريخ بالعجل السمين.

(*) لكن هذا التقسيم للكائنات والأشياء، والحق يقال، يوجد في العديد من اللغات الأمريكية، فلم يعد هذا التقريب مع الشيبشا يبدو لي مقنعاً كما في الماضي. (المؤلف)

مع الأسرة

27 يستيقظ النامبيكوارا عند طلوع النهار، فيذكون النار ويتدفؤون قدر استطاعتهم من برودة الليل، ثم يقتاتون بالقليل المتبقي من البارحة. ويمضي بعد ذلك الرجال جماعة أو فرادى لرحلة قنص. بينما تبقى النساء في المخيم ينصرفن إلى أشغال المطبخ، ويأخذن حمامهن الأول، عندما تبدأ الشمس بالارتفاع. إذ يستحم النساء والأطفال معاً، على سبيل المرح غالباً، ويشعلن النار أحياناً، ليجلسن أمامها القرفصاء ويتنشطن عند الخروج من الماء. وهن يبالغن بظُرف في الارتعاش الطبيعي، ويتكرر الاستحمام مرات أخرى أثناء النهار. ولا تتنوع المشاغل اليومية إلا قليلاً. إذ يستغرق تحضير الطعام أكثر الوقت والاهتمام: فيجب بشر وعصر المانيوق، وتجفيف اللب ثم طبخه، أو تقشير وغلي جوزة الكومارو التي تضيف نكهة اللوز المر إلى أغلبية الأطباق. ويذهب النساء والأطفال عند الحاجة، في رحلة للجمع والقطاف. وإذا كانت المؤونة كافية، تقوم النساء بالغزل، مقرفصات على الأرض أو جاثيات وعجيزاتهن معتمدة على أعقابهن. أو يقطعن ويصقلن لآلئ من القواقع أو من قشرة جوز الهند، وينظمنها في خيوط أو يصنعن منها أقراطاً للآذان أو حلياً أخرى. وإذا ما سئمن العمل، تقوم الواحدة منهن بتفلية الأخرى، ويتنزهن أو ينمن.

يكون المخيم في ساعات القيظ صامتاً، بينما يتمتع السكان الصامتون أو النائمون بظل الأكواخ المؤقت. وتجري المهمات بعد ذلك وسط الأحاديث. ولأن الأهالي مرحون وضاحكون غالباً، فهم يطلقون الدعابات، وأيضاً الألفاظ البذيئة أو القذارات أحياناً، ليتلقاها الجميع بالضحك. وينقطع العمل مراراً بسبب زيارات أو أسئلة، وما إن يتسافد كلبان أو طيران

مألوفان، حتى يتوقف الجميع لتأمل العملية بانتباه المفتون؛ ثم يستمر العمل بعد تبادل التعليقات على هذا الحدث المهم.

أما الأطفال فيتكاسلون جزءاً كبيراً من النهار، وتنهمك البنات من حين لآخر بالأشغال نفسها التي تقوم بها النساء، ويمضي الصبيان الوقت أو يصطادون السمك على ضفة النهر. ويعكف الرجال الذين بقوا في المخيم على أشغال القصب، فيصنعون سهاماً وآلات موسيقية، وقد يساعدون في الأعمال المنزلية الصغيرة. ويسود الوئام الأسرة عموماً. يعود باقي الرجال نحو الساعة الثالثة أو الرابعة، فتدب الحياة في المخيم، وتتعالى الأصوات، وتتشكل جماعات مختلفة من التجمعات الأسرية. إذ يتغذى الجميع بفطائر المانيوق وبكل ما عثر عليه أثناء النهار. وعند غياب الشمس، تمضي النساء اللواتي يُعيَّنَّ يوماً بيوم، لجمع أو تقطيع الحطب اللازم لليلة. ثم يعدن متعثرات تحت الحمل الذي يشددنه بعُصابة يسندنها إلى جباههن. ولإنزال الحمل، يقرفصن ويملن إلى الخلف قليلاً، وهن يضعن السل على الأرض حتى يخلّصن الجبهة من العُصابة.

تكدس الأغصان في ركن من المخيم، ويتزود كل واحد منها بحسب حاجته؛ وتلتئم الجماعات الأسرية كلٌ حول نيرانه التي تبدأ بالتأجج، وتمضي السهرة بالأحاديث أو بالغناء والرقص، وقد تمتد أحياناً إلى وقت متأخر من الليل. لكن الأزواج عموماً، بعد بعض المداعبات والمصارعات الودية، يتجمعون بصفة أكثر ألفة، بينما تضم الأمهات إليهن أطفالهن النائمين. ويرين السكون فلا يسمع في الليل البارد سوى فرقعة غصن في النار، أو خطوات خفيفة لهندي يذكي ناره، أو عواء الكلاب أو بكاء طفل.

ينجب النامبيكوارا القليل من الأطفال: والأزواج بدون أطفال، كما سألاحظ فيما بعد، ليسوا نادرين؛ ويبدو أن طفلاً أو اثنين عدد معتاد، واستثناء أن نجد أكثر من ثلاثة في أسرة. ذلك لأن العلاقات الجنسية ممنوعة بين الزوجين طالما لم يفطم الوليد الأخير، أي حتى الثالثة من عمره غالباً. وتحمل الأم طفلها منفرج الساقين على الفخذ، معتمداً على

حمالة من اللحاء أو القطن، زيادة على السل؛ ويستحيل عليها بالتالي حمل طفل آخر. كما تفرض مقتضيات حياة الترحل، وفقر البيئة المحيطة على الأهالي حذراً شديداً؛ فلا تتردد النساء عند اللزوم، باللجوء إلى وسائل آلية أو أعشاب طبية لإحداث الإجهاض.

ومع ذلك، يكنُّ الأهالي لأطفالهم محبة شديدة ويبدون ذلك، ويبادلهم أطفالهم الحب. لكن هذه العواطف تحجبها العصبية أحياناً وعدم الثبات اللتان يظهرانها أيضاً. إذ عانى أحد الأطفال يوماً من سوء الهضم والصداع، وأخذ بالتقيؤ ممضياً نصف يوم في الأنين، والنصف الآخر في النوم. ولم يعره أحد أي اهتمام، بل ترك وحيداً اليوم بطوله. وفي المساء، اقتربت منه أمه وشرعت تفليه بهدوء وهو نائم، وأشارت إلى الآخرين بعدم الاقتراب، وهي تهيء له من ذراعيها مهداً.

أو هذه الأم الشابة، التي تلاعب طفلها بالتربيت على جنبه، ويأخذ الطفل بالضحك، فتزيد من شدة الضربات حتى تجعله يبكي. وتتوقف عندئذ، وتواسيه.

وقد شاهدت اليتيمة الصغيرة التي تحدثت عنها، تداس بالأقدام أثناء الرقص، حين وقعت على الأرض في جو الإثارة العام، دون أن ينتبه أحد إليها.

وعندما يغتاظ الأطفال، يضربون أمهاتهم، فلا يعترضن على ذلك. وهم لا يعاقبون، إذ ما رأيت قط أحداً منهم يضرب، أو توجه إليه حتى إشارة للتهديد إلا على سبيل المزاح. ويبكي أحد الأطفال أحياناً، لأنه آذى نفسه، أو اختصم مع غيره، أو كان جائعاً؛ أو لأنه يرفض أن تفليه أمه. لكن هذه الحالة الأخيرة نادرة، إذ يبدو أن التفلية تسر الطفل، بقدر ما تسر الأم التي ترى فيها علامة على الاهتمام والحنان. فعندما يرغب الطفل -أو الزوج- أن يفلى، يضع رأسه على ركبة المرأة، مقدماً جانبي رأسه على التعاقب. فتقوم المرأة بتقسيم الشعر إلى صفوف، وتتفحص الخصلات خلال الضوء، وما إن تعثر على قمل حتى تقرضه حالاً. وإذا ما بكى طفل أثناء العملية، يقوم بمواساته أحد أفراد العائلة، أو طفل

أكبر سناً.

وكذا مشهد هذه الأم مع طفلها، المليء بالمرح والعذوبة؛ إذ تمد الأم يدها بشيء من خلال قش الجدار، وتسحبها عندما يظن أنه سيلتقطه: «خذ من الأمام! خذ من الخلف!» أو تمسك بالطفل ضاحكة، وتتظاهر برميه على الأرض: سأرمي بك! ويرد الطفل بصوت حاد: لا أريد.

وفي المقابل، يحيط الأطفال أمهاتهم بحنان قلق ومُلِح، مصرين على أن تتلقى الأم نصيبها من حصيلة الصيد. إذ يعيش الطفل منذ البداية قريباً من أمه؛ فتحمله في الأسفار حتى يستطيع المشي، ويسير فيما بعد إلى جانبها، ويبقى معها في المخيم أو القرية، أثناء غياب الأب في القنص. ومع ذلك، لا بد بعد بضع سنوات من التمييز بين الجنسين. فيبدي الأب اهتماماً بابنه أكبر من الاهتمام الذي يوليه لابنته، لأن عليه تعليمه التقنيات الذكورية، وكذا الأمر في علاقات الأم بابنتها. إلا أن علاقات الأب بأطفاله، تشهد على الحنان نفسه والعناية اللتين أشرت إليهما، إذ يجول بابنه حاملاً إياه على كتفه؛ أو يصنع له أسلحة تتناسب مع ذراعه الصغيرة.

والأب أيضاً هو الذي يروي للأطفال الأساطير التقليدية، بتقريبها إلى أذهانهم، من خلال أسلوب، يسهل على الصغار فهمه: «الجميع ماتوا، ولم يبق منهم أحد! لا شيء» هكذا تُستهل النسخة الطفولية للأسطورة الأمريكية الجنوبية حول الطوفان، الذي ترجع إليه إبادة البشر الأوائل.

أما في حالة تعدد الزوجات، فتسود علاقات خاصة بين أبناء الزوجة الأولى، وزوجات أبيهم الشابات، اللائي يعشن معهم في صحبة تمتد إلى جميع صبايا الجماعة. إذ يمكن، مهما كانت هذه الجماعة محدودة العدد، التمييز فيها بين مجتمع الصبايا وبين الشابات المتزوجات اللواتي يستحممن معاً في النهر، ويذهبن جماعة إلى الأدغال لقضاء حاجتهن الطبيعية، ويدخن معاً، ويتمازحن ويقمن بمداعبات تخالف الذوق السليم، من مثل بصق كل منهن في وجه الأخرى. هذه العلاقة وثيقة ومحببة، إلا أنها بعيدة عن التهذيب، كتلك التي قد توجد بين فتيان في مجتمعنا.

وهي لا تتضمن خدمات أو مجاملات إلا نادراً؛ لكنها تؤدي إلى نتيجة طريفة: إذ تصير الصبايا مستقلات، أسرع من الصبيان. فهن يتبعن الشابات المتزوجات، ويسهمن في مناشطهن، بينما يحاول الصبيان المتروكون وشأنهم، أن يشكلوا على استحياء، شللاً على النمط ذاته، دون نجاح واضح، ويفضلون البقاء في الطفولة الأولى على الأقل، إلى جانب أمهاتهم.

ويجهل صغار النامبيكوارا الألعاب. فهم يصنعون أحياناً أشياء من القش الملفوف أو المجدول، لكنهم لا يعرفون تسلية أخرى غير المصارعة، والمقالب التي يعملها بعضهم لبعض، ويعيشون حياة مطابقة لحياة الكبار. الصغيرات يتعلمن الغزل ويتسكعن ويضحكن وينمن، والصبيان يشرعون فيما بعد بإطلاق السهام بقسي صغيرة، وبالتعرف على اهتمامات الرجال (في سن الثامنة أو العاشرة). لكن هؤلاء وأولئك يعون سريعاً المشكلة الأساسية، والمأساوية أحياناً في حياة النامبيكوارا، وهي مشكلة الطعام؛ والدور المنتظر منهم. ولذا تجدهم يشاركون في رحلات جني الثمار والتلقيط بحماسة كبيرة. وليس من النادر، رؤيتهم في فترات المجاعة، يتدربون على اقتلاع الجذور، أو يمشون في العشب على رؤوس أصابعهم، وبأيديهم قضبان يصرعون بها الجراد. ويعرف الصبايا المهمة المنوطة بالنساء في حياة القبيلة الاقتصادية، ويتشوقن إلى اللحظة التي يكن فيها جديرات بهذه المهمة.

وقد التقيت يوماً مع صبية، تحمل بحنان جرواً، مستخدمة العصابة التي تحمل بها أمها أختها الصغيرة، فسألتها: «هل تعتنين بكلبك الرضيع» فأجابت: «عندما أصير كبيرة، سأصرع الخنازير البرية والقرود، سأصرعها كلها، عندما تعوي!».

لكنها ارتكبت في الواقع خطأً نحوياً، أشار إليه الأب ضاحكاً: إذ كان عليها أن تقول تيلونداج «عندما أصير كبيرة» عوضاً عن المذكر إيهونداج الذي استعملته. والخطأ مثير للاهتمام، لأنه يدل على رغبة أنثوية للارتفاع بالمشاغل الاقتصادية الخاصة بالإناث إلى مستوى مشاغل الرجال. وبما

أن المعنى الدقيق للكلمة التي استعملتها الصبية هو «القتل صرعاً بمطرقة أو عصا» فهي تحاول، كما يبدو، توحيد الجني والتلقيط المؤنثين (المحدودين بالتقاط الحيوانات الصغيرة) مع القنص الذكوري، الذي يتم بالقوس والسهام.

ولا بد أن نفرد مكاناً خاصاً للعلاقات بين هؤلاء الأطفال المشمولين بصلة القرابة التي تتيح لهم أن يُسموا بـ«زوج» و«زوجة»، إذ يتصرفون أحياناً كأزواج حقيقيين، فيغادرون بيت الأسرة ليلاً، وينقلون بعض الجمر إلى ركن من المخيم، حيث يشعلون نارهم؛ وبعد ذلك ينهمكون، بقدر استطاعتهم، في التعبير عن مشاعرهم كالكبار؛ بينما يلقي هؤلاء على المشهد نظرة هازئة.

لا أستطيع ترك الأطفال دون قول كلمة عن الحيوانات الأليفة التي تعيش في علاقات وثيقة جداً معهم، وتعامل كالأطفال. إذ تشارك في الطعام، وتتلقى مظاهر الحنان والاهتمام التي يتلقونها، من تفلية وألعاب وأحاديث وملاطفات. ولدى النامبيكوارا العديد من الحيوانات الأليفة: كالكلاب في المقام الأول، والديوك والدجاج، التي تتحدر من تلك التي جلبتها لجنة روندون، والقرود والببغاوات، والطيور المختلفة الأنواع، وأحياناً الخنازير والقطط البرية أو القواطي وهو حيوان أمريكي صغير من اللواحم. ويبدو أن للكلب وحده دوراً نفعياً لدى النساء أثناء الصيد بالعصا. فلا يستعمله الرجال أبداً للصيد بالقوس. أما الحيوانات الأخرى فتربى بغية المتعة. إذ إنها لا تؤكل، ولا يستهلك البيض الذي يبيضه الدجاج في الأدغال، على كل حال. لكنهم لا يترددون في التهام الطير، إذا ما مات بعد محاولة لأقلمته.

وتُحمل كل الحيوانات أثناء السفر مع الأمتعة، فيما عدا تلك القادرة على المشي. فالقرود وهي تتعلق بشعور النساء، تغطي رؤوسهن بقبعة حية ظريفة، تمتد بذيلها الملفوف على عنق حاملتها. وتجثم الببغاوات والدجاجات على قمة السل، بينما تُحمل حيوانات أخرى على الذراعين. ولا يتلقى أي منها غذاء وفيراً، ولكنها تحصل على نصيبها، حتى أيام

المجاعة. وهي في المقابل، مصدر لهو وتسلية للجماعة.

لننظر الآن إلى الكبار. إن موقف النامبيكوارا حيال الأشياء المتصلة بالحب، يتلخص في عبارتهم التالية: تامينديج مونداج، التي يمكن ترجمتها حرفياً، إن لم نقل بلباقة «ممارسة الحب، أمر جيد»، وقد تعرضت آنفاً للجو الشهواني الذي يتخلل الحياة اليومية؛ وتحظى مسائل الحب بأكبر درجة من الاهتمام والفضول لدى الأهالي. فهم يتلهفون للحديث عن هذه الشؤون، وتمتلئ الملاحظات التي يتبادلونها بالتلميحات والمعاني المضمرة. تتم العلاقات الجنسية في العادة ليلاً، بقرب نيران المخيم أحياناً، ويبتعد الزوجان على الأغلب مائة متر في الأدغال المجاورة. ويلاحظ هذا الابتعاد في الحال، دافعاً الجضور إلى الابتهاج، فيبدؤون في تبادل التعليقات وإطلاق الفكاهات، ويشترك حتى الصغار في هيجان يعرفون جيداً سببه. وقد ينطلق بعض الرجال والنساء والأطفال أحياناً في أعقاب الزوجين، ويأخذون في مراقبة تفاصيل الفعل عبر الأغصان، وهم يتهامسون ويكتمون الضحكات؛ ومع أن المعنيين لا تعجبهما المكيدة، إلا أنهما يفضلان إظهار الرضى، واحتمال المناكدات والتهكمات التي يستقبلان بها لدى عودتهما للمخيم. وقد يحذو زوجان آخران حذو الأولين سعياً للانفراد في الأدغال.

ومع ذلك، فهذه المناسبات نادرة، والتحريمات التي تحد منها، لا تفسر هذه الحال إلا جزئياً. إذ يبدو أن المسؤول الأول هو مزاج الأهالي. فخلال ألعاب الحب التي يعكف عليها الأزواج علناً كلما أرادوا، والتي تكون جريئة في الأغلب، لم ألحظ قط بداية انتصاب. والمتعة التي يسعون إليها كما يظهر لَعبية وعاطفية، أكثر منها ذات طبيعة جنسية. وربما لهذا السبب، تخلى النامبيكوارا عن الغمد الذكري الذي يشيع استعماله بين أقوام البرازيل الوسطى. والحق أنه إذا لم تكن وظيفة هذه الأداة اتقاء الانتصاب، فمن المرجح أنها تدل على نوايا حاملها السليمة على الأقل. إذ لا تجهل الشعوب التي تعيش عارية تماماً، ما ندعوه بالحياء، بل يوسعون من حدوده. فيبدو أن الحياء لدى هنود البرازيل، كما في

بعض مناطق ميلانيزيا، لا يقع بين درجتين من كشف للجسم، بل بالأحرى بين السكينة والإثارة.

وعلى كل، فقد كان لهذه التفصيلات أن تؤدي إلى حالات من سوء التفاهم بين الهنود وبيننا، لم نكن نحن ولا هم مسؤولين عنها. وهكذا، كان من الصعب أن يظل المرء غير مكترث بمشهد فتاة جميلة أو اثنتين، وهما تتمرغان في الرمل عاريتين تتلويان كدودتين، وهما تتضاحكان. وعندما كنت أذهب إلى النهر للاستحمام، كان يتملكني الارتباك نتيجة لهجوم نصف دزينة من النساء من كل الأعمار، همهن الوحيد انتزاع قطعة الصابون مني التي كن مولعات بها. وكانت هذه الحرية تمتد إلى كل مجريات الحياة اليومية؛ إذ لم يكن من النادر أن أضطر للرضى بأرجوحة نوم محمرة، لأن إحدى الأهالي نامت القيلولة فيها، بعد أن طلت جسمها بالأوروكو؛ أو أشعر أحياناً بيد تجذب طرف قميصي، بينما أكون جالساً أعمل وسط حلقة من المخبرين، كانت لامرأة وجدت من الأبسط أن تتمخط فيه عوضاً عن الذهاب لالتقاط الغصن الطري المطوي كالملقط، الذي يستعمل لهذه الغاية عادة.

وحتى نفهم جيداً موقف أحد الجنسين تجاه الآخر، لا بد أن يبقى الطابع الأساسي للزوجية لدى النامبيكوارا حاضراً في أذهاننا؛ لأن الزوجية هي الوحدة الاقتصادية والنفسية بامتياز. فبين هذه الجماعات المترحلة، التي تتجمع وتتفرق من دون انقطاع، تظهر الزوجية واقعاً ثابتاً (نظرياً على الأقل)؛ وهي وحدها التي تسمح بضمان البقاء لأعضائها. ذلك لأن النامبيكوارا، يعيشون في ظل اقتصاد مزدوج، يقوم على صيادين وبستانيين من جهة، وعلى جامعين وملقطين من جهة أخرى. الأول منوط بالرجل، وتقوم المرأة بالثاني. إذ بينما يمضي الرجال يوماً بطوله للصيد، مسلحين بالقسي والسهام، أو يعملون في البساتين أثناء فصل الأمطار؛ تتجول النساء وبأيديهن العصي مع الأطفال عبر السبسب، يلقطن ويقتلعن ويصرعن ويصدن، جامعات في طريقهن كل ما قد يستعمل غذاءً: كالحبوب والفاكهة والجذور والدرن، والحيوانات الصغيرة من كل نوع؛

ليجتمع الزوجان آخر النهار حول النار. وطالما بقي من المانيوق الناضج، يجلب الرجل حملاً من الجذور التي تبشرها المرأة وتعصرها، لتصنع منها فطائر؛ وإذا ما كان الصيد مثمراً، تشوى قطع الطريدة سريعاً بدفنها تحت الرماد الحار للنار العائلية. لكن المانيوق نادر خلال سبعة أشهر في السنة، أما القنص فخاضع للحظ في هذه الرمال المجدبة، حيث لا تغادر الطرائد القليلة ظل ومراعي الينابيع، التي يبعد كل منها عن الآخر بمساحات شاسعة من سهول شبه صحراوية. ولهذا، على الأسرة أن تعتمد في بقائها على ما تلتقطه المرأة.

كثيراً ما شاركتُ الأهالي وجبات عشائهم الشيطانية تلك، التي تشكل خلال نصف السنة، للنامبيكوارا، أملهم الوحيد بأن لا يموتوا جوعاً. فعندما يعود الرجل صامتاً متعباً، ويلقي جانباً بقوس وسهام بقيت دون استعمال، تخرج المرأة من سلها تشكيلة تثير الشفقة من بعض الثمار البرتقالية لنخيل البوريتي، وزوج من العناكب السامة، وبعض من بيوض السحالي مع عدد من الزواحف، ووطواط، وبعض من جوز النخيل، وحفنة من الجراد؛ وتسحق الثمار ذات اللب بالأيدي في إناء من القرع المجفف، ويكسر الجوز بالحجارة، وتدفن الحيوانات واليرقات معاً في الرماد، ثم تلتهم بابتهاج هذه الوجبة التي لا تكفي لسد جوع رجل أبيض، لكنها هنا تقيم أود أسرة بكاملها.

ليس لدى النامبيكوارا سوى كلمة واحدة للتعبير عن جميل وشاب، وأخرى للتعبير عن قبيح وعجوز. فأحكامهم الجمالية مؤسسة في المقام الأول على قيم إنسانية وبخاصة جنسية. لكن الاهتمام الذي يتجلى بين الجنسين ذو طبيعة معقدة. ذلك لأن الرجال يحكمون على النساء حكماً كلياً، باعتبارهن مختلفات بعض الشيء عنهم؛ ويعاملوهن على حسب الحالة، إما باشتهاء وإعجاب، وإما بمودة؛ ويشكل التباس الكلمات المشار إليها آنفاً إطراء بحد ذاته. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن التقسيم الجنسي للعمل يوكل للمرأة مهمة رئيسية (باعتبار أن بقاء الأسرة يعتمد إلى حد كبير على القطاف والتلقيط النسائيين) إلا أن هذه المهمة، تمثل نمطاً

متدنياً من النشاط؛ إذ تُتصور الحياة المثالية في الإنتاج الزراعي أو الصيد، فإنتاج الكثير من المانيوق واصطياد الطرائد الكبيرة حلم، يداعب خيال الأهالي، على ندرة تحقيقه؛ بينما يعتبر الخليط الذي يجمع بشتى المجازفات، البؤس اليومي - وهو كذلك بالفعل. فعبارة «أكل الجراد» في فولكلور النامبيكوارا، وهو محصول نسائي، يعادله بالفرنسية «أكل البقرة المسعورة». وبالتوازي مع هذا، ينظر إلى المرأة كمتاع غض ونفيس، ولكن من المرتبة الثانية. ومن اللائق بين الرجال، التحدث عن النساء بحفاوة عطوفة، والتكلم معهن بتسامح يشوبه شيء من التهكم. إذ كثيراً ما تتردد على ألسنتهم بعض العبارات من مثل: «إن الأطفال لا يعلمون، أنا أعلم، والنساء لا يعلمن»، ويتعرضون للنساء ومداعباتهن وأحاديثهن بلهجة هازئة وحانية. وما هذا الموقف إلا موقف اجتماعي؛ لأن الرجل عندما ينفرد بامرأته حول نار المخيم، سيستمع إلى شكواها، ويستجيب لطلباتها، ملتمساً عونها في شتى المهام، ويختفي التبجح الذكوري أمام تعاون شريكين واعيين بقيمة كل منهما لدى الآخر.

إن التباس موقف الرجال هذا حيال النساء، له ما يماثله بالضبط في السلوك المتناقض للنساء. فهن يفكرن بأنفسهن كجماعة، ويبدين ذلك بطرق عدة، وقد رأينا أنهن لا يتكلمن بأسلوب الرجال ذاته. وهذا يصدق على الشابات بخاصة، اللواتي لم ينجبن أطفالاً بعد، وعلى الخليلات. أما الأمهات والمسنات فلا يبدين هذه الفروق كثيراً، على الرغم من وجودها لديهن في المناسبات. والشابات، فضلاً عن ذلك، يحببن صحبة الأطفال والمراهقين، ويلعبن ويتمازحن معهم؛ والنساء هن اللواتي يعتنين بالحيوانات، بهذا الأسلوب الإنساني الخاص ببعض هنود أمريكا الجنوبية. يسهم كل هذا في خلق جو خاص حول النساء داخل الجماعة، يتميز بكونه صبيانياً ومرحاً، متكلفاً ومثيراً، يشترك فيه الرجال عندما يعودون من القنص أو من البساتين.

لكن موقفاً آخر يتجلى لدى النساء، عند تصديهن لأحد المناشط المنوطة بهن خاصة. إذ ينجزن مهماتهن الحرفية بمهارة وصبر في المخيم

الصامت، وهن جالسات في حلقة، تدير كل منهن ظهرها للأخرى؛ أو أثناء السفر، عندما يحملن بشجاعة سلهن الثقيل المحتوي على مؤونة وثروة كل العائلة، مع حزمة السهام؛ بينما يسير الرجل في المقدمة بقوسه وسهم أو اثنين، وحربة خشبية أو عصا، مترقباً فرار حيوان أو شجرة ذات ثمار. فتُرى هؤلاء النساء عندئذ، وجباههن معصوبة بعصابة الحَمل، تغطي ظهورهن السلال بشكل جرس مقلوب، يمشين كيلو مترات بخطواتهن المميزة: الفخذان متلازان، والركبتان مضمومتان، والكاحلان متباعدان، والقدمان إلى الداخل، يعتمدن على الطرف الخارجي للقدم، وهن يهززن أردافهن، مفعمات بالهمة والنشاط والمرح.

هذا التباين بين المواقف النفسية والوظائف الاقتصادية، نجده ذاته على الصعيد الديني والفلسفي. إذ إن العلاقات بين الرجال والنساء، لدى النامبيكوارا، ترجع إلى القطبين اللذين ينتظم حولهما وجودهم: فمن جهة، حياة الاستقرار الزراعية القائمة على النشاط الذكوري المزدوج في بناء الأكواخ والبستنة، ومن الجهة الأخرى فترة الترحل التي يؤمن البقاء خلالها أساساً من خلال القطاف والتلقيط الأنثويين؛ الأولى تمثل الأمان والوفرة الغذائية، والثانية المغامرة والمجاعة، ويتصرف النامبيكوارا حيال هذين الشكلين للحياة، الصيفي والشتوي، تصرفات شديدة الاختلاف. إذ يتحدثون عن الأول بلهجة الحزن الذي يصاحب الاستسلام الواعي للشرط الإنساني، والتكرار الممل للأفعال ذاتها؛ بينما يصورون الآخر باهتياج وبلهجة الاكتشاف الحماسية.

ومع ذلك، فإن مفهوماتهم الميتافيزيقية تقلب هذه العلاقات. إذ تتجسد أرواح الرجال في الفهود؛ أما أرواح النساء والأطفال فتحمل إلى الجو، حيث تتبدد إلى الأبد. ويفسر هذا التمييز لِمَ تُمنع على النساء الطقوس الأكثر قدسية التي تقوم في بداية الفترة الزراعية، على صنع مزامير صغيرة من الخيزران «تُغذى» بالقرابين ويعزف الرجال عليها، بعيداً عن الأكواخ حتى لا تتمكن النساء من رؤيتها.

ومع أن الفصل لم يكن ملائماً، كنت شديد الرغبة بسماع المزامير،

والحصول على بعض منها فمضت مجموعة من الرجال، استجابة لإلحاحي، في رحلة لأن الخيزران الغليظ لا ينبت إلا في الغابة البعيدة. وبعد ثلاثة أو أربعة أيام، أوقظت من نومي في منتصف الليل، لأجد أن المكلفين بالمهمة، انتظروا حتى تنام النساء. واصطحبوني مائة متر بعيداً عن المخيم، حيث انهمكوا في صنع المزامير ثم العزف عليها. وقد كانوا أربعة ينفخون مجتمعين، ولكن بما أن أصوات الآلات لم تكن متماثلة تماماً، كان لدي شعور بأن هناك خللاً في التناغم. كان اللحن مختلفاً عن أغاني النامبيكوارا التي اعتدت عليها، وتذكّر بأغانينا الحَلَقية الريفية التي ينشدها عدة أشخاص أو جماعات بعضهم إثر بعض؛ ومختلفاً أيضاً عن النداءات الحادة الصادرة عن الأوكارينا ذات الثقوب الثلاثة، التي تصنع من قطعتين من القرع المجفف تلصقان بالشمع. بينما كانت الألحان المعزوفة على المزامير، المقتصرة على بعض النوتات، تتميز بتلون وتنويعات في الإيقاع، فيها قرابة مدهشة من بعض مقاطع (تتويج الربيع)، ولاسيما تنغيمات الآلات الخشبية في الجزء المسمى «عمل الأسلاف الطقوسي». وما كان لامرأة أن تخاطر بالحضور، ذلك لأن مصير الفضولية أو المتهورة أن تصرع. إذ إن لعنة ميتافيزيقية حقيقية ترين على العنصر الأنثوي، على غرار ماهو موجود لدى البورورو؛ لكن نساء النامبيكوارا، على عكس نساء البورورو، لايتمتعن بوضعية قانونية متميزة (مع ما يبدو لدى النامبيكوارا، من أن البنوة تنتقل من ذرية الأمهات). ففي مجتمع قليل التنظيم كهذا، تظل هذه النزعات مضمرة، ويتم تبينها بالأحرى، انطلاقاً من سلوكات منتشرة ومتباينة.

يستذكر الرجال بالحنو ذاته الذي يلاطفون به زوجاتهم، نمط الحياة الذي يطبعه المأوى المؤقت، والسَل الدائم الذي تستخرج منه وسائل البقاء الأكثر غرابة، وتلقط وتجمع يوماً بيوم، في حياة عرضة للريح والبرد والمطر، لا تترك من أثر أكثر من أثر الأرواح، التي تبعثرها الرياح والعواصف، للنساء اللائي على كدهن تعتمد تلك الحياة أساساً. وينظرون إلى الحياة المستقرة من وجهة نظر أخرى تماماً، (يشهد على طابعها

النوعي والقديم، الأنواع الأصيلة التي يزرعونها) يمنحها التعاقب الثابت للعمليات الزراعية، الخلود ذاته للأرواح المذكرة والمتجسدة، وبيت الصيف الدائم، والأرض الزراعية التي ستستعيد الحياة والإنتاج «عندما يكون موت مستغلها السابق قد نسي».

فهل ينبغي تفسير التقلب العجيب الذي يبديه النامبيكوارا بالطريقة نفسها؛ إذ ينتقلون سريعاً من المودة إلى العداء؟ والذي أوقع الملاحظين القلائل الذين اقتربوا منهم في الحيرة. فقد كانت مجموعة أوتياريتي هي التي قتلت المبشرين، قبل خمس سنوات. وكان المخبرون الذكور يصفون الهجوم بتساهل، ويتنازعون شرف مَنْ وجّه أفضل الضربات. والحق أنني لا أستطيع مؤاخذتهم على ذلك. فقد عرفت كثيراً من المبشرين، وأدركت قيمة بعضهم الإنسانية والعلمية. لكن البعثات البروتستانتية الأمريكية التي كانت تسعى إلى دخول الماتوغروسو في ١٩٣٠، تنتمي إلى نوع خاص؛ إذ كان أعضاؤها يتحدرون من أسر فلاحية في نبراسكا أو داكوتا، حيث كان المراهقون يربون على الاعتقاد الحرفي بجهنم وقدور الزيت المغلي. وكان بعضهم يتجه للتبشير، كأنه يتعاقد على شهادة تأمين. وباطمئنانهم هكذا على خلاصهم، كانوا يظنون بأنه ليس عليهم ما يفعلونه ليستحقوها؛ ويُبدون أثناء قيامهم بمهمتهم قسوة ولا إنسانية تثير السخط.

كيف أمكن حصول الحادث الذي أدى إلى المذبحة؟ لقد عانيت ذلك أنا نفسي، بمناسبة عمل طائش كاد يكلفني غالياً. إذ إن لدى النامبيكوارا معارف في علم السموم، ويصنعون الكورار لسهامهم، انطلاقاً من منقوع القشرة الحمراء التي تكسو بعض جذور الستريكنوز الذي يغلونه على النار حتى يكتسب قوام العجينة؛ ويستعملون سموماً نباتية أخرى يحملها كل منهم معه بشكل مسحوق، يحفظ في أنابيب من الريش أو الخيزران، ملفوفة بخيوط من القطن أو اللحاء. وتستخدم هذه السموم لثارات تجارية أو غرامية، سأعود إليها.

ولدى النامبيكوارا، بالإضافة إلى هذه السموم ذات الطابع العلمي،

التي يهيئها الأهالي علناً دون أية احتياطات أو تعقيدات سحرية تصاحب صنع الكوارا في الشمال، سموم أخرى ذات طبيعة خفية. ففي أنابيب مماثلة لتلك المحتوية على السم الحقيقي، يجمعون جزيئات راتنجية، تفرزها شجرة من نوع البومباكس، ينتفخ جذعها في جزئه الأوسط، ويعتقدون أنهم بإلقاء جزيء منها على خصم، سيؤدون به إلى حالة تشبه الشجرة، فيتورم الضحية ويموت. والنامبيكوارا يستعملون كلمة واحدة سواء تعلق الأمر بسموم أم بمواد سحرية هي: نانديه. وتتجاوز هذه الكلمة إذاً المعنى الضيق المتصل بالسموم، وتتضمن كل فعل فيه تهديد، كما تتضمن المواد أو الأشياء التي من شأنها أن تستعمل في مثل هذه الأفعال.

كانت هذه الشروح ضرورية لفهم مايلي. فقد جلبت في أمتعتي بعضاً من هذه البالونات الكبيرة الملونة المصنوعة من ورق الحرير، التي تُملأ بالهواء الساخن بتعليق شعلة في قاعدتها، وتطلق بالمئات في البرازيل بمناسبة عيد القديس يوحنا. خطرت لي الفكرة التي في غير محلها، في إحدى الأمسيات، بأن أعرض المشهد على الأهالي. فأثار البالون الأول الذي احترق على الأرض ضحكاً وصخباً، وكأن لدى المشاهدين أقل علم بما كان يجب أن يحدث. لكن الثاني نجح نجاحاً باهراً، مرتفعاً بسرعة إلى درجة اختلطت معها شعلته بالنجوم، وحوم فوقنا طويلاً ثم اختفى. لكن مرح البداية زال، وحلت محله مشاعر أخرى: إذ كان الرجال ينظرون بانتباه وعداء، وأخذت النساء يخبئن رؤوسهن بين أيديهن ويحتمين بعضهن ببعضن رعباً. وفي صباح الغد، جاءني وفد من الرجال، يطلبون تفحص البالونات «لمعرفة فيما إذا لم يكن فيها نانديه». وجرى الفحص بدقة؛ وبفضل فكر النامبيكوارا الوضعي الملحوظ (على الرغم مما قيل آنفاً) حاز العرض العملي لقدرة الهواء الساخن التصاعدية ذلك العرض الذي قدمته بوساطة نتف من الورق نثرتها فوق النار، على قبولهم إن لم أقل فهمهم. وكالعادة حين يتعلق الأمر بتبرير حادثة، فقد حُمّلت النساء المسؤولية «فهن لا يفهمن شيئاً»، «ملأ الخوف قلوبهن»، ويتخوفن من

شتى المصائب. لم يكن لدي أدنى شك في أن الأمور، كان يمكن لها أن تنتهي نهاية سيئة. ومع ذلك، فإن هذا الحادث وغيره من الحوادث التي سأتعرض لها فيما بعد، لم يكن لها أدنى تأثير على الصداقة الحميمة التي أنشأتها الإقامة الطويلة مع النامبيكوارا. ولذا، كم كان انزعاجي كبيراً لدى قراءتي من مدة قريبة، لزميل أجنبي، سرداً للقائه مع زمرة الأهالي نفسها التي شاطرتها المعيشة في أوتياريتي، قبل عشر سنوات من زيارته لها. فعندما توجه إليها في ١٩٤٩، وجد ارساليتين تبشيريتين: اليسوعيين الذين تحدثت عنهم، ومبشرين أمريكيين بروستانتيين. ولم يعد الأهالي يعدون إلا ثمانية عشر فرداً، يقول مؤلفنا فيهم التالي:

«من الهنود الذين رأيتهم في ماتوغروسو، تجمع هذه الزمرة الأكثر بؤساً. فمن بين ثمانية رجال، كان واحداً مصاباً بالزهري، وآخر جنبه خَمِج، وثالث مجروح في القدم، ورابع كان جسمه مغطى من رأسه إلى قدمه بمرض جلدي قشري، وكان ثمة أصم أبكم بينهم، مع أن النساء والأطفال بصحة جيدة كما يبدو. ونظراً لأنهم لا يستعملون أرجوحة النوم، وينامون على الأرض، فأجسامهم مغطاة بالتراب دائماً. وعندما تكون الليالي باردة، يبعثرون النار وينامون على الرماد الساخن ... لا يرتدون الملابس إلا عندما يعطيهم المبشرون منها ويأمرونهم بارتدائها. ولا يسمح نفورهم من الاغتسال بتكوين طبقة من الغبار والرماد على جلودهم وشعورهم وحسب، بل توجد على أجسامهم نتف منتنة من اللحم والسمك، تضيف رائحتها إلى رائحة العرق الحامضة، جاعلة الاقتراب منهم مثيراً للاشمئزاز. ويبدو أنهم مصابون بطفيليات معوية تؤدي بمعدهم إلى النفخة، فلا ينقطعون عن إطلاق الريح، مما اضطرني عدة مرات، وأنا أعمل مع أهالٍ محتشدين في غرفة صغيرة، للتوقف من أجل التهوية.»

. . . .

«النامبيكوارا .. مشاكسون وغير مهذبين إلى درجة الفظاظة. فعندما كنت أزور جوليو في مخيمه، كنت غالباً ما أجده متمدداً قرب النار؛ لكنه ما إن يراني أقترب، حتى يدير لي ظهره مصرحاً

بأنه لا يرغب في رؤيتي. وقد روى لي المبشرون بأن أحد النامبيكوارا يطلب إعطاءه شيئاً عدة مرات، لكنه في حالة الرفض يحاول الاستيلاء عليه. وحتى يمنعوا الهنود من الدخول، كانوا يغلقون أحياناً ساتر الأوراق الذي يستعمل باباً، لكن إذا أراد أحد من النامبيكوارا الدخول، خرق هذا الحاجز، ليفتح له ممراً».

«ليس من الضروري المكوث عند النامبيكوارا طويلاً، حتى يشعر المرء بعواطف الكراهية العميقة والريبة واليأس لديهم، التي تُحدث لدى الملاحظ حالة من القنوط لا تخلو من تعاطف(*)»

(*) ك أوبيرغ «القبائل الهندية في شمال ماتوغروسو، البرازيل» واشنطن ١٩٥٣، ص٨٤-٨٥.

. . . .

أما أنا، وقد عرفتهم في زمن كانت الأمراض التي أدخلها الرجل الأبيض، أهلكت القسم الأكبر منهم، ولكن لم يحاول أحد - منذ محاولات روندون، التي تبقى إنسانية- إخضاعهم، فأودُّ نسيان هذا الوصف المحزن، ولا أحفظ في ذاكرتي سوى هذه الصورة المنسوخة عن دفاتر ملاحظاتي، حيث كتبت في إحدى الليالي على ضوء مصباح جيب:

«في السبسب المعتم، تتألق نار المخيم. وحول الموقد الذي يشكل الحماية الوحيدة ضد البرد النازل، ووراء الستار الهش من سعف النخيل والأغصان، المغروز في الأرض على عجل في الجانب الذي يُخشى منه الريح أو المطر؛ وبقرب الأكواخ المليئة بأشياء بائسة، تكون كل ثرواتهم الدنيوية؛ ينام الأزواج على الأرض الممتدة من حولهم، يلاحقهم الخوف من جماعات مثلهم معادية ووجلة. وقد تعانقوا بقوة، وكل منهم يرى في الآخر السند والسلوى والملاذ الوحيد، من المصائب اليومية والكآبة الحالمة التي تجتاح روح النامبيكورار من وقت لآخر. إن الزائر الذي يخيم لأول مرة في الأدغال مع الهنود، يشعر بقلق وشفقة يتملكانه حيال مشهد هذه البشرية البائسة تماماً، المسحوقة كما يبدو على تربة أرض معادية لا ترحم، عارية ترتعش بقرب النار المضطربة. إنه يمشي بحذر بين الأعشاب،

متجنباً الإصطدام بيد أو ذراع أو جذع، يلمح انعكاس ضوء النيران عليها. لكن هذا البؤس حي بالهمسات والضحكات. ويحضن الأزواج بعضهم بعضاً، كأنما تشوقاً إلى وحدة مفقودة؛ ولا تتوقف المداعبات عند مرور الغريب. يشعر المرء بأن لدى الجميع لطفاً بدون حدود، ولامبالاة متأصلة، ورضى حيواني ساذج، تجتمع على اختلافها لتشكل التعبير الأكثر تأثيراً وصدقاً عن الحنان الإنساني.»

درس في الكتابة

28 كنت أتمنى، ولو بصورة غير مباشرة على الأقل، الوقوف على العدد التقريبي للسكان النامبيكوارا. فقد قدره روندون في ١٩١٥، بعشرين ألفاً، وهو رقم مبالغ فيه على الأرجح؛ لكن جماعاتهم في تلك الحقبة كانت تبلغ عدة مئات لكل منها. وتوحي المعلومات المستقاة على الخط بتناقص سريع: إذ كانت الفئة المعروفة من مجموعة السابانيه تتضمن، منذ ثلاثين عاماً، أكثر من ألف نسمة؛ وعندما زارت المجموعة محطة كامبوس نوفوس البرقية في ١٩٢٨، أحصي مائة وسبعة وعشرون رجلاً، زيادة على النساء والأطفال. إلا أن بوادر وباء الأنفلونزا ظهرت في ١٩٢٩، بينما كانت المجموعة مخيمة في المكان المسمى اسبيرّو، وتطور المرض إلى شكل وزمة رئوية، فمات ثلاثمائة من الأهالي في ظرف ثمان وأربعين ساعة. وتشتت المجموعة تاركة وراءها المرضى والمحتضرين. ولم يبق من الألف السابانيه إلا تسعة عشر رجلاً في ١٩٣٨، مع نسائهم وأطفالهم. ولتفسير هذه الأرقام، ينبغي ربما إضافة الحرب، التي نشبت بين السابانيه وبعض جيرانهم الشرقيين، إلى الوباء. لكن مجموعة كبيرة كانت تقيم قريباً من تريس بوريتيس، قضت الأنفلونزا عليها في ١٩٢٧، إلا ستة أشخاص أو سبعة، بقي منهم ثلاثة على قيد الحياة حتى العام ١٩٣٨. كما أن مجموعة التارونده، التي كانت الأكثر عدداً، لم يبق منها سوى اثني عشر رجلاً (زيادة على الأطفال والنساء) في ١٩٣٦؛ بقي منهم أربعة على قيد الحياة في ١٩٣٩.

فما عددهم الآن؟ ليس أكثر من ألفين، مبعثرين ولاشك عبر الأراضي. وما كان لي أن أفكر في إحصاء منظم، نظراً للعدائية المستحكمة لبعض المجموعات، وحراك كل الفئات إثناء فترة الترحل. لكنني كنت أسعى

لإقناع أصدقائي في أوتياريتي باصطحابي إلى قريتهم، بعدما ينظمون نوعاً من الموعد مع فئات أخرى، تربطهم بالفئة صلة قرابة أو تحالف؛ وبذلك سأتمكن من تقدير الأبعاد الحالية للتجمع، وموازنتها بالقيمة النسبية مع التجمعات التي لوحظت سابقاً. كان رئيس الفئة متردداً: إذ لم يكن مطمئناً من جهة مدعويه، ومما إذا كنا أنا ورفاقي لن نقتل في هذه المنطقة، التي لم يلجها رجل أبيض منذ مقتل عمال الخط البرقي السبعة في ١٩٢٥، ومن أن السلام الهش الذي يسودها، لن يتعرض للضرر لوقت طويل.

إلا أنه قبل أخيراً، بشرط أن ننقص من معداتنا: فلن نأخذ سوى أربعة ثيران لحمل الهدايا. وعلينا، حتى في هذه الظروف، عدم سلوك الدرب المعتاد في قيعان الأودية المزدحمة بالنباتات، حيث لا تمر الحيوانات، بل السير عبر الهضبة متبعين خط سير مرتجل على حسب الظروف.

كانت هذه الرحلة مجازفة، لكنها تبدو لي اليوم مثيرة للضحك. فما إن غادرنا جوروينا، حتى لاحظ رفيقي البرازيلي غياب النساء والأطفال: فالرجال فقط كانوا يرافقوننا، مسلحين بالقسي والسهام. ويعني هذا، في أدب الرحلات، هجوماً منتظراً؛ وكنا نتقدم إذاً، ونحن نَهَب لعواطف متضاربة، نتفقد من وقت لآخر مسدساتنا سميث وويسون وبنادقنا. لكن خشيتنا كانت دون أساس: إذ وجدنا بقية الفئة عند الظهيرة، لأن الرئيس المتبصر جعلهم يتقدموننا بالأمس، عالماً بأن بغالنا تسير أسرع من النساء المحملات بسلالهن، اللواتي يزيدهن الأطفال بطئاً.

إلا أن الهنود بعد قليل، ضلوا الطريق مع ذلك، لأن خط السير الجديد كان أكثر صعوبة مما تخيلوا. وكان لابد من التوقف مساءً في الأدغال، وكنا وُعدنا بالطرائد، فلم يحمل الأهالي شيئاً معهم، معتمدين على بنادقنا؛ لكننا لم نكن نحمل سوى مؤونة احتياطية، كان مستحيلاً تقسيمها بين الجميع. وعنَّ على البعد قطيع من الأيائل، كان يرعى على ضفة نبع، لكنه فر عند اقترابنا منه. وكان الاستياء في صباح الغد عاماً من الرئيس

الذي اعتبر مسؤولاً عن ورطة دبرتها معه. وعوضاً عن الشروع في رحلة صيد أو قطاف، قرر الجميع النوم في الظل، تاركين للرئيس مهمة العثور على حل للمشكلة. فاختفى بصحبة إحدى نسائه، ليعودا في المساء بسل مليء بالجراد، الذي قضيا النهار بطوله في تلقيطه. ومع أن معجون الجراد لم يكن طعاماً مفضلاً، إلا أن الجميع أكلوه بشهية، مستعيدين مرحهم. وتابعنا السفر في الغد.

وبلغنا أخيراً مكان الموعد، وكان شرفة رملية تطل على مجرى مائي محفوف بأشجار تعشش بينها بساتين الأهالي. وأخذت المجموعات بالوصول على فترات، فبلغ عددها في المساء خمسة وسبعين شخصاً، يمثلون سبع عشرة عائلة متجمعين في ثلاثة عشر بيتاً، ليست أكثر متانة من بيوت المخيم إلا قليلاً. وقد أوضحوا لي أن كل هؤلاء الناس، يتوزعون عند المطر إلى خمسة أكواخ دائرية مبنية لتدوم عدة أشهر. وكان يبدو أن بعض الأهالي، لم يروا أبيض قط؛ ويوحي استقبالهم الجاف وعصبيتهم البادية، بأن الرئيس كان غصبهم نوعاً ما. لم نكن مطمئنين إذاً, ولا الهنود أيضاً؛ ولأننا لم نجد أشجاراً نعلق عليها أراجيح النوم، اضطررنا للنوم على الأرض، على طريقة النامبيكوارا. إلا أننا لم ننم؛ وقضينا الليل يراقب كل منا الآخر بأدب.

وبما أنه لم يكن من الحكمة، إطالة أمد المغامرة؛ فقد ألححت على الرئيس لإجراء عملية التبادل دون تأخير. إلا أن حادثاً غريباً جرى، يضطرني للرجوع قليلاً إلى الوراء، فمن المعلوم أن النامبيكوارا لا يعرفون الكتابة، ولايرسمون أيضاً إلا بعض الخطوط النقطية أو المنكسرة على قراعهم. وكنت أوزع، كما فعلت لدى الكادوفيو، مع ذلك أوراقاً وأقلاماً، لم يفعلوا بها شيئاً في البداية؛ ثم رأيتهم يوماً منهمكين جميعاً في رسم خطوط على الورق أفقية متموجة. فما الذي كانوا يبغون فعله؟ وكان علي أن أقبل حقيقة أنهم كانوا يكتبون أو يحاولون بالأصح استعمال أقلامهم كما أفعل، لأنني لم أكن حاولت أن أسليهم برسومي بعد. وتوقفت المحاولات عند هذا الحد لدى الأكثرية؛ لكن الرئيس كان أبعد نظراً. إذ

كان الوحيد الذي فهم وظيفة الكتابة. ولذا طلب مني دفتراً، فصرنا متماثلين في الأدوات عندما نعمل معاً. ولم يعد يطلعني شفاهياً على المعلومات التي أطلبها منه، بل يخط على الورقة خطوطاً متعرجة ويقدمها إلي، وكأنما علي قراءة إجابته. وكان هو نفسه نصف مخدوع بتمثيليته؛ فما أن يخط خطاً، حتى يتفحصه بقلق، وكأن على المعنى أن ينبثق منه، وتبدو على وجهه إمارات الخيبة. لكنه لا يقتنع بذلك، وتفاهمنا ضمنياً على أن لطلاسمه معنى، كنت أتظاهر بفك رموزه، لكن الشروح الشفاهية كانت تتلو ذلك في الحال، وتعفيني من طلب الإيضاحات اللازمة.

إلا أن الرئيس، ما إن جمع كل جماعته حتى أخرج من سلة ورقة مملوءة بخطوط ملتوية، وأخذ يتظاهر بقراءتها، وهو يتلمس بتردد متصنع قائمة الأشياء التي علي إعطاؤهم لها، في مقابل الهدايا المقدمة لي: فلهذا سيف لاقتلاع الجذور، مقابل قوس وسهام! ولذاك لآلئ! نظير عقوده .. واستمرت هذه المسرحية ساعتين، ماذا كان مقصوده؟ أن يخدع نفسه ربما، أو بالأحرى إبهار أصحابه، وإقناعهم بأن البضاعة كانت تمر بوساطته، وأنه حليف للأبيض ويشاركه أسراره. كنا متلهفين للمغادرة، بما أن اللحظة الحرجة بالطبع هي لحظة انتقال الروائع التي جلبتها إلى أيد أخرى، ولذلك لم أسع للتعمق في الحادث، وقفلنا عائدين، والهنود أدلاؤنا دائماً.

أدت زيارتنا الخائبة، والخديعة التي كنت أداتها على غير إرادة مني إلى جو مقبض، علاوة على أن بغلي كان مصاباً بالقلاع وفمه يؤلمه. فكان يتسرع في مشيه، أو يتوقف فجأة، فتشاحنا. ودون أن أنتبه، وجدت نفسي وحيداً في الأدغال، فاقداً الاتجاه.

ما العمل؟ إخطار الجماعة بطلقة بندقية كما يروى في الكتب. وأترجل عن مطيتي وأطلق، ولكن لا مجيب. وبدا لي عند الطلقة الثانية أن ثمة رداً. وأطلق ثالثة أدت إلى إفزاع البغل فمضى مبرطعاً، وتوقف على مسافة مني. وأنزع عني بانتظام، أسلحتي ومعدات التصوير، وأضعها في أصل شجرة علّمت موضعها. وأركض عندئذ لاستعادة البغل الذي

ألمحه وقد رانت السكينة عليه. فتركني أقترب منه، وفي اللحظة التي أوشكت أن أقبض فيها على عنانه، أعاد الكرة مرات عدة، وأنا ألحق به. وتسرب اليأس إلى نفسي فقفزت وتعلقت بكلتا يدي بذيله؛ فما كان منه وقد دهش من هذا الأسلوب غير المألوف، إلا التخلي عن محاولاته للهروب، فامتطيته واتجهت للبحث عن معداتي، لكنني لكثرة ما فتلنا عجزت عن العثور عليها.

شرعت، وقد ثبطت همتي بهذا الفقد، بالبحث عن رفاقي. بيد أنه لا البغل ولا أنا، كنا نعلم مكانهم. فكنت أقرر الاتجاه حينا إلى جهة يطيعني البغل فيه على مضض، وحيناً آخر أترك له الرسن على عنقه فيراوح مكانه. وأخذت الشمس تميل إلى المغيب، وليس معي سلاح، وكنت انتظر طوال الوقت رشقة من السهام. إذ ربما لم اكن الأول الذي يلج هذه المنطقة العدائية، لكن ما من أحد من سابقيَّ عاد منها؛ وحتى لو وضعت نفسي جانباً، فإن بغلي يمثل فريسة جد مرغوبة لأناس ليس لديهم الكثير مما يقتاتون به. وكنت وأنا أقلّب في فكري هذه الهواجس الكئيبة، أترقب لحظة غروب الشمس، ناوياً إشعال حريق في الأدغال، لأن لدي أعواد ثقاب على الأقل. لكنني قبل أن أشرع بتنفيذ ما عزمت عليه، سمعت أصواتاً كانت لاثنين من النامبيكوارا، عادا أدراجهما عندما انتبها لغيابي، واقتفيا آثاري منذ الظهيرة؛ ولم يكن العثور على أمتعتي بالنسبة لهما أكثر من لعبة أطفال. فاصطحباني في الليل إلى المخيم، حيث كان الرفاق بالانتظار.

ونظراً لاستمرار اضطرابي من هذا الحادث السخيف، لم أنم جيداً؛ وأخذت أتشاغل عن الأرق باستعادة مشهد المقايضة. إذ ظهرت الكتابة إذاً لدى النامبيكوارا، لكن ليس كما قد يتبادر إلى الذهن، نتيجة لتعلم جاد. فقد تمت استعارة رمزها، بينما ظلت حقيقتها غريبة، لغاية اجتماعية أكثر منها فكرية. ولم يكن المقصود هو المعرفة والحفظ والفهم، بل زيادة الهيبة والسلطة لفرد -أو وظيفة- على حساب الغير. وبهذا اكتشف أحد أهالي العصر الحجري، أن وسيلة الفهم العظمى، حتى إذا لم تُفهم،

يمكن لها أن تستخدم لغايات أخرى.

وعلى كل، فطوال آلاف من السنين، وحتى الآن في جزء كبير من العالم، وجدت الكتابة كمؤسسة في مجتمعات لا يستطيع أفرادها في أغلبيتهم ممارستها. والقرى التي أقمت بها في تلال شيتاغونغ بباكستان الشرقية(*) مأهولة بالأميين، إلا أن لكل منهم كاتبه الخاص، الذي يقوم بوظيفته إزاء الأفراد والجماعة. ويعرف الجميع الكتابة، ويستعملونها عند الحاجة، لكن من الخارج وكوسيط أجنبي، والحال أنه من النادر أن يكون الكاتب موظفاً أو مستخدماً لدى الجماعة: إذ إن علمه مقترن بالسلطة إلى حد أن الفرد نفسه يجمع غالباً وظيفتي الكاتب والمرابي: ليس فقط لاحتياجه القراءة والكتابة لمزاولة مهنته، بل لأنه بتمتعه بصفة مزدوجة، يصبح المسيطر على الآخرين.

(*) باكستان الشرقية هي بنغلاديش اليوم (المترجم)

إنها شيء غريب الكتابة. إذ يبدو أن ظهورها حتَّم تغيرات عميقة في شروط الوجود الإنساني؛ وأن هذه التحولات كانت من طبيعة فكرية. فامتلاك الكتابة يضاعف قدرة بني الإنسان في الحفاظ على معارفهم. ويُنظر إليها كذاكرة اصطناعية، ينبغي أن تقترن تنميتها بوعي أفضل بالماضي، وبالتالي بكفاءة أكبر في تنظيم الحاضر والمستقبل. وبعد استبعاد كل المعايير المقترحة للتمييز بين البربرية والحضارة، يود الكثيرون استبقاء هذا المعيار: شعوب تعرف الكتابة، وأخرى دون كتابة؛ فالأولى قادرة على مراكمة المكتسبات القديمة، والتقدم بسرعة أكثر فأكثر إلى الهدف الذي اختطته لنفسها؛ بينما الأخرى، وهي عاجزة عن حفظ ماضٍ أبعد مما تكفي ذاكرة فردية لتثبيته، ستظل حبيسة تاريخ متقلب، يعوزه دائما الأصل والوعي المستدام بالمشروع.

ومع ذلك، فلا شيء مما نعرفه عن الكتابة وعن دورها في التطور، يسوّغ تصوراً كهذا. إذ إن إحدى أكثر المراحل إبداعاً في تاريخ البشرية، تقع إبان قدوم العصر الحجري الحديث المسؤول عن الزراعة وتدجين الحيوانات مع تقنيات أخرى. وللتوصل إلى هذا، كان لابد لآلاف من

السنين، أن تقوم جماعات بشرية بالملاحظة والتجربة ونقل ثمرات أفكارها. وقد جرت هذه المهمة بعزيمة واستمرارية، يشهد عليها نجاحها، في وقت لم تكن الكتابة معروفة بعد. وإذا كانت الكتابة ظهرت بين الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، فعلينا أن نرى فيها نتيجة بعيدة (وغير مباشرة دون شك) لثورة العصر الحجري الحديث، وليس شرطاً لها. ولكن بأي تجديد عظيم يمكن ربطها؟ لا يمكن ذكر سوى العمارة، على الصعيد التقني. لكن عمارة المصريين أو السومريين، لم تكن تفوق إنجازات بعض الأمريكيين الذين يجهلون الكتابة. وفي المقابل، عاش العالم الغربي، منذ اختراع الكتابة وحتى بزوغ العلم الحديث، خمسة آلاف سنة، تقلبت فيها معارفه أكثر مما تزايدت. وكثيراً ما لوحظ أن بين نمطي حياة مواطن يوناني أو روماني، وحياة بورجوازي أوروبي في القرن الثامن عشر، لم يكن هناك كبير اختلاف. إذ خطت البشرية في العصر الحجري الحديث خطوات عملاقة، بدون معونة الكتابة؛ أما مع الكتابة فقد جمدت حضارة الغرب التاريخية زمناً طويلاً. صحيح أنه لا يمكن تصور الازدهار العلمي في القرنين التاسع عشر والعشرين من دون الكتابة. لكن هذا الشرط الضروري بالتأكيد ليس كافياً لتفسير ذاك الازدهار.

فإذا أردنا إذاً إيجاد ارتباط بين الكتابة وبعض السمات المميزة للحضارة، ينبغي توجيه بحثنا إلى اتجاه آخر. إذ إن الظاهرة الوحيدة التي اقترنت بها حقاً، هي تكوين المدن والامبراطوريات؛ أي إدماج عدد كبير من الأفراد ضمن منظومة سياسية، وإخضاعهم لتراتبية الطوائف والطبقات. ذلك هو، على كل حال، التطور النموذجي الذي نلحظه، منذ مصر حتى الصين، حين ظهور الكتابة: إذ يبدو أنها تسهل استغلال بني الإنسان قبل إنارة عقولهم. هذا الاستغلال الذي كان يسمح بتجميع آلاف من العمال لإكراههم على أعمال مضنية، يوضح نشوء العمارة بصورة أفضل من العلاقة المباشرة التي تطرقنا إليها منذ قليل. وإذا كانت فرضيتي صحيحة، ينبغي التسليم بأن الوظيفة الأولية للتواصل المكتوب هي تسهيل الاستعباد. أما استخدام الكتابة لغايات منزهة عن الغرض، بغية الحصول على متع

فكرية وجمالية، فهو نتيجة ثانوية، إن لم يقتصر في الأعم الأغلب على كونه وسيلة لتدعيم وتسويغ أو إخفاء الوظيفة الأخرى. لكن ثمة استثناءات من القاعدة: إذ كان للأهالي في إفريقيا إمبراطوريات تضم الآلاف من الرعايا؛ وكانت إمبراطورية الأنكا، في أمريكا لما قبل كولومبوس، تضم الملايين: لكن هاتين المحاولتين، بدتا في القارتين، غير ثابتتين. فمن المعلوم أن إمبراطورية الأنكا، تأسست في نحو القرن الثاني عشر؛ وما كان لجنود بيزارو بالتأكيد، أن ينتصروا بسهولة لو لم يجدوها، بعد ثلاثة قرون، في أوج تفسخها. ومع قلة علمنا بتاريخ إفريقيا القديم، فنحن نجد وصفاً مماثلاً: إذ كانت كيانات سياسية تولد وتختفي في ظرف بضع عشرات من السنين. ويمكن إذاً لهذين المثالين أن يبرهنا على الفرضية بدلاً من تفنيدها. وإذا لم تكن الكتابة كافية لترسيخ المعارف، فقد كانت ضرورية ربما لتوطيد كل أشكال الهيمنة. لننظر حولنا: إذ يترافق عمل الدول الأوروبية المنظم لصالح التعليم الإلزامي الذي نما خلال القرن التاسع عشر، مع التوسع في الخدمة العسكرية وتزايد العمالة الكادحة. وتختلط محاربة الأمية هكذا بتدعيم رقابة السلطة على المواطنين، ذلك لأن على الجميع معرفة القراءة، حتى تتمكن السلطة من أن تقول: لايفترض الجهل بالقانون من أي كان.

وانتقلت المهمة من الصعيد الوطني إلى الصعيد الدولي، بفضل هذا التواطؤ بين دول فتية- تواجهها المشكلات التي واجهتنا منذ قرن أو قرنين - ومجتمع دولي من الأغنياء، قلق على استقراره من الخطر الذي تمثله ردود أفعال شعوب، لم تدرب بالكلام المكتوب على التفكير بصيغ يمكن تعديلها عند الطلب، ولا على تمكين السلطة منها من أجل جهود البناء. وتصبح هذه الشعوب، بوصولها إلى المعرفة المكدسة في المكتبات، عرضة للأكاذيب التي تنشرها المطبوعات على نطاق واسع أكثر فأكثر. لا شك في أن الأمر الآن قد قضي، لكن الرؤوس العنيدة في قرية النامبيكوارا، كانوا الأكثر حكمة. فهؤلاء الذين انفضّوا عن رئيسهم (تخلى عنه، بعد زيارتي، أكثر أصحابه) كانوا يفهمون بصورة غامضة أن الكتابة

والخديعة، تدخلان إليهما جنباً إلى جنب. ومع ذلك فإن عبقرية رئيسهم تثير الإعجاب؛ إذ انتبه دفعة واحدة للدعم الذي يمكن أن تقدمه الكتابة لسلطته، مدركاً هكذا أسس المؤسسة، دون أن يملك استعمالها. وفي الوقت ذاته، لفتت هذه الحادثة انتباهي إلى ناحية جديدة في حياة النامبيكوارا: أعني العلاقات السياسية بين الأشخاص والجماعات، التي سأتمكن قريباً من ملاحظتها بطريقة أكثر مباشرة.

وفي وقت وجودنا في أوتياريتي، سرى بين الأهالي وباء الرمد الصديدي. حيث أصابهم هذا الالتهاب الذي يرجع إلى المكورات البنية جميعاً، مسبباً آلاماً مبرحة وعمىً يحتمل أن يكون نهائياً. فظلت الجماعة مشلولة تماماً لأيام عدة. وكان الأهالي يتداوون بماء نقع فيه لحاء ما، يقطرّون منه في عيونهم بوساطة ورقة ملفوفة بشكل مخروط. وسرى المرض إلى مجموعتنا: زوجتي أولاً، التي شاركتني كل البعثات السابقة، وقاسمتني دراسة الثقافة المادية؛ وكانت إصابتها من الخطورة بحيث اضطررنا إلى إجلائها نهائياً؛ ومن ثم أكثر الرجال، ورفيقي البرازيلي. ولم يعد لدينا من وسيلة للتقدم، فأمرت الأغلبية بالراحة مع طبيبنا الذي يعتني بهم، ومضيت مع رجلين وبعض الحيوانات إلى محطة كامبوس نوفوس، حيث أشير إلى وجود عدة جماعات من الأهالي بجوارها. فقضيت هناك خمسة عشر يوماً في شبه بطالة، أشغل نفسي بقطف ثمار لم تكد تنضج في بستان عاد إلى الحالة البرية: كالجوافة بطعمها الحامض ورائحتها القوية، والكاجوس بألوانه الفاقعة كألوان الببغاوات ولبه الخشن الذي يحتوي في خلاياه الإسفنجية على عصارة بطعم عفصي قوي. أما بالنسبة للوجبات، فما كان علي إلا الذهاب فجراً إلى دغل يبعد بضع مئات من الأمتار، حيث يكون الورشان في الموعد، لأصطاد منه بسهولة. والتقيت في كامبوس نوفوس مع جماعتين جاءتا من الشمال، يحدوهما الأمل في الحصول على هداياي.

وكان الجو بين هاتين الجماعتين معكراً، بقدر ما كان بينهما كليهما وبيني، إذ كان التماسهما للهدايا مطالبة، أكثر منه رجاءً. لم تكن، في

الأيام الأولى، سوى جماعة واحدة مع أحد أهالي أوتياريتي كان سبقني. فهل كان يبدي من الاهتمام أكثر من اللازم بفتاة تنتمي إلى جماعة مضيفي؟ أعتقد ذلك. وساءت العلاقات في الحال بين الغرباء وزائرهم الذي اعتاد على المجيء إلى مخيمي، باحثاً عن جو أكثر مودة، كما كان يشاركني طعامي أيضاً. وفي يوم ذهب إلى الصيد، تلقيت زيارة أربعة من الأهالي، يشكلون نوعاً من الوفد، وطلبوا مني بلهجة تهديد أن أدس السم في طعام ضيفي، جالبين معهم ما يلزم: أربعة أنابيب صغيرة مضمومة معاً بخيط من القطن، ومملوءة بمسحوق رمادي. فتضايقت كثيراً، لأنني برفضي التام، كنت أعرض نفسي لعداء الجماعة التي كانت نواياها الشريرة تدفع بي إلى الحذر. ولذا فضلت المبالغة في جهلي باللغة، وتظاهرت تماماً بعدم الفهم. وبعد عدة محاولات، كانوا يرددون فيها بأن من أحميه كان كاكوريه، أي شرير جداً، ويجب التخلص منه سريعاً، انسحب الوفد ودلائل الاستياء بادية على أعضائه، فأخطرت المعني الذي فر لا يلوي على شيء، ولم تقدّر لي رؤيته إلا بعد شهور، حين عودتي إلى المنطقة.

ووصلت الجماعة الثانية، لحسن الحظ، في الغد. فاكتشف فيها الأهالي هدفاً آخر يوجهون إليه عداءهم. وتم اللقاء في مخيمي الذي كان أرضاً محايدة، وهدفاً في الوقت نفسه، لكل التنقلات. ووجدت نفسي إذاً في الصف الأول. كان الرجال قادمين لوحدهم، وبدأتْ على الفور مناقشات بين رؤسائهم، بل بالأحرى تتابع خطابات منفردة و متناوبة، بصوت شاك أَخَن، لم أسمعه من قبل «نحن منزعجون جداً ! أنتم أعداؤنا» كان يئن الأولون، ويرد عليهم الآخرون تقريباً: «نحن لسنا منزعجين منكم! نحن أخوانكم! نحن أصدقاء! أصدقاء! بوسعنا أن نتفاهم! إلخ..» وما إن انتهى تبادل الاستفزازات والاحتجاجات هذا، حتى أقاموا مخيماً مشتركاً بجوار مخيمي. وبعد بعض الأغاني والرقصات، التي كانت كل جماعة تقلل فيها من شأن عرضها الخاص، بمقارنة مع عرض خصومها- «التامنديه يغنون جيداً! أما نحن فغناؤنا سيئ!» - استؤنف الخصام، وما

لبثت اللهجة أن اشتدت. لم يكن الوقت متأخراً بعد، وأخذت المناقشات الممزوجة بالغناء تحدث صخباً شديداً، لم أفهم مغزاه. ويهم البعض بإشارات تهديد، أو حتى باشتباكات، كان أهال آخرون يتدخلون فيها كوسطاء. كانت كل التهديدات مردها إيماءات تتصل بالأعضاء التناسلية. إذ يعبر أحد النامبيكوار عن نفوره، بإمساك قضيبه بكلتا يديه وتوجيهه نحو الخصم. وتمهد هذه الحركة لاعتداء على الشخص المستهدف، كنزع خصلة القش المعلقة بمقدم الحزام فوق الأعضاء التناسلية. فهذه الأعضاء «مستورة بالقش» و«يتم التقاتل لانتزاع القش» وهذا الفعل رمزي محض، لأن ستر العورة الذكوري مصنوع من مادة بلغت من الهشاشة والتفاهة حداً، لاتضمن معه حماية ولا حتى غطاء للأعضاء. كما يحاولون أيضاً الاستيلاء على قوس وسهام الخصم ووضعها جانباً. وموقف الأهالي في جميع هذه التصرفات شديد التوتر، كما في سورة غضب مكتومة. وقد تنقلب هذه المشاحنات إلى نزاعات شاملة، لكنها هدأت هذه المرة عند الفجر. وأخذ الخصوم، وهم ظاهرياً في حال الغضب دائماً، يتفحص كل منهم الآخر، جاساً قرط الأذن، وأساور القطن، وزينة الريش الصغيرة، وهو يتمتم بكلمات سريعة: «أعطني .. أعطني .. أنظر .. هذا .. إنه جميل!» بينما يحتج المالك قائلاً «إنه قبيح .. قديم .. تالف ..» ويؤذن تفحص المصالحة هذا بنهاية للنزاع. إذ يُدخِل، في الواقع، نوعاً آخر من العلاقات بين الجماعتين: أي المبادلات التجارية. وعلى الرغم من بساطة ثقافة النامبيكوار المادية، فإن المنتجات الصناعية لكل فئة تتمتع بجاذبية كبيرة لدى الفئات الأخرى. فالشرقيون بحاجة إلى الفخاريات والبذار، ويعتبر الشماليون أن جيرانهم في الجنوب يعملون عقوداً نفيسة بشكل خاص. ولهذا ينجم عن لقاء جماعتين، إذا تم بصورة سلمية، مجموعة من الهدايا المتبادلة وتحل السوق محل النزاع.

والحق أنه من الصعب التسليم بأن مبادلات تجري، لأن الجميع في الصباح التالي كانوا مشغولين كل بشأنه، وتنتقل الأشياء أو المنتجات من الواحد إلى الآخر، دون أن يُشعِر الذي يعطي بالحركة التي يضع بها

هديته، ودون أن يعير المتلقي انتباهاً إلى ملكه الجديد. وهكذا كان يتم تبادل القطن المحلوج وكبب الخيوط، وكتل الشمع أو الراتنج، ومعجون الأوروكو والقواقع وأقراط الأذن والتبغ والبذار، والأساور والعقود وقطع الخيزران المخصصة لرؤوس السهام، وشلل ألياف النخيل وأشواك النيص، وقدور كاملة من الخزف، وقراع مفرغة. وامتد هذا السريان الخفي للبضائع إلى منتصف النهار، وافترقت المجموعتان بعد ذلك، ومضت كل منهما إلى وجهتها.

وهكذا يركن النامبيكوارا إلى كرم الشريك. وغريبة عنهم تماما فكرة التثمين والمناقشة أو المساومة، وكذا فكرة المطالبة والاستيفاء. فكنت قدمت لأحد الأهالي سيف اجتثاث للجذور، أجرة على نقله رسالة لجماعة مجاورة، وأهملت إعطاءه حال عودته المكافأة المتفق عليها، ظاناً بأنه سيأتي بنفسه لأخذها، لكنه لم يفعل؛ وحين بحثت عنه في الغد وجدت أنه ذهب غاضباً، كما قال لي رفاقه، ولم أره بعدها. ووجب علي أن أعهد بالهدية إلى واحد منهم. فليس مدهشاً في هذه الظروف، وبعد إتمام المبادلات أن تنسحب إحدى الجماعتين مستاءة من نصيبها، وتأخذ خلال أسابيع أو شهور (وهي تجرد مكتسباتها متذكرة هداياها) في تجميع مرارة تصير عداوة شيئاً فشيئاً. وليس للحروب من أصل آخر؛ لكن هناك بالطبع أسباباً أخرى كالاغتيال أو خطف امرأة أو الانتقام لخطف امرأة، بيد أنه لايبدو أن الجماعة تشعر بأنها مكلفة بالرد على ضرر لحق أحد أفرادها. ومع ذلك، ونظراً للبغضاء بين بعض الجماعات، تقبل المسوغات عن طيب خاطر، لاسيما إذا شعرت الجماعة بالقوة. إذ يقدَّم المشروع من أحد المحاربين، يعرض فيه تظلماته بالنبرة والأسلوب اللذين تجري بهما خطابات اللقاء: «يا هذا! تعال إلى هنا! لنذهب! أنا مغتاظ! مغتاظ جداً! سهام! سهام كبيرة!».

فيجتمع الرجال بقيادة الرئيس ويرقصون، تغطي أجسامهم خصل من القش مبرقشة باللون الأحمر، وعلى رؤسهم خوذات من جلد الفهد. ويجب القيام بطقس تكهني، إذ يخبئ الرئيس، أو الساحر إذا وُجِد،

سهماً في زاوية من دغل. ويبحثون عنه في الغد. فإذا وجدوه ملطخاً بالدم، يقررون الحرب، وإلا يتخلون عنها. والكثير من الحملات التي تبدأ هكذا، تنتهي بعد كيلومترات من السير. إذ يهدأ الهياج ويضعف الحماس، ويعود المحاربون إلى بيوتهم. إلا أن بعضها تُدفع إلى التنفيذ؛ وقد تكون دامية. فيهاجم النامبيكوارا عند الفجر، وينصبون كمائنهم وهم مبعثرون في الأدغال. وتعطى إشارة الهجوم من أحدهم إلى القريب منه بصفارة يعلقها الأهالي في أعناقهم، تتألف من أنبوبين من الخيزران مضمومين بخيط من القطن، تحدث صوتاً يشبه صرير الجدجد، ولذا سميت باسم هذه الحشرة. أما سهام الحرب، فهي نفسها التي تستعمل عادة لصيد الطرائد الكبيرة، غير أنهم يجعلون رؤوسها المدببة كأسنان المنشار. ولا تستعمل سهام الصيد المعتادة المسمومة بالكورار أبداً. لأن الجريح يكون انتزع السهم قبل انتشار السم.

رجال ونساء ورؤساء

29 كان مركز فيلهينا، فيما وراء كامبوس نوفوس- على أعلى الهضبة، يتكون في ١٩٣٨، من بعض الأكواخ وسط أرض فضاء، عرضها وطولها بضع مئات من الأمتار، تشير إلى الموضع الذي كان من المفترض (في أذهان بناة الخط) أن تقوم فيه شيكاغو الماتو غروسو. ويُظن أن فيه الآن مطاراً عسكرياً، أما في زماني، فكان السكان يقتصرون على أسرتين محرومتين من أية إمدادات منذ ثمانية أعوام، وتوصلوا، كما ذكرت، إلى البقاء في حالة توازن حيوي مع قطيع من الأيائل الصغيرة، كانوا يعيشون منها بتقتير.

التقيت هناك مع جماعتين جديدتين، تضم أحداهما ثمانية عشر شخصاً، يتكلمون بلهجة قريبة من اللهجات التي بدأتُ بالتعرف عليها؛ بينما كانت الأخرى، تعد أربعة وثلاثين عضواً، تستعمل لغة مجهولة، لم يتسن لي التعرف عليها بعد. وكان يقود كل منها رئيس، ذو صلاحيات دنيوية محضة كما بدا لي بالنسبة للأولى؛ لكن رئيس الجماعة الكبرى كان شبه ساحر. وتتسمى جماعته بالسابانيه، أما الآخرون فيسمون بالتاروندبه.

ولم يكن يميز إحداهما عن الأخرى شيء، فيما عدا اللغة: فمظهرهما واحد وثقافتهما واحدة، وكانت تلك هي الحال في كامبوس نوفوس؛ لكن جماعتي فيلهينا، عوضاً عن تبادل العداوة، كانتا تعيشان في وئام. فمع أن لكل مخيم منهما نيرانه، إلا أنهما تسافران معاً، وتخيم كل واحدة منهما بجانب الأخرى، ويظهر أنهما وحدتا مصيريهما. شراكة غريبة، إذا تذكرنا بأنهما لاتتكلمان اللغة نفسها، وأنه ليس بإمكان الرئيسين التخاطب إلا بوساطة شخص أو اثنين من كل جماعة، يقومون بمهمة

الترجمة.

يظهر أن اجتماعهما قريب العهد. فقد ذكرت أنه فيما بين ١٩٠٧ و ١٩٣٠، قضت الأوبئة التي تسبب بها وصول البيض، على القسم الأكبر من الهنود. وبالتالي، وجدت عدة جماعات نفسها وقد تضاءلت إلى درجة لا تتمكن فيها من العيش مستقلة. في كامبوس نوفوس، شاهدتُ الصراعات الداخلية في مجتمع النامبيكوارا، وكيف تعمل قوى التفرقة. أما في فيليهينا، فعلى العكس رأيت محاولة لإعادة البناء؛ إذ ما من شك في أن الأهالي الذين كنت أخيم معهم، هيأوا خطة. ذلك لأن الرجال من جماعة يدعون النساء من الجماعة الأخرى بـ «أخوات» وهؤلاء يدعين الرجال من الجماعة المقابلة بـ «أخوة». وكان الرجال من الجماعتين يدعون بعضهم بعضاً بـ «أبناء العم» من النموذج المتقاطع. ونظراً لقواعد الزواج لدى النامبيكوارا، ينتج عن هذه التسمية، وضع كل الأطفال من جماعة، في وضع «الزوج الممكن» لأطفال الجماعة الأخرى، والعكس صحيح، إلى درجة ستتحد فيها الجماعتان في الجيل القادم بفعل التزاوج بينهما.

إلا أن عقبات مازالت تقف في طريق هذا الهدف الكبير. لأن جماعة ثالثة، عدوة للتاروندية كانت تتجول في النواحي المجاورة، وتلمح نيران مخيمها بعض الأيام؛ فيقف الجميع على أهبة الاستعداد لأي احتمال. وبما أنني كنت على شيء من الفهم للهجة التاروندية، فقد وجدت نفسي أقرب إليها. أما الأخرى التي لم أكن أستطيع التواصل معها، فقد كانت تبدي نحوي القليل من الثقة؛ وليس علي بالتالي عرض وجهة نظرها. وعلى كلٍ، لم يكن التاروندية على ثقة بأن أصدقاءهم انضموا إلى فكرة الاتحاد دون نية مبيتة. وكانوا يخشون الجماعة الثالثة، كما يخشون أكثر أن يقرر السابانية تبديل أصدقائهم فجأة.

إلى أي حد كانت مخاوفهم قائمة على أساس؟ هذا ما بينه حادث مثير للفضول: ففي أحد الأيام التي ذهب فيها الرجال للقنص، لم يعد رئيس السابانية في الوقت المعتاد. ولم يكن رآه أحد طيلة اليوم. وأرخى

الليل سدوله، فعم الجزع المخيم، وبخاصة بيت المفقود، حيث كانت امرأتاه وأطفاله متعانقين، يبكون سلفاً موت الزوج والأب. وقررت عندئذ القيام بجولة في الجهة، يرافقني بعض الأهالي. وما إن ابتعدنا مائتي متر حتى اكتشفنا رجلنا مقرفصاً على الأرض، يرتعش في الظلمة؛ وكان عارياً تماماً، أعني مجرداً من عقوده وحليه وحزامه؛ وكان بوسعنا في ضوء مصباحي الكهربائي، تبين تعبيره المأساوي ووجهه الشاحب، ومشى معتمداً على اثنين من رفاقنا إلى المخيم، حيث جلس صامتاً في حالة مؤثرة من الإرهاق.

وانتزع مستمعون، استبد بهم القلق، منه القصة التالية. فقد ذكر بأن العاصفة التي يدعوها النامبيكوارا أمون (هبت عاصفة في اليوم نفسه) حملته في الجو إلى نقطة أشار إليها، تبعد خمسة وعشرين كيلومتراً عن المخيم، هي (ريو أناناز)، وجردته من كل زينته، ثم أعادته بالطريقة ذاتها، ووضعته حيث وجدناه. ونام الجميع وهم يعلقون على الحدث، واستعاد رئيس السابانيه في الصباح التالي، ليس فقط مزاجه الطيب، بل أيضاً كل حليه؛ وهو شيء لم يدهش أحداً، ولم يقدم له أي تفسير. وفي الأيام التالية أخذ التاروندبه، يتداولون رواية أخرى،لحادثة خطف. إذ كانوا يقولون إن الرئيس بحجة العلاقات مع العالم الآخر، شرع في مساومات مع جماعة الهنود التي كانت تخيم في الجوار. لكن هذه التلميحات لم تتضخم، وبقيت الرواية الرسمية للحادثة مقبولة في العلن؛ إلا أن رئيس التاروندبه، ظل على هواجسه في الأحاديث الخاصة. وبما أن الجماعتين غادرتانا بعد ذلك بقليل. لم اعرف نهاية القصة.

دفعني هذا الحادث، زيادة عن الملاحظات السابقة، إلى التفكير في طبيعة الجماعات النامبيكوارا، وفي النفوذ السياسي الذي كان رؤساؤها يمارسونه ضمنها. إذ لا توجد بنية اجتماعية أوهى وأقل دواماً من بنية النامبيكوارا. فإذا بدا الرئيس متشدداً، وطالب لنفسه بنساء أكثر من اللازم، أو كان عاجزاً عن تقديم حل مرضٍ لمشكلة التموين في فترة القحط، يعم الاستياء، وينفصل أفراد أو عائلات بكاملها عن الجماعة

للانضمام إلى جماعة أخرى تتمتع بشهرة أفضل. إذ قد يكون لدى هذه الجماعة غذاء أوفر، بفضل اكتشاف أراضي صيد أو التقاط جديدة، أو تكون أثرت بالزينة والأدوات، نتيجة مبادلات تجارية مع جماعات مجاورة، أو أصبحت أكثر سلطة في أعقاب حملة، كان النصر فيها حليفها. وهكذا يجد الرئيس نفسه يوماً على رأس جماعة جد قليلة، للتصدي للصعوبات اليومية، وحماية نسائها من المطامع الأجنبية. ولن يكون أمامه في هذه الحالة إلا التخلي عن قيادته، والانضمام مع بقية رفاقه إلى عصبة أكثر فلاحاً. نرى إذاً أن بنية النامبيكوارا الإجتماعية في حالة مائعة. فالجماعة تتشكل وتختل، وتتزايد وتتلاشى. وفي ظرف بضعة أشهر أحياناً، يتغير تركيبها وعددها وتوزعها. إذ تفرض دسائس سياسية داخل الجماعة، وصراعات مع جماعات مجاورة، إيقاعها على هذه التغيرات، ويتتابع رقي وانحطاط الأفراد والجماعات غالباً، بصورة مدهشة.

فعلى أية قواعد يتم التوزع عندئذ إلى جماعات؟ من وجهة النظر الاقتصادية، يقتضي شح الموارد الطبيعية، وسعة المساحات الضرورية لتغذية فرد أثناء فترة الترحل، تبعثر الأهالي إلى جماعات صغيرة. إلا أن المشكلة ليست في معرفة سبب هذا التبعثر، بل في كيفية حدوثه. إذ ثمة رجال في الجماعة الأصلية معترف بهم كرؤساء، هم الذين يكونون النوى التي تلتف حولها الجماعات. ويعتمد حجم الجماعة واستمراريتها لفترة ما، على موهبة كل من هؤلاء الرؤساء في الحفاظ على مرتبته وتحسين وضعه. ولا تظهر السلطة السياسية نتيجة لحاجات الجماعة، بل الجماعة نفسها هي التي تتلقى مميزاتها: كالشكل والحجم وحتى الأصل، من الرئيس الكامن السبق عليها في الوجود.

وقد عرفت اثنين من هؤلاء الرؤساء: رئيس أوتياريتي الذي تدعى جماعته واكليتوسو، ورئيس التاروندية. كان الأول حاد الذكاء، واعياً بمسؤولياته، نشيطاً وبارعاً، قادراً على استباق عواقب وضع مستجد، وتنظيم خط سير ملائم لمتطلباتي، ورسمه عند اللزوم، بتخطيط خريطة جغرافية على الرمل. وعندما وصلنا إلى قريته، وجدنا أوتاداً مخصصة

لربط الحيوانات، كان طلب دقها من مجموعة أرسلها سلفاً، دون أن أطلبها منه.

وهو مخبر قديم، يفهم المشكلات ويدرك المصاعب ويهتم بالعمل؛ لكن وظائفه تستحوذ عليه. إذ كان يغيب أياماً كاملة في القنص والاستطلاع، أو لتفقد حال أشجار الحبوب أو الثمار الناضجة. وكانت نساؤه من جهة أخرى، يدعينه لمداعبات الغرام، فيستجيب لهن بطيب خاطر. ويعبر موقفه، بصورة عامة، عن منطق واستمرارية في المقاصد، وذلك شيء استثنائي لدى النامبيكوارا، لأنهم متقلبو المزاج، ومن ذوي الأهواء الطارئة غالباً. وهو، على الرغم من ظروف الحياة الحرجة، والوسائل التافهة، منظم ماهر، ومسؤول وحيد عن مصير جماعته التي يقودها بكفاءة، لكن بشيء من عقلية المضارب.

كان رئيس التاروندیه کزمیله، في الثلاثين من عمره، ويماثله ذكاءً، لكن بطريقة مختلفة. إذ بدا لي رئيس الواكليتوسو شخصاً مطلعاً وواسع الحيلة، كأنه يخطط دائماً لمؤامرة سياسية ما. أما رئيس التاروندیه، فلم يكن رجل عمل، بل شخص تأملي، وُهب عقلاً جذاباً وشاعرياً، ذو حساسية مرهفة. وكان على وعي بتردي حال شعبه، يضفي على كلامه طابعاً من الكآبة: «كنت أعمل في السابق الشيء نفسه؛ أما الآن فانتهى كل شيء ..» كان يقول، مستذكراً أياماً أكثر سعادة، حينما كانت جماعته تعد مئات من المشاركين الأوفياء في كل تقاليد ثقافة النامبيكوارا، وليست مجرد حفنة من الأفراد العاجزين عن المحافظة على العادات، كما هي الحال الآن. وكان فضوله إزاء عاداتنا، والعادات التي تمكنتُ من ملاحظتها في قبائل أخرى، لا يقل عن فضولي. وليس العمل الإثنوغرافي معه وحيد الطرف أبداً: إذ يرى فيه تبادلاً للمعلومات، ويتلقى بترحاب المعلومات التي أقدمها له. وكثيراً ما طلب مني -وحفظ بعناية- رسوماً تمثل زخارف من الريش، وأغطية للرأس وأسلحة، كما رأيتها لدى أقوام قريبة أو بعيدة. فهل كان يداعبه أمل بتحسين العدة المادية والفكرية لشعبه، بفضل هذه المعلومات؟ هذا ممكن، مع أن طبعه الحالم، لا يدفعه إلى الإنجازات

إلا قليلاً. ومع ذلك، عندما سألته يوماً عن مزامير بان، للتحقق من مدى صوت هذه الآلة، أجابني بأنه لم ير قط واحداً منها، لكنه يود لو يحصل على رسم لها. وتوصل إلى صنع آلة غير متقنة، لكنها صالحة للاستعمال، مهتدياً بالرسم الذي عملته لها.

هذه الخصال الاستثنائية البادية لدى هذين الرئيسين عائدة إلى ظروف تعيينهما. فالسلطة السياسية لدى النامبيكوارا ليست وراثية. إذ عندما يشيخ رئيس أو يستبد به مرض، ويشعر بأنه عاجز عن القيام بأعباء وظيفته الثقيلة، يختار بنفسه خليفته: «هذا سيكون الرئيس..» ومع ذلك، فهذه السلطة فردية في الظاهر، أكثر مما هي كذلك في الواقع. إذ سنرى فيما بعد، كم هي ضعيفة سلطة الرئيس؛ والقرار النهائي في هذه الحالة، كما في الحالات الأخرى، يبدو مسبوقاً باستطلاع للرأي العام: فالوريث المعين هو الأكثر قبولاً لدى الأكثرية. لكنها ليست تمنيات واعتراضات الجماعة فقط، هي التي تحدد اختيار الرئيس الجديد: لأن على هذا الاختيار أن يتماشى مع خطط المعني بالأمر. فليس من النادر أن يصطدم منح السلطة برفض عنيف «لا أريد أن أكون الرئيس» وفي هذه الحالة، لابد من اختيار جديد. ولا يبدو أن السلطة، تشكل في الواقع موضوع تنافس شديد، والرؤساء الذين عرفتهم كانوا أميل إلى الشكوى، لأعبائهم الثقيلة ومسؤولياتهم المتعددة، من الفخر بمناصبهم. فما هي امتيازات الرئيس إذاً، وما هي واجباته؟

عندما التقى مونتينيه نحو ١٥٦٠، في روان، مع ثلاثة هنود برازيليين جلبهم معه أحد البحارة، سأل واحداً منهم عن الامتيازات التي يتمتع بها الرئيس (قال عندئذ «الملك») في بلاده، فأجاب الهندي، وكان رئيساً هو نفسه، بأنها السير في المقدمة أثناء الحرب. وأورد مونتينيه القصة في فصل شهير من رسائله الفلسفية، معجباً بهذا التعريف النبيل. لكنه كان باعثاً أكبر لي على الدهشة والإعجاب، أن أتلقى بعد أربعة قرون، الجواب عينه بالضبط. وذلك لأن البلاد المتحضرة لا تبدي مثل هذا الثبات في فلسفتها السياسية. ومهما كانت روعة هذا القول، فهو أقل دلالة أيضاً

من الاسم الذي يشار به إلى الرئيس في لغة النامبيكوارا. إذ يعني أوليكانديه «من يوحّد» أو «الذي يضم معاً». ويوحي هذا الاشتقاق اللغوي بأن عقل الأهالي واعٍ لهذه الظاهرة التي أشرت إليها، أعني أن الرئيس يظهر كسبب لرغبة الجماعة في تكوّنها كجماعة، وليس نتيجة لحاجة إلى سلطة مركزية، تشعر بها جماعة متكونة في الأصل.

إن الهيبة الشخصية والقدرة على بعث الثقة في النفوس، هما أساس السلطة في مجتمع النامبيكوارا. فكلاهما ضروريان لمن سيغدو المرشد في هذه التجربة الحافلة بالمغامرة، ألا وهي حياة الترحل في فصل الجفاف. إذ سيكون الرئيس لستة شهور أو سبعة المسؤول الوحيد عن توجيه الجماعة. وهو الذي ينظم الانطلاق إلى حياة التجوال، ويختار خط المسير، ويعين المراحل ومدة التوقف. يقرر رحلات الصيد النهري والقنص والالتقاط والقطف. ويرسم سياسة الجماعة إزاء الجماعات المجاورة. وعندما يكون رئيس الجماعة، هو في الوقت ذاته رئيس القرية (بإعطاء كلمة قرية المعنى الضيق لإقامة نصف دائمة في فصل الأمطار) فإن واجباته تمتد إلى أبعد من ذلك. إذ هو الذي يعين زمان ومكان الحياة المستقرة؛ ويُسيّر الأعمال الزراعية ويختار المحاصيل المزروعة؛ ويوجه بصورة عامة الأشغال تبعاً للحاجات وللإمكانات الموسمية.

وينبغي التنويه حالاً بأن الرئيس لا يجد سنداً، في مهامه المتعددة، لا في سلطة واضحة، ولا في سلطة معترف بها علناً. فالتراضي هو أصل السلطة، وهو الذي يصون شرعيتها أيضاً. وقد يؤدي سلوك مستوجب للوم (من وجهة نظر الأهالي)، أو إبداء سوء نية من واحد أو اثنين من المستائين إلى إفشال برنامج الرئيس، وتعكير صفو جماعته الصغيرة. إلا أن الرئيس في مثل هذه الحالة، لا يملك أية قوة قمعية. وليس بوسعه التخلص من العناصر المسيئة، إلا بقدر ما يكون قادراً على إقناع الجميع بمشاطرته رأيه. فيجب عليه أن يتصرف كسياسي يسعى للمحافظة على أكثرية مترددة، أكثر منه كسلطان مطلق القدرة. ولا يكفيه حتى أن يحافظ على جماعته. لأن الجماعة، مع أنها تعيش معزولة إبان فترة

الترحل، إلا أنها لا تنسى وجود الجماعات الأخرى. فلا يجب على الرئيس، بالتالي، أن يتقن عمله وحسب، بل عليه السعي -وجماعته تعتمد عليه في ذلك- للعمل أفضل من الآخرين.

كيف يؤدي الرئيس واجباته؟ إن الوسيلة الأولى والفضلى للسلطة هي كرمها. فالكرم صفة أساسية لدى أكثرية الشعوب البدائية، وبخاصة الأمريكية منها؛ إذ تقوم بدور، حتى في هذه الثقافات البسيطة، حيث تقتصر كل الممتلكات على أشياء بسيطة. ومع أن الرئيس لا يبدو متمتعاً بوضع متميز من الوجهة المادية، إلا أن عليه أن يتوفر على فائض من الغذاء والأدوات والأسلحة والزينات، التي على قلتها، تكتسب قيمة هامة نتيجة للفقر السائد. وعندما يشعر فرد أو أسرة أو الجماعة بأسرها برغبة أو حاجة، فإلى الرئيس يتوجهون لتلبيتها. وهكذا، الكرم هو المزية الأساسية التي تنتظر من رئيس جديد، وهو الوتر الذي يعزف عليه باستمرار، ويعبر رنينه المنسجم أو الناشز عن درجة الرضى. ولا يمكن الشك في أن قدرات الرئيس، من هذه الناحية، مستغلة إلى أقصى حد. فقد كان رؤساء الجماعات أفضل مخبريَّ؛ وباعتباري على وعي بوضعهم الصعب، كنت أحب مكافأتهم بسخاء؛ لكنني نادراً ما رأيت إحدى هداياي باقية في أيديهم لمدة تزيد عن بضعة أيام. وما من مرة ودعت جماعة، بعد عدة أسابيع من حياة مشتركة، إلا ووجدت الأهالي وقد سعدوا بامتلاك الفؤوس والسكاكين واللآلئ، إلخ. أما الرئيس، كقاعدة عامة، فكان يجد نفسه في حالة الفقر ذاتها التي كان عليها قبل مجيئي. لأن كل ما تلقاه (وكان يفوق كثيراً متوسط ما حصل عليه كل واحد) يكون اغتصب منه؛ فيدفع هذا الجشع به إلى ما يشبه اليأس. لأن رفض العطاء في هذه الديموقراطية البدائية، يؤدي دور طرح الثقة نفسه في البرلمانات الحديثة. وعندما يضطر رئيس للقول «انتهى العطاء! انتهى الكرم! ليكن آخر كريماً مكاني!» عليه أن يكون متيقناً حقاً من سلطته، لأن رئاسته تمر بأزمتها الأكثر خطورة.

والمهارة هي الصورة الفكرية للكرم. إذ يتصف الرئيس الجيد بروح

المبادرة والحذق؛ فهو الذي يحضر السم للسهام، وهو الذي يصنع كرة المطاط البري التي يُلعب بها في المناسبات. وعليه أن يغني ويرقص جيداً، وأن يكون خلي البال مرحاً، على استعداد دائماً لتسلية الجماعة وقطع رتابة الحياة اليومية. وتفضي هذه الوظائف بسهولة إلى الممارسات السحرية؛ فبعض الرؤساء يمارسون التطبيب والسحر. ومع ذلك، تظل الشواغل الغيبية ثانوية دائماً لدى النامبيكوارا. وعندما تتجلى، تكوّن القدرات السحرية المزية الثانوية للقيادة. والأكثر انتشاراً هو تقاسم السلطة الزمنية والسلطة الروحية بين شخصين. فالنامبيكوارا يختلفون بهذا الشأن عن جيرانهم التوبي -كاواهيب في الشمال الغربي، الذين يجمع رئيسهم بين السلطتين منهمكاً في الأحلام التنبؤية والرؤى والغشيات وازدواج الشخصية.

لكن على الرغم من توجه مهارة وحذق الرئيس النامبيكوارا إلى اتجاه أكثر وضعية، فإن ذلك لا يجعلهما أقل إدهاشاً. إذ عليه أن يكون على معرفة تامة بالأراضي التي تتردد عليها جماعته، والجماعات المجاورة، معتاداً على بقاع الصيد، وعلى غيَض الأشجار المثمرة، والفترات الأكثر ملاءمة للجني لكل منها، وتكون لديه فكرة تقريبية عن خطوط مسير الجماعات المجاورة، الصديقة والمعادية. ويمضي دائماً مستطلعاً ومستكشفاً، كأنه يدور حول جماعته، أكثر مما يقودها.

وفيما عدا رجلاً أو اثنين دون سلطة حقيقية، لكنهما مستعدان للتعاون نظير مكافأة، تشكل سلبية الجماعة تبايناً غريباً مع نشاط قائدها. وكأنما الجماعة، وقد تخلت عن بعض الامتيازات لرئيسها، تنتظر منه أن يهتم بكل ما يتصل بمصالحها وأمنها. ويتضح هذا الموقف جيداً من الحادثة التي ذكرتها آنفاً عن الرحلة التي ضللنا فيها الطريق، بمؤونة غير كافية؛ إذ نام الأهالي عوضاً عن الذهاب للصيد، تاركين للرئيس ونسائه مهمة تدارك الوضع.

تعرضت عدة مرات لنساء الرئيس. ذلك لأن تعدد الزوجات، وهو عملياً امتياز له، يشكل التعويض الأخلاقي والعاطفي عن واجباته الثقيلة،

ويقدم له في الوقت ذاته وسيلة للقيام بها. وفيما عدا استثناءات نادرة، وحدهما الرئيس والساحر (في حالة تقاسم هاتين الوظيفتين بين شخصين) يمكنهما اتخاذ عدة نساء. لكن المقصود هنا تعدد زوجات ذو خصوصية؛ فعوضاً عن الزواج بعدة نساء، لدينا بالأحرى زواج بواحدة، تضم إليها علاقات من طبيعة مختلفة. إذ تؤدي الزوجة الأولى الدور المعتاد للزوجة الوحيدة في الزيجات العادية. فتلتزم بعادات تقسيم العمل بين الجنسين، وتعتني بالأطفال، وتطهو الطعام، وتلتقط المنتجات البرية. أما الاقترانات اللاحقة فيُعترف بها كزيجات، لكنها تندرج تحت نظام آخر. لأن النساء الثانويات ينتمين إلى جيل أكثر شباباً، وتدعوهن الزوجة الأولى بـ«بناتي» أو «بنات أختي». وهن، علاوة على ذلك، لا ينصعن إلى قواعد التقسيم الجنسي للعمل، بل يشاركن دون تمييز في الأعمال الذكورية أو الأنثوية. وفي المخيم، يزدرين الأشغال المنزلية، ويبقين متبطلات، يلاعبن الأطفال الذين هم من جيلهن أحياناً، ويداعبن أزواجهن أحياناً أخرى؛ بينما تنهمك الزوجة الأولى بالعمل حول الموقد أو المطبخ. إلا أنهن يصحبن الرئيس، عندما يمضي في رحلة قنص أو استكشاف أو لأية مهمة ذكورية أخرى، ويقدمن له المساعدة المادية والمعنوية. فهؤلاء الشابات ذوات الهيئة الصبيانية، اللواتي انتقين من بين أجمل وأسلم فتيات الجماعة، عشيقات للرئيس أكثر منهن زوجات، يعيش معهن على أساس صداقة غرامية تمثل تبايناً مدهشاً مع الحياة برفقة الزوجة الأولى.

ومع أن الرجال والنساء لا يستحمون في الوقت ذاته، نرى أحياناً الرئيس ونساءه الشابات يستحمون معاً؛ ويكون الاستحمام مناسبة لمعارك كبرى في الماء، ومقالب ومداعبات شتى. وفي المساء يلعب معهن، إما غراماً -متدحرجين على الرمل متعانقين، اثنين، ثلاثة أو أربعة- وإما لهواً: مثل رئيس الواكليتوسو وزوجتيه الصغراوين، وهم متمددون على الأرض بشكل يرسمون فيه نجمة بثلاثة أفرع، ويرفعون أرجلهم في الهواء، صادمين الواحدة بالأخرى؛ باطن قدم بباطن قدم، بإيقاع منتظم.

وهكذا يتبدى تعدد الزوجات، تحولاً من الزواج الأحادي إلى شكل تعددي من الصداقة الغرامية، وفي الوقت نفسه امتيازاً للقيادة، يكتسي قيمة وظيفية سواء من وجهة النظر النفسية أو الاقتصادية. وتعيش النساء عادة في وئام، على الرغم من أن مصير المرأة الأولى يبدو غير مريح أحياناً، وهي تعمل، بينما تسمع إلى جانبها ضحكات زوجها مع خليلاته الصغيرات، وتشاهد مداعبات أكثر حنواً أيضاً، إلا أنها لا تبدي غيظاً. لكن توزيع الأدوار هذا، ليس ثابتاً في الواقع أو صارماً؛ فالزوج وزوجته الأولى يتلاعبان أيضاً، وإن كان ذلك نادراً أكثر فأكثر؛ وهي ليست مستبعدة من حياة المرح مطلقاً. لكن قلة مشاركتها في علاقات الصداقة الغرامية، تعوض باحترام أكبر، وبشيء من السلطة على رفيقاتها الشابات.

يؤدي هذا النظام إلى عواقب خطيرة على حياة الجماعة. فالرئيس إذ يسحب بشكل دوري فتيات من دورة الزواج المنتظمة، يسبب اختلالاً بين عدد الفتيان والفتيات الذين هم في سن الزواج. والشبان هم الضحايا الرئيسيون لهذا الوضع، حيث يحكم عليهم، إما بالبقاء عزاباً لسنوات عديدة، وإما بالزواج من أرامل أو من نساء مسنات مطلقات. لكن النامبيكوارا، يحلون المشكلة بطريقة أخرى، هي علاقات المثلية الجنسية، التي يسمونها بأسلوب شاعري: تامنديج كيها نديج، أي «الحب الكاذب». هذه العلاقات شائعة بين الشباب، وتجري بعلنية تفوق كثيراً العلاقات السوية؛ إذ لا ينزوي الشريكان في الأدغال، كما يفعل البالغون من الجنسين، بل يجلسان قرب النار تحت نظرات جيرانهما الهازئة؛ ويثير الحادث ممازحات متحفظة عموماً، ذلك لأن هذه العلاقات تعتبر صبيانية، ولا تعار اهتماماً كبيراً. لكن السؤال يبقى مطروحاً حول ما إذا كانت هذه الممارسات، تصل إلى حد الإشباع التام، أم تقتصر على دفق عاطفي مصحوب بملاعبات شهوانية، كتلك التي تميز العلاقات بين الأزواج، في قسمها الأكبر.

ويسمح بعلاقات المثلية الجنسية فقط بين مراهقين من أبناء العمة أو

الخالة، أي بين الذين يكون أحدهم مهيئاً للزواج بأخت الآخر؛ وبالتالي يقوم الأخ بدور البديل مؤقتاً. وعندما يُستطلع رأي أحد الأهالي في تقارب من هذا النمط، يكون الرد ذاته دائماً: «إنهما أبناء عمة أو خالة، يمارسان الحب» ويستمر هؤلاء الأقارب عند الكبر، في إظهار حرية واسعة؛ وليست نادرة رؤية رجلين أو ثلاثة، متزوجين وأرباب أسر، يتجولون متعانقين بحنان.

ومهما كان من شأن هذه الحلول البديلة، فإن امتياز تعدد الزوجات الذي يجعلها ضرورية، يمثل تنازلاً من الجماعة لرئيسها. لكن ما دلالة هذا التنازل من وجهة نظر الرئيس؟ إن الحصول على فتيات جميلات، يتيح له أولاً إشباعاً ليس جسدياً بقدر ما هو عاطفي. إذ إن تعدد الزوجات، بمميزاته النوعية، هو قبل كل شيء الوسيلة التي تضعها الجماعة بتصرف الرئيس، لمساعدته في القيام بواجباته. فهاتيك النساء الثانويات، وقد تحررن بوضعهن الخاص من قيود جنسهن، يقدمن له المعونة والسلوى. وهن في الوقت نفسه المكافأة على السلطة، وأداتها. هل يمكن القول، من وجهة نظر الأهالي، إن الثمن يستحق العناء؟ للإجابة على هذا السؤال، علينا التصدي للمشكلة من زاوية أكثر عمومية، والتساؤل عما يعلمه النامبيكورار، باعتبارهم بنية اجتماعية بسيطة، حول السلطة ووظيفتها.

سنمر مراً سريعاً على ملاحظة أولى. إذ تنضم وقائع النامبيكوارا إلى وقائع أخرى، لتفنيد النظرية الاجتماعية القديمة، التي انبعثت مؤقتاً مع التحليل النفسي، ومؤداها أن الرئيس البدائي يجد أنموذجه الأولي في أب رمزي؛ باعتبار أن الأشكال البسيطة للدولة تطورت تدريجياً في هذه الفرضية، انطلاقاً من الأسرة. فقد تبينا، في أساس الشكل الأكثر بساطة للسلطة، مسعى حاسماً، يُدخل عنصراً جديداً بالنسبة للظواهر الحيوية: هذا المسعى يقوم على التراضي. التراضي الذي هو أصل السلطة وحدودها في آن واحد. إذ يمكن لعلاقات وحيدة الجانب في ظاهرها، مثل تلك التي تتجلى في حكم الشيوخ أو في الحكم الفردي، أو أي شكل

من أشكال الحكم، أن تتكون في جماعات ذات بنية معقدة سابقة. إلا أنها لا يمكن تصور حدوثها في أشكال بسيطة من التنظيم الاجتماعي، كتلك التي حاولنا وصفها هنا. ففي هذه الحالة، ترجع العلاقات السياسية، على العكس، إلى نوع من التوازن بين موهبة وسلطة الرئيس من جهة، وحجم وتماسك وحسن نية الجماعة من الجهة الأخرى، حيث تمارس كل هذه العوامل تأثيراً متبادلاً كل منها على الآخر.

وددت لو كان بوسعي إظهار الدعم القوي الذي تقدمه الإثنولوجيا المعاصرة، بهذا الصدد، إلى أطروحات فلاسفة القرن الثامن عشر. ولا شك في أن الخطوط الكبرى لدى روسو، تختلف عن العلاقات شبه التعاقدية الموجودة بين الرئيس وأصحابه. إلا أن هذا، لا يقلل من صحة أن روسو ومعاصريه، أظهروا حدساً اجتماعياً عميقاً، عندما فهموا أن مواقف، وعناصر ثقافية من مثل «العقد» و«التراضي» ليست تكوينات ثانوية، كما يدعي خصومهم وبخاصة هيوم: بل هي المادة الأولية للحياة الاجتماعية؛ ومن المستحيل تخيل تنظيم سياسي لا تكون حاضرة فيه.

وهناك ملاحظة ثانية تتولد عن الاعتبارات السابقة: هي أن الرضى يشكل الأساس النفسي للسلطة، ويتجلى في الحياة اليومية في عطاءات وعطاءات مقابلة، تجرى بين الرئيس وأصحابه، جاعلاً من مفهوم المعاملة بالمثل ميزة أساسية أخرى للسلطة. فللرئيس السلطة، لكن عليه أن يكون كريماً. وعليه واجبات، لكن بوسعه الحصول على عدة نساء. وهكذا يستتب بينه وبين الجماعة توازن، يتجدد باستمرار من العطاءات والامتيازات، من الخدمات والواجبات.

لكن شيئاً إضافياً يجري فيما يتصل بالزواج. إذ بمنح الرئيس امتياز تعدد الزوجات، تستبدل الجماعة بعناصر الأمن الفردية التي يضمنها الزواج الأحادي، الأمن الجماعي المنتظر من السلطة. لأن كل رجل يتلقى امرأته من رجل آخر، إلا الرئيس الذي يتلقى عدة نساء من الجماعة. ويقدم في المقابل ضماناً ضد الحاجة والمخاطر، ليس للأفراد الذين يتزوج أخواتهن أو بناتهن، ولا حتى لأولئك الذين سيجدون أنفسهم

محرومين من النساء، نتيجة لحق تعدد الزوجات؛ بل للجماعة باعتبارها كلاً. لأن الجماعة من حيث هي كلٌّ علقت الحق العام لمصلحته. قد يكون لهذه التأملات أهمية لدراسة نظرية تعدد الزوجات؛ لكنها تذكر، على وجه الخصوص بأن تصور الدولة كمنظومة من الضمانات، الذي يتجدد من خلال المناقشات حول نظام وطني للضمان الاجتماعي، ليس ظاهرة حديثة؛ بل هو عودة إلى الطبيعة الأساسية للتنظيم الاجتماعي والسياسي.

تلك هي وجهة نظر الجماعة حول السلطة، فما هو، الآن، موقف الرئيس نفسه حيال وظيفته؟ وما هو حافزه إلى قبول عبء ليس ممتعاً دائماً؟ يرى رئيس جماعة النامبيكوارا نفسه مضطراً للقيام بدور صعب، إذ عليه أن يكرس كل جهوده للمحافظة على مركزه. زد على ذلك، أنه إذا لم يحسّن منه باستمرار، يتعرض لإضاعة ما قضى أشهراً أو سنوات في الحصول عليه. وبهذا يُفهم سبب تهرب كثير من الرجال من السلطة. ولكن لِمَ يقبلها آخرون، بل ويسعون إليها؟ من الصعب دائماً الحكم على دوافع نفسية، وتصير المهمة شبه مستحيلة في ثقافة شديدة الاختلاف عن ثقافتنا. ومع ذلك، يمكن القول إن امتياز تعدد الزوجات، مهما كانت جاذبيته الجنسية والعاطفية أو الاجتماعية، قد لا يكون كافياً للحض على توجه ما. ذلك لأن تعدد الزوجات شرط تقني للسلطة؛ فلا يمكن أن يقدم من زاوية الإشباعات الحميمية إلا دلالة تكميلية. إذ لابد من شيء إضافي ما؛ فعندما نحاول تذكر السمات الأخلاقية والنفسية لرؤساء النامبيكوارا على اختلافهم؛ وعندما نسعى أيضاً لالتقاط هذه الملامح العابرة في شخصياتهم (التي تفلت من التحليل العلمي، لكنها تكتسي قيمة من قيم التواصل الإنساني الحدسية، ومن تجربة الصداقة)، نشعر بانسياق شديد إلى هذه النتيجة: هناك رؤساء، لأن هناك رجالاً في كل جماعة، على خلاف أصحابهم، يحبون الجاه لذاته؛ ويشعرون بالانجذاب إلى المسؤوليات؛ وأعباء الشؤون العامة بالنسبة لهم، تحمل في ذاتها مكافأتها. وتنمى هذه الاختلافات الفردية بالتأكيد، وتستخدم من قبل شتى الثقافات بمقدار متفاوت. لكن وجودها في مجتمع تغيب فيه روح

المنافسة، كمجتمع النامبيكوارا، يوحي بأن أصلها ليس اجتماعياً تماماً. بل تنتمي إلى هذه المواد النفسية الخام التي بواسطتها يتأسس كل مجتمع. إن الرجال ليسوا متماثلين تماماً، وحتى في القبائل البدائية التي يصورها علماء الاجتماع مسحوقة بتقاليد ذات سلطة مطلقة؛ إذ ينظر إلى هذه الاختلافات الفردية بانتباه أو تستغل باجتهاد يماثلان ما في حضارتنا المسماة «فردانية».

وكانت هذه، بشكل آخر، «المعجزة» التي تحدث عنها ليبنتز، فيما يتصل بالمتوحشين الأمريكيين، الذين علمته أعرافهم كما نقلها الرحالون القدماء «أن لا يعتبر فرضيات الفلسفة السياسية براهين أبداً». أما أنا فقد ذهبت إلى أقاصي العالم، بحثاً عما يدعوه روسو «أشكال التقدم غير المحسوسة للبدايات». فوراء غشاوة قوانين الكادوفيو والبورورو المعقدة، تابعت سعيي إلى حالة -كما يقول روسو أيضاً- «لم تعد موجودة، وربما لم توجد قط، ولن توجد أبداً على الأرجح؛ وعلينا مع ذلك أن نحصل على مفهومات صحيحة عنها، حتى نحسن الحكم على حالتنا الحاضرة». وكنت أكثر حظاً منه إذ اعتقدت بأنني اكتشفتها في مجتمع محتضرٍ، من العبث التساؤل عما إذا كانت تمثل أثراً أم لا: كانت تضعني، سواء كانت تقليدية أم منحلة، في مواجهة أشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي الأكثر فقراً من كل ما يمكن تصوره. ولم أكن بحاجة إلى التاريخ الخاص الذي أبقاها على هذا الوضع البدائي، أو الذي أوصلها إليه في الأصح. بل كان حسبي تأمل التجربة الاجتماعية التي تجري تحت ناظري.

لكنها هي التي كانت تتهرب، فلقد كنت أبحث عن مجتمع في أبسط صوره. وإذا بمجتمع النامبيكوارا من البساطة، بحيث لم أجد فيه سوى بني الإنسان.

القسم الثامن

توبي - كاواهيب

بالنقيرة

30 كنت غادرت كويابا في حزيران/يونيو، وهانحن في أيلول/سبتمبر. ومنذ ثلاثة أشهر وأنا أهيم عبر الهضبة، مخيماً مع الهنود بينما ترتاح الحيوانات، أو واصلاً أطراف المراحل بعضها ببعض، وأنا أتساءل عن المعنى من مهمتي في حين أصابتني رهْوَنة البغل برضوض، صارت مألوفة إلى حد، امتزجت فيه بحياتي الجسدية نوعاً ما، وأفتقدها إن لم أجدها كل صباح. وذابت المغامرة في الملل. فمنذ أسابيع يتتابع السبسب ذاته تحت ناظري، جافاً إلى درجة يصعب معها تمييز النباتات الحية، عما سقط من أوراق هنا وهناك في مخيم مهجور، وتبدو آثار نيران الغابات المسودة، النهاية الطبيعية لهذا المسير العام نحو التفحم.

انطلقنا من أوتياريتي إلى جوروينا ثم جوينا، وكامبوس نوفوس وفيلهينا، ونتقدم إلى نحو آخر المراكز في الهضبة: تريس بوريتيس وباراودوميلغاسو، الذي يوجد أسفلها. وقد فقدنا في كل مرحلة ثوراً أو اثنين تقريباً، من العطش والتعب، أو نتيجة لمراعٍ سامة. وبينما كنا نعبر نهراً على مجازٍ مهترئ، سقطت عدة ثيران في الماء مع الأمتعة، فعانينا الأمرين لإنقاذ كنز البعثة. لكن هذه الحوادث نادرة، إذ تتكرر الحركات نفسها كل يوم: من إقامة للمخيم، وتعليق لأراجيح النوم والناموسيات ثم وضع الأمتعة والبرادع في مأمن من الأرضة، ومراقبة الحيوانات، والاستعدادات بترتيب معكوس في الغد. وفي حالة وصول جماعة من الأهالي فجأة، يتم إحصاؤهم وتعداد أسماء أعضاء الجسم، وأسماء درجات القرابة، ودراسة السلالات، ثم جرد شامل، فأشعر بأنني صرت بيروقراطي الهرب.

لم تمطر السماء منذ خمسة شهور، وفرت الطرائد، فكنا نشعر بالسعادة إذا أفلحنا في إصابة ببغاء هزيل، أو في القبض على عظاية

كبيرة لطبخها مع أرزنا، أو شي سلحفاة مع ذَبْلها، أو تاتو بلحمه الدهني الأسود؛ لكن علينا الاكتفاء في أغلب الوقت بهذا اللحم القديد الذي هيأه، منذ شهور، جزار من كويابا؛ إذ نفرد كل صباح في الشمس شرائحه السميكة التي تعج بالدود، بغية تطهيرها، حتى وإن وجدناها على الحالة ذاتها في الغد. ومع ذلك، اصطاد أحد الرفاق خنزيراً برياً، متعنا لحمه بنشوة، بدت لنا أقوى من نشوة الخمر؛ وقد التهم كل منا منه أكثر من رطل؛ ففهمت عندئذ، ما يذكره بعض الرحالين عن شراهة الأهالي المزعومة، برهاناً على جلافتهم. إذ بحسب المرء أن يشاطرهم نظامهم الغذائي، حتى يعاني من مثل هذا الجوع الشديد، الذي لا يؤدي اشباعه إلى التخمة فحسب، بل إلى السعادة.

وبدأ المنظر يتبدل شيئاً فشيئاً. فقد أخذت الأراضي القديمة البلورية أو الرسوبية، التي تكون الهضبة الوسطى، تترك مكانها لتربة غضارية. فبعد السبسب، شرعنا في اجتياز غابات جافة من أشجار الكستناء (ليست كستناءنا المألوفة، بل كستناء البرازيل: بيرثوليتيا أكسيلسا) والكبيبة، وهي أشجار ضخمة تفرز مرهماً. وأضحت مياه السواقي عكرة، صفراء، منتنة الرائحة. وكانت الانهيارات في كل مكان: تلال نخرها الانجراف، تتكون أسفلها مستنقعات يملؤها عشب طويل ونخيل، تتخبط البغال على ضفافها، عبر مساحات من الأناناس البري، ثماره صغيرة صفراء تميل إلى اللون البرتقالي، في لبابها كثير من البذور السوداء الكبيرة، طعمها مزيج من طعم النوع المزروع وطعم توت العليق الوفير. وتنبعث من الأرض الرائحة التي نسيناها منذ أشهر، أي الخليط من رائحة نقيع الزهورات والشوكولاته، التي ما هي إلا عبق النباتات المدارية والتحلل العضوي. ورائحة تفهمنا فجأة كيف تعطي هذه التربة الكاكاو، كما يحدث في منطقة البروفانس، حين يوحي حقل خزامى ذابلة، بأن الأرض ذاتها، قد تنتج الكمأة أيضاً. ويقودنا نتوء أخير إلى حافة منحدر، يهبط عمودياً إلى المركز البرقي لباراو دو ميلغاسو، ثم وادي ماشادو الذي يتمدد على مد النظر، في الغابة الأمازونية التي لن تنقطع إلا على

ألف وخمسمائة كيلو متر، في الحدود الفينزويلية.

كانت في بارادو دوميلغاسو مروج من العشب الأخضر، تحيق بها الغابة الرطبة، حيث تتردد أصوات الجاكو (الطائر الكلب) كأصوات البوق. إذ كان حسبنا البقاء في الغابة ساعتين للعودة وجعبتنا مليئة بالطرائد، فأخذتنا حمى الطعام؛ ولم نفعل شيئاً خلال ثلاثة أيام إلا الطهو والأكل. ولن يعوزنا، منذ الآن شيء. وتلاشت احتياطياتنا التي راعيناها بحرص، من السكر والكحول، بينما كنا نختبر الأطعمة الأمازونية، وبخاصة التوكاري أو جوز البرازيل، الذي يُغَلظ لبه المبشور المرق بقشدة بيضاء دهنية. وهذا تفصيل لهذه التمرينات الذوقية، كما وجدتها في مذكراتي:

- الطائر الطنان (ويسميه البرتغاليون مُقبل الزهور) مشوياً على السيخ، ومُلوَّحاً بنار الويسكي.
- ذيل تمساح مشوي.
- ببغاء مشوي ومُلوح بنار الويسكي.
- قطع من طير الجاكو في ثمار نخلة الأساي المطبوخة بالسكر.
- يخنة الموتوم (نوع من ديك الحبش البري) وبراعم النخيل في مرق التوكاري والفلفل.
- طير الجاكو، مشوياً مع السكر.

بعد هذا الإفراط في الطعام، والحمامات التي لا تقل عنه ضرورة - لأننا غالباً ما قضينا عدة أيام دون التمكن من خلع ملابسنا -شرعت في وضع خطة القسم الثاني من الرحلة. إذ ستصبح الأنهار منذ الآن، أكثر ملاءمة من دروب الغابة التي تكتسحها النباتات، زد على ذلك، أنه لم يبق لدي إلا سبعة عشر ثوراً من الواحد والثلاثين، التي اصطحبناها عند الانطلاق، وحالتها لا تسمح بالمتابعة، حتى على أرض سهلة. وسيتابع رئيس الفريق وبعض الرجال المسير براً، إلى المراكز الأولى للباحثين عن المطاط، حيث نأمل ببيع الجياد وجزء من البغال، بينما يبقى بعض الرجال الآخرين مع الثيران في باراو دوميلغاسو، تاركين لها ما يلزم من الوقت

لاستعادة عافيتها في مراعي كابيم -غوردورا، أي العشب الوفير. وسيشرف عليهم جيداً طباخهم العجوز تيبورسيو، ولا سيما أنه محبوب من الجميع، إذ يقال عنه -لأن له أصلاً أفريقياً «أسود باللون، أبيض بالشجاعة» وهو ما يبين -ولنقلها على عجل- أن الفلاح البرازيلي ليس مستثنى من الأحكام العنصرية المسبقة. فقد صاحت فتاة بيضاء في الأمازون، وقد غازلها أحد السود: «هل أنا جيفة من البياض بحيث يأتي أوروبو ليجثم على كرشي» وهي تذكّر بالمشهد المألوف لتمساح ميت يطفو على النهر، بينما طير كاسر أسود الريش، يقبع على الجثة أياماً، ويتغذى بها.

عندما تستعيد الثيران صحتها، سيعود الرجال أدراجهم إلى أوتياريتي دون صعوبة، كما نتوقع، إذ تكون الحيوانات تحررت من أحمالها، والأمطار المتوقعة حولت الصحراء إلى مرج. وأخيراً، يتكفل المتخصصون العلميون للبعثة والرجال المتبقون بالأمتعة التي سيرافقونها بالنقيرة حتى المناطق المعمورة، حيث سيمضي كل منا في حال سبيله. أما أنا فكنت أنوي التوجه إلى بوليفيا من الماديرا، واجتياز البلاد بالطائرة، ثم العودة إلى البرازيل من كورومبا. والذهاب منها إلى كويابا ثم أوتياريتي في كانون الأول / ديسمبر تقريباً، حيث التقي ثانية مع الفريق والحيوانات لتصفية البعثة.

أعارنا رئيس مركز ميلغاسو مركبين خشبيين خفيفين، فوداعاً للبغال! وما بقي لنا سوى ترك أنفسنا نهبط مع تيار ريوماشادو. وبما أن شهور الجفاف عودتنا على عدم الاكتراث، فقد أهملنا في الليلة الأولى حماية أراجيح النوم، واكتفينا بتعليقها بين أشجار الضفة. وإذا بالعاصفة تهب في منتصف الليل، وكأنها حصان يعدو، وما إن استيقظنا حتى تحولت أراجيح نومنا إلى أحواض استحمام، فبسطنا على غير هدى غطاء للاحتماء به، دون أن يكون بوسعنا شده تحت هذا الطوفان. ولم يعد من مجال للنوم، ونحن مقرفصون في الماء، نسند قماش الغطاء برؤوسنا، ونراقب الجيوب التي تمتلئ، حتى نفرغها قبل أن يتسرب الماء منها.

وقتلاً للوقت، أخذ الرجال يروون قصصاً، وقد علقت بذاكرتي القصة التالية، التي رواها أميديو.

كان لأرمل ولد واحد، أضحى شاباً، فناداه يوماً، وشرح له بأن الوقت حان للزواج، وسأله الابن «ما العمل من أجل الزواج؟» هذا أمر سهل، أجابه الأب، وما عليك إلا أن تقوم بزيارة للجيران وتحاول استمالة ابنتهم «ولكنني لا أعلم كيف يستميل امرؤ فتاة» «حسناً، اعزف على الغيتار وكن مرحاً، واضحك وغن» وأطاع الولد أباه، ووصل بُعيد موت أب الفتاة، ويبدو سلوكه غير لائق، وإذا به يطرد رجماً بالحجارة. فعاد إلى أبيه شاكياً، وشرح الأب السلوك الواجب في هذه الحالة. ويذهب الابن عند الجيران بينما كانوا منهمكين في ذبح خنزير. لكنه وقد حفظ درسه الأخير، أخذ ينتحب: «ياللمصيبة! لقد كان في منتهى الطيبة، كنا نحبه حباً جماً! لن يوجد أفضل منه أبداً» فاغتاظ الجيران منه وطردوه. ويروي لأبيه هذه الخيبة الجديدة، فيتلقى منه تعليمات حول السلوك الملائم. وفي زيارته الأخيرة، وجد الجيران مشغولين في البستان بمكافحة أساريع الفراش، فما كان منه إلا أن صاح: «ما هذه الوفرة الرائعة! أتمنى أن تتكاثر هذه الحيوانات في أراضيكم، وعساها لا تعوزكم أبداً» وطرد.

بعد الإخفاق الثالث هذا، يأمر الأب ابنه ببناء كوخ، فيذهب إلى الغابة لقطع الأخشاب اللازمة. ولكن الرجل الذئب(*) مر من هناك ليلاً، ورأى بأن المكان مناسب لبناء منزل له، وانهمك بالعمل. وعاد الشاب في صباح الغد للورشة، ليجد العمل متقدماً: «إن الله يعينني» قال في نفسه بارتياح. وهكذا كانا يبنيان معاً، الشاب في النهار والرجل الذئب في الليل. وانتهى الكوخ.

(*) الرجل الذئب: ساحر يجول ليلاً، متنكراً بهيئة ذئب، على زعم أصحاب الخرافات. (معجم الكامل الكبير).

ويقرر الشاب الاحتفال بانتهائه، بعمل وليمة مكونة من غزال، بينما يقرر الرجل الذئب أن تكون وليمته جثة. ويجلب الأول الغزال في النهار، والثاني الجثة تحت جنح الظلام. وعندما أتى الأب في الغد للاشتراك في الوليمة، وجد على الطاولة ميتاً، عوضاً عن الشواء: «حقاً يابني أنك

لن تصلح لشيء ..».

واستمر هطل الأمطار في اليوم التالي، حينما وصلنا إلى مركز بيمانتابوينو، ونحن ننزح الماء من المركبين. يقع هذا المركز عند ملتقى النهر المسمى باسمه مع ريوماشاد. وكان فيه عشرون رجلاً، بعضهم من بيض الداخل، وهنود من أصول مختلفة، كانوا يعملون في صيانة الخط: كابيشيانا من وادي غوابوريه، وتوبي كاواهيب من ريوماشادو. سيزودونني بمعلومات هامة، بعضها يتعلق بالتوبي كاواهيب، الذين ما يزالون متوحشين، ويُعتقد وفقاً لتقارير قديمة بأنهم اختفوا تماماً، وسأعود إليهم لاحقاً. وبعضها الآخر يتصل بقبيلة مجهولة، كانت تعيش كما يقال، على مسافة عدة أيام بالنقيرة، على ريوبيمانتابوينو. فشرعت حالاً بالتخطيط للتعرف عليهم، لكن كيف؟ وسنحت فرصة مواتية؛ إذ كان يمر بالمركز رجل أسود، اسمه باهيا، وهو بائع متجول مغامر نوعاً ما؛ يقوم كل سنة برحلة عجيبة: فينزل حتى ماديرا، للحصول على البضائع من مخازن الشاطئ، ويصعد الماشادو بالنقيرة، ثم البيمانتا بوينو، خلال يومين. ومن هناك، يسمح له درب معروف من قبله، بجر النقيرات والبضاعة لثلاثة أيام، عبر الغابة إلى أحد روافد الغوابوريه الصغيرة، حيث يستطيع بيع مخزونه بثمن باهظ، لاسيما وأن المنطقة التي ينتهي إليها، لاتصلها المؤن. وقد أبدى باهيا استعداده لصعود البيمانتا بوينو، فيما وراء خط سيره المعتاد، بشرط أن أدفع له أجره بضاعة، عوضاً عن المال. وتلك صفقة طيبة بالنسبة له، لأن سعر الجملة في الأمازون أعلى من الأسعار التي دفعتها لمشترياتي في ساوباولو. فتخليت له إذاً عن عدة قطع من الفلانلة الحمراء، التي أثارت اشمئزازي منذ أن قدمت منها إلى النامبيكوارا في فيلهينا، ووجدت من أهديتهم إياها، مكسوين بها في الغد من رؤوسهم إلى أقدامهم، بما فيهم الكلاب والقرَود والخنازير. إلا أنه بعد ساعة، والحق يقال، كانت مزق الفلانلة متناثرة في الأدغال، لا يلقي إليها أحد بالاً، بعدما ما انقضت المتعة من المهزلة.

كان طاقمنا يتألف من نقيرتين، استعيرتا من المركز، وأربعة مجدّفين،

واثنين من رجالنا. وكنا مستعدين للمضي قدماً في هذه المغامرة المرتجلة.

ليس أكثر إثارة لحماس عالم اثنوغرافي من تطلعه لأن يكون أول أبيض يتعرف إلى جماعة من الأهالي. وكانت هذه المكافأة القصوى، لاتنال في ١٩٣٨، إلا في بعض مناطق من العالم تعد على الأصابع لندرتها. ولكن هذه الإمكانات قلت كثيراً منذئذ. وهكذا سأعيش تجربة الرحالين القدامى، وسأعيش عبر هذه التجربة، تلك اللحظة الحاسمة للفكر الحديث، التي استقبلت الإنسانية فيها بفضل الاكتشافات الكبرى -وقد كانت تظن نفسها تامة كاملة- النذير بأنها لم تكن وحيدة، وأنها تشكل قطعة من مجموع أوسع، وأنها لمعرفة نفسها، عليها أولاً تأمل صورتها التي يصعب التعرف عليها، في هذه المرآة التي سيعكس جزء منها نسيته القرون، لي وحدي، بريقها الأول والأخير.

أما زال لهذه الحماسة مكان في القرن العشرين؟ مهما كان هنود بيمانتا بوينو مجهولين، فلن يكون بوسعي أن انتظر منهم الصدمة التي شعر بها المؤلفون الكبار من أمثال: ليري، ستادن، تيفيه، الذين وضعوا أقدامهم على الأرض البرازيلية منذ أربعمائة عام. إذ إن ما رأوه عندئذ، لن تراه أعيننا أبداً؛ فالحضارات التي كانوا أول من رآها، كانت تطورت وفقاً لمسارات أخرى غير مساراتنا، لكنها بلغت الرقي وكل الكمال المتناسبين مع طبيعتها، في حين أن المجتمعات التي نستطيع دراستها اليوم - في شروط، من الوهم مقارنتها مع الشروط السائدة منذ أربعة قرون- ماهي إلا أجسام معتلة وأشكال مشوهة. وعلى الرغم من المسافات الشاسعة، وشتى أشكال الوسطاء، فقد دُمرت من قبل هذه الجائحة الفظيعة والمبهمة، التي مثلها بالنسبة لجزء من الإنسانية بهذا الحجم وهذه البراءة، نمو الحضارة الغربية التي تخطئ، لو نسيتُ أن تلك الجائحة هي وجهها الآخر الذي لايقل حقيقة ولا ثباتاً عن الأول.

ومع نقص الرجال، بقيت ظروف الرحلة هي نفسها مع ذلك. فبعد عبورنا المضني للهضبة، كنت أشعر بمتعة الانسياب على نهر باسم تتجاهل الخرائط مجراه، لكن أقل تفاصيله، تذكرني بحكايا عزيزة على نفسي.

كان علي في البداية استرجاع التدريب على الحياة النهرية الذي اكتسبته، قبل ثلاث سنوات، على نهر ساولورينسو: من معرفة لشتى أنواع النقائر، ولمزايا كل منها -محفورة في جذع شجرة، أو مصنوعة من ألواح خشب مجمعة- ولأسمائها وفقاً لحجمها، مونتاريا، كانوا، أوبا، أيغاريته؛ والتعود على البقاء مقرفصاً لساعات، في الماء الذي يتسرب من شقوق الخشب، والاستمرار في نزحه بقرعة مفرغة صغيرة، مع بطء شديد وكثير من الحذر في كل حركة يسببها تصلب المفاصل، وقد تؤدي إلى انقلاب النقيرة: «ليس للماء شعر» فإذا سقط المرء فيه لا يجد شيئاً يتعلق به، والصبر أخيراً، لدى كل عارض لمجرى النهر يؤدي إلى تفريغ المؤن والمعدات التي شدت بإحكام، ونقلها مع النقائر على الضفة الصخرية، لإعادة العملية بعد بضع مئات من الأمتار.

وللعوارض نماذج عدة: سيكّوس، مجرى من دون ماء، كاشويراس، تيار سريع، سالتوس، شلالات. ويعطي المجدفون لكل منها، في الحال، لقباً موحياً إما بجزئية في المشهد، أو بحادث صيد، وإما يعبر عن علاقة شخصية بالمسافر، من مثل: «المجرم»، أو صفة يمكن ترجمتها، وتعبر عن وضعه «المحشور» أو «الساعة الحرجة»، أو «سنرى ..».

ولذا لم يكن في الانطلاق ما هو جديد. إذ كنا نترك للمجدفين تدريج الإيقاعات المقررة: مجموعة من الضربات الصغيرة في البداية: بلف، بلف، بلف ... ثم الانطلاق، حيث تقع طرقتان قصيرتان على حافة النقيرة، بين ضربات المجداف: ترا - بلف، ترا بلف، ترا .. أخيراً إيقاع المسير، حيث لا يغطس المجداف إلا مرة من كل ضربتين، محتجزاً للمرة المقبلة بمجرد ملامسة للسطح، ولكنه مقترن دائماً بطرقة، ومفصول عن الحركة التالية بـ: ترا- بلف، ترا، ش ترا- بلف، ترا ش، ترا .. وهكذا يعرض المجدافان بالتناوب وجهيهما الأزرق والبرتقالي، في خفة انعكاس طيران الببغاوات على الماء، وهي تتلألأ جميعاً ببطونها الذهبية تارة، وظهورها اللازوردية تارة أخرى، عند كل انعطاف. فقد الهواء شفافيته التي كان عليها في فصل الجفاف. فكل شيء مختلط، عند الفجر، في رغوة وردية

كثيفة، هي الضباب الصباحي الذي يصعد بطيئاً من النهر. وترتفع الحرارة، لكن هذه الحرارة غير المباشرة، تتحدد شيئاً فشيئاً؛ وما لم يكن سوى حرارة مبهمة، أصبح ضربة شمس على هذا الجزء من الوجه أو اليدين، ويبدأ المرء يعرف لِمَ يتعرق. ويتزايد اللون الوردي بدرجات لونية أخرى. وبقع زرقاء تظهر. ويبدو الضباب يتكاثف، في حين أنه ينقشع.

نصعد بكثير من العناء إلى أعالي النهر، وينبغي أن يرتاح المجدفون. فنقضي الصباح ونحن نصطاد الكمية اللازمة من السمك، لعمل البيكسادا، وهي حساء السمك الأمازوني: كالباكوس الأصفر الذي يؤكل شرائح تمسك من حسكها كضلعة الخروف، والبيركانجوباس ذي اللون الفضي واللحم الأحمر، والنزباك القرمزي، والكاسكودوس المدرع كعقرب الماء إلا أن درعه أسود، والبياراباس المبرقش، وغيرها .. ولكن حذار من الوَرَنك السام والأسماك الكهربائية -البوراك- التي تُصطاد من دون طعم، لكن صعقتها الكهربائية تصرع بغلاً؛ وحذار أكثر، كما يزعم الرجال، من هذه الأسماك الدقيقة التي تصعد من خلال دفق البول وتدخل مثانة المتهورالذي يبول في الماء .. وقد نرقب من خلال الطحالب الخضراء العملاقة التي تكوّنها الغابة على الضفة، الانتعاش المفاجئ لزمرة من القرود بأسمائها التي لا تعد من مثل: غواريبا الزعاط، وكوانا ذي الأعضاء العنكبوتية، والكبوش أو القرد ذي المسامير، وقرد زوغ-زوغ الذي يوقظ الغابة قبيل الفجر بنداءاته: وهو بعينيه اللوزيتين، وهيئته الإنسانية وفرائه الحريري المنتفخ، يذكر بأمير منغولي؛ وبقية القرود الصغيرة: من ساغوان، وماكاكو دانواته و«قرد الليل» ذي العينين الهلاميتين الداكنتين، إلخ .. وتكفي طلقة تصوب إلى هذا القطيع المتواثب لإسقاط واحد من هذه القرود، ويصبح بعد شيه كمومياء طفل متشنج اليدين، أما طعمه مطبوخاً فكطعم الإوز.

في نحو الثالثة بعد الظهر، قصف الرعد، وأظلمت السماء، وحجبت الأمطار، بحاجز عمودي، نصف السماء، فهل ستأتي؟ وأخذ الحاجز بالتحزز والتمزق، وظهر ضوء في الجانب الآخر، مذهَّباً في البداية، ثم

أزرق شاحباً. وليس إلا وسط الأفق مملوء بالأمطار. إلا أن الغيوم تتبدد، والسحاب يتقلص من اليمين واليسار، ليختفي أخيراً. ولم يعد هناك سوى سماء خليط، مكونة من كتل زرقاء داكنة، على خلفية زرقاء وبيضاء. إنها اللحظة الملائمة، قبل العاصفة المقبلة، للرسو بجانب ضفة، تكون الغابة فيها أقل كثافة. حيث نفتح فرجة بوساطة سيف التقطيع، ثم نتفحص الأشجار لنرى فيما إذا لم تكن بينها شجرة المبتدئ، وسميت هكذا، لأن الساذج الذي يشد إليها أرجوحة نومه، سيرى جيشاً من النمل الأحمر ينتشر عليه، من مثل: بودالهو، برائحة الثوم، أو كانيلاميردا أي صنبور الغائط، واسمها يكفي. وقد نصادف بشيء من الحظ، شجرة السوفيرا، التي يسكب جذعها المشقوق دائرياً، في بضع دقائق، حليباً دسماً ذا رغوة، أكثر من بقرة؛ لكنه إذا ابتلع نيئاً، يكسو الفم بقشرة مطاطية؛ وشجرة الأراسا ذات الثمار البنفسجية، بحجم الكرز وطعم التربنتين مصحوباً بحموضة خفيفة؛ وشجرة الأنغا بقرونها المليئة بزغب حلو؛ وشجرة الباكوري بثمارها التي تشبه إجاصاً اختلس من جنة الفردوس؛ وأخيراً شجرة الأساي، وهي أطيب ملذات الغابة، إذ ما إن تستخرج خلاصتها، حتى تشكل شراباً كثيفاً بطعم توت العليق، لكنه يتخثر إذا ترك ليلة، ويصبح جبناً ثمري المذاق محمضاً.

وبينما ينهمك البعض في أشغال الطهو، كان الآخرون يعلقون أراجيح النوم تحت ظلات من الأغصان المغطاة بسقف خفيف من سعف النخيل. ثم يأتي وقت الحكايات حول نار المخيم، التي تعج بالأشباح والخيالات، كالرجل الذئب، والحصان بلا رأس، أو المرأة العجوز ذات الجمجمة العظمية. وكان في الفريق دائماً أحد الباحثين عن الماس، حافظ على الحنين لتلك الحياة البائسة، التي كان يضيئها الأمل بالثروة كل يوم: «كنت عاكفاً على «الكتابة» -أي فرز الحصى- حين رأيت في المِصوَل حبة صغيرة من الأرز، لكنها كانت كنور حقيقي. وما أظن أن يوجد شيء أجمل منها .. وكان الناس كلما رأوها، يسري تيار كهربائي في أجسامهم!» وتحدث مناقشة: «بين روساريو ولارنجال، هناك على تلة، حجر يتألق

ويلمح على مسافة كيلومتر، لاسيما في الليل- ربما يكون من البلور؟ - كلا فلا يضيء البلور ليلاً، بل المايس فقط هو الذي يضيء -ولا يذهب أحد لأخذه؟- أوه، ماسات كهذه، ساعة اكتشافها، واسم من ينبغي له أن يملكها، مقدران منذ وقت طويل!»

وذهب الذين لا يرغبون في النوم ليكمنوا حتى الفجر أحياناً، على ضفة النهر، حيث لحظوا آثار خنزير بري أو تابير، ويحاولون -عبثاً- اقتناص الحيوان، ضاربين الأرض بهراوة ثقيلة، على ايقاع منتظم: بوم .. بوم .. بوم. فتظن الحيوانات أن ثماراً تسقط، وتأتي بترتيب ثابت، كما يظهر: الخنزير البري أولاً، والفهد بعده.

وغالباً ما يكتفى بتأجيج النار لليل. ولا يبقى لكل منا، بعد التعليق على مجريات اليوم وإدارة المتة، إلا الانزلاق في أرجوحة نومه، محمياً بالناموسية المشدودة بمجموعة معقدة من القضبان والخيوط، كشرنقة في نصفها وطيارة ورق في نصفها الآخر؛ ومنتبهاً بعد أن يأخذ مكانه في داخلها إلى رفع ذيلها، حتى لا يلمس أي جزء منها الأرض، جاعلاً منه مايشبه الجيب، يضع المسدس الثقيل فيه، بمتناول يده. إذ ستبدأ الأمطار عاجلاً في الهطل.

روبنسون

31 صعدنا النهر لأربعة أيام، وكانت التيارات السريعة من الكثرة، بحيث اضطررنا للتفريغ والحمل وإعادة التحميل، حتى خمس مرات في اليوم. إذ كان الماء يجري بين تشكلات صخرية تقسمه إلى عدة أفرع، بينما أمسكت الحشاف في الوسط أشجاراً منجرفة بكل أغصانها، وتراباً، وكتلاً من النباتات. وكان النبات على هذه الجزر الصغيرة المرتجلة، يستعيد الحياة بسرعة بلغ منها، أنه لم يتأثر حتى بالحالة الفوضوية التي تركه عليها الفيضان الأخير. فكانت الأشجار تنمو في كل اتجاه، والأزهار تتفتح من خلال الشلالات، وما كان للمرء أن يعرف إذا ما كان النهر مستخدماً لري هذه الحديقة الغناء، أو انه سيُطمر بتزايد النباتات والمتسلقات التي يبدو أن كل أبعاد المكان، وليس العمودي فقط، أصبحت متاحة لها، بزوال التمايز المعتاد بين الأرض والمياه. إذ لم يعد هناك نهر ولا ضفة، بل متاهات من غياض تبردها المياه، بينما تتزايد التربة حتى على غثاءة السيل. يمتد هذا التآلف بين عناصر البيئة ليشمل الكائنات. فتحتاج قبائل الأهالي إلى مساحات واسعة للعيش، لكن وفرة الحياة الحيوانية هنا تشهد على أن الإنسان كان عاجزاً منذ قرون عن الإخلال بالنظام الطبيعي. والأشجار كانت تهتز بالقرود أكثر من الأوراق تقريباً، حتى يحسبها المرء ثماراً حية ترقص على الأغصان. ولقريك من الصخور البارزة على وجه الماء، كان حسبك أن تمد يدك لتلمس الريش الفاحم لطائر الموتوم، ذي المنقار الأصفر أو المرجاني، أو طيور الجاكامان المتموجة بالأزرق. لأن هذه الطيور لا تنفر من الإنسان، وكحجارة كريمة تهيم بين المتسلقات التي تتصبب ماء وبين السهول المورقة، وتسهم أمام عيني المنبهرتين في إعادة تأليف لوحات بروغيل، التي يصور فيها الفردوس

من خلال حميمية حانية بين النبات والحيوان والإنسان، ويعود بنا إلى العصر الذي لم يكن أكمل الكون فيه بعد انقسامه.

كانت علامة الوصول، بعد ظهر اليوم الخامس، نقيرة ضئيلة مربوطة إلى الضفة؛ حيث توجد غيضة قليلة الأشجار، تصلح للمخيم. أما القرية الهندية، فكانت على بعد كيلومتر إلى الداخل: عبارة عن بستان بطول مائة متر، يحيط بأرض بور بيضوية الشكل، حيث ترتفع ثلاثة أكواخ جماعية بشكل نصف كروي، يستطيل العمود المركزي فوقها بشكل سارية. وكان الكوخان الرئيسيان يتواجهان في الجزء العريض من البيضة، ويحفان بحلبة الرقص ذات الأرضية الممهدة. ويقع الثالث في الطرف المدبب، يصله بالباحة درب يعبر البستان. وكان عدد السكان خمسة وعشرين شخصاً، زيادة عن صبي في الثانية عشرة من عمره، يتكلم لغة أخرى؛ فهمت بأنه أسير حرب، وكان يعامل في الواقع كأطفال القبيلة. وكان زي الرجال والنساء بمثل اختصار زي النامبيكوار، إلا أن جميع الرجال يضعون الغمد الذكري المخروطي، الشبيه بغمد البورورو. كما أن استعمال شُرّابة القش فوق الأعضاء التناسلية، المعروف أيضاً لدى النامبيكوارا، كان عندهم أكثر انتشاراً. ويضع الرجال والنساء في شفاههم شفاتير من الراتنج المتصلب يضرب لونه للصفرة، كما يلبسون عقوداً من أقراص أو صفائح صدفية لامعة أو من قواقع مصقولة كاملة. وتحيط بمعاصمهم وأعضائهم وبطات سيقانهم وكواحلهم شرائط من القطن. وأخيراً، كانت الوتيرة الأنفية لدى النساء مثقوبة، حتى يدخلن فيها قضيباً صغيراً من أقراص بيضاء وسوداء بالتناوب، تشد على ليفة صلبة.

كانت هيئتهم شديدة الاختلاف عن مظهر النامبيكوارا: فأجسامهم ضخمة وسيقانهم قصيرة وبشرتهم فاتحة جداً. هذه البشرة، مع السمات المنغولية الخفيفة، أسهمت في إعطاء بعض الأهالي مظهراً قوقازياً. وينتف الأهالي شعورهم بدقة بالغة: الأهداب باليد، والحاجبين بالشمع الذي يتركونه ليتصلب في مكانه عدة أيام قبل نزعه. وتقص الشعور من الأمام (أو تحرق بالأصح) في خصلات مستديرة، تكشف عن الجبهة.

ويزال الشعر عن الصدغين بطريقة لم أرها في مكان آخر(*)، تقوم على حشر الشعر في عقدة خيط ملتف حول نفسه. يمسك طرفه بأسنان من يقوم بالعملية، بينما تمسك العقدة المفتوحة بيد، ويسحب الطرف الحر باليد الأخرى، بحيث يلتف طرفا الخيط بشدة وينزعان الشعر.

(*) مازال بعض الحلاقين يستعملون هذه الطريقة، في بلاد الشام، لنزع شعر الوجنتين لدى الرجال. (المترجم).

لم يرد لهؤلاء الهنود الذين يدعون أنفسهم باسم مونديه،أي ذكر في الكتابات الإثنوغرافية. يتكلمون لغة مرحة، تنتهي كلماتها بمقاطع محركة من مثل: زيب، بِب، زِت، تاب، كات، تجعل لكلامهم وقع الصنوج في الأذن. وتشبه لهجات أسفل كسينغو، التي إندثرت الآن، ولهجات أخرى، عثر عليها من زمن قريب على روافد الضفة اليمنى لنهر غوابوريه الذي يقيم المونديه بجوار منابعه. ولم ير المونديه أحد، وفقاً لمعلوماتي، إلا امرأة مبشرة التقت مع بعضهم قبل ١٩٥٠ بقليل، في أعالي الغوابوريه، حيث التجأت ثلاث عائلات. لقد أمضيت لديهم أسبوعاً ممتعاً، لأنني ما وجدت إلا نادراً مضيفين أكثر بساطة وصبراً ومودة منهم. إذ كانوا يثيرون الإعجاب ببساتينهم المزروعة بالذرة والمانيوق والبطاطا الحلوة، والفول السوداني والتبغ والقرع، وشتى أنواع الفول والفاصولياء. وعندما كانوا يستصلحون أرضاً، يحافظون على جذور النخيل، التي تتكاثر عليها يرقانات كبيرة بيضاء، يستلذون بأكلها: فكانت أرضهم مدجنة غريبة، تختلط الزراعة فيها بتربية اليرقانات.

وتترك الأكواخ الدائرية ضوءاً منتشراً ينفذ من الشقوق بتباريق. وقد بنيت باتقان، من عصي طويلة غرزت دائرياً، منحنية إلى تفرع الأعمدة المغروزة بالورب، التي تشكل عقداً سانداً في الداخل؛ وتعلق بينها عشر من أراجيح النوم المصنوعة من القطن المعقود. وتلتقي كل العصي على ارتفاع أربعة أمتار تقريباً، وهي مشدودة إلى عمود مركزي يخرج من السقف. وتكمل حلقات أفقية الهيكل الذي يحمل قبة من سعف النخيل، ثنيت أوراقها إلى الجانب نفسه، بحيث يغطي بعضها بعضاً كالقرميد.

كان قطر أكبر الأكواخ اثني عشر متراً، تعيش فيه أربع أسر، تتصرف كل منها بقسم يقع بين عقدين ساندين. والعقود ستة، لكن القسمين المتصلين بالبابين المتقابلين يظلان خاليين، للسماح بالدخول والخروج. وهنا كنت أقضي وقتي، جالساً على أحد هذه المقاعد الصغيرة التي كان يستعملها الأهالي، والمصنوعة من قطعة من جذع نخلة مفرغة، توضع ووجهها المستوي إلى الأرض. وكنا نأكل حبات الذرة المشوية على صفيحة من الفخار، ونشرب الشيشا – وهي شراب يعمل من الذرة، وسط بين الجعة والحساء -بقراعٍ سُوِّد باطنها بطلاء فحمي، وزين ظاهرها بخطوط ومنكسرات ودوائر ومضلعات، حززت أو نقشت بالنار.

كان بوسعي، حتى مع جهلي باللغة وحرماني من مترجم، محاولة النفاذ إلى بعض جوانب فكر ومجتمع الأهالي: كتركيب الجماعة، وعلاقات القرابة وأسمائها، وأسماء أعضاء الجسم، وأسماء الألوان وفقاً لسلم لوني لايفارقني. فألفاظ القرابة، وتلك التي تشير إلى أعضاء الجسم، والألوان والأشكال (وتلك المنقوشة على القراع) لها خواص مشتركة، تضعها في الوسط، بين المفردات والقواعد: إذ إن كل جماعة تشكل منظومة، والطريقة التي تفصل بها اللغات المختلفة بين العلاقات الموجودة فيها، أو تخلط بينها، تسمح ببعض الفرضيات، إن لم تسمح باستخلاص الخصائص المميزة، من هذه الناحية، لهذا المجتمع أو ذاك.

ومع ذلك، فقد تركتْ هذه المغامرة، التي بدأتها بحماس، في نفسي شعوراً بالخواء؛ لقد كنت أود بلوغ أقصى قمم التوحش؛ أفلم تتحقق أمنيتي عند هؤلاء الأهالي الظرفاء الذين لم يرهم أحد قبلي، ولن يراهم، على الأرجح، أحد بعدي؟ وها أنا في نهاية مشواري المثير، أحصل على ضالتي. لكن وجودهم، وياللأسف، لم يُكشف لي إلا في اللحظة الأخيرة، ولم يكن بوسعي إذاً أن أخصص الوقت اللازم للتعرف عليهم. فالموارد المحدودة التي بتصرفي، والتعب الجسمي الذي أخذ منا، أنا وأصحابي كل مأخذ -والذي زادت من حدته الحميات الناجمة عن الأمطار -لا تسمح إلا بدراسة وجيزة، عوضاً عن شهر من الدراسة المعمقة. إنهم

هنا، مستعدون لتعليمي أعرافهم ومعتقداتهم. وبما أني لا أعرف لغتهم، فهم قريبون مني قرب صورة في المرآة؛ أستطيع لمسهم، وليس فهمهم. إذ كنت أتلقى مكافأتي وعقابي في الوقت ذاته، أفليست غلطتي وغلطة حرفتي الاعتقاد بأن بني الإنسان ليسوا دائماً من بني الإنسان؟ وأن بعضهم يستحق مزيداً من الاهتمام والعناية لمجرد أن لون جلودهم وعاداتهم تدهشنا؟ وأن علي فقط النفاذ إليهم، ليتجردوا من غرابتهم: وكان بإمكاني عندئذ البقاء في قريتي وكأن شيئاً لم يكن. أو كما هم هنا، يحافظون على هذه الغرابة: ولا تفيدني بشيء، لأنني عاجز حتى عن إدراك ما يجعلها كذلك. فبين هذين الطرفين، كم من حالة ملتبسة، تحملها الأعذار التي نعيش بها؟ ومن هذا الاضطراب الذي تحدثه ملاحظات، عميقة فقط بالقدر الذي يجعلها معقولة، مع أنها تتوقف في منتصف الطريق، لأنها تدهش كائنات يماثلون أولئك الذين يرون في هذه الأعراف أمراً بديهياً- من المخدوع الحقيقي في النهاية؟ أهو القارئ الذي يضع فينا ثقته، أم نحن أنفسنا الذين لاحق لنا بأن نكون راضين، قبل التوصل إلى إذابة هذه الفضلة التي تزودنا بمسوّغ لغرورنا؟

لتتكلم هذه الأرض إذاً، بينما يأبى الرجال الكلام. ولتجبني أخيراً وتبوح لي بسر عذريتها، فيما وراء الروعة التي فتنتني على طول هذا النهر. أين يكمن هذا السر، وراء هذه المشاهد المبهمة التي هي كلٌّ، ولاشيء؟ أسجل مشاهد، وأقطعها، أهذه الشجرة أو هذه الزهرة، يمكن أن تكونا في مكان آخر؟ أهو كذبة أيضاً، هذا الكل الذي يخلب لبي، أو كل جزء منه، إذا أخذ منفصلاً، يتملص؟ إذا كان علي الاعتراف به واقعاً، فأنا أريد، على الأقل، بلوغه كاملاً في بيئته الأخيرة. وأنا أرفض المشهد الكبير، أحدده وأحصره في هذا الشاطئ الغضاري، وهذه النبتة من العشب: إذ لا دليل على أن عيني، وقد وسّعت من منظورها، لن تتعرف إلى غابة مودون حول هذه البقعة التافهة، التي يطؤها يومياً أكثر المتوحشين إغراقاً في التوحش، وتنقصها مع ذلك آثار جولات يوم الجمعة.

جرى النزول بسرعة ملحوظة، فبما أن المجدفين ظلوا تحت تأثير

جاذبية مضيفينا، أخذوا ينفرون من حمل النقائر والأمتعة على البر، ويوجهون مقدمة النقيرة إلى التيار الجارف. فنحسب أنفسنا للحظات وقد توقفنا، ثم نهتز بعنف، بينما يمضي المشهد مسرعاً. وفجأة، يهدأ كل شيء، وإذا نحن في المياه الهادئة، وقد عبرنا التيار السريع، وعندئذ فقط، كنا نصاب بالدوار.

وصلنا في يومين إلى بيمانتا بوينو، حيث راودتني فكرة مشروع جديد، لايمكن فهمه دون بعض التوضيحات. اكتشف روندون عند قرب نهاية استكشافه في ١٩١٥، عدة تجمعات أهلية من لغة التوبي، وأفلح في الاتصال بثلاثة منها، بينما بدا الآخرون متشددين في عداوتهم. كانت تقيم أكبر هذه الجماعات في أعالي ريوما شادو؛ على مسيرة يومين من الضفة اليسرى، وعلى رافد صغير هو إيغارابيه دوليتاو (أو «ساقية الخنازير الحلوبة»). هي فئة تاكواتيب «الخيزران» وليس مؤكداً بأن لفظة فئة مناسبة، لأن فئات التوبي-كاواهيب كانت تشكل عموماً قرية واحدة، وتملك أراضي صيد ذات حدود محروسة بحرص، وتمارس التزاوج مع الغرباء، طلباً للتحالف مع الفئات المجاورة أكثر منه تطبيقاً لقاعدة صارمة. كان يرأس التاكواتيب أبيتارا. ويوجد في الجانب نفسه من النهر: في الشمال فئة غير معروفة إلا باسم رئيسها بيتسارا. وفي الجنوب، على ريوتاموريبا، الإيبوتيوات (اسم إحدى المتسلقات) ويسمى رئيسها كامسنجارا، ثم الجابو تيغيت (أصحاب السلحفاة)، بين هذا النهر الأخير وإيغارابيه دوكاكوال، ورئيسها ميرا. أما على الضفة اليسرى للماشادو، في وادي ريوموكوكي، فكان يقيم الباراناوات (أصحاب النهر) الذي لا يزالون موجودين، لكنهم يردون برشقات السهام على كل محاولة للاتصال بهم؛ وإلى الجنوب قليلاً، تقيم فئة غير معروفة. تلك هي على الأقل، المعلومات التي كان بإمكاني الحصول عليها في ١٩٣٨، من الباحثين عن المطاط، المقيمين في المنطقة منذ حقبة استكشافات روندون، لأن هذا الأخير لم يعط في تقاريره عن التوبي - كاواهيب، إلا معلومات جزئية.

وتوصلت، بالتحدث مع التوبي - كاواهيب المتحضرين، في مركز بيمانتا

بوينو، إلى قائمة بأسماء عشرين من الجماعات. ومن جهة أخرى، تلقي بحوث كورت نيمويندا جو، العلامة بقدر كونه أثنوغرافياً، قليلاً من الضوء على ماضي القبيلة. يذكّر اسم الكاواهيب باسم قبيلة قديمة من التوبي، هي الكاباهيبا، التي غالباً ما ذكرت في وثائق القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وحُدد مكانها عندئذ على مجرى ريوتاباجوز الأعلى والأوسط. ويبدو أنها طردت منه تدريجياً من قبل قبيلة أخرى من التوبي هي: الموندوروكو؛ وأنها بانتقالها نحو الغرب، تشتّت إلى عدة جماعات، لا يعرف منها إلا البارينتينتين، في المجرى الأسفل لنهر ماشادو، والتوبي -كاواهيب إلى الجنوب. فثمة فرص كبيرة إذاً أن يكون هؤلاء الهنود هم آخر المتحدرين من السكان التوبي العظام لمجرى الأمازون الأوسط والأسفل، الذين يمتون بصلة القرابة لسكان الساحل، والذين عرفهم، في زمن مجدهم، رحالو القرنين السادس عشر والسابع عشر، الذين تشكل رواياتهم أصل الوعي الإثنوغرافي في العصور الحديثة: ذلك لأنه تحت تأثيرهم غير المقصود، اتبعت الفلسفة السياسية والأخلاقية المسار، الذي قدر له أن يقودها حتى الثورة الفرنسية. فأن أكون ربما أول من يدخل قرية توبي، لاتزال سليمة، يعني أن أنضم، بعد أربعمائة سنة، لليري، ستادن، سوارس دوسوزا، ثيفيت، ومونتينيه نفسه، الذي خصص إحدى تأملاته، في الفصل المخصص لآكلي لحوم البشر، لمحادثة مع هنود من التوبي التقاهم في روان. وياله من إغراء.

في الوقت الذي اتصل روندون مع التوبي -كاواهيب، كان التاكواتيب، بتحريض من رئيس طموح وحازم، في طريقهم لبسط هيمنتهم على عدة جماعات أخرى. وقد انبهر أصحاب روندون، بعد شهور قضوها في العزلة شبه الصحراوية للهضبة، بـ«الكيلومترات» (لكن لغة السيرتاو كثيراً ماتستعمل المبالغات) من المغارس التي فتحها أصحاب أبيتارا في الغابة الرطبة، أو على الضفاف القابلة للغرق، والتي تمكنوا بفضلها من تموين المستكشفين الذين عاشوا حتى ذلك الوقت مهددين بالمجاعة.

وأقنع روندون التاكواتيب، بعد لقائه معهم بسنتين، أن يحولوا قريتهم

إلى الموضع المشار إليه باسم ألديا دوس انديوس، في مواجهة مصب ريوساوبدرو (١١,٥ درجة جنوباً و٦٢,٣ درجة غرباً) على خريطة العالم الدولية بمقياس ١/مليون. وكان ذلك أسهل للمراقبة والتموين، ولضمان تعاون الهنود في تسيير النقائر. لأنهم كانوا يبدون على هذه الأنهار التي تقطعها التيارات السريعة والشلالات والمضائق، ملاحين ماهرين في مراكبهم المصنوعة من لحاء الأشجار.

وأمكنني الحصول على وصف لتلك القرية الجديدة، التي اندثرت. فالأكواخ، كما ذكر روندون عند زيارته لقرية الغابة، كانت مستطيلة، من دون جدران؛ يعلوها سقف من سعف النخيل ذو جانبين تسنده جذوع مغروزة في الأرض. وكانت عشرون كوخاً (بأربعة أمتار عرضاً، وستة أمتار طولاً) مقامة على دائرة قطرها عشرون متراً، حول مسكنين واسعين (ثمانية عشر متراً بأربعة عشر متراً)، يشغل أحدهما أبيتارا ونساؤه وأطفاله الصغار، ويشغل الآخر ابنه الأصغر المتزوج؛ بينما كان يعيش ابناه الأكبران العَزَبان كبقية السكان، في الأكواخ المحيطة، ويتلقيان طعامهما، مثل بقية العزاب، من مسكن الرئيس. وكانت هناك عدة أقنان للدجاج في المساحة الفارغة بين المسكنين المركزيين والأكواخ المحيطة.

كان هذا الوصف بعيداً عن مساكن التوبي الفسيحة التي ذكرها مؤلفو القرن السادس عشر، لكنه أبعد أيضاً بالخمسمائة أو الستمائة ساكن لقرية أبيتارا، عن الوضع الحالي. إذ أدى اغتيال أبيتارا في ١٩٢٥، إلى فترة من العنف، في قرية تناقص سكانها، بفعل وباء الأنفلونزا بين ١٩١٨ و ١٩٢٠ إلى خمسة وعشرين رجلاً واثنتين وعشرين امرأة واثني عشر طفلاً، وفي العام ١٩٢٥ ذاته لقي أربعة أشخاص (من بينهم قاتل أبيتارا) مصرعهم في أعمال انتقامية لأسباب عاطفية غالباً. وقرر الباقون، بعد ذلك بقليل، هجر القرية والذهاب إلى مركز بيمانتوبوينو، على مسيرة يومين بالنقيرة، في اتجاه أعلى النهر؛ ولم يكن عددهم في ١٩٣٨ يتعدى خمسة رجال وامرأة واحدة وطفلة صغيرة، يتكلمون لغة برتغالية فظة، ويُخلط بينهم، كما يبدو، وبين البرازيليين المستجدين للمكان. وهكذا،

كان في الإمكان الاعتقاد بأن حكاية التوبي -كاواهيب انتهت، فيما يتصل بالضفة اليمنى لنهر ماشادو على الأقل، باستثناء جماعة متشددة من الباراناوات، على الضفة اليسرى، في وادي ريوموكي.

ومع ذلك، فقد علمت عند وصولي إلى بيمانتا بوينو، شهر تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٨، أن جماعة مجهولة من قبل، تنتمي للتوبي - كاواهيب، كانت ظهرت على النهر، وظهرت ثانية بعد عامين، وأن آخر أبناء أربيتارا (الذي يحمل اسم أبيه، وسيسمى كذلك في السرد) المقيم في بيمانتا بوينو، توجه إلى قريتهم المنعزلة في قلب الغابة، الواقعة على مسيرة يومين من الضفة اليمنى لنهر ماشادو، دون أي درب يقود إليها. وحصل من رئيس هذه الجماعة الصغيرة على وعد بالمجيء مع أصحابه لزيارته السنة القادمة، أي في الفترة التي وصلنا فيها إلى بيمانتابوينو. وكانت لهذا الوعد أهمية كبيرة في أعين أهالي المركز، لأنهم بمعاناتهم من نقص في النساء (امرأة بالغة لكل خمسة رجال) كانوا مهتمين خاصة بما قاله أربيتارا الشاب عن فائض من النساء في القرية المجهولة. وبما أنه كان أرمل هو نفسه، فقد كان يأمل من إقامة العلاقات الودية مع أقربائه المتوحشين بالحصول على زوجة له. تلك هي الظروف التي أقنعته فيها، بصعوبة (لأنه كان يخشى عواقب المغامرة) باستباق الموعد على أن يكون لي دليلاً.

كانت النقطة التي علينا الولوج منها إلى الغابة، لبلوغ التوبي -كاواهيب، واقعة على مسيرة ثلاثة أيام بالنقيرة، أسفل مركز بيمانتا بوينو، عند مصب إيغارابيه دوبوركينهو، وهو نهر صغير يصب في الماشادو. وكنا نأمل بفرجة طبيعية صغيرة، بمنجى من الفيضانات، غير بعيدة عن الرافد، بما أن الضفة لا ترتفع في هذا الموضع إلا بضعة أمتار، حيث أفرغنا معداتنا المكونة من بضعة صناديق صغيرة من الهدايا للأهالي، ومؤونة من اللحم القديد والفاصولياء، والأرز. وأقمنا مخيماً أكثر متانة من المعتاد، حتى يبقى لحين عودتنا. فانقضى اليوم بهذه الأشغال وبتنظيم الرحلة. إذ كان الوضع على شيء من الصعوبة، لأنني تركت جزءاً من

رفاقي كما ذكرت. وقد اضطر جوهان فيلار، طبيب البعثة، لسوء الحظ، وقد أصيب بنوبة برداء، إلى أن يتقدمنا في مركز صغير للباحثين عن المطاط، حيث يأخذ قسطاً من الراحة، على مسيرة ثلاثة أيام بالنقيرة إلى جهة مصب النهر (تجب مضاعفة الوقت مرتين أو ثلاثة، عند الصعود في هذه الأنهار الصعبة). وهكذا سيقتصر الفريق على لوي دوكاسترو فاريا، مرافقي البرازيلي، وأبيتارا وعليّ مع خمسة رجال سيحرس اثنان منهم المخيم، ويرافقنا ثلاثة في الغابة. وبعددنا المحدود هذا، وكل منا يحمل معدات النوم بالإضافة إلى السلاح والذخيرة، كان مستحيلاً حمل مؤن أخرى، غير قليل من القهوة والقديد، وبعض الفارينها داغو. وهي معمولة من المانيوق المنقوع في ماء النهر، والمخمر بعد ذلك، تظهر على شكل قطع صلبة كالحصى، لكنها بعد نقعها جيداً، تطلق طعم زبدة لذيذ. وكنا معتمدين بالنسبة للباقي على التوكاري-جوز البرازيل- المتوافر في هذه النواحي، الذي إذا كسرت واحدة من ثماره (وهي بشكل قوقعة كروية، قد تقتل رجلاً إذا انفصلت عن الأغصان العالية، وسقطت من ارتفاع عشرين أو ثلاثين متراً) تزود عدة أشخاص بوجبة مؤلفة من ثلاثين إلى أربعين جوزة مثلثية الشكل، ذات لون لبني ومُزرَق.

انطلقنا قبل الفجر. فاجتزنا أولاً مساحات شبه جرداء، حيث يظهر صخر الهضبة الذي ينغرز شيئاً فشيئاً في التربة الرسوبية، على شكل صفيحات؛ ثم حقولاً ذات أعشاب عالية كالرماح، وبعد ساعتين دخلنا الغابة.

في الغابة

32 يثير البحر في منذ الطفولة مزيجاً من العواطف. فالساحل، وهذا الشريط الذي يتخلى الجَزْر عنه بصفة دورية، ويوسعه؛ إذ ينازعان الإنسان إمبراطوريته، يخلبان لبي بتحديهما لمقاصدنا، وبالعالم المبهم الذي ينطويان عليه، وبالوعد الذي يقطعانه بتأملات واكتشافات تداعب الخيال. وعلى غرار بينفينوتو سيلليني الذي أميل إليه أكثر من ميلي إلى معلمي الكاتروسنتو، أحبُّ التجوال على الرمال التي انحسر عنها المد، وأنا أتعقب في منحنيات شاطئٍ منحدر، المسارَ الذي يفرضه، ملتقطاً حصى مثقوبة، وقواقع أعاد التآكل تشكيلها، أو جذور بوص تجسد بأشكالها أوهاماً، لأصنع لنفسي من هذا الحطام متحفاً: لا يقل، للحظةٍ وجيزة، روعة عن المتاحف التي تجمع التحف فيها: هذه التحف التي تنتج في الواقع، عن عمل – مع أن مقره الروح وليس في الخارج – ليس مختلفاً بصفة جذرية عما يروق للطبيعة فعله.

ولكنني، ولست بحاراً ولا صياداً، أشعر بالغبن من هذا الماء الذي يغتصب شطر عالمي وأكثر، ذلك لأن حضوره العظيم، يتردد صداه في هذا الجانب من الساحل، مائلاً بالمشهد إلى التقشف. ويبدو لي أن البحر يقوض التنوع المعتاد للأرض؛ مقدماً للعين مساحات شاسعة وألواناً إضافية؛ ولكن في مقابل رتابة خانقة وسطحية، ليس فيها من واد خفي يحتفظ بمفاجآت تغذي خيالي.

أضف إلى ذلك، أن الفتنة التي أعترف للبحر بها، تمتنع علينا هذه الأيام. إذ تترك أغلبية الدول الأوربية سواحلها تُسد بالفيلات والفنادق ودور اللهو، التي أضحى الساحل بها كحيوان مسن ثخن ذَبْله، مشكلاً حول جسمه قشرة كتيمة، لا تسمح للبشرة بالتنفس، وتُسَرّع هكذا هرمه.

وعوضاً عن رسم الساحل، كما في الماضي، كصورة مسبقة لعزلة المحيطات، صار نوعاً من الجبهة التي يجند الناس لها كل قواهم بصفة دورية، للهجوم على حرية، يناقضون إغراءها بالظروف التي يقبلون فيها الاستمتاع بها. فالشواطئ التي كان يقدم لنا البحر فيها ثمرات اضطراب آلاف السنين، مثل رواق طليعي دائمٍ، لم تعد تستخدم تحت أقدام العامة إلا لإقامة النفايات وعرضها.

أفضل إذاً الجبل على البحر؛ وقد اكتسى هذا الميل لسنين شكل حب غيور. إذ كنت أكره أولئك الذين يشاطرونني هذا الحب، لأنهم يهددون هذه العزلة التي لا تقدر بثمن لدي؛ وأحتقر الآخرين الذين يعني الجبل لهم، بصفة خاصة، متاعب شديدة وأفقاً مسدوداً؛ وهم بالتالي عاجزون عن الشعور بالانفعالات التي يبعثها في نفسي. إذ كان على المجتمع بأسره الاعتراف بتفوق الجبال، وبملكيتي الحصرية لها. أضيف أن هذا الولع الذي لم يكن يشمل الجبال الشاهقة، التي خيبت أملي بالطابع الملتبس للمَسَرات التي تؤدي إليها ولا شك فيها؛ إذ هي جسدية وعضوية حتى، إذا نظرنا إلى الجهد المبذول؛ إلا أنها شكلية مع ذلك، وشبه مجردة، حيث ينحصر انتباه المرء في مهمات شديدة الدقة، تاركاً نفسه، وسط الطبيعة، حبيسة شواغل ميكانيكية وهندسية. أنا أحب الجبل الذي يوصف بأنه «للبقر»، وبخاصة المنطقة المحصورة بين ١٤٠٠ و٢٢٠٠ متر؛ فهي من التوسط بحيث لا تفقر المنظر، كما يحدث في الأعلى؛ ويبدو أن ارتفاعها يحرض الطبيعة على حياة أكثر نشاطاً واحتداماً، في الوقت الذي لا يشجع على الزراعة. فمن شرفاته العالية، يحافظ على منظر أرض أقل تدجيناً من أراضي الأودية، كتلك التي تمكن الإنسان من معرفتها في بداياته، كما يروق للمرء تخيله، خطأً من دون شك.

وإذا كان البحر يعرض على ناظري منظراً مذاباً، فإن الجبل يبدو لي عالماً مركزاً. وهو كذلك بالمعنى الحرفي؛ إذ إن الأرض بثنياتها وطياتها تجمع سطحاً أكبر للامتداد نفسه. كما أن وعود هذا الكون الأكثر كثافة هي الأكثر بطئاً في النضوب: فمناخه المتقلب، والفروق الراجعة للارتفاع

وللتعرض ولطبيعة التربة، تتسبب في التعارضات الحادة بين السفوح والمرتفعات، والتعارضات بين الفصول أيضاً. لم أكن لأتضايق من الإقامة في واد ضيق، حيث تتخذ المنحدرات، نظراً لتقاربها شكل جدار، ولا تتيح إلا رؤية جزء من السماء، تعبره الشمس في بضع ساعات، بل على العكس. فقد كان هذا المنظر المنتصب، يبدو لي حياً. فبدلاً من أن يذعن بسلبية لتأملي له، كما يحدث مع لوحة يمكن إدراك تفاصيلها عن بعد دون تدخل مني؛ يدعوني إلى نوع من الحوار، ينبغي علينا فيه، أنا وهو، تقديم أفضل ما لدينا. والجهد العضلي الذي كنت أبذله وأنا أجوبه، تنازلٌ مني له، وبواسطته يصير كيانه حاضراً معي. إلا أنه متمرد ومثير في آن، يختلس مني دائماً شطراً من نفسه، لكن ليجدد الشطر الأخر بمنظور تكميلي، يصاحب الصعود أو النزول. فيتحد منظر الجبل بي في رقصة كنت دائماً أشعر بأنني أقودها بحرية، تتناسب مع تمكني جيداً من اختراق الحقائق الكبرى التي يوحي بها.

ومع ذلك فأنا مضطر اليوم للاعتراف، دون أن أشعر بأنني تغيرت، بانسلال حب الجبال مني، كما ينحسر الموج عن الرمال. أفكاري ظلت كما هي، ولكن الجبل هجرني. وكم من مسرات مشابهة أمست أقل وقعاً في نفسي، مع أنني سعيت إليها طويلاً وبدأب. وحتى المفاجآت أضحت مألوفة، على هذه المسارات التي غالباً ما اتبعتها؛ فلم يعد تسلقي بين السرخس والصخور، بل بين أطياف ذكرياتي. وتفقد هذه الذكريات جاذبيتها لسببين؛ بداية، بسبب الاستعمال الذي أفرغها من جدتها، لا سيما أن المتعة تضعف شيئاً ما كل مرة، ولا أنالها إلا بجهد يتزايد مع السنين. وأنا أتقدم في السن، ولا شيء ينذرني بذلك، إلا هذا البلى في الزوايا التي كانت حادة، لمقاصدي ومشروعاتي. وأنا مازلت قادراً على تكرارها؛ أما أن يجلب لي إنجازها السرور الذي طالما جلبه لي، فذلك خارج عن إرادتي.

إنها الغابة الآن التي تجذبني، فأجد فيها المفاتن نفسها التي للجبال، ولكن بشكل أكثر سكينة وأكثر حفاوة. واستعادت كثرة تجوالي في

السباسب القاحلة للبرازيل الوسطى، لهذه الطبيعة الجافة التي أحبها القدماء، فتنتها: بأعشابها المصفرة وزهورها، وغياضها الباردة الرطبة. لم يعد بوسعي منذئذ، أن أحتفظ لسيفين المحصبة بالحب الشديد نفسه؛ لأنني فهمت أن حماس جيلي لمنطقة البروفانس، كان خدعة، أصبحنا ضحاياها بعدما كنا لها الصانعين. ففي سبيل الاكتشاف - وهي متعة سلبتها الحضارة منا - كنا نضحي للحداثة بالشيء الذي يبررها. وأُهملت هذه الطبيعة، ما دام بالإمكان التمتع بأخرى. ولحرماننا من الأكثر لطفاً، كان علينا أن نحد من مطامحنا، بالقياس إلى الطبيعة المتاحة لنا، وأن نمجد الجفاف والخشونة؛ لأنهما الشكلان الوحيدان المعروضان علينا منذ الآن.

لكننا كنا ننسى الغابة في هذه المسيرة المضنية. فهي بكثافتها التي تماثل كثافة مدننا، كانت مأهولة بكائنات تشكل مجتمعاً استبعدَنا بالتأكيد أكثر من الصحارى التي نتقدم فيها بجنون: سواء كانت هذه الذرى العالية أم الشجيرات الصغيرة المشمسة. ذلك لأن مجموعة من الأشجار والنباتات تبعد الإنسان وتسارع إلى إخفاء آثار مروره خلالها. وبما أنها صعبة المسالك، فهي تقتضي ممن يتوغل فيها الجهود التي يتطلبها الجبل من الماشي، ولكن بصفة أكثر خشونة. وبما أنها أقل امتداداً من السلاسل الجبلية، فأفقها المحدود يحتوي كوناً مصغراً، يعزل المرء كما تعزله الرحلات في الصحراء. عالم من الأعشاب والزهور والفطور والحشرات، يتابع بحرية حياة مستقلة، يعتمد قبولنا فيها على صبرنا وتواضعنا. إذ إن بضع عشرات من الأمتار في الغابة، كافية لإلغاء العالم الخارجي. ويستبدل كون بآخر أقل مجاملة مع النظر، لكن السمع والشم، هاتين الحاستين القريبتين من الروح تجدان فيه ضالتهما. وأشياء كنا نظنها اختفت، تنبعث من جديد: هي السكون والعذوبة والسلام. فالحميمية مع العالم النباتي تنزل لنا عما يأباه البحر الآن، وتجعلنا الجبال ندفع ثمنه باهظاً. ولإقناعي بذلك، كان لابد ربما، أن تفرض الغابة علي منذ البداية شكلها الأكثر جفاء، الذي تتبدى لي بفضله سماتها

الكونية. ذلك لأن بين الغابة التي أتوغل فيها، للقاء التوبي-كاواهيب وبين غاباتنا، يبلغ الفارق مبلغاً يتعذر معه العثور على الكلمات التي تعبر عنه.

تبدو الغابة الأمازونية من الخارج، كومة من الفقاعات الجامدة، وتراكماً عمودياً لانتفاخات خضراء؛ حتى يحسب المرء أن خللاً مرضياً، على نمط واحد، اعترى المشهد النهري. إلا أن كل شيء يتغير، حين تُفقأ القشرة: فتصبح هذه الكتلة المبهمة، من الداخل، عالماً ضخماً. ولا تعود الغابة مجرد فوضى أرضية، بل كعالم كوكبي آخر، بمثل غنى عالمنا، يكون حل محله.

وما إن تعتاد العين على التعرف على هذه المشاهد المتقاربة، ويتمكن الفكر من تجاوز الشعور الأول بالانسحاق، حتى ينكشف نظام معقد. إذ يتبين المرء طوابق متراكبة، تكرر الإنشاءات نفسها، على الرغم من اختلاف المستوى: في البداية ذرى الأغراس والأعشاب التي تطاول قامة الإنسان؛ وفوقها جذوع الأشجار الشاحبة، والمتسلقات التي تتمتع بمجال حر قليلاً من كل نبات؛ وتختفي هذه الجذوع مع الارتفاع، تحجبها الشجيرات أو إزهار أشجار الموز البرية القرمزي؛ ثم تبرز ثانية لحظة من هذا الزبد، لتضيع من جديد بين سعف النخيل؛ وتخرج منها من نقطة أكثر ارتفاعاً، حيث تتفرع أولى الأغصان الأفقية، مجردة من الأوراق لكنها مثقلة بنباتات معايشة - سحلبية وعلفيات - كالسفن بمعداتها؛ وينغلق هذا العالم، بعيداً عن مرمى البصر تقريباً، بقباب خضراء حيناً، ومتعرية من الأوراق حيناً آخر، لكنها مكسوة بزهور بيضاء وصفراء وبرتقالية وأرجوانية أو بنفسجية، ينبهر المتفرج الأوروبي بالتعرف فيها على عذوبة الربيع في بلاده، ولكن على نطاق يبلغ من عدم تناسبه، أن الإزهار الباهر للاضطرامات الخريفية، يفرض نفسه عليه كوجه وحيد للمقارنة.

على هذه الطبقات الجوية، ترد طبقات أخرى، تحت خطوات المسافر. ذلك لأنه من الوهم اعتقاد المرء بأنه يمشي على الأرض المدفونة تحت تشابك مزعزع من الجذور والشكير، ولفيف الطحالب؛ فكلما أخطأت

القدم موطئاً ثابتاً، يتعرض الماشي لسقطة في أعماق مذهلة أحياناً. كما كان وجود لوسيندا يعيق تقدمي أيضاً.

ولوسيندا قردة صغيرة ذات ذنب قابض، وجلد بنفسجي اللون، وفرو رمادي، من جنس النسناس الصوفي، يعرف باسم بارّيغورو، نظراً للبطن الكبير الذي يتميز به. حصلت عليها، وعمرها بضعة أسابيع، من هندية تنتمي للنامبيكوارا، كانت تطعمها بيدها، وتحملها ليل نهار متعلقة بشعرها، الذي كان ينوب، بالنسبة للقردة، مناب فرو الأم وظهرها (تحمل القردة الأم صغارها على الظهر). فحلت رضّاعة الحليب المركّز محل الإطعام باليد، وكانت رضاعات الوسكي، التي تصعق الحيوان المسكين نعاساً، تحررني في الليل نوعاً ما. لكن خلال النهار، كان من المستحيل الحصول من لوسيندا على أكثر من تنازل: إذ رضيت بجزمتي اليسرى بديلاً عن الشعر، وكانت تتعلق بها بقوائمها الأربع، فوق القدم من الصباح إلى المساء. كان هذا الوضع مقبولاً على الحصان، ومقبولاً جداً في النقيرة. أما في السفر على الأقدام فتلك مسألة أخرى؛ لأن كل نبتة شائكة، وكل غصن، وكل حفرة موحلة، كانت تنتزع من لوسيندا صرخة حادة. وباءت كل الجهود لحثها على قبول ذراعي أو كتفي أو حتى شعري بالفشل. إذ كان لابد لها من الجزمة اليسرى، كحماية لا مثيل لها، ومستقر الأمان الوحيد في هذه الغابة، حيث ولدت وعاشت بضعة أشهر مع الإنسان، كانت كافية لجعلها غريبة عنها، وكأنها كبرت في أحضان الحضارة. وهكذا، وأنا أعرج برجلي اليسرى، ويُجرح سمعي بصرخات العتاب عند كل عثرة، كنت أحرص على أن لا يغيب ظهر أبيتارا عن ناظري في هذا الضوء الأخضر الخافت، حيث كان دليلنا يحث الخطى، ملتفاً حول أشجار ضخمة تجعلنا نحسبه للحظة اختفى، وهو يشق بضربات من سيفه مسلكاً غير مفهوم لنا، إلا أنه يدفع بنا إلى الأمام أكثر فأكثر.

ولنسيان التعب. كنت أطلق لفكري العنان، ليعمل على هواه. وعلى ايقاع الخطوات، كانت قصائد صغيرة تنتظم في رأسي حيث كنت أجترها لساعات كلقمة بلا طعم لكثرة ما مضغت، إلا أنني أتردد في لفظها أو

بلعها، نظراً للصحبة الصغيرة التي يشكلها وجودها. وقد ولّد جو حوض الأحياء المائية السائد في الغابة هذه الرباعية.

في الغابة الرأسية الأرجل
قوقعة وحل ضخمة شَعراء
على صخور وردية يحتها
بطن أسماك - القمر الهنولولية.

وكنت من أجل التعارض، أستحضر ذكرى الضواحي المنفرة:

لقد نُظف العشب المقصوص
والأرصفة لامعة بعدما غسلت
والأشجار في الشارع
مكانس كبيرة مهملة

وهناك أخيراً هذه الرباعية، التي لم تبد لي كاملة، مع أنها كانت في محلها؛ وهي لا تزال تعذبني إلى الآن كلما باشرت مشياً طويلاً:

أمازون، أيها الأمازون العزيز
أنت الذي ليس لك ثدي أيمن
تروي لنا كثيراً من الحكايات
لكن طرقك جد ضيقة

عند الظهيرة تقريباً، وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه مع اثنين من الأهالي، ظهرا من وراء أحد الأدغال، كانا يسيران في الاتجاه المعاكس. كان الأكبر منهما في الأربعين من عمره، يرتدي بيجامة ممزقة، شعره طويل حتى الكتفين؛ والآخر ذا شعر قصير، عارياً تماماً إلا من مخروط القش الصغير الذي يغطي عضوه التناسلي؛ يحمل على ظهره في سل من الخوص الأخضر عقاباً خطافاً، مكتّفاً كالدجاجة، هيئته تدعو للشفقة على الرغم من ريشه المحزز بالرمادي والأبيض، ورأسه ذو المنقار القوي الأصفر، يعلوه إكليل من الريش المنتصب. وكان كل منهما يحمل قوساً

وسهاماً.

وفهمنا من الحديث الذي دار بين أبيتارا وبينهما، أنهما رئيس القرية التي كنا نسعى إلى بلوغها ومرافقه؛ وهما يتقدمان الآخرين من السكان، الذين كانوا يجولون في مكان ما من الغابة؛ متوجهين جميعاً إلى ماشادو للقيام بالزيارة الموعودة إلى مركز بيمانتابوينو؛ أما العقاب فكان هدية لمضيفهم. لم يكن ليحظى هذا برضانا، لأننا لم نكن نود لقاء الأهالي وحسب، بل زيارة قريتهم. فوجب إذاً إقناع محدثينا بوساطة الهدايا العديدة التي كانت تنتظرهم في مخيم بوركينهو، بالرجوع على أعقابهم ومرافقتنا، لاستقبالنا في القرية (وهو ما أبدوا منه نفوراً شديداً)؛ ومن ثم نأخذ جميعاً طريقنا إلى النهر. وما إن تم الاتفاق، حتى ألقي بالعقاب المكتف من دون اكتراث على ضفة ساقية، حيث كان لا مفر له من الموت جوعاً، أو فريسة للنمل. ولم يجر الحديث عنه أثناء الخمسة عشر يوماً التي تلت، إلا لذكر موته: «لقد مات .. العقاب». واختفى الكواهيب الاثنان في الغابة، ليعلنا عن وصولنا لعائلاتهم، واستؤنف السير.

كان حادث العقاب يدعو للتأمل. إذ يذكر عدة مؤلفين قدامى أن التوبي كانوا يربون العقبان، ويغذونها بالقرود لينزعوا ريشها بصفة دورية؛ كما أشار روندون إلى هذه العادة لدى التوبي - كاواهيب، ورآها بعض الملاحظين لدى قبائل الكسينغو والأراغويا. فلا غرابة إذاً في محافظة جماعة من التوبي - كاواهيب عليها، ولا في كون العقاب الذي يُعدُّ أنفس ما يملكون، قد حمل هدية، إن قرر الأهالي حقاً (كما بدأت أشك في الأمر، وتحققت منه فيما بعد) هجر قريتهم والانضمام للحضارة نهائياً. ولكن هذا يجعل قرار التخلي عن العقاب لمصيره المحزن أكثر إبهاماً. ومع ذلك، ينبغي على تاريخ الاستعمار في أمريكا الجنوبية وأي مكان آخر، أن يضع في حسابه هذا التخلي الجذري عن القيم التقليدية، وهذا التفكك لأسلوب حياة، يؤدي فقد بعض عناصرها إلى التدني الفوري لقيم العناصر الأخرى، وهي ظاهرة ربما شهدت لتوي مثالاً معبراً عنها.

تناولنا وجبة خفيفة، مكونة من بعض قطع القديد، دون إزالة ملوحتها،

مصحوبة ببعض محصولات الغابة: كجوز التوكاري وهي ثمار ذات لب ابيض حامض وشبه رغوي، والكاكاو البري، وعناقيد من شجرة الباما، وحبات من كاجو الغابات. وهطلت الأمطار الليلة بطولها على ظلات السعف التي كانت تقي أراجيح النوم. وفي الفجر، أخذت تتردد في الغابة الساكنة طيلة النهار، صرخات القرود والببغاوات بضع دقائق. فاستأنفنا المسير الذي يسعى كل منا خلاله إلى البقاء على اتصال بصري بظهر من يتقدمه، وهو على قناعة بأن تباعدهما بعض الأمتار، قد يكفي لاختفاء كل مَعلم، واستحالة سماع أي نداء. لأن إحدى سمات الغابة المثيرة للانتباه، هي أنها تبدو غائصة في وسط اكثر كثافة من الهواء: لا يخترقه الضوء إلا مخضراً ومخففاً، ولا يبلغ فيه الصوت مداه. والصمت الغريب الذي يرين، نتيجة ربما لهذا الوضع، تصيب عدواه المسافر إن لم يكن الانتباه الشديد الذي عليه توجيهه إلى الطريق، قد دفعه قبلاً إلى السكوت. وتجتمع حالته المعنوية مع التعب الجسدي، لخلق شعور بالضيق يشق على المرء احتماله.

كان دليلنا ينحني بين الفينة والفينة، على حافة دربه الخفي، ويرفع بحركة سريعة ورقة، مشيراً لنا تحتها إلى شظية خيزران مدببة، مغروزة بالورب في الأرض، انتظاراً لقدم عدوة. تسمى هذه الأدوات: مين من قبل التوبي – كاواهيب، الذين يحمون أطراف قريتهم بهذه الطريقة، إلا أن قدامى التوبي كانوا يستعملون أكبر منها.

بلغنا بعد الزوال ما يسمى كاستا نهال، وهي مجموعة من أشجار الكستناء، كان الأهالي فتحوا حولها فرجة صغيرة، ليلتقطوا الثمار الساقطة فيها بسهولة، حيث وجدنا سكان القرية مخيمين؛ رجالها عراة إلا من الغمد الذكري الذي رأيناه قبلاً على مرافق الرئيس، والنساء عاريات أيضاً إلا من جراب قطني منسوج، يحيط بخصورهن، استحال لونه الأصلي بأحمر الأوروكو إلى الوردي نتيجة الاستعمال.

كانوا يعدون جميعاً، ست نساء وسبعة رجال منهم مراهق، وثلاث طفلات صغيرات، تبدو أعمارهن من سنة إلى ثلاث سنوات؛ فهم دون

شك أقل الجماعات عدداً، التي قدر لها أن تنجح خلال ثلاث عشرة سنة على الأقل (أي منذ اندثار قرية أبيتارا) في البقاء، مقطوعة عن كل اتصال مع العالم الخارجي. وكان هذا العدد يشمل اثنين مشلولي الأعضاء السفلى: امرأة شابة كانت تعتمد على عصوين، ورجل شاب أيضاً، يجر نفسه على الأرض كالكسيح؛ وركبتاه بارزتان من فوق ساقين هزيلتين، ومنتفختان من الداخل، كأنهما مملوءتان بالمصل؛ وأصابع قدمه اليسرى بلا حراك، بينما احتفظت أصابع القدم اليمنى بالقدرة على الحركة. ومع ذلك كان المعوّقان يتمكنان من التنقل في الغابة، وحتى قطع مسافات طويلة كما يظهر؛ هل كان ذلك شللاً دماغياً أم شيئاً آخر؟ كان من المحزن أن أستذكر أمام هؤلاء المساكين المتروكين وشأنهم في الطبيعة الأكثر قسوة، التي قدر لبني الإنسان مواجهتها، هذه الصفحات من تيفيت الذي زار توبي الساحل في القرن السادس عشر، حيث أعجب بهذا الشعب «المركب من العناصر عينها التي نتركب منها. ولا يصيبه مطلقاً الجذام ولا الشلل أو الخمول، ولا الأمراض المتقرحة أو أية آفة في الجسم ظاهرة». وما شك في أنه سيكون وأصحابه الرسل الأوائل لهذه الأدواء.

قرية الجداجد[1]

33 وصلنا القرية قبيل المساء. وكانت مقامة في فرجة اصطناعية تشرف على واد ضيق لسيل، تعرفت عليه فيما بعد على انه إغارابيه دوليتاو، أحد روافد الضفة اليمنى للماشادو، يصب على بضعة كيلومترات أسفل الموكي.

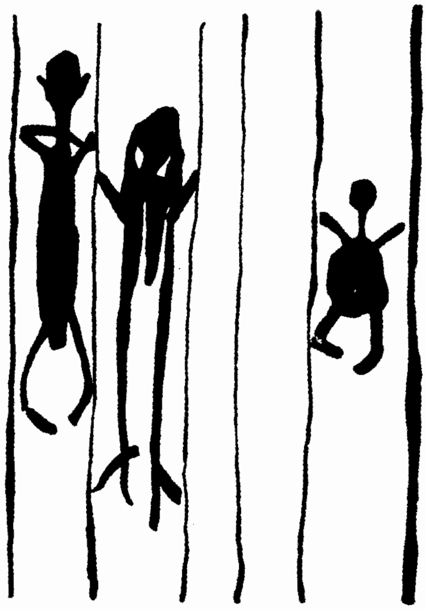
كانت القرية مؤلفة من أربعة بيوت شبه مربعة، بنيت على صف واحد، بالتوازي مع مجرى السيل. يستعمل البيتان الكبيران للسكن، كما يظهر من أراجيح النوم المصنوعة من حبال القطن المعقود، المعلقة بين الأعمدة؛ ولم يكن البيتان الآخران مشغولين منذ وقت طويل، إذ يبدوان كمخزنين أو ملجأين. كان ممكناً الاعتقاد، نتيجة فحص سطحي، بأن هذه البيوت من نمط المساكن البرازيلية في المنطقة. غير أن تصميمها مختلف في الواقع، لأن مخطط الأعمدة الداعمة لسقف السعف العالي ذي المنحدرين، كان مرسوماً في داخل مخطط السقف، وأصغر منه، بحيث يظهر البناء بشكل فطر مربع. وعلى كل، فهذه البنية ليست ظاهرة، نظراً لوجود جدران مستعارة أقيمت متعامدة مع السقف من دون أن تتصل به. وتتكون هذه الحواجز - لأنها كذلك بالفعل - من جذوع نخل مفلوقة، غرزت الواحد بجانب الآخر (وربطت بعضها ببعض) ووجهها المحدب إلى الخارج. وكانت جذوع البيت الرئيسي مقورة، لتهيئة فتحات مخمسة الأضلاع؛ وعلى الجدار الخارجي رسوم سريعة بلون الأوروكو الأحمر، ولون الراتنج الأسود. تمثل هذه الرسوم، وفقاً لشروح الأهالي شخصاً ونساءً وعقاباً قابضاً وأطفالاً، وحيواناً كبيراً من ذوات الأربع قوائم غير معرَّف،

---

(١) الجدجد: حشرة كالجراد، يصوت بالليل. (المترجم)

وشريطين من الخطوط المنكسرة، وسمكتين وفهداً، وأخيراً زخرفة تناظرية مكونة من مربعات وأهلة وأقواس.

لا تشبه هذه البيوت في شيء مساكن الأهالي في القبائل المجاورة. إلا أنها تتبع على الأرجح شكلاً تقليدياً. فعندما اكتشف روندون التوبي - كاواهيب، كانت بيوتهم عندئذ مربعة أو مستطيلة، بسقف ذي منحدرين، أضف إلى ذلك أن بنية الفطر لا تماثل أي تقنية برازيلية -جديدة. وتشهد وثائق عن الآثار القديمة لعدة حضارات لما قبل كولومبوس، من جهة أخرى، على وجود هذه البيوت ذات السقوف العالية.



الشكل (٣٧): تفصيلات من رسوم على جدار كوخ

وثمة خصوصية اخرى للتوبي -كاواهيب: هي انهم، على غرار أبناء عمومتهم البارينتنتين، لا يزرعون التبغ ولا يدخنونه. فعندما رآنا الرئيس نفك طرود مخزوننا من التبغ الملفوف حبالاً، صاح باستهزاء: «هذا غائط» حتى إن تقارير روندون أشارت إلى أن الأهالي لدى الاتصالات الأولى معهم، كانوا يتضايقون من وجود المدخنين، وينتزعون منهم السجائر. ومع ذلك، فإن التوبي -كاواهيب، بخلاف البارينتنتين، لديهم كلمة للدلالة على التبغ، وهي: تاباك، أي الكلمة نفسها المستعملة في اللغات الأوروبية، مشتقة من اللهجات الأهلية القديمة للأنتيل، وذات أصل كاريبي كما يبدو. ويمكن إيجاد صلة وصل محتملة، في لهجات الغابوريه، التي تملك

الكلمة ذاتها؛ فإما أنهم اقتبسوها من الإسبان (البرتغالية تقول: فومو) وإما أن الزراعات الغابورية تمثل النقطة الأكثر تقدماً باتجاه الجنوب الغربي، لحضارة انتيلية-غويانية (كما تشير كثير من الدلائل) تكون تركت آثاراً لمرورها في وادي كيسينغو الأسفل.

وعلينا أن نضيف بأن النامبيكوارا مدخنون عنيدون للسجائر، بينما يدخن الجيران الآخرون للتوبي-كاواهيب: كالكيبكيريوات والمونديه، التبغ بأنابيب نفاخة. وهكذا يشكل وجود مجموعة من القبائل بدون تبغ، في قلب البرازيل، لغزاً، لاسيما إذا تذكرنا أن قدامى التوبي كانوا يدخنون التبغ على نطاق واسع.

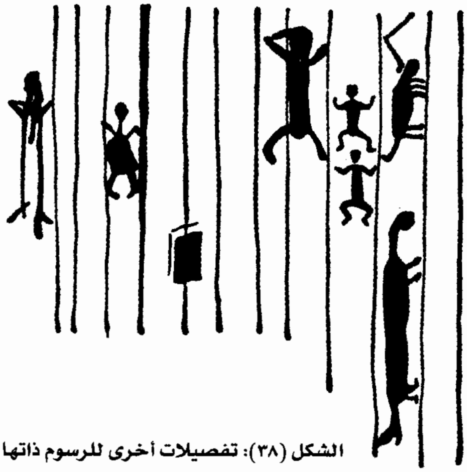
فلعدم وجود التبغ إذاً، سيصار إلى استقبالنا في القرية بما كان رحالو القرن السادس عشر يدعونه كاهوين-كاهوي(*)، كما يقول التوبي-كاواهيب- أي حفلة شراب الشيشا، من الذرة التي يزرع الأهالي منها أنواعاً عدة في الأراضي المحروقة حول القرية. وكان المؤلفون القدامى وصفوا القدور التي يحضر السائل فيها، وتطاول قامات الرجال؛ وذكروا الدور المنوط بعذارى القبيلة، اللائي يبصقن فيها لعاباً وفيراً لاستثارة التخمر. لا أدري إن كانت القدور جد صغيرة، أم أن القرية كان ينقصها عذارى أخريات. المهم أنهم جاؤوا بثلاث بنات صغيرات، جعلوهن يبصقن في مغلي الحبوب المهروسة. وبما أن الشراب المغذي والمنعش استهلك في المساء نفسه، فلم يتقدم التخمر كثيراً.

(*) لا يستطيع القارئ إلا أن يلاحظ التشابه بين الكلمتين، وبين كلمة قهوة العربية، التي تعني الخمر في الأصل (المترجم)

سمحت لنا زيارة البستان برؤية - حول القفص الخشبي الكبير الذي كان يشغله العقاب، والذي تناثرت في أرضه العظام- الفول السوداني والفاصولياء والفليفلة على اختلافها والبطاطا الحلوة والمانيوق والذرة. ويكمل الأهالي هذه الموارد، بجمع المحاصيل البرية فيستغلون نجيلية من الغابة، يربطون قمة عدة سيقان منها، بحيث تتجمع الحبوب الساقطة بشكل كومات صغيرة. وتسخن هذه الحبوب على صفيحة من الفخار

حتى تتفجر كالبوبكورن الذي تماثله في الطعم.

وبينما كان الكاهوين يجتاز دورته المعقدة من مزج وغلي، تحركه النساء بواسطة مغرفة من نصف قرعة، كنت أستغل الساعات الأخيرة من النهار بتفحص الهنود.



الشكل (٣٨): تفصيلات أخرى للرسوم ذاتها

كانت النساء يرتدين، بالإضافة إلى الجراب القطني، عصابات مشدودة بإحكام حول المعصم والكاحل، وعقوداً من أسنان التابير أو من صفحات عظم الأيائل. ووجوههن موشومة بعصارة الأخيليا العطرة الزرقاء الداكنة. فعلى الوجنتين: خط مائل ثخين، من شحمة الأذن إلى مقرن الشفتين المعلم بأربعة خطوط عمودية صغيرة؛ وعلى الذقن؛ أربعة خطوط أفقية متراكبة، يقترن كل منها بحاشية من الحزوز. أما الشعر القصير عموماً، فكان يُسرح غالباً بمشط أو أداة أكثر نعومة، مصنوعة من أعواد خشبية، يضمها خيط من القطن.

ولم يكن الرجال يرتدون إلا الغمد الذكري المخروطي الذي ألمحنا إليه آنفاً. وقد كان أحد الأهالي منهمكاً بالصدفة بصنع واحد. نزعت ورقتا باكوفا طريتان من العرق المركزي، وأزيل عنهما الطرف الخارجي الصلب، ثم طويتا طولياً. وبإدخال القطعتين (نحو سبعة سنتيمترات في ثلاثين سنتيمتراً) الواحدة في الأخرى، بحيث تنضم الطيتان بزاوية قائمة، يُحصل على مثلث من ثخني ورقة للضلعين، وأربع ثخانات للرأس، حيث يتقاطع الشريطان؛ ويثنى هذا الجزء على نفسه طبقاً لقطره، ويقطع الفرعان ويرميان؛ وإذا بين يدي العامل مثلث متساوي الساقين معمول

من ثماني ثخانات، يُدَور حول الإبهام من الأمام إلى الخلف؛ ويقطع رأسا الزاويتين السفليتين، وتخاط الحواف الجانبية بإبرة من الخشب وخيط نباتي. وهكذا يصبح الغمد جاهزاً لوضعه في مكانه بجذب القلفة عبر الفتحة، حتى لا يتعرض للسقوط، ويُبقي ضغط الجلد العضو مرفوعاً. والرجال جميعاً، يضعون هذه الأداة؛ وإذا ما فقد أحدهم غمده الذكري، يسارع إلى شد طرف قلفته إلى ما تحت الحبل الذي يطوق خصره.

كانت المساكن شبه فارغة. ليس فيها إلا أراجيح النوم المصنوعة من الخيوط القطنية؛ وبعض القدور الطينية، وحوض لتجفيف لباب الذرة أو المانيوق على النار؛ وأوان من القرع، ومهارس ومدقات من الخشب؛ ومبشرات للمانيوق من الخشب المطعم بالأشواك؛ ومناخل من القصب، وأزاميل من أسنان القوارض؛ ومغازل وبعض القسي بطول ١,٧م تقريباً. وللسهام عدة نماذج: منها برأس من الخيزران المدبب للصيد، ومنها برأس كأسنان المنشار للحرب، ومنها بعدة رؤوس للصيد النهري. وتلاحظ، أخيراً، بعض الآلات الموسيقية: كالمزمار ذي الثلاثة عشر أنبوباً، والمزمار الصغير ذي الأربعة ثقوب. وفي الليل، حمل لنا الرئيس بحفاوة كبيرة، الكاهوين ويخنة الفاصولياء والفليفلة، التي كانت تذهب بالفم؛ وجبة ممتازة بعد ستة شهور مضت مع النامبيكوارا الذين يجهلون الملح والفلفل، وتتطلب أفواههم المرهفة رش الأطعمة بالماء، لتبريدها قبل الأكل. كان ملح الأهالي في قرعة صغيرة، وهو ماء عكر بلغ مراره حداً، جعل الرئيس الذي كان يكتفي بمشاهدتنا أثناء الأكل، يتذوقه بحضورنا، ليطمئننا على خلوه من السم. ويحضر هذا الملح من رماد شجرة تواري برانكو. وعلى الرغم من تواضع الوجبة، إلا أن الوقار الذي قدمت به، ذكرني بما كان يتوجب على رؤساء التوبي القدامى من الحفاظ على مائدة مفتوحة، طبقاً لتعبير أحد الرحالين.

ومن التفاصيل الأكثر إدهاشاً، أنني فوجئت بعد قضائي الليلة في أحد المخزنين، بأن الجداجد قرضت حزامي الجلدي. إذ لم أعان قط من مضار هذه الحشرات التي ظلت غير ملحوظة، في كل القبائل التي

شاركتها حياتها: الكينغانغ، الكادوفو، البورورو، الباريسي، النامبيكوارا، الموندية. وقدر لي أن أعيش هذا الحادث المزعج، الذي عرفه إيف ديفرو وجان دوليري، أربعمائة سنة من قبل. وبما أن الجداجد (بخلاف الأرضة وغيرها من الحشرات المخربة) تكتفي بقرض القشرة السطحية للجلد، فقد وجدت حزامي أبيض ومقشوراً تماماً؛ وذاك شاهد على الشراكة الغريبة والحصرية القديمة، بين نوع من الحشرات وتجمع بشري.

ومع شروق الشمس، مضى أحد رجالنا إلى الغابة لاصطياد بعض طيور الورشان التي كانت تحوم على أطرافها. وبعد قليل، سمعنا صوت طلقة نارية،فلم يعرها أحد اهتماماً؛ لكن أحد الأهالي أقبل مسرعاً، شاحب الوجه وفي حالة هياج شديد، محاولاً أن يشرح لنا شيئاً، غير أن أبيتارا لم يكن قريباً ليترجم لنا. وكنا نسمع في هذه الأثناء صيحات عالية تقترب؛ وإذا بالرجل يعبر المزروعات راكضاً، وهو يمسك بيده اليسرى ساعده الأيمن الذي تتدلى منه أشلاء: فقد كان استند إلى بندقيته؛ وانطلقت الرصاصة. وتداولت مع لوي في ما يجب فعله؛ إذ كانت ثلاثة أصابع شبه مقطوعة؛ وتبدو راحة اليد محطمة؛ ولابد من البتر إذاً. ومع ذلك، لم تكن لدينا الشجاعة للقيام به، وترك رفيقنا معوَّقاً، وكنا اخترناه وأخاه في قرية صغيرة من نواحي كويابا، ونشعر بأننا مسؤولون عنه بصفة خاصة، نظراً لشبابه ولتعلقنا به نتيجة إخلاصه وأدبه الفلاحي. أما بالنسبة له، ومهنته الاهتمام بحيوانات الحمل التي تتطلب مهارة يدوية كبيرة لوسق الحمولة على ظهور البغال والثيران، فالبتر كارثة. قررنا بشيء من الخوف إعادة الأصابع إلى موضعها بالتقريب؛ وعمل ضماد بالوسائل التي كانت في أيدينا والعودة أدراجنا؛ ولدى وصولنا إلى المخيم يصطحب لوي الجريح إلى أوروبا حيث يوجد طبيبنا، وسأبقى -إن رضي الأهالي بهذه الترتيبات -معهم، مخيِّماً على ضفة النهر، في انتظار عودة المركب لأخذي بعد خمسة عشر يوماً (كان لابد من ثلاثة أيام لنزول النهر، ونحو أسبوع لصعوده). لكن الهنود، وقد ارتاعوا لحادث، يخشون أن يغير من علاقتنا الودية، قبلوا كل ما اقترح

عليهم، فتقدمناهم في الغابة، لنترك لهم الوقت لإعادة الاستعداد للرحيل.

ومضت الرحلة في جو مقبض، وبقيت ذكريات قليلة منها. إذ كان الجريح يهذي طوال الطريق، وهو يسير بسرعة لم نكن لنجاريه فيها في المقدمة، أمام الدليل حتى، دون أن يشعر بأي تردد في درب، كان يبدو كأنه ينغلق وراءنا. وبما أنه لم يكن معتاداً على الأدوية لحسن الحظ، فقد أحدثت الأثر المرجو. وعند وصولنا إلى المخيم، كانت يده مملوءة بالدود، وهو ما سبب له آلاماً مبرحة. ولكن عندما أُسلم إلى الطبيب، بعد ثلاثة أيام، كان الجرح قد سلم من الغنغرينة، لأن الديدان استهلكت اللحم المتعفن أولاً بأول. لم يعد البتر ضرورياً إذاً، وأعادت عدة عمليات جراحية صغيرة، أبدى فيلار فيها مهارته، إلى إميديو يداً مقبولة. وما إن وصلنا إلى ماديرا في كانون الأول/ ديسمبر حتى أرسلته ناقهاً إلى كويابا بالطائرة مراعاة لحالته الصحية. ولدى عودتي إلى هذه النواحي في شهر كانون الثاني/ يناير للقاء أغلبية رفاقي، زرت أبويه، فوجدتهما ينحيان باللائمة علي، ليس بسبب آلام ابنهما بالتأكيد، التي اعتبرت حادثة عادية في السيرتاو، بل لأنني بلغت من البربرية حداً جعلني أعرضه للسفر بالطائرة، وهو موقف شيطاني، ما كانا يظنان أن يعرض له مسيحي.

مهزلة جاييم

34 هكذا كانت أسرتي الجديدة مؤلفة. تابيراهي بداية، رئيس القرية ونساؤه الأربع: مارواييه، الأكبر سناً؛ وكونها تسين وابنتها من زواج سابق؛ تاكوام، ويانوباموكور الشابة المشلولة. وكانت هذه الأسرة المتعددة الزوجات، تربي خمسة أبناء: كاميني وبويريزا، وهما شابان يبدوان في السابعة عشرة والخامسة عشرة من العمر؛ وثلاث طفلات هن: بايريه، توبيكيا، كوبيكاهي.

وكان مرافق الرئيس في نحو العشرين من عمره، وابناً لماروابيه من زواج سابق. وهناك أيضاً امرأة عجوز هي ويراكارو، وابناها المراهقان تاكواري وكارامو، الأول عَزَب، والثاني متزوج من ابنة أخته التي لم تكد تصل إلى سن البلوغ، بينهانا؛ وأخيراً ابن عمهم؛ وهو الشاب المشلول واليرا.

إن التوبي -كاواهيب، على خلاف النامبيكوارا، لايخفون أسماءهم، التي تتصف بأن لها معنى كما ذكره لدى التوبي رحالو القرن السادس عشر،إذ كتب ليري «كما نفعل مع الكلاب وغيرها من الحيوانات يطلقون، دون تمييز، أي اسم للأشياء التي يعرفونها من مثل: ساريغوي وهو حيوان على أربع، أرينيان وهي دجاجة؛ أربوتين أي شجرة البرازيل، بندو وهو العشب الطويل، وغيرها».

وكان الأمر هو ذاته في جميع الأحوال التي قدم لي الأهالي فيها تفسيراً لأسمائهم. فتابيرا طير صغير ذو ريش أبيض وأسود؛ وكونهاستين تعني امرأة بيضاء أو بَشَرَة فاتحة؛ تاكام وتاكواري اسمان مشتقان من تاكوارا، وهو نوع من الخيزران؛ بوتيان يعني قريدس المياه العذبة، يراكورو اسم لطفيليات صغيرة تعيش على الإنسان؛ واليرا نوع من الخيزران أيضاً.

ستادن، وهو رحالة آخر من القرن السادس عشر، يقول إن النساء «يتخذن عادة أسماء طيور وأسماك وفاكهة» ويضيف بأنه كلما قتل رجل منهم أسيراً، يتخذ هو وامرأته اسماً جديداً. وكان رفاقي يمارسون هذه العادة؛ فكاراموا يسمى أيضاً جاناكو لأنه، كما شرح لي «قتل رجلاً من قبل».

ويكتسب الأهالي أسماء جديدة، بانتقالهم من الطفولة إلى المراهقة ثم سن الرشد. فكل منهم يملك منها اثنين، وثلاثة أو أربعة كان يطلعني عليها بطيبة خاطر. وتكتسي هذه الأسماء أهمية كبيرة، لأن كل ذرية تفضل استعمال حصة مكونة انطلاقاً من الجذور ذات الصلة بالجماعة. فالقرية التي كنت أقوم بدراسة سكانها، كانت في أغلبيتها من جماعة ميالات («أصحاب الخنزير البري»)؛ لكنها تكونت من التزاوج مع جماعات أخرى: باراناوات («أصحاب النهر»)؛ تاكواتيب («أصحاب الخيزران») وغيرهما. والحال أن كل أعضاء الجماعة الأخيرة يحملون أسماء مشتقة من اسم الشهرة: تاكوام، تاكواري، واليرا (هو خيزران غليظ) توبيهي (فاكهة من العائلة نفسها) كاراموا (نبتة أيضاً لكنها غير معروفة).

والسمة الأكثر إدهاشاً في التنظيم الاجتماعي لهؤلاء الهنود، هي شبه الاحتكار الذي يمارسه الرئيس على نساء المجموعة. فمن بين ست نساء بالغات، أربع كن زوجاته. وإذا تذكرنا أن واحدة من الاثنتين المتبقيتين هي أخته بينهانا، وبالتالي محرمة عليه، والأخرى -ويراكورورو- عجوز لا تهم أحداً، يبدو بأن لتابيراهي من النساء، بقدر ما يستطيع الحصول عليه مادياً. وتقوم بالدور الرئيسي في منزله كونهاستين، وهي الأصغر، إذا استثنينا إينوباموكو المعوَّقة، والأجمل أيضاً. وتعتبر ماروابيه زوجة ثانوية من حيث المكانة، فابنتها تأتي قبلها.

ويبدو أن الزوجة الرئيسية تساعد زوجها مباشرة أكثر من الأخريات اللواتي يقمن بالأعمال المنزلية: كالطبخ والعناية بالأطفال الذين يربون بدون تمييز بين ثدي وآخر، بحيث لم أستطع التأكد من هوية أم كل منهم. أما الزوجة الرئيسية فترافق زوجها في تنقلاته، وتساعده في

استقبال الغرباء، وتحتفظ بالهدايا المقدمة، وتدبر شؤون البيت. وهذا على عكس ما لاحظته لدى النامبيكوارا، حيث الزوجة الرئيسية هي التي تقوم بالأعمال المنزلية، بينما تكون الخليلات الشابات وثيقات الصلة بالنشاط الذكوري.

يظهر أن امتياز الرئيس فيما يتصل بنساء المجموعة، مؤسس على الاعتقاد بأن له طبيعة خاصة خارقة للعادة. إذ يُعترف له بمزاج يميل إلى الإفراط؛ ويسقط مغشياً عليه أحياناً، يكون من الضروري خلالها، السيطرة عليه لمنعه من القتل (وسأعطي مثالاً على ذلك فيما بعد)؛ ولديه موهبة التنبؤ وسجايا أخرى، وأخيراً تتجاوز شهيته الجنسية المعتاد، ويتطلب إشباعها عدداً كبيراً من النساء. وخلال الأسبوعين اللذين قاسمت فيهما الأهالي مخيمهم، غالباً ما أدهشني السلوك الشاذ -بالنسبة لسلوك أصحابه- للرئيس تابيراهي. إذ كان يبدو مصاباً بهوس التنقل: فينقل ثلاث مرات يومياً على الأقل أرجوحة نومه وظلة السعف التي تقيه المطر، يتبعه في كل مرة نساؤه ومرافقه بوتيان وأطفاله. ويختفي كل صباح في الغابة مع النساء والأطفال، من أجل الجماع كما يقول الأهالي. ثم يعودون بعد نصف ساعة أو ساعة لتهيئة انتقال جديد.

ويُعوَّض امتياز الرئيس في تعدد الزوجات إلى حد ما، بإعارته نساءه لأصحابه وللضيوف. وبوتيان ليس مجرد مرافق، بل يشارك أسرة الرئيس حياتها، ويتلقى منها مايقتات به، وقد يقوم أحياناً بالعناية بالأطفال، ويتمتع بمزايا أخرى. أما عن الضيوف، فقد أسهب جميع مؤلفي القرن السادس عشر في الحديث عما أبداه الرئيس توبيناما من تساهل تجاههم. وقد تجسد واجب الضيافة هذا، منذ أن وصلت، لمصلحة أبيتارا الذي استعار يانوباموكو، وكانت حاملاً؛ فقاسمته أرجوحة نومه وحصلت منه على طعامها حتى نهاية الإقامة.

ووفقاً لما باح به ابيتارا، لم تكن هذه الأريحية منزهة عن الغرض. إذ اقترح تابيراهي على أبيتارا، أن يتخلى له عن يانوبو موكو بصفة نهائية، في مقابل ابنته توبيهي، التي كانت في الثامنة من عمرها: «يبغي الرئيس

الزواج من ابنتي». ولم يكن أبيتارا متحمساً، لأن ياتوباموكو المعوَّقة، لا تستطيع القيام بأعباء الزوجة: فهي «ليست قادرة، كما يقول، على جلب الماء من النهر» وكانت المقايضة مجحفة بالتالي، بين امرأة معوَّقة جسدياً، وصبية سليمة ذات مستقبل. كما أن لأبيتاراً مشاريع أخرى: إذ كان يود مقايضة توبيهي، بالصغيرة كوبيكاهي ذات العامين، محتجاً بأنها ابنة ناكوام، وهي مثله من جماعة تاكواتيب، وسيتمكن من ممارسة سلطته كخال لها. كما ينبغي أن تُعطى تاكوام نفسها، ووفقاً لمخططه، لأحد الأهالي في مركز بيمانتا بوينو. وهكذا يستعاد توازن الرابطة الزوجية جزئياً، لأن تاكواري كان «خطيباً» للصغيرة كوبيكاهي. وما إن تكتمل هذه المبادلات، حتى يكون تابيراهي فقد امراتين من أربع، ولكنه مع توبيهي سيكتسب ثالثة.

لا ادري ماكانت نتيجة هذه المساومات؛ لكنها خلال خمسة عشر يوماً من الحياة المشتركة، كانت تثير توترات بين المعنيين، إلى حد يبعث على القلق أحياناً. فأبيتارا كان متيماً بخطيبته ذات العامين التي كانت تبدو له، على الرغم من كونه في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين، زوجة ملائمة ويقدم لها بعض الهدايا؛ وعندما كانت تتنطط على طول الضفة، لم يكن يخفي إعجابه بأعضائها الصغيرة المتينة: أية فتاة جميلة ستكونها بعد عشر أو اثنتي عشرة سنة! وعلى الرغم من سني ترمله فإن هذا الانتظار الطويل لا يخيفه؛ إذ كان يعتمد على يانوبا موكو في القيام بالواجب نيابة عنها. وكانت تختلط بالعواطف الحانية التي توحي له بها الطفلة، أحلام شهوانية تتجه ببراءة للمستقبل، وشعور أبوي بمسؤوليته حيال الصغيرة، وصداقة حنون من أخ أكبر، ولدت له أخت بعد الأوان.

وكان ثمة تدبير آخر يخفف من التفاوت في توزيع النساء، يتمثل في وراثة الرجل لامرأة أخيه المتوفى. فبهذه الطريقة زُوج ابيتارا، على غير إرادة منه، بزوجة أخيه المتوفى. لكنه انصاع لأوامر أبيه، وإلحاح المرأة التي «كانت تدور بلا انقطاع حوله». وزيادة على ذلك، يمارس التوبي- كاواهيب تعدد الأزواج من بين الأخوة، ومثاله الصغيرة بينهانا النحيلة،

التي لما تكد تصل سن البلوغ؛ إذ يتقاسمها زوجها كاراموا، وسلفاها تاكواري ووواليرا، بما أن هذا الأخير، أخ بالتبني للآخرين فقط: «إنه يعير امرأته لأخيه»، لأن «الأخ لا يغار من أخيه». ويتخذ أخوة الزوج وأخوات الزوجة، في العادة، موقفاً متحفظاً من دون أن يتجنب أحدهم الآخر. فعندما تُعار امرأة، يشعر الآخرون بذلك من الألفة التي تسود ذلك اليوم علاقاتها مع سلفها. إذ يتحدثان معاً ويتضاحكان، ويطعمها السلف بيده. كان تاكاواري في أحد الأيام التي استعار فيها بينهانا يتناول الغداء بجانبي. وما إن بدأ الأكل حتى طلب من أخيه كاراموا «أن يأتي ببينهانا لتأكل»، ولم تكن بينهانا جائعة لأنها أكلت قبلاً مع زوجها، ومع ذلك أتت وقبلت لقمة، وعادت في الحال. وكان أبيتارا أيضاً يغادر بيتي حاملاً طعامه إلى إينوباموكو لتناوله برفقتها.

فبالجمع بين تعدد الزوجات ونظام التزاوج إذاً، يتم لدى التوبي-كاواهيب، حل المشكلة التي تسببها صلاحيات الرئيس في مسألة الزواج. وقد كان من المدهش، بعد تركي للنامبيكوارا ببضعة أسابيع، أن أرى إلى أي مدى تختلف الحلول التي تقدمها جماعات جد قريبة جغرافياً، لمشكلات متماثلة. لأن لرئيس النامبيكوارا أيضاً، كما رأينا، امتياز تعدد الزوجات، الذي يؤدي إلى عدم التوازن ذاته، بين عدد الشباب والعدد المتاح من الزوجات. لكنهم عوضاً عن اللجوء إلى تعدد الأزواج على غرار التوبي-كاواهيب، يسمحون للمراهقين بممارسات المثلية الجنسية، التي ينظر إليها التوبي-كاواهيب باشمئزاز، ويدينونها إذاً. كما لاحظه ليري بمكر عن أسلافهم: «لأنهم عندما يختصمون أحياناً، يدعو بعضهم بعضاً تيفير (يقول التوبي كاواهيب الشيء نفسه تقريباً توكوروا) أي ويحك؛ يمكن الظن (لأنني لا أؤكد شيئاً) بأنها خطيئة شنيعة ترتكب فيما بينهم».

تشكل مسألة الرئاسة لدى التوبي-كاواهيب موضوع تنظيم معقد، ظلت القرية متعلقة به رمزياً، كما يحدث في بلاطات الملوك المخلوعين، حيث يحرص أحد الأوفياء على لعب دور الحاجب، لإنقاذ الهيبة الملكية ووقارها. وهكذا يبدو بوتيان بجانب تابيراهي؛ إذ بمثابرته على خدمة

سيده، والاحترام الذي يبديه له، وتوقير بقية أعضاء الجماعة له في المقابل، يحسب المرء أن تابيراهي، لايزال يقود، كما كان أبيتارا سابقاً، بضعة آلاف من الرعايا أو الموالين. كان البلاط في ذلك الوقت، يتضمن أربع رتب هي: الرئيس، الحراس الشخصيون، الضباط الصغار، الأصحاب. وكان للرئيس حق الحياة والموت. أما طريقة الإعدام في القرن السادس عشر فهي الإغراق الذي يكلف به الضباط الصغار. لكن الرئيس كان يعتني بأصحابه أيضاً، ويقوم بالمفاوضات مع الأغراب، كما أتيحت لي الفرصة لملاحظته.

كنت أقتني قِدْراً كبيرة من الألمنيوم، نستخدمها في طبخ الأرز. وجاءني تابيراهي صباحاً، مع أبيتارا كمترجم، يطلب مني هذه القدر، على أن يلتزم في المقابل بوضع كل ما نرغب فيه من كاهوين بتصرفنا، طيلة مدة إقامتنا. فحاولت أن أشرح له بأن هذا الإناء ضروري لنا، إلا أنني كنت ألاحظ بدهشة، بينما كان أبيتارا يترجم، بأن ابتسامة عريضة لا تفارق وجه تابيراهي، وكأن كلماتي تستجيب لكل رغباته. وبالفعل، ما إن أنهى أبيتارا عرض أسباب رفضي، حتى قبض تابيراهي على القدر، وضمها ببساطة إلى متاعه. ولم يكن أمامي سوى الإذعان. وكان تابيراهي وفياً لتعهده، وزودنا طيلة أسبوع بكاهوين فاخر، متكون من ذرة وتوكاري، استهلكت منه كمية كبيرة لم يحد منها سوى شفقتي على الغدد اللعابية للطفلات الثلاث. وقد ذكرني هذا الحادث بمقطع كتبه إيف ديفرو: «إذا رغب أحدهم في الحصول على شيء يملكه غيره، يعرب له بصراحة عن رغبته: وينبغي أن يكون الشيء عزيزاً جداً على الذي يملكه. وإذا كان لدى الطالب شيء يرغب به المعطي، يعطيه له عندما يطلبه منه».

ولدى التوبي -كاواهيب تصور لدور رئيسهم يخالف تصور النامبيكوارا، إذ يقولون: «الرئيس فرح دائماً» وتقدم الحيوية الخارقة التي يبديها تابيراهي في كل مناسبة أبلغ مصداق لهذا القول. وهي لا تفسر فقط بقدرات فردية، لأن الرئاسة لدى التوبي -كاواهيب، على عكس ما يجري لدى النامبيكوارا، وراثية للأبناء الذكور: وهكذا سيخلف بويريزا أباه؛

والحال أن بويريزا كان يبدو أصغر من أخيه كاميني، وحصلت على مؤشرات أخرى على تقدم محتمل للأصغر على البكر. وفي الماضي، كانت إحدى المهام المنوطة بالرئيس، مهمة القيام باحتفالات يكون فيها «السيد» أو «المالك». حيث كان الرجال والنساء يغطون أجسامهم برسوم (وخاصة بعصارة بنفسجية لورقة غير معروفة، تستعمل أيضاً للرسم على الفخار). وكانت هناك حفلات رقص مع غناء وموسيقى، تصاحبها أربعة أو خمسة مزامير مصنوعة من قطع خيزران طولها ١,٢٠ م. وكان «سيد الحفل» يأمر الرجال بالتدرب على حمل عازف على الأكتاف، وهي لعبة تنافسية تذكر برفع الماريدّو لدى البورورو، والسباقات مع جذوع الأشجار لدى الجي.

كانت الدعوات تتم سلفاً، حتى يكون لدى المشاركين وقت لجمع وتدخين حيوانات صغيرة، كالجرذان والقرود والسناجب، التي يحملونها منظومة حول أعناقهم. وتقسم لعبة العجلة القرية إلى معسكرين: الصغار والكبار. يتجمع الفريقان في الطرف الغربي من أرض دائرية بينما يتخذ قاذفان ينتميان إلى كل من المعسكرين موقعهما في الشمال وفي الجنوب؛ يرسل أحدهما للآخر عجلة مملوءة، مكونة من مقطع جذع شجرة. وعندما يمر هذا الهدف أمام الرماة، يحاول كل منهم إصابته بسهم. ولدى كل رمية صائبة، يستولي الرابح على سهم من الخصم. ولهذه اللعبة ما يماثلها بشكل مدهش في أمريكا الشمالية.

وأخيراً، ترمى السهام على هدف يكون دمية، بشيء من المجازفة: لأن من يعلق سهمه بالعمود المستعمل دعامة، سيكون مصيره مشؤوماً، مثل من تكون لديه الجرأة لنحت تمثال من الخشب على صورة إنسان، عوضاً عن دمية من القش أو تمثال لقرد.

هكذا كانت الأيام تمضي في تجميع نُتف من ثقافة فتنت أوروبا، وكانت على ضفة أعلى الماشادو اليمنى، على وشك الاندثار ربما، لحظة مغادرتي لها: إذ في الساعة التي وضعت قدمي على المركب العائد من أوروبا، يوم ٧ تشرين الثاني/ أكتوبر ١٩٣٨، كان الأهالي في طريقهم إلى

بيمانتابوينو: للانضمام هناك إلى أصحاب أبيتارا وأسرته.

ومع ذلك، مع قرب هذه التصفية المحزنة لأصول ثقافة محتضرة، كانت تنتظرني مفاجأة. كان ذلك بداية الليلة، عندما يستغل كل منا ساعات نيران المخيم الأخيرة، ليعد نفسه للنوم. كان تابيراهي قد استلقى في أرجوحة نومه، وشرع يغني بصوت خفيض ومتهدج، لا يكاد يبدو صادراً عنه. وفي الحال، جاء رجلان (واليرا وكاميني)، جلسا القرفصاء عند قدميه؛ فتوضح غناء الرئيس وقوي صوته. وفهمت بغتة ماكان يجري أمامي: إذ كان تابيراهي منهمكاً في تمثيل مسرحية؛ أو مسرحية غنائية على الأصح، بمزيج من غناء ونص محكي. فكان يتقمص وحده اثنتي عشرة شخصية؛ لكن كل واحدة تتميز بنبرة صوتية خاصة: حادة، ناشزة، حلقية، مدندنة، وبلحن موسيقي كان لازمة حقيقية. وتبدو الألحان قريبة بشكل مدهش من الغناء الغريجوري - فبعد تتويج الربيع الذي ذكرتني به مزامير النامبيكوارا، كنت أحسب نفسي أستمع إلى نسخة غريبة من الأعراس(*).

استطعت بمعونة أبيتارا -الذي كان مأخوذاً بالمشهد إلى حد، كان من الصعب معه انتزاع أي شرح منه- أن أكوّن فكرة تقريبية عن الموضوع. وكانت المسرحية مهزلة، بطلها طير الجابيم (طير أسود وأصفر، يشبه غناؤه المنغم الصوت الإنساني)؛ تشاركه حيوانات أخرى؛ سلحفاة وفهد وصقر وآكل النمل وتابير وعظاية، إلخ، وأشياء من مثل: عصا ومدقة وقوس؛ وأخيراً أرواح مثل الشبح ميرا. وكان يعبر عن كل منها بأسلوب بلغ من مطابقته لطبيعته حداً، جعلني أتوصل إلى التعرف عليه. أما العقدة فتدور حول مغامرات الجابيم، الذي وجد نفسه مهدداً من الحيوانات الأخرى، فمسخها بأشكال مختلفة، وانتهى إلى الانتصار عليها. وقد كررت المسرحية (أو استمرت) ليلتين متتاليتين، وكانت تدوم في كل مرة نحو أربع ساعات. وكان تابيراهي يبدو وقد أخذه الإلهام أحياناً، فيستفيض بالغناء والكلام، ويستغرق

(*) الأعراس: باليه، ألف موسيقاها سترافنسكي، وقدمها الباليه الروسي لأول مرة في ١٩٢٣. (المترجم)

الجميع بالضحك من كل ناحية. ويبدو أحياناً منهكاً، يضعف صوته وهو يجرب ألحاناً مختلفة دون أن يثبت على أي منها،فيهب عندئذ أحد المرددين أو كلاهما معاً لنجدته، إما بتكرار نداءاتهما لإعطائه مهلة، وإما باقتراح نغم، وإما بالقيام مؤقتاً بأحد الأدوار لدرجة نشهد معها حواراً حقيقياً للحظات. وهكذا يستأنف تابيراهي، بعدما استرد نشاطه، تطوير الغناء من جديد.

ومع تأخر الوقت، كنا نحس بأن هذا الإبداع الشاعري يقترن بفقد الممثل للوعي، وأن شخصياته سيطرت عليه. فصارت أصواته المختلفة غريبة عنه، يكتسب كل منها طبيعة جلية، يصعب معها التصديق بأنها تنتمي للفرد نفسه، وفي نهاية الحفلة الثانية، وبينما كان تابيراهي يغني، نهض فجأة من أرجوحة نومه، وأخذ بالدوران كيفما اتفق، طالباً كاهوين؛ إذ «استحوذت الروح عليه». وقبض بغتة على سكين وأسرع إلى كونهاستين، امرأته الرئيسية التي أفلتت منه بصعوبة كبيرة، وفرت إلى الغابة، بينما كان الآخرون يمسكون به، ويجبرونه على التوجه إلى أرجوحة نومه، حيث استغرق في النوم. وكان كل شيء في الغد عادياً.

الأمازون

35 عند وصولي إلى أوروبا، حيث تبدأ الملاحة البخارية، وجدت رفاقي مقيمين في كوخ واسع من القصب، مقام على ركائز، ومقسم إلى غرف بحواجز. لم يكن لدينا ما نعمله، فيما عدا بيع ما تبقى لنا من معدات إلى السكان المحليين، أو مقايضتها بالدجاج والبيض والحليب -إذ كان ثمة أبقار- والعيش بكسل لاستعادة قوانا، منتظرين ارتفاع المياه في النهر، نتيجة الأمطار التي ستسمح لأول مركب خلال الموسم بالصعود إلى حيث كنا؛ وهو ما يتطلب ثلاثة أسابيع من دون شك. وبينما كنا نذيب كل صباح الشكولاته بالحليب، كان الفطور يمضي ونحن نتأمل الدكتور فيلار وهو يستخرج بعض شظايا العظم من يد إيميديو، ويقوم بإصلاحها شيئاً فشيئاً. كان في هذا المنظر شيء مقزز وأخاذ في الوقت ذاته، إذ كان يقترن في ذهني بمنظر الغابة المليء بالصور والمخاطر. وأخذت أرسم، متخذاً يدي اليسرى أنموذجاً، مناظر لأيد تبرز من أجسام تتلوى وتتشابك كالنباتات المتسلقة. وبعد دزينة من الرسوم الأولية، اختفت جميعها تقريباً إبان الحرب- في أية سقيفة ألمانية هي منسية الآن؟-شعرت بالارتياح وعدت إلى ملاحظة الأشياء والناس.

كانت مراكز الخط البرقي، ابتداء بأوروبا وحتى ريوماديرا، ملحقة بضياع الباحثين عن المطاط التي تقدم مبرراً لإعمار الضفاف المتفرق. إذ تبدو أقل عبثية من مراكز الهضبة، وتبدأ نوعية الحياة التي تعاش فيها بالابتعاد عن الكابوس. فهي تتنوع هنا، وتتباين تبعاً للموارد المحلية على الأقل. حيث ترى حدائق للبطيخ، ثلج المداريات الندي، وأقنان لسلاحف حبيسة، تضمن للأسرة مايعادل دجاجة أسبوعياً، حتى إنها تبدو أيام الأعياد بشكل (دجاجة بالمرق الأسمر) تكمل ببولو بودر (حرفياً:

حلوى متعفنة)، و(نقيع الحمار، أي ذرة بالحليب) و(لعاب الآنسة: جبن أبيض حامض، رش بالعسل) وتتحول عصارة المانيوق السامة، بعد تخميرها لأسابيع مع الفليفلة إلى صلصة حادة ناعمة. إنه الرخاء: فهنا، لاشيء ينقص مما ليس لدينا منه.

كل هذه المآكل «عمالقة» للملذات، لأن المبالغات تروق اللغة الأمازونية. فكقاعدة عامة، يكون دواء أو حلوى جيدان أو سيئان «كالشيطان» وشلال «مُدَوِّخ» وطريدة «وحش» ووضع «حبشي» كما تتخلل المحادثة عينة طريفة من التشويهات الفلاحية يصحبها أيضاً فترات طويلة من الصمت، لا يقطعها سوى تعبيرات التعجب أو الاستحسان، من مثل: «سيم سينهورا!» أو «متفاوت» وهي كالغابة تناسب شتى الأفكار الغامضة والمبهمة.

ويجلب بائعون متجولون قليلون بالنقيرة - سوريون أو لبنانيون - بعد أسابيع من السفر، أدوية أو صحفاً قديمة أتلفتها الرطوبة. فقد علمت من إحدى الجرائد المهملة، في كوخ باحث عن المطاط، بعد أربعة أشهر من التأخر، باتفاقات ميونخ وبالتعبئة العامة. لهذا نجد مخيلة سكان الغابة أكثر غنىً من حياة أهالي السبسب. إذ هناك الشعراء كهذه الأسرة التي يسمى فيها الأب سان دوفال، والأم ماريا؛ ويكونان أسماء أبنائهما من هذه المجموعة من المقاطع، فللبنات: فالما، فالماريا، فالماريسا؛ وللأبناء ساندومار، ماريفال؛ وللجيل الثاني: فالدومار، فالكيمار. أما المتحذلقون فيسمون أبناءهم: نيوتن، أرسطو، ويتعاطون هذه الأدوية الجد شعبية في الأمازون، وتسمى: الصبغة النفيسة، المقوي الشرقي، وحبوب بريستول، الماء الإنجليزي، البلسم السماوي. هذا إذا لم يتناولوا بيكلوروهيدرات الكينين عوضاً عن سلفات الصودا، وهو ما يؤدي بهم إلى عواقب وخيمة، واعتياد يجعلهم يبتلعون أنبوب أسبرين برمته، حتى يُهدّئوا من ألم أسنانهم. وقد لاحظت مخزناً صغيراً على مجرى الماشادو الأسفل، يبدو انه لا يرسل، بصفة رمزية، إلى أعلى النهر بالنقيرة، إلا نوعين من البضاعة: حواجز مشبكة للقبور، ومزارق للحقن الشرجية.

وإلى جانب هذا الطب «العلمي»، هناك آخر شعبي، يقوم على «الممنوعات»

و«الأدعية». فطالما كانت المرأة حاملاً لا تخضع إلى أي ممنوع في المأكولات. ولها الحق، بعد الولادة وخلال الثمانية أيام التالية، بلحم الدجاج والحجل. وتأكل حتى اليوم الأربعين، بالاضافة إلى ماسبق، اليحمور وبعض الأسماك. وتستطيع، اعتباراً من اليوم الواحد والأربعين، استئناف العلاقات الجنسية وإضافة الخنزير البري والأسماك المسماة «بيضاء» إلى نظامها الغذائي. وتظل ممنوعة لعام كامل عن، التابير، السلحفاة البرية، اليحمور الأحمر، الموتوم، الأسماك ذات الجلد. وهو مايفسره المخبرون هكذا؛ إنها وصايا القانون الرباني، وترجع إلى بداية الخليقة، فالمرأة لا تطهر إلا في اليوم الأربعين. وإن لم تُتَّبع فالعاقبة محزنة -المرأة نجسة بعد الحيض، ومن يعاشرها نجس أيضاً، إنه القانون الذي أمر به الله بالنسبة للمرأة- مضيفين كتفسير نهائي: أن المرأة كائن رقيق.

وهاهو الآن، على تخوم السحر الأسود، دعاء العلجوم الأسود، الموجود في كتاب يبيعه باعة متجولون، هو كتاب القديس سبريانو. إذ نحصل على علجوم أسود ضخم، وندفنه حتى عنقه يوم جمعة، ونطعمه جماراً يبتلعها جميعاً. وبعد ثمانية أيام نذهب لأخذه، وإذا به اختفى. لكن «شتلة شجرة بثلاث أفرع» تولد في الموضع نفسه، وبثلاثة ألوان. الفرع الأبيض للحب، والأحمر لليأس، والأسود للحداد. واسم الدعاء يأتي من كون العلجوم يبس، لأن العقاب نفسه لايأكله. يقطع القاصد الفرع الذي يتناسب وقصده، ويحتفظ به بعيداً عن الأعين. ويقرأ الدعاء لدى دفن العلجوم.

أدفنك، هنا تحت، تحت قدم من الأرض
سأبقيك تحت قدمي، طالما استطعت
عليك أن تخلصني من المخاطر
تحت حماية القديس أمارو، سيوجد من يحرسني
أمواج البحر خلاصي
في ذرات التراب، ستكون راحتي
ياملاكي الحارس، كن معي دائماً

ولن يكون في مقدور الشيطان أن يمسني
عند الظهيرة بالضبط
سيستجاب هذا الدعاء
أيها القديس أمارو، أنت وأسياد الحيوانات القاسية
ليكن مارتييرا حارسي
آمين

وهناك أيضاً دعاء الفول، ودعاء الوطواط.

وبجوار الأنهار الصالحة لملاحة مراكب بخارية صغيرة، أي حيث لا تعود الحضارة، متمثلة بمانوس، مجرد ذكرى انطمست في أكثرها؛ بل واقع يمكن استئناف الصلة به مرتين أو ثلاث مرات خلال حياة إنسان؛ يوجد المجانين والمخترعون. كرئيس المركز الذي ينشئ من اجل امرأته زراعات ضخمة، ويصنع أجهزة الحاكي، وبراميل من المشروبات الكحولية، لكن القدر لا يترفق به. إذ تهاجم الوطاويط المصاصة للدماء حصانه كل ليلة. فيصنع له درعاً من قماش الخيام، إلا أن الحصان يمزقه بوساطة الأغصان؛ ويحاول عندئذ طلاءه بالفلفل، ثم بسلفات النحاس، لكن الوطاويط «تمسح كل شيء بأجنحتها» وتستمر في مص دم الحيوان المسكين: وكانت الوسيلة الناجعة هي جعل الحصان يتنكر بلباس خنزير بري مكون من أربعة جلود فصلت وخيطت. ويساعده خياله الخصب في نسيانه الخيبة الكبيرة الناجمة عن زيارته إلى مانوس، حيث تبخرت مدخراته بين الأطباء الذين يستغلونه، والفندق الذي يجوّعه، وطفليه اللذين يفرغان الحوانيت، متواطئين مع التجار. كان بودي الإسهاب في ذكر هذه الشخصيات التي تبعث على الرثاء في الحياة الأمازونية، بغرابة أطوارها وقنوطها. من أبطال وقديسين، كروندون ورفاقه، زرعوا خرائط البقاع غير المكتشفة بأسماء مقتبسة من البرنامج الوضعي؛ وفضّل بعضهم الموت قتلاً بدلاً من الرد على هجمات الهنود؛ ومتهورين يسرعون في أعماق الغابة إلى مواعيد غريبة مع قبائل لا يعرفها غيرهم، فينهبون محصولها المتواضع، قبل أن يُقتلوا بسهم؛ وحالمين ينشئون في بعض

الأودية المهملة امبراطوريات عابرة؛ ومهووسين، يُظهرون في العزلة من الشجاعة ما استحق عليه غيرهم من قبل منصب نائب الملك؛ وأخيراً، ضحايا هذه النشوة التي يحرص عليها من هم أكثر سلطة؛ والذين يوضح الباحثون عن المغامرة مصيرهم الغريب، في أطراف الغابة المأهولة بالموندبه، والتوبي-كاواهيب.

وأورد هنا، حكاية ساذجة لكنها لا تخلو من سمو، اقتطعتها يوماً من صحيفة أمازونية.

مقتطف من صحيفة أبينا إيفانجيليكا (١٩٣٨).

«هبطت أسعار المطاط في عام ١٩٢٠، وتخلى الرئيس العظيم (الكولونيل ريموندو بيريرا برازيل) عن الأغراس التي ظلت هنا، على ضفة إيغاريه ساوتومي، عذراء أو شبه عذراء. وكان الوقت يمر. فمنذ أن غادرت أراضي الكولونيل برازيل، وروحي تحتفظ بذكرى هذه الغابات المعطاء، منقوشة بأحرف لا تمحى. وبدأت أستيقظ من الجمود الذي أوقعنا فيه سقوط المطاط المفاجئ، أنا الذي كنت جيد التدريب ومتعوداً على أشجار الكستناء الموجودة في ساوتومي.

والتقيت يوماً مع معلمي القديم، الكولونيل برازيل، في الفندق الكبير ببيلم دوبارا، وكانت مازالت آثار ثرائه القديم بادية عليه. فسألته الإذن بالذهاب لاستغلال مغارس الكستناء العائدة له. وأعطاني الاذن بترحاب، وقال: «كل ذلك مهجور منذ زمن بعيد، ولم يبق هناك إلا من عجزوا عن الفرار، لا أعرف كيف يعيشون، ولا يهمني أن اعرف. يمكنك الذهاب».

جمعت بعض الموارد واقترضتُ ما يلزمني من مواد ومؤن من التجار، واشتريت بطاقة على مركب أمازون ريفر، متوجهاً إلى تاباجوز. والتقيت في إتيتوبا مع صديقين، فأتى كل منا معه بخمسين رجلاً. وعندما وصلنا إلى مصب إيغارابيه ساوتومي،

وجدنا سكاناً مهملين وبائسين: مسنين خرفين ونساء شبه عاريات وأطفالاً خاملين وخائفين. وما إن بنينا البيوت، وأضحى كل شيء جاهزاً حتى جمعت

عمالي وكل هؤلاء الناس، وخاطبتهم قائلاً: هذه مؤونة كل منكم: خرطوش وملح ودقيق. ولم يكن لدي ساعة ولا تقويم؛ إذ يبدأ العمل عندما كنا نتبين تقاطيع أيدينا المكنبة(*)، وينتهي مع الليل الذي وهبنا الله إياه؛ ومن لم يكن موافقاً فلن يكون له ما يأكله، وعليه الاكتفاء بمغلي جوز النخيل. كانت لدينا مؤن لستين يوماً، علينا الاستفادة منها، ولا نستطيع إضاعة ساعة واحدة من هذا الوقت الثمين.» وكان شريكاي يحذوان حذوي. وبعد ستين يوماً، كان لدينا ١٤٢٠ برميلاً من الكستناء فحمَّلنا النقائر، وهبطنا مع العمال اللازمين إلى إيتيتوبا. وبقيت مع شريكي روفينو وبقية العمال في انتظار المركب البخاري، خمسة عشر يوماً. وعند وصولنا لمرسى بيمانتال، ركبنا مع البضاعة على المركب سيرتانيجو، وبعنا الكستناء في بيليم بـ ٤٧,٥ ميلريس للهيكتولتر (٢,٣٠ دولار)، وقد فقدنا للأسف أربعة منا خلال السفر. ولن نعود لمثلها أبداً؛ لكن الأسعار ارتفعت اليوم إلى ٢٢٠ ميلريس للهيكتولتر، وهو أعلى مستوى عرفته على الإطلاق، طبقاً للوثائق الموجودة بحوزتي، خلال موسم ١٩٣٦-١٩٣٧، فكم من أرباح يعدنا بها جني الكستناء - وهي شيء ملموس - وليس تحت الأرض كالماس، ومجهولاً؟ هاهي، يا أصدقائي في كويابا، الظروف التي يتم فيها العمل بالكستناء في بارا، بولاية ماتو غروسو».

(*) المكنبة: اليد غلظت من كثرة العمل. (المترجم).

ومع ذلك، فقد كسب هؤلاء في ستين يوماً، ولمائة وخمسين أو مائة وسبعين شخصاً، مالاً يعادل ٣٥٠٠ دولار. ولكن، ما نقول في الباحثين عن المطاط، الذين سمحت لي أسابيعي الأخيرة من الإقامة، بمعايشة شقائهم الممض؟

سيرنغال

36 إن النوعين الرئيسيين من الأشجار ذات اللّثى(*) المطاطي، الهيفيا والكاستيلوا، يسميان باللهجة المحلية سيرنغا وكوشا؛ والأولى هي الأهم، إذ لا تنمو إلا بجوار الأنهار التي تشكل ضفافها ملكاً غير واضح، يُمنح بتصريح غامض من الحكومة، ليس لملاك، بل لـ «أرباب عمل»، هم في الوقت ذاته أصحاب لمخازن الأقوات والمؤن المختلفة؛ إما كمستقلين، وإما في الأغلب، كوكلاء لمتعهد أو لشركة نقل نهري صغيرة، تملك احتكار الملاحة على مجرى وروافد نهر ما. أما الباحث عن المطاط فهو «زبون» أولاً لحانوت المنطقة التي سيقيم فيها، يلتزم بشراء كل مستلزماته منه، وبيعه كل محصوله، في مقابل إمداد الحانوت له بأدوات العمل؛ وما يكفي موسماً من الأقوات، يسجل في الحال ديناً عليه؛ ومنحه موضعاً هو مجموعة مسالك بشكل عقدة، ينتهي طرفاها إلى الكوخ المبني على الضفة، وتصل بين الأشجار الرئيسية المنتجة، التي يكون اكتشفها في الغابة موظفون آخرون لدى رب العمل.

(*) اللّثى: مايسيل من بعض الأشجار كالصمغ LATEX (المعجم الوسيط)

في الصباح الباكر من كل يوم، (لأنه من المفضل، كما يعتقد، العمل في الظلام) يقطع العامل واحداً من هذه المسالك، متسلحاً بسكين مقوّسة، ومصباح مثبت على قبعته بطريقة عمال المناجم. ويحز السيرينغا، طبقاً لتقنيات دقيقة «بشكل علم» أو «بشكل حسك السمكة» لأن الشجرة فيما لو لم تحز جيداً، تتعرض إما للبقاء جافة وإما للاستنفاد.

في نحو العاشرة صباحاً، تكون ١٥٠ إلى ١٨٠ شجرة عملت، وبعدما يتناول العامل فطوره، يعود إلى «مسلكه» ويجني اللّثى الذي سال منذ

الصباح، في الكؤوس المثبتة على الجذع، ويسكب محتوياتها في كيس من القماش الغليظ المطلي بالمطاط. ولدى عودته، نحو الخامسة مساءً، تبدأ المرحلة الثالثة، أي «تسمين» كرة المطاط وهو في طور تشكله: إذ يخلط «الحليب» ببطء مع الكتلة التي تُشك في عود معترض ومعلق فوق النار. فيخثره الدخان بشكل طبقات رقيقة، يسويها العامل بتدوير الكتلة حول محورها. وتعتبر الكتلة منتهية، عندما تبلغ وزناً معيارياً يتراوح بين ٣٠ و ٧٠كغ على حسب المناطق. وقد يستغرق تكوين الكرة عدة أسابيع، عندما تكون الأشجار منهكة. وتخزن الكرات (التي يوجد منها عدة أنواع، على حسب نوعية اللّثى، وتقنية الصنع) على طول النهر، حيث يأتي رب العمل كل سنة ليجمعها، ويصفطها في مخزنه، بعمل «جلود مطاط» ثم يحزمها كأطواق، تتفكك عند عبور الشلالات، ليعاد حزمها أسفل الشلالات، حتى الوصول إلى مانوس أو بيليم.

وهكذا، من أجل تبسيط وضع معقد غالباً، يرتبط العامل برب العمل، ويرتبط هذا بشركة الملاحة التي تسيطر على الطرق الرئيسية. ونجم هذا النظام عن انهيار الأسعار الذي حدث اعتباراً من ١٩١٠، عندما بدأ مطاط المزارع الآسيوية بمنافسة الإنتاج البرازيلي. وبينما أخذ الاستغلال الحقيقي، يفقد أهميته إلا للمعوزين، ظل النقل البري مربحاً، ولاسيما أن البضائع تباع في مواضع الاستغلال بأربعة أضعاف أثمانها في السوق تقريباً؛ فتخلى الأقوياء عن المطاط، مستبقين لأنفسهم النقل الذي يعطيهم الهيمنة على النظام بدون مخاطرة، بما أن رب العمل تحت رحمة الناقل من وجهين؛ فإما يقرر هذا الأخير رفع التعرفة، وأما يرفض تموين زبونه. لأن رب عمل مخزنه فارغ، يفقد زبائنه: لأنهم يهربون دون دفع ديونهم أو يموتون في مكانهم جوعاً.

فرب العمل في قبضة الناقل، والزبون في قبضة رب العمل. وقد كان سعر المطاط في ١٩٣٨ يساوي أقل بخمسين مرة من سعره عند نهاية الفورة الكبرى، على الرغم من ارتفاع مؤقت للأسعار، إبان الحرب العالمية الأخيرة. والوضع اليوم ليس أفضل؛ إذ يتراوح محصول رجل في الماشادو

بين ٢٠٠ و ١٢٠٠ كغ، على حسب السنين. وكان يسمح له دخله، في أفضل الحالات، العام ١٩٣٨، بشراء ما يقرب من نصف كمية البضائع الأساسية: من أرز وفاصولياء سوداء، ولحم قديد وملح وخرطوش للبندقية، وبترول وقماش، الضرورية لبقائه على قيد الحياة. ويتم سد العجز عن طريق الصيد من جهة، ومن جهة أخرى الاستدانة، التي تكون بدأت قبيل الشروع في العمل، وتتراكم على الأغلب حتى الموت.

ومن المفيد هنا، إيراد الميزانية الشهرية، لعائلة من أربعة أشخاص، كما كانت في .١٩٣٨ وستسمح تقلبات سعر الأرز بتعديلها، عند الرغبة على حسب قيمة الذهب.

	سعر الوحدة بالميلريس	المجموع بالميلريس
٤ كغ من دهن الطبخ	١٠.٥٠٠	٤٢
٥ كغ من السكر	٤.٥٠٠	٢٢.٥٠٠
٣ كغ من البن	٥	١٥
لتر من البترول	٥	١٥
٣ قطع من الصابون	٣	١٢
٣ كغ من الملح (لتمليح الطرائد)	٣	٩
٢٠ خرطوشة، عيار ٤٤	١.٢٠٠	٢٤
٤ أرطال من التبغ	٨.٥٠٠	٣٤
٥ دفاتر من ورق السجائر	١.٢٠٠	٦
١٠علب كبريت	٠.٥٠٠	٥
١٠٠ غرام فلفل	٣	٣
٢ رأس ثوم	١.٥٠٠	٣
٤ علب حليب مركز للرضيع	٥	٢٠
٥ كغ أرز	٣.٥٠٠	١٧.٥٠٠
٣٠ ليتر من دقيق المانيوق	٢.٥٠٠	٧٥
٦ كغ من اللحم القديد	٨	٤٨
المجموع		٣٤١

وعلينا أن نضيف إلى الميزانية السنوية، القماش الذي تساوي القطعة منه في ١٩٣٨ من ٣٠ إلى ١٢٠ ميلريس؛ والأحذية، وثمن الزوجين منها من ٤٠ إلى ٦٠ ميلريس، والقبعة، من ٥٠ إلى ٦٠ ميلريس؛ وأخيراً الإبر والأزرار، والخيوط، والأدوية التي تستهلك بإفراط. فحبة الكينين (ويلزم الفرد منها حبة يومياً) أو الأسبرين تكلف ١ ميلريس. ولنذكر أنه في الفترة ذاتها، كان الموسم الجيد في الماشادو، (يدوم جني المطاط من نيسان أبريل إلى أيلول / سبتمبر، لأن العمل في الغابة مستحيل في فصل الأمطار) يغل ٢٤٠٠ ميلريس (كان يباع الكيلو في مانوس، العام ١٩٣٦، بأربعة ميلريس، يحصل المنتج على نصفها). وإذا لم يكن للعامل أطفال صغار، وإذا لم يكن يأكل سوى نتاج صيده و«دقيق» المانيوق الذي يزرعه ويصنعه بنفسه، زيادة على عمله الموسمي، فإن ميزانيته الغذائية تمتص وحدها هذه الغلة الاستثنائية.

أما رب العمل، فسواء كان يعمل لحسابه أم لا، يعيش في خوف من الإفلاس الذي يترقبه، فيما لو اختفى زبائنه دون أن يسددوا ديونهم. ولذا يراقب وكيله المسلح النهر. فبعد مغادرتي للتوبي - كاواهيب بأيام قليلة، جرى لي لقاء غريب على النهر، سيظل في ذاكرتي صورة معبرة عن مستغلات المطاط؛ أنقله وفقاً لدفتر الرحلة، مؤرخاً في ٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٨: «في نحو الساعة العاشرة، الجو رمادي ورخو. في مواجهة نقائرنا، نقيرة صغيرة يقودها رجل نحيل مع زوجته - خلاسية بدينة ذات شعر أجعد - وطفل في العاشرة تقريباً. كانوا منهكين، واختلط كلام المرأة بدموعها. فقد عادوا من رحلة ستة أيام على الماشادينهو، وأحد عشر شلالاً، اقتضى أحدهم على الغابورو أن يحملوا النقيرة على البر، بحثاً عن زبون لهم، هرب مع رفيقته، آخذاً نقيرة وأمتعة، بعدما استدان المعدات والمؤونة، تاركاً ورقة يقول فيها: إن البضاعة غالية جداً، وليست لديه الشجاعة لدفع الفاتورة. وهم كمستخدمين لدى رب العمل غايتانو، تملكهم الذعر لمسؤوليتهم، فانطلقوا باحثين عن الهارب للقبض عليه، وتسليمه لرب العمل، ولديهم بندقية (ريفل).» والريفل هو الاسم

الذي يطلق على البندقية -وينشستر عيار ٤٤ عموماً- المستعملة للصيد، ولأغراض محتملة أخرى.

بعد أسابيع نسخت نص الإعلان التالي، على باب مخزن شركة كالاما ليميتادا الواقع عند ملتقى نهري الماشادو والماديرا:

المواد الكمالية الاستثنائية
بما فيها الدهن و الزبدة والحليب
لاتباع بالنسيئة إلا بأمر خاص من رب العمل
وبخلاف ذلك
تباع نقداً، نظير مال أو مادة تعادلها
وتحته مباشرة، الإعلان التالي:
الشعر الأملس
وحتى لدى الأشخاص الملونين
مهما كان الشعر أجعد أو مموجاً، وحتى لدى الأشخاص الملونين،
يصبح أملس باستعمال المستحضر الجديد
أليسانت
يباع في «القنينة الكبيرة»
شارع أوروغوايانا، مانوس.

والواقع، أن الاعتياد على المرض و البؤس من الضخامة، بحيث لا تبدو حياة الباحثين عن المطاط كئيبة على الدوام. ولكن مضى، بطبيعة الحال، ذلك الزمان الذي سمحت أسعار المطاط فيه، بإقامة الفنادق من الأخشاب كمقامر صاخبة، حيث كان الباحثون عن المطاط يفقدون في ليلة ثروة سنوات، ويعودون في الغد للبدء من جديد، واستدانة المؤن والمعدات من رب عمل شفوق. وقد رأيت واحدة من هذه الخرائب، مازال يعرف باسم فاتيكان، مذكراً بالفخامة الغابرة. كان الناس يترددون عليه أيام الآحاد، مرتدين بيجامات حريرية مخططة، وقبعات رخوة، وأحذية لماعة، للاستماع إلى عازفين بارعين يعزفون أنغاماً متنوعة على وقع

طلقات المسدسات من كل العيارات. وما عاد في قدرة أحد شراء بيجامات فخمة في مستغلات المطاط؛ لكن بعض المفاتن مازالت تستورد، من قبل نساء شابات، يعشن حياة مساكنة حرجة مع الباحثين عن المطاط. هو ما يسمى «الزواج في الكنيسة الخضراء». تشترك هذه المجموعة من النساء أحياناً، لتنظيم حفلة راقصة، فتعطي كل واحدة خمسة ميلريس أو بعض القهوة أو السكر، أو تعير مسكنها الأكثر سعة من غيره، أو مصباحها المزود بالبترول لليلة. ويأتين بفساتين خفيفة، مخضبات الوجه ومسرحات الشعر، فيُقبِّلن لدى دخولهن يد أصحاب المنزل. لكن الخضاب ليس للإيهام بالجمال، بقدر ما هو للتظاهر بالصحة. إذ يخفين تحت أحمر الخدود و المساحيق، مرض الزهري، والسل والبرداء. وجئن بأحذية ذات كعوب عالية، من كوخ الباحث عن المطاط، حيث يسكنَّ مع «الرجل» بأسمال وشعر مشعث طوال السنة، متأنقات هذا المساء: إلا أنهن اضطررن إلى عبور كيلو مترين أو ثلاثة من دروب الغابة الموحلة، بفستان الرقص. وقد اغتسلن للحفلة في سواقي قذرة: تحت الأمطار؛ لأن الأمطار هطلت طيلة النهار. فالتباين صارخ بين مظاهر الحضارة الهزيلة هذه، وبين الواقع القبيح المنتظر على الباب.

تبرز الفساتين السيئة التفصيل «سحنة هندية نموذجية: أثداء جد مرتفعة، متوضعة تحت الإبطين تقريباً، يسحقها النسيج المشدود الذي عليه أن يحتوي بطناً بارزاً؛ وساعدين قصيرتين وساقين هزيلتين، مع تقاطيع جميلة ومفاصل غاية في النعومة. ويأتي الرجل بسروال من الكتان الأبيض، وحذاء ضخم وسترة بيجاما، ليدعو شريكته (هؤلاء النساء كما أشرنا آنفاً، لسن متزوجات بل رفيقات، «مع رفيق» حيناً، و«غير مشغولة وحرة، حيناً آخر».) ويأخذها من يدها إلى وسط الحلبة المضاءة بمصباح بترولي طنان. ويتردد بعض الثواني، في انتظار الإيقاع السريع الذي تبرزه الكاراكاشا، وهي علبة تحتوي مسامير، يهزها أحد الراقصين العاطلين، وينطلق ١-٢-٣-،١-٢-٣-،إلخ مجرجراً قدميه على الأرضية الخشبية المركبة على ركائز، و التي ترجع صدى هذا الاحتكاك.

أما رقصاتهم فقد عفا عليها الزمان. ولا سيما الديسيتيفرا، وهي مؤلفة من لوازم تتوقف بينها موسيقى الأكورديون (المصحوبة أحياناً بالكمان وبآلة أخرى) لتتيح للراقصين أن يرتجلوا، كل بدوره، بيتين من الشعر يتضمنان تورية تهكمية أو غرامية؛ على السيدات أن يجبن عليها بدورهن بالطريقة نفسها، بصعوبة في الواقع، نظراً للارتباك. فالبعض يتهربن محمرات الوجوه، والأخريات يتمتمن بكلام غير مفهوم، كبنات صغيرات يستظهرن درسهن. وها هما البيتان المرتجلان في إحدى الأمسيات، في أوروبا بسببنا:

(الأول طبيب، والثاني أستاذ، والثالث مفتش متاحف؛

اختاري من الثلاثة من سيكون لك.)

ولحسن الحظ، لم تدر الفتاة التي وُجّها إليها، بم ترد.

وعندما تستمر الحفلة عدة أيام، تغير النساء فساتينهن كل مساء.

بعد النامبيكوارا في عصرهم الحجري، لم يصحبني التوبي – كاواهيب إلى القرن السادس عشر، بل بالتأكيد إلى القرن الثامن عشر، كما يمكن تخيله في المرافىء الصغيرة لجزر الأنتيل أو على الساحل. لقد عبرت قارة؛ لكن نهاية رحلتي القريبة، أمست محسوسة، وأنا أطفو ثانية من أعماق الزمان.

القسم التاسع

العـــودة

تأليه أوغست

37 كانت إحدى مراحل الرحلة مثبطة للعزيمة بصورة خاصة، هي مرحلة كامبوس نوفوس. فبعد افتراقي عن أصحابي، بفعل الوباء الذي شل حركتهم، على مسافة ثمانين كيلو متراً خلفي، لم يكن بوسعي سوى الانتظار في أطراف المركز، حيث كان دزينة من الأشخاص يحتضرون من البرداء، وداء الليشمانيات، والأنكيلو ستوميا، ومن الجوع بخاصة. إذ لم تكن المرأة التي تغسل ملابسي تطلب صابوناً بل وجبة طعام: بدونها، كما تشرح، لن تكون لها قوة على العمل، وهذا صحيح؛ لأن هؤلاء الناس فقدوا القدرة على الحياة. ولأن الوهن و المرض بلغا منهم مبلغاً استحال عليهم معه الكفاح، فهم يسعون إلى حالة من الخمول لا تتطلب منهم إلا الحد الأدنى من الجهد الجسمي، وتخفف في الوقت نفسه من شعورهم بالبؤس.

وكان الهنود يسهمون في هذا الجو المقبض بشكل آخر. لم تكن الجماعتان المتنازعتان إلى حد الاشتباك بالأيدي، تكنان لي شعوراً بالمودة. فكان علي أخذ جانب الحذر، واستحال علي القيام بأي عمل اثنوغرافي. وحتى في الظروف العادية، كان التحقيق الميداني مضنياً: فلا بد لي من الاستيقاظ مع الفجر، والبقاء يقظاً حتى ينام آخر الأهالي، بل وترصد نومه أحياناً؛ وعمل جهدي كي لا ينتبه إلي الأهالي، مع بقائي حاضراً دائماً؛ ورؤية كل شيء وحفظه وتسجيله؛ وإبداء تطفل مذل بطلب معلومة من صبي وسخ؛ وترقب أية لحظة تساهل أو عدم اكتراث لاستغلالها؛ أو الإبقاء على التحفظ الذي يفرضه تعكر مفاجيء لمزاج القبيلة. والمحقق، بممارسة هذه المهنة، يستبد به القلق: فهل تخلى عن بيته وأصدقائه وعاداته، وأنفق أموالاً وجهوداً طائلة، وخاطر بصحته، من أجل هذه

النتيجة فقط: وهي جعل بضع عشرات من المنكودين، المحكوم عليهم بالإندثار القريب، يتسامحون في وجوده معهم، لا يشغلهم خاصة إلا تفلية رؤوسهم والنوم، بينما نجاح أو فشل المهمة منوطان بتقلبات أهوائهم؟ ويغدو الوضع أسوأ، عندما تكون أمزجة الأهالي معكرة، كما كانت الحال في كامبوس نوفوس: إذ يأبى الهنود حتى رؤيتهم، ويختفون دون سابق إنذار، أياماً، في القنص،أو في رحلات القطاف. وفي انتظار عودة جيران كلفوني غالياً، أُراوِح مكاني أو أتململ، وأعود فأقرأ ملاحظات قديمة، وأنسخها ثانية، وأعيد تفسيرها؛ أو أكلف نفسي بمهمة دقيقة غير ذات جدوى، من مثل قياس المسافات بين البيوت، أو إحصاء الأغصان المستعملة في إنشاء الأكواخ المهجورة واحداً واحداً.

وكنت أتساءل بإلحاح: لم أتيت إلى هنا؟ ولأية غاية؟ وما هو التحقيق الإثوغرافي بالضبط؟ أهو مزاولة مهنة كالمهن الأخرى، إلا أن المكتب أو المخبر بعيدان عن المنزل ببضعة آلاف الكيلو مترات؟ أو هو نتيجة اختيار أكثر عمقاً، يعني إعادة النظر في المنظومة التي ولدت وكبرت فيها؟ لقد غادرت فرنسا منذ ما يقرب من خمس سنوات، وتخليت عن حياتي الجامعية؛ وفي هذه الأثناء، كان زملائي الأكثر حكمة يرتقون مراتبها؛ أما الذين كانوا مثلي سابقاً، ومالوا إلى السياسة فهم نواب، وقريباً وزراء؛ بينما كنت أقطع الفيافي، وألاحق نفايات إنسانية. فما الذي دفعني إلى تحويل مجرى حياتي العادية؟ هل كانت حيلة، ومداورة بارعة، أتوخى من ورائها استعادة مركزي الجامعي مع امتيازات إضافية تحسب لي، أو أنه قرار، كان يفصح عن عدم توافق عميق مع فئتي الإجتماعية، التي كان مصيري، مهما حصل، أن أعيش منعزلاً عنها أكثر فأكثر؟ لكن حياة المغامرة، بمفارقة عجيبة، عوضاً أن تفتح لي عالماً جديداً، أعادت إلي بالأحرى العالم القديم؛ بينما كان ما كنت أتطلع إليه يتسرب من بين أصابعي. فبقدر ما كانت الناس والمشاهد التي أنطلق لغزوها، تفقد باستيعابي لها الدلالة التي كنت أرجوها، كانت تحل محل هذه الصورة المخيبة، مع أنها حاضرة، صورة أخرى حفظها ماضيَّ ذخراً ولم أكن

أعيرها أي اهتمام عندما كانت جزءاً من الواقع الذي يحيط بي. إذ لم أكن ألمح، وأنا في الطريق إلى بقاع لم تقع عليها كثير من العيون، معايشاً لأقوام كان بؤسهم الثمن لكي أستطيع صعود تيار التاريخ، من الصور لا هذه ولا تلك، بل رؤى عابرة من الريف الفرنسي، كنت أنكرتها على نفسي؛ أو نتف من موسيقى أو شعر، كانت التعبير الأكثر ألفة عن حضارة، كان علي الاقتناع بأنني اخترت الوقوف ضدها، مجازفاً بمناقضة المعنى الذي أضفيته على حياتي. فخلال أسابيع، وأنا على هضبة الماتوغروسو الغربي؛ لم يكن يستحوذ على مشاعري ما يحيط بي والذي لن أراه أبداً، بل لحن ما فتىء يتكرر في ذاكرتي: هو لحن الدراسة رقم ٣ من المصنف ١٠ لشوبان، بدا لي أنه يختزل كل ما تركته ورائي..

لماذا شوبان، الذي لم أكن أميل إليه بشكل خاص؟ بما أنني تربيت على تقديس واغنز، فلم أكتشف ديبوسي إلا من مدة قريبة، حتى بعد أن أظهرت لي (الأعراس) التي شهدتها في عرضها الثاني أو الثالث، في سترافنسكي عالماً كان يبدو أكثر واقعية ومتانة من سباسب البرازيل الوسطى، تسبب في انهيار عالمي الموسيقي السابق. غير أن بيللياس هي التي كانت تقدم لي الغذاء الروحي حين مغادرتي لفرنسا، فلم كان عمل شوبان الأكثر انتشاراً، هو الذي يفرض نفسه علي في البادية؟ قلت في نفسي وأنا منشغل بحل هذه المعضلة، أكثر من انشغالي بالملاحظات التي كان من شأنها أن تبرر وجودي، إن التقدم المتمثل في الانتقال من شوبان إلى ديبوسي يتضخم ربما، عندما يجري في الاتجاه المعاكس. و المتع التي جعلتني أفضل ديبوسي، أتذوقها الآن في شوبان، ولكن بصورة ضمنية ومترددة، ومتكتمة إلى حد لم أنتبه فيه إليها من البداية، فاتجهت من الوهلة الأولى إلى مظهرها الأكثر جلاء. وكنت أحقق تقدماً من وجهين: فأنا بتعميقي لعمل المؤلف الأقدم، كنت أعترف له بجماليات، كانت ستظل خافية على من لم يعرف ديبوسي أولاً. إذ كنت أحب شوبان نتيجة الزيادة، وليس النقصان، كما يفعل الذي توقف تطور الموسيقى لديه مع شوبان. وحتى أشجع، من جهة أخرى، ظهور بعض المشاعر

لدي؛ لم أعد بحاجة إلى الاستثارة الكاملة: فالإشارة والتلميح والحدس المسبق لبعض الأشكال، تكفي.

كانت الجملة اللحنية، فرسخاً بعد فرسخ، تتردد في ذاكرتي دون أن أتمكن من التخلص منها، وكنت أكتشف فيها باستمرار سحراً جديداً. منسرحة في البداية، كانت تبدو لي أنها تعقد تدريجياً من خيطها، كأنما لإخفاء الطرف الذي ينتهي إليه. ويصل هذا التعقيد إلى حد، يظن المرء أن لا فكاك منه؛ وفجأة تحل نوطة واحدة العقدة، ويظهر هذا المخرج أكثر جرأة من المسعى المشبوه الذي سبقه، وطلبه، وجعله ممكناً؛ ولدى سماعه تضاء التطورات السابقة بدلالة جديدة: إذ لم يكن وضعها اعتباطياً، بل تهيئة لهذا الخروج المباغت. أهذا هو السفر إذاً؟ استكشاف لمجال ذاكرتي، عوضاً عن المجاهل التي تحيق بي؟ بعد ظهر أحد الأيام، وبينما كان الجميع نيام من شدة الحرارة، وكنت مقرفصاً في أرجوحة نومي، تحت الناموسية التي جعلت، بنسيجها المضموم، الهواء أقل صلاحية للتنفس؛ بدا لي أن المشكلات التي أعاني منها، تصلح مادة لمسرحية تصورتها بوضوح، كأنما كانت مكتوبة. وبما أن الهنود غائبون؛ فقد كنت أكتب لستة أيام، من الصباح حتى المساء، على ظهر أوراق تحفل بالمفردات والرسوم التخطيطية والأنساب. وبعد هذا تخلى الإلهام عني في زحمة العمل، ولم يعد قط. وعندما أعود اليوم لقراءة ما خربشته، لا أعتقد أن علي الأسف عليه.

كان عنوان مسرحيتي: تأليه أوغست، وددت أن تكون نسخة جديدة من (سينّا)(*) بطلاها رجلان، كانا صديقَي طفولة، ويلتقيان من جديد في اللحظة الحاسمة في حياة كل منهما المهنية. الأول، الذي ظن أنه اختار معارضة الحضارة، يكتشف أنه استعمل وسائل ملتوية للدخول إليها، ولكن بطريقة تلغي معنى وقيمة البديل الذي اعتقدَ في السابق أنه موضوع أمامه. أما الثاني، وقد طبعته الحياة الاجتماعية ومراتبها، فيدرك أن كل جهوده تتجه إلى غاية مصيرها التلاشي؛ ويسعى كلاهما، من

(*) سينا، أو رحمة أوغست، مأساة لكورنيل ١٦٤٠-٤١

خلال تحطيم أحدهما للآخر إلى انقاذ ماضيهما، حتى ولو كان الموت ثمناً لذلك.

تبدأ المسرحية حين أراد مجلس الشيوخ منح مرتبة شرف لأوغست، أعلى من الإمبراطورية؛ واقترع على تأليهه، مستعداً لوضعه حياً في مصاف الآلهة. ويناقش الحدث حارسان في حديقة القصر، محاولين توقع نتيجته من وجهة نظرهما. ألن تغدو مهنة الشرطي مستحيلة؟ وكيف يمكن حماية إله يملك امتياز تحويل نفسه إلى حشرة، أو حتى جعل نفسه غير مرئي، وشل من يريد؟ ويفكران بالاضراب؛ وعلى كل حال، فهما يستحقان زيادة في الأجر.

ويظهر رئيس الشرطة فجأة، ويشرح لهما خطأهما. فليس للشرطة مهمة تميزها عمن تخدمهم. وبما أنها لا تكترث بالغايات، فهي تمتزج بأشخاص ومصالح أسيادها، وتستمد ألقها من أمجادهم، إذ إن شرطة رئيس دولة مؤلَّه، ستصير بدورها إلهية. وسيكون كل شيء ممكناً لها، مثلما هو ممكن له. وبهذا تحقق طبيعتها الحقيقية، ويمكن القول عنها، بأسلوب وكالات المحققين الخاصة: ترى وتسمع كل شيء، وما من أحد يشك في ذلك.

ويمتلىء المسرح بأشخاص يخرجون من مجلس الشيوخ، وهم يعلقون على الجلسة التي اختتمت. بينما توضّح لوحات عدة الطرق المتباينة لتطور الانتقال من الإنسانية إلى الألوهية، ويتحدث ممثلو المصالح الكبرى عن فرص جديدة للإثراء. ويفكر أوغست فقط بتثبيت سلطته، التي أصبحت الآن بمنأى عن الدسائس والمؤامرات. أما التأليه بالنسبة لامرأته ليفي، فيتوج جهود حياة بأسرها: «لقد استحقه»: كالقبول في الأكاديمية الفرنسية، باختصار. وتعلم كاميل، أخت أوغست الصغرى المتيمة بسينا، أخاها بعودة سينا، بعد عشر سنوات من حياة المغامرة. وتود لو يراه أوغست، لكن ليفي تعترض على ذلك، لأن سينا لم يجلب إلى حياة أوغست إلا الفوضى؛ فهو شخص متهور،لا يروق له العيش إلا مع المتوحشين. وقد حاول أوغست أن يكون مع هذا الرأي؛ لكن وفوداً متتابعة

من الكهنة والرسامين والشعراء بدأت بإزعاجه. إذ كانوا يرون في تأليه أوغست طرداً له من العالم: فالكهنة يتطلعون إلى سماح التأليه لهم باستلام السلطة الزمنية، باعتبارهم الوسطاء المعتمدين بين الآلهة وبني الإنسان. ولم يعد أوغست بالنسبة للفنانين شخصاً، بل فكرة، وهذا ما أثار ثائرة الزوجين الامبراطوريين اللذين كانا يطمحان إلى تمثالين من المرمر لهما، أكبر من الواقع، تجمل فيهما ملامحهما. فاقترح الفنانون تصاوير بشكل دوامات أو متعددات السطوح. وازداد الغموض بما قدمته مجموعة نساء لعوبات من شهادات نشاز، يدعين فيها نفع أوغست بخبرتهن في العلاقات مع الإلهي.

ولما بقي أوغست وحيداً، وجد نفسه مع نسر وجهاً لوجه: ليس الطائر المألوف، وإحدى خصائص الألوهية، بل حيوان شرس، ذو معشر جلف ورائحة كريهة. ومع ذلك، كان نسر جوبيتر نفسه، الذي اختطف جانيميد بصراع دام، قاوم فيه الشاب بلا جدوى. وشرح النسر لأوغست غير المصدق، بأن ألوهيته ستقوم على عدم شعوره بالاشمئزاز الذي يسيطر عليه، وهو ما يزال إنساناً. فلن يدرك أوغست بأنه صار إلهاً، من خلال بعض المشاعر البهيجة، أو لقدرته على عمل معجزات، بل عندما يتحمل من دون تقزز الاقتراب من حيوان متوحش، ويتسامح مع رائحته، والغائط الذي سيغمره به، وسيبدو له التعفن والإفراز والفطيس مألوفاً: «ستأتي الفراشات لتتسافد على رقبتك، وستبدو لك أية أرض مناسبة للنوم عليها؛ فلن تراها أبداً كما تراها الآن، مملوءة بالأشواك وتعج بالحشرات والأوبئة».

يقرر أوغست، بعدما نبهته كلمات النسر إلى مشكلة العلاقات بين الطبيعة والمجتمع، رؤية سينا الذي فضل الأولى على الثاني، وهو اختيار معاكس لذلك الذي قاد أوغست إلى الإمبراطورية. لكن سينا مثبط العزيمة؛ فخلال عشر سنوات من المغامرة، ما فكر إلا بكاميل، شقيقة صديق طفولته، التي لا يتم زواجه بها إلا بموافقته. وكان بإمكان أوغست إعطاؤها له بسرور. لكن نوال ذلك كان مستحيلاً طبقاً لقواعد الحياة

الاجتماعية؛ إذ عليه الحصول عليها ضد النظام، وليس به. ومن هنا كان هذا السعي إلى رفعة هرطقية، تسمح له بإرغام المجتمع على إعطائه في نهاية الأمر، ما كان مستعداً لإعطائه إياه.

الآن وقد عاد المكتشف محملاً بالعجائب، يتخاطفه نجوم المجتمع لحفلات عشائهم، وها هو الوحيد الذي يعلم أن هذا المجد الغالي يقوم على الكذب. فلا شيء مما ينسب الفضل إليه بمعرفته واقعي؛ والسفر خدعة: إذ يظهر كل هذا حقيقياً، لمن لم ير إلا ظلاله. وسينا بغيرته من مصير أوغست الموعود، أراد أن يملك إمبراطورية أوسع من إمبراطوريته: «كنت أقول في نفسي، إنه ما من عقل إنساني، حتى لو كان عقل أفلاطون، بقادر على تصور التنوع اللامحدود لكل الزهور والأوراق الموجودة في العالم التي سأعرفها؛ وأتلقى الاحساسات التي يورثها الخوف والبرد والجوع والتعب التي لا تستطيعون أنتم جميعاً، يا من تعيشون في منازل دافئة، ولديكم مؤونة وافرة، حتى تخيلها. فلقد أكلت عظايات وأفاعي وجراداً؛ ومن هذه المآكل التي يثير ذكرها التقزز في نفوسكم، كنت أقترب بتخوف المبتدئ، مقتنعاً بأنني سأخلق صلة جديدة بين الكون وبيني». لكن سينا، في نهاية مجهوداته، لم يجد شيئاً: «لقد فقدت كل شيء، وحتى الأكثر إنسانية، صار بالنسبة لي إنسانياً. ولملء خواء الأيام،كنت أستظهر لنفسي أشعار أخيل وسوفوكليس؛ وتشربت ببعضها إلى حد لم أعد أستطيع معه الآن، عند ذهابي للمسرح، تذوق جمالها. لأن كل بيت يذكرني بالدروب المغبرة و الأعشاب اليابسة و العيون المحمرة من الرمال».

وتُظهر المشاهد الأخيرة التناقضات التي يضحي أوغست وسينا وكاميل حبيسين لها. فكاميل حريصة على إعجابها بمستكشفها الذي يجتهد في إفهامها أن الرواية خادعة: «مهما عملت لأضع في كلامي كل خواء وتفاهة هذه الحوادث، يكفي تحويلها إلى رواية حتى تؤدي إلى الإبهار والحلم. ومع ذلك، لم يكن ذلك بشيء؛ فالأرض شبيهة بهذه الأرض، والعشب شبيه بهذه المروج». وتثور كاميل، وهي تشعر جيداً، بأنها في عيني محبها ضحية، باعتبارها كائناً، لفقدان الاهتمام الذي يعاني منه:

فهو ليس متعلقاً بها لشخصها، بل كرمز للصلة الوحيدة الممكنة بينه وبين المجتمع. أما أوغست فكان يتعرف في سينا على ما قاله النسر؛ إلا أنه لم يكن قادراً على اتخاذ قرار بالتراجع: لأنها كثيرة المصالح السياسية المرتبطة بتأليهه. وكان يتمرد بالخصوص، على فكرة عدم وجود نهاية مطلقة لرجل العمل، يجد فيها مكافآته وراحته في آن.

يبدأ الفصل الثالث في جوّ متأزم؛ إذ في عشية الاحتفال، غرقت روما في الألوهية: فتصدع القصر، وغزته النباتات والحيوانات، وعادت المدينة إلى الحالة الطبيعية، وكأن كارثة دمرتها. وقطعت كاميل علاقتها مع سينا؛ وكان ذلك بالنسبة إليه الدليل القاطع على إخفاق كان مقتنعاً به من قبل؛ فيوجه حقده نحو أوغست. ومهما كان يبدو له الانسياق مع الطبيعة عبثاً اليوم، مقارنة بالمسرات الأكثر عمقاً التي يقدمها المجتمع، فهو يريد أن يكون الوحيد الذي يتذوق طعمها: «إنه ليس بشيء، أعرف ذلك، لكن هذا الذي هو ليس بشيء أكثر معزة لدي، لأنني اخترته» وكانت فكرة حيازة أوغست لكل شيء: الطبيعة والمجتمع، وأن ينال الأولى علاوة على الثاني، ليس نتيجة تنازل، لا تطاق بالنسبة إليه. وسيَغْتال سينا أوغست ليبرهن على اختيار ما.

وفي هذه اللحظة بالذات، يستنجد أوغست بسينا. فكيف يتم تحويل مسار الحوادث التي لم تعد مرتبطة بإرادته، مع بقائه وفياً لشخصيته؟ ويتبدى لهما الحل: نعم، ليغتل سينا الإمبراطور، كما اعتزم. وسيكسب كلاهما الخلود الذي حلم به: خلود أوغست الرسمي، من خلال الكتب والتماثيل والتقديس؛ وخلود سينا المشؤوم لاغتياله الإمبراطور، الذي سيلحق بواسطته بالمجتمع، مع استمراره بمعارضته له.

لم أعد أعلم بالضبط كيف كان سينتهي كل هذا، لأن المشاهد الأخيرة لم تكتب. لكن كاميل، كما يبدو لي، تأتي بحل العقدة لا إرادياً؛ إذ تقنع أخاها، بعد استرجاعها لعواطفها، بأنه أساء تفسير الوضع، وأن سينا، أكثر من النسر، هو رسول الآلهة. وعندها يفكر أوغست بحل سياسي. فإذا نجح في خداع سينا، ستُخدع الآلهة في الوقت ذاته. وبينما كان

الاتفاق بينهما على إلغاء الحراسة ليتسنى لصديقه قتله بسهولة، فإن أوغست يضاعف الحراسة سراً، حتى لا يصل سينا إليه. وبتأكيده لمجرى حياة كل منهما، سيفلح أوغست في آخر مهماته: إذ سيكون إلهاً، لكن لدى بني الإنسان، وسيغفر لسينا. أما بالنسبة لهذا الأخير، فلن يكون ذلك إلا إخفاقاً إضافياً.

كأس صغيرة من الروم

38 ليس للحكاية التي سبقت إلا عذر واحد: فهي توضح الخلل الذي يعتري عقل الرحالة، نتيجة لظروف حياة غير عادية، تمتد فترة طويلة. لكن المشكلة تبقى: إذ كيف يستطيع الإثنوغرافي التخلص من التناقض الناجم عن ظروف اختياره؟ فتحت ناظريه، وفي تصرفه مجتمع، هو مجتمعه؛ لماذا إذاً يقرر الاستخفاف به ويولي مجتمعات أخرى تكون الأكثر بعداً واختلافاً اهتماماً، ويبدي تفانياً، يأباهما على مواطنيه؟ ليس مصادفة أن لا يكون لدى الإثنوغرافي إزاء مجتمعه موقف محايد إلا نادراً. فلو كان مُبشراً أو موظفاً إدارياً، يمكن الاستنتاج أنه قبل التماهي مع نظام إلى درجة يوقف نفسه معها على نشره؛ وعندما يزاول مهنته على الصعيد العلمي والجامعي، ثمة احتمال كبير في أن نعثر ضمن ماضيه على عوامل موضوعية، تدل على عدم تكيفه أو قلة تكيفه مع المجتمع الذي ولد فيه. وباضطلاعه بدوره، يسعى إما إلى طريقة عملية للتوفيق بين انتمائه لفئة، والتحفظ الذي يشعر به تجاهها، وإما إلى مجرد وسيلة لاستغلال حالة ابتدائية من التجرد، تتيح له أفضلية في مقاربة مجتمعات مختلفة، يجد نفسه، أصلاً، في منتصف الطريق إليها.

لكنه إن كان حسن النية، فإن سؤالاً يلح عليه: إن القيمة التي يعلقها على المجتمعات الغريبة - والتي يتناسب كبرها مع غرابة هذه المجتمعات، كما يبدو، ليس لها أساس خاص بها؛ بل هي تابعة للاستخفاف، والعداوة أحيانا، التي توحي له بها العادات السائدة في بيئته. ومع أن الإثنوغرافي هدام في العادة بين مواطنيه، ومتمرد على الأعراف في مجتمعه. إلا أنه شديد الاحترام إلى حد المحافظة عندما يتصل الأمر بمجتمع مختلف

عن مجتمعه. والحال أن هنا شيئاً آخر غير الغرابة في التفكير؛ فأنا أعرف اثنوغرافيين تقاليديين، لكن بطريقة محرفة، بفضل نوع من الإندماج الثانوي لمجتمعهم مع المجتمعات التي يدرسونها. ويذهب ولاؤهم دائماً لهذه الأخيرة؛ وإذا ما رجعوا عن ثورتهم الأولى على مجتمعهم، فذلك لأنهم قاموا بتنازل إضافي للمجتمعات التي يدرسونها، يقوم على التعامل مع مجتمعهم، كما يودون أن يتم التعامل مع المجتمعات الأخرى. ولا يمكن الإفلات من المأزق: فإما أن يتبنى الإثنوغرافي معايير فئته، ولا يوحي له الآخرون إلا بفضول عابر مشوب بالاستهجان، وإما أن يتمكن من الانغماس بكليته في هذا الفضول، وتظل موضوعيته فاسدة؛ لأنه بانفتاحه على جميع المجتمعات، يكون رفض أحدها على الأقل، سواء أراد أم لم يرد. ويرتكب بذلك الخطيئة التي يلوم عليها أولئك الذين ينكرون المعنى المتميز لوجهته.

فرض هذا الشك نفسه علي لأول مرة، أثناء إقامتي الإجبارية في جزر الأنتيل، التي أتيت على ذكرها في بداية هذا المؤلف. إذ كنت زرت في المارتينيك مصنع روم تقليدياً ومهملاً؛ تستخدم فيه آلات وتقنيات ظلت كما هي منذ القرن الثامن عشر. أما في بورتوريكو، فعلى العكس؛ حيث كانت مصانع الشركة التي تملك نوعاً من الاحتكار لكل إنتاج قصب السكر، تعرض الخزانات المطلية بالمينا البيضاء، والصنابير المطلية بالكروم. ومع ذلك، كان طعم روم الماتينيك، الذي تذوقته من الدنان الخشبية القديمة التي تخثرت عليها الفضلات، طيباً ومعطراً؛ بينما كان روم بورتوريكو سوقياً وخشناً. فهل كانت نكهة الأول ناجمة عن شوائب، تُسهّل صناعة عتيقة بقاءها؟ يوضح هذا التعارض في نظري، مفارقة الحضارة التي تتمثل مفاتنها أساساً، في الرواسب التي تحملها في مدها، دون أن تتمكن مع ذلك من عدم تنقيتها. وبكوننا على حق مرتين، نعترف بخطئنا. إذ إننا على حق في تطبيقنا المبادئ العقلية، سعياً لزيادة الإنتاج وتخفيض التكاليف. لكننا على حق أيضاً في تعلقنا بالعيوب التي نعكف على إزالتها. فالحياة الاجتماعية تقوم على تحطيم ما يضفي

عليها نكهتها. ويبدو أن هذا التناقض يتلاشىً عندما ننتقل من النظر في مجتمعنا إلى النظر في مجتمعات أخرى. لأننا، ونحن منساقون مع حركة مجتمعنا، نشكل جزءاً من القضية. فليس في يدنا، عدم إرادة ما يرغمنا وضعنا على تحقيقه؛ بيد أن كل شيء يتغير عندما يتصل الأمر بمجتمعات مختلفة: فالموضوعية المستحيلة في الحالة الأولى، تمنح لنا بترحاب في الثانية. وبما أننا لم نعد فاعلين، بل متفرجون على التحولات التي تجري، فمن الجائز لنا أن نوازن بين صيرورتها وماضيها، ما دامت هذه التحولات مبرراً لتأمل جمالي وتفكير عقلي، عوضاً عن أن تتبدى لنا على شكل قلق أخلاقي.

قد أكون، بإعمالي لعقلي كما فعلت للتو، ألقيت الضوء على التناقض، حيث بينت أصله وكيف نتوصل إلى التلاؤم معه. لكنني لم أحلّه بالتأكيد. فهل هو نهائي إذاً؟ أكد البعض ذلك أحياناً، ليستنتجوا منه إدانتنا. إذ إننا بإبدائنا، من خلال وجهتنا، الميل الذي يدفعنا نحو أشكال اجتماعية وثقافية شديدة الاختلاف عن أشكالنا الاجتماعية والثقافية، مبالغين في قيمة الأولى على حساب الثانية نقدم الدليل على تناقض جذري؛ فكيف نتمكن من اعتبار هذه المجتمعات مستحقة للاحترام، إذا لم نعتمد على قيم المجتمع الذي يلهمنا فكرة بحوثنا؟ ولأننا عاجزون أبداً عن الإفلات من المعايير التي كيفتنا، فإن جهودنا للإطلال على شتى المجتمعات، بما فيها مجتمعنا، ستكون أسلوباً مخجلاً في الاعتراف بتفوقه على كل ما عداه من المجتمعات.

ليس وراء حجج هؤلاء المنافقين، إلا تلاعب سيء بالألفاظ: إذ يدَّعون إيهامنا بأن الخداع(*) (الذي يمارسونه) هو المضاد للصوفية (التي تقرب بيننا خطأً). فتبين التحقيقات في الآثار القديمة والإثنوغرافيا أن بعض الحضارات، معاصرة كانت أو مندثرة، عرفت أو ماتزال تعرف أفضل منا حل مشكلات، مع أننا اجتهدنا للحصول على النتائج ذاتها. ونحن لم

(*) والمقصود هنا مثال على التلاعب بالألفاظ: فالخداع: MYSTIFICATION، والصوفية: MYSTICISME. (المترجم)

نعلم، على سبيل المثال، إلا منذ سنوات المبادئ الفيزيائية والعضوية التي يعتمد عليها تصميم كساء وسكن الأسكيمو؛ وكيف تسمح هذه المبادئ التي نجهلها، لهم بالعيش في ظروف مناخية قاسية، وليس التكيف أو البنية الاستثنائية. كما سمحت لنا هذه المبادئ بفهم لِمَ ظهرت التحسينات التي جلبها المستكشفون معهم لألبسة الأسكيمو، عديمة الفاعلية، بل أدت إلى نتائج عكسية. ذلك لأن حل الأهالي كان مثالياً، ولم يكن ينقصنا للاقتناع به، إلا التعمق في النظرية التي تأسس عليها.

لكن الصعوبة ليست هنا. فلو حكمنا على إنجازات الفئات الاجتماعية تبعاً لغايات مشابهة لغاياتنا، لكان علينا أحياناً أن ننحني أمام تفوقهم؛ لكننا ننال عندئذ حق الحكم عليهم، وإدانة كل الغايات الأخرى، التي لاتتفق مع الغايات التي نوافق عليها. ونعترف ضمنياً بالأفضلية لمجتمعنا وعاداته ومعاييره، باعتبار أن ملاحظاً منتمياً إلى فئة اجتماعية أخرى، سيصدر أمام الأمثلة عينها أحكاماً مخالفة. فكيف يمكن في هذه الظروف، ادعاء صفة العلم لدراساتنا؟ علينا، لاستعادة موقف الموضوعية، الامتناع عن أي حكم من هذا النوع. وعلينا أن نسلم بأنه في سلم الإمكانات المتاحة للمجتمعات الإنسانية، قام كل منها باختيار ما، وأنه لا يمكن الموازنة بين هذه الاختيارات: فهي تتساوى فيما بينها. لكن مشكلة جديدة تبرز عندئذ: لأننا إذا كنا في الحالة الأولى مهددين بالظلامية، في شكل رفض أعمى لكل ما هو ليس منا، فإننا نجازف الآن بالإذعان إلى نزعة انتقائية، تمنع علينا استبعاد أي شيء من ثقافة ما: حتى لو كانت القسوة والظلم والبؤس، التي يحتج عليها أحياناً المجتمع الذي يعاني منها نفسه. وبما أن هذه التجاوزات موجودة أيضاً بيننا، فهل سيكون لنا حق في مكافحتها بصفة دائمة، إذا كان ظهورها في مكان آخر كافياً لننحني أمامه؟ فالتعارض بين موقفين للإثنوغرافي: موقف نقدي في بلاده، وآخر تقاليدي في الخارج، يخفي موقفاً آخر، يجد صعوبة في الإفلات منه. لأنه إذا أراد الإسهام في تحسين نظامه الاجتماعي، عليه أن يدين الظروف المماثلة للتي يحاربها، حيثما وجدت؛ وبالتالي يفقد موضوعيته

وحياده. وفي المقابل، يمنعه الحياد الذي يفرضه عليه الوازع الأخلاقي والتحرز العلمي من نقد مجتمعه الخاص، باعتبار أنه لا يريد الحكم على أي مجتمع، حتى يتعرف على المجتمعات كافة. فإذا حاول المرء التأثير في موطنه، يحرم نفسه من فهم الباقي، لكنه إن أراد فهم كل شيء، يتخلى عن تغيير أي شيء.

وإذا كان التناقض عقبة كأداء، فلا ينبغي للاثنوغرافي أن يتردد في اختيار البديل الواجب: إنه إثنوغرافي وأراد أن يكون كذلك، فليتقبل إذاً تمزقاً متمماً لوجهته. لقد اختار الآخرين، وعليه تحمل عواقب هذا الاختيار: إذ سيقتصر دوره على فهم هؤلاء الآخرين، الذين ليس له ان يتحرك باسمهم، ذلك لأن مجرد كونهم آخرين، يمنعه من أن يريد في مكانهم، لأن هذا يعني انه تماهى بهم؛ وسيتخلى، علاوة على ذلك، عن الفعل في مجتمعه، خشية اتخاذ موقف حيال قيم قد يتعرض لمصادفتها ثانية في مجتمعات مختلفة، وبالتالي إدخال أحكام مسبقة في فكره. ولا يتبقى إلا الاختيار الأصلي، الذي من أجله سيرفض كل تبرير: إنه فعل محض، غير معلل؛ وإذا علل فباعتبارات خارجية، مستمدة من طبع كل إنسان أو ماضيه.

إلا أننا لم نصل إلى هذا الحد لحسن الحظ؛ فبعدما تأملنا الهاوية التي نكاد نسقط فيها، ليُسمح لنا بالبحث عن مهرب منها. ويمكن التوصل إلى هذا المهرب بشرطين هما: الاعتدال في الحكم، وتجزئة الصعوبات إلى مرحلتين.

ما من مجتمع كامل. فكل المجتمعات تتضمن بطبيعتها شوائب، غير متناسبة مع المعايير التي تنادي بها، وتتجسد في قدر من الظلم، وفقدان الحس، والقسوة. كيف يتسنى تقييم هذا القدر؟ إن التحقيق الإثنوغرافي يستطيع ذلك. لأنه، إذا كان حقاً أن مقارنة عدد صغير من المجتمعات، يظهرها شديدة الاختلاف فيما بينها، إلا أن هذه الاختلافات تخف حدتها، عندما يتوسع ميدان الاستقصاء. فنكتشف حينئذ أنه ما من مجتمع طيب تماماً؛ ولكن ليس من مجتمع سيء بشكل مطلق. إذ تمنح

كلها بعض الامتيازات لأعضائها، مع الأخذ بالحسبان بقية من جور، تظهر أهميته ثابتة تقريباً، ويرجع ربما إلى قصور نوعي يتعارض، على صعيد الحياة الاجتماعية، مع الجهود التي تتوخى التنظيم.

ستدهش هذه القضية هواة قصص الرحلات، الذين يهزهم استذكار العادات «الوحشية» لهذه الأقوام أو تلك. ومع ذلك، فإن ردود فعلهم المرهفة، لا تصمد أمام تقدير سليم للوقائع، ووضعها في منظور أوسع. لنأخذ حالة أكل لحم البشر التي من بين كل الممارسات البدائية، تثير فينا من دون شك، الرعب والتقزز. إذ علينا في البداية، أن نفصلها عن الأشكال الغذائية بمعنى الكلمة، أي تلك التي تفسر فيها الشهية للحم الآدمي بنقص في الأغذية الحيوانية الأخرى، كما كانت الحال في بعض الجزر البولينيزية. وما من مجتمع بمنأى عن مثل هذا الجوع؛ فقد تؤدي المجاعة بالناس إلى أكل أي شيء: ويدل على ذلك المثال القريب العهد لمعسكرات الاعتقال.

تبقى إذاً صنوف أكل لحم البشر التي يمكن تسميتها إيجابية، أي تلك التي مردها لسبب رمزي أو سحري أو ديني: كابتلاع جزء من جسد أحد الأسلاف، أو قطعة من جثة عدو، لتمثل فضائله أو إبطال سلطانه؛ فبالإضافة إلى أن مثل هذه الطقوس تتم في الأغلب بطريقة متحفظة، وتمس كميات ضئيلة من اللحم، تهرس أو تخلط بأغذية أخرى؛ علينا الاعتراف، حتى عندما تكتسي أشكالاً أكثر صراحة، بأن الإدانة الأخلاقية لمثل هذه الأعراف، تتضمن إما اعتقاداً ببعث الأجساد يتعرض للضرر بالإتلاف المادي للجثة، وإما بوجود صلة بين الروح والجسد والثنائية المصاحبة لذلك؛ أي معتقدات من الطبيعة نفسها للمعتقدات التي يُمارَس الأكل الطقوسي باسمها؛ ولا سبب لدينا لتفضيل هذه على تلك. ولاسيما أن عدم الاكتراث بذكرى المتوفى، التي نلوم عليها أكلة لحوم البشر، ليست أكبر، بل على العكس، مما نتسامح فيه ضمن مدرجات التشريح.

ولكن علينا الاقتناع خاصة، بأن بعض العادات الخاصة بنا، إذا نظر فيه ملاحظ من مجتمع مخالف، ستبدو له من الطبيعة ذاتها لأكل لحوم

البشر، التي تبدو لنا غريبة عن مفهوم الحضارة. وأقصد أعرافنا المتصلة بالقضاء والسجون، فلدى دراستها من الخارج يميل الدارس إلى المقابلة بين نمطين من المجتمعات: تلك التي تمارس أكل لحوم البشر، أي ترى ابتلاع بعض الأفراد المتصفين بقوى مخيفة، الوسيلة الوحيدة لإبطال هذه القوى، وحتى الاستفادة منها؛ وتلك التي، على غرار مجتمعنا، تتبنى ما يمكن تسميته بالنبذ البشري؛ إذ بوجودها أمام المشكلة نفسها، اختارت الحل المعاكس، الذي يقوم على طرد هؤلاء الناس المخيفين خارج المجتمع، بإبقائهم مؤقتاً أو نهائياً معزولين، دون اتصال بالإنسانية في مؤسسات خصصت لهذه الغاية. ويثير هذا العرف في أكثرية المجتمعات التي نسميها بدائية اشمئزازاً عميقاً؛ ويصمنا في أعينهم بالوحشية نفسها، التي نميل إلى وصفهم بها بسبب أعرافهم المقابلة.

ومجتمعات تبدو لنا شرسة من بعض الوجوه، تعرف كيف تكون إنسانية وحفية، عندما يُنظر إليها من جانب آخر. لنلاحظ هنود السهول في أمريكا الشمالية، فمثالهم ذو مغزى من وجهين؛ لأنهم مارسوا بعض أشكال أكل لحوم البشر المعتدلة؛ ويشكلون أحد الأمثلة النادرة لشعب بدائي يتمتع بشرطة منظمة. إذ لم يكن يخطر على بال هذه الشرطة (التي كانت أيضاً سلك قضاء) أن يكون قصاص المذنب قطعاً للصلات الاجتماعية. فإذا ماانتهك أحد الأهالي قوانين القبيلة، يعاقب بإتلاف كل ممتلكاته من خيمة وجياد. إلا أن الشرطة، في الوقت ذاته، تعقد قرضاً لمصلحته، حيث يقع على عاتقها تنظيم التعويض الجماعي على الضرر الذي كان المذنب، من خلال القصاص، ضحية له. هذا التعويض يجعل هذا الأخير مديناً للجماعة، وعليه أن يعبر عن عرفانه لها بهدايا، تعينه الجماعة بأسرها -والشرطة نفسها- على جمعها، وهو ما يقلب العلاقات من جديد؛ وهكذا دواليك، حتى تمتص الفوضى الداخلية، ويستتب النظام من جديد، في نهاية سلسلة من الهدايا والهدايا المقابلة. فليست مثل هذه العادات أكثر إنسانية من عاداتنا وحسب، بل هي أكثر منطقية، حتى لو وضعنا المشكلة بمفردات علم النفس الحديث: إذ إن

معاملة المذنب كطفل المتضمَّنة في مفهوم العقاب، تقتضي من الناحية المنطقية أن يُعترف له بحق ملازم في إكرامية؛ ويفقد المسعى الأول فاعليته بدونها، هذا إذا لم يؤد إلى نتائج معاكسة للنتائج المرجوة منه. باعتبار أن منتهى العبث في طريقتنا، هو التعامل مع المذنب كطفل، حتى نسمح لأنفسنا بمعاقبته، ومعاملته في الوقت ذاته كراشد، لنمنع عنه المواساة؛ والظن بأننا حققنا تقدماً روحياً كبيراً لأننا عوضاً عن أكل بعض أبناء جلدتنا، نفضل تشويههم جسدياً وأخلاقياً.

إذا قمتَ بهذه التحليلات بإخلاص ومنهجية، تنتهي إلى نتيجتين: فهي تلقى في الذهن عنصر اتزان وحسن نية في النظر والأعراف وصنوف الحياة الأكثر بعداً عن أعرافنا وطريقة حياتنا، دون أن نضفي عليها مع ذلك، من الفضائل المطلقة التي لا يحوز عليها أي من المجتمعات. ثم هي تجرد عاداتنا من بديهية، فحواها أن جهلنا بأعراف أخرى -أو معرفتنا لها بصورة جزئية أو مغرضة- يكفي للتقول عليها. فمن الصواب إذاً القول، إن التحليل الإثنولوجي يعلي من شأن المجتمعات المختلفة، ويخفض من مجتمع الباحث؛ وهو بذلك متناقض من هذه الجهة. لكننا إن أردنا التأمل جيداً فيما جرى، سنجد أن هذا التناقض ظاهري أكثر مما هو واقعي.

قيل أحياناً إن المجتمع الغربي كان الوحيد الذي أنجب إثنوغرافيين؛ وإن في ذلك تكمن عظمته؛ وفي غياب تفوقات أخرى، ينكرها عليه هؤلاء، هو التفوق الوحيد الذي يرغمهم على الانحناء أمام مجتمعهم، لأنهم من دونه، ما كان لهم وجود. إلا أنه يمكن ادعاء العكس أيضاً: فإذا كان الغرب أنجب إثنوغرافيين، فذلك لأن تأنيب ضمير قوي كان يعذبه، ويرغمه على مواجهة صورته بصور مجتمعات مختلفة، أملاً في أن تعكس العيوب ذاتها، أو تعينه على تفسير كيفية تفاقم هذه العيوب في أحضانه. غير أنه إذا كان صحيحاً أن مقارنة مجتمعنا مع المجتمعات الأخرى جميعاً، معاصرة كانت أم مندثرة، يؤدي إلى انهيار الأسس التي قام عليها، فمجتمعات أخرى ستلقى المصير نفسه. ذلك لأن هذا المتوسط

العام الذي ذكرته آنفاً، يبرر بعض الغيلان: يظهر أننا في عدادها؛ وليس من قبيل المصادفة، لأننا لو لم نكن منها، ولم نستحق أن نكون بينها في المرتبة الأولى من هذه المسابقة المحزنة، لما ظهرت الإثنوغرافيا بيننا أبداً: لأننا ماكنا شعرنا بالحاجة إليها. فبوسع الإثنوغرافي عدم الاهتمام بحضارته، والتملص من أخطائها، بقدر ما يكون وجوده غير مفهوم إلا كمحاولة للافتداء، ورمز للتكفير. لكن هناك مجتمعات أخرى شاركت في الخطيئة الأصلية ذاتها، ليست كثيرة بلا شك، وتقل كلما هبطنا في سلم التقدم. حسبي أن أذكر منها الآزتك، جرحاً فاغراً في خاصرة الدراسات الأمريكية، الذين يضعهم هوس مرضي بالدم والتعذيب (شامل في الحقيقة، لكنه جلي لديهم) -مهما كان تفسيره بالحاجة إلى مؤالفة الموت -إلى جانبنا، ليسوا لأنهم الوحيدون الظالمون، بل لأنهم كانوا كذلك على طريقتنا، وبإفراط.

ومع ذلك، لايعني إدانتنا لأنفسنا بأنفسنا، منح شهادة امتياز لهذا أو ذاك من المجتمعات الحاضرة أو الماضية، المتوضعة في نقطة معينة من الزمان والمكان. فسيكون ذلك ظلماً؛ لأننا إن فعلنا ذلك، نكون تجاهلنا أننا لو كنا جزءاً من هذا المجتمع لبدا لنا لا يطاق: وسندينه عندئذ، كما ندين المجتمع الذي ننتمي إليه. فهل ننتهي إذاً إلى إثارة قضية كل حالة اجتماعية مهما كانت؟ وإلى تمجيد حالة طبيعية لم يؤد بها النظام الاجتماعي إلا إلى الفساد؟ «خذوا حذركم ممن يأتي لفرض النظام» كما كان يقول ديدرو، الذي كان هذا موقفه. إذ كان يرى أن «التاريخ الموجز» للإنسانية يتلخص كالتالي: «كان ثمة إنسان طبيعي؛ ووضع داخل هذا الإنسان إنسان اصطناعي؛ فنشبت في الكهف حرب متواصلة، دامت طيلة الحياة» وهذا الموقف غير معقول، لأن من يقول إنساناً، يقول لغة، ومن يقول لغة يقول مجتمعاً. إن البولينيزيين الذين تحدث عنهم بوجنفيل(*) (الذين وضع ديدرو نظريته كملحق لرحلته) لم يكونوا يعيشون في مجتمع أقل منا.

(*) بوجنفيل (لويس أنطون) ملاح فرنسي ١٧٢٩-١٨١١، كتب (رحلة حول العالم) الشهيرة. (المترجم)

وإذا ادعى أحد شيئاً آخر، فإنه يسير بعكس التحليل الإثنوغرافي، وليس في الاتجاه الذي يحثنا هذا التحليل على استكشافه.

إنني مع إثارتي لهذه المشكلة، مقتنع بأنها غير قابلة إلا للحل الذي قدمه روسو لها: روسو الذي طالما حُط من قدره، وأسيئت معرفته أكثر من أي وقت مضى، متعرضاً للإتهام السخيف الذي يَنسب إليه تمجيداً للحالة الطبيعية -حيث تمكن رؤية خطأ ديدورو،، وليس خطأه- مع أنه قال بالعكس؛ ويظل الوحيد الذي يبين كيفية الخروج من التناقضات التي نتخبط فيها على إثر خصومه؛ روسو الإثنوغرافي الأكبر من بين الفلاسفة: فهو وإن لم يسافر قط إلى أرض بعيدة، كانت مراجعه ومستنداته من أكمل ما يمكن لرجل من زمانه؛ وكان ينشطها -على عكس فولتير- بمحبة للاطلاع مفعمة بالتعاطف مع عادات الفلاحين، والفكر الشعبي؛ روسو، معلمنا، روسو أخونا، الذي طالما أظهرنا له نكران الجميل؛ إلا أن كل صفحة من هذا الكتاب كان يمكن أن تهدى إليه، لو لم يكن التكريم غير جدير بذكراه. لأننا لن نخرج أبداً من التناقض الملازم لموقف الإثنوغرافي، إلا إذا كررنا لفائدتنا، المسعى الذي نقله من بقايا (خطاب حول أصل عدم المساواة)، إلى البناء المسهب لـ(العقد الاجتماعي) الذي يكشف (إميل) عن سره. ذلك لأننا ندين له بمعرفة كيف يمكن اكتشاف المبادئ التي تسمح ببناء نظام جديد، بعدما نزيل كل الأنظمة.

لم يرتكب روسو مطلقاً خطأ ديدرو في اسباغ المثالية على الإنسان الطبيعي. ولم يجازف بالخلط بين الحالة الطبيعية وبين الحالة الاجتماعية؛ عارفاً أن هذه الأخيرة ملازمة للإنسان، لكنها تؤدي إلى شرور: والسؤال الوحيد هو معرفة ما إذا كانت هذه الشرور ملازمة للحالة. فينبغي إذاً، فيما وراء التجاوزات والجرائم، البحث عن القاعدة المكينة للمجتمع الإنساني.

وتسهم المقارنة الإثنوغرافية في هذا المسعى بطريقتين. إذ نبين أن هذه القاعدة لايمكن أن توجد في حضارتنا: لأنها الأكثر بعداً عنها من كل المجتمعات الملاحظة. وباستخلاصها، من جهة أخرى، الخصائص

المشتركة لأكثرية المجتمعات الإنسانية، تساعد في تكوين أنموذج لاينطبق عليه أي مجتمع انطباقاً تاماً، لكنه يوضح الاتجاه الذي ينبغي أن يتخذه الاستقصاء. كان روسو يرى أن نوع الحياة في ما نسميه اليوم العصر الحجري الحديث، يقدم الصورة التجريبية الأقرب لهذا الأنموذج. وللمرء أن يتفق أو يختلف مع هذا الرأي. لكنني أميل إلى الاعتقاد بأنه كان على حق. ففي العصر الحجري الحديث، قام الإنسان بجل الاختراعات الضرورية لضمان أمنه. وقد رأينا لِمَ يمكننا استبعاد الكتابة، لأن القول بأنها سلاح ذو حدين، لايشكل صفة مميزة للبدائية، وهذا ما أعاد اكتشافه المتخصصون بالسيبرنيطقيا المعاصرون. إذ أصبح الإنسان في العصر الحجري الحديث بمنجى من البرد والجوع؛ واكتسب متسعاً من الوقت للتفكير؛ وما من شك في أنه كان يقاوم المرض بصعوبة، ولكن ليس من المؤكد أن ضروب التقدم فعلت أكثر من إلقاء عبء التوازن الديموغرافي على آليات أخرى، كالمجاعات الكبرى، وحروب الإبادة، حيث كانت الأوبئة تسهم فيه بنصيب، لم يكن أكثر إفزاعاً من غيره.

لم يكن الإنسان في هذا العصر الأسطوري، أكثر حرية منه اليوم، لكن إنسانيته وحدها كانت تجعل منه عبداً. فبما أن سيطرته على الطبيعة ظلت محدودة جداً، كان يجد نفسه تحميه، وإلى حد ما تعتقه أحلامه. وبقدر ماكانت هذه الأحلام تتحول تدريجياً إلى معرفة، كانت تتزايد سلطة الإنسان؛ لكن هذه السلطة التي طالما افتخرنا بها ووضعتنا -إذا صح القول- «في تماسك مباشر» مع الكون، هل تكون في الحقيقة إلا الوعي الذاتي بالتحام الإنسانية التدريجي بالكون الفيزيائي، الذي تؤثر حتمياته الكبرى منذئذ، ليس كقوى غريبة مخوفة، بل بتوسط العقل نفسه، تستعمرنا لفائدة عالم صامت، أصبحنا العاملين له؟

كان روسو على حق، من دون شك، في اعتقاده بأن الأفضل لسعادتنا لو بقيت الإنسانية «في موقف وسط بين خمول الحالة البدائية، ونشاط غرورنا المحتدم»؛ وأن هذه الحالة الوسطى، ليست حالة بدائية مطلقاً؛ وأنها تفترض قدراً من التقدم وتسمح به؛ وأن ما من مجتمع معروف

يقدم صورتها بامتياز، حتى لو كان «مثال المتوحشين، الذين وُجدوا جميعاً تقريباً في هذه الحالة، يؤكد، كما يبدو، أن النوع الإنساني كان مهيئاً للبقاء فيها دائماً». هذه الحالة هي «الأفضل للإنسان» وقد وجب لإخراجه منها (بعض مصادفات مشؤومة) حيث يمكن تحديد هذه الظاهرة الاستثنائية من وجهين -لأنها فريدة ومتأخرة- والمتمثلة في صعود الحضارة الآلية.

غير أن دراسة هؤلاء المتوحشين، تجلب شيئاً آخر غير إظهار حالة طبيعية طوباوية، أو الكشف عن المجتمع المثالي في قلب الغابات، هو مساعدتنا في بناء أنموذج نظري للمجتمع الإنساني، لا صلة له بأي واقع قابل للملاحظة؛ لكننا بفضله سنتوصل إلى فرز «ما هو أصيل واصطناعي في طبيعة الإنسان الراهنة؛ ومعرفة حقة لحالة لم يعد لها وجود، ولم توجد ربما قط، ولن توجد على الأرجح أبداً؛ إلا أنه من الضروري مع ذلك اكتساب أفكار صحيحة عنها، للحكم على حاضرنا حكماً صائباً». كنت ذكرت هذه العبارة قبلاً، لاستخلاص دلالة بحثي لدى النامبيكوارا؛ لأن فكر روسو المتقدم أبداً على عصره، لا يفصل علم الاجتماع النظري عن التحقيق، الذي أدرك الحاجة إليه، سواء في المخبر أم في الميدان. فبما أن الإنسان الطبيعي ليس سابقاً على المجتمع ولا خارجاً عنه، ينبغي علينا استرجاع شكله باعتباره حالاً في الحالة الاجتماعية التي لا يُعقل الوجود الإنساني خارجها؛ وبالتالي، وضع برنامج التجارب التي «تكون ضرورية، للتوصل إلى معرفة الإنسان الطبيعي» وتحديد «وسائل إجراء هذه التجارب في قلب المجتمع».

لكن هذا الأنموذج - وهو حل روسو - أبدي وكوني. والمجتمعات الأخرى قد لا تكون أفضل من مجتمعنا، حتى ولو كنا نميل إلى الاعتقاد بذلك، من دون أية طريقة للبرهنة عليه. إلا أننا، بمعرفتنا لهذه المجتمعات جيداً، نكتسب مع ذلك وسيلة ننفك بها من مجتمعنا، ليس لأنهُ الوحيد السيئ أو مطلق السوء، بل لأنه الوحيد الذي علينا الانعتاق منه. وهكذا نكون على استعداد للشروع في المرحلة الثانية التي تقوم، دون احتفاظ

بشيء من أي مجتمع، على استعمالها جميعا، لاستخلاص مبادئ الحياة الاجتماعية، التي من الممكن لنا تطبيقها في إصلاح عاداتنا الخاصة، وليس عادات المجتمعات الأجنبية: إذ نظراً لامتياز معاكس للامتياز السابق، فنحن في المجتمع الذي ننتمي إليه وحده، نتمتع بوضع يسمح لنا بتحويله دون المجازفة بتحطيمه، لأن التغيرات التي ندخلها عليه، تأتي منه أيضاً.

إننا بوضعنا الأنموذج الذي نستلهمه خارج الزمان والمكان، نتعرض بالتأكيد لمخاطرة تقدير واقع التقدم دون حقه. وموقفنا يعني أن بني الإنسان قاموا دائماً، وفي كل مكان بالمهمات نفسها، مستهدفين الأغراض ذاتها؛ إلا أنهم خلال صيرورتهم اختلفوا في الوسائل فقط؛ وأعترف بأن هذا الرأي لا يقلقني، ويبدو أنه الأكثر مطابقة للوقائع، كما يبينها لنا التاريخ والأثنوغرافيا؛ ويظهر لي أكثر خصوبة، على وجه الخصوص. إن الغيورين على التقدم، يعرضون أنفسهم لتجاهل الثروات العظيمة التي جمعتها الإنسانية، لقلة اهتمامهم بها، على جانبي الأخدود الضيق الذي يثبتون أعينهم عليه؛ وباستهانتهم بأهمية الجهود الماضية، ينتقصون من الجهود التي بقي علينا بذلها. وإذا ما كان بنو الإنسان تصدوا لعمل واحد، هو إنشاء مجتمع قابل للحياة، فإن القوى التي كانت تبعث النشاط في أسلافنا البعيدين، مازالت حاضرة فينا؛ ولم يفت الوقت، إذ باستطاعتنا بداية كل شيء من جديد. وكل ما عُمِل وانتهى إلى الإخفاق، يمكن أن يعمل من جديد: «إن العصر الذهبي الذي وضعه تشاؤم أعمى وراءنا (أو أمامنا) هو فينا.» والأخوة الإنسانية تكتسي معنى ملموساً، حيث تقدم لنا، في أكثر القبائل فقراً، صورتنا كما هي، وخبرة تضم إلى الكثير غيرها؛ نستطيع استيعاب دروسها التي سنجد فيها من جديد رونقاً قديماً؛ ذلك لأننا بمعرفتنا أن الإنسان لم يتوصل منذ آلاف السنين إلا لتكرار نفسه، سنبلغ سمو الأخلاق الذي يقوم فيما وراء كل ما كُرر من أقوال، على إسباغ عظمة البدايات التي لا توصف، على تأملاتنا كنقطة للانطلاق. وبما أن كوننا من بني الإنسان، يعني لكل واحد منا الانتماء

إلى طبقة ومجتمع وبلد، وإلى حضارة؛ وبما أن المغامرة في العالم الجديد، تعني لنا نحن الأوربيين، أنه لم يكن لنا منذ البداية، وأننا نتحمل وزر جريمة إتلافه؛ ولم يعد بالتالي وجود لعالم غيره، بعدما رجعنا إلى أنفسنا بعد هذه المواجهة؛ فلنعرف على الأقل التعبير عنه بمفرداته الأولى ونحن متوافقون مع زمن أضاع عالمنا فيه الفرصة التي سنحت له للاختيار بين مهماته.

تاكسيلا[1]

39 على سفوح جبال كشمير، بين راولبندي وبيشاور، يرتفع موقع تاكسيلا، على مسافة بضعة كيلو مترات من الخط الحديدي. وقد سلكت هذا الخط لبلوغها، متسبباً عن غير إرادة مني في مأساة صغيرة. لأن المقصورة الوحيدة للدرجة الأولى التي صعدت إليها، كانت من طراز قديم - أربع مراتب، ستة مقاعد- تتوسط عربة للحيوانات، والصالون، والسجن ذي القضبان الحديدية على نوافذه. حيث كانت أسرة مسلمة جالسة: الزوج والزوجة وطفلان. وترتدي السيدة الحجاب. وعلى الرغم من محاولتها الانزواء: مقرفصة على مرتبتها، وهي تتلفع بالبرقع، وتدير لي ظهرها بعناد، إلا أن هذه المخالطة بدت مستنكرة، ووجب انفصال العائلة؛ فمضت المرأة مع الطفلين إلى عربة السيدات، بينما استمر الزوج في احتلال الأماكن المحجوزة، وهو يقتلني بنظراته. ورضيت بما قسم لي في هذا الحادث، بسهولة أكبر في الحقيقة من رضاي بالمشهد الذي كانت عليه، بينما كنت أنتظر وسيلة للنقل، قاعة الانتظار المتصلة بصالون كُسيَتْ جدرانه بخشب بني، وُضعت على طولها عشرون من الكراسي المثقوبة؛ كأنما لاجتماع ندوة أطباء الجهاز الهضمي.

حملتني إحدى العربات الصغيرة التي يجرها حصان، المسماة غاري، التي يجلس الراكب فيها وظهره للحوذي، معرضاً للسقوط عند كل هزة، إلى موقع الآثار، على طريق ترابية تحف بها منازل واطئة من الطين، بين أشجار الكينا والطرفاء والتوت والفلفل. وكانت حدائق الليمون والبرتقال

---

(١) جرى حذف بعض الفقرات من هذا الفصل، يمكن للقارئ العودة إليها في النص الفرنسي. (الناشر)

تمتد على سفح تلة من الحجارة المُزرقة، تناثرت فيها أشجار الزيتون البري. وكان الفلاحون يرتدون ملابس بألوان عذبة: بيضاء، وردية، بنفسجية، وصفراء، ويعتمرون عمامات مستديرة. وصلتُ أخيراً إلى المبنى الإداري المحيط بالمتحف. حيث كان مقرراً أن أقيم للفترة الوجيزة اللازمة لزيارة موقع التنقيب؛ إلا أن البرقية «الرسمية العاجلة» المرسلة من لاهور بالأمس، للإعلام بوصولي، لم تصل إلى المدير إلا بعد خمسة أيام، نظراً للفيضانات التي تجتاح البنجاب؛ وهكذا كان وصولي غير منتظر.

يشغل موقع تاكسيلا، الذي حمل قديماً الاسم السنسكريتي تاكشاسيلا- مدينة نحاتي الحجارة - حفرة مزدوجة، يصل عمقها إلى عشرة كيلو مترات، تشكلت عند ملتقى واديَيْ هارو وتامارانالا: أي تيبيريو بوتاموس كما كان يسمّيه القدماء. كان الواديان والقمة التي تفصل بينهما، مأهولين ببني الإنسان لعشرة أو اثني عشر قرناً دون انقطاع: منذ تأسيس أقدم قرية تم الكشف عنها، وترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، حتى تهديم الأديرة البوذية من قِبَل الهنود البيض، الذين اجتاحوا مملكتي كوشنا وغوبتا، بين عامي ٥٠٠ و ٦٠٠ بعد الميلاد. وبصعود المرء الواديين، يغوص في الماضي السحيق. بهيرموند، أسفل القمة الوسطى، هي الموقع الأقدم؛ وبعد بضعة كيلومترات إلى الأعلى، توجد مدينة سيركاب، التي وصلت إلى ذروة مجدها في ظل البارثيين؛ وخارج السور بالضبط معبد جانديال الزرادشتي، الذي زاره أبولونيوس دوتيان؛ وتأتي بعده مدينة سيرسوك الكوشانية، التي تنتصب حولها النصب والأديرة البوذية: موهرا مورادو، جوليان، دارماراجيكا، التي تكتنفها تماثيل صنعت أصلاً من الصلصال النيء، لكن الحرائق التي أشعلها الهون، حفظتها مصادفة بشيها.

كانت هناك، في نحو القرن الخامس قبل الميلاد، قرية ضُمت إلى الامبراطورية الأخيمينية، وصارت مركزاً جامعياً. وقد توقف الإسكندر، في مسيرته نحو الجومنا، لبضعة أسابيع في ٣٢٦ ق.م، بالمكان نفسه الذي توجد فيه خرائب بهيرموند اليوم. ويبسط بعد قرن الأباطرة الموريون

سلطانهم على تاكسيلا، حيث شجع أسوكا- الذي بنى أكبر النصب البوذية- إدخال البوذية. لكن الامبراطورية المورية انهارت عند موته في ٢٣١ ق.م، وحل محله ملوك باختران. وفي نحو العام ٨٠ ق.م، استتب الأمر للصيتيين، الذين تخلوا بدورهم عن الميدان للبارثيين، الذين كانت امبراطوريتهم تمتد في نحو ٣٠ للميلاد، من تاكسيلا إلى دورا أوروبوس. ويعتقد أن زيارة أبولونيوس تمت في هذه الآونة. إلا أنه منذ قرنين، والسكان الكوشان يتقدمون من شمالي غرب الصين الذي يتركونه في ١٧٠ ق.م إلى باختران، أوكسوس، كابول، وأخيراً شمالي الهند، الذي يحتلونه نحو العام ٦٠ لفترة بجوار البارثيين. وبعدما اعتراهم الإنحطاط منذ القرن الثالث اندثر الكوشان تحت ضربات الهون، بعد مائتي سنة. وعندما زار الصيني هسوان تسانغ تاكسيلا حاجاً، في القرن السابع، لم يجد فيها إلا بقايا مجد غابر.

في مركز سيركاب، الذي ترسم خرائبه على سطح الأرض مخططاً رباعي الزوايا، وشوارع مستقيمة، هناك صرح يعطي تاكسيلا دلالتها التامة. هو المذبح المسمى «مذبح النسر ذي الرأسين» تظهر على قاعدته ثلاثة أروقة منقوشة ببروز: الأول بواجهة مثلثية ذات أسلوب يوناني - روماني؛ والثاني جرسي على الطريقة البنغالية؛ والثالث بقي أميناً للطراز البوذي العتيق في بوابات بهارهوت. لكننا ننتقص من تاكسيلا إذا قصرناها على المكان الذي تعايشت فيه، لعدة قرون، ثلاثة من أعظم التقاليد الروحية للعالم القديم، جنباً إلى جنب هي: الهيلنية والهندوسية والبوذية؛ لأن فارس الزرادشتية كانت حاضرة أيضاً، ومع البارثيين والصيتيين، تمكنت حضارة السهوب هذه، بالإلهام الإغريقي، من إبداع أجمل حلي خرجت من بين يدي صائغ؛ ولم يكن النسيان قد طوى ملوكها بعد، عندما فتح الإسلام تلك الأصقاع ليبقى فيها إلى الأبد. فباستثناء المسيحية، اجتمعت هنا كل المؤثرات التي اصطبغ بها العالم القديم. وينابيع قديمة اختلطت مياهها هنا. وأنا، الزائر الأوروبي الذي يتأمل هذه الخرائب، شاهد على التقاليد الناقصة. ففي أي موقع أفضل من

هذا الموقع الذي يقدم له عالمه الأصغر، يمكن لرجل العالم القديم، وقد جدد الصلة بتاريخه، أن يسائل نفسه؟

كنت أتجول مساءً في نطاق بهيرموند، المحاط بتلعة من الركام. وهذه القرية المتواضعة، التي لم يتبق منها سوى أساسات، لم تعد تعلو عن مستوى الأزقة المنتظمة التي كنت أمشي فيها. يبدو لي كأني أنظر إلى مخططها من أعلى أو من بعيد؛ وهذا الوهم الذي ساعد عليه انعدام النبات، كان يضيف عمقاً إلى العمق التاريخي. إذ في هذه البيوت عاش ربما المثالون الإغريق، الذين كانوا يتبعون الاسكندر، مبدعو فن الفاندهارا، والذين ألهموا قدامى البوذيين الجرأة على تصوير إلههم. فاستوقفني لمعان عند قدمي: كان لقطعة نقد إغريقية، كشفت عنها الأمطار الأخيرة. ترى ماكان عليه الغرب، لو نجحت محاولة التوحيد بين العالم المتوسطي، والهند، بصفة دائمة؟ وهل كان بالإمكان وجود المسيحية والإسلام؟ لقد كان وجود الإسلام يحيرني، على وجه الخصوص، ليس لأنني أمضيت الأشهر الماضية في بيئة إسلامية: بل لأنني، وأنا هنا في مواجهة الصروح العظيمة للفن الإغريقي-البوذي ظلت تلوح أمام ناظري ذكرى القصور المنغولية، التي خصّصتُ لها الأسابيع الأخيرة في دلهي وأغرا ولاهور. وبما أنني قليل الإطلاع على تاريخ وآداب الشرق، فقد كانت المنشآت تفرض نفسها علي (كما جرى معي لدى هذه الأقوام البدائية، التي وصلت إليها دون معرفة بلغتها) غير عارضة علي إلا ملامحها البارزة التي استرعت انتباهي وتفكيري.

بعد كلكتا التي تعج بالبؤس، وضواحيها القذرة التي تبدو نقلاً على الصعيد الإنساني لتعفن المداريات الطاغي، كنت أتطلع إلى أن أجد في دلهي سكينة التاريخ. وكنت أرى نفسي، سلفاً، مقيماً كما في كاركاسون أو سومور، في فندق عتيق ملاصق للأسوار أحلم في ضوء القمر. وحينما سُئلت أن اختار بين المدينة الجديدة والقديمة، لم أتردد وانتقيت بالمصادفة فندقاً في الثانية. وكم كانت دهشتي، عندما قادتني سيارة أجرة في جولة من ثلاثين كيلومتراً عبر منظر قبيح، تساءلت عما إذا كان ميداناً

لمعركة قديمة، حيث كانت تظهر من خلال النباتات، بين الفينة والفينة، خرائب أو ورشات بناء مهجورة. وعندما وصلنا أخيراً، إلى المدينة القديمة المزعومة، ازدادت خيبة الأمل: إذ كان الوضع مثله في كل مكان، معسكراً إنجليزياً. وقد علمتني الأيام التالية، أنني عوضاً عن أن أجد فيها الماضي مركزاً في مساحة صغيرة، على طريقة المدن الأوروبية، تبدت لي دلهي فلاة مفتوحة للرياح، حيث كانت الآثار متناثرة، شبيهة بأحجار النرد على البساط. لأن كل سلطان أراد أن يبني مدينته الخاصة، هاجراً القديمة ومهدمها لاستعمال موادها. ولم يكن بالتالي هناك دلهي واحدة بل اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة دلهي، تنأى الواحدة عن الأخرى بعشرة كيلو مترات، خلال سهل تنتشر فيه، هنا وهناك، رُجُمٌ وأنصاب وقبور. وأراد كل ملك أن يخلق الآبد بإلغاء الديمومة.

وانهمكتُ إذاً، كأي سائح حصيف، في قطع مسافات كبيرة لزيارة آثار، يبدو كل منها وكأنه بني في الصحراء.

كانت القلعة الحمراء قصراً، يجمع بقايا من عصر النهضة (كالفسيفساء من البييترادورا) مع شيء من طراز لويس الخامس عشر؛ يقتنع المرء هنا بأنه ناجم عن التأثير المنغولي. وعلى الرغم من البذخ في المواد، والفخامة في التزيين، إلا أنه لم يرض حسي الجمالي. إذ لا يمت شيء من كل هذا بصلة إلى فن العمارة: بل هو تجميع لخيام أقيمت من مواد صلبة، في حديقة تشبه مخيماً مثالياً؛ وتبدو الإبداعات كلها مستمدة من الفنون النسيجية كمظلات السرر التي تذكر بثنايا ستار، و«الجالي» التي ليست سوى «تخريمات من الحجر». وما قبة العرش الإمبراطوري المرمرية إلا نسخة من قبة خشبية يمكن تفكيكها، مكسوة بالقماش، وليس انسجامها مع قاعة الاستقبال بأفضل من انسجام الأصل معها. وحتى قبر هامايون، على قدمه، يبعث في الزائر شعوراً بالضيق الناجم عن نقص عنصر أساسي؛ فالمجموع ذو كتلة جميلة، وأجزاؤه بديعة، غير أن من المستحيل إدراك صلة عضوية بين الأجزاء والكل.

لكن الجامع الكبير الذي يرجع إلى القرن السابع عشر، يُسر الناظر

الغربي أكثر، من ناحيتي البنية واللون. إذ يشعر تقريباً بأنه صمِّم وأريد كلاً.

ينبغي للغوص في هذه الحضارة الذهاب إلى «أغرا». وذلك لأنه يمكن قول الكثير عن تاج محل، وأبهته السهلة، على طريقة البطاقات البريدية الملونة. ويمكن التهكم على قوافل العرسان البريطانيين الذين مُنحوا امتياز قضاء شهر العسل في المعبد الأيمن الوردي، وعلى العوانس الأنكلو -ساكسونيات أيضاً، اللواتي سيحتفظن حتى الموت بذكرى تاج محل، وهو يتلألأ تحت النجوم، عاكساً ظله الأبيض في نهر الجومنا. إنه عصر الهند في ١٩٠٠؛ لكننا بتأملنا له، نجده مرتكزاً على مؤالفات عميقة، أكثر مما يرتكز على المصادفات التاريخية والاستعمار. لاشك أن الهند اكتسبت طابعاً أوروبياً في نحو ١٩٠٠، واحتفظت بآثاره في مفرداتها، وعاداتها الفيكتورية. لكنهم هنا يفهمون، على العكس، أن سنوات ١٩٠٠ كانت «الفترة الهندية» للغرب: من فخامة للمترفين، وعدم اكتراث بالبؤس، والميل إلى الأشكال المتراخية في التزويق، والشهوانية، وحب الأزهار والطيوب، وحتى الشوارب المفتولة، والأقراط والحلي الرخيصة.

لدى زيارتي في كلكتا معبد جايين الشهير، الذي بناه ملياردير في القرن التاسع عشر، وسط حديقة مملوءة بتماثيل من حديد الصب الملطخة بالفضة، أو من مرمر، نحتها إيطاليون تنقصهم المهارة، حسبتني أرى في هذا الجناح من المرمر المرصع بفسيفساءٍ من المرايا، والمضمخ بالعطور، الصورة الأكثر كمالاً لما كان أجدادنا يتخيلون بها، في ميعة صباهم، بيوت الدعارة الفخمة. لكنني، بينما تخطر هذه الفكرة ببالي، لم أكن ألوم الهند على بنائها معابد مشابهة للمحلات العمومية؛ بل ألومنا نحن الذين لم نجد في حضارتنا مكاناً آخر نثبت فيه حريتنا، ونستكشف فيه حدود شهوتنا، وتلك هي بالذات وظيفة المعبد. كنت أتأمل في هؤلاء الهندوسيين، صورتنا الغريبة، وقد رُدت إلينا عن طريق هؤلاء الأخوة الهندو- أوروبيين، الذين تطوروا في مناخ آخر، باتصالهم بحضارات مختلفة؛ إلا أن مغرياتهم الحميمية بقيت متطابقة مع مغرياتنا، إلى حد

أنها في بعض الفترات، كما في عصر ١٩٠٠، تطفو على السطح لدينا أيضاً.

لاشيء مشابه في أغرا، حيث تسود أطياف أخرى: طيف فارس في العصور الوسطى، وطيف الجزيرة العربية العلمي، تحت شكل يراه الكثيرون تقليدياً. ومع ذلك، أتحدى أي زائر حافظ على شيء من نقاء الروح، بأن لايشعر بالاضطراب، وهو يجتاز، بينما يدخل تاج محل، المسافات والعصور، مفضياً مباشرة إلى عالم ألف ليلة وليلة؛ بلطافة أقل ولاشك، من إفضائه إلى اعتماد الدولة، اللؤلؤة، الجوهرة، الكنز بالأبيض والبيج والأصفر؛ أو إلى مقبرة «أكبر» الوردية، المعمورة فقط بالقرود والببغاوات والغزلان، في نهاية ريف رملي، تذوب فيه خضرة الميموزا الشاحبة مع ألوان التربة: منظر تحييه في المساء الببغاوات الخضراء، وطيور زرياب بلونها الفيروزي، مع طيران الطواويس المتثاقل، وصيحات القرود القابعة تحت الأشجار.

إلا أن تاج محل، كقصر القلعة الحمراء، ومدفن جيهانجير في لاهور، يظل كصقالة مدثَّرة بالنسيج، يحاكي المرمر؛ ومازالت الصواري المخصصة لحمل السجف ظاهرة. حتى إن هذه السجف نُسخت في لاهور من الفسيفساء. والطبقات لا تتآلف بل تتكرر.

عبادة الأوثان - بمعناها الدقيق الذي يدل على الوجود الشخصي للإله في صنمه- توجد في الهند، حية دائماً. سواء في هذه الأبنية الإسمنتية التي تنتصب في الضواحي البعيدة لكلكتا، المخصصة للعبادات الحديثة التي يستقبلك كهنتها، برؤوسهم الحليقة، وأقدامهم الحافية، متلفعين بطرحة صفراء، وراء آلاتهم الكاتبة في المكاتب العصرية جداً، التي تحيط بالمعبد، وهم منهمكون بتدبير أرباح آخر جولة تبشيرية في كاليفورنيا، أم في الأحياء الفقيرة بكالي غات: «معبد من القرن السابع عشر» يشرح لي الكاهن -الدليل الشبيه برجل الأعمال، لكنه كسي بالقاشاني عند نهاية القرن التاسع عشر. إلا أن المزار مغلق الساعة، وإذا عدتُ صباحاً، سأستطيع من موضع محدد يطلعونني عليه، رؤية

الإلهة من خلال الباب الموارب، بين عمودين. فهنا، كما في معبد كريشنا الكبير على ضفاف الغانج، يُمثِّل المعبد مقراً لإله، لا يستقبل إلا في أيام الأعياد؛ والعبادة المعتادة تتمثل في الإقامة بالممرات انتظاراً لما يتناقله الخدام عن أحوال مولاهم. وهكذا كنت أكتفي بالتجوال في الأزقة المحيطة التي تعج بمتسولين ينتظرون القوت على نفقة المتعبدين، كمبرر لتجارة جشعة -صور ملونة ومنحوتات من الجبس تمثل آلهة - فهذا تمثال لشيفا، وهذا المذبح المحمر لاكشمي، وهذه الشجرة التي عُلّق على أغصانها ما لا يحصى من القرابين، من حصى وقطع من القماش، مسكونة بماما كريشنا التي تُشفي النساء من العقم؛ وتحت هذا المذبح المزين بالورود، يسهر إله الحب كريشنا.

هناك تعارضٌ مدهشٌ بين فخامة الأضرحة، وأبعادها الواسعة، وبين التصميم الضيق للقبور التي تؤويها. فهي قبور صغيرة، لابد أن يكون الميت فيها بضيق. وما فائدة هذه القاعات، وهذه الأروقة التي تحيط بها إذاً، ولا يتمتع بها إلا المارة؟ إن القبر الأوروبي على قدر ساكنه: ذلك لأن الأضرحة نادرة، وعلى القبر يتبدى الفن والمهارة، لجعله فخماً ومريحاً للراقد فيه.

زيارة إلى الكيونغ

40 يشق علي تذكر المعابد الريفية على الحدود البورمية، منفصلة عن نصب بهارهوت التي ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد، والتي ينبغي البحث عن حطام منها في كلكتا ودلهي. فالنصب التي أنشئت في عصر ومنطقة، لم يكن بلغهما النفوذ الإغريقي بعد، أثارت في نفسي أول باعث على الانبهار؛ لأنها تبدو للمشاهد الأوروبي خارج المكان والزمان، كأن نحاتيها، وبحوزتهم آلات لإلغاء الزمان، كانوا كثفوا في أعمالهم ثلاثة آلاف عام من تاريخ الفن و-بوجودهم على مسافة متساوية من مصر وعصر النهضة- كانوا توصلوا في تلك اللحظة إلى الإمساك بتطور عصر لم يعرفوه، يكتمل في نهاية عصر آخر لم يبدأ بعد. وإذا كان ثمة فن أبدي، فهو هذا: ذلك لأنه يرجع إلى خمسة آلاف عام، ولا يعرف إن كان من الأمس. فهو ينتسب إلى الأهرام، وإلى بيوتنا؛ والهيئات الإنسانية المنحوتة في هذا الحجر الوردي، يمكن لها أن تنفك عنه وتختلط بمجتمعنا. وما من نحت يبعث في النفس شعوراً عميقاً بالسلام والإلفة أكثر من هذا، مع نسائه المتبرجات بعفة، وشهوانيته الأمومية التي تجد متعتها في المقابلة بين الأمهات العاشقات وبين الفتيات الحبيسات، اللائي يتعارضن جميعاً مع العشيقات الحبيسات للهند غير البوذية: أنوثة وديعة، كأنها أُعتقت من صراع الجنسين، الذي يذكّر به أيضاً، كهنة المعابد الذين يلتبسون برؤوسهم الحليقة بالراهبات، في شبه جنس ثالث، نصفه طفيلي ونصفه هجين.

يبرز هذا المثال تطلع العالم الاثنوغرافي إلى الرجوع دائماً للمنابع. ذلك لأن الإنسان لايبدع إبداعات عظيمة إلا في البداية؛ والمساعي الأولى فقط سليمة بأكملها في أي ميدان كان. أما التي تتلوها فتتعثر

وتتراجع، منشغلة باستعادة الممارسة القديمة. فلورنسا التي زرتها بعد نيويورك، لم تدهشني للوهلة الأولى: فقد رأيت في عمارتها وفنونها التشكيلية، شارع الأعمال في القرن الخامس عشر. وبموازنة البدائيين بعظماء عصر النهضة، ورسامي سيين[*] برسامي فلورنسا، داخلني شعور بالانحطاط: فماذا فعل الآخرون، سوى فعل ما كان لا ينبغي أن يفعل؟ ومع ذلك يظلون محط إعجاب. إن العظمة التي تصاحب البدايات ثابتة إلى درجة أن الأخطاء، بشرط أن تكون جديدة، تطغى علينا بجمالها.

(*) مدينة إيطالية تقع في توسكانيا، تحتوي على الكثير من الآثار الفنية والمعمارية. (المترجم)

فليرجع الغرب إلى منابع تمزقه: إن الإسلام بوقوفه بين البوذية والمسيحية، قد أسلَمَنا عندما ترك الغرب نفسه ينجر بالحروب الصليبية إلى مناوأته، وبالتالي التشبه به؛ عوضاً عن التلاؤم مع هذا التداخل البطيء مع البوذية، الذي كان من الممكن له أن يجعلنا أكثر مسيحية، وفي اتجاه أكثر مسيحية بقدر رجوعنا إلى ما قبل المسيحية ذاتها. إذ عندئذ أضاع الغرب فرصته في أن يبقى امرأة.

في ضوء هذا، أفهم بشكل أفضل التباس الفن المغولي. فلا صلة للانفعال الذي يثيره في النفس بفن العمارة: بل ينتمي للشعر و الموسيقا. ولكن أليست الأسباب التي ذكرناها، هي التي اقتضت أن يبقى هذا الفن، في رؤى خارقة للطبيعة؟ فقد قيل عن تاج محل «حلم من المرمر»؛ وعبارة بيديكر هذه، تفصح عن حقيقة عميقة جداً. فالمنغول حلموا بفنهم، وأبدعوا قصور أحلام بالمعنى الحرفي للكلمة؛ وهم لم يبنوا، بل جسدوا أحلامهم. وهكذا، يمكن لهذه الصروح أن تثير الاضطراب بشاعريتها وبالخواء فيها، الذي هو خواء قصور الورق المقوى أو القواقع. فعوضاً عن كونها قصوراً راسخة في الأرض، هي نماذج مصغرة، تسعى عبثاً لبلوغ الوجود، بندرة وصلابة موادها.

الصنم في معابد الهند هو الإله؛ وهنا يقيم، وحضوره الملموس يجعل المعبد ثميناً ومخيفاً، كما يبرر الاحتياطات التقية: من مثل إقفال الأبواب

إلا في الأيام المخصصة لاستقبال الإله.

وتتفاعل البوذية مع هذا الوضع بشكل مختلف. فهي تستبدل بالأصنام الصور، ولا تجد حرجاً في الإكثار منها، باعتبار أن لا واحدة منها الإله، لكنها تذكّر به، وأن كثرة الصور تستثير الخيال. وهكذا بجوار المعبد الهندوسي الذي يضم في جنباته صنماً، يؤوي المعبد البوذي الكثير من التصاوير. أما المراكز الإغريقية - البوذية، حيث يسير المرء بصعوبة بين التماثيل والمصليات والباغودات، فتنبئ بالكيونغ المتواضع على الحدود البورمية، حيث تصطف تماثيل صغيرة متماثلة على نسق واحد.

كنت بقرية في نواحي شيتاغونغ شهر أيلول ١٩٥٠؛ وكنت أشهد منذ عدة أيام النساء يحملن كل صباح إلى المعبد طعام الرهبان؛ وأسمع أثناء ساعات القيلولة الضرب على الصنج، الذي تتم الصلوات على إيقاعه، وأصوات الأطفال وهم يترنمون بالأبجدية البورمية. كان الكيونغ واقعاً في أطراف القرية، على قمة تلة صغيرة مشجرة، شبيهة بالتلال التي يحب الرسامون التيبيتيون تصويرها على البعد. وفي أسفله الجدي، أي الباغودة: الذي يقتصر في هذه القرية الفقيرة على بناء دائري من الطين، يرتفع بشكل سبعة مدرجات، في تحويطة مربعة من الخيزران المشبك. خلعنا نعالنا لتسلق التلة التي كان صلصالها الناعم المبتل رفيقاً بأقدامنا الحافية. وكنا نرى على جانبي المنحدر الصغير نباتات الأناناس التي اقتلعها القرويون بالأمس، وقد صدمهم أن يسمح الرهبان لأنفسهم بزراعة الفاكهة، مادام السكان يتكفلون بحاجاتهم. كانت القمة كساحة صغيرة محاطة من ثلاثة جوانب بعنابر من القش تؤوي أشياء كبيرة من الخيزران ربطت بها أوراق ملونة كالطائرات الورقية، مخصصة لزينة الاحتفالات الدينية. وعلى الجانب الرابع يرتفع المعبد على ركائز، كأكواخ القرية التي لا يكاد يختلف عنها إلا بأبعاده الأكبر، والمبنى المربع المسقوف بالقش الذي يشرف على البناية الرئيسية. وبعد الصعود في الوحل، كان الاغتسال الطقوسي يبدو طبيعياً جداً، ومجرداً من الدلالة الدينية. دخلنا، وكان الضوء الوحيد هو المنبعث من القنديل الموجود فوق المذبح، حيث

علقت رايات وقطع من القماش أو حُصُر، بالإضافة إلى الضوء المتسلل من خلال قش الجدران. وكان خمسون تمثالاً صغيراً من النحاس الأصفر المصبوب، مصفوفة على المذبح، وقد علق بجانبها صنج، وعلى الجدران صور دينية ملونة، مع صورة سيئة الرسم لوعل.وكانت الأرضية، التي صنعت من خيزران غليظ مشقوق ومجدول، وتلمع من أثر احتكاك الأقدام الحافية بها، أكثر ليونة تحت أقدامنا من سجادة. ويسود جو من السكينة، والهواء يعبق برائحة التبن. وقد أسهمت هذه القاعة البسيطة الواسعة، التي كانت تبدو كعرمة تبن مفرغة، وحفاوة الراهبين الواقفين بجوار فراشيهما الموضوعين على أخشاب، والعناية المؤثرة التي تم فيها الاجتماع أو عمل مستلزمات العبادة، في تقريبي أكثر مما كنت من الفكرة التي كانت لدي عن المعبد. «لست بحاجة إلى أن تعمل مثلي» قال لي مرافقي، وهو يسجد أربع مرات أمام المذبح، واحترمت رأيه. لكن ذلك لم يكن بسبب من عزة النفس، بقدر ما كان ناتجاً عن تحفظ: إذ كان يعلم بأنني لا أدين بدينه، وخشيت القيام بالحركات الطقوسية، حتى لا يظن أنني أرى فيها تقاليد متبعة، وإلا فعلتها دون حرج. وهكذا لم يتدخل أي سوء تفاهم بين هذه العبادة وبيني. ذلك لأن الأمر لا يتعلق هنا بالانحناء أمام أصنام، أو عبادة نظام فوق طبيعي، بل هو مجرد إجلال لتأملات تابعها مفكر، أو المجتمع الذي خلق أسطورته منذ خمسة وعشرين قرناً، ولم يكن باستطاعة حضارتي الإسهام فيها إلا بتأكيدها.

ماذا تعلمت في الواقع من الأساتذة الذين أصغيت إليهم، والفلاسفة الذين قرأت لهم، و المجتمعات التي زرتها، وحتى من هذا العلم الذي يستمد الغرب منه كبرياءه، غير نتف من دروس؛ إذا جُمعت تؤلف من جديد تأملات بوذا تحت الشجرة؟ فكل جهد للفهم يُتلف الشيء الذي تعلّقنا به، لفائدة جهد يلغيه لمصلحة شيء ثالث، وهكذا دواليك، حتى نبلغ الوجود الوحيد الدائم، الذي يتلاشى فيه التمايز بين المعنى وانعدام المعنى: أي الوجود نفسه الذي انطلقنا منه. وها هي ألفان وخمسمائة سنة مضت، منذ أن اكتشف بنو الإنسان، وصاغوا هذه الحقائق. ولم

نجد منذئذ شيئاً، اللهم - بتجربة أبواب الخروج واحداً بعد الآخر - إلا العديد من البراهين الإضافية على النتيجة التي كنا نود الإفلات منها.

إنني أدرك أيضاً بلا شك مخاطر تسليم جد متسرع. فدين اللامعرفة العظيم هذا، لا يتأسس على عجزنا عن الفهم. بل يشهد على مقدرتنا، ويرفعنا إلى النقطة التي نكتشف فيها الحقيقة على شكل استبعاد متبادل بين الموجود والمعرفة. وبجرأة إضافية، أرجع - وحده مع الماركسية - المشكلة الميتافيزيقية إلى مسألة السلوك الإنساني. وإعلان انشقاقه تمّ على الصعيد الاجتماعي؛ إذ إن الخلاف الأساسي بين الفرقة الصغرى والفرقة الكبرى يكمن في معرفة ما إذا كان خلاص الفرد يعتمد أولاً على خلاص البشرية كافة.

ومع ذلك فإن الحلول التاريخية للأخلاق البوذية، تواجه المرء بخيار يُجمّد الدم في العروق: فمن يرد بالإيجاب على السؤال الآنف الذكر، ينزوي في دير؛ بينما يرضى الآخر بتكلفة قليلة، أن يمارس فضيلة أنانية.

لكن الظلم والبؤس والألم موجودة، وهي تقدم حداً أوسط لهذا الاختيار. إذ لسنا وحيدين، ولسنا أحراراً في البقاء صماً وعمياً إزاء بني الإنسان، أو في الإنصات إلى الإنسانية في أنفسنا حصراً. فبوسع البوذية أن تظل متماسكة مع قبولها الاستجابة للنداءات الآتية من الخارج. وربما وجدت حتى، في منطقة شاسعة من العالم، الحلقة المفقودة من السلسلة. ذلك لأنه، إذا كانت هذه اللحظة الأخيرة من الجدل، التي تقود إلى الإشراق، مشروعة، فإن كل اللحظات التي تسبقها وتشابهها مشروعة أيضاً. والرفض المطلق للمعنى هو نهاية سلسلة من المراحل، يفضي كل منها من معنى أقل إلى معنى أكبر. والخطوة الأخيرة، التي هي بحاجة إلى الخطوات السابقة لتتم، تصادق على صحتها في المقابل؛ لأن كل خطوة، بطريقتها ومستواها، تتصل بحقيقة ما. ولا وجود لتعارض أو تناقض بين النقد الماركسي، الذي يعتق الإنسان من قيوده الأولى -عندما يعلمه أن المعنى

الظاهر لظروف معيشته يتلاشى ما إن يقبل بتوسيع الوضع الذي ينظره- وبين النقد البوذي الذي يتمم التحرير: فكل واحدة منهما تقوم بما تقوم به الأخرى، على صعيد مختلف. وتضمن الانتقال بين المتطرفَيْن، وجوه التقدم في المعرفة التي سمحت بها حركة فكرية، تتجه من الشرق إلى الغرب، وانتقلت من الأول إلى الثاني - ربما لتأكيد أصلها فقط - للإنسانية، في مدى ألفي عام. وكما تتحل المعتقدات والخرافات عندما نتصدى للعلاقات الواقعية بين بني الإنسان، فإن الأخلاق تذعن للتاريخ، وتترك الأشكال المائعة مكانها للبنى، كما يترك الإبداع مكانه للعدم. وحسبنا طي المسعى البدئي على نفسه، حتى نكتشف توازيه؛ فأجزاؤه متطابقة: لأن المراحل المتخطاة، لا تهدم قيمة المراحل التي تهيء لها، بل تتحقق منها.

والإنسان بتنقله ضمن إطاره، يحمل معه كل الأوضاع التي شغلها، وسيشغلها. فهو في كل مكان معاً، هو جمهور يسير قدماً، مجملاً في كل لحظة جميع المراحل السابقة. لأننا نعيش في عوالم عدة، كل منها أكثر حقيقة مما يتضمنه، هو نفسه باطل بالنسبة للعالم الذي يحتويه. بعضها يعرف بالعمل، ويعاش بعضها الآخر بتذهنه؛ لكن التناقض الظاهري الذي يرجع إلى تواجدها معاً، ينحل بالقسر الذي نعانيه لإعطاء معنى للعوالم الأقرب، ومنعه عن الأبعد؛ في حين أن الحقيقة تكمن في تمدد تدريجي للمعنى، ولكن في نظام عكسي، يصل به إلى الانفجار.

وأتوقف، من حيث كوني إثنوغرافياً، عندئذ عن التألم وحيداً، من تناقض هو تناقض الإنسانية برمتها، ويحمل في ذاته علته. إذ يبقى التناقض فقط عندما أعزل المتطرفَيْن: فما الفائدة من العمل، إذا كان الفكر الذي يوجه العمل، يؤدي إلى اكتشاف انعدام المعنى؟ لكن هذا الاكتشاف لايدرك في الحال: لأن علي تذهنه، ولا أستطيع تذهنه دفعة واحدة؛ فأن تكون المراحل اثنتي عشرة، كما في البوذية، أو تكون أكثر أو أقل، هي موجودة جميعاً معاً؛ وحتى أبلغ النهاية، علي أن أعيش أبداً

أوضاعاً، يتطلب كل منها شيئاً مني: اذ علي واجبات نحو الناس، كواجباتي إزاء المعرفة. إن التاريخ والسياسة والعالَم الاقتصادي والاجتماعي، والعالم الفيزيائي، والسماء حتى، تحيطني بدوائر متحدة المركز، لا أستطيع الفكاك منها بالفكر، دون أن أتخلى لكل منها عن قطعة من شخصي. وكالحجر الذي يصنع حلقات على سطح الماء وهو يجتازه، علي قبل بلوغ القاع أن ألقي بنفسي في الماء أولاً.

لقد بدأ الكون من دون الإنسان، وسينتهي بدونه. وما المؤسسات والعادات والأعراف التي أمضيت حياتي في جمعها وفهمها، إلا إزهار عابر لخلق، ليس لها بالنسبة إليه أي معنى، فيما عدا السماح للإنسانية ربما، بلعب دروها فيه. وعلى عكس ما يظن من أن هذا الدور يمنحها مكاناً مستقلاً، وأن جهد الإنسان - حتى المدان منه - هو معارضته عبثاً لانحطاط شامل، فإن الإنسان نفسه يبدو كآلة، أكثر كمالاً من غيرها ربما، يعمل على تفتيت نظام أصلي، مؤدياً بمادة شديدة التنظيم إلى خمول أكثر فأكثر، حتى تغدو خاملة نهائياً في يوم من الأيام. إذ منذ أن بدأ الإنسان بالتنفس والتغذية، وحتى اختراعه الأسلحة الذرية و الهيدروجينية، مروراً باكتشاف النار، لم يفعل شيئاً سوى تفكيك لمليارات من البنى، لتحويلها إلى حالة لايمكن لها فيها الاندماج. لاشك أنه أنشأ مدناً وزرع حقولاً، لكننا عندما نتأملها، نكتشف أن هذه الأشياء ذاتها آلات مخصصة لإنتاج الخمول بوتيرة ونسب أشد ارتفاعاً بما لا يقاس من كمية التنظيم التي تتضمنها. أما إبداعات الفكر البشري، فلا معنى لها إلا بالنسبة إليه، وستختلط بالفوضى ما إن يندثر. إلى درجة أن الحضارة، منظوراً إليها في مجملها، يمكن وصفها بأنها آلية شديدة التعقيد، نود أن نرى فيها فرصة عالمنا في النجاة، لو لم تكن وظيفتها إنتاج ما يسميه الفيزيائيون انحطاط الطاقة، أي الخمول. فكل عبارة متبادلة، وكل سطر مطبوع، يقيم اتصالاً بين المتخاطبين، محولاً إلى الركود مستوى كان يتميز سابقاً بفارق في المعلومات، وإذاً بتنظيم أكبر.

ومن هنا علينا عوضاً عن الانتروبولوجيا (ANTROPOLOGIE) كتابة إنتروبولوجيا «ENTROPOLOGIE» وهي العلم المخصص لدراسة سلسلة عمليات التفكك في أجلى مظاهرها.

ومع ذلك، فأنا موجود. ليس كفرد بالتأكيد؛ فلست من هذا الوجه، إلا رهاناً يتجدد كل لحظة، لصراع بين مجتمع آخر يتألف من بضعة مليارات من الخلايا العصبية في دماغي، وبين جسمي الذي يطيعه كآلة. ليس بوسعي أن ألوذ بعلم النفس، ولا بالميتافيزيقا، ولا بالفن، كأوهام ممكنة من الآن وصاعداً لعلم اجتماع ذي نمط جديد سيولد يوماً، ولن يكون أكثر تسامحاً معها من الآخر. ليس الأنا كريهاً وحسب: بل لامكان له بين نحن واللاشيء. وإذا كنت اخترت نحن في نهاية الأمر، مع أنه ليس إلا مظهراً، فذلك لأنه لا اختيار ممكن لي، بين هذا المظهر واللاشيء، اللهم إلا تحطيم نفسي - وهو فعل يلغي شروط الاختيار - والحال أنني بمجرد اختياري ذاك، أضطلع دون تحفظ بمهمتي كإنسان: وبتحرري عندئذ من غرور فكري، أقيس بطلانه ببطلان موضوعه؛ أقبل أيضاً إخضاع متطلباته لمقتضيات الانعتاق الموضوعية للكثير من الناس، الذين مُنعت عنهم وسائل مثل هذا الانعتاق.

وبما أن الفرد ليس وحيداً في الجماعة، وأن كل مجتمع ليس وحيداً بين غيره من المجتمعات، فالإنسان ليس وحيداً في الكون، وعندما يكون قوس قزح الثقافات الإنسانية انتهى إلى التلاشي في الفراغ الذي عمقه جنوننا، طالما بقينا وبقي عالم - هذه السفينة المنظمة التي تصلنا بما لايمكن النفاذ إليه ستبقى مرشدة إلى السبيل المعاكس لسبيل عبوديتنا، الذي يكتسب الإنسان بتأمله، في حال عدم قدرته على قطعه، الخطوة الوحيدة التي يعرف كيف يستحقها، وهي: تعليق المسير، وكبح الدافع الذي يُلزمه بسد الشقوق المفتوحة في جدار الضرورة واحداً بعد الآخر، وإتمام عمله في الوقت الذي يغلق سجنه؛ هذه الحظوة التي يتطلع إليها كل مجتمع، مهما تكن معتقداته، ونظامه السياسي ومستواه الحضاري؛

حيث يضع وقت فراغه ومتعته وراحته وحريته؛ إنها فرصة سانحة، حيوية للحياة والانطلاق، تقوم - وداعاً للمتوحشين! وداعاً للرحلات - أثناء الفترة الوجيزة التي يحتمل نوعنا الإنساني قطع عمله فيها، على الإمساك بجوهر ما كانه، ويستمر في كونه، فيما قبل الفكر ووراء المجتمع: في تأمل بلورات معدن أجمل من كل أعمالنا الفنية؛ وفي الأريج الأكثر علماً من كتبنا الذي ينبعث من جوف زنبقة، وفي غمزة العين المثقلة بالصبر والسكينة والتسامح، التي يسمح تفاهم لا إرادي بتبادلها أحياناً، مع قطة.

الفهرس

القسم الرابع:

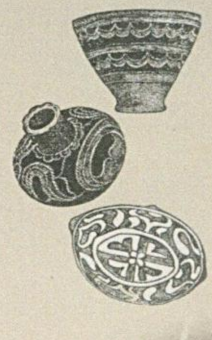
القسم الخامس:

القسم السادس:

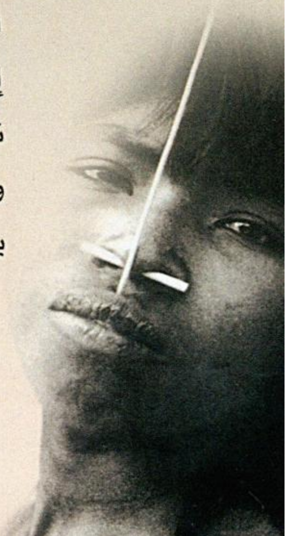
القسم السابع:

كلود ليفي شتراوس نموذج من العلماء شبه فريد. رائد من روّاد البنيوية، دون أن يُختَزَل إلى ذلك، وأنثروبولوجي أعاد تأسيس علمه على قواعد جديدة، وفيلسوف لامع دون أن يدّعي ذلك، ومرجع في حقول معرفية متعددة، تتضمن الأدب والموسيقا وعلم النفس وعلم اللغة.. عقلاني وإنساني كبير، قلق يفسّر ويرفض ويجد الأسئلة منتهياً إلى «القلق الفاعل»، أو ما يمكن أن يدعى بذلك.

في كتابه هذا: «مداريات حزينة» يعطي شتراوس درساً نموذجياً في معنى العلم وأخلاقية المعرفة، حيث الاكتشاف العلمي يتأمل زمنه، ويوقظ في العالِم حلم التعرّف على الأزمنة السحيقة. ولهذا، فإن شتراوس يرى في «المجتمع البدائي» موضوعاً رحباً للمعرفة، يطرح عليه أسئلة ويستولد منه أسئلته الخاصة به، متكئاً على مبدأ الاعتراف المتبادل، الذي يحرّض الإنسان على التعلّم من غيره وتعليمه في آن. ولعلّ هذا المبدأ هو الذي يجعل شتراوس، في كتابه هذا وغيره، يؤمن بالتعددية الثقافية الإنسانية، ويرى في المتعدد الثقافي مبتدأ للإبداع والابتكار. وهو لا يفعل ذلك إلا بسبب إيمانه العميق بنسبية المعرفة، التي ترفض التعصب والإيمانية المغلقة، وتؤكد الحضارة الإنسانية أثراً لجهد جماعي إنساني، يتناتج منذ زمن سحيق.



في «مداريات حزينة» يحاور عالم الأنثروبولوجيا ثقافةً مغايرةً، ويحاور حدود المعرفة، التي توقظ في الإنسان أكواناً غير مرئية، وتضع الإنسان المحدود في مواجهة أكوان لا تنتهي. ومع أن الكتاب يشير عادة إلى الرحلة العلمية ورومانسية المغامرة، فإنه، وكما يشهد الكثيرون، نص مدهش ينطوي على معرفة متعددة الأبعاد، ترضي عالم النفس واللغوي والأنثروبولوجي والشاعر، وترضي أولاً القارئ المتأمل الذي يرى في الأجزاء الصغيرة عوالم غامضة لا تخوم لها.



دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح